الجامع لأحكام القرآن

والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان

تأليف

أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي

(ت ٦٧١ هـ)

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

شارك في تحقيق هذا الجزء

كامل محمد الخراط — محمد معتز كريم الدين

الجزء العشرون

مؤسسة الرسالة

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م



مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع
وطى المصيطبة - شارع حبيب أبي شهلا - بناية المسكن، بيروت - لبنان
تلفاكس: ٣١٩٠٣٩-٨١٥١١٢ فاكس: ٨١٨٦١٥ ص.ب: ١١٧٤٦٠

Al-Resalah
PUBLISHERS

BEIRUT/LEBANON-Telefax:815112-319039 Fax:818615-P.O.Box:117460
Email:Resalah@Cyberia.net.lb

سورة «والنَّجْم»

مكِّيّة، وهي إحدى وستون آية

مكِّيَّة كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية منها وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾(١) الآية [٣٢]. وقيل: اثنتان وستون آية(٢). وقيل: إنَّ السورة كلَّها مدنيَّةٌ. والصحيح أنَّها مكيَّة؛ لما روى ابن مسعود ﷺ أنَّه قال: هي أوَّل سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكَّة(٣). وفي «البخاري»(٤) عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ سجد بالنَّجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنس. وعن عبد الله أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ سورةَ النجم فسجد لها، فما بقي أحدٌ من القوم إلا سجد، فأخذ رجل من القوم كفًّا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال: يكفيني هذا. قال عبد الله: فلقد رأيته بَعْدُ قُتِل كافراً. متفق عليه(٥). الرجل يقال له: أميَّة بن خَلَف(٦). وفي «الصحيحين» عن زيد بن ثابت ﷺ أنَّه قرأ على النبيِّ ﷺ سورةَ «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوى» فلم يسجد. وقد مضى في آخر «الأعراف»(٧) القول في هذا، والحمد لله.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٨٩ .

(٢) الوسيط ٤/ ١٩٢ .

(٣) أخرجه عنه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٢١ ، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٦٢ ، وعزاه لمقاتل.

(٤) في صحيحه (١٠٧١).

(٥) البخاري (١٠٧٠)، ومسلم (٥٧٦)، وهو عند أحمد (٣٦٨٢).

(٦) كذا صرَّح به بعض رواة الحديث كما في البخاري (٤٨٦٣)، وقيل هو: الوليد بن المغيرة. وقيل هو: سعيد بن العاص بن أمية. فتح الباري ٨/ ٦١٥ .

(٧) ٩/ ٤٣٦ ، والحديث عند البخاري (١٠٧٢)، ومسلم (٥٧٧)، وأحمد (٢١٥٩١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: معنى «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى»: والثُّرَيَّا إذَا سقطت مع الفجر[١]. والعرب تسمي الثُّرَيَّا نجماً[٢] وإن كانت في العدد نجوماً، يقال: إنَّها سبعةُ أنجم، ستَّة منها ظاهرةٌ، وواحدٌ خَفِيٌّ يَمتحِن الناسُ به أبصارَهم[٣].

وفي «الشِّفا»[٤] للقاضي عياض: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يرى في الثُّريا أَحَدَ عشَر نجماً.
وعن مجاهد أيضاً أنَّ المعنى: والقرآنِ إذا نزل؛ لأنه كان يَنزِل نجوماً. وقاله الفراء[٥].

وعنه أيضاً: يعني نجومَ السماء كلّها حين تَغرُب[٦]. وهو قول الحسن[٧] قال: أَقسم اللهُ بالنجوم إذا غابت. وليس يمتنع أن يعبر عنها بلفظ واحد ومعناه جَمْع، كقول الراعي:

---

(١) أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٥ ، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣١٨ (١٨٦٩٣)، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٢٧ ، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٥٠ .

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٧ .

(٣) زاد المسير ٨/ ٦٢ .

(٤) ١/ ١٦٤ .

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٩٤ ، وأخرجه عن مجاهد الطبريُّ ٢٢/ ٦ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٤ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٨٩ .

فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَحِيرَةٍ سَرِيعٍ بِأَيْدي الآكِلِينَ جُمُودُهَا[١]

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أَحْسَنُ النَّجْمِ في السماءِ الثُّرَيَّا وَالثُّرَيَّا في الأرضِ زَيْنُ النِّساءِ[٢]

وقال الحسن أيضاً: المراد بالنجم النجوم إذا سقطَت يومَ القيامة. وقال السُّدِّيُّ: إنَّ النجم ههنا الزُّهرةُ؛ لأنَّ قوماً من العرب كانوا يعبدونها.

وقيل: المراد به النجوم التي تُرجَم بها الشياطين، وسببه أنَّ الله تعالى لما أرَاد بعثة محمَّد ﷺ رسولاً كَثُرَ انقضاض الكواكب قبل مولده، فذُعر أكثرُ العرب منها، وفزعوا إلى كاهن كان لهم ضريراً، كان يُخبِرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال: انظروا البروج الاثني عشَر، فإن انقضَّ منها شيءٌ فهو ذهاب الدنيا، فإن لم ينقضَّ منها شيء فسيحدث في الدنيا أمرٌ عظيم، فاستشعروا ذلك، فلما بُعِث رسولُ الله ﷺ كان هو الأمرَ العظيمَ الذي استشعروه، فأنزل اللهُ تعالى: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى» أي: ذلك النجم الذي هوى هو لهذه النبوَّة التي حدثت[٣]. وقيل: النجم هنا هو النبت الذي ليس له ساق[٤].

و«هَوَى» أي: سقط على الأرض[٥]. وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ﷺ: «وَالنَّجْمِ» يعني محمَّداً ﷺ، «إِذَا هَوَى» إذا نزل من السماء ليلةَ المعراج[٦]. وعن عروة

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٣٥، والبيت للراعي النميري عبيد بن حصين، وهو في ديوانه ص٩٢. قال الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٦٩ بعد أن أورد البيت: يصف قدراً كثيرة الدسم، ومعنى: تعدُّ النجم. أي: من صفاء دسمها ترى النجوم فيه، والمستحيرة: القدر، فقال: يجمد على الأيدي الدسم من كثرته.

(٢) لم نقف عليه في ديوانه، وهو في النكت والعيون ٥/ ٣٨٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٩-٣٩٠.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٤ وعزاه إلى الأخفش.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٧.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٤-٢٤٥.

ابنِ الزبير رضي الله عنهما أنَّ عُتَيْبَةَ[١] بنَ أبي لهبٍ وكان تحته بنتُ رسولِ الله ﷺ أراد الخروجَ إلى الشام فقال: لآتينَّ محمَّداً فلأُوذِينَّه، فأتاه فقال: يا محمَّد هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلَّى. ثم تَفَلَ في وجه رسول الله ﷺ، وردَّ عليه ابنتَه وطَلَّقها، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهمَّ سَلِّط عليه كلباً من كلابك» وكان أبو طالب حاضراً فوجَم لها وقال: ما كان أغناكَ يا بنَ أخي عن هذه الدعوة، فرجع عتيبةُ إلى أبيه فأخبره، ثم خرجوا إلى الشام، فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهبٌ من الدَّيْر فقال لهم: إنَّ هذه أرضٌ مُسْبِعةٌ. فقال أبو لهب لأصحابه: أَغيثونا يا معشرَ قريش هذه الليلة! فإنِّي أخاف على ابني من دعوة محمَّد. فجمعوا جِمالهم وأناخوها حولهم، وأحدقوا بعتيبة، فجاء الأَسَدُ يَتَشمَّم وجوهَهم حتى ضرب عُتيبةَ فقتله، وقال حسان:

مَنْ يَرْجِعِ العامَ إلى أَهْلِهِ ... فَمَا أَكِيلُ السَّبْعِ بالرَّاجِعِ[٢]

وأصل النَّجْم: الطلوع، يقال: نَجَم السنُّ، ونَجَم فلانٌ ببلاد كذا، أي: خرج على السلطان.

والهُوِيُّ: النزول والسقوط، يقال: هَوَى يَهْوِي هُوِيّاً، مثل مَضَى يَمْضِي مُضِيّاً[٣]، قال زهير:

---

(١) في النسخ: عتبة. وكذا في المواضع الآتية، والتصويب من تصحيفات المحدثين للعسكري ٢/ ٧٠٨، والروض الأُنف للسهيلي ٣/ ٦٨، وبعض مصادر التخريج.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٧-٢٨، والحديث أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٣٨١) عن محمد بن كعب القرظي، عن عثمان بن عروة بن الزبير، عن رجال من أهل بيته، والدولابي في الذرية الطاهرة (٧٤) عن محمد ابن كعب القرظي وعثمان بن عروة بن الزبير بنحوه، مع ذكر قصيدة مطولة لحسان وفيها البيت الآنف الذكر، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٩ من طريق أبي نوفل بن أبي عقرب، عن أبيه قال: كان لهب بن أبي لهب يسبُّ النبي ﷺ .. فذكره بنحوه مختصراً، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرجه أيضاً ابن قانع في معجم الصحابة ٣/ ٢٠٧، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٣٨٠)، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٣٨/ ٣٠٢ من طريق عروة بن الزبير، عن هبار بن أسود قال: كان أبو لهب وابنه عتبة بن أبي لهب تجهزا إلى الشام، فتجهزت معهما فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمد ولأوذينه... الخبر بنحوه دون ذكر البيت.

(٣) الصحاح (نجم) و (هوي) بنحوه.

فَشَجَّ بِهَا الأماعِزَ وَهْيَ تَهْوي هُوِيَّ الدَّلْوِ أسْلَمَها الرِّشَاءُ[١]

وقال آخر:

بَيْنَما نَحنُ بالبَلاكِثِ فالقَا عِ سِرَاعاً والعِيسُ تَهْوِي هُوِيَّا

خَطَرتْ خَطْرَةٌ على القَلْبِ مِن ذِكْـ رَاكِ وَهْناً فما استطعْتُ مُضيّاً[٢]

الأصمعي: هَوَى ـ بالفتح ـ يَهْوِي هَوِيّاً، أي: سقط إلى أسفل. قال: وكذلك انهوى في السير إذا مضى فيه، وهَوَى وانْهَوى فيه لغتان بمعنًى، وقد جمعهما الشاعر في قوله:

وكَمْ مَنْزِلٍ لولايَ طِحْتَ كما هَوَى بأجرامِهِ مَنْ قُلَّةِ النِّيقِ منْهَوِي[٣]

ويقال في الحُبِّ: هَوِيَ ـ بالكسر ـ يَهْوَى هَوًى، أي: أحبَّ.

قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ هذا جواب القَسَم، أي: ما ضلَّ محمَّد ﷺ عن الحقِّ وما حادَ عنه[٤]. ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ الغيُّ: ضدُّ الرشد، أي: ما صار غاوياً[٥]. وقيل: أي: ما تكلَّم بالباطل[٦]. وقيل: أي: ما خاب مما طلب، والغَيُّ: الخيبة، قال الشاعر:

فمن يَلْقَ خيراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ومَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائِمَا[٧]

---

(١) شرح ديوان زهير ص٦٧، وفيه: شجَّ: علا. بها: بالأُتُن، والأماعز: المكان الغليظ الكثير الحصى. فشبَّه هُوِيَّ الحبل إذا انقطع بهُوِيِّ الأُتُن.

(٢) القائل مجنون ليلى قيس بن الملوَّح، والبيتان في ديوانه ص٢٩١، والبلاكث والقاع: موضعان من المدينة. معجم البلدان ١/ ٤٧٨ و ٤/ ٢٩٨ ونسب البيتين فيه إلى كُثيِّر.

(٣) الصحاح (هوي) وما بعده منه، والبيت ليزيد بن الحكم، وهو في الكامل ٣/ ١٢٧٧، وعيون الأخبار ٣/ ٨٣، وقُلَّة كل شيء: أعلاه. والنِّيق: أرفع موضع في الجبل. لسان العرب (قلل) و (نوق).

(٤) الوسيط ٤/ ١٩٢-١٩٣.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٨.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٥.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٩٠، وما بعده منه، والبيت للمرقِّش، وسلف ١٣/ ٤٧٧.

أي: مَن خاب في طلبه لامه الناس.

ثم يجوز أن يكون هذا إخباراً عما بعد الوحي. ويجوز أن يكون إخباراً عن أحواله على التعميم، أي: كان أبداً موحِّداً لله. وهو الصحيح على ما بيَّنَّاه في «الشورى»[1] عند قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الآية: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾:

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ قال قتادة: وما ينطق بالقرآن عن هواه، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ إليه[2]. وقيل: «عَنِ الْهَوَى» أي: بالهوى، قاله أبو عبيدة[3] كقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥] أي: فاسأل عنه. النحَّاس[4]: قول قتادة أولى، وتكون «عن» على بابِها، أي: ما يخرج نُطْقه عن رأيه، إنَّما هو بوحْي من الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ بعده: «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى».

الثانية: قد يحتجُّ بهذه الآية من لا يجوِّز لرسول الله ﷺ الاجتهادَ في الحوادث[5]. وفيها أيضاً دلالة على أنَّ السُّنَّةَ كالوحي المنزل في العمل. وقد تقدَّم في مقدِّمة الكتاب[6] حديث المِقدام بن معدي كرب في ذلك، والحمد لله.

قال السجستانيُّ: إن شئتَ أبدلتَ «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى» مِن «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ». قال ابن الأنباري[7]: وهذا غَلَط؛ لأنَّ «إِنْ» الخفيفة لا تكون مبدلة من «ما»، الدليل على هذا أنَّك لا تقول: واللهِ ما قمتُ، إِنْ أنا لقاعد.

---

(١) ١٨/ ٥٠٩ - ٥١٠.
(٢) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٨.
(٣) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٣٦.
(٤) في معاني القرآن له ٤/ ٢٦٥ بنحوه.
(٥) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٣٩٣.
(٦) ١/ ٦٥.
(٧) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩١٠، وما قبله منه.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ يعني: جبريل عليه السلام، في قول سائر المفسرين[(١)] سوى الحسن، فإنَّه قال: هو الله عزَّ وجلَّ[(٢)]. ويكون قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ على قول الحسن تمام الكلام، ومعناه: ذو قوَّة، والقوَّة من صفات الله تعالى، وأصله من شدَّة فَتْل الحبل[(٣)]، كأنَّه استمرَّ به الفَتْل حتى بلغ إلى غاية يَصعُب معها الحَلُّ.

ثم قال: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ يعني: الله عزَّ وجلَّ، أي: استوى على العرش. روي معناه عن الحسن[(٤)]. وقال الربيع بن أنس والفرَّاء: ﴿فَٱسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: استوى جبريل ومحمَّد عليهما الصلاة والسلام[(٥)]. وهذا على العطف على المضمر المرفوع بـ « هو ». وأكثر العرب إذا أرادوا العطف في مثل هذا الموضع أَظهروا كنايةَ المعطوف عليه، فيقولون: استوى هو وفلان، وقلَّما يقولون: استوى وفلان[(٦)]. وأنشد الفرَّاء:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـنَّـبْـعَ يَـصـلُـبُ عُـودُهُ ... ولا يَسْتـوِي والـخِرْوَعُ المتقصِّفُ[(٧)]

أي: لا يستوي هو والخِرْوَع، ونظير هذا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾ [النمل: ٦٧] والمعنى: أئذا كنَّا تراباً نحن وآباؤنا. ومعنى الآية: استوى جبريل هو ومحمَّد عليهما السلام ليلةَ الإسراء بالأُفُق الأعلى.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩١ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٦-١٩٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٧ .

(٥) أخرجه عن الربيع الطبري ٢٢/ ١١ ، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٨)، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٥ .

(٦) تفسير الطبري ٢٢/ ١١-١٢ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٥ ، والبيت لجرير، وهو في شرح ديوانه ٢/ ٩٣٢ ، والنبع: شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسي. والخروع: كل نبات قصيف ريان من شجر أو عنب. لسان العرب (نبع) و(خرع). ووقع عند الفراء: يخلق، بدل: يصلب.

وأجاز[١] العطف على الضمير؛ لئلا يتكرَّر. وأنكر ذلك الزَّجَّاج[٢] إلا في ضرورة الشعر، وقيل: المعنى فاستوى جبريل بالأفق الأعلى، وهو أجود. وإذا كان المستوي جبريل فمعنى «ذُو مِرَّةٍ» في وَصْفه: ذو منطق حسَن، قاله ابن عباس. وقال قتادة: ذو خَلْق طويل حَسن[٣].

وقيل: معناه: ذو صحَّة جسم، وسلامة من الآفات، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «لا تحلُّ الصدقة لغنيٍّ ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»[٤]. وقال امرؤ القيس:

كُنْتُ فيهم أبداً ذا حيلة مُحْكَمَ المِرَّة مأمُونَ العُقَد[٥]

وقد قيل: «ذُو مِرَّةٍ»: ذو قوَّة. قال الكلبيُّ: وكان من شدَّة جبريل عليه السلام: أنَّه اقتلعَ مدائنَ قومِ لوطٍ من الأرض السفلى، فحملها على جناحه حتى رفعَها إلى السماء، حتى سمع أهلُ السماء نَبْحَ كلابهم وصياح ديكتهم، ثم قَلَبَها. وكان من شدَّته أيضاً: أنَّه أبصر إبليسَ يكلِّم عيسى عليه السلام على بعض عقاب من الأرض المقدَّسة، فنفحه بجناحه نفحةً ألقاه بأقصى جبل في الهند. وكان من شدَّته: صيحته بثمود في عددهم وكثرته، فأصبحوا جاثمين خامدين. وكان من شدَّته: هبوطه من السماء على الأنبياء وصعودهُ إليها في أسرع من الطَّرْف[٦].

وقال قُطْرُب: تقول العرب لكل جَزل الرأي حصيف العقل: ذُو مِرَّةٍ. قال الشاعر:

---

(١) أي: الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٥ .

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٧٠ وما بعده منه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٥ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٠ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ١١ ، والحديث سلف ١٠/ ٢٥٣ .

(٥) كذا أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩١ ، والبيت في ديوان امرئ القيس ص٢١٩ إلا أن صدره هكذا:

ولبيبٌ أيِّد ذو حيلة

قال شارحه: الأيِّد: الشديد. ومأمون العُقَد: يؤمن انحلالها.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٨ دون عزو، وخبر تعذيب قوم لوط في عرائس المجالس ص١٠٧ .

قد كنتُ قبلَ لِقائِكُمْ ذا مِرَّةٍ عندي لِكلِّ مُخاصِمٍ مِيزانُهُ(١)

وكان من جزالة رأيه وحصَافة عقله: أنَّ الله ائتمنه على وَحْيه إلى جميع رسله.

قال الجوهريُّ(٢): والمِرَّة: إحدى الطبائع الأربع، والمِرَّة: القوَّة، وشدَّة العقل أيضاً. ورجل مرير: أي: قويٌّ ذو مِرةٍ. قال:

تَرى الرَّجُلَ النَّحيفَ فتزدريه وحَشْوُ ثِيابِه أسدٌ مَريرُ(٣)

وقال لَقِيط:

حتى استمرَّت على شَزْرٍ مَريرتُه مُرُّ العزيمةِ لا رَتّاً ولا ضَرَعَا(٤)

وقال مجاهد وقتادة: «ذُو مِرَّةٍ»: ذو قوَّة، ومنه قول خُفَاف بن نَدْبة:

إنِّي امرؤٌ ذو مِرّةٍ فاستبقِني فِيما يَنُوبُ مِن الخُطُوبِ صَلِيبُ(٥)

فالقوَّة تكون من صفة الله عزَّ وجلَّ، ومن صفة المخلوق.

«فاستوى» يعني: جبريل على ما بيَّنَّا، أي: ارتفع وعلا إلى مكانه في السماء بعد أن علَّم محمَّداً ﷺ، قاله سعيد بن المسيِّب وابن جبير(٦).

وقيل: «فَاسْتَوَى» أي: قام في صورته التي خَلَقه الله تعالى عليها؛ لأنه كان يأتي

(١) سلف ١٢/١٩١.

(٢) في الصحاح (مرر).

(٣) القائل العباس بن مرداس، وهو في الحماسة البصرية ٢/٧، ورواية عجزه هكذا:

وفي أثوابه أسد مزير

والمزير: الشديد القلب القوي. اللسان (مزر).

(٤) الكامل ٢/٦٨٢، والرتُّ: الرئيس من الرجال في الشرف والعطاء. والضَّرَع: الصغير السنّ الضعيف. اللسان (رتت) و(ضرع).

(٥) النكت والعيون ٥/٣٩١، وقول مجاهد في تفسيره ٢/٦٢٧، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/١٠. والبيت في الأصمعيات ص٢٧، وورد فيه هكذا:

فتعلَّمي أني امرؤ ذو مرَّة فيما ألمَّ من الخطوب صليبُ

(٦) النكت والعيون ٥/٣٩٢ وعزاه إلى ابن جبير.

إلى النبيِّ ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي إلى الأنبياء، فسأله النبيُّ ﷺ أن يُرِيَه نفسَه التي جَبَله الله عليها، فأراه نفسه مرَّتين، مرَّة في الأرض، ومرَّة في السماء، فأما في الأرض ففي الأفُق الأعلى، وكان النبيُّ ﷺ بحراء، فطلع له جبريل من المشرق فسدَّ الأرض إلى المغرب، فخرَّ النبيُّ ﷺ مغشياً عليه، فنزل إليه في صورة الآدميين وضمَّه إلى صدره، وجعل يمسح الغبار عن وجهه، فلما أفاق النبيُّ ﷺ قال: «يا جبريل ما ظننتُ أنَّ الله خلَق أحداً على مثل هذه الصورة». فقال: يا محمَّد إنَّما نَشرتُ جناحَيْن من أَجنحتي، وإنَّ لي ستَّ مئة جناح، سَعة كلِّ جناح ما بين المشرق والمغرب. فقال: «إنَّ هذا لعظيم» فقال: وما أنا في جَنْب ما خلقَه الله إلا يسيراً، ولقد خلَق الله إسرافيلَ له ستُّ مئة جناح، كلُّ جناح منها قَدْر جميع أجنحتي، وإنَّه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله تعالى حتى يكون بقَدْر الوصَع. يعني: العصفور الصغير، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ وأما في السماء فعند سِدرة المنتهى، ولم يَرَهُ أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمَّداً ﷺ[(١)].

وقول ثالث أنَّ معنى «فَاسْتَوَى»: أي: استوى القرآن في صدره. وفيه على هذا وجهان: أحدهما في صدر جبريل حين نزل به عليه. الثاني: في صدر محمَّد ﷺ حين نزل عليه. وقول رابع أنَّ معنى «فَاسْتَوَى»: فاعتدل، يعني: محمَّداً ﷺ. وفيه على هذا وجهان: أحدهما: فاعتدل في قوَّته. الثاني: في رسالته. ذكرهما الماورديُّ[(٢)].

قلت: وعلى الأوَّل يكون تمام الكلام «ذُو مِرَّةٍ»، وعلى الثاني «شَدِيدُ الْقُوَى».

وقول خامس أنَّ معناه: فارتفع. وفيه على هذا وجهان: أحدهما: أنَّه جبريل عليه

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٥ دون قوله: فلما أفاق النبي ﷺ... إلى قوله: يعني العصفور الصغير. حيث أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٢١) عن ابن شهاب مرسلاً بنحوه.

ورؤية النبي ﷺ جبريلَ مرتين أخرجها البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) عن عائشة رضي الله عنها.

وقول جبريل: إن لي ست مئة جناح. أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٣٩٢.

السلام ارتفع إلى مكانه على ما ذكرنا آنفاً. الثاني: أنَّه النبيُّ ﷺ ارتفع بالمعراج[١]. وقول سادس: «فَاسْتَوَى»: يعني الله عزَّ وجلَّ، أي: استوى على العرش، على قول الحسن[٢]. وقد مضى القول فيه في «الأعراف»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ جملة في موضع الحال، والمعنى: فاستوى عالياً[٤]، أي: استوى جبريل عالياً على صورته، ولم يكن النبيُّ ﷺ قبل ذلك يراه عليها حتى سأله إيَّاها على ما ذكرنا.

والأُفُق: ناحية السماء، وجمعه: آفاق[٥]. وقال قتادة: هو الموضع الذي تأتي منه الشمس[٦]. وكذا قال سفيان: هو الموضع الذي تطلع منه الشمس، ونحوه عن مجاهد. ويقال: أُفْق وأُفُق، مثل عُسْر وعُسُر. وقد مضى في «حم السجدة»[٧]. وفرس أُفُق ـ بالضمِّ ـ أي: رائع، وكذلك الأنثى، قال الشاعر:

أرجِّــلُ لِــمَّــتِــي وَأَجُــرُّ ذَيْــلِــي وتَــحــمِـلُ شِــكَّــتـي أفُــقٌ كُــمَـيْــتُ[٨]

وقيل: «وَهُوَ» أي: النبيُّ ﷺ «بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى» يعني: ليلةَ الإسراء، وهذا ضعيف، لأنَّه يقال: استوى هو وفلان، ولا يقال: استوى وفلان، إلا في ضرورة الشعر.

والصحيح استوى جبريلُ عليه السلام، وجبريلُ بالأُفق الأعلى على صورته الأصليَّة؛ لأنَّه كان يتمثَّل للنبيِّ ﷺ إذا نزل بالوحي في صورة رجل، فأحبَّ النبيُّ ﷺ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٧ .

(٣) ٩/ ٢٣٨ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٦ .

(٥) الصحاح (أفق).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٩٢ عن قتادة ومجاهد، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٣ عن قتادة بنحوه.

(٧) عند الآية (٥٣).

(٨) الصحاح (أفق)، والبيت لعمرو بن قعاس بن عبد يغوث المرادي، وهو في منتهى الطلب لابن ميمون ٨/ ٢٤٥ ، وفيه: ذمَّتي، بدل: لمَّتي، واللِّمَّة: شعر الرأس إذا كان فوق الوفرة. والشِّكَّة: السلاح. لسان العرب (لمم) و (شكك).

أن يراه على صورته الحقيقيَّة، فاستوى في أفق المشرق، فملأ الأُفق.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أي: دنا جبريلُ بعد استوائه بالأُفق الأعلى من الأرض «فَتَدَلَّى» فنزل على النبيِّ ﷺ بالوحي[(١)]. المعنى: أنَّه لما رأى النبيُّ ﷺ من عظمته ما رأى، وهالَه ذلك، ردَّه الله إلى صورة آدميٍّ حين قَرُبَ من النبيِّ ﷺ بالوحي، وذلك قوله تعالى: «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ» يعني أوحى الله إلى جبريلَ، وكان جبريل «قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» قاله ابن عباس والحسن وقتادة والربيع وغيرهم[(٢)]. وعن ابن عباس أيضاً في قوله تعالى: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى» أنَّ معناه: أنَّ الله تبارك وتعالى «دَنَا» من محمَّد ﷺ «فَتَدَلَّى»[(٣)]. وروى نحوه أنس بن مالك عن النبيِّ ﷺ[(٤)]. والمعنى: دنا منه أَمْرُه وحُكْمه[(٥)]. وأصل التدلِّي: النزول إلى الشيء حتى يَقرُب منه، فوضِعَ موضعَ القُرب، قال لبيد:

فَتَدَلَّيْتُ عليه قافِلاً   وعلى الأرض غيَابَات الطَّفَل[(٦)]

وذهب الفرَّاء[(٧)] إلى أنَ الفاء في «فَتَدَلَّى» بمعنى الواو، والتقدير: ثم تدلَّى جبريل عليه السلام ودنا. ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحداً، أو كالواحد، قدَّمت أيَّهما شئت، فقلت: فدنا فقرب وقرب فدنا، وشتمني فأساء وأساء فشتمني؛ لأنَّ

---

(١) الوسيط ٤/ ١٩٣ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٦ عن ابن عباس والحسن وقتادة، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٥٠ ، ومن طريقه أبو الشيخ في العظمة (٣٦٩)، والطبري ٢٢/ ١٤ عن الحسن وقتادة، والطبري ٢٢/ ١٤ ، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٨) عن الربيع.

(٣) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٤ ، والطبراني في الكبير (١١٣٢٨).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، وينظر كلام ابن حجر حول الحديث في فتح الباري ١٣/ ٤٨٣ وما بعدها.

(٥) الشفا ١/ ٣٩٤ .

(٦) شرح ديوان لبيد ص١٨٩ ، قال شارحه: الغيابة: ظل الشمس، أو كل شيء أظل الإنسان. والطَّفَل: حين تهمُّ الشمس بالوجوب وتدنو للغروب.

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٩٥-٩٦ .

الشتم والإساءة شيء واحد. وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] المعنى ـ والله أعلم ـ: انشقَّ القمر واقتربت الساعة.

وقال الجرجانيُّ: في الكلام تقديم وتأخير، أي: تدَّلى فدنا؛ لأنَّ التدلِّي سبب الدنوِّ.

وقال ابنُ الأنباري: ثم تدلَّى جبريلُ، أي: نزل من السماء فدنا من محمَّد ﷺ[(١)].

وقال ابن عباس: تدلَّى الرفرفُ لمحمَّد ﷺ ليلةَ المعراج، فجلس عليه، ثم رُفع فدنا من ربِّه[(٢)]، وسيأتي.

ومن قال: المعنى: فاستوى جبريلُ ومحمَّد بالأُفق الأعلى، قد يقول: ثم دنا محمَّد من ربِّه دنوَّ كرامةٍ، فتدلَّى، أي: هَوَى للسجود. وهذا قول الضحاك. قال القشيريُّ: وقيل على هذا تدلَّى، أي: تَدلَّلَ، كقولك: تَظَنَّى، بمعنى تَظَنَّنَ. وهذا بعيد؛ لأنَّ الدَّلال غيرُ مرضيٍّ في صفة العبودية.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: كان محمَّد من ربِّه أو من جبريل «قَابَ قَوْسَيْنِ» أي: قَدْرَ قوسين عربيَّتين[(٣)]. قاله ابن عباس وعطاء[(٤)] والفرَّاء[(٥)]. الزمخشريُّ[(٦)]: فإن قلتَ: كيف تقدير قوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ»؟ قلت: تقديره:

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩٣.

(٢) الشفا ١/ ٣٩٤، والرفرف: البساط. النهاية ٢/ ٢٤٣.

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٨.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٦.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٩٥.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٩، والبيت الآتي نسب للأسود بن يعفر، وهو في شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٣١. وللكلحبة هبيرة بن عبد مناف العُرَني، وهو في المفضليات ص٣٢، ورواية صدره:

فأدرك إبقاءَ العَرادة ظَلْعُها

قال محققه: المبقية من الخيل: التي تبقي بعض جريها تدخره. الظلع: العرج والغمز في المشي. يقول: إن شرب العرادة أضعف جريها، فغلب ظلعها إبقاءها، ففاتها حزيمة وهو قيد إصبع منها.

فكان مقدارُ مسافة قُربه مثلَ قاب قوسين، فحذفت هذه المضافات، كما قال أبو عليٍّ في قوله:

وَقَـدْ جَـعَـلَـتْـنِـي مِـن حَـزِيـمَـةَ إِصْـبَـعَـا

أي: ذا مقدار مسافة إصبع. «أَوْ أَدْنَى» أي: على تقديركم، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٧]. وفي «الصحاح»[١]: وتقول: بينهما قابُ قَوْس، وقِيبُ قَوْس، وقادُ قَوْس، وقِيدُ قَوْس، أي: قَدْر قَوْسٍ.

وقرأ زيد بن علي: «قَادَ»، وقرئ: «قِيدَ» و «قَدْرَ». ذكره الزمخشريُّ[٢].

والقابُ: ما بين المَقْبِض والسِّيَة. ولكلِّ قوس قابان. وقال بعضهم في قوله تعالى: «قَابَ قَوْسَيْنِ»: أراد قابي قوس، فقلبه[٣]. وفي الحديث: «ولَقاب قوسِ أحدِكم من الجنة وموضع قِدِّه خيرٌ من الدنيا وما فيها» والقِدُّ: السَّوط[٤]. وفي «الصحيح» عن أبي هريرة قال: قال النبيُّ ﷺ: «ولَقابُ قوسِ أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها»[٥]. وإنَّما ضُرب المثل بالقوس؛ لأنَّها لا تختلف في القاب. والله أعلم.

قال القاضي عِياض[٦]: اعلم أنَّ ما وقعَ من إضافة الدنوِّ والقُرب من الله، أو إلى الله، فليس بدنوِّ مكانٍ، ولا قُرب مَدًى، وإنَّما دنوُّ النبيِّ ﷺ من ربِّه وقُرْبه منه، إبانةُ عظيمِ منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفتِهِ، ومشاهدة أسرار غيبه وقُدْرته. ومِنَ الله تعالى له: مبرَّةٌ وتأنيس وبَسْط وإكرام.

---

(١) مادة (قوب).

(٢) في الكشاف ٤/ ٢٨ .

(٣) الصحاح (قوب)، والسِّيَة: ما عطف من طرفي القوس. الصحاح (سيا).

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٨ ، والكشاف ٤/ ٢٨ .

(٥) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (١٠٢٧٠)، وهو عند البخاري (٢٧٩٣) بلفظ: لقاب قوس في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب.

(٦) في الشفا ١/ ٣٩٦-٣٩٧ ، وفيه: وشريف، بدل: وتشريف.

ويتأوَّل فيه ما يتأوَّل في قوله عليه السلام: «يَنزِل ربُّنا إلى سماء الدنيا»[١] على أحد الوجوه: نزول إجمال وقبولُ إحسان.[٢] قال القاضي: وقوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» فمن جعَل الضميرَ عائداً إلى الله تعالى لا إلى جبريل، كان عبارة عن نهاية القُرب، ولطف المحلِّ، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمَّد ﷺ، وعبارةً عن إجابة الرغبة، وقضاء المطالب، وإظهار التحفِّي، وإنافة المنزلة والقُرب من الله، ويتأوَّل فيه ما يتأوَّل في قوله عليه السلام: «مَن تقرَّب منِّي شبراً تقرَّبت منه ذراعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً» قربٌ بالإجابة والقَبول، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول[٣].

وقد قيل: «ثُمَّ دَنَا» جبريل من ربِّه «فَكَان قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» قاله مجاهد[٤]. ويدلُّ عليه ما رُويَ في الحديث: «إنَّ أقربَ الملائكة من الله جبريلُ عليه السلام»[٥].

وقيل: «أو» بمعنى الواو، أي: قاب قوسين وأدنى. وقيل: بمعنى «بل»، أي: بل أدنى[٦].

وقال سعيد بن المسيّب: القاب: صدر القوس العربية حيث يشدُّ عليه السير الذي يتنكَّبه صاحبه، ولكلِّ قوس قاب واحد. فأخبر أنَّ جبريل قَرُبَ من محمَّد ﷺ كقُرب قاب قوسين.

وقال سعيد بن جبير وعطاء وأبو إسحاق الهَمْداني وأبو وائل شقيق بن سلمة: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ» أي: قدر ذراعين، والقوس: الذراع يُقاس بها كلُّ شيء[٧]، وهي

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، وهو عند أحمد (٧٥٩٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) الصواب إثبات صفة الدنو والقرب والنزول لله تعالى بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل على ما يليق بجلال الله وعظمته.

(٣) الشفا ١/ ٣٩٦-٣٩٧، والحديث سلف ٧/ ٢٩٠.

(٤) في تفسيره ٢/ ٦٢٧ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٩ .

(٥) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢٧٧)، وفي إسناده الأحوص بن حكيم، وهو ضعيف. تهذيب التهذيب ١/ ٩٩-١٠٠ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٩ ، وينظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٤١٤-٤١٥ .

لغةُ بعض الحجازيين[١]. وقيل: هي لغةُ أزد شَنُوءة أيضاً. وقال الكسائيُّ: قوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» أراد: قوساً واحداً، كقول الشاعر:

وَمَـهْـمَـهَـيْـنِ قَـذَفَـيْـنِ مَـرْتَـيْـن ... قَـطَعْتُهُ بـالـسَّـمْـتِ لا بـالـسَّـمْـتَـيْـن[٢]

أراد: مَهْمَهاً واحداً.

والقوس تذكَّر وتؤنَّث، فمن أنَّث قال في تصغيرها: قويسة، ومن ذكَّر قال: قُوَيس، وفي المثل: هو من خيرِ قُوَيْسٍ سَهْماً. والجمع قِسِيٌّ وقُسِيٌّ وأقواس وقِياس، وأنشد أبو عبيدة:

وَوَتَّـرَ الأسـاوِرَ الـقِـيـاسَـا[٣]

والقَوْس أيضاً: بقية التَّمْر في الجُلَّة، أي: الوعاء. والقَوْس: برج في السماء. فأما القُوسُ بالضمِّ: فصومعة الراهب، قال الشاعر وذكر امرأةً:

لا سْتَفْتَنَتْنِي وذَا المِسْحَينِ في القُوسِ[٤]

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ تفخيم للوحي الذي أُوحيَ إليه[٥]. وتقدَّم

---

(١) المحرر الوجيز ١٩٨/٥ وحكاه عن الثعلبي.

(٢) هكذا ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٣٠٢/٨ ولم ينسبه، وفيه: بالأَمِّ، بدل: بالسمت. وذكره الزجاجي في الجمل ص٣١٣، والجاحظ في البيان والتبيين ١٥٦/١ ولم ينسباه، ونسبه ابن السِّيْد البطليوسي في الحلل ص٣٦٤ إلى خطام المجاشعي، وجاءت رواية الرجز في البيان والتبيين هكذا:

ومـهـمـهـيـن قـذفـيـن مـرتـيـن ... جـبـتـهـمـا بـالـنـعـت لا بـالـنـعـتـيـن

ظـهـراهـمـا مـثـل ظـهـور الـتـرسـيـن ... قـطـعـتـه بـالأَمِّ لا بـالـسـمـتـيـن

وقول الراجز:

ظـهـراهـمـا مـثـل ظـهـور الـتـرسـيـن

ذكره سيبويه في الكتاب ٤٨/٢ ونسبه لخطام، و ٦٢٢/٣ ونسبه لهميان بن قحافة. والمهمه: القَفْر المخوف. والقَذَف: ما ارتفع من الأرض. والمرت: التي لا ماء بها ولا نبات فيها. والظهر: ما ارتفع من الأرض، يشبهه بظهر الترس في ارتفاعه. الحلل ص٣٦٥. والسمت: الطريق. لسان العرب (سمت).

(٣) الصحاح (قوس) وما بعده منه، والمثل في جمهرة الأمثال للعسكري ٤٢٠/١ وهو من أرجوزة لخالد ابن معاوية، وقصته ثمة.

(٤) القائل جرير، وهو في ديوانه ١٢٥/١، وصدره: لا وصل إذا صرمت هند ولو وقفت.

(٥) الكشاف ٢٩/٤.

معنى الوحي[١]، وهو إلقاء الشيء بسرعة، ومنه: «الوحَى الوحَى». والمعنى: فأوحى الله تعالى إلى عبده محمَّد ﷺ ما أوحى. وقيل: المعنى: «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ» جبريلَ عليه السلام «مَا أَوْحَى». وقيل: المعنى: فأوحى جبريلُ إلى عبد الله محمَّد ﷺ ما أوحى إليه ربُّه[٢]. قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة[٣]. قال قتادة: أوحى الله إلى جبريل، وأوحى جبريل إلى محمَّد[٤].

ثم قيل: هذا الوحي هل هو مبهم، لا نَطَّلِع عليه نحن وتُعُبِّدْنا بالإيمان به على الجملة، أو هو معلوم مفسَّر؟ قولان، وبالثاني قال سعيد بن جبير، قال: أوحى الله إلى محمَّد: أَلَم أجِدك يتيماً فآويتك! أَلَم أجدْك ضالًّا فهديتك! أَلَم أجدْك عائلاً فأغنيتك! ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[٥] [الشرح:١-٤]. وقيل: أوحى الله إليه أنَّ الجنَّة حرام على الأنبياء حتى تدخلَها يا محمَّد، وعلى الأُمم حتى تدخلها أمَّتُك[٦].

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ أي: لم يكذب قلبُ محمَّد ﷺ ليلةَ المعراج، وذلك أنَّ الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربَّه تعالى، وجعل الله

---

(١) ٥/ ١٣١ ، وسلف تخريج الحديث هناك.

(٢) زاد المسير ٨/ ٦٧ .

(٣) أخرجه عن الربيع: الطبري ٢٢/ ٢١ ، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٨)، وعن ابن زيد وقتادة: الطبري ٢٢/ ٢١ ، وعن الحسن: أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣٦٣)، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩٣ .

(٤) الوسيط ٤/ ١٩٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٦ بنحوه.

(٦) لطائف الإشارات ٣/ ٤٨٢ .

تلك رؤية. وقيل: كانت رؤية حقيقة بالبصر(١). والأوَّل مرويٌّ عن ابن عباس(٢)، وفي «صحيح مسلم»(٣) أنَّه رآه بقلبه. وهو قول أبي ذرٍّ وجماعة من الصحابة(٤). والثاني قول أنس وجماعة(٥). وروي عن ابن عباس أيضاً أنَّه قال: أتعجبونَ أن تكون الخُلَّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمَّد ﷺ(٦). وروي عن ابن عباس أيضاً أنَّه قال: أمَّا نحن بني هاشم فنقول: إنَّ محمَّداً رأى ربَّه مرَّتين(٧). وقد مضى القول في هذا في «الأنعام»(٨) عند قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]. وروى محمَّد بن كعب قال: قلنا: يا رسول الله صلى الله عليك، رأيتَ ربَّك؟ قال: «رأيته بفؤادي مرَّتين» ثم قرأ: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى»(٩).

وقول ثالث: أنَّه رأى جلالَه وعظمته، قاله الحسن. وروى أبو العالية قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «رأيتُ نهراً، ورأيتُ وراء النهر حجاباً، ورأيت وراءَ الحجاب نوراً، لم أرَ غيرَ ذلك»(١٠). وفي «صحيح مسلم»(١١) عن أبي ذرٍّ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «نورٌ أنَّى أراه» المعنى: غلبني من النور

---

(١) الوسيط ٤/ ١٩٥ .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٨١)، والطبري ٢٢/ ٢٢ . قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٣) برقم (١٧٦)، وهو عند أحمد (١٩٥٦).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٨ ، وأخرجه عن أبي ذر: النسائي في الكبرى (١١٤٧٢).

(٥) الوسيط ٤/ ١٩٥ ونسبه إلى أنس وعكرمة والحسن.

(٦) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٧٥)، وابن خزيمة في التوحيد ص١٩٧ ، وصحَّحه ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٠٨ .

(٧) أخرجه الترمذي (٣٢٧٨) بنحوه، وسلف ٨/ ٤٨٤ .

(٨) ٨/ ٤٨٣ .

(٩) النكت والعيون ٥/ ٣٩٤ وما بعده منه، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٩ عن محمد بن كعب القرظي، عن بعض أصحاب النبي ﷺ بنحوه.

(١٠) النكت والعيون ٥/ ٣٩٤ ، وأخرجه عنهما ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣١٨-٣٣١٩ (١٨٦٩٧) و (١٨٦٩٨).

(١١) برقم (١٧٨).

وبهرني منه ما منعني من رؤيته. ودلَّ على هذا الرواية الأخرى: «رأيت نوراً»[١]. وقال ابن مسعود: رأى جبريلَ على صورته مرَّتين[٢].

وقرأ هشام عن ابن عامر وأهل الشام: «مَا كَذَّبَ» بالتشديد[٣]، أي: ما كذَّب قلبُ محمَّد ما رأى بعينه تلك الليلة بل صدَّقه. فـ«ما» مفعوله بغير حرف مقدَّر؛ لأنه يتعدّى مشدَّداً بغير حرف. ويجوز أن تكون «ما» بمعنى «الذي» والعائد محذوف، ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً[٤]. الباقون مخففاً، أي: ما كذب فؤادُ محمَّد فيما رأى، فأسقط حرف الصفة. قال حسان ﷺ[٥]:

لو كنتِ صادقة الذي حدَّثتني ... لنجوتِ مَنْجَا الحارثِ بنِ هِشامِ

أي: في الذي حدَّثتني. ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً. ويجوز أن يكون بمعنى «الذي»، أي: ما كذب فؤادُ محمَّد ﷺ الذي رأى.

قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «أَفَتَمْرُونَهُ» بفتح التاء من غير ألف[٦] على معنى: أفتجحدونه. واختاره أبو عبيد؛ لأنه قال: لم يُماروه، وإنَّما جحدوه. يقال: مراه حقَّه، أي: جحده[٧]، ومريته أنا، قال الشاعر:

لئِن هجرتَ أخا صِدقٍ ومَكْرُمَةٍ ... لقد مَرَيْتَ أخاً ما كان يَمْرِيكَا[٨]

---

(١) مسلم (١٧٨): (٢٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨٦٤)، والطبراني في الكبير (١٠٥٤٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٦). وفي إسناده: إسحاق بن أبي الكهتلة، ذكره البخاري في التاريخ الكبير ١/ ٤٠٠-٤٠١، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢/ ٢٣٢ ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في الثقات ٤/ ٢٥.

(٣) السبعة ص٦١٤، والتيسير ص٢٠٤.

(٤) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٢-٦٩٣، والبيان لابن الأنباري ٢/ ٣٩٧.

(٥) ديوانه ص٤١٩، وورد فيه هكذا:

إن كنت كاذبة الذي حدَّثتني ... فنجوت ....

(٦) السبعة ص٦١٤، والتيسير ص٢٠٤.

(٧) الصحاح (مرا).

(٨) الكشاف ٤/ ٢٩ ولم ينسبه.

أي: جحدته. وقال المبرِّد: يقال: مراه عن حقِّه، وعلى حقه: إذا منعَه منه ودفعَه عنه. قال: ومثل «على» بمعنى «عن» قول بني كعب بن ربيعة: رضي الله عليك، أي: رضي عنك[١].

وقرأ الأعرج ومجاهد: «أَفَتَمْرُونَهُ» بضمِّ التاء من غير ألف[٢]، من أمريت، أي: تريبونه وتشكِّكونه. الباقون: «أَفَتُمَارُونَهُ» بألف، أي: أتجادلونه وتدافعونه في أنَّه رأى الله، والمعنيان متداخلان؛ لأنَّ مجادلتهم جحود. وقيل: إنَّ الجحودَ كان دائماً منهم، وهذا جدال جديد، قالوا: صِفْ لنا بيتَ المقدس وأَخبِرنا عن عِيرنا التي في طريق الشام[٣]. على ما تقدّم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ «نَزْلَةً»: مصدر في موضع الحال، كأنَّه قال: ولقد رآه نازلاً نزلةً أخرى[٥].

قال ابن عباس: رأى محمَّد ﷺ ربَّه مرَّة أُخرى بقلبه[٦]. روى مسلم[٧] عن أبي العالية عنه قال: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى»، «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى» قال: رآه بفؤادِه مرَّتين. فقوله: «نَزْلَةً أُخْرَى» يعود إلى محمَّد ﷺ؛ فإنه كان له صعود ونزول مراراً بحسَب أعداد الصلوات المفروضة، فلكلِّ عَرْجة نَزْلة[٨]. وعلى هذا قوله تعالى: «عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى» أي: ومحمَّد ﷺ عند سدرة المنتهى، وفي بعض تلك النزلات.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٩ .

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٥٩ ، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٦ وعزاها إلى ابن مسعود والشعبي، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٩ وعزاها إلى النخعي.

(٣) الوسيط ٤/ ١٩٧ .

(٤) في سورة الإسراء، عند الآية الأولى.

(٥) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٣ .

(٦) زاد المسير ٨/ ٦٨ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٢ ، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٩١٠).

(٧) في صحيحه برقم (١٧٦): (٢٨٥).

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٧ .

وقال ابن مسعود وأبو هريرة في تفسير قوله تعالى: «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى» أنَّه جبريل. ثبت هذا أيضاً في «صحيح مسلم»(١). وقال ابن مسعود: قال النبيُّ ﷺ: «رأيتُ جبريلَ بالأُفُق الأعلى له ستُّ مئة جناح، يتناثر من ريشه الدُّرُّ والياقوت» ذكره المهدويُّ(٢).

قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ «عِنْدَ» من صلة «رَآهُ» على ما بيَّنَّا(٣). والسِّدْر: شجر النَّبِق(٤)، وهي في السماء السادسة، وجاء في السماء السابعة. والحديث بهذا في «صحيح مسلم»؛ الأوّل: ما رواه مُرَّة عن عبد الله قال: لما أُسرِيَ برسول الله ﷺ انتُهي به إلى سِدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يُعرَج به من الأرض فيُقبَض منها، وإليها ينتهي ما يُهبَط به من فوقِها فيُقبَض منها، قال: «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» قال: فَرَاش من ذهب، قال: فأُعطيَ رسولُ الله ﷺ ثلاثاً: أُعطيَ الصلواتِ الخمسَ، وأُعطيَ خواتيمَ سورة البقرة، وغُفِر لمن لم يُشرِك بالله من أمَّته شيئاً المقحِمَاتُ(٥).

الحديث الثاني: رواه قتادة عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لما رُفِعْتُ إلى سِدرة المنتهى في السماء السابعة، نَبِقها مثلُ قِلال هَجَر، وورقها مثل آذانِ الفِيَلة، يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان، قلتُ: يا جبريل ما هذا؟ قال: أما الباطنان ففي الجنَّة، وأما الظاهران فالنيل والفرات» لفظ الدارقطني(٦).

والنَّبِق، بكسر الباء: ثمر السِّدْر، الواحد: نَبِقة(٧). ويقال: نَبْق، بفتح النون

(١) أثر ابن مسعود أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٧٦)، والطبري ٢٢/ ٣٠، وأبو الشيخ في العظمة (٣٥٠)، وأما أثر أبي هريرة فهو عند مسلم (١٧٥).

(٢) وأخرجه أحمد (٣٩١٥)، والنسائي في الكبرى (١١٤٧٨).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٠.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٣.

(٥) مسلم (١٧٣)، والمقحمات: الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النار. النهاية ٤/ ١٩.

(٦) في سننه (٣٣)، وهو عند البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٢)، وأحمد (١٢٥٠٥).

(٧) النهاية ٥/ ١٠.

وسكون الباء، ذكرهما يعقوب في «الإصلاح»[١]، وهي لغة المصريين، والأُولى أَفصح وهي التي ثبتت عن النبيِّ ﷺ.

وروى الترمذي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وقد ذُكِر له سِدْرة المنتهى ـ قال: «يسير الراكب في ظلِّ الغصن منها مئةَ سنة، أو يستظلُّ بظلِّها مئةُ راكب ـ شكَّ يحيى ـ فيها فَرَاش الذهب، كأنَّ ثمرها القِلال» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن[٢].

قلت: وكذا لفظ مسلم[٣] من حديث ثابت عن أنس: «ثم ذُهِب بي إلى سِدرْة المنتَهى، وإذا ورقها كآذانِ الفيَلة، وإذا ثمرها كالقِلال، فلما غشيها من أمر الله عزَّ وجلَّ ما غشِي، تغيَّرت، فما أحد من خَلْق الله يستطيع أن ينعتها من حُسْنها».

واختلف لم سُمِّيت سِدْرة المنتهى على أقوال تسعة:

الأوَّل: ما تقدَّم عن ابن مسعود أنَّه ينتهي إليها كلُّ ما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها.

الثاني: أنَّه ينتهي عِلْم الأنبياء إليها ويَعزُب عِلْمهم عما وراءها، قاله ابن عباس.

الثالث: أنَّ الأعمال تنتهي إليها وتقبض منها، قاله الضحاك.

الرابع: لانتهاء الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها، قاله كعب[٤].

الخامس: سمِّيت سِدْرة المنتهَى؛ لأنَّها ينتهي إليها أرواح الشهداء، قاله الربيع ابن أنس[٥].

---

(١) إصلاح المنطق ليعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت ص١٩١ .

(٢) الترمذي (٢٥٤١)، وفيه: هذا حديث حسن غريب اهـ. وفيه أيضاً: الفنن، بدل: الغصن.

(٣) برقم (١٦٢).

(٤) الأقوال الأربعة ذكرها الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩٦ ، وأثر ابن مسعود أخرجه مسلم (١٧٣)، وأحمد (٣٦٦٥)، وأثر الضحاك أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٢٦ ، والطبري ٢٢/ ٣٤ ، وأثر كعب أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٠ ، والطبري ٢٢/ ٣٣ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٠ ، وفيه المؤمنين، بدل: الشهداء.

السادس: لأنَّه تنتهي إليها أرواح المؤمنين، قاله قتادة[١].

السابع: لأنه ينتهي إليها كلُّ من كان على سنة محمَّد ﷺ ومنهاجه، قاله عليٌّ ﷺ والربيع بن أنس أيضاً[٢].

الثامن: هي شجرة على رؤوس حملة العرش إليها ينتهي عِلْم الخلائق، قاله كعب أيضاً[٣].

قلت: يريد ـ والله أعلم ـ أنَّ ارتفاعَها وأعالي أغصانها قد جاوزت رؤوسَ حملة العرش، ودليله ما تقدَّم من أنَّ أصلها في السماء السادسة، وأَعلاها في السماء السابعة، ثم عَلَت فوق ذلك حتى جاوزت رؤوس حملة العرش. والله أعلم.

التاسع: سُمِّيت بذلك؛ لأنَّ من رُفعَ إليها فقد انتهى في الكرامة. وعن أبي هريرة لما أُسريَ برسول الله ﷺ انتهى به إلى سِدرة المنتهى، فقيل له: هذه سِدرة المنتهى ينتهي إليها كلُّ أحد خَلَا من أمَّتك على سنّتك، فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماءٍ غيرِ آسِنٍ، وأنهار من لبنٍ لم يتغيَّر طعمه، وأنهار من خمر لذَّة للشاربين، وأنهار من عسل مُصَفًّى، وإذا هي شجرة يسير الرّاكب المسرع في ظلِّها مئة عام لا يقطعها، والورقة منها تغطي الأمَّة كلَّها، ذكره الثعلبيُّ[٤].

قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ تعريف بموضع جنَّة المأوى، وأنَّها عند سِدرة المنتهى[٥]. وقرأ عليٌّ وأبو هريرة وأنس وأبو سَبرة الجهنيُّ وعبد الله بن الزبير ومجاهد: «عِنْدَهَا جَنَّهُ الْمَأْوَى»[٦]. يعني: جَنَّهُ المبيتُ. قال مجاهد: يريد أجنَّه[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٩٥ دون عزوه إلى علي ﷺ.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٠ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٣ .

(٤) وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٧-٣٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٩٦ .

(٦) المحتسب ٢/ ٢٩٣ ، والقراءات الشاذة ص١٤٦ ، ولم يذكرا أبا سبرة الجهني ومجاهداً، وزادا زرَّ بن حبيش ومحمد بن كعب، وزاد ابنُ جني ـ أيضاً ـ قتادةَ، ووقع في مطبوع القراءات الشاذة: «عنده»، بدل: «عندها».

(٧) في (ظ) و (د): الجنة.

والهاء للنبيِّ ﷺ[١]. وقال الأخفش: أدركه، كما تقول: جنَّه الليلُ، أي: ستَره وأدركه. وقراءة العامة: «جَنَّةُ الْمَأْوَى»، قال الحسن: هي التي يصير إليها المتَّقون[٢]. وقيل: إنَّها الجنَّة التي تصير إليها أرواح الشهداء، قاله ابن عباس. وهي عن يمين العرش[٣]. وقيل: هي الجنَّة التي آوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أُخرج منها، وهي في السماء السابعة[٤]. وقيل: إنَّ أرواحَ[٥] المؤمنين كلَّهم في جنَّة المأوى. وإنَّما قيل لها: جنة المأوى؛ لأنَّها تأوي إليها أرواح المؤمنين، وهي تحت العرش فيتنعَّمون بنعيمها، ويتنسَّمون بطيب رِيْحها. وقيل: لأنَّ جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها[٦]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال ابن عباس والضحَّاك وابن مسعود وأصحابه: فَرَاش من ذهب[٧]. ورواه مرفوعاً ابن مسعود وابنُ عباس إلى النبيِّ ﷺ[٨]. وقد تقدَّم في «صحيح مسلم»[٩] عن ابن مسعود قوله.

وقال الحسن: غشيها نورُ ربِّ العالمين، فاستنارت[١٠]. قال القشيريُّ: وسُئل رسولُ الله ﷺ ما غشيها؟ قال: «فَرَاش من ذهب»[١١]. وفي خبر آخر: «غشيها نورٌ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٩ .

(٢) زاد المسير ٨/ ٦٩ ، وذكره الرازي ٢٨/ ٢٩٢ دون عزو.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٩٦ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧١ ، وأشار محققه إلى أن لفظة: السابعة. جاءت في إحدى النسخ: الرابعة. وكذا وردت في النسخة (ظ) عندنا.

(٥) في (م): أزواح.

(٦) الوسيط ٤/ ١٩٨ بنحوه.

(٧) أثر ابن مسعود ذكره البغوي في التفسير ٤/ ٢٤٨ ، وهو جزء من الحديث المتقدم قريباً، وسلف تخريجه هناك.

(٨) حديث ابن عباس أخرجه أبو يعلى (٢٦٥٦)، والطبري ٢٢/ ٤١ .

(٩) برقم (١٧٣)، وسلف قريباً.

(١٠) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٨ .

(١١) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢ عن يعقوب بن زيد.

من الله حتى ما يستطيع أحدٌ أن ينظر إليها»[١]. وقال الربيع بن أنس: غشيها نورُ الربِّ، والملائكة تقع عليها كما يقع الغِربان على الشجرة[٢]. وعن النبي ﷺ قال: «رأيت السّدرةَ يغشاها فَرَاش من ذهب، ورأيت على كلِّ وَرَقةٍ مَلَكاً قائماً يسبِّح الله تعالى» وذلك قوله: «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» ذكره المهدويُّ والثعلبيُّ[٣]. وقال أنس ابن مالك: «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» قال: جراد من ذهب. وقد رواه مرفوعاً[٤]. وقال مجاهد: إنَّه رَفْرَف أخضرُ. وعنه عليه الصلاة والسلام: «يغشاها رَفْرَف من طير خضر»[٥]. وعن ابن عباس: يغشاها ربُّ العزة[٦]، أي: أَمْرُه، كما في «صحيح مسلم»[٧] مرفوعاً: «فلما غشيها من أمر الله ما غشي». وقيل: هو تعظيم الأمر، كأنَّه قال: إذ يغشى السِّدْرة ما أعلم الله به من دلائل ملكوته. وهكذا قوله تعالى: «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى»، «وَالمؤتفكةَ أهوى . فغشاها ما غشى» [النجم: ٥٣] ومثله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ . مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٢].

وقال الماورديُّ في «معاني القرآن» له[٨]: فإن قيل: لم اختيرت السِّدْرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر؟ قيل: لأنَّ السِّدْرَةَ تختصُّ بثلاثة أوصاف: ظلّ مديد،

(١) أخرجه مسلم (١٦٢) عن أنس بن مالك ﷺ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٣ .

(٣) وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢ عن عبد الرحمن بن زيد. قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٦٠-١٦١ : وعبد الرحمن ضعيف، وهذا معضل.

(٤) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٢٦ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٩ ، ولطائف الإشارات ٣/ ٤٨٣ ، قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٦١ : لم أجده.

(٦) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢ .

(٧) برقم (١٦٢) عن أنس بن مالك ﷺ، وتقدم.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٩٦ ، والعبارة من قوله: قال الماوردي... إلى قوله: صوب الله رأسه في النار. جاءت في النسخ الخطية قبل تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، والمثبت من (م) وهو الصواب.

وطعم لذيذ، ورائحة ذكيَّة، فشابهت الإيمانَ الذي يَجمع قولاً وعملاً ونيّةً، فظلُّها من الإيمان بمنزلة العمل؛ لتجاوزه، وطعمها بمنزلة النيَّة؛ لكمونه، ورائحتها بمنزلة القول؛ لظهوره.

وروى أبو داود في «سننه»[١] قال: حدَّثنا نصر بن علي قال: حدَّثنا أبو أسامة، عن ابن جريج، عن عثمان بنِ أبي سليمان، عن سعيد بن محمد بن جُبَير بن مُطْعِم، عن عبد الله بن حُبْشي، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَطَعَ سِدْرةً صَوَّب اللهُ رأسَه في النار» وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال: هذا الحديث مختصر، يعني: من قطع سِدْرة في فلاة ـ يستظلُّ بها ابنُ السبيل والبهائم ـ عَبَثاً وظلماً بغير حقٍّ يكون له فيها، صَوَّب اللهُ رأسَه في النار.

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ قال ابن عباس: أي: ما عَدل يميناً ولا شمالاً، ولا تجاوز الحدَّ الذي رأى[٢]. وقيل: ما جاوز ما أُمر به. وقيل: لم يمدَّ بصرَه إلى غير ما رأى من الآيات. وهذا وصف أدب للنبيِّ ﷺ في ذلك المقام، إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالاً[٣].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ قال ابن عباس: رأى رَفْرَفاً سدَّ الأفق[٤]. وذكر البيهقي عن عبد الله قال: «رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى»[٥]: رأى رَفْرَفاً

---

(١) برقم (٥٢٣٩)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٨٥٥٧)، من طريق مخلد بن يزيد، عن ابن جريج، به. قال المنذري في مختصر السنن ٨/ ٩٩ : وحبشي: بضم الحاء المهملة، وسكون الباء الموحدة، وكسر الشين المعجمة، وياء النسب. اهـ وأخرجه أيضاً أبو داود (٥٢٤٠) عن عروة بن الزبير مرسلاً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٤، والحاكم ٢/ ٤٦٩ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠ .

(٥) بعدها في (م) و (د): قال ابن عباس. ولم ترد هذه العبارة في (ظ) وهو الصواب، وهي كذا في دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٧٢ والنقل منه، والحديث عند البخاري (٤٨٥٨).

أخضرَ سدَّ أفق السماء. وعنه قال: رأى رسولُ الله ﷺ جبريلَ عليه السلام في حُلَّة رفرف أخضر، قد ملأ ما بين السماء والأرض. قال البيهقيُّ[١]: قوله في الحديث: «رأى رَفْرَفاً» يريد جبريلَ عليه السلام في صورته على رفرف. والرفرف: البساط. ويقال: فِراش[٢]. ويقال: بل هو ثوب كان لباساً له، فقد روي أنَّه رآه في حُلَّةِ رفرفٍ.

قلت: خرَّجه الترمذيُّ[٣] عن عبد الله قال: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى» قال: رأى رسول الله ﷺ جبريلَ عليه السلام في حُلَّة من رفرف، قد مَلَأَ ما بين السماء والأرض قال: هذا حديث حسن صحيح.

قلت: وقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى: «دَنَا فَتَدَلَّى» أنَّه على التقديم والتأخير، أي: تدلَّى الرفرفُ لمحمَّد ﷺ ليلةَ المعراج فجلس عليه، ثم رُفع فدنا من ربِّه. قال: «فارقني جبريلُ، وانقطعت عنِّي الأصواتُ، وسمعتُ كلامَ ربِّي» فعلى هذا الرَّفْرَفُ: ما يُقْعَد ويُجلَس عليه كالبساط وغيره. وهو بالمعنى الأوَّل: جبريل. قال عبد الرحمن بن زيد ومقاتل بنُ حيَّان: رأى جبريلَ عليه السلام في صورته التي يكون فيها في السماوات[٤]. وكذا في «صحيح مسلم» عن عبد الله قال: «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى» قال: رأى جبريلَ في صورته له ستُّ مئة جناح[٥]. ولا يبعد مع هذا أن يكون في حُلَّةِ رفرفٍ، وعلى رفرفٍ، والله أعلم.

وقال الضحَّاك: رأى سِدْرةَ المنتهى. وعن ابن مسعود: رأى ما غشيَ السِّدرة من فَرَاش الذهب، حكاه الماورديُّ[٦]. وقيل: رأى المعراج. وقيل: هو ما رأى تلك

---

(١) في دلائل النبوة ٢/ ٣٧٢ .

(٢) النهاية ٢/ ٢٤٢-٢٤٣ .

(٣) برقم (٣٢٨٣)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٤٦٧)، وأحمد (٣٧٤٠).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧١ ونسبه لابن زيد، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٦ .

(٥) سلف ص٢٥ من هذا الجزء.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣٩٧ ، وسلف تخريجه عنه ١٧/ ٩٦ .

الليلة في مَسْراه في عوده وبدئه[١]. وهو أحسن، دليله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء:١]، و«مِن» يجوز أن تكون للتبعيض، وتكون «الْكُبْرَى» مفعولة لـ «رأى» وهي في الأصل صفة الآيات، ووحِّدت لرؤوس الآيات. وأيضاً يجوز نعت الجماعة بنعت الأنثى[٢]، كقوله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨] وقيل: «الْكُبْرَى» نعت لمحذوف، أي: رأى من آيات ربِّه الكبرى[٣]. ويجوز أن تكون «مِن» زائدة، أي: رأى آيات ربِّه الكبرى. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي: رأى الكبرى من آيات ربِّه.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ . وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ لما ذكر الوحي إلى النبيِّ ﷺ، وذكر من آثار قُدرته ما ذكر، حاجَّ المشركين إذ عبدوا ما لا يعقِل وقال: أفرأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها أَوْحَيْنَ إليكم شيئاً كما أُوحِيَ إلى محمَّد[٤]، وكانت اللَّاتُ لثَقِيف، والعُزَّى لقريش وبني كنانة، ومناةُ لبني هلال. وقال هشام[٥]: فكانت مناة لِهُذَيْل وَخُزَاعة، فبعث رسول الله ﷺ عليّاً ﷺ فهدمها عام الفتح. ثم اتخذوا اللَّاتَ بالطائف، وهي أحدث من مَنَاة، وكانت صخرةً مُربَّعة، وكان سَدَنتها من ثَقِيف، وكانوا قد بَنَوْا عليها بناءً، فكانت قريش وجميع العرب تُعظِّمها. وبها كانت العرب تسمِّي: زيدَ اللَّات، وتيمَ اللَّات. وكانت في موضع منارة[٦] مسجد الطائف

(١) في (د): وتدنيه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠ بنحوه.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٩٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠ بنحوه.

(٥) في النسخ الخطية: ابن هشام. والمثبت من (م) وهو الصواب، وهو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وكلامه في كتابه «الأصنام» ص١٤-١٥ .

(٦) ليست في النسخ الخطية، وهي زيادة من (م) والأصنام ص١٦ .

اليسرى، فلم تَزَلْ كذلك إلى أن أسلمت ثَقِيفٌ، فبعث رسولُ الله ﷺ المغيرةَ بنَ شعبة فهدمها، وحرقها بالنار. ثم اتخذوا العُزَّى وهي أحدث من اللَّات، اتخذها ظالم بن أسعد[١]، وكانت بوادي نَخْلة الشاميَّة فوق ذات عِرْق، فبنوا عليها بيتاً[٢]، وكانوا يسمعون منها الصوت.

قال هشام[٣]: وحدَّثني أبي، عن أبي صالح، عن ابنِ عباس قال: كانت العُزَّى شيطانةً تأتي ثلاثَ سَمُرات ببطن نَخْلة، فلما افتتح رسولُ الله ﷺ مكَّةَ، بعث خالدَ بنَ الوليد ﷺ فقال: «إيتِ بَطْنَ نخلة فإنَّك تجد ثلاثَ سَمُرات، فاعْضِد الأولى» فأتاها فَعضَدها، فلما جاء إليه قال: «هل رأيتَ شيئاً» قال: لا. قال: «فاعضِد الثانية» فأتاها فَعضَدها، ثم أتى النبيَّ ﷺ فقال: «هل رأيت شيئاً»؟ قال: لا. قال: «فاعضد الثالثة» فأتاها فإذا هو بحبشيَّة نافشةٍ شعرها، واضعةٍ يَدَيْها[٤] على عاتقها تصرفُ[٥] بأنيابها، وخلفها دُبَيَّةالسُّلَمِيُّ وكان سادِنَها فقال:

يـا عُـزُّ كُـفْـرَانَـكِ لا سـبْـحـانَـكِ إنِّـي رَأَيْـتُ الـلـهَ قَـد أهـانَـكِ[٦]

ثم ضربها ففلق رأسها، فإذا هي حُمَمَة[٧]، ثم عَضَد الشجرة، وقتل دُبَيَّة السادن، ثم أتى النبيَّ ﷺ فأخبره فقال: «تلك العُزَّى»[٨].

---

(١) في النسخ الخطية، سعد، والمثبت من (م) وكتاب الأصنام ص١٨.

(٢) في الأصنام: بساً.

(٣) في النسخ: ابن هشام. والمثبت من الأصنام ص٢٥-٢٨، وهو الصواب، والكلام منه.

(٤) في النسخ الخطية: يدها. والمثبت من (م) وهو الموافق لما جاء في الأصنام.

(٥) في النسخ الخطية: تضرب. والمثبت من (م) وهو الموافق لما جاء في الأصنام، وصَرَف النابُ: صوَّت، معجم متن اللغة (صرف).

(٦) القائل: خالد بن الوليد كما في الأصنام ص٢٦، والكلام منه، والبيت أخرجه عنه الطبراني في الكبير(٣٨١١) عن أبي عبد الرحمن السلمي مرسلاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٧٦: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أنه مرسل.

(٧) في النسخ الخطية: جمجمة. والمثبت من (م) والأصنام، والحممة، الفحم البارد. لسان (حمم).

(٨) وأخرجه الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٨ من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس =

وقال ابن جُبير: العُزَّى: حجر أبيض كانوا يعبدونه[١]. قتادة: بيت[٢] كان ببطن نَخْلة.

ومَنَاة: صنم لخزاعة[٣]. وقيل: إنَّ «اللَّات» فيما ذكر بعض المفسرين أخذَه المشركون من لفظ «الله»، و«العُزَّى» من العزيز، و«مَنَاة» مِن مَنَى اللهُ الشيءَ: إذا قدَّره[٤].

وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحُميد وأبو صالح: «اللَّاتّ» بتشديد التاء[٥]، وقالوا: كان رجلاً يَلُتُّ السَّوِيق للحاجّ ـ ذكره البخاري[٦] عن ابن عباس ـ فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. ابن عباس: كان يبيع السَّوِيق والسَّمْن عند صخرة ويصبه عليها، فلما مات ذلك الرجل، عَبَدَتْ ثَقِيفُ تلك الصخرة؛ إعظاماً لصاحب السَّوِيق[٧].

أبو صالح: إنّما كان رجلاً بالطائف فكان يقوم على آلهتهم، ويَلُتُّ لهم السَّوِيق، فلما مات عبدوه[٨].

= مختصراً، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٤٨٣)، وأبو يعلى (٩٠٢) عن أبي الطفيل بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٧٦: رواه الطبراني، وفيه يحيى بن المنذر، وهو ضعيف. اهـ. والواقدي في المغازي ٣/ ٨٧٣-٨٧٤، ومن طريقه الأزرقي في أخبار مكة ١/ ١٢٧-١٢٨ عن سعيد بن عمرو الهذلي بنحوه.

(١) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٩.

(٢) في (م): نبت. وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٠، ونسبه للضحاك.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٢.

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٧، والمحتسب ٢/ ٢٩٤.

(٦) في صحيحه (٤٨٥٩)، ولتَّ السويقَ، أي: بَلَّه بالماء ونحوه. والسويق: ما يتخذ من الحنطة والشعير. لسان العرب (لتت) و (سوق).

(٧) أخرجه الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٨، والطبري ٢٢/ ٤٨ بنحوه، وينظر التعليق السابق.

(٨) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٨.

مجاهد: كان رجل في رأس جبل له غُنَيْمة يَسْلي منها السَّمْن، ويأخذ منها الأَقِط، ويجمع رِسْلَها، ثم يتَّخذ منها حَيْساً فيطعم الحاجَّ، وكان ببطن نَخْلة، فلما مات عبدوه وهو اللَّات[١]. وقال الكلبيُّ: كان رجلاً من ثَقِيف يقال له: صِرمة بن غنم[٢].

وقيل: إنَّه عامر بن ظَرِب العَدْوانيّ. قال الشاعر:

لا تَنْصُروا الّلات إنَّ الله مُهْلِكُها ... وكيف يَنْصُرُكُم مَنْ ليس يَنْتَصِرُ[٣]

والقراءة الصحيحة «اللَّاتَ» بالتخفيف، اسم صنم، والوقوف عليها بالتاء، وهو اختيار الفرَّاء. قال الفرَّاء[٤]: وقد رأيت الكسائيَّ سأل أبا فَقْعَس الأَسَديَّ فقال: ذاه لذات، وقال: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاهَ». وكذا قرأ الدُّورِيُّ عن الكسائيِّ، والبَزِّيُّ عن ابن كثير «الَّلاه» بالهاء في الوقف[٥]، ومن قال: إنَّ «اللَّات» من الله، وقَف بالهاء أيضاً. وقيل: أصلها لاه، مثل شاه، وهي من لَاهَت، أي: اختفت، قال الشاعر:

لَاهَتْ فما عُرِفت يوماً بخارجةٍ ... يا ليتها خَرجتْ حتَّى رأيناها

وفي «الصحاح»[٦]: اللات: اسم صنم كان لِثَقِيف وكان بالطائف. وبعض العرب يقف عليه بالتاء، وبعضهم بالهاء، قال الأخفش: سمعنا من العرب من يقول: اللَّات

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٩ ، وذكره الفاكهي في أخبار مكة ٥/ ١٦٤ ، وسَلأَ السَّمْنَ: طبخه وعالجه فأذاب زبده. والأقط: شيء يتخذ من اللبن المخيض، يطبخ ثم يترك حتى يمصل. والرِّسل: اللبن ما كان. والحَيْس: الطعام المتخذ من التمر والأقط والسمن. لسان العرب (سلأ) و (أقط) و (رسل) و (حيس).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٩٨ ، وذكر البيت هشام الكلبي في الأصنام ص١٧ ، ونسبه لشداد بن عارض الجشمي.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ٩٧ .

(٥) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص٣٣٦ ، والنشر في القراءات العشر ٢/ ١٣٢ عن الكسائي وحده.

(٦) مادة: (ليه).

والعُزَّى، ويقول: هي اللَّات، فيجعلها تاء في السّكوت، وهي اللَّاتِ فاعلم أنَّه جرّ في موضع الرفع، فهذا مثل: أمسِ، مكسورٌ على كلِّ حال، وهو أجودُ منه؛ لأنَّ الألف واللام اللَّتين في اللّات لا تسقطان وإن كانتا زائدتين. وأمَّا ما سمعنا من الأكثر في اللَّاتِ والعُزَّى في السّكوت عليها فاللّاه؛ لأنَّها هاءٌ فصارت تاءً في الوصل، وهي في تلك اللغة مثل: كان من الأمر كَيْتِ وكَيْتِ، وكذلك هيهاتِ في لغة من كسر[١]؛ إلا أنَّه يجوز في هيهاتِ أن تكون جماعة، ولا يجوز ذلك في اللَّاتِ؛ لأنَّ التاء لا تزاد في الجماعة إلا مع الألف، وإن جعلت الألف والتاء[٢] زائدتين بقي الاسم على حرف واحد.

قوله تعالى: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحيْصن وحُميد ومجاهد والسُّلَميُّ والأعشى عن أبي بكر: «وَمَنَاءَةَ» بالمدِّ والهمز. والباقون: بترك الهمز[٣]، لغتان. وقيل: سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّهم كانوا يريقون عنده الدماء؛ يتقرَّبون بذلك إليه. وبذلك سُمِّيت منًى؛ لكثرة ما يُراق فيها من الدماء[٤]. وكان الكسائيُّ وابن كثير وابن مُحَيْصن يقفون بالهاء على الأصل[٥]. الباقون: بالتاء؛ اتِّباعاً لخطِّ المصحف[٦].

وفي «الصحاح»[٧]: ومناة: اسم صنم كان [لهذيل وخزاعة] بين مكَّة والمدينة، والهاء للتأنيث، ويسكت عليها بالتاء، وهي لغة، والنسبة إليها: مَنَوِيٌّ. وعبدُ مَناةَ بنُ

---

(١) في (م): كسرها.

(٢) في (د) و(ظ): واللام.

(٣) قراءة ابن كثير في السبعة ص٦١٥ ، والتيسير ص٢٠٤ .

(٤) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٣١ ، والكشاف ٤/ ٣٠ .

(٥) قال ابن الجزري في النشر في القراءات العشر ٢/ ١٣٣ : وشذَّ جماعة من العراقيين فرووا عن الكسائي وحده الوقف على مناة بالهاء، وعن الباقين بالتاء، ذكر ذلك ابن سوار وأبو العز وسبط الخياط، وهو غلط... وأكَّد ذلك في ٢/ ٣٧٩ بقوله: وما وقع في كتب بعضهم من أن الكسائي وحده يقف بالهاء والباقون بالتاء، فوهم لعله انقلب عليهم من اللات كما قدمناه في بابه.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٣ .

(٧) مادة: (منا)، وما بين حاصرتين منه.

أُدِّ بن طابِخة، وزيدُ مناةَ بن تميم بن مُرٍّ، يُمَدُّ ويقصر، قال هَوْبَر الحارثيُّ:

أَلَا هَـلْ أَتـى الـتَّـيْـمَ بـنَ عـبـدِ مَـنَـاءةٍ عـلى الشِّنْءِ فيما بيننا ابْنُ تَمِيمِ[1]

قوله تعالى: ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ العرب [لا][2] تقول للثالثة: أخرى، وإنَّما الأخرى نعت للثانية، واختلفوا في وجهها فقال الخليل: إنَّما قال ذلك؛ لوفاق رؤوس الآي، كقوله: ﴿مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ١٨] ولم يقل: أُخَر. وقال الحسين بن الفضل: في الآية تقديم وتأخير، مجازها: أفرأيتم اللّات والعُزَّى الأخرى ومَنَاة الثالثة[3].

وقيل: إنَّما قال: «ومَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى» لأنَّها كانت مرتَّبة عند المشركين في التعظيم بعد اللّات والعُزَّى[4]، فالكلام على نسقه. وقد ذكرنا عن هشام[5]: أن مَنَاةَ كانت أولاً في التقديم، فلذلك كانت مقدَّمة عندهم في التعظيم، والله أعلم. وفي الآية حذف دلَّ عليه الكلام، أي: أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرَّت حتى تكون شركاءَ لله.

ثم قال على جهة التقريع والتوبيخ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ ردًّا عليهم قولهم: الملائكة بناتُ الله، والأصنام بناتُ الله[6].

قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ إِذٗا﴾ يعني: هذه القسمة ﴿قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ أي: جائرة عن العدل، خارجة عن الصواب، مائلة عن الحقِّ.

يقال: ضَازَ في الحكم، أي: جَارَ، وضَازَه حقَّه يَضِيزه ضَيْزاً ـ عن الأخفش ـ

(١) ذكره أيضاً أبو العلاء المعري في الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ ص٦٣، والشِّنْءُ: البغض. لسان العرب (شنأ).

(٢) ليست في النسخ الخطية، والمثبت من (م)، وهو الصواب.

(٣) زاد المسير ٨/ ٧٢ - ٧٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٩٨.

(٥) في النسخ: ابن هشام، والصواب ما أثبتناه، وكما أسلفنا، وهو هشام بن محمد بن السائب، واشتهر بابن الكلبي، وكلامه في الأصنام ص١٣.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠١.

أي: نقصه وبخَسَه. قال: وقد يهمز فيقال: ضأزه يَضْأَزُه ضَأْزاً وأنشد:

فَإنْ تَنْأَ عنَّا نَنْتَقِصْكَ وإنْ تُقِمْ   فقِسْمُكَ مَضْؤوزٌ وأنفُكَ رَاغِمُ[(١)]

وقال الكسائيُّ: يقال: ضازَ يَضِيز ضَيْزاً، وضازَ يَضُوز ضَوْزاً، وضَأَز يَضْأز ضأزاً: إذا ظلم وتعدَّى وبخَس وانتقص[(٢)]. قال الشاعر:

ضَازَتْ بنو أَسدٍ بِحُكْمِهِمُ   إذ يجعلون الرأسَ كالذَّنَبِ[(٣)]

قوله تعالى: «قِسْمَةٌ ضِيزَى» أي: جائرة، وهي فُعْلى، مِثل: طُوبَى وحُبْلى، وإنَّما كسروا الضاد؛ لتسلم الياء؛ لأنه ليس في الكلام «فِعْلى» صفةٌ، وإنَّما هو من بناء الأسماء كالشِّعْرى والدِّفْلى. قال الفرَّاء: وبعض العرب تقول: ضُؤْزى وضِئْزى بالهمز. وحكى أبو حاتم عن أبي زيد: أنَّه سمع العرب تهمز «ضِيزى»[(٤)].

قال غيره: وبها قرأ ابن كثير، جعله مصدراً، مثل ذِكرى[(٥)]، وليس بصفة، إذ ليس في الصفات «فِعْلى»، ولا يكون أصلها «فُعْلى»، إذ ليس فيها ما يوجب القلب، وهي من قولهم: ضأزته، أي: ظلمته. فالمعنى: قسمة ذات ظلم. وقد قيل: هما لغتان بمعنًى. وحكى فيها أيضاً سواهما: ضَيْزَى وضَأْزى، وضُوزَى وضُؤْزى[(٦)]. وقال المؤرِّج: كرهوا ضمَّ الضاد في ضِيزى، وخافوا انقلاب الياء واواً، وهي من بنات الواو، فكسروا الضاد لهذه العلَّة، كما قالوا في جمع أبيض: بِيضٌ، والأصل بُوضٌ،

---

(١) الصحاح (ضيز)، وذكر البيت أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٥٢ ، والماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩٩ ، وجاء في الصحاح: فحقك، وفي التهذيب: فحظك، بدل: فقسمك، وفي النسخ الخطية: تغب، بدل: تقم.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٠ .

(٣) القائل امرؤ القيس كما ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٧ وعزاه إلى الطستي في مسائله عن ابن عباس رضي الله عنهما، وورد في الدر: يعدلون، بدل: يجعلون.

(٤) الصحاح (ضيز)، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠١ ، والقراءة في السبعة ص٦١٥ ، والتيسير ص٢٠٤ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٣ .

مثل: حُمْر وصُفْر وخُضْر. فأمَّا من قال: ضاز يَضُوز، فالاسم منه: ضُوزَى مثل شُورَى[١].

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي: ما هي ـ يعني هذه الأوثان ـ «إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا» يعني: نَحتُّموها وسمَّيتموها آلهةً. ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: قلَّدتموهم في ذلك. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما أنزل الله بها من حجّة ولا برهان. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ عاد من الخطاب إلى الخبر[٢]، أي: ما يتَّبع هؤلاء إلَّا الظَّنَّ. ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: تميل إليه.

وقراءة العامة: «يَتَّبِعُونَ» بالياء. وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وابن السَّمَيْفَع «تَتَّبِعُونَ» بالتاء على الخطاب. وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس[٣]. ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: البيان من جهة الرسول أنَّها ليست بآلهة[٤]. ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي: اشتهى، أي: ليس ذلك له[٥]. وقيل: «لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى» [من البنين، أي: يكون له دون البنات[٦]. وقيل: «أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى» من غير جزاء! ليس الأمر كذلك. وقيل: «أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى» من النبوّة أن تكون فيه دون غيره[٧]. وقيل: «أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٠ ولم ينسبه للمؤرِّج.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥١ .

(٣) الكشاف ٤/ ٣١ ، وتفسير الرازي ٢٨/ ٣٠٠ دون عزو، والبحر المحيط ٨/ ١٦٢-١٦٣ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٣ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٩٩ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٩٩ ، وما بين حاصرتين ليست في (د).

تَمَنَّى»] من شفاعة الأصنام[١]، نزلت في النضر بن الحارث. وقيل: في الوليد بن المغيرة[٢]. وقيل: في سائر الكفار.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، لا ما تمنَّى أحد[٣].

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عَبَدَ الملائكة والأصنام، وزعم أنَّ ذلك يقرِّبه إلى الله تعالى، فأعلم أنَّ الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذنَ أن يشفع له[٤]. قال الأخفش: الملَك واحد، ومعناه جمع، وهو كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]. وقيل: إنَّما ذكر ملَكاً واحداً؛ لأنَّ «كَمْ» تدلُّ على الجمع[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ هم الكفار الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والأصنام بنات الله. ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: كتسمية الأنثى، أي: يعتقدون أنَّ الملائكة إناث، وأنَّهم بناتُ الله[٦]. ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: إنَّهم لم يشاهدوا خلقَه الملائكةَ، ولم يسمعوا ما قالوه من رسول الله ﷺ، ولم يَرَوْهُ في كتاب.

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٠٠ .

(٢) الكشاف ٤/ ٣١ .

(٣) الكشاف ٤/ ٣١ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٣.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٩ .

(٦) الوسيط ٤/ ٢٠٠ .

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتَّبعُونَ ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في أنَّ الملائكةَ إناث. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ يعني: القرآن والإيمان[1]، وهذا منسوخ بآية السيف[2]. ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ نزلت في النَّضر. وقيل: في الوليد. ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: إنَّما يُبصرون أمر دنياهم، ويَجهلون أمر دينهم. قال الفرَّاء[3]: صغَّرهم وازدرى بهم، أي: ذلك قَدْر عقولهم ونهاية عِلْمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة. وقيل: أن جعلوا الملائكةَ والأصنامَ بناتِ الله. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: حاد عن دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فيجازي كُلًّا بأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ اللام متعلِّقة بالمعنى الذي دلَّ عليه: «وَلِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» كأنَّه قال: هو مالك ذلك، يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء؛ ليجزيَ المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته[4]. وقيل: «لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» معترض في الكلام، والمعنى: إنَّ ربَّك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى؛ ليجزي[5]. وقيل: هي لام العاقبة[6]، أي: ولله ما في السماوات وما في الأرض،

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥١ .

(٢) الوسيط ٤/ ٢٠١ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٠٠ .

(٤) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٣ - ٦٩٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٣ .

(٦) زاد المسير ٨/ ٧٥ .

أي: وعاقبة أَمْرِ الخَلْق أن يكون فيهم مسيْء ومحسن؛ فللمسِيْء السُّوأى وهي جهنَّم، وللمحسن الحسنى وهي الجنة.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هذا نعت للمحسنين[(١)]، أي: هم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشِّرك؛ لأنَّه أكبر الآثام، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثَّاب وحمزة والكسائيُّ: «كَبيرَ» على التوحيد[(٢)]، وفسَّره ابن عباس بالشِّرك. «وَالْفَوَاحِشَ» الزنى[(٣)]. وقال مقاتل: «كَبَائِرَ الْإِثْم»: كلُّ ذنب خُتِمَ بالنار. «وَالْفَوَاحِشَ»: كلُّ ذنب فيه الحدُّ[(٤)]. وقد مضى في «النساء»[(٥)] القول في هذا. ثم استثنى استثناءً منقطعاً وهي:

المسألة الثانية: فقال: «إِلَّا اللَّمَمَ»: وهي الصغائر التي لا يَسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه.

وقد اختلف في معناها، فقال أبو هريرة وابن عباس والشعبيُّ: «اللَّمَمُ»: كلُّ ما دون الزنى[(٦)]. وذكر مقاتل بن سليمان: أنَّ هذه الآيةَ نزلت في رجل كان يُسمَّى نبهان التمَّار، كان له حانوت يبيع فيه تمراً، فجاءته امرأة تشتري منه تمراً فقال لها: إنَّ داخل الدكان ما هو خيرٌ من هذا، فلما دخلت راودها، فأبت وانصرفت، فندم نبهان، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله! ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٣.

(٢) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٦١٥، والتيسير ص١٩٥، وقراءة الأعمش ويحيى بن وثاب في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٣.

(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٠.

(٤) زاد المسير ٨/ ٧٥ ولم ينسبه.

(٥) ٦/ ٢٦٢.

(٦) الوسيط ٤/ ٢٠١.

فعلته إلا الجماع. فقال: «لعلَّ زوجَها غازٍ» فنزلت هذه الآية[1]، وقد مضى في آخر «هود»[2].

وكذا قال ابن مسعود وأبو سعيد الخُدريُّ وحذيفة ومسروق: إنَّ اللمم ما دون الوطء من القُبلة والغَمْزة والنظرة والمضاجعة[3].

وروى مسروق عن عبد الله بنِ مسعود قال: زنى العينين النظر، وزنى اليدين البطش، وزنى الرِّجلين المشي، وإنَّما يصدِّق ذلك أو يكذِّبه الفَرْجُ، فإن تقدَّم كان زنًى، وإن تأخَّر كان لَمَماً[4]. وفي «صحيح البخاري ومسلم»[5] عن ابنِ عباس قال: ما رأيتُ شيئاً أشبه باللَّمم مما قال أبو هريرة: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ كتب على ابن آدم حظَّه من الزنى، أدرك ذلك لا محالةَ، فزنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تمنَّى وتشتهي، والفرج يصدِّق ذلك أو يكذِّبه». والمعنى: أنَّ الفاحشة العظيمة والزنى التامَّ الموجِب للحدِّ في الدنيا والعقوبة في الآخرة، هو في الفَرْج، وغيرُه له حظٌّ من الإثم[6]. والله أعلم.

وفي رواية أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «كُتِب على ابن آدمَ نصيبه من الزنى، مُدْرِكٌ ذلك لا محالةَ، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجل زناها الخُطَا، والقلب

(١) سلف ٥/ ٣٢٢.

(٢) ١١/ ٢٣٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٢.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٥٥، والطبري ٢٢/ ٦٢، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٠، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٠٦٠) من طريق أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود به، ولم يرد: مسروق، في إسناد عبد الرزاق والطبري. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٥) البخاري (٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧) واللفظ له، وهو عند أحمد (٧٧١٩).

(٦) إكمال المعلم ٨/ ١٤٥.

يَهْوَى ويتمنَّى، ويصدِّق ذلك الفَرْجُ ويكذِّبه». خرَّجه مسلم[١]. وقد ذكر الثعلبيُّ حديثَ طاوس عن ابن عباس، فذكر فيه الأُذن واليد والرِّجل، وزاد فيه بعد العينين واللسان: «وزنى الشفتين القُبلة»[٢]. فهذا قول.

وقال ابن عباس أيضاً: هو الرجل يُلِمُّ بذنب ثم يتوب. قال: أَلَم تسمع النبيَّ ﷺ كان يقول:

إن تَـغـفـر الـلَّـهُـمَّ تَـغـفـر جَـمّـا وأيُّ عـبـدٍ لـك لا أَلَـمَّـا

رواه عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس[٣]. قال النحَّاس: هذا أصحُّ ما قيل فيه وأجلُّها إسناداً.

وروى شعبة، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ: «إِلَّا اللَّمَمَ» قال: هو أن يُلِمَّ العبدُ بالذنب ثم لا يعاوده، قال الشاعر:

إن تَـغـفِـرِ الـلَّـهـمَّ تـغـفـر جَـمَّـا وأيُّ عـبـدٍ لـك لا أَلَـمَّـا[٤]

وكذا قال مجاهد والحسن: هو الذي يأتي الذنب ثم لا يعاوده[٥]. ونحوه عن

---

(١) في صحيحه (٢٦٥٧): (٢١).

(٢) وقد وردت هذه الزيادة في حديث ابن مسعود السالف الذكر، وثمة تخريجه هناك.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٨٤) من طريق زكريا بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، به. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق. اهـ. والبيت لأمية بن أبي الصلت، وهو في ديوانه ص٥٨، ونسبه بعضهم لأبي خِراش الهذلي كما في أمالي ابن الشجري ٢/ ٥٣٦، وشرح أشعار الهذليين ٣/ ١٣٤٦ وغيرها من المصادر، لكن قال البغدادي في خزانة الأدب ٢/ ٢٩٥: وزعم العيني أنه لأبي خراش الهذلي، وهذا خطأ، وإنما هو لأمية بن أبي الصلت، قاله عند موته، وقد أخذه أبو خراش منه. وينظر التعليق الآتي.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٨٥، وفي شعب الإيمان (٧٠٥٧) من طريق آدم بن أبي إياس، عن شعبة، به. وقال: هذا هو المحفوظ موقوف. اهـ. وأخرجه أيضاً الطبري ٢٢/ ٦٤ من طريق محمد ابن جعفر، عن شعبة، به. إلا أنه لم يذكر ابن عباس في إسناده.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٠٠، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٦٤ عن مجاهد بنحو قول ابن عباس الآنف الذكر، وأخرجه مجاهد في التفسير ٢/ ٦٣١، والطبري ٢٢/ ٦٤ - ٦٥ عن الحسن بنحوه.

الزهري، قال: اللَّمم: أن يزنيَ ثم يتوب فلا يعود، وأن يسرقَ أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود. ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية [١٣٥ من آل عمران]. ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٦] فضمن لهم المغفرة، كما قال عقيبَ اللَّمم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فعلى هذا التأويل يكون «إِلَّا اللَّمَمَ» استثناء متصل. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللَّمم: ما دون الشرك[1]. وقيل: اللَّمم: الذنب بين الحدَّين، وهو ما لم يأتِ عليه حدٌّ في الدنيا، ولا تُوعِّد عليه بعذاب في الآخرة، تكفِّره الصلوات الخمس. قاله ابن زيد وعكرمة والضحاك وقتادة[2]. ورواه العوفيُّ والحكم بن عتيبة عن ابن عباس[3].

وقال الكلبيُّ: اللَّمم على وجهين: كلُّ ذنب لم يَذكر اللهُ عليه حدًّا في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة، فذلك الذي تكفِّره الصلوات الخمس، ما لم يبلغ الكبائرَ والفواحشَ. والوجه الآخر: هو الذنب العظيم يُلِمُّ به الإنسان المرَّة بعد المرَّة فيتوب منه[4].

وعن ابن عباس أيضاً وأبي هريرة وزيد بن ثابت: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به. وذلك أنَّ المشركين قالوا للمسلمين: إنَّما كنتم بالأمسِ تعملون معنا، فنزلت، وقاله زيد بن أسلم وابنه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[5] [النساء: ٢٣].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٢، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٦.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ وعزاه إلى أبي هريرة وابن عباس، والنكت والعيون ٥/ ٤٠١ وعزاه إلى ابن عباس وقتادة، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٦٧ - ٦٨ عن ابن عباس وابن الزبير وعكرمة وقتادة والضحاك.

(٣) أورده ابن كثير في التفسير ٧/ ٤٦٢ عن العوفي عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٦٧ عن الحكم بن عتيبة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ ولم ينسبه لأبي هريرة، وذكره عنه أبو الليث السمرقندي في التفسير ٣/ ٢٩٣.

وقيل: اللَّمم: هو أن يأتيَ بذنب لم يكن له بعادة، قاله نفطويه[1]. قال: والعرب تقول: ما يأتينا إلَّا لِمَاماً؛ أي: في الحين بعد الحين. قال: ولا يكون أن يُلِمَّ ولا يفعل؛ لأنَّ العرب لا تقول: ألمَّ بنا، إلا إذا فعل الإنسان، لا إذا همَّ ولم يفعله. وفي «الصحاح»[2]: وألمَّ الرجل، من اللَّمم: وهو صغائر الذنوب، ويقال: هو مقاربة المعصية من غير مواقعة. وأنشد غير الجوهريِّ:

بِزينَب أَلْمِمْ قبل أن يَرْحَلَ الرَّكبُ وقُلْ إنْ تَمَلِّينَا فما مَلَّكِ الْقَلْبُ[3]

أي: اقرب.

وقال عطاء بن أبي رباح: اللَّمم: عادة النفس الحين بعد الحين[4]. وقال سعيد ابن المسيّب: هو ما ألمَّ على القلب، أي: خطر[5]. وقال محمد ابن الحنفيَّة: كلُّ ما هممتَ به من خير أو شرٍّ، فهو لمَمَ[6]. ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ للشيطان لَمَّة، وللملَك لَمَّة» الحديث. وقد مضى في «البقرة»[7] عند قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ [الآية: ٢٣٨].

وقال أبو إسحاق الزجَّاج: أصل اللَّمم والإلمام: ما يعمله الإنسان المرَّة بعد المرَّة ولا يتعمَّق فيه ولا يقيم عليه[8]. يقال: ألممت به، إذا زرته وانصرفت عنه، ويقال: ما فعلته إلا لَمَماً وإلماماً، أي: الحين بعد الحين. وإنَّما زيارتك إلمام[9]،

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ .

(٢) مادة: (لمم).

(٣) القائل نُصَيْب بن رباح، والبيت في ديوانه ص٦٠ .

(٤) الكشاف ٤/ ٣٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ .

(٦) زاد المسير ٨/ ٧٦ .

(٧) ٤/ ٣٥٥ .

(٨) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٤ ، والوسيط ٤/ ٢٠٢ بنحوه.

(٩) لسان العرب (لمم) بنحوه.

ومنه إلمام الخيال، قال الأعشى[(١)]:

أَلَـمَّ خَـيَـالٌ مِـن قُـتَـيْـلَـةَ بَـعْـدَ مَـا وَهَـى حَبْلُـهـا مِـن حَبْـلِـنَـا فَـتَـصَـرَّمَـا

وقيل: «إلا» بمعنى الواو[(٢)]. وأنكر هذا الفرَّاء[(٣)] وقال: المعنى إلا المتقارب من صغار الذنوب. وقيل: اللَّمم: النظرة التي تكون فجأة[(٤)].

قلت: هذا فيه بعدٌ، إذ هو معفوٌّ عنه ابتداءً، غير مؤاخذ به؛ لأنه يقع من غير قصد واختيار، وقد مضى في «النور» بيانه[(٥)].

واللَّمم أيضاً: طَرَفٌ من الجنون، ورجل ملموم، أي: به لَمَمٌ. ويقال أيضاً: أصابت فلاناً لَمَّةٌ من الجنِّ، وهي المسُّ، والشيء القليل، قال الشاعر:

فـإذا وذَلِـك يـا كُـبَـيْـشَـةُ لَـمْ يَـكُـنْ إِلَّا كَـلَـمَّـةِ حـالِـمٍ بِـخَـيـالِ[(٦)]

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ لمن تاب من ذنبه واستغفر، قاله ابن عباس[(٧)]. وقال أبو ميسرة عمرو بن شَرَحْبيل وكان من أفاضل أصحاب ابنِ مسعود: رأيتُ في المنام كأنِّي دخلتُ الجنَّة، فإذا قِباب مضروبة، فقلت: لمن هذه؟ فقالوا: لذي الكَلَاع وحَوْشَب ـ وكانا ممن قَتل بعضهم بعضاً ـ فقلت: وكيف ذلك؟ فقالوا: إنَّهما لقيا اللهَ فوجداه واسعَ المغفرة. فقال أبو خالد: بلغني أنَّ ذا الكَلَاع أعتق اثني عشَر ألف بيت[(٨)].

(١) في ديوانه ص٥٥ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٣ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٠٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ ونسبه للحسين بن الفضل.

(٥) ١٥/ ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٦) الصحاح (لمم) ولم ينسب البيت فيه، ونسب في لسان العرب (لمم) إلى ابن مقبل، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٧) الوسيط ٤/ ٢٠٢ .

(٨) أخرجه سعيد بن منصور في السنن ٢/ ٣٤٠ ، وابن أبي شيبة ١٥/ ٢٩٠ ، وأبو نعيم في الحلية =

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ من أنفسكم ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أباكم آدم من الطين[١]، وخرج اللفظ على الجمع.

قال الترمذيُّ أبو عبد الله: وليس هو كذلك عندنا، بل وقع الإنشاء على التربة التي رفعت من الأرض، وكنَّا جميعاً في تلك التربة وفي تلك الطينة، ثم خرجت من الطينة المياه إلى الأصلاب مع ذَرْوِ النفوس على اختلاف هيئتها، ثم استخرجها من صُلْبها على اختلاف الهيئات، منهم كالدُّرِّ يتلألأ، وبعضهم أنور من بعض، وبعضهم أسود كالحُمَمَة، وبعضهم أشدُّ سواداً من بعض، فكان الإنشاء واقعاً علينا وعليه. حدَّثنا عيسى بن حماد العسقلانيُّ قال: حدَّثنا بِشر بنُ بَكرٍ، قال: حدَّثنا الأوزاعيُّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِض عليَّ الأوَّلون والآخرون بين يدي حجرتي هذه الليلة» فقال قائل: يا رسولَ الله! ومَن مضى من الخَلْق؟ قال: «نعم، عُرِض عليَّ آدم فمن دونه، فهل كان خُلِقَ أحد» قالوا: ومن في أصلاب الرجال وبطون الأُمَّهات؟ قال: «نعم، مثلوا في الطين فعرفتهم، كما علم آدم الأسماء كلَّها»[٢].

قلت: وقد تقدَّم في أوَّل «الأنعام»[٣] أنَّ كلَّ إنسان يُخلَق من طين البقعة التي يدفن فيها.

﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جمع جَنِين: وهو الولد ما دام في البطن، سُمِّيَ جنيناً؛ لاجتنانه واستتاره[٤]. قال عمرو بن كُلْثوم:

هِجانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرأْ جَنِينا[٥]

= ٤/ ١٤٣، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٧٤. وقول أبي خالد ـ وهو يزيد بن هارون من رجال الإسناد ـ جاء عقب رواية البيهقي هكذا: ...فإن ذا الكلاع وحوشب أعتقا اثني عشر ألف أهل بيت، وذكر من محاسنهم أشياء. اهـ وجاء في (م) و(د): بنت، بدل: بيت.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) ٨/ ٣١٩.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣.

(٥) سلف ٤/ ٣٨.

وقال مكحول: كنَّا أجنَّة في بطون أمهاتنا، فسقط منَّا من سقط، وكنَّا فيمن بقي، ثم صرنا رُضَّعاً، فهلك منَّا من هلك، وكنا فيمن بقي، ثم صرنا يَفَعةً، فهلك منَّا من هلك، وكنَّا فيمن بقي، ثم صرنا شباباً، فهلك منَّا من هلك، وكنَّا فيمن بقي، ثم صرنا شيوخاً ـ لا أبَا لك! ـ فما بعد هذا ننتظر[١]؟!.

وروى ابنُ لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبيٌّ صغير: هو صِدِّيق. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «كذبت يهود، ما من نَسَمة يخلقها الله في بطن أمِّه إلا أنَّه شقيٌّ أو سعيد» فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» إلى آخرها[٢]. ونحوه عن عائشة: «كان اليهود». بمثله[٣].

﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تمدحوها ولا تثنوا عليها[٤]، فإنَّه أبعد من الرياء، وأقرب إلى الخشوع. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي: أَخْلَصَ العمل، واتَّقى عقوبةَ الله، عن الحسن وغيره[٥]. قال الحسن: قد عَلِمَ اللهُ سبحانه كلَّ نفس ما هي عاملة، وما هي صانعة، وإلى ما هي صائرة[٦]. وقد مضى في «النساء»[٧] الكلام في معنى هذه الآية عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ [الآية:٤٩] فتأمَّله هناك. وقال ابن عباس: ما من أحد من هذه الأمَّة أزكِّيه غير رسول الله ﷺ[٨]. والله تعالى أعلم.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٢ .

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٤٢٢ ، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٣٦٨) من طريق يحيى بن بكير، عن ابن لهيعة، به.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٣ .

(٥) زاد المسير ٨/ ٧٧ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٠٢ .

(٧) ٦/ ٤٠٧ .

(٨) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٥٢٥)، والطبراني في الكبير (١١٠٢٤).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ الآيات، لما بيَّن جهل المشركين في عبادة الأصنام، ذكر واحداً منهم معيَّناً بسوء فعله. قال مجاهد وابن زيد ومقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتَّبع رسولَ الله ﷺ على دينه، فعيَّره بعض المشركين، وقال: لِمَ تركتَ دينَ الأشياخ وضَلَّلتهم[١] وزعمت أنَّهم في النار؟! قال: إنِّي خشيتُ عذاب الله، فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمَّل عنه عذاب الله[٢]، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن [له] ثم بَخِلَ ومنعَه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مقاتل: كان[٣] الوليد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل: «وَأَعْطَى قَلِيلاً» أي: من الخير بلسانه «وَأَكْدَى» أي: قطع ذلك وأمسك عنه[٤]. وعنه: أنَّه أعطى رسولَ الله ﷺ عقد الإيمان ثم تولَّى، فنزلت: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى» الآية.

وقال ابن عباس والسُّدِّيُّ والكلبيُّ والمسيّب بن شريك: نزلت في عثمان بن عفان ﷺ كان يتصدَّق وينفق في الخير، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سَرْح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك ألَّا يبقى لك شيء. فقال عثمان: إنَّ لي ذنوباً وخطايا، وإنِّي أطلب بما أصنع رضا الله تعالى، وأرجو عفوه! فقال له عبد الله: أعطني ناقتك برَحْلها وأنا أتحمَّل عنك ذنوبك كلّها. فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عن

---

(١) في (ظ): وملكهم، وفي (د): وملتهم، وفي (ف): ومللهم، والمثبت من (م)، وأسباب النزول للواحدي ص٤٢٣ ، والكلام منه دون نسبته إلى مقاتل، وما بين حاصرتين منه أيضاً، والخبر أخرجه الطبري ٢٢/ ٧٢ عن ابن زيد بتمامه، وعن مجاهد مختصراً، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٦٣١ .

(٢) بعدها في (د) و(ظ) و(ف): ففعل. ولم ترد في أسباب النزول.

(٣) في (م): كال. وهو خطأ.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣ .

بعض ما كان يصنع [من الصدقة] فأنزل الله تعالى: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى. وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى» فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله. ذكر ذلك الواحديُّ[١] والثعلبيُّ.

وقال السُّدِّيُّ أيضاً: نزلت في العاص بن وائل السَّهْميّ، وذلك أنَّه كان ربَّما يوافق النبيَّ ﷺ في بعض الأمور[٢]. وقال محمد بن كعب القرظيُّ: نزلت في أبي جهل ابن هشام، قال: واللهِ ما يأمر محمدٌ إلا بمكارم الأخلاق، فذلك قوله تعالى: «وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى»[٣]. وقال الضحَّاك: هو النَّضْر بن الحارث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حتى[٤] ارتدَّ عن دينه، وضمن له أن يتحمَّل عنه مأثم رجوعه.

وأصل «أَكْدَى» من الكُدْية، يقال لمن حَفَر بئراً ثم بلغ إلى حَجَرٍ لا يتهيَّأ له فيه حَفْر: قد أَكْدَى، ثم استعملته العرب لمن أعطى ولم يُتمِّم، ولمن طلب شيئاً ولم يبلغ آخره[٥]. وقال الحُطَيْئة[٦]:

فأعطى قليلاً ثم أَكْدَى عطاءَه ... ومن يَبْذُلِ المعروفَ في الناسِ يُحمَدِ

قال الكسائيُّ وغيره: أَكْدَى الحافرُ وأَجْبل: إذا بلغ في حَفْره كُدْية أو جبلاً، فلا يمكنه أن يَحفِر. وحفر فأكْدَى: إذا بلغ إلى الصُّلْب. ويقال: كَدِيت أصابعه: إذا كَلَّتْ من الحفر[٧].

---

(١) في أسباب النزول ص٤٢٢-٤٢٣ ، وما بين حاصرتين منه، وذكر الخبر أيضاً الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٣ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٥ ونسبه للثعلبي، ولكنَّ ابن عطية ردَّ الخبرَ بقوله: وذلك كله عندي باطل، وعثمان منزَّه عن مثله.

(٢) قوله: في بعض الأمور. لم يرد في (م).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣ ، وزاد المسير ٨/ ٧٨ .

(٤) في (م): حين. والمثبت من النسخ الخطية وزاد المسير ٨/ ٧٨ ، والكلام منه.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٩ .

(٦) لم نقف عليه في ديوانه.

(٧) الصحاح (كدي).

وكَدِيت يدهُ: إذا كَلَّتْ، فلم تعمل شيئاً. وأكْدَى النَّبتُ: إذا قلَّ رَيْعه. وكَدَتِ الأرض تَكْدُو كَدْواً فهي كَادِيَةٌ: إذا أبطأ نباتها، عن أبي زيد(١). وأكْدَيْتُ الرجلَ عن الشيء: رددتُه عنه. وأكْدَى الرجلُ: إذا قلَّ خيره. وقوله: «وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى» أي: قطع القليل(٢).

قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أي: أعند هذا المكدِي علمُ ما غاب عنه من أمر العذاب؟! «فَهُوَ يَرَى» أي: يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة، وما يكون من أمره حتى يضمن حَمْلَ العذاب عن غيره(٣)؟! وكفى بهذا جهلاً وحمقاً. وهذه الرؤية هي المتعدِّية إلى مفعولين، والمفعولان محذوفان، كأنَّه قال: فهو يرى الغيبَ مثلَ الشهادة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ . وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: وصحف إبْرَاهيمَ ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ كما في سورة «الأعلى»: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الآية:١٩] أي: لا تؤخذ نفس بدلاً عن أخرى، كما قال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وخصَّ صحف إبراهيم وموسى بالذِّكْر؛ لأنَّه كان ما بين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة ابنه وأبيه(٤)، قاله الهذيل بن شرحبيل.

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ٣٢٥.

(٢) الصحاح (كدي).

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٩.

(٤) في (د) و(م): أخيه وابنه وأبيه. والمثبت من (ظ) و (ف) وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٤٠٣ والكلام منه.

و «أنْ» هذه المخفَّفة من الثقيلة، وموضعها جرٌّ بدلاً من «ما»، أو يكون في موضع رفع على إضمار «هو»(١).

وقرأ سعيد بن جبير وقتادة: «وَفَى» خفيفة(٢)، ومعناها: صَدَق في قوله وعمله، وهي راجعة إلى معنى قراءة الجماعة: «وَفَّى» بالتشديد، أي: قام بجميع ما فُرض عليه فلم يَخْرم منه شيئاً. وقد مضى في «البقرة»(٣) عند قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [الآية: ١٢٤] والتوفية: الإتمام. وقال أبو بكر الورَّاق: قام بشرط ما ادَّعى، وذلك أنَّ الله تعالى قال له: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] فطالبه الله بصحَّة دعواه، فابتلاه في ماله وولده ونفسه، فوجده وافياً بذلك، فذلك قوله: «وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى» أي: ادَّعى الإسلام، ثم صحَّح دعواه.

وقيل: «وفَّى عمله كلَّ يوم بأربع ركعات في صدر النهار» رواه الهيثم عن أبي أُمامة عن النبي ﷺ(٤). وروى سهل بن سعد الساعدي عن أبيه: «ألَا أُخبركم لم سَمَّى الله تعالى خليلَه إبراهيمَ: «الَّذِي وَفَّى»؛ لأنَّه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾(٥) الآية [١٧ من سورة الروم]. ورواه سهل بن معاذ بن(٦) أنس، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ(٧).

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٣.

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٧ ونسبها إلى ابن جبير واليماني، والمحتسب ٢/ ٢٩٤ ونسبها إلى ما نسبه ابن خالويه في القراءات الشاذة، وزاد: أبا أمامة وأبا مالك. البحر المحيط ٨/ ١٦٧.

(٣) ٢/ ٣٥١.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٠٣، وأخرجه أيضاً الدوري في جزء فيه قراءات النبي ﷺ (١٠٩)، والطبري ٢٢/ ٧٨، والبغوي في التفسير ٤/ ٢٥٤، من طريق القاسم، عن أبي أمامة، به. وفي إسناده: جعفر ابن الزبير، قال عنه ابن حجر في التقريب ١/ ٢١٧: متروك الحديث، وكان صالحاً في نفسه.

(٥) لم نقف عليه، وينظر الحديث الآتي.

(٦) في النسخ عدا (ف): عن: والمثبت من (ف) ومصادر التخريج.

(٧) أخرجه أحمد (١٥٦٢٤)، والطبري ٢٢/ ٧٧-٧٨، والطبراني في الكبير ٢٠/ (٤٢٧) و(٤٢٨)، وابن عدي في الكامل ٣/ ١٠١١. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١١٧: رواه الطبراني، وفيه ضعفاء وثقوا.

وقيل: «وفَّى» أي: وَفَّى ما أُرسل به(١)، وهو قوله: «أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» قال ابن عباس: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذَنْب غيره، ويأخذون الوليَّ بالوليِّ في القتل والجراحة، فيُقتَل الرجل بأبيه وابنه وأخيه وعمه وخاله وابن عمه وقريبه وزوجته وزوجها وعبده، فبلَّغهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى: «أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»(٢). وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير في قوله تعالى «وَفَّى»: عمل بما أمر به، وبلَّغ رسالات ربِّه(٣). وهذا أحسن؛ لأنه عام. وكذا قال مجاهد: «وَفَّى» بما فُرض عليه(٤). وقال أبو مالك الغفاريُّ: قوله تعالى: «أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» إلى قوله: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى» في صحف إبراهيم وموسى(٥). وقد مضى في آخر «الأنعام»(٦) القول في: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ روي عن ابن عباس(٧) أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] فيحصل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه، ويشفِّع اللهُ تعالى الآباءَ في الأبناء، والأبناءَ في الآباء، يدلُّ ذلك على قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١].

---

(١) زاد المسير ٨/ ٨٠ وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٤ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٧٩ إلا أن فيه: إلى قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾.

(٦) ٩/ ١٤٥ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٨٠ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ٣٦ ، قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦ بعد أن أورد الخبر: وهذا لا يصح عندي على ابن عباس، لأنه خبر لا ينسخ، ولأن شروط النسخ ليست هنا، اللهم إلا أن يتجوز في لفظة النسخ ليفهم سائلاً.

وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة، ولا ينفع أحداً عملُ أحدٍ، وأجمعوا أنَّه لا يُصلِّي أحد عن أحد. ولم يُجِز مالك الصيام والحجَّ والصدقة عن الميت، إلا أنَّه قال: إن أوصى بالحجِّ ومات، جاز أن يُحجَّ عنه. وأجاز الشافعيُّ وغيره الحجَّ التطوّع عن الميّت[١]. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنَّها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه[٢]. وروي أنَّ سعد بنَ عبادة قال للنبيِّ ﷺ: إنَّ أمِّي توفيت أفأتصدَّقُ عنها؟ قال: «نعم» قال: فأيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء»[٣]. وقد مضى جميع هذا مستوفًى في «البقرة»[٤] و«آل عمران»[٥] و«الأعراف»[٦].

وقد قيل: إنَّ الله عز وجل إنَّما قال: «وَأَنْ لَيْسَ للإِنْسَانِ إِلَّا ما سعى» ولام الخفض معناها في العربية المِلْكُ والإيجاب، فليس يجب للإنسان إلا ما سعى، فإذا تصدَّق عنه غيرُه، فليس يجب له شيء، إلا أنَّ الله عزَّ وجلَّ يتفضَّل عليه بما لا يجب له، كما يتفضَّل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل[٧]. وقال الربيع بن أنس: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» يعني: الكافر، وأما المؤمن فله ما سَعَى، وما سعى له غيرُه[٨].

قلت: وكثير من الأحاديث يدلُّ على هذا القول، وأنَّ المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره، وقد تقدَّم كثير منها لمن تأملها، وليس في الصدقة اختلاف، كما في صدر «كتاب مسلم»[٩] عن عبد الله بن المبارك. وفي «الصحيح»[١٠]: «إذا

---

(١) قول مالك في المدونة ٦/٥٨، وقول الشافعي في الأم ٤/٤٦.
(٢) أخرجه سعيد بن منصور في السنن ١/١٢٥، وابن أبي شيبة ٣/٩٤.
(٣) سلف ٩/٢٣٣.
(٤) ٤/٥٠٠.
(٥) ٥/٢٢٧.
(٦) ٩/٢٣٣.
(٧) المحرر الوجيز ٥/٢٠٦-٢٠٧ بنحوه.
(٨) المحرر الوجيز ٥/٢٠٦.
(٩) في مقدمة كتابه ١/١٦.
(١٠) مسلم (١٦٣١)، وسلف ١/٨.

مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث» وفيه: «أو ولد صالح يدعو له» وهذا كلُّه تفضُّل من الله عزَّ وجلَّ، كما أنَّ زيادة الأضعاف فَضْلٌ منه؛ كتب لهم بالحسنة الواحدة عَشْراً إلى سبع مئة ضعف إلى ألف ألف حسنة، كما قيل لأبي هريرة: أسمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة»؟ فقال سمعته يقول: «إنَّ الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة»[1] فهذا تفضُّل. وطريق العدل: «أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى».

قلت: ويحتمل أن يكون قوله: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» خاصٌّ في السيئة؛ بدليل ما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: إذا همَّ عبدي بحسنة ولم يعملها، كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها له عَشْر حسنات إلى سبع مئة ضِعف، وإذا همَّ بسيئة ولم يعملها، لم أكتبها عليه، فإن علمها كتبتها سيئةً واحدة»[2].

وقال أبو بكر الورَّاق: «إِلَّا مَا سَعَى» إلا ما نوى[3]. بيانه قوله ﷺ: «يُبعَث الناس يوم القيامة على نيَّاتهم»[4].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: يُريه الله تعالى جزاءه يوم القيامة[5] ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ أي: يُجزَى به ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾. قال الأخفش: يقال: جزيته الجزاء، وجزيته بالجزاء، سواء لا فَرْقَ بينهما، قال الشاعر:

إنْ أَجْزِ عَلْقَمَةَ بنَ سَعْدٍ سَعْيَه ... لم أَجْزِهِ بِبَلاءِ يَوْمٍ واحِدِ

---

(١) سلف ٦/ ٣٢٤.

(٢) سلف ١١/ ٣١٥.

(٣) زاد المسير ٨/ ٨١.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٩) عن أبي هريرة ﷺ، قال البوصيري في الزوائد: في إسناده ليث بن سليم، وهو ضعيف، ويشهد له حديث جابر، وقد رواه مسلم [(٢٨٧٨)] .اهـ. وأخرجه أيضاً مسلم (٢٨٨٤) عن عائشة رضي الله عنها بنحوه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٦.

فجمع بين اللغتين(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: المرجع والمردّ والمصير، فيعاقب ويثيب. وقيل: منه ابتداء المِنَّة، وإليه انتهاء الأمان. وعن أُبيّ بن كعب قال: قال النبيُّ ﷺ في قوله: «وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى» قال: «لا فكرة في الربِّ»(٢). وعن أنس: قال النبيُّ ﷺ: «إذا ذُكِرَ اللهُ تعالى فانْتَهِ»(٣).

قلت: ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام: «يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: من خَلَق كذا وكذا، حتى يقول له: مَن خَلَق ربَّكَ. فإذا بلغ ذلك، فلْيستعِذْ بالله ولْيَنْتهِ» وقد تقدَّم في آخر «الأعراف»(٤). ولقد أحسن من قال:

ولا تُفْكِرنْ في ذِي العُلَا عَزَّ وجهُهُ ... فإنَّكَ تردَى إنْ فعلتَ وتُخذَلُ

ودونَك مصنوعَاتِه فاعتَبِرْ بِها ... وقُلْ مِثلَ ما قال الخليلُ المبَجَّلُ

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ ذهبت الوسائط وبقيت الحقائق لله سبحانه وتعالى فلا فاعلَ إلا هو. وفي «صحيح مسلم»(٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٤-٢٥٥ بنحوه، والبيت لرجل من بهراء اسمه فدكى كما في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ٧٠، وسماه المرزبانيُّ في معجم الشعراء ص٤٤٦ المرفاقَ الطائيَّ وقال: وأحسبه لقباً. اهـ. وجاء فيهما: سيف، بدل: سعد.

(٢) أخرجه البغوي في التفسير ٤/ ٢٥٥، وأخرجه أيضاً أبو الشيخ في العظمة (٦) عن سفيان، قوله.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٩٣ عن أنس، وفي إسناده: سنان بن سعد، ويقال: سعد بن سنان، وقد اختلف فيه فقال النسائي عنه: منكر الحديث. وقال أحمد بن حنبل: روى خمسة عشر حديثاً منكرة كلها، ما أعرف منها واحداً. تهذيب التهذيب ١/ ٦٩٢ - ٦٩٣. وأخرجه أيضاً إسحاق بن راهويه في المسند (٣٩٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٣٥٠) من طريق عطاء الخراساني، عن أبي هريرة مرفوعاً. وإسناده منقطع، لأن عطاء لم يسمع من أبي هريرة.

(٤) ٩/ ٤٢٣.

(٥) برقم (٩٢٩)، وهو عند أحمد (٢٨٨).

لا والله ما قال رسولُ الله قطُّ: إنَّ الميِّتَ يعذَّب ببكاء أحدٍ، ولكنَّه قال: «إنَّ الكافرَ يزيدُه اللهُ ببكاء أهله عذاباً، وإنَّ اللهَ لهو أضحك وأبكى، وما تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى».

وعنها قالت: مَرَّ النبيُّ ﷺ على قوم من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» فنزل عليه جبريلُ فقال: يا محمد! إنَّ الله يقول لك: «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى». فرجع إليهم فقال: «ما خطوتُ أربعين خطوةً حتى أتاني جبريلُ فقال: إيتِ هؤلاء فقل لهم: إنَّ اللهَ تعالى يقول: هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى»[١]. أي: قضى أسبابَ الضحك والبكاء. وقال عطاء بن أبي مسلم: يعني: أفرح وأحزن؛ لأنَّ الفرح يجلب الضحك، والحزن يجلب البكاء[٢]. وقيل لعمر: هل كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم! والإيمان واللهِ أثبتُ في قلوبهم من الجبال الرواسي[٣]. وقد تقدّم هذا المعنى في «النمل»[٤] و «براءة»[٥].

قال الحسن: أضحك اللهُ أهلَ الجنة في الجنة، وأبكى أهلَ النار في النار[٦]. وقيل: أضحك من شاء في الدنيا بأن سَرَّه، وأبكى من شاء بأن غَمَّه[٧]. الضحَّاك: أَضحك الأرض بالنبات، وأَبكى السماء بالمطر[٨]. وقيل: أَضحك الأشجار بالنُّوَّار، وأبكى السحاب بالأمطار[٩]. وقال ذو النون: أَضحك قلوبَ المؤمنين والعارفين بشمس معرفته، وأبكى قلوبَ الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته. وقال سهل

(١) زاد المسير ٨/ ٨٣ ، وأخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٣٠ .
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ .
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ عن ابن عمر بنحوه.
(٤) عند الآية (١٩).
(٥) ١٠/ ٣١٨ .
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ لكن عزاه إلى مجاهد والكلبي.
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٨ .
(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ .
(٩) مجمع البيان للطبرسي ٢٧/ ٥٩ ، والنُّوَّار: الزهر. اللسان (نور).

ابن عبد الله: أضحك اللهُ المطيعين بالرحمة، وأبكى العاصين بالسخط. وقال محمد ابن علي الترمذيُّ: أضحك المؤمنَ في الآخرة، وأبكاه في الدنيا. وقال بسام بن عبد الله(١): أضحك اللهُ أسنانهم وأبكى قلوبهم. وأنشد:

السِّنُّ تَضحَكُ والأحشاءُ تَحتَرِقُ ... وإنَّما ضِحْكُها زُورٌ ومُختَلَقُ
يا رُبَّ باكٍ بِعينٍ لا دموعَ لها ... ورُبَّ ضاحِكِ سِنٍّ ما بِهِ رَمَقُ

وقيل: إنَّ الله خصَّ الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان، وليس في سائر الحيوان من يضحك ويبكي غير الإنسان. وقد قيل: إنَّ القِرْدَ وحده يضحك ولا يبكي، وإنَّ الإبل وحدها تبكي ولا تضحك(٢). وقال يوسف بن الحسين: سئل طاهر المقدسيُّ: أتضحك الملائكة؟ فقال: ما ضحكوا ولا كلُّ مَن دون العرش منذ خُلِقت جهنَّم.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي: قضى أسباب الموت والحياة. وقيل: خَلَق الموت والحياة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [تبارك: ٢] قاله ابن بحر(٣). وقيل: أمات الكافر بالكفر، وأحيا المؤمن بالإيمان(٤)، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ الآية [١٢٢ من سورة الأنعام]. وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] على ما تقدّم، وإليه يرجع قول عطاء: أمات بِعَدْله، وأحيا بفضله. وقول من قال: أمات بالمَنْع والبخل، وأحيا بالجود والبذل. وقيل: أمات النطفة، وأحيا النَّسَمة. وقيل: أمات الآباء، وأحيا الأبناء. وقيل: يريد بالحياة: الخصب،

---

(١) هو: بسام بن عبد الله الأسدي الكوفي الصيرفي، سمع عكرمة وأبا جعفر محمد بن علي، روى عنه أبو أحمد الزبيري وأهل الكوفة، وعنده مراسيل. التاريخ الكبير ٢/ ١٤٤، والثقات لابن حبان ٦/ ١١٩.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٠٤.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٠٤.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٧ وعزاه إلى الثعلبي.

وبالموت: الجدب. وقيل: أنام وأيقظ[١]. وقيل: أمات في الدنيا وأحيا للبعث[٢].

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: من أولاد آدم، ولم يُرِدْ آدم وحوَّاء بأنهما خُلقا من نُطْفة.

والنطفة: الماء القليل، مشتقٌّ من نطفَ الماءُ: إذا قَطَر[٣]. ﴿تُمْنَىٰ﴾ تُصبُّ في الرحم وتُراق، قاله الكلبيُّ والضحَّاك وعطاء بن أبي رباح[٤]، يقال: مَنَى الرجل وأمْنى من الْمَنِيّ. وسُمِّيت مِنًى بهذا الاسم؛ لما يُمْنَى فيها من الدماء، أي: يُراق[٥]. وقيل: «تُمْنَى» تُقدَّر، قاله أبو عبيدة[٦]. يقال: مَنَيت الشيء: إذا قَدَّرته، ومُنِي له، أي: قُدِّر له، قال الشاعر:

حَتّى تُلَاقِيَ ما يَمْنِي لَكَ الْمَانِي

أي: ما يُقدِّر لك القادر[٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي: إعادة الأرواح في الأشباح للبعث

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٤.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٤.

(٣) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٦٦.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥، ولم يعزه للكلبي، وعزاه إليه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٠٥.

(٥) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٣١.

(٦) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٣٨.

(٧) الصحاح (مني)، والبيت سلف ٢/ ٢١٩.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «النَّشَاءَةَ» بفتح الشين والمدّ[١]، أي: وعد ذلك، ووَعْده صِدْق. ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ قال ابن زيد: أغنى من شاء، وأفقر من شاء[٢]، ثم قرأ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٢] وقرأ: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] واختاره الطبريُّ[٣].

وعن ابن زيد أيضاً ومجاهد وقتادة والحسن: «أَغْنَى»: مَوَّلَ، «وأَقْنَى»: أَخْدم[٤].

وقيل: «أَقْنَى» جعل لكم قِنْية تقتنونها[٥]، وهو معنى أخدم أيضاً[٦].

وقيل: معناه: أرضى بما أعطى، أي: أغناه ثم رضَّاه بما أعطاه، قاله ابن عباس[٧].

وقال الجوهريُّ[٨]: قَنِيَ الرجل يَقْنَى قِنًى، مثل غَنِيَ يَغْنَى غِنًى، وأقناه اللهُ، أي: أعطاه الله ما يُقتنَى من القُنْية والنَّشَب. وأقناه أيضاً، أي: أرضاه. والقِنَى: الرضا، عن أبي زيد، قال: وتقول العرب: من أُعطِي مئةً من المعز، فقد أُعطِيَ القِنَى، ومن أُعطِي مئةً من الضأن، فقد أُعطِيَ الغنى، ومن أعطي مئة من الإبل، فقد أُعطِيَ المُنى. ويقال: أغناه الله وأقناه، أي: أعطاه ما يَسكُن إليه.

وقيل: «أغنى وأَقْنَى» أي: أَغْنَى نفسه، وأفقر خَلْقه إليه، قاله سليمان التيميُّ[٩].

---

(١) السبعة ص٤٩٨، والتيسير ص١٧٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٩.

(٣) في التفسير ٢٢/ ٨٥ دون ذكر آية البقرة.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٨٣ عن مجاهد وقتادة والحسن.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٠.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦ وعزاه إلى قتادة والحسن، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٨٣.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٨٣.

(٨) في الصحاح (قني).

(٩) أخرجه الطبري ٢٢/ ٨٤، وأبو الشيخ في العظمة (١٧٦).

وقال سفيان: أغنى بالقناعة، وأقنى بالرضا[١]. وقال الأخفش: أقنى: أفقر. قال ابن كيسان: أولد[٢]. وهذا راجع لما تقدَّم.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ «الشِّعْرَى»: الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء[٣]، وطلوعه في شدَّة الحرِّ، وهما الشِّعريان: العَبُور التي في الجوزاء، والشِّعرى الغُمَيْصَاءُ التي في الذراع[٤]، وتزعم العرب أنَّهما أختا سُهَيل.

وإنَّما ذكر أنَّه رَبُّ الشِّعْرى وإن كان ربًّا لغيره؛ لأنَّ العرب كانت تعبده، فأعلمهم اللهُ جلَّ وعزَّ أنَّ الشِّعْرى مربوب وليس بربٍّ. واختلف فيمن كان يعبده، فقال السديُّ: كانت تعبده حِمْيَر وخُزَاعة. وقال غيره: أوَّل من عبَده أبو كبشة ـ أحدُ أجداد النبيِّ ﷺ من قِبَلِ أمَّهاته، ولذلك كان مشركو قريش يسمُّون النبيَّ ﷺ: ابنَ أبي كبشة، حين دعا إلى الله وخالف أديانَهم، وقالوا: ما لقينا من ابنِ أبي كبشة! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقد وقف في بعض المضايق وعساكرُ رسول الله ﷺ تمرُّ عليه: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كبشة ـ وقد كان من لا يعبد الشِّعْرى من العرب يعظِّمها ويعتقد تأثيرها في العالم، قال الشاعر:

مضى أَيْلُولُ وارتفع الحَرُورُ وأخبَتْ نارَها الشِّعرى العَبُورُ[٥]

وقيل: إنَّ العرب تقول في خرافاتها: إن سُهيْلاً والشِّعرى كانا زوجين، فانحدر

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٥ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦ .

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٠ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٠٥ عدا ما بين معترضتين فمن النهاية (كبش)، وشرح مشكل الآثار ٢/ ١٨٥ بنحوه، وقول أبي سفيان أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٢)، وأحمد (٢٣٧٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن الأثير في النهاية (أمر): ومنه حديث أبي سفيان: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة: أي: كثر وارتفع شأنه، يعني النبي ﷺ. اهـ. والبيت لأبي نواس وهو في ديوانه ص٣٢١ .

سُهَيل فصار يمانيًّا، فاتبعته الشِّعرى العَبُور فعبرت المجرَّة فسمِّيت العبور، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت لفقد سُهَيل حتى غَمِصت عيناه فسمِّيت غميصاء؛ لأنَّها أخفى من الأخرى(١).

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ سمَّاها الأولى؛ لأنَّهم كانوا مِن قبل ثمود. وقيل: إنَّ ثمود مِن قبل(٢) عاد. وقال ابن زيد: قيل لها: عاد الأولى؛ لأنَّها أوَّل أمَّة أُهلِكت بعد نوح عليه السلام(٣). وقال ابن إسحاق: هما عادان، فالأُولى أُهلِكت بالريح الصَّرصر، ثم كانت الأُخرى فأهلكت بالصيحة. وقيل: عاد الأولى هو: عاد بن إرَمَ ابنِ عَوْصِ بنِ سامِ بنِ نوحٍ، وعاد الثانية من ولد عادٍ الأولى(٤). والمعنى متقارب. وقيل: إنَّ عاداً الآخرة الجبَّارون، وهم قوم هود(٥).

وقراءة العامَّة: «عَاداً الأُولَى» ببيان التنوين والهمز. وقرأ نافع وابن مُحَيصِن وأبو عمرو: «عَاداً لُّوْلَى»(٦) بنقل حركة الهمزة إلى اللام وإدغام التنوين فيها، إلا أنَّ قالون والسوسيَّ يُظهِران الهمزة الساكنة. وقلبها الباقون واواً على أصلها، والعرب تقلب هذا القلب فتقول: قُمْ لَانَ عنَّا، وصُمْ لثْنَين، أي: قُمِ الآنَ، وصُمِ الاثنين(٧).

﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ ثمود: هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة(٨). قُرِئَ: «ثَمُوداً» و«ثَمُود» وقد تقدَّم(٩). وانتصب على العطف على عاد(١٠).

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٣٥٤ بنحوه.

(٢) في (ظ): نسل.

(٣) الكشاف ٤/ ١٢٠ ولم يعزه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٠ وعزاه إلى ابن إسحاق.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٨ .

(٦) السبعة ص٦١٥ ، والتيسير ص٢٠٤ - ٢٠٥ ، والنشر ١/ ٤١٠ ، وحجة القراءات لابن زنجلة ص٦٨٧ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٠٢ .

(٨) الوسيط ٤/ ٢٠٥ .

(٩) ٩/ ٢٦٦ .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨١ .

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ وذلك لطول مدَّة نوح فيهم[١]، حتى كان الرجل فيهم يأخذ بيد ابنه فينطلق إلى نوح عليه السلام فيقول: احذر هذا؛ فإنه كذَّاب، وإنَّ أبي قد مشى بي إلى هذا وقال لي مثلَ ما قلتُ لك[٢]. فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على وصيَّة أبيه.

وقيل: إنَّ الكناية ترجع إلى كلِّ مَن ذُكر من عاد وثمود وقوم نوح، أي: كانوا أكفرَ من مشركي العرب وأطغى. فيكون فيه تسلية وتعزية للنبيِّ ﷺ، فكأنَّه يقول له: فاصبر أنت أيضاً، فالعاقبة الحميدة لك.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ يعني: مدائن قوم لوط عليه السلام ائتفكت بهم، أي: انقلبت[٣]، وصار عاليَها سافلها. يقال: أَفَكْتُه، أي: قلبته وصرفته[٤]. «أَهْوَى» أي: خسف بهم بعد رَفْعها إلى السماء، رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض[٥]. وقال المبرِّد: جعلها تهوي. ويقال: هَوَى ـ بالفتح ـ يَهْوِي هُوِيًّا، أي: سقط[٦]. و«أَهْوَى» أي: أسقط[٧].

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أي: ألبسها ما ألبسها من الحجارة، قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[٨] [الحجر: ٧٤]، وقيل: إنَّ الكناية ترجع إلى جميع هذه الأمم، أي: غَشَّاها من العذاب ما غشَّاهم، وأُبهم؛ لأنَّ كلًّا منهم أهلِك بضرب غير ما أُهْلِك به الآخر. وقيل: هذا تعظيم الأمر.

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٠٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٠٩ بنحوه، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٨٩ عن قتادة.

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٠ .

(٤) الصحاح (أفك).

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٥ .

(٦) الصحاح (هوي).

(٧) تهذيب اللغة ٦/ ٤٨٩ .

(٨) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٥ .

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّك تشكُّ، والمخاطبة للإنسان المكذِّب، والآلاء: النِّعَم، واحدها: أَلَى وإِلَى وإِلْيٌ[1]. وقرأ يعقوب: «تَمَّارَى» بإدغام إحدى التاءين في الأخرى والتشديد[2].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۝٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ قال ابن جُرَيج ومحمد بن كعب: يريد أنَّ محمداً ﷺ نذيرٌ بالحقِّ الذي أنذر به الأنبياء قبله[3]، فإن أطعتموه أفلحتم، وإلَّا حلَّ بكم ما حلَّ بمكذِّبي الرسل السالفة.

وقال قتادة: يريد القرآن، وأنَّه نذير بما أنذرت به الكتب الأولى[4].

وقيل: أي: هذا الذي أخبرنا به من أخبار الأمم الماضية الذين هلكوا تخويفٌ لهذه الأمَّة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك من النذر، أي: مثل النذر[5]، والنذر في قول العرب بمعنى الإنذار[6]، كالنُّكْر بمعنى الإنكار، أي: هذا إنذار لكم. وقال أبو مالك: هذا الذي أنذرتكم به من وقائع الأمم الخالية هو في صحف إبراهيم وموسى[7]. وقال السديُّ: أخبرني أبو صالح قال: هذه الحروف التي ذكر الله تعالى من قوله تعالى: «أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى. وَإِبْرَاهِيمَ» إلى قوله: «هَذَا نَذِيرٌ مِنَ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٢ .

(٢) النشر ١/ ٣٠٠ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٧ ونسبها إلى ابن محيصن.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٠٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٠٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٠٦ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٨ .

(٦) لسان العرب (نذر).

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٩٤ .

النُّذرِ الأُولَى» كل هذه في صحف إبراهيم وموسى[١].

قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ أي: قربت الساعة ودَنَت القيامة. وسمَّاها آزفة؛ لقرب قيامها عنده[٢]، كما قال: ﴿يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا . وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦-٧]. وقيل: سماها آزفة؛ لدنوِّها من الناس وقربها منهم[٣]؛ ليستعدُّوا لها؛ لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريب. قال:

أَزِفَ الـتَّـرَحُّـلُ غـيـرَ أنَّ رِكَـابَـنَـا لـمَّـا تَـزَلْ بِـرِحـالـنـا وكـأنْ قَـدِ[٤]

وفي «الصحاح»[٥]: أَزِف الترحُّل يَأْزَف أَزَفاً، أي: دنا وأَفِد، ومنه قوله تعالى: «أَزِفَتِ الآزِفَةُ» يعني القيامة، وأَزِفَ الرجلُ، أي: عَجِل، فهو آزِف على فاعل، والمتآزِف: القصير وهو المتداني. قال أبو زيد: قلت لأعرابيٍّ ما الْمُحْبَنْطِئُ؟ قال: المتَكَأْكِئُ. قلت: ما الْمُتَكَأْكِئُ؟ قال: المتآزِف. قلت: ما المتآزف؟ قال: أنت أحمق! وتركني ومَرَّ.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ليس لها من دون الله من يؤخِّرها أو يقدِّمها. وقيل: كاشفة، أي: انكشاف، أي: لا يكشف عنها ولا يبديها إلا الله، فالكاشفة اسم بمعنى المصدر، والهاء فيه كالهاءِ في العاقبة والعافية والداهية والباقية[٦]، كقولهم: ما لفلان من باقية، أي: من بقاء[٧]. وقيل: أي: لا أحد يردُّ ذلك[٨]، أي:

---

(١) سلف ص٥٤ من هذا الجزء عن أبي مالك الغفاري بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٠٦ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٨ .

(٤) القائل النابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٨ ، وفيه: أفد، بدل: أزف، وهما بمعنى. وجاء البيت في البيان والتبيين ٢/ ٢٨٠ كما في الرواية هنا.

(٥) مادة (أزف)، وحكاية أبي زيد الآتية ذكرها أبو طاهر المقرئ في كتابه أخبار النحويين، في ترجمة أبي زيد.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٧ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٠٣ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٧ .

إنَّ القيامة إذا قامت لا يكشفها أحدٌ من آلهتهم، ولا ينجِّيهم غير الله تعالى. وقد سمِّيت القيامةُ غاشيةً، فإذا كانت غاشية، كان ردُّها كشفاً، فالكاشفة على هذا نعت مؤنث محذوف، أي: نفس كاشفة، أو: فرقة كاشفة، أو: حال كاشفة. وقيل: إنَّ «كاشِفة» بمعنى كاشف، والهاء للمبالغة، مثل راوية وداهية[١].

قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن. وهذا استفهام توبيخ[٢] ﴿تَعْجَبُونَ﴾ تكذيباً به ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ انزجاراً وخوفاً من الوعيد[٣]. وروي أنَّ النبيَّ ﷺ ما رُئِيَ بعد نزول هذه الآية ضاحكاً إلا تبسُّماً[٤].

وقال أبو هريرة: لما نزلت: «أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ» قال أهل الصُّفَّة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦] ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع النبيُّ ﷺ بكاءَهم، بكى معهم، فبكينا لبكائه، فقال النبيُّ ﷺ: «لا يَلِجُ النارَ مَن بكى من خشية الله، ولا يدخل الجنَّة مُصِرٌّ على معصيةِ الله، ولو لم تُذنبوا لذهب اللهُ بكم، ولجاء بقوم يُذنبون، فيغفر لهم ويرحمهم، إنَّه هو الغفور الرحيم»[٥].

وقال أبو حازم: نزل جبريلُ على النبيِّ ﷺ وعنده رجل يبكي، فقال له: من هذا؟ قال: «هذا فلان». فقال جبريل: إنَّا نَزِنُ أعمالَ بني آدم كلَّها إلا البكاء، فإنَّ الله تعالى ليطفئ بالدمعة الواحدة بحوراً من جهنَّم[٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ أي: لاهون معرضون. عن ابن عباس، رواه الوالبيُّ والعوفيُّ عنه. وقال عكرمة عنه: هو الغناء بلغة حِمْيَر ـ يقال: سمِّد لنا، أي: غنِّ لنا ـ

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٠.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٠.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٦.

(٤) الكشاف ٤/ ٣٥.

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٤٨٩ بنحوه.

(٦) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٥ عن رجل يقال له: خازم.

فكانوا إذا سمعوا القرآنَ يتلى، تغنوا ولعبوا حتى لا يسمعوا[١]. وقال الضحَّاك: سامدون: شامخون متكبِّرون[٢]. وفي «الصحاح»[٣]: سمَدَ سُمُوداً: رفع رأسه تكبُّراً، وكلُّ رافع رأسه، فهو سامد، قال:

سَـوَامِـدَ الـلَّـيْـلِ خِـفَـافَ الْأَزْوَادْ[٤]

يقول: ليس في بطونها عَلَف. وقال ابن الأعرابيّ: سَمَدْتُ سُمُوداً: علوتُ. وسَمَدتِ الإبلُ في سيرها: جدَّتْ. والسُّمُود: اللَّهو، والسامد: اللّاهي، يقال للقَيْنة: أسمِدينا، أي: ألهينا بالغناء. وتسميد الأرض: أن يجعل فيها السماد، وهو سِرْجين ورَمَاد. وتسميد الرأس: استئصال شعره، لغة في التَّسبِيد. واسمأدَّ الرجلُ ـ بالهمز ـ اسْمِئْداداً، أي: وَرِم غضباً.

وروي عن عليٍّ ﷺ أنَّ معنى «سَامِدُونَ»: أن يجلسوا غير مصلِّين ولا منتظرين الصلاة. وقال الحسن: واقفون للصلاة قبل وقوف الإمام، ومنه ما روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه خرج والناس ينتظرونه قياماً فقال: «ما لي أراكم سامدين» حكاه الماورديُّ[٥]. وذكره المهدويُّ عن عليٍّ، وأنَّه خرج إلى الصلاة فرأى الناسَ قياماً فقال: «ما لكم سامدون» قاله المهدويُّ[٦].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٧ عدا ما بين معترضتين فمن غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٤٨١ ، وقول عكرمة أخرجه الطبري ٢٢/ ٩٧ عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٩٨ ، وأبو يعلى (٢٦٨٥) عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) مادة (سمد).

(٤) الراجز رؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه ص٣٩ ، وقبله:

قَـلَّـصـن تـقـلـيـص الـنـعـام الـوخَّـاد

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٤٠٧ ، وفيه قول علي والحسن، والحديث أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٤٨٠ مرفوعاً، وذكر محققه أن في بعض النسخ الخطية: عن علي رحمة الله عليه. اهـ. ولم نقف عليه مرفوعاً، وسيأتي من قول علي في التعليق الآتي.

(٦) وأخرجه ابن أبي شيبة ١/ ٤٠٥ ، والطبري ٢٢/ ١٠٠ .

والمعروف في اللغة: سَمَد يَسْمُد سُمُوداً: إذا لَهَا وأعرض. وقال المبرِّد: سامدون خامدون، قال الشاعر:

أَتَى الحدثَانُ نِسوةَ آلِ حَرْبٍ بِمَقْدورٍ سَمَدْنَ له سُمُودَا[1]

وقال صالح أبو الخليل: لما قرأ النبيُّ ﷺ: «أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ. وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ. وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ» لم يُرَ ضاحكاً إلا مبتسِّماً حتى مات ﷺ. ذكره النحَّاس[2].

قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا۩﴾ قيل: المراد به سجود تلاوة القرآن. وهو قولُ ابن مسعود[3]. وبه قال أبو حنيفة والشافعيُّ[4]. وقد تقدَّم أوَّل السورة[5] من حديث ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ سجد فيها، وسجد معه المشركون. وقيل: إنَّما سجد معه المشركون؛ لأنَّهم سمعوا أصواتَ الشياطين في أثناء قراءةِ رسول الله ﷺ عند قوله: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى» وأنَّه قال: تلك الغَرَانِيقُ الْعُلَا وشفاعتهنَّ تُرْتَجَى.كذا في رواية سعيد بن جُبير: ترتجى. وفي رواية أبي العالية: وشفاعتهنَّ ترتضى، ومثلهنَّ لا يُنسى. ففرح المشركون وظنُّوا أنَّه من قول محمد ﷺ، على ما تقدَّم بيانه في «الحج»[6]. فلما بلغ الخبرُ بالحبشة مَن كان بها من أصحاب النبيِّ ﷺ رجعوا ظنًّا منهم أنَّ أهل مكة آمنوا، فكان أهل مكة أشدَّ عليهم، وأخذوا في

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٧ ، والبيت اختلف في نسبته، فنسبه المرزباني في معجم الشعراء ص١٧٧ ، وابن قتيبة في عيون الأخبار ٣/ ٦٧ إلى فضالة بن شريك، ونسبه القالي في ذيل الأمالي ٣/ ١١٥ إلى الكميت الأسدي، ونسبه المرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٢/ ٩٤١ لعبد الله بن الزبير الأسدي.

(٢) لم نقف عليه عند النحاس، وسلف ص٦٧ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٠٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٢٣ .

(٥) ص٥ من هذا الجزء.

(٦) ١٤/ ٤٢٥ .

تعذيبهم إلى أن كشف الله عنهم.

وقيل: المراد سجود الفرض في الصلاة، وهو قول ابن عمر، كان لا يراها من عزائم السجود[١]. وبه قال مالك.

وروى أبيٌّ بن كعب ﷺ: كان آخر فِعْلِ النبيِّ ﷺ ترك السجود في المفصَّل. والأوَّل أصحُّ، وقد مضى القول فيه آخر «الأعراف»[٢] مبيناً، والحمد لله ربِّ العالمين.

تم تفسير سورة «والنجم»

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٢٣ .

(٢) ٩/ ٤٣٦ .

سورة القمر

مكيَّة كلُّها في قول الجمهور. وقال مقاتل: إلا ثلاثَ آيات من قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [الآية: ٤٤] إلى قوله: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[١] [الآية: ٤٦] ولا يصحُّ على ما يأتي[٢]. وهي خمس وخمسون آيةً[٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ③ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ⑤ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ⑥ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ⑦ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ⑧﴾

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ «اقْتَرَبَت»: أي: قربت، مثل ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] على ما بيَّنَّاه. فهي بالإضافة إلى ما مضى قريبة؛ لأنَّه قد مضى أكثرُ الدنيا، كما روى قتادة عن أنس قال: خطب رسولُ الله ﷺ وقد كادتِ الشمسُ تغيب فقال: «ما بقي من دنياكم فيما مضى إلّا مثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى» وما نرى من الشمس إلا يسيراً[٤]. وقال كعب ووهب: الدنيا ستَّة آلاف سنة. قال وهب: قد

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٨ .

(٢) عند الآية (٤٥) من هذه السورة.

(٣) الوسيط ٤/ ٢٠٦ .

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة ٧/ ١٢١ ، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٤٤ بنحوه، قال ابن عدي: ولموسى بن خلف عن قتادة، عن أنس غير هذا يرويه عن موسى ابنه خلف وغير ابنه، ولا أرى بروايته بأساً.
وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٤٤ عن ابن عمر ﷺ بنحوه، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: كُثَيِّر [من رجال الإسناد] ضعَّفه النسائي، ومشَّاه غيره.

مضى منها خمسة آلاف سنة، وستُّ مئة سنة. ذكره النحَّاس.

ثم قال تعالى: «وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» أي: وقد انشقَّ القمر. وكذا قرأ حُذيفة: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَقَدِ انْشَقَّ الْقَمَرُ»[١] بزيادة «قد»، وعلى هذا الجمهور من العلماء، ثبت ذلك في «صحيح البخاري» وغيره من حديث ابن مسعود[٢] وابن عمر[٣] وأنس[٤] وجبير ابن مُطْعِم[٥] وابن عباس[٦] ﷺ. وعن أنس قال: سأل أهلُ مكَّة النبيَّ ﷺ آيةً، فانشقَّ القمر بمكَّة مرَّتين فنزلت: «اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ وانْشَقَّ الْقَمَرُ» إلى قوله: «سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» يقول: ذاهب. قال أبو عيسى الترمذيُّ: هذا حديث حسن صحيح[٧].

ولفظ البخاريِّ[٨] عن أنس قال: انشقَّ القمر فرقتين. وقال قوم: لم يقع انشقاق القمر بعدُ وهو منتظر، أي: اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر، وأنَّ الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره[٩]. وكذا قال القشيريُّ. وذكر الماورديُّ[١٠]: أنَّ هذا قول الجمهور، وقال: لأنَّه إذا انشقَّ ما بقي أحد إلا رآه؛ لأنه آية، والناس في الآيات سواء. وقال الحسن: اقتربت الساعة، فإذا جاءت انشقَّ القمر بعد النفخة الثانية. وقيل: «وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» أي: وضح الأمر وظهر، والعرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وَضَح، قال:

أقيمُوا بَنِي أمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ ... فإنِّي إلى حَيٍّ سِواكم لأَمْيَلُ

(١) القراءات الشاذة ص١٤٧، والمحتسب ٢/ ٢٩٧.
(٢) البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠)، وأحمد (٣٥٨٣).
(٣) مسلم (٢٨٠١).
(٤) البخاري (٣٦٣٧)، ومسلم (٢٨٠٢)، وأحمد (١٢٦٨٨).
(٥) الترمذي (٣٢٨٩)، وأحمد (١٦٧٥٠).
(٦) البخاري (٣٦٣٨)، ومسلم (٢٨٠٣).
(٧) الترمذي (٣٢٨٦)، وهو عند أحمد (١٢٦٨٨)، ومسلم (٢٨٠٢)، ولم يرد ذكر الآيتين عند مسلم.
(٨) برقم (٤٨٦٨)، وهو عند مسلم (٢٨٠٢): (٤٧)، وأحمد (١٣٩١٨).
(٩) المفهم ٧/ ٤٠٥ وعزاه للحسن البصري.
(١٠) في النكت والعيون ٥/ ٤٠٩.

فقد حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقْمِرٌ وشُدَّت لِطيَّاتٍ مَطايا وأَرْحُلُ[(١)]

وقيل: انشقاق القمر: هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها، كما يُسمَّى الصبح فَلَقاً؛ لانفلاق الظلمة عنه. وقد يعبَّر عن انفلاقه بانشقاقه، كما قال النابغة:

فلمَّا أدْبَروا ولَهُمْ دَوِيٌّ دعانا عِند شَقِّ الصُّبحِ داعِ[(٢)]

قلت: وقد ثبت بنقل الآحاد العدول أنَّ القمر انشقَّ بمكَّة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها؛ لأنَّها كانت آيةً ليليَّة، وأنَّها كانت باستدعاء النبيِّ ﷺ من الله تعالى عند التحدِّي[(٣)]. فروي أنَّ حمزة بن عبد المطلب ـ حين أسلم غضباً من سبِّ أبي جهلٍ الرسولَ ﷺ ـ طلب أن يُريَه آيةً يزداد بها يقيناً في إيمانه[(٤)]. وقد تقدَّم في «الصحيح» أنَّ أهل مكَّة هم الذين سألوا وطلبوا أن يُريَهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر فلقتين كما في حديث ابن مسعود وغيره.

وعن حذيفة أنَّه خطب بالمدائن ثم قال: ألا إنَّ الساعة قد اقتربت، وإنَّ القمر قد انشقَّ على عهد نبيِّكم ﷺ[(٥)].

وقد قيل: هو على التقديم والتأخير، وتقديره: انشقَّ القمر واقتربت الساعة، قاله ابن كيسان. وقد مرَّ عن الفرَّاء أنَّ الفعلين إذا كانا متقاربي المعنى، فلك أن تقدِّم وتؤخِّر، عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[(٦)].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا﴾ هذا يدلُّ على أنَّهم رأوا انشقاق القمر[(٧)].

---

(١) القائل الشنفرى الأزدي، وهو في ذيل أمالي القالي ص٢٠٣، وخزانة الأدب ٣/ ٤٣٠، وقوله: أقيموا بني أمِّي... إلخ، يقال: أقام صدر مطيَّته: إذا جدَّ في السير، يؤذن قومه بالرحيل. وقوله: حمَّت الحاجات... إلخ، يريد: تنبَّهوا من رقدتكم فهذا وقت الحاجة. والطِّيَّة: النيَّة. الخزانة ٣/ ٣٤١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٠٩، ونسبه للنابغة الجعدي، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٣) المفهم ٧/ ٤٠٤.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٠٩.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ الزجَّاج في معاني القرآن له ٥/ ٨٤، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٥٢٨٥)، وابن أبي شيبة ٢/ ١١٥، و١٣/ ٣٧٨، والطبري ٢٢/ ١٠٧ - ١٠٨، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٧٠٦) و(٧٠٧) عن أبي عبد الرحمن السلمي.

(٦) الآية (٨) من سورة النجم، وسلفت ص١٦ من هذا الجزء.

(٧) الوسيط ٤/ ٢٠٧.

قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: إن كنتَ صادقاً فاشقق لنا القمر فرقتين، نصف على أبي قُبيس ونصف على قُعَيْقِعَان، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن فعلتُ تؤمنون»؟ قالوا: نعم؟ وكانت ليلةَ بدر، فسأل رسولُ الله ﷺ ربَّه أن يعطيَه ما قالوا، فانشقَّ القمر فرقتين، ورسولُ الله ﷺ ينادي المشركين: «يا فلان يا فلان اشهدوا»[١].

وفي حديث ابن مسعود: انشقَّ القمر على عهد رسولِ الله ﷺ، فقالت قريش: هذا من سحر ابن أبي كبشة، سَحَرَكم فاسألوا السُّفَّار. فسَألوهم فقالوا: قد رأينا القمر انشقَّ، فنزلت: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا»[٢]. أي: إن يروا آيةً على صِدْقِ محمَّد ﷺ أعرضوا عن الإيمان[٣].

﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ذاهب، من قولهم: مَرَّ الشيءُ واستمرَّ: إذا ذهب[٤]، قاله أنس وقتادة ومجاهد والفرَّاء والكسائيُّ وأبو عبيدة[٥]، واختاره النحَّاس. وقال أبو العالية والضحَّاك: محكَم قويٌّ شديد[٦]. وهو من المِرَّة: وهي القوَّة[٧]، كما قال لقيط:

حتى استمرَّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ مُرُّ العَزِيمَةِ لَا رتّاً[٨] ولا ضَرَعا

(١) زاد المسير ٨/ ٢٨٧ ، وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٢٠٩) بتمامه، وضعَّفه ابن حجر في فتح الباري ٧/ ١٨٣ . وأخرجه أيضاً الزجَّاج في معاني القرآن له ٥/ ٨٤-٨٥ عن ابن زيد مختصراً. وأبو قبيس وقعيقعان: جبلان بمكة. معجم البلدان ١/ ٨٠ و ٤/ ٣٧٩ .

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٩٥)، والطبري ٢٢/ ١٠٦ - ١٠٧ ، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢١١).

(٣) الوسيط ٤/ ٢٠٧ .

(٤) الصحاح (مرر).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ عن أنس وأبي عبيدة، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١٢ عن قتادة ومجاهد والكسائي، وأما قول الفراء فهو في معاني القرآن له ٣/ ١٠٤ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٣٥ ، وأخرجه عنه ـ وعن قتادة أيضاً ـ الطبري ٢٢/ ١١٣ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٨ ، وزاد المسير ٨/ ٨٩ .

(٧) الصحاح (مرر).

(٨) في (م): لا قحماً. وكذا جاءت الرواية في الكامل للمبرد ٣/ ١٣٥٠ ، والقحم: الكبير المسنّ. اللسان (قحم)، والبيت سلف ص١٣ من هذا الجزء.

وقال الأخفش: هو مأخوذ من إمرار الحبل، وهو شدَّة فَتْله(١).

وقيل: معناه: مُرٌّ من المرارة. يقال: أَمَرَّ الشيءُ: صار مُرّاً، وكذلك مَرَّ الشيءُ [يَمَرُّ] بالفتح مرارةً، فهو مُرٌّ، وأمَرَّه غيرُه ومرَّرَه(٢). وقال الربيع: مستمرٌّ: نافذ. يمان: ماضٍ. أبو عبيدة: باطل.

وقيل: دائم. قال:

وليس على شيء قويم بمُسْتمِرّ(٣)

أي: بدائم. وقيل: يُشبِه بعضه بعضاً(٤)، أي: قد استمرَّت أفعال محمد على هذا الوجه فلا يأتي بشيء له حقيقة، بل الجميع تخييلات. وقيل: معناه: قد مرَّ من الأرض إلى السماء(٥).

﴿وَكَذَّبُوا﴾ نبيَّنا ﴿وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: ضلالاتهم واختياراتهم. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: يستقرُّ بكلِّ عامل عمله، فالخير مستقرٌّ بأهله في الجنة، والشَّرُّ مستقرٌّ بأهله في النار(٦).

وقرأ شيبة: «مُسْتَقَر» بفتح القاف(٧)، أي: لكلِّ شيء وقت يقع فيه من غير تقدُّم وتأخُّر. وقد روي عن أبي جعفر بن القَعْقاع: «وَكُلُّ أَمْرٍ مسْتَقِرٍّ» بكسر القاف والراء(٨)، جعله نعتاً لـ «أمرٍ»، و «كُلُّ» على هذا يجوز أن يرتفع بالابتداء، والخبر

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ .

(٢) الصحاح (مرر)، وما بين حاصرتين منه.

(٣) القائل امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٠٩، وصدره:

ألا إنَّما الدنيا ليالٍ وأَعْصُرٌ

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ وعزاه إلى مجاهد.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ وعزاه إلى قتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١١٤- ١١٥ .

(٧) الكشاف ٤/ ٣٦ ولم يعزها، وعزاها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢١٢ إلى نافع وابن نصاح.

(٨) القراءات الشاذة ص١٤٧ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٧ ، والنشر ٢/ ٣٨٠ .

محذوف، كأنَّه قال: وكلُّ أمر مستقر في أمِّ الكتاب كائن[١]. ويجوز أن يرتفع بالعطف على الساعة، المعنى: اقتربت الساعة وكلُّ أمرٍ مستقر[٢]، أي: اقترب استقرار الأمور يوم القيامة[٣]. ومن رفعَه جعله خبراً عن «كلّ».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أي: من بعض الأنباء، فذكر سبحانه من ذلك ما علم أنَّهم يحتاجون إليه، وأنَّ لهم فيه شفاء. وقد كان هناك أمور أكثر من ذلك، وإنَّما اقتصَّ علينا ما عَلِمَ أنَّ بنا إليه حاجة، وسكت عمَّا سوى ذلك، وذلك قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ» أي: جاء هؤلاء الكفار من أنباء الأمم الخالية[٤] ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ما يزجرهم عن الكفر لو قبلوه[٥]. وأصله: مُزْتَجَر، فقلبت التاء دالاً؛ لأنَّ التاء حرف مهموس، والزاي حرف مجهور، فأبدل من التاء دالاً توافقها في المخرج، وتوافق الزاي في الجهر[٦]. و «مُزْدجَر» من الزجر: وهو الانتهاء[٧]، يقال: زَجَره وازدَجَره، فانزجَر وازدَجَر[٨]، وزجرته أنا فانزجر، أي: كففته فكفَّ، كما قال:

فأصبحَ ما يطلبُ الغانيا تُ مُزْدَجَراً عن هواه ازدجارا[٩]

وقرئ: «مُزَّجَرٌ» بقلب تاء الافتعال زاياً، وإدغام الزايِّ فيها، حكاه الزمخشريُّ[١٠].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٦ .
(٢) الكشاف ٤/ ٣٦ .
(٣) المحتسب ٢/ ٢٩٧ .
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤١٠ .
(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٨ .
(٦) البيان لابن الأنباري ٢/ ٤٠٣ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٧ .
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٢ .
(٨) الصحاح (زجر).
(٩) القائل الأعشى ميمون بن قيس، وهو في ديوانه ص٩٥ بنحوه.
(١٠) في الكشاف ٤/ ٣٦ .

﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾ يعني: القرآن[1]، وهو بدل من «ما» من قوله: «مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ». ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف، أي: هو حكمة[2].

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ إذا كذَّبوا وخالفوا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[3] [يونس: ١٠١] ف «مَا» نفي، أي: ليست تغني عنهم النذر. ويجوز أن يكون استفهاماً بمعنى التوبيخ، أي: فأيُّ شيء تغني النذر عنهم وهم معرضون عنها[4]. و«النُّذُرُ» يجوز أن تكون بمعنى الإنذار، ويجوز أن تكون جمع نذير[5].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أَعرِض عنهم[6]. قيل: هذا منسوخ بآية السيف[7]. وقيل: هو تمام الكلام.

ثم قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ العامل في «يَوْمَ»: «يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ»، أو «خُشَّعاً»[8]، أو فعل مضمر تقديره: واذكر يوم. وقيل: على حذف حرف الفاء وما عملت فيه من جواب الأمر، تقديره: فتولَّ عنهم فإنَّ لهم يوم يدعو الداعي. وقيل: تَوَلَّ عنهم يا محمَّد، فقد أقمت الحجَّة، وأبصرهم يوم يدعو الداعي. وقيل: أي أعرض عنهم يوم القيامة ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم، فإنَّهم يدعون ﴿إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ وينالهم عذاب شديد. وهو كما تقول: لا تسأل عما جرى على فلان: إذا أخبرته بأمر عظيم. وقيل: أي: وكلّ أمر مستقرّ يوم يدعو الداعي.

وقرأ ابن كثير: «نُكْرٍ» بإسكان الكاف[9]، وضمَّها الباقون، وهما لغتان، كعُسْر

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٨ .
(٢) الكشاف ٤/ ٣٦ .
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٩ .
(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٥ .
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٩ .
(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٨ .
(٧) زاد المسير ٨/ ٩٠ .
(٨) إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٨ .
(٩) السبعة ص٦١٧ ، والتيسير ص٢٠٥ .

وعُسُر، وشُغْل وشُغُل[١]، ومعناه: الأمر الفظيع العظيم، وهو يوم القيامة[٢]. والداعي هو: إسرافيل عليه السلام[٣]. وقد روي عن مجاهد وقتادة أنَّهما قرأا: «إِلَى شَيْءٍ نُكِرَ» بكسر الكاف وفتح الراء على الفعل المجهول[٤].

﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ الخشوع في البصر: الخضوع والذِّلَّة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار؛ لأنَّ أثر العزِّ والذُّل يتبيَّن في ناظر الإنسان[٥]، قال الله تعالى: ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٩] وقال تعالى: ﴿خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]. ويقال: خَشَع واختَشَع: إذا ذلَّ. وخَشَع ببصره، أي: غضَّه[٦].

وقرأ حمزة والكسائيُّ وأبو عمرو: «خَاشِعاً» بالألف[٧]، ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدَّمت على الجماعة التوحيدُ، نحو: «خَاشِعاً أَبْصَارُهُم» والتأنيث نحو: «خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ»[٨] ويجوز الجمع نحو: «خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ» قال:

وَشَبَابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهُمْ مِنْ إِيَادِ بنِ نِزَارِ بنِ مَعَدْ[٩]

و «خُشَّعاً» جمع خاشع، والنصب فيه على الحال من الهاء والميم في «عَنْهُمْ» فيقبح الوقف على هذا التقدير على «عَنْهُمْ». ويجوز أن يكون حالاً من المضمر في

---

(١) حجة القراءات لابن زنجلة ص٦٨٨ .
(٢) الكشاف ٤/ ٣٦ .
(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٨ .
(٤) القراءات الشاذة ص١٤٧ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٨ ، ونسباه إلى مجاهد والجحدري وأبي قلابة. وينظر البحر المحيط ٨/ ١٧٥ .
(٥) الكشاف ٤/ ٣٦ .
(٦) الصحاح (خشي).
(٧) السبعة ص٦١٨ ، والتيسير ص٢٠٥ .
(٨) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٦ ، وما بعده منه، و«خاشعة» قراءة أُبيٍّ وابن مسعود. القراءات الشاذة ص١٤٧ .
(٩) القائل: أبو دؤاد الإيادي، وهو في ديوانه ص٣٠٥ .

«يَخْرُجُونَ» فيوقف على «عَنْهُمْ»(١). وقُرِئَ: «خُشَّعٌ أَبْصَارُهُمْ» على الابتداء والخبر، ومحلُّ الجملة النصب على الحال، كقوله:

حَـاضِـراه الـجـودُ والْـكَـرَمُ(٢)

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور، واحدها: جَدَث. ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾. وقال في موضع آخر: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] صفتان في وقتين مختلفين، أحدهما: عند الخروج من القبور، يخرجون فزِعين لا يهتدون أين يتوجَّهون، فيدخل بعضُهم في بعض، فهم حينئذٍ كالفراش المبثوث بعضه في بعض لا جهة له يقصدها. فإذا سمعوا المنادي قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر؛ لأنَّ الجراد له وجه يقصدها(٣).

و«مُهْطِعِينَ» معناه: مسرعين، قاله أبو عبيدة. ومنه قول الشاعر:

بِـدِجْـلَـةَ دَارُهُـمْ ولَـقَـد أراهـم بِـدِجْـلَـةَ مُـهْـطِـعِـينَ إلى الـسَّـمـاعِ(٤)

الضحاك: مقبلين. قتادة: عامدين. ابن عباس: ناظرين. عكرمة: فاتحين آذانهم إلى الصوت(٥). والمعنى متقارب.

يقال: هَطَع الرجلُ يَهْطَعُ هُطُوعاً: إذا أقبل على الشيء ببصره لا يُقلِع عنه، وأهطع: إذا مدَّ عنقه وصوَّب رأسه. قال الشاعر:

---

(١) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٨، وذكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩١٣ أن الوقف على «فتولَّى عنهم»: وقف غير تامٍّ.

(٢) الكشاف ٤/ ٣٦، والقراءة في البحر المحيط ٨/ ١٧٦، والبيت للأخطل، وهو في ديوانه ص٣٩، وروايته هكذا:

إذا أتـيـتَ أبـا مـروان تـسـألـه وجـدتَه حـاضـراه الـجـود والـحَـسَـبُ

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤١١، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/ ٢٤٠، والبيت ليزيد بن مفرِّغ، وسلف ١٢/ ١٥٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤١١.

تَـعَـبَّـدَنِـي نِـمْـرُ بـنُ سَـعْـدٍ وقـد أرَى ونِـمْـرُ بـنُ سَـعْـدٍ لِـي مُـطِـيـعٌ ومُـهْـطِـعُ

وبعير مُهْطِع: في عنقه تصويبٌ خِلْقَةً. وأهطع في عَدْوه، أي: أسرَع[١].

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ يعني: يوم القيامة؛ لما ينالهم فيه من الشِّدَّة[٢].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكر جملاً من وقائع الأمم الماضية؛ تأنيساً للنبيِّ ﷺ، وتعزيةً له. «قَبْلَهُمْ» أي: قبل قومك. ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ يعني: نوحاً[٣].

الزَّمخشَري[٤]: فإن قلتَ: ما معنى قوله: «فَكَذَّبُوا» بعد قوله: «كَذَّبَتْ»؟ قلت: معناه: كَذَّبوا فكَذَّبوا عبدنا، أي: كذَّبوه تكذيباً على عقب تكذيب، كلما مضى منهم قَرْن مكذِّب تبعه قَرْن مكذِّب، أو كذَّبت قومُ نوح الرسلَ فكذَّبوا عبدنا، أي: لما كانوا مكذِّبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً، كذَّبوا نوحاً؛ لأنَّه من جملة الرسل.

﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ أي: هو مجنون ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: زجر عن دعوى النبوَّة بالسبِّ والوعيد بالقتل[٥]. وقيل: إنَّما قال: «وَازْدُجِرَ» بلفظ ما لم يُسَمَّ فاعله؛ لأنَّه رأس آية.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ أي: دعا عليهم حينئذٍ نوح وقال: رَبِّ ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ﴾ أي: غلبوني

---

(١) الصحاح (هطع)، والبيت ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٧، ولم ينسبه، ولم نقف على قائله.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤١١.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٨.

(٤) الكشاف ٤/ ٣٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٠.

بتمرُّدهم ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ أي: فانتصر لي[١]. وقيل: إنَّ الأنبياء كانوا لا يَدْعُون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عزَّ وجلَّ لهم فيه.

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: فأجبنا دعاءه، وأمرناه باتخاذ السفينة، وفتحنا أبواب السماء ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ أي: كثير، قاله السُّدِّيُّ. قال الشاعر:

أعـيـنـيَّ جُـودَا بـالـدُّمـوعِ الـهَـوَامـرِ   عـلـى خيـرِ بـادٍ مـن مَـعَـدٍّ وحـاضِـرِ[٢]

وقيل: إنَّه المنصبُّ المتدفِّق. ومنه قول امرئ القيس يصف غيثاً:

رَاحَ تَـمْـرِيـهِ الـصَّـبَـا ثـم انْـتَـحَـى   فـيـه شُـؤْ بُـوبُ جَـنُـوبٍ مُـنْـهَـمِـرْ[٣]

الهَمْر: الصَّبُّ. وقد هَمَر الماءُ والدَّمْعُ يَهْمِرُ هَمْراً. وهَمَر أيضاً: إذا أكثر الكلام وأسرع. وهَمَر له من ماله، أي: أَعطاه[٤]. قال ابن عباس: ففتحنا أبواب السماء بماء [مُنْهَمِرٍ] من غير سحاب لم يقلع أربعين يوماً[٥].

وقرأ ابن عامر ويعقوب: «فَفَتَّحْنَا» مشدَّدة على التكثير. الباقون: «فَفَتَحْنَا» مخفَّفاً[٦]. ثم قيل: إنَّه فتح رتاجها وسعة مسالكها. وقيل: إنَّه المجرة، وهي شَرَج السماء، ومنها فتحت بماء منهمر، قاله عليٌّ ﷺ[٧].

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ قال عُبَيد بن عُمير: أوحى الله إلى الأرض أن تُخرِج

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٢١٤ .

(٢) النكت والعيون ٥/٤١٢ ، وما بعده منه أيضاً، ولم نقف على قائل البيت.

(٣) ديوان امرئ القيس ص١٤٥ ، قال شارحه: راح: يعني السحاب. وتمريه: تحركه وتديره. والصبا: أحمد الرياح عند العرب وأجلبها للخير. والشؤبوب: دفعة المطر وشدته.

(٤) الصحاح (همر) دون قوله: وهمر أيضاً: إذا أكثر الكلام وأسرع. فهو من تفسير أبي الليث ٣/٢٩٩ .

(٥) عرائس المجالس ص٥٨ بنحوه، وما بين حاصرتين لم يرد في النسخ الخطية.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/٢٩٩ ، وقراءة ابن عامر في السبعة ص٦١٨ ، والتيسير ص١٠٢ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/٢٥٨ .

(٧) النكت والعيون ٥/٤١٢ ، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم ١٠/٣٣٢٠ (١٨٧٠٤) والشَّرَج: العُروة. الصحاح (شرج).

ماءَها، فتفجَّرت بالعيون، وإنَّ عيناً تأخَّرت، فغضب عليها فجعل ماءها مُرّاً أُجاجاً إلى يوم القيامة.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: ماء السماء وماء الأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر، حكاه ابن قتيبة[١]. أي: كان ماء السماء والأرض سواء. وقيل: «قُدِرَ» بمعنى: قُضي عليهم. قال قتادة: قدّر لهم إذا كفروا أن يَغْرَقُوا.

وقال محمد بن كعب: كانت الأقوات قبل الأجساد، وكان القَدَر قبل البلاء، وتلا هذه الآية[٢]. وقال: «الْتَقَى الْمَاءُ» والالتقاء إنَّما يكون في اثنين فصاعداً؛ لأنَّ الماء يكون جمعاً وواحداً[٣]. وقيل: لأنَّهما لما اجتمعا صارا ماء واحداً[٤].

وقرأ الجَحْدريُّ: «فَالْتَقَى الْمَاءَانِ». وقرأ الحسن: «فَالْتَقَى الْمَاوَانِ»[٥]. وهما خلاف المرسوم. القُشيريُّ: وفي بعض المصاحف: «فَالْتَقَى الْمَاوَانِ» وهي لغة طيِّئ. وقيل: كان ماء السماء بارداً مثل الثلج، وماء الأرض حارّاً مثل الحميم.

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ أي: على سفينة ذات ألواح[٦]. ﴿وَدُسُرٍ﴾ قال قتادة: يعني: المسامير التي دُسِرت بها السفينة، أي: شُدَّت، وقاله القُرَظِيُّ وابن زيد وابن جبير[٧]، ورواه الوالبيُّ عن ابن عباس[٨]. وقال الحسن وشَهْر بن حَوْشَب وعكرمة:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١٢، وما بعده منه، وكلام ابن قتيبة في غريب القرآن له ص٤٣٢.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٢٣.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٨.

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٧.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٧.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٩ عدا قول ابن جبير فنسبه إليه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤١٢، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ١٢٣ - ١٢٤.

(٨) زاد المسير ٨/ ٩٣.

هي صدر السفينة التي يضرب بها المَوْج، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تَدْسُر الماء، أي: تدفعه[١]. والدَّسْرُ: الدَّفع[٢] والمَخْر. ورواه العَوْفيُّ عن ابن عباس قال: الدَّسْر: كَلْكَل السفينة[٣].

وقال الليث: الدِّسار: خيط من ليف تُشدُّ به ألواح السفينة. وفي «الصحاح»[٤]: الدِّسار واحد الدُّسُر: وهي خيوط تشدُّ بها ألواح السفينة. يقال: هي المسامير، وقال تعالى: «عَلَى ذَاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ». ودُسْر أيضاً مثل عُسُر وعُسْر. والدَّسْر: الدفع، قال ابن عباس في العنبر: إنَّما هو شيء يَدْسُره البحر دَسْراً، أي: يدفعه. ودَسَر بالرمح، ورجل مِدْسَر.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منَّا. وقيل: بأمرنا. وقيل: بحفظ منَّا وكِلَاءة، وقد مضى في «هود»[٥]. ومنه قول الناس للمودَّع: عينُ اللهِ عليك، أي: حفظه وكِلاءته.[٦] وقيل: بِوَحينا. وقيل: أي: بالأعين النابعة من الأرض[٧]. وقيل: بأَعين أوليائنا من الملائكة الموكَّلين بحفظها[٨]، وكلُّ ما خلَق اللهُ تعالى يمكن أن يُضاف إليه. وقيل: أي: تجري بأوليائنا، كما في الخبر: مرض عين من عيوننا فلم تَعُدْه[٩].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٩ وعزاه للحسن، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٢٤، والنكت والعيون ٥/ ٤١٢ وعزاه لعكرمة.

(٢) الصحاح (دسر).

(٣) زاد المسير ٨/ ٩٣، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٢٥.

(٤) (دسر)، وقول ابن عباس علَّقه البخاري قبل حديث (١٤٩٨)، ووصله البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ١٤٦.

(٥) ١١/ ١٠٨ - ١٠٩.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٠. ومذهب السلف إثبات العين لله تعالى بلا تشبه ولا تأويل ولا تمثيل على ما يليق به سبحانه وتعالى.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٥.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤١٣ على أن الصواب إثبات العين لله عز وجل على ما يليق بجلاله.

(٩) لم نقف عليه بهذا اللفظ، بل الوارد قوله ﷺ في الحديث القدسي عن ربِّ العزَّة: «مرضتُ فلم تَعُدْني..» وسلف ٢/ ٤٣٨.

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: جعلنا ذلك ثواباً وجزاءً لنوح على صبره على أذى قومه، وهو المكفور به، فاللام في «لِمَنْ» لام المفعول له[١]. وقيل: «كُفِرَ» أي: جحد، فـ«من» كناية عن نوح[٢]. وقيل: كناية عن الله، والجزاء بمعنى العقاب، أي: عقاباً لكفرهم بالله تعالى[٣].

وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد: «جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ» بفتح الكاف والفاء[٤]، بمعنى: كان الغَرَق جزاءً وعقاباً لمن كفر بالله[٥].

وما نجا من الغرق غير عوج بن عنق، كان الماء إلى حُجْزته، وسبب نجاته أنَّ نوحاً احتاج إلى خشبة السَّاج لبناء السفينة فلم يمكنه حملها، فحمل عُوجٌ تلك الخشبة إليه من الشام، فشكر الله له ذلك، ونَجَّاه من الغرق[٦].

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَهَآ ءَايَةً﴾ يريد هذه الفعلة عِبْرة[٧]. وقيل: أراد السفينة[٨]، تركها آيةً لمن بعد قوم نوح، يعتبرون بها فلا يكذِّبون الرسل. قال قتادة: أبقاها الله بَباقِرْدَى من أرض الجزية عبرةً وآيةً، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمَّة، وكم من سفينة كانت بعدها فصارت رماداً[٩].

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٨ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٠٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٥ دون ذكر مجاهد وحميد، والقراءة عن يزيد وقتادة في القراءات الشاذة ص١٤٧ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٨ .

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٩ .

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٦ ، والسَّاجُ: خشب يجلب من الهند، واحدته: ساجة. اللسان (سوج). والخبر من الإسرائيليات التالفة كما أشرنا إليه ٧/ ٣٩٦ - ٣٩٨ .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٨ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٦١ .

(٩) النكت والعيون ٥/ ٤١٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٢٨ ، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٢٠ (١٨٧٠٩)، وباقِرْدَى: موضع بالجزيرة يقع شرقي دجلة، بالقرب من جبل الجودي. معجم ما استعجم ١/ ٢٢٢ ، ومعجم البلدان ١/ ٤٦٦ ، ٤٧٦ .

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ مُتَّعظ خائف[١]، وأصله مُذْتَكِر ـ مُفْتَعِل ـ من الذِّكْر، فثقلت على الألسنة، فقلبت التاء دالاً؛ لتوافق الذال في الجهر، وأدغمت الدال فيها[٢].

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: إنذاري، قال الفرَّاء: الإنذار والنذر مصدران[٣]. وقيل: «نُذُر» جمع نذير، ونذير بمعنى الإنذار، كنكير بمعنى الإنكار[٤].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: سهَّلناه للحفظ، وأعنَّا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه، فيُعان عليه؟ ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيَّأناه للذِّكْر، مِن يَسَّر ناقته للسَّفَر: إذا رَحَلها، ويَسَّر فرسه للغزو، إذا أسرجه وألجمه، قال:

وقُمْتُ إليهِ باللِّجامِ مُيَسِّراً هُنَالكَ يَجْزِيني الذي كنتُ أَصْنَعُ[٥]

وقال سعيد بن جبير: ليس من كتب الله كتابٌ يقرأ كلُّه ظاهراً إلا القرآن[٦]. وقال غيره: ولم يكن هذا لبني إسرائيل، ولم يكونوا يقرؤون التوراة إلا نظراً، غير موسى وهارون ويوشع بن نون وعُزير صلوات الله عليهم، ومن أجل ذلك افتُتنوا بعُزير لما كَتب لهم التوراة عن ظهر قلب حين أُحرقت، على ما تقدَّم بيانه في سورة «براءة»[٧] فيسَّر الله تعالى على هذه الأمَّة حِفْظَ كتابه ليذَّكَّروا ما فيه، أي: يفتعلوا الذّكر، والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهم.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قارئ يقرؤه. وقال أبو بكر الورَّاق وابن شَوْذب: فهل من طالب

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٦١ .

(٢) إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٧ .

(٣) ونقله عنه البغوي ٤/ ٢٦١ .

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٢ .

(٥) الكشاف ٤/ ٣٨ ، والبيت للأعرج عدي بن عمرو الطائي المعنى، وهو في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٣٥١ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦١ ، والوسيط ٤/ ٢٠٩ .

(٧) ١٠/ ١٧٣ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٨ .

خير وعِلْم فيُعانَ عليه[١]، وكرِّر في هذه السورة؛ للتنبيه والإفهام. وقيل: إنَّ الله تعالى اقتصَّ في هذه السورة على هذه الأمَّة أنباء الأمم وقصص المرسلين، وما عاملتهم به الأُمم، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين، فكان في كلِّ قصة ونبأ ذِكْرٌ للمستمع أن لو ادَّكر، وإنَّما كرَّر هذه الآية عند ذِكْر كلِّ قصة بقوله: «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» لأنَّ «هَلْ» كلمة استفهام تستدعي أفهامهم التي ركبت في أجوافهم، وجعلها حجَّة عليهم، فاللام من «هَلْ» للاستعراض، والهاء للاستخراج.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ هم قوم هود. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وقعت «نُذُر» في هذه السورة في ستَّة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف، وقرأها يعقوب مثبتة في الحالين، وورش في الوصل لا غير، وحذف الباقون. ولا خلاف في حذف الياء من قوله: «فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ» [الآية: ٥] والواو من قوله: «يَدْعُ». فأمَّا الياء من «الدَّاعِ» الأول فأثبتها في الحالين ابنُ مُحيصن ويعقوب وحُميد والبَزِّيُّ، وأَثبتها ورش وأبو عمرو في الوصل، وحذف الباقون. وأما «الدَّاعِ» الثانية فأثبتها يعقوب وابنُ مُحَيْصن وابنُ كثير في الحالين، وأَثبتها أبو عمرو ونافع في الوصل، وحذفها الباقون[٢].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: شديدة البرد، قاله قتادة والضحَّاك[٣]. وقيل: شديدة الصوت[٤]. وقد مضى في «حم» السجدة[٥].

---

(١) أخرجه الدارمي (٣٤٧)، والطبري ٢٢/ ١٣٢، و وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٧٦ من طريق ابن شوذب، عن مطر الوراق، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤١٣ ونسبه لقتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٣١.

(٢) السبعة ص٦١٧ - ٦١٨، والتيسير ص٢٠٦، والنشر ٢/ ١٣٨، ١٤١، ٣٨٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٤، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٣٣.

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٢.

(٥) عند الآية (١٦).

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أي: في يوم كان مشؤماً عليهم. وقال ابن عباس: أي: في يوم كانوا يتشاءمون به[١]. الزجَّاج[٢]: قيل: في يوم أربعاء. ابن عباس: كان آخِرَ أربعاء في الشهر، أفنى صغيرهم وكبيرهم.

وقرأ هارون الأعور: «نَحِس» بكسر الحاء[٣]، وقد مضى القول فيه في «حم» السجدة: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [الآية: ١٦].

و«فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٌّ» أي: دائم الشؤم، استمرَّ عليهم بنحوسه[٤]، واستمرَّ فيه العذاب إلى الهلاك. وقيل: استمرَّ بهم إلى نار جهنَّم[٥]. وقال الضحَّاك: كان مُرًّا عليهم[٦]. وكذا حكى الكسائي أنَّ قوماً قالوا: هو من المرَارة، يقال: مُرَّ الشيء وأمرَّ[٧]، أي: كان كالشيء المرِّ تكرهه النفوس. وقد قال: «فَذُوقُوا» والذي يُذاق قد يكون مُرّاً. وقد قيل: هو من المِرَّة، بمعنى القوَّة[٨]. أي: في يوم نحس مستمرٍّ مستحكم الشؤم، كالشيء المحكم الفتل الذي لا يُطاق نقضه.

فإن قيل: فإذا كان يوم الأربعاء يومَ نحس مستمرٍّ، فكيف يُستجاب فيه الدعاء؟ وقد جاء أنَّ النبيَّ ﷺ استجيب له فيه فيما بين الظهرِ والعصرِ. وقد مضى في «البقرة»[٩] حديث جابر بذلك؟ فالجواب ـ والله أعلم ـ ما جاء في خبر يرويه مسروق عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أتاني جبريل فقال: إنَّ الله يأمرك أن تقضي باليمين مع الشاهد،

(١) الوسيط ٤/ ٢١٠.

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٨٩.

(٣) لم نقف عليها.

(٤) زاد المسير ٨/ ٩٥.

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٣٥ عن قتادة.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٦.

(٧) الصحاح (مرر).

(٨) تهذيب اللغة ١٥/ ١٩٦.

(٩) ٣/ ١٨٤.

وقال: يوم الأربعاء يوم نحس مستمر»[١]. ومعلوم أنَّه لم يرد بذلك أنَّه نحس على الصالحين[٢]، بل أراد أنَّه نحس على الفجَّار والمفسدين، كما كانت الأيام النحسات المذكورة في القرآن، نحسات على الكفار من قوم عادٍ لا على نبيِّهم والمؤمنين به منهم، وإذا كان كذلك لم يبعد أن يمهل الظالم من أوَّل يوم الأربعاء إلى أن تزول الشمس، فإذا أدبر النهار ولم يحدث رجعة[٣]، استُجيب دعاء المظلوم عليه، فكان اليوم نحساً على الظالم، ودعاء النبيِّ ﷺ إنَّما كان على الكفار، وقول جابر في حديثه[٤]: لم ينزل بي أمر غليظ؛ إشارة إلى هذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ في موضع الصفة للريح، أي: تَقْلَعهم من مواضعهم[٥].

قيل: قلعتهم من تحت أقدامهم اقتلاعَ النخلة من أصلها[٦]. وقال مجاهد: كانت تقلعهم من الأرض، فترمي بهم على رؤوسهم فتندقُّ أعناقهم وتَبِين رؤوسهم عن

(١) لم نقف عليه من رواية مسروق، وأخرجه ابن عدي في الكامل ١/ ٢٣٨ من طريق إبراهيم بن أبي حية، عن أبيه، عن النبي ﷺ مرسلاً، وابن حبان في المجروحين ١/ ١٠٤، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٧٠ من طريق إبراهيم بن أبي حية، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً. قال ابن حبان: إبراهيم بن أبي حية يروي عن جعفر وهشام مناكير.

وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٥/ ١٨٨٣ من طريق عيسى بن عبد الله، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن علي موقوفاً. وعيسى بن عبد الله هو: عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، الكوفي، قال عنه ابن حبان في المجروحين ٢/ ١٢١: يروي عن أبيه، عن آبائه أشياء موضوعة.

(٢) في (د) و(ف) و(م): المصلحين، والمثبت من (ظ) و(ك)، والمنهاج في شعب الإيمان للحليمي ١/ ٥٣٦ والكلام منه.

(٣) في المنهاج: ولم تحدث رجفة.

(٤) السالف ٣/ ١٨٤، والذي أشار إليه القرطبي آنفاً.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٣.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٠.

أجسادهم[١]. وقيل: تنزع الناس من البيوت. وقال محمد بن كعب عن أبيه: قال النبيُّ ﷺ: «انتزعت الريحُ الناسَ من قبورهم»[٢]. وقيل: حفروا حُفَراً ودخلوها، فكانت الريح تَنزعُهم منها وتكسرهم، وتبقى تلك الحفر كأنَّها أصول نخل قد هلك ما كان فيها، فتبقى مواضعها منقعرة[٣].

ويروى أنَّ سبعةً منهم حفروا حفراً وقاموا فيها ليردُّوا الريح. قال ابن إسحاق: لما هاجت الريح قام نفرٌ سبعة من عادٍ سُمِّي لنا منهم ستَّةٌ من أَيِّد[٤] عادٍ وأجسمِها، منهم عمرو بن الحليِّ، والحارث بن شداد، والهِلْقام، وابنا تِقْن[٥]، وخَلجَان بن سعد، فأَوْلجوا العيالَ في شِعْب بين جبلين، ثم اصطفُّوا على باب الشِّعب ليردُّوا الريح عمَّن في الشِّعب من العيال، فجعلت الريح تَجْعَفهم[٦] رجلاً رجلاً، فقالت امرأة من عادٍ:

ذهبَ الدهرُ بعمرِو بـ ... ـنِ حليٍّ والهنِيَّاتِ
ثم بالحارث والهِلْـ ... ـقامِ طَلَّاعِ الثنِيَّاتِ
والذي سدَّ مهبَّ الر ... يح أيَّامَ البلِيَّاتِ

الطبريُّ[٧]: في الكلام حذف، والمعنى: تنزع الناس فتتركهم كأنَّهم أعجاز نخل منقعِر، فالكاف في موضع نصب بالمحذوف. الزَّجاج[٨]: الكاف في موضع نصب

(١) المحرر الوجيز ٥/٢١٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٦١ دون عزوٍ، ولم نقف عليه عند غيره.

(٣) المحرر الوجيز ٥/٢١٦ .

(٤) في (م): أشد. والمثبت من النسخ والطبري ٢٢/ ١٣٥ ، والكلام منه، والأبيات الآتية منه أيضاً، والأيِّد: القوي. التاج (أيد).

(٥) في الطبري: تيقن.

(٦) جعفه: صَرَعه، وضرب به الأرض. اللسان (جعف).

(٧) في التفسير ٢٢/ ١٣٨ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٩ .

(٨) في معاني القرآن له ٥/ ٨٩ .

على الحال، والمعنى: تنزع الناس مشبَّهين بأعجاز نخل. والتشبيه قيل: إنَّه للحُفَر التي كانوا فيها[١].

والأعجاز جمع عَجُز: وهو مؤخَّر الشيء[٢]. وكانت عاد موصوفين بطول القامة، فشُبِّهوا بالنخل انكبَّت لوجوهها. وقال: «أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» للفظ النخل، وهو من الجمع الذي يذكَّر ويؤنَّث[٣]. والمنقعر: المنقلع من أصله، قعرتُ الشجرةَ قعراً: قلعتُها من أصلها فانقعرت. الكسائي: قعرتُ البئرَ، أي: نزلتُ حتى انتهيتُ إلى قعرها، وكذلك الإناء إذا شربت ما فيه حتى انتهيت إلى قعره. وأقعرتُ البئرَ: جعلتُ لها قعراً[٤].

وقال أبو بكر بنُ الأنباري: سئل المبرِّد بحضرة إسماعيل القاضي عن ألف مسألة هذه من جملتها، فقيل له: ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١] و﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] و﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] فقال: كلُّ ما ورَدَ عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيراً، أو إلى المعنى تأنيثاً. وقيل: إنَّ النخل والنخيل بمعنًى يذكَّر ويؤنَّث كما ذكرنا. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ هم قوم صالح كذَّبوا الرسل ونبيَّهم، أو كذَّبوا بالآيات التي هي النذر ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ ونَدَع جماعةً[٥].

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٢.
(٢) الصحاح (عجز).
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩١.
(٤) الصحاح (قعر).
(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ١٣٩.

وقرأ أبو الأشهب وابن السَّمَيْفَع وأبو السَّمَّال العدويُّ: «أَبَشَرٌ» بالرفع «وَاحِدٌ» كذلك رفع بالابتداء، والخبر: «نَتَّبِعُهُ». الباقون بالنصب على معنى: أنتَّبع بشراً منَّا واحداً نتبعه. وقرأ أبو السَّمَّال: «أَبَشَرٌ» بالرفع «مِنَّا واحِداً» بالنصب، رفع «أَبَشَرٌ» بإضمار فعل يدلُّ عليه «أَؤُلْقِيَ» كأنَّه قال: أينبَّأ بشرٌ منَّا، وقوله: «وَاحِداً» يجوز أن يكون حالاً من المضمر في «مِنَّا» والناصب له الظرف، والتقدير: أينبَّأ بشرٌ كائن منَّا منفرداً، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في «نَتَّبِعُهُ» منفرداً لا ناصر له[١].

﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ﴾ أي: ذهاب عن الصواب[٢] ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: جنون، من قولهم: ناقة مسعورة[٣]، أي: كأنَّها من شدَّة نشاطها مجنونة[٤]، ذكره ابن عباس[٥]. قال الشاعر يصف ناقته:

تَخالُ بها سُعْراً إذا السَّفْرُ[٦] هَزَّهَا ... ذَمِيلٌ وإيقاعٌ من السَّيْرِ مُتْعِبُ[٧]

وقال ابن عباس أيضاً: السُّعر: العذاب[٨]، وقاله الفراء[٩]. مجاهد: بعد من

(١) المحتسب ٢/٢٩٨، وإعراب القرآن للنحاس ٤/٢٩٣، والكشاف ٤/٣٩، والمحرر الوجيز ٥/٢١٧، والبحر المحيط ٨/١٧٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/١٣٩.

(٣) الكشاف ٤/٣٩.

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٣.

(٥) الوسيط ٤/٢١١، وزاد المسير ٨/٩٦.

(٦) في (د)، و(ظ): العيس، وفي (ف): الشعر، والمثبت من (ك) و (م).

(٧) أورده الزمخشري في الكشاف ٤/٣٩ وروايته:

كأن بها سعراً إذا العيس هزَّها ... ذميل وإرخاء من السير متعب

وجاء بهامش (ك) وبعد البيت في (م): «الذميل: ضرب من سير الإبل. قال أبو عبيد: إذا ارتفع السير عن العَنَق قليلاً فهو التزيُّد، فإذا ارتفع عن ذلك فهو الذميل، ثم الرسيمُ، يقال: ذَمَل يَذْمُل ويَذمِل ذَمِيلاً. قال الأصمعي: ولا يَذمُل بعير يوماً وليلةً إلا مَهْرِيٌّ. قاله الجوهري». اهـ الصحاح (ذمل).

(٨) تفسير البغوي ٤/٢٦١.

(٩) في معاني القرآن له ٣/١٠٨.

الحقّ[١]. السديُّ: في احتراق[٢]. قال:

أصحوتَ اليومَ أمْ شاقَتْكَ هِرّ ... ومِنَ الْحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرْ[٣]

أي: متَّقد ومحترق. أبو عبيدة[٤]: هو جمع سعير، وهو لهيب النار. والبعير المجنون يذهب كذا وكذا لما يتلهَّب به من الحدَّة. ومعنى الآية: إنَّا إذاً لفي شقاء وعناء مما يلزمنا.

قوله تعالى: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: خُصِّصَ بالرسالة من بين آل ثمود، وفيهم من هو أكثر مالاً وأحسن حالاً؟! وهو استفهام معناه الإنكار[٥]. ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي: ليس كما يدَّعيه، وإنَّما يريد أن يتعاظم ويلتمس التكبُّر علينا من غير استحقاق. والأَشَر: المَرَح والتَجَبُّر[٦] والنَّشاط[٧]. يقال: فرس أَشِر، إذا كان مرحاً نشيطاً، قال امرؤ القيس يصف كلباً:

فيدركنا فَغِمٌ داجِنٌ ... سميعٌ بصيرٌ طَلُوبٌ نَكِرْ

أَلَصُّ الضُّروسِ حَنِيُّ الضُّلوعِ ... تَبُوعٌ أَرِيبٌ نَشِيطٌ أَشِرْ[٨]

وقيل: «أَشِرٌ» بَطِر. والأَشَر: البَطَر، قال الشاعر:

---

(١) في تفسير مجاهد ٢/ ٦٣٧ : السعر: الضلال أيضاً.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤١٥ ، وفيه: الافتراق، بدل: الاحتراق.

(٣) القائل طرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٥٠ .

(٤) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٤١ .

(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ١٤٠ بنحوه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٢ .

(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤١ .

(٨) ديوان امرئ القيس ص١٦٠ - ١٦١ ، وفيه: أريب، بدل: طلوب، قال شارحه: الفَغِم: المولع بالشيء الحريص عليه. وداجن: آلف، قد عاود الصيد غير مرَّة. وألصُّ الضروس: ملتصقة بعضها إلى بعض. وحنيُّ الضلوع: ضلوعه منحنية معطوفة.

أَشِـرْتُـمْ بِـلُـبْـس الـخَـزِّ لـمّـا لَـبِـسْـتُـمُ ومِن قبلُ ما تَدْرون مَنْ فَتَحَ الْقُرَى[١]

وقد أَشِرَ بالكسر يأشَر أَشَراً، فهو أَشِر وأَشْرانُ، وقوم أُشَارى مثل سَكْران وسُكَارى، قال الشاعر:

وخَـلَّـت وُعُـولاً أُشَـارَى بِـهـا وقـد أَزْهَـفَ الـطَّـعْـنُ أَبـطـالَـهَـا[٢]

وقيل: إنَّه المتعدِّي إلى منزلة لا يستحقُّها[٣]، والمعنى واحد. وقال ابن زيد وعبد الرحمن بن حمَّاد: الأَشِر: الذي لا يبالي ما قال[٤].

وقرأ أبو جعفر وأبو قِلابة: «أَشَرُّ» بفتح الشين وتشديد الراء[٥]، يعني به: أشرّنا وأخبثنا.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ أي: سيرون العذاب يوم القيامة، أو في حال نزول العذاب بهم في الدنيا[٦].

وقرأ ابن عامر وحمزة بالتاء، على أنَّه من قول صالح لهم على الخطاب. الباقون بالياء؛ إخبار من الله تعالى لصالح عنهم[٧].

وقوله: «غداً» على التقريب على عادة الناس في قولهم للعواقب: إنَّ مع اليوم غداً[٨]، قال:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١٥، ولم ينسبه.

(٢) الصحاح (أشر)، قال ابن برّي في التنبيه والإيضاح ٢/ ٧٨: البيت لميَّة بنت ضرار الضبيَّة ترثي أخاها، وأزهف الطعنُ أبطالها: أي: صَرَعها.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٥.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٤٠ عن عبد الرحمن بن أبي حماد.

(٥) ذكرها العكبري في إملاء ما منَّ به الرحمن ٤/ ٣٦٦ - ٣٦٧، والفخر الرازي ٢٩/ ٥١ ولم ينسباها.

(٦) الوسيط ٤/ ٢١١.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٠، والقراءة في السبعة ص٦١٨، والتيسير ص٢٠٦.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٢.

لـلـموتِ فـيـهـا سِـهـامٌ غـيـر مُـخْـطِـئَـةٍ   مَنْ لم يكن مَيتاً في اليومِ ماتَ غَدًا[١]

وقال أبو الطَّمَحان[٢]:

أَلَا عَـلِّـلَانـي قـبـل نَـوْحِ الـنَّـوَائِـحِ   وقَبْل اضْطرَابِ النَّفْسِ بينَ الْجَوَانِحِ

وقـبـلَ غَـدٍ يـا لَـهْـفَ نـفـسِـي عـلـى غَـدٍ   إذا رَاح أصـحـابـي ولـسـتُ بـرائِـحِ

إنَّما أرادَ وقتَ الموت، ولم يُرِدْ غداً بعينه.

﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ وقرأ أبو قلابة: «الْأَشَرُّ» بفتح الشين وتشديد الراء[٣]، جاء به على الأصل. قال أبو حاتم: لا تكاد العرب تتكلم بالأَشَرّ والْأَخْيَر إلا في ضرورة الشعر، كقول رؤبة:

بِـلَالُ خَـيْـرُ الـنـاسِ وابـنُ الْأَخْـيَـرِ[٤]

وإنَّما يقولون: هو خير قومه، وهو شرُّ الناس، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [مريم: ٧٥]. وعن أبي حيوة: بفتح الشين وتخفيف الراء[٥]. وعن مجاهد وسعيد بن جُبَير: ضمُّ الشين والراء والتخفيف[٦]، قال النحَّاس: وهو معنى «الأشِر» ومثله: رجل حَذِر وحَذُر.

---

(١) القائل أبو العتاهية، وهو في ديوانه ص١١١ ، وجاءت رواية عجزه هكذا:

من فـاتـه الـيـوم سـهـم لـم يـفـتـه غـدا

(٢) في النسخ الخطية: أبو الطماح، وفي (م): الطرِمَّاح. والمثبت من مصادر التخريج، فالبيتان ذكرهما المرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٣/ ١٢٦٦ ، والبصري في الحماسة البصرية ١/ ١٣٢ ، ونسباهما إلى أبي الطَّمَحان القيني، وجاء فيه: صدح، بدل: نوح. وارتقاء، بدل: اضطراب. وذكرهما ابن عبد ربِّه في العقد الفريد ٣/ ٢٤٨ ونسبهما إلى هدبة العذري، وفيه: اطلاع، بدل: اضطراب. ولم نقف على البيتين في ديوان الطرماح.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤٧ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٩ .

(٤) ذكره ابن جنيٍّ في المحتسب ٢/ ٢٩٩ ، ولم نقف عليه في ديوان رؤبة ولا العجاج.

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٨ .

(٦) القراءات الشاذة ص١٤٨ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٩ ، والبحر المحيط ٨/ ١٨٠ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ أي: مخرجوها من الهضبة التي سألوها، فروي أنَّ صالحاً صلَّى ركعتين ودعا، فانصدعت الصخرةُ التي عيَّنوها عن سنامها، فخرجت ناقةٌ عُشَراء جرداء[1]. ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: اختباراً، وهو مفعول له[2]. ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ أي: انتظر ما يصنعون. ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ أي: اصبر على أذاهم[3]، وأصل الطاء في اصطبر تاء، فتحوَّلت طاء؛ لتكون موافقة للصاد في الإطباق[4].

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾: أي: أخبرهم ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين آلِ ثمودَ وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم[5]، كما قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] قال ابن عباس: كان يوم شِربهم لا تشرب الناقةُ شيئاً من الماء، وتسقيهم لبناً، وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماءَ كلَّه، فلم تُبْقِ لهم شيئاً[6]. وإنَّما قال: «بَيْنَهُمْ» لأنَّ العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم، غلَّبوا بني آدم[7].

وروى أبو الزبير عن جابر قال: لما نزلنا الحجْرَ في مغزى رسول الله ﷺ تَبوك، قال: «أيُّها الناس لا تسألوا في هذه الآيات، هؤلاء قوم صالح سألوا نبيَّهم أن يبعثَ الله

(١) عرائس المجالس ص٦٨، وفيه: وبراء، بدل: جرداء، وكذا جاءت في (م).
(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨٩.
(٣) الوسيط ٤/ ٢١١.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٤.
(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٣.
(٦) الوسيط ٤/ ٢١١.
(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٢.

لهم ناقةً، فبعث اللهُ عزَّ وجلَّ إليهم الناقة، فكانت تَرِدُ من ذلك الفجِّ فتشرب ماءَهم يوم وِردها، ويحلبون منها مثلَ الذي كانوا يشربون يوم غِبِّها» وهو معنى قوله تعالى: «وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ»[1].

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ الشِّرْب ـ بالكسر ـ الحَظُّ من الماء، وفي المثل: آخرها أقلُّها شِرْباً. وأصله في سقي الإبل؛ لأنَّ آخرَها يَرِدُ وقد نُزِفَ الحوضُ[2].

ومعنى «مُحْتَضَرٌ» أي: يحضُره مَن هو له، فالناقة تَحضر الماءَ يوم وِردها، وتغيب عنهم يوم وِردهم، قاله مقاتل. وقال مجاهد: إنَّ ثمود يحضرون الماءَ يوم غبِّها فيشربون، ويحضرون اللبنَ يوم وِردها فيحتلبون[3].

قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ يعني بالحضِّ على عَقْرها ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ عقرها ﴿فَعَقَرَ﴾ هَا، ومعنى تعاطى: تناول الفعل، من قولهم: عَطَوتُ، أي: تناولتُ[4]، ومنه قول حسان:

كِلْتَاهُمَا حَلَبُ العَصِيرِ فَعَاطِنِي ... بِزُجَاجَةٍ أرخاهما للمِفْصَلِ[5]

قال محمد بن إسحاق: فَكَمِنَ لها في أصل شجرة على طريقها، فرماها بسهم فانتظم به عَضَلة ساقها، ثم شدَّ عليها بالسيف فكشف عُرْقوبها، فخرَّت ورَغت رُغاءةً

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١٥، وعرائس المجالس ص٧٣، والحديث أخرجه أحمد (١٤١٦٠)، والبزار (١٨٤٤ كشف الأستار)، والطبري ١٠/ ٢٩٦، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٧٥٥) من طريق ابن خُثَيم، والطبراني في الأوسط (٩٠٦٥) من طريق ابن لهيعة، كلاهما عن أبي الزبير، عن جابر بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٩٤ و ٧/ ٣٨: رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) الصحاح (شرب)، والمثل في مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤١- ٤٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٦، وخبر مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٣٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٥.

(٥) ديوان حسان ص١٨١، قال البغدادي في خزانة الأدب ٤/ ٣٨٩: كلتاهما... إلخ. أراد كلتا الممزوجة والصرف، حلبُ العنب، فناوِلْني أشدَّهما إرخاء وهي الصرف. والحلب: بمعنى المحلوب. والمفصل: روي بكسر الميم وفتح الصاد، وهو اللسان، لأنه آلة يُفصَل به، ويروى بفتح الميم وكسر الصاد، وهو موضع انفصال العضو.

واحدة تحَدّر سَقْبها من بطنها، ثم نَحرها وانطلق سَقْبها، حتى أتى صخرة في رأس جبل فرغا ثم لاَذَ بها، فأتاهم صالح عليه السلام، فلما رأى الناقة قد عُقِرت، بكى وقال: قد انتهكتم حرمةَ الله فأبشروا بعذاب الله[١]. وقد مضى في «الأعراف»[٢] بيان هذا المعنى. قال ابن عباس: وكان الذي عقرها: أحمر أزرق أشقر أكشف أقفى[٣]. ويقال في اسمه: قُدَار بن سالف. وقال الأفوه الأَوْديُّ:

أو قَبْلَه كقُدَارٍ حين تابَعَهُ   على الغَوَايةِ أقوامٌ فقد بادُوا

والعرب تسمِّي الجزَّار قُداراً؛ تشبيهاً بقُدَار بن سالف مشؤم آلِ ثمودَ، قال مُهلهِل:

إنَّا لَنَضْرِبُ بالسُّيُوفِ رؤُوسَهمْ   ضَرْبَ القُدَارِ نَقِيعَةَ القُدَّامِ[٤]

وذكره زهير فقال:

فَتُنْتَجْ لكمْ غِلمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ   كأحمرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فتَفْطِمِ[٥]

يريد: الحرب، فكنَّى عن ثمود بعاد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يريد صيحة جبريلَ عليه السلام، وقد مضى في «هود»[٦]. ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية: «المحْتَظَر» بفتح الظاء[٧]، أرادوا الحظيرة. الباقون بالكسر، أرادوا صاحبَ الحظيرةِ.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١٦ .

(٢) ٩/ ٢٧٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٦ ، وما بعده منه، والبيت في زهر الأكم لليوسي ٢/ ٢٧٥ ، وفيه: أو بعده، بدل: أو قبله.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٨ ، والبيت في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ٣/ ٧١ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٠٢٥ . قال أبو حيان: والقُدَّام: رؤساء الجيوش، والواحد: قادم. وقال المرزوقي: والنقيعة: بعير ينحره رئيس القوم قبل القسمة فيطعمه الناس كذلك.

(٥) شرح ديوان زهير ص٢٠ ، قال شارحه: تُنْتج: يعني الحرب. غلمان أشأم: غلمان شؤم. أي: كلهم في الشؤم كأحمر عاد، وإنما أراد أحمر ثمود. ثم ترضع فتفطم: يريد أنه يَتِمُّ أمر الحرب، كالمرأة إذا أرضعت ثم فطمت فقد تمَّت.

(٦) ١١/ ١٥٦ .

(٧) القراءات الشاذة ص١٤٨ ، والمحتسب ٢/ ٢٩٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١٨ .

وفي «الصحاح»[١] والمحتظِر: الذي يعمل الحظيرة. وقرئ: «كَهَشِيمِ المحتَظَر» فمن كسره جعله الفاعلَ، ومن فتحه جعله المفعولَ به. ويقال للرجل القليل الخير: إنَّه لنَكِدُ الحظِيرةِ. قال أبو عبيد: أراه سمَّى أمواله حظيرة؛ لأنَّه حظرها عنده ومنَعَها، وهي فعيلة بمعنى مفعولة[٢].

المهدويُّ: من فتح الظاء من «المحتظر» فهو مصدر، والمعنى: كهشيم الاحتظار. ويجوز أن يكون «المحتظَر» هو الشجر المتَّخذ منه الحظيرة. قال ابن عباس: «المحتظِر»: هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك، فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم[٣]. قال:

أَثَــرْنَ عَــجــاجَــةً كــدخــانِ نــارِ   تــشــبُّ بــغَــرْقَــدٍ بــالٍ هَــشِــيــمِ[٤]

وعنه: كحشيش تأكله الغنم. وعنه أيضاً: كالعظام النخرة المحترقة، وهو قول قتادة[٥]. وقال سعيد بن جُبير: هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح[٦]. وقال سفيان الثوري: هو ما تناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصا، وهو فعيل بمعنى مفعول[٧]. وقال ابن زيد: العرب تسمِّي كلَّ شيء كان رطباً فيبس هشيماً[٨]. والحظْر: المنع، والمحتظر المفتعل، ويقال منه: احتظر على إبله وحظر، أي: جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض؛ ليمنع بَرْدَ الريح والسباع عن إبله[٩]، قال الشاعر:

---

(١) مادة: «حظر».

(٢) مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤٧ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤١٧ ، وما بعده منه أيضاً، ولم نقف على قائل البيت.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٤٥ - ١٤٦ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤١٧ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٤٨ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٢ .

(٩) الوسيط ٤/ ٢١١ .

تَـرَى جِـيَـفَ الـمَـطِـيِّ بِـجـانـبـيـه ... كـأنَّ عـظـامَـهـا خَـشَـبُ الـهَـشِـيـم[١]

وعن ابن عباس: أنَّهم كانوا مثل القمح الذي ديس وهشم. فالمحتظر على هذا: الذي يتَّخذ حظيرة على زرعه، والهشيم: فُتات السنبلة والتبن. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ﴾ أخبر عن قوم لوط أيضاً لما كذَّبوا لوطاً ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحاً ترميهم بالحصباء وهي الحصى[٢]. قال النّضر: الحاصب: الحصباء في الريح. وقال أبو عبيدة: الحاصب: الحجارة[٣]. وفي «الصحاح»[٤]: والحاصب: الريح الشديدة التي تثير الحصباء، وكذلك الحَصِبة، قال لَبِيد:

جَـرَّتْ عـلـيـهـا أنْ خَـوَتْ مِـن أهـلـهـا ... أذيـالَـهـا كُـلُّ عَـصُـوفٍ حَـصِـبَـهْ

عصفت الريح، أي: اشتدَّت، فهي ريح عاصفٌ وعَصوف[٥]. وقال الفَرَزْدق[٦]:

مستقبلين شمالَ الشامِ تَضرِبُنا ... بحاصبٍ كنَديفِ القُطْنِ منثورِ

---

(١) القائل عمرو بن معدي كرب، وهو في الأصمعيات ص١٧٦ ، إلا أنه ورد فيه البيت هكذا:

تـرى جـيـف الـمـطـيِّ بـحـافـتـيـه ... كـأنَّ عـظـامـهـا الـرَّخـم الـوقـوع

(٢) الكشاف ٤/ ٤٠ .

(٣) الوسيط ٤/ ٢١١ ، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/ ٢٤١ .

(٤) مادة (حصب)، والبيت الآتي للبيد وهو في شرح ديوانه ص٣٥٥ ، وسلف ١٣/ ١٢٤ .

(٥) الصحاح (عصف).

(٦) في ديوانه ١/ ٢١٣ ، وسلف ١٣/ ١٢٤ .

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني: من تبعه على دينه، ولم يكن إلا بنتاه[١] ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ قال الأخفش: إنَّما أجراه؛ لأنَّه نكرة، ولو أراد سَحَرَ يوم بعينه لما أجراه، ونظيره: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١] لما نكَّره، فلما عرَّفه في قوله: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٩٩] لم يُجْرِ، وكذا قال الزجَّاج[٢]: «سحر» إذا كان نكرةً يُراد به سحَراً من الأسحار يصرف، تقول: أتيته سحراً، فإذا أردتَ سَحَرَ يومكَ، لم تصرفه، تقول: أتيته سَحَر يا هذا، وأتيته بسحر. والسَّحَرُ: هو ما بين آخرِ الليل وطلوع الفجر، وهو في كلام العرب اختلاطُ سواد الليل ببياض أوَّل النهار؛ لأنَّ في هذا الوقت يكون مخاييل الليل ومخاييل النهار[٣].

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ إنعاماً منَّا على لوط وابنتَيْه، فهو نَصْب؛ لأنَّه مفعول له[٤].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ أي: من آمنَ بالله وأطاعه[٥].

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ يعني: لوطاً، خوَّفهم ﴿بَطْشَتَنَا﴾ عقوبتنا، وأَخْذنا إيَّاهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي: شَكُّوا فيما أنذرهم به الرسولُ ولم يصدِّقوه[٦]، وهو تفاعل من المِرْية[٧].

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ أي: أرادوا منه تمكينَهم ممَّن كان أتاه من الملائكة في هيئة الأضياف؛ طلباً للفاحشة على ما تقدّم[٨]. يقال: راوَدْته على كذا مُرَاوَدةً ورِوَاداً، أي: أردتُه. ورَادَ الكلأَ يَرُودُه رَوْداً ورِياداً، وارْتادَه ارتياداً بمعنًى، أي: طلبه، وفي الحديث: «إذا بال أحدكم فلْيَرْتَدْ لِبوله» أي: يطلب مكاناً ليِّناً أو منحدراً[٩].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٣ .
(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٩٠ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٨ .
(٤) في النسخ: (به)، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٠ ، والكلام منه.
(٥) الكشاف ٤/ ٤٠ .
(٦) الوسيط ٤/ ٢١٢ .
(٧) تفسير الطبري ٢٢/ ١٤٩ .
(٨) ١١/ ١٧٦ .
(٩) الصحاح (رود)، والحديث أخرجه أحمد (١٩٥٣٧)، وأبو داود (٣) عن أبي موسى الأشعري ﷺ. قال المنذري في مختصر السنن ١/ ١٥ : فيه مجهول.

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ يُروى أنَّ جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه فَعموا[١]. وقيل: صارت أعينهم كسائر الوجه لا يُرى لها شقٌّ، كما تطمس الريحُ الأعلامَ بما تسفي عليها من التراب[٢]. وقيل: لا، بل أعماهم اللهُ مع صحَّة أبصارهم، فلم يروهم[٣]. قال الضحَّاك: طمس اللهُ على أبصارهم فلم يروا الرسل، فقالوا: لقد رأيناهم حين دخلوا البيتَ، فأين ذهبوا؟ فرجعوا ولم يروهم[٤]. ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي: فقلنا لهم: ذوقوا، والمراد من هذا الأمر الخبر، أي: فأذقتهم عذابي الذي أنذرهم به لوط[٥].

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: دائم عامٌّ استقرَّ فيهم حتى يفضي بهم إلى عذاب الآخرة[٦]. وذلك العذاب قَلْب قريتهم عليهم، وجعل أعلاها أسفلها. و«بُكْرَةً» هنا نكرة، فلذلك صرفت[٧]. ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ العذاب الذي نزل بهم من طمس الأَعين غير العذاب الذي أُهلكوا[٨] به، فلذلك حسُن التكرير. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ يعني: القبط[٩]، و«النُّذُرُ» موسى

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩١ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٥٠ عن قتادة.
(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤١ ، وتفسير الطبري ٢٢/ ١٤٩ - ١٥٠ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤١٨ .
(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٣ .
(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ١٥٢ بنحوه.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٣ .
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٨ .
(٨) تفسير الرازي ٢٢/ ٦٣ .
(٩) الوسيط ٤/ ٢١٢ .

وهارون[١] وقد يطلق لفظ الجمع على الاثنين. ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ معجزاتنا الدَّالَّة على توحدينا ونبوَّة أنبيائنا[٢]، وهي العصا، واليد، والسِّنون، والطمسة، والطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم. وقيل: «النُّذُر»: الرسل، فقد جاءهم يوسف وبَنُوهُ إلى أن جاءهم موسى، وقيل: «النذر» الإنذار[٣]. ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي: غالب في انتقامه ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: قادر على ما أراد.

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ خاطب العرب. وقيل: أراد كفَّار أمَّة محمَّد ﷺ[٤]. وقيل: استفهام، وهو استفهام إنكار[٥]، ومعناه النفي، أي: ليس كفاركم خيراً من كفَّار مَن تقدَّم من الأُمم الذين أهلكوا بكفرهم[٦]. ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي: في الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة[٧]. وقال ابن عباس: أم لكم في اللوح المحفوظ براءةٌ من العذاب. ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي: جماعة لا تطاق؛ لكثرة عددهم وقوَّتهم[٨]، ولم يقل: منتصرين؛ اتباعاً لرؤوس الآي[٩]، فردَّ اللهُ عليهم فقال: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ أي: جَمْعُ كفَّار مكَّة، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره[١٠].

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٣.
(٢) الوسيط ٤/ ٢١٢.
(٣) زاد المسير ٨/ ١٠٠.
(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٥٦ عن الربيع بن أنس.
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٤.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٤١٩.
(٧) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٤.
(٨) النكت والعيون ٥/ ٤١٩.
(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٤.
(١٠) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٣، والنكت والعيون ٥/ ٤١٩.

وقراءة العامة: «سَيُهْزَمُ» بالياء، على ما لم يُسَمَّ فاعله، «الْجَمْعُ» بالرفع. وقرأ رُوَيس عن يعقوب: «سَنَهْزِم» بالنون وكسر الزاي «الْجَمْعَ» نصباً(١).

﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ قراءة العامة بالياء؛ على الخبر عنهم. وقرأ عيسى وابن إسحاق ورُوَيس عن يعقوب: «وَتُوَلُّونَ» بالتاء؛ على الخطاب(٢).

و«الدُّبُرَ» اسم جنس، كالدرهم والدينار، فوحّد، والمراد الجمع(٣)؛ لأجل رؤوس الآي. وقال مقاتل: ضرب أبو جهل فرسَه يوم بدر فتقدَّم من الصَّفِّ وقال: نحن ننتصر اليوم من محمَّد وأصحابه؛ فأنزل اللهُ تعالى: «نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِر. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ»(٤).

وقال سعيد بن جبير: قال سعد بن أبي وقَّاص: لما نزل قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ كنت لا أدري أيَّ الجَمْع ينهزم، فلما كان يوم بَدْر رأيتُ النبيَّ ﷺ يَثِبُ في الدرع ويقول: «اللَّهمَّ إنَّ قريشاً جاءتك تُحَادُّك وتُحادُّ رسولَك بفخرها وخيلها(٥) فَأَحِنْهُم(٦) الغداةَ». ثم قال: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» فعرفتُ تأويلها(٧). وهذا من معجزات النبيِّ ﷺ؛ لأنَّه أخبر عن غيب، فكان كما أخبر(٨).

---

(١) النشر ٢/ ٣٨٠.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٠، وزاد المسير ٨/ ١٠٠، والبحر المحيط ٨/ ١٨٣.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٤.

(٤) الكشاف ٤/ ٤١ ولم ينسبه.

(٥) في (م): وخيلائها.

(٦) في (م): فأخنهم. ولم تنقط في النسخ الخطية، والمثبت من مصادر التخريج، والحَيْنُ: الهلاك، وقد حان، وأحانه الله. القاموس (حين)، وأخنى عليهم بمعناه. القاموس (خني)، وسيذكره المصنف قريباً. ودعاؤه ﷺ على قريش ورد في خبر آخر عند ابن هشام في السيرة ١/ ٦٢، والواقدي في المغازي ١/ ٥٩ عن سعد بن معاذ.

(٧) لم نقف عليه من رواية سعد بن أبي وقاص، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٥٩، والطبري ٢٢/ ١٥٧، من طريق عكرمة، أن عمر قال: لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾.. بنحوه.
وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨٤١) من طريق معمر، عن قتادة، عن أنس: أن عمر بن الخطاب قال: لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾.. بنحوه. وبرقم (٩١١٧) عن أبي هريرة مطولاً، وذكرهما الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٧٨، وقال عن الأول: وفيه محمد بن إسماعيل بن علي الأنصاري، ولم أعرفه. وقال عن الثاني: وفيه عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف.

(٨) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٢.

أخنى عليه الدهر. أي: أتى عليه وأهلكه، ومنه قول النابغة:

أَخْنَى عليه الذي أَخْنَى على لُبَدِ

وأخنيت عليه: أفسدت(١). قال ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين، فالآية على هذا مكِّيَّة. وفي «البخاري»(٢) عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: لقد أُنزِل على محمَّد ﷺ بمكَّة وإنِّي لجارية ألعب: «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ». وعن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قال ـ وهو في قبَّة له يوم بدر ـ: «أَنْشُدُكَ عهدَكَ ووعدَك، اللَّهمَّ إن شئتَ لم تُعبدْ بعدَ اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر ﷺ بيده وقال: حَسْبُك يا رسولَ الله، فقد ألححتَ على ربِّك؛ وهو في الدِّرْع، فخرج وهو يقول: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ»(٣) يريد القيامة.

«وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ» أي: أدهى وأمرُّ مما لحقهم يوم بدر(٤). و«أَدْهَى» من الداهية، وهي الأمر العظيم، يقال: دهاه أمْرُ كذا، أي: أصابه دهواً ودهياً. وقال ابن السكِّيت: دَهَتْه داهيةٌ دَهْواء ودَهْياء، وهي توكيدٌ لها(٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ» أي: في حَيْدةٍ عن الحقِّ و«سُعُرٍ» أي: احتراق(٦). وقيل: جنون(٧)، على ما تقدَّم في هذه السورة.

---

(١) الصحاح (خني)، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص٣١، وروايته هكذا:

أمست خلاءً وأمسى أهلُها احتملوا   أخنى عليها الذي أخنى على لبد

(٢) برقم (٤٨٧٦).

(٣) البخاري (٤٨٧٧)، وهو عند أحمد (٣٠٤٢).

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٠.

(٥) الصحاح (دهي)، وكلام ابن السكيت في إصلاح المنطق ص١٥٧.

(٦) تفسير الطبري ٢٢/ ١٥٩.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢١.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾: في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسولَ الله ﷺ في القَدَر، فنزلت: «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقرَ. إنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ». خرَّجه الترمذيُّ أيضاً وقال: حديث حسن صحيح[١].

وروى مسلم عن طاوس قال: أدركتُ ناساً من أصحاب رسولِ الله ﷺ يقولون: كلُّ شيء بقَدَر. قال: وسمعت عبد الله بنَ عمر يقول: قال النبيُّ ﷺ: «كلُّ شيءٍ بقَدر حتى العَجْز والكَيْس، أو: الكَيْس والعَجْز»[٢]. وهذا إبطال لمذهب القدَريَّة.

«ذُوقُوا» أي: يقال لهم: ذوقوا[٣]. ومسُّها: ما يجدون من الألم عند الوقوع فيها[٤]. و«سَقَر» اسم من أسماء جهنَّم لا ينصرف؛ لأنَّه اسم مؤنَّث معرفة[٥]، وكذا: لَظَى، وجهنَّم. وقال عطاء: «سَقَر»: الطبق السادس من جهنَّم. وقال قُطْرب: «سَقَر» من سَقَرته الشمسُ وصَقَرته: لَوَّحَتْه. ويوم مُسْمَقِرٌ ومُصْمَقِرٌ: شديدُ الحرِّ[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ قراءة العامَّة: «كُلَّ» بالنصب. وقرأ أبو السَّمَّال: «كُلُّ» بالرفع على الابتداء[٧]. ومن نصب؛ فبإضمار فعل، وهو اختيار الكوفيين؛ لأنَّ «إنَّ» تطلب الفعل، فهي به أولى[٨]، والنصب أدلُّ على العموم في المخلوقات لله تعالى؛ لأنَّك لو حذفت «خَلَقْنَاهُ» المفسِّر، وأظهرتَ الأوَّل، لصار إنَّا

---

(١) مسلم (٢٦٥٦)، والترمذي (٢١٥٧)، وهو عند أحمد (٩٧٣٦)، وابن ماجه (٨٣)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٢٥ .

(٢) مسلم (٢٦٥٥)، وهو عند أحمد (٥٨٩٣).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٢ .

(٤) الكشاف ٤/ ٤١ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٤٧ .

(٦) الصحاح (سقر) و(صقر).

(٧) القراءات الشاذة ص١٤٨ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٠ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٠ .

خلقنا كلَّ شيء بقَدَر. ولا يصحُّ كون خلقناه صفة لشيء؛ لأنَّ الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف، ولا تكون تفسيراً لما يعمل فيما قبله[1].

الثالثة: الذي عليه أهل السنة أنَّ الله سبحانه قدَّر الأشياء، أي: عَلِمَ مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أَوجد منها ما سبق في عِلْمه أنَّه يوجده على نحو ما سبق في عِلْمه، فلا يحدث حدث في العالم العلويِّ والسفليِّ إلا وهو صادر عن عِلْمه تعالى وقدرته وإرادته دون خَلْقه، وأنَّ الخَلْق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وأنَّ ذلك كلَّه إنَّما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقُدرته وتوفيقه وإلهامه، سبحانه لا إله إلا هو، ولا خالقَ غيرُه، كما نصَّ عليه القرآن والسنة، لا كما قالت القَدَريَّة وغيرهم من أنَّ الأعمال إلينا، والآجال بيد غيرنا.

قال أبو ذرٍّ ﷺ: قدم وفد نجران على رسولِ الله ﷺ فقالوا: الأعمال إلينا، والآجالُ بيد غيرنا، فنزلت هذه الآيات إلى قوله: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» فقالوا: يا محمَّد يَكتُب علينا الذنبَ ويُعذِّبنا؟! فقال: «أنتم خصماء الله يوم القيامة»[2].

الرابعة: روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مجوسَ هذه الأمَّة المكذِّبون بأقدار الله، إن مرِضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم، وإن لقيتموهم فلا تسلِّموا عليهم». خرَّجه ابن ماجه في «سننه»[3]. وخرَّج أيضاً عن ابن عباس وجابر قالا: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي ليس لهم في الإسلام نصيب: أهلُ الإرجاء والقَدَر»[4].

---

(١) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٢.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٤٢٦ عن عطاء مرسلاً بنحوه.

(٣) برقم (٩٢)، وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في السنة (٣٢٨)، والطبراني في الأوسط (٤٤٥٢) من طريق ابن جريج، عن أبي الزبير، به. قال البوصيري في مصباح الزجاجة ١/ ٥٥: هذا إسناد ضعيف، فيه بقية ابن الوليد، وهو مدلِّس، وقد عنعنه. اهـ. وفي الباب عن ابن عمر وعن حذيفة، وهما عند أبي داود (٤٦٩١) و(٤٦٩٢)، وينظر كلام المنذري في مختصر السنن ٧/ ٥٨ - ٦١ حول الحديثين.

(٤) سنن ابن ماجه (٧٣)، وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في السنة (٩٤٨). قال البوصيري في مصباح =

وأسند النحَّاس: وحدَّثنا إبراهيم بن شريك الكوفي قال: حدَّثنا عقبةُ بنُ مكرم الضَّبيُّ قال: حدَّثنا يونس بنُ بكير، عن سعيد بن ميسرة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «القدَريَّة الذين يقولون: الخير والشرُّ بأيدينا. ليس لهم في شفاعتي نصيب ولا أنا منهم ولا هم منِّي»[١].

وفي «صحيح مسلم»[٢] أنَّ ابن عمر تبرَّأ منهم، ولا يتبرَّأ إلا من كافر، ثم أكَّد هذا بقوله: والذي يَحلِفُ به عبدُ الله بنُ عمر لو أنَّ لأحدهم مثلَ أُحُد ذهباً فأنفقه، ما قَبِلَ اللهُ منه حتى يؤمن بالقَدَر. وهذا مثل قوله تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤] وهذا واضح. وقال أبو هريرة: قال النبيُّ ﷺ: «الإيمان بالقَدَر يُذهِب الهمَّ والحزن»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أي: إلا مرَّةٌ واحدة[٤]. ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أي: قضائي في خلْقي أسرعُ من لَمح البصر[٥]. واللَّمحُ: النظر بالعَجَلة، يقال: لَمح

= الزجاجة ١/ ٥٢ : هذا إسناد ضعيف، نزار بن حيان الأسدي قال ابن حبان في الضعفاء: يأتي عن عكرمة بما ليس من حديثه حتى يسبق القلب أنه المتعمِّد، لذلك لا يجوز الاحتجاج به بحال، وعبد الله ابن محمد الليثي مجهول. قاله الذهبي. اهـ.

وأخرجه أيضاً الترمذي (٢١٤٩) عن ابن عباس وحده. قال الترمذي عقبه: وهذا حديث غريب حسن صحيح.

(١) وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٢٤ بإسناده ومتنه، وورد في مطبوعه: عتبة، بدل: عقبة. وهو خطأ. قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ١٦١ - ١٦٢: هذا حديث لا يصح، وقال ابن حبان: سعيد بن ميسرة [من رجال السند] يروي الموضوعات. اهـ.

(٢) برقم (٨).

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢٧٧)، وفيه مجاهيل.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٠ .

(٥) الوسيط ٤/ ٢١٦ وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

البرقَ ببصره[١]. وفي «الصحاح»[٢]: لمَحَه وألمحه: إذا أبصره بنَظَر خفيف، والاسم: اللَّمْحة، ولمَحَ البَرقُ والنجمُ لَمْحاً، أي: لمَع.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي: أشباهكم في الكفر من الأُمم الخالية[٣]. وقيل: أتباعكم وأعوانكم[٤]. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: مَن يتذكَّر.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي: جميع ما فعلته الأُمم قبلهم مِن خير أو شرٍّ كان مكتوباً عليهم، وهذا بيان قوله: «إِنَّا كُلَّ شيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدرٍ».

«في الزُّبُرِ» أي: في اللوح المحفوظ. وقيل: في كتب الحفظة[٥]. وقيل: في أُمِّ الكتاب[٦]. ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أي: كلُّ ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قَبْلَ أن يفعله؛ ليجازى به، ومكتوب إذا فعله[٧]. سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْراً: كَتَب، واستطَرَ مثله[٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ لما وصَف الكفَّار وصَف المؤمنين أيضاً. «وَنَهَرٍ» يعني: أنهار الماء والخمر والعسل واللَّبن، قاله ابن جريج[٩]. ووحَّد؛ لأنَّه رأس الآية[١٠]، ثم الواحد قد يُنبِئُ عن الجميع[١١]. وقيل: في «نَهَرٍ»: في ضياء وسَعة، ومنه النهار؛ لضيائه، ومنه: أنهرتُ الجُرْحَ، قال الشاعر:

---

(١) تهذيب اللغة ٥/ ٩٨.
(٢) مادة (لمح).
(٣) الوسيط ٤/ ٢١٦.
(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٣.
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٦.
(٦) تفسير الطبري ٢٢/ ١٦٤ - ١٦٥ وأخرجه عن ابن زيد.
(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٢.
(٨) الصحاح (سطر).
(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٢٠.
(١٠) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٠ - ١١١.
(١١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٣.

مَلَكْتُ بها كَفِّي فأنهرتُ فَتقَها ... يَرَى قائمٌ من دونها ما وراءَها[١]

وقرأ أبو مِجْلز وأبو نَهيك والأعرج وطلحة بنُ مصرِّف وقتادة: «وَنُهُرٍ» بضمَّتين[٢]، كأنَّه جمع نهار، لا ليلَ لهم، كسحاب وسُحُب. قال الفراء[٣]: أنشدني بعض العرب:

إنْ تَكُ لَيْلِيًّا فإنِّي نَهِرُ ... مَتَى أرى الصُّبحَ فلا أنتَظِرُ

أي: صاحب النهار. وقال آخر:

لَوْلا الثَّرِيدَانِ هَلَكْنا بالضُّمُرْ ... ثَرِيدُ لَيْلٍ وثَرِيدٌ بالنُّهُرْ[٤]

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: مجلس حقٍّ لا لغو فيه ولا تأثيم، وهو الجنَّة ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: يقدر على ما يشاء. و«عِنْدَ» هاهنا عنديَّة القُربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة[٥]. قال الصادق: مدح اللهُ المكانَ الصدقَ فلا يَقعُد فيه إلا أهل الصدق. وقرأ عثمان البَتِّي: «فِي مَقَاعِدِ صِدْقٍ» بالجمع[٦]، والمقاعد: مواضع قعود الناس في الأسواق وغيرها.

قال عبد الله بن بريدة: إنَّ أهل الجنَّة يدخلون كلَّ يوم على الجبَّار تبارك وتعالى، فيقرؤون القرآنَ على ربِّهم تبارك وتعالى، وقد جلس كلُّ إنسان مجلسه الذي هو مجلسه، على منابر من الدُّرِّ والياقوت والزَّبرجد والذَّهب والفضَّة بقَدْر أعمالهم، فلا

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٥، والقائل: قيس بن الخطيم، وسلف ١/ ٣٦٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٨، والمحتسب ٢/ ٣٠٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٢، والبحر المحيط ٨/ ١٨٤.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١١١، وينظر تفسير الطبري ٢٢/ ١٦٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢٠، والبيت سلف ٢/ ٤٩٢.

(٥) لفظ العِنْد فيما يضاف إلى الله تعالى يختلف حاله ومعناه حسب وروده في الكلام وما يحفّ به من قرائن، فما كان ظاهره إرادة المكان ولم يرد ما يحمله على معنى آخر فينبغي أن يحمل على ظاهره وهو العلوّ والقرب من الله عز وجل، وينظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٥/ ٢٢٦.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٢.

تَقَرّ أعينهم بشيء قطُّ كما تَقَرّ بذلك، ولم يسمعوا شيئاً أعظم ولا أحسن منه، ثم ينصرفون إلى منازلهم، قريرةً أعينُهم إلى مثلها من الغد[(١)].

وقال ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان: بلغنا أنَّ الملائكة يأتون المؤمنين يومَ القيامة فيقولون: يا أولياءَ الله انطلِقوا. فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة. فيقول المؤمنون: إنكم تذهبون بنا إلى غير بغيتنا. فيقولون: فما بغيتكم؟ فيقولون: مقعد صِدْق عند مليك مقتدر[(٢)]. وقد روي هذا الخبر على الخصوص بهذا المعنى؛ ففي الخبر: أنَّ طائفةً من العقلاء بالله عزَّ وجلَّ تزفُّها الملائكة إلى الجنَّة والناس في الحساب، فيقولون للملائكة: إلى أين تحملوننا؟ فيقولون إلى الجنَّة. فيقولون: إنَّكم لتحملوننا إلى غير بغيتنا. فيقولون: وما بغيتكم؟ فيقولون: المقعد الصِّدْق مع الحبيب كما أخبر: «فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ»، والله أعلم.

تم تفسير سورة «القمر» والحمد لله.

(١) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص١٥٦ عن النبي ﷺ، من غير إسناد، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٩ وعزاه للحكيم الترمذي بإسناده عن بريدة مرفوعاً.

(٢) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص١٥٦ دون عزوٍ، والسيوطي في الدر المنثور وعزاه للحكيم الترمذي بإسناده عن ثور بن يزيد.

سورة الرحمن عزَّ وجلَّ

مكِّيَّة كلُّها في قول الحسن وعُرْوة بن الزبير وعِكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس: إلا آيةً منها، هي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [٢٩]، وهي ستٌّ وسبعون آيةً. وقال ابن مسعود ومقاتل: هي مدنيَّة كلُّها[١].

والقول الأوَّل أصحُّ[٢]؛ لما روى عُرْوة بن الزبير قال: أوَّل من جهر بالقرآن بمكَّة بعد النبيِّ ﷺ ابنُ مسعود، وذلك أنَّ الصحابة قالوا: ما سمعت قريشٌ هذا القرآنَ يُجهَر به قطُّ، فمَن رجلٌ يُسْمِعْهُمُوه؟ فقال ابن مسعود: أنا. فقالوا: إنَّا نخشى عليك، وإنَّما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه، فأبى، ثم قام عند المقام فقال: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ القُرْآنَ» ثم تمادى رافعاً بها صوته وقريش في أنديتها، فتأمَّلوا وقالوا: ما يقول ابنُ أُمِّ عَبْدٍ؟ قالوا: هو يقول: الذي يزعم محمَّد أنَّه أُنزل عليه، ثم ضربوه حتى أثَّروا في وجهه[٣].

وصحَّ أنَّ النبيَّ ﷺ قام يُصلِّي الصبح بنخلةَ، فقرأ سورة «الرَّحْمَن» ومرَّ النفر من الجنِّ فآمنوا به[٤]. وفي «الترمذي» عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورةَ «الرَّحْمَن» من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «لقد قرأتها على الجنِّ ليلةَ الجنِّ، فكانوا أحسنَ مردوداً منكم، كنتُ كلَّما أتيتُ على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نِعَمِك ربَّنا نُكذِّب، فلكَ الحمدُ» قال: هذا حديث غريب[٥]. وفي هذا دليل على أنَّها مكيَّة، والله أعلم.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٢٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٣ .

(٣) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٥٣٥) عن عروة بن الزبير مرسلاً.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٢١)، ومسلم (٤٤٩)، وأحمد (٢٢٧١) عن ابن عباس دون ذكر سورة الرحمن، وذُكرت في الخبر الآتي.

(٥) الترمذي (٣٢٩١).

وروي أنَّ قيس بنَ عاصم المِنْقري قال للنبيِّ ﷺ: اتْلُ عليَّ ممَّا أُنزِل عليك، فقرأ عليه سورة «الرَّحْمن» فقال: أَعِدْها. فأعادها ثلاثاً، فقال: واللهِ إنَّ له لطلاوةً، وإنَّ عليه لحلاوةً، وأسفلَه لَمُغْدِقٌ، وأعلاه مثمرٌ، وما يقول هذا بشرٌ، وأنا أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّكَ رسولُ الله[1]. وروي عن عليٍّ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لكلِّ شيءٍ عَروس، وعَروس القرآن سورة الرحمن»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ . عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ قال سعيد بن جبير وعامر الشَّعْبيُّ: «الرَّحْمَنُ» فاتحةُ ثلاث سور إذا جُمِعْنَ كنَّ اسماً من أسماء الله تعالى: «الَر» و«حمَ» و«نَ» فيكون مجموع هذه «الرَّحْمَنُ»[3]. «عَلَّمَ الْقُرْآنَ» أي: علَّمه نبيَّه ﷺ حتى أدَّاه إلى جميع الناس[4].

ونزلت حين قالوا: وَمَا الرَّحْمَنُ؟ وقيل: نزلت جواباً لأهل مكَّة حين قالوا: إنَّما

---

(١) لم نقف عليه هكذا، بل جاء وصف القرآن هكذا في خبر الوليد بن المغيرة، وسلف ١٢/ ٤١١، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٧٣ بهامش الإصابة) خبراً عن خالد بن عقبة بنحوه، إلا أن فيه أن النبي ﷺ قرأ عليه قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان..﴾ الآية، بدل سورة الرحمن.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٤٩٤). قال المناوي في فيض القدير ٥/ ٢٨٦ : فيه علي بن الحسن دبيس، عدَّه الذهبي في الضعفاء والمتروكين. وقال الدارقطني: ليس بثقة. اهـ

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٢٤ ونسبه لابن جبير وابن عباس.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ .

يعلِّمه بشر[١]، وهو رحمان اليمامة، يعنون مسيلِمَة الكذّاب، فأنزل الله تعالى: «الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ»[٢]. وقال الزجّاج[٣]: معنى «عَلَّمَ الْقُرْآنَ» أي: سهّله لأنْ يُذكَر ويُقرأ، كما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]. وقيل: جعله علامةً لما تعبّد الناس به.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ قال ابن عباس وقتادة والحسن: يعني آدمَ عليه السلام[٤]. ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أسماءَ كلِّ شيء. وقيل: علَّمه اللغاتِ كلَّها[٥]. وعن ابن عباس أيضاً وابن كيسان: الإنسان هاهنا يُراد به محمَّد ﷺ[٦]، والبيان: بيانُ الحلال من الحرام[٧]، والهدى من الضلال[٨]. وقيل: ما كان وما يكون؛ لأنَّه بيّن عن الأوّلين والآخِرين ويوم الدِّين[٩]. وقال الضحَّاك: «البيان»: الخير والشرُّ[١٠]. وقال الربيع بن أنس: هو ما ينفعه وما يضرُّه، وقاله قتادة.

وقيل: «الْإِنْسَان» يُراد به جميع الناس، فهو اسمٌ للجنس، و«الْبَيَان» على هذا: الكلامُ والفهم، وهو مما فُضِّل به الإنسان على سائر الحيوان[١١]. وقال السُّدِّيُّ: علَّم

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٦ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٤ .

(٣) في معاني القرآن له ٥/ ٩٥ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ عن الحسن وقتادة، وتفسير البغوي ٤/ ٢٦٦ عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٦٨ - ١٦٩ عن قتادة.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٦ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٣ عن ابن كيسان.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ وعزاه لقتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٦٩ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ وعزاه لابن جريج.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٧ .

(١٠) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ .

(١١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٦٧ ، وقوله: البيان: الكلام والفهم. أخرجه الطبري ٢٢/ ١٧٠ عن ابن زيد.

كلٍّ قوم لسانهم الذي يتكلَّمون به[١]. وقال يمان: الكتابة والخطُّ بالقلم[٢]. نظيره: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤-٥].

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: يجريان بحساب معلوم، فأضمر الخبر[٣]. قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك: أي: يجريان بحساب في منازل لا يعدوانها ولا يَحيدان عنها[٤]. وقال ابن زيد وابن كيسان: يعني أنَّ بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يَدْرِ أحدٌ كيف يَحسُب شيئاً لو كان الدهر كلُّه ليلاً أو نهاراً[٥]. وقال السُّدِّيُّ: «بِحُسْبَانٍ» تقدير آجالهما، أي: تجري بآجال كآجال الناس، فإذا جاء أجلهما أهلكا[٦]، نظيره: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]. وقال الضحَّاك: بقَدَر[٧]. مجاهد: «بِحُسْبَانٍ» كحسبان الرَّحَى[٨]. يعني قطبها يدوران في مثل القطب.

والحُسْبان قد يكون مصدر حَسَبته أحْسُبُه ـ بالضَّمِّ ـ حَسْباً وحُسْباناً، مثل الغُفْران والكُفْران والرُّجْحان، وحِسابة أيضاً، أي: عَدَدْته. وقال الأخفش: ويكون جماعة الحِسَاب مثل شِهاب وشُهبان. والحُسْبان، أيضاً بالضمِّ: العذابُ، والسهامُ القصار، وقد مضى في «الكهف»[٩] الواحدة حُسْبانة، والحُسْبانة أيضاً: الوسادة الصغيرة، تقول منه: حَسَّبتُه، إذا وسَّدْته، قال:

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٧ .

(٢) زاد المسير ٨/ ١٠٦ .

(٣) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٠١ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٤ ، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ١٧٠ - ١٧١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٢٣ - ٢٢٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٦٧ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٧١ عن ابن زيد.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٢٣ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٢٤ ولم يعزه.

(٨) تفسير مجاهد ٢/ ٦٣٩ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٧٢ ، وعلَّقه البخاري في كتاب التفسير قبل حديث (٤٨٧٨)، قال ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٢٩٨ عن قول مجاهد: ومراده أنهما يجريان على حسب الحركة الرحوية الدورية، وعلى وضعها.

(٩) عند الآية (٤١).

... لَثَوَيْتَ غيرَ مُحَسَّب

أي: غير موسَّد، يعني: غيرَ مكَرَّم ولا مكَفَّن[١].

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ قال ابن عباس وغيره: النجم: ما لا ساقَ له، والشجر: ما له ساق[٢]، وأنشد ابنُ عباس قولَ صفوان بن أسد التميمي:

لَقَد أنْجَمَ الْقَاعُ الكَبيرُ عِضَاهه وتَمَّ به حيّا تَميم ووَائلِ[٣]

وقال زهير بن أبي سُلْمى:

مُكَلَّلٌ بأُصولِ النَّجْم تَنْسِجُه ريحُ الجَنوب لِضاحِي مائه حُبُكُ[٤]

واشتقاق النجم من نَجَم الشيءُ ينجُم بالضَّمِّ نجوماً: ظهر وطلَع[٥].

وسجودهما بسجود ظلالهما، قاله الضحَّاك[٦]. وقال الفرَّاء[٧]: سجودهما أنَّهما يستقبلان الشمس إذا طلعت، ثم يميلان معها حتى ينكسر الفَيْء. وقال الزجَّاج[٨]: سجودهما: دوران الظِّلِّ معهما، كما قال تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ [النحل: ٤٨]. وقال الحسن ومجاهد: النجم: نجم السماء، وسجوده في قول مجاهد دوران ظلِّه، وهو

---

(١) الصحاح (حسب)، والبيت لنهيكة الفزاري يخاطب عامر بن الطفيل، وتمامه:

للمست بالرصعاء طعنة فاتك حرَّان أو لثويت غير محسب

وأورده ابن منظور في لسان العرب (حسب) وجاءت روايته هكذا:

لَتَقيتَ بالوَجْعاء طعنة مرهف مُرَّان أو لثويتَ غيرَ محسَّب

والوجعاء: الاست، أي: لو طَعنتُك لوليتني دبرك.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٩٦، وما بعده منه أيضاً، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٤ ونسبه لابن عباس والسدي وسفيان، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٧٤ - ١٧٦ عن ابن عباس وسفيان وسعيد، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٢٢ (١٨٧١٧) عن ابن عباس.

(٣) أورده الشوكاني في فتح القدير ٥/ ١٣١ ولم ينسبه.

(٤) سلف ١٩/ ٤٧٢.

(٥) الصحاح (نجم).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٢٤.

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١١٢.

(٨) في معاني القرآن له ٥/ ٩٦.

اختيار الطبريِّ[١]، حكاه المهدويُّ. وقيل: سجود النجم: أُفوله، وسجود الشجر: إمكان الاجتناء لثمرها، حكاه الماورديُّ[٢]. وقيل: إنَّ جميع ذلك مسخَّر لله[٣]، فلا تعبدوا النجم كما عَبَدَ قوم من الصابئين النجومَ، وعَبَدَ كثير من العجم الشجرَ.

والسجود: الخضوع، والمعنيُّ به آثار الحدوث، حكاه القشيريُّ. النحَّاس: أصل السجود في اللغة: الاستسلام والانقياد لله عزَّ وجلَّ، فهو من الموات كلِّها: استسلامها لأمر الله عزَّ وجلَّ وانقيادها له، ومن الحيوان كذلك، ويكون من سجود الصلاة، وأنشد محمد بن يزيد في النجم بمعنى النجوم قال:

فباتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَحِيرة   سَرِيعٍ بأَيْدي الآكِلينَ جُمُودُهَا[٤]

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ وقرأ أبو السَّمَّال: «والسَّمَاءُ» بالرفع على الابتداء[٥]، واختار ذلك؛ لما عطف على الجملة التي هي: «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ» فجعل المعطوف مركباً من ابتداء وخبر كالمعطوف عليه. الباقون بالنصب؛ على إضمار فعل يدلُّ عليه ما بعده.

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العدل، عن مجاهد وقتادة والسديِّ[٦]. أي: وضع في الأرض العدل الذي أمر به، يقال: وضع اللهُ الشريعةَ، ووضع فلانٌ كذا، أي: ألقاه. وقيل على هذا: الميزان: القرآن؛ لأنَّ فيه بيان ما يحتاج إليه، وهو قول الحسين بن الفضل. وقال الحسن وقتادة ـ أيضاً ـ والضحَّاك: هو الميزان ذو اللسان الذي يوزن به؛ لينتصف به الناس بعضهم من بعض[٧].

(١) في التفسير ٢٢/ ١٧٤ - ١٧٧ وأخرجه عنهما، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٣٩ .
(٢) في النكت والعيون ٥/ ٤٢٤ ، وأَفَل: غاب. اللسان (أفل).
(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٣٢٣ .
(٤) القائل الراعي النميري، وسلف ص٧ من هذا الجزء.
(٥) القراءات الشاذة ص١٤٨ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٢ .
(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٢٤ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٧٨ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٤٠ .
(٧) زاد المسير ٨/ ١٠٧ .

وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل، يدل عليه قوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ» والقسط: العدل[١].

وقيل: هو الحكم[٢]. وقيل: أراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال. وأصل ميزان مِوْزان، وقد مضى في «الأعراف»[٣] القول فيه.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ موضع «أَنْ» يجوز أن يكون نصباً على تقدير حذف حرف الجرِّ، كأنَّه قال: لئلا تطغوا، كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]. ويجوز ألا يكون لـ «أن» موضع من الإعراب، فتكون بمعنى «أي» و«تَطْغَوْا» على هذا التقدير مجزوماً[٤]، كقوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص: ٦] أي: امشوا.

والطغيان: مجاوزة الحدِّ. فمن قال: الميزان: العدل، قال: طغيانه: الجَوْر. ومن قال: إنَّه الميزان الذي يُوزَن به، قال: طغيانه: البَخْس. قال ابن عباس: أي: لا تخونوا من وزنتم له. وعنه أنَّه قال: يا معشرَ الموالي! وُلِّيتم أمرَيْن بهما هلك الناسُ: المكيال والميزان. ومن قال: إنَّه الحُكْم قال: طغيانه: التحريف[٥]. وقيل: فيه إضمار، أي: وضَع الميزانَ وأمرَكم ألا تَطْغَوْا فيه.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: افعلوه مستقيماً بالعدل. وقال أبو الدرداء ﷺ: أقيموا لسانَ الميزان بالقسط والعدل. وقال ابن عيينة: الإقامة باليد، والقِسْط بالقلب[٦]. وقال مجاهد: القسط: العدل[٧]، بالروميَّة. وقيل: هو كقولك: أقام

(١) الوسيط ٤/ ٢١٨ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٢٤ .
(٣) ١٥٨/٩ .
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٤ .
(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٢٥ ، وعزا القول الأول لمجاهد، والثاني لمقاتل، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢٢/ ١٧٨ .
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٧ .
(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٢٥ .

الصلاة، أي: أتى بها في وقتها، وأقام الناس أسواقهم، أي: أَتَوْها لوقتها. أي: لا تدعوا التعامل بالوزن بالعدل.

﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوا الميزان[١]، ولا تبخسوا الكيل والوزن، وهذا كقوله: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤]. وقال قتادة في هذه الآية: اعْدِل يا ابنَ آدمَ كما تحبُّ أن يُعدَل عليك، وأَوْفِ كما تحبُّ أن يُوفى لك؛ فإنَّ بالعدل صلاحَ الناس[٢]. وقيل: المعنى: ولا تخسروا ميزانَ حسناتكم يوم القيامة[٣]، فيكون ذلك حسرة عليكم. وكرّر الميزان؛ لحال رؤوس الآي. وقيل: التكرير؛ للأمر بإيفاء الوزن ورعاية العدل فيه[٤].

وقراءة العامة: «تُخْسِرُوا» بضمِّ التاء وكسر السين. وقرأ بلال بن أبي بُرْدة وأبان عن عثمان: «تَخْسَرُوا» بفتح التاء والسين[٥]، وهما لغتان، يقال: أَخْسَرت الميزان وخَسَرْته، كأَجْبَرته وجَبَرْته. وقيل: «تَخْسَرُوا» بفتح التاء والسين؛ محمول على تقدير حذف حرف الجرِّ، والمعنى: ولا تخسروا في الميزان.

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ الأنام: الناس، عن ابن عباس. الحسن: الجنُّ والإنس[٦]. الضحَّاك: كلُّ ما دبَّ على وجه الأرض. وهذا عامٌّ.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي: كلُّ ما يتفكَّه به الإنسان من ألوان الثمار[٧]. ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ الأكمام: جمع كِمٍّ، بالكسر[٨]. قال الجوهريُّ[٩]: والكِمَّة ـ بالكسر ـ

---

(١) زاد المسير ٨/ ١٠٧ .
(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٧٨ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٢٥ .
(٤) الكشاف ٤/ ٤٤ .
(٥) المحتسب ٢/ ٣٠٣ ، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة عن بلال أنه قرأ: ولا تَخْسِر الميزان. بالمفرد، وعنه أيضاً: تَخْسِروا.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٢٥ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٨٠ .
(٧) الوسيط ٤/ ٢١٨ .
(٨) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٥٦ .
(٩) في الصحاح (كمم).

والكِمَامة: وعاء الطَّلْع وغِطاء النَّوْر، والجمع: كِمَام وأَكِمَّة وأَكْمَام والأكاميم أيضاً. وكُمَّ الفصيلُ: إذا أُشفق عليه فَسُتِر حتى يَقْوَى، قال العجَّاج:

بَلْ لَوْ شَهِدْتَ النَاسَ إذْ تُكُمُّوا بِغُمَّةٍ لَوْ لَمْ تُفَرَّجْ غُمُّوا[١]

وتُكُمُّوا، أي: أُغمي عليهم وغُطُّوا.

وأَكَمَّت [النَّخلةُ] وكَمَّمَتْ، أي: أخرجت أكمامها. والكِمَام ـ بالكسر ـ والكِمَامة أيضاً: ما يُكَمُّ به فمُ البعير؛ لئلا يعضَّ، تقول منه: بعير مكموم، أي: مَحْجوم. وكَمَمْتُ الشيءَ: غطَّيته. والكَمُّ: ما ستر شيئاً وغطَّاه، ومنه كُمُّ القميص بالضمّ، والجمع: أَكْمَام وكِمَمَة، مثل حُبٍّ وحِببَة. والكُمَّة: القَلَنْسوة المدوَّرة؛ لأنَّها تُغطِّي الرأس[٢]. قال:

فقلتُ لهمْ كِيلو بكُمَّةِ بعضِكُمْ دَرَاهِمَكُمْ إنِّي كذلك أُكْيَلُ[٣]

قال الحسن: «ذَاتُ الْأَكْمَامِ» أي: ذات الليف، فإنَّ النخلة قد تُكَمَّم بالليف، وكِمَامها: ليفها الذي في أعناقها. ابن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتَّق[٤]. وقال عكرمة: ذات الأحمال.

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ الحبُّ: الحِنطة والشعير ونحوهما[٥]. والعصف: التِّبْن، عن الحسن وغيره[٦]. مجاهد: ورق الشجر والزرع. ابن عباس: تِبْنُ الزرعِ

---

(١) ديوان العجاج ص٣٧٤ ، والرجز يذكر فيه مقتل مسعود بن عمرو العتكي من الأزد، وروايته هكذا:

بل لو شَهِدْتَ الناسَ إذ تكمُّوا بقَدَرٍ حَمَّ لهم وحُمُّوا
وغُمَّةٍ لو لم تفرَّج غمُّوا إذ زعمت ربيعةُ القِشْعَمُ

قال شارحه: قوله: تكمُّوا: أي: اعْتُمِدوا وستروا بهذا القَدَر وغمُّوا به. أي: قُدِّر القَدَر لهم، وقُدِّروا له. والغمَّة: ما غطَّاك من شيء وغمَّك. والقِشْعمُ: المُسِنُّ.

(٢) الصحاح (كمم)، وما بين حاصرتين منه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢٥ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٨١ - ١٨٢ .

(٥) الوسيط ٤/ ٢١٨ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٨ عن ابن عباس والضحاك وقتادة، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ١٨٣ - ١٨٥ .

وورقُه الذي تَعصِفه الرياح[١]. سعيد بن جبير: بَقْل الزرع، أي: أوَّل ما ينبت منه، وقاله الفرَّاء[٢]. والعرب تقول: خرجنا نَعصِف الزرع: إذا قطعوا منه قبل أن يُدرِك. وكذا في «الصحاح»[٣]: وعَصَفتُ الزَّرعَ، أي: جززته قبل أن يُدرِك. وعن ابن عباس أيضاً: العصف: ورق الزرع الأخضر إذا قطع رؤوسه ويبس، نظيره: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[٤] [الفيل: ٥]. الجوهريُّ: وقد أَعصفَ الزرعُ، ومكان مُعْصِف، أي: كثير الزرع. قال أبو قيس بن الأَسْلت الأنصاريُّ:

إذا جُمادَى مَنَعَتْ قَطْرَها زَانَ جَنابِي عَطَنٌ مُعْصِفُ[٥]

والعَصْف أيضاً: الكَسْب، ومنه قول الراجز:

بغيرِ ما عَصْفٍ ولا اصْطِرَافِ[٦]

وكذلك: الاعتصاف. والعَصِيفة: الورق المجتمع الذي يكون فيه السُّنبل. وقال الهرويُّ: والعصف والعَصِيفة: ورق السُّنْبل[٧]. وحكى الثعلبيُّ: وقال ابن السِّكِّيت: تقول العرب لورق الزرع: العصف، والعَصِيفة، والجِلُّ، بكسر الجيم. قال عَلْقَمة بن عَبَدة:

تَسْقِي مَذَانِبَ قد مَالتْ عَصِيفَتُها حَدُورُها من أَتِيِّ الماءِ مَطْمُومُ[٨]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٢٦، وزاد المسير ٨/ ١٠٨.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١١٣، وما بعده منه.

(٣) مادة: (عصف).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٨، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٨٣.

(٥) الصحاح (عصف) وما بعده منه أيضاً، والبيت ذكره المرزوقي في الأزمنة والأمكنة ١/ ٢٧٥ دون نسبة، وقال ابن بري: هو لأحيحة بن الجلاح لا لأبي قيس. لسان العرب (عصف).

(٦) الصحاح (عصف)، والرجز في ديوان العجاج ص١٤٧، قال شارحه: والاصطراف: التقلُّب في الأمور، والتصرُّف في المعيشة.

(٧) تهذيب اللغة ٢/ ٤٢ دون عزو إلى الهروي.

(٨) ديوان علقمة بن عبدة ص٥٥.

وفي «الصحاح»[١]: والجِلُّ، بالكسر: قصب الزرع إذا حُصِد.

والريحان: الرزق، عن ابن عباس ومجاهد[٢]. الضحَّاك: هي لغة حِمْير[٣]. وعن ابن عباس أيضاً والضحَّاك وقتادة: أنَّه الريحان الذي يشمُّ، وقاله ابن زيد[٤]. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّه خضرة الزرع[٥]، وقال سعيد بن جبير: هو ما قام على ساق[٦]. وقال الفرَّاء[٧]: العصف: المأكول من الزرع، والريحان: ما لا يؤكل. وقال الكلبيُّ: إنَّ العصف: الورق الذي لا يؤكل. والريحان: هو الحبُّ المأكول[٨]. وقيل: الريحان: كلُّ بقلة طيِّبة الريح، سميت رَيْحاناً؛ لأنَّ الإنسان يَراحُ لها رائحةً طيبة. أي: يشمُّ، فهو فَعْلان رَوْحان من الرائحة، وأصل الياء في الكلمة واو قلب ياء؛ للفرق بينه وبين الرُّوحانيِّ: وهو كلُّ شيء له رُوح. قال ابن الأعرابي: يقال: شيء رُوحاني وريحاني، أي: له روح. ويجوز أن يكون على وزن فَيْعَلان، فأصله رَيْوَحان، فأبدل من الواو ياء، وأدغم، كهَيِّن ولَيِّن، ثم ألزم التخفيف؛ لطوله، ولحاق الزائدتين الألفِ والنونِ، والأصل فيما يتركَّب من الراء والواو والحاء: الاهتزاز والحركة[٩]. وفي «الصحاح»: والرَّيْحان: نبت معروف، والريحان: الرزق، تقول: خرجت أبتغي رَيْحَانَ اللهِ، قال النَّمِرُ بن تَوْلَب[١٠]:

---

(١) مادة: (جلل).

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٨٦، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٠.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٥ وفيه: الورق بلسان حمير.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢٦ عن الحسن والضحاك وابن زيد، وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ١٠٩ ابن عباس، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ١٨٧.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٢٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٨٧.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٨٨.

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١١٤.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٢٦.

(٩) البيان لابن الأنباري ٢/ ٤٠٨، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٥.

(١٠) الصحاح (روح)، والبيت في ديوان النمر ص٥٥.

سَـــلامُ الإلَـــهِ ورَيْـــحَـــانُـــهُ ورَحْـــمَـــتُـــهُ وسَـــمَـــاءٌ دِرَرْ

وفي الحديث: «الولد من ريحانِ الله»[١]. وقولهم: سبحانَ اللهِ وريحانَه، نصبوهما على المصدر، يريدون تنزيهاً له واسترزاقاً. وأما قوله: «وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ» فالعصف: ساق الزرع، والريحان: ورقه، عن الفرَّاء[٢].

وقراءة العامة: «وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيحَانُ» بالرفع فيها كلِّها؛ على العطف على الفاكهة. ونصبها كلَّها ابن عامر وأبو حيوة والمغيرة[٣]؛ عطفاً على الأرض. وقيل: بإضمار فعل، أي: وخلق الحبَّ ذا العصف والريحان، فمن هذا الوجه يحسن الوقف على «ذَاتُ الْأَكْمَامِ»[٤]. وجرَّ حمزة والكسائي: «الريحان»[٥]؛ عطفاً على العصف، أي: فيها الحبُّ ذو العصفِ والريحانِ، ولا يمتنع ذلك على قول من جعل الريحانَ الرزقَ، فيكون كأنَّه قال: والحبُّ ذو الرزق. والرزق من حيث كان العصف رزقاً؛ لأنَّ العصف رزق للبهائم، والريحان رزق للناس، ولا شبهةَ فيه في قول من قال: إنَّه الريحان المشموم.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ خطاب للإنس والجنِّ؛ لأنَّ الأنام واقع عليهما[٦]. وهذا قول الجمهور، يدلُّ عليه حديث جابر المذكور أوَّل السورة، وخرَّجه

---

(١) أخرج أحمد (٢٧٣١٤)، والترمذي (١٩١٠) عن خولة بنت حكيم أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم وهو محتضن أحد ابْنَي ابنته وهو يقول: إنكم لتبخِّلون وتُجَبِّنون وتجهِّلون، وإنكم لمن ريحان الله. قال الترمذي: لا نعرف لعمر بن عبد العزيز سماعاً من خولة.

(٢) الصحاح (روح)، والذي في معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٣ : العصف: بقل الزرع، والريحان: رزقه.

(٣) السبعة ص٦١٩ ، والتيسير ص٢٠٦ ، والبحر المحيط ٨/ ١٩٠ ، وحجة القراءات لابن زنجلة ص٦٩٠-٦٩١ .

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩١٥ - ٩١٦ .

(٥) السبعة ص٦١٩ ، والتيسير ص٢٠٦ ، وحجة القراءات لابن زنجلة ص٦٩٠ - ٦٩١ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٦ .

الترمذيُّ وفيه: «لَلْجِنُّ أحسنُ منكم ردًّا»(١). وقيل: لما قال: «خَلَقَ الإنْسَانَ» و«خَلَقَ الْجَانَّ» دلَّ ذلك على أنَّ ما تقدَّم وما تأخَّر لهما(٢). وأيضاً قال: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ» وهو خطاب للإنس والجنِّ، وقد قال في هذه السورة: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ». وقال الجرجانيُّ: خاطب الجنَّ مع الإنس وإن لم يتقدَّم للجنِّ ذِكْر، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، وقد سبق ذكر الجنِّ فيما سبق نزوله من القرآن، والقرآن كالسورة الواحدة، فإذا ثبت أنَّهم مكلَّفون كالإنس خُوطب الجنسان بهذه الآيات. وقيل: الخطاب للإنس على عادة العرب في الخطاب للواحد بلفظ التثنية(٣)، حسب ما تقدَّم من القول في ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾(٤) [ق: ٢٤]. وكذلك قوله:

قِفَا نَبْكِ(٥)...

و: خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي(٦)...

فأما ما بَعْدَ «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» و«خَلَقَ الْجَانَّ» فإنَّه خطاب للإنس والجنِّ، والصحيح قول الجمهور؛ لقوله تعالى: «وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ» والآلاء: النِّعم، وهو قول جميع المفسرين، واحدها إِلًى وَأَلًى مثل مِعًى وعصاً، وإِلْيٌ وأَلْيٌ أربع لغات حكاها النحَّاس(٧) قال: وفي واحد «آنَاءِ اللَّيْلِ» ثلاث تسقط منها المفتوحة الألف، المسكنة

---

(١) هذا لفظ الحاكم في مستدركه ٢/ ٤٧٤ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. اهـ، وسلف ص١١١ من هذا الجزء عن الترمذي بنحوه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٥.

(٤) ١٩/ ٤٤٧.

(٥) البيت مطلع معلقة امرئ القيس، وسلف ١٠/ ٣٦٤.

(٦) القائل امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص٤١، وتمامه:

خليليَّ مُرَّا بي على أمِّ جندب ... نُقضِّ لبانات الفؤاد المعذَّب

قال شارحه: اللُّبانات: جمع لُبانة، وهي الحاجة.

(٧) في إعراب القرآن له ٤/ ٢٨٢.

اللام، وقد مضى في «الأعراف» و«النجم»(١). وقال ابن زيد: إنَّها القدرة، وتقدير الكلام: فبأيِّ قدرة ربِّكما تكذِّبان، وقاله الكلبيُّ(٢)، واختاره الترمذيُّ محمد بن عليٍّ، وقال: هذه السورة من بين السور عَلَم القرآن، والعَلَم إمام الجند، والجند تتبعه، وإنَّما صارت عَلَماً؛ لأنَّها سورة صفة الملك والقدرة، فقال: «الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ» فافتتح السورةَ باسم الرحمن من بين الأسماء؛ ليعلم العباد أنَّ جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته، خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال: «الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ» ثم ذكر الإنسانَ فقال: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» ثم ذكر ما صنع به وما منَّ عليه به، ثم ذكر حسبان الشمس والقمر وسجود الأشياء مما نَجَم وشَجَر، وذكر رَفْع السماء ووَضْع الميزان وهو العدل، ووضع الأرض للأنام، فخاطب هذين الثقلين الجنَّ والإنس حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته التي رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك، فأشركوا به الأوثانَ وكلَّ معبود اتَّخذوه من دونه، وجحدوا الرحمةَ التي خرجت هذه الأشياء بها إليهم، فقال سائلاً لهم: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» أي: بأيِّ قدرة ربِّكما تكذِّبان، فإنَّما كان تكذيبهم أنَّهم جعلوا له في هذه الأشياء التي خرجت من ملكه وقدرته شريكاً يَملك معه ويقدر معه، فذلك تكذيبُهم. ثم ذكر خَلْق الإنسان من صلصال، وذكر خَلْق الجانِّ من مارج من نار، ثم سألهم فقال: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» أي: بأيِّ قدرة ربِّكما تكذِّبان، فإنَّ له في كلِّ خَلْق بعد خَلْق قدرة بعد قدرة، فالتكرير في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير، واتِّخاذ الحجَّة عليهم بما وقفهم على خلقٍ خلق.

وقال القُتَبيُّ: إنَّ الله تعالى عدَّد في هذه السورة نعماءه، وذكَّر خَلْقه آلاءه، ثم أَتبع كلَّ خَلَّة وصَفها ونعمة وضعها بهذه، وجعلها فاصلةً بين كلِّ نعمتين لينبِّههم على النِّعم ويقرِّرهم بها، كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره: أَلَم تكن

---

(١) ٩/ ٢٦٤ - ٢٦٥، و ص٦٥ من هذا الجزء.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٢٦.

فقيراً فأغنيتك، أفتنكر هذا؟! أَلَم تكن خاملاً فعززتك، أفتنكر هذا؟! أَلَم تكن صَرُورة فحججتُ بك، أفتنكر هذا!؟ أَلَم تكن راجلاً فحملتك، أفتنكر هذا؟! والتكرير حَسن في مثل هذا[1]. قال:

كَمْ نِعْمَةٍ كانتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ[2]

وقال:

لا تَقْتُلِي مُسْلِماً إنْ كنتِ مُسْلِمَةً إيَّـاكِ مِـنْ دَمِـهِ إيَّـاكِ إيَّـاكِ[3]

وقال آخر:

لا تَـقـطـعـنَّ الـصـديـقَ مـا طَـرَفـتْ عـيـنـاكَ مـن قـول كـاشـح أشِـرِ
ولا تَـمـلَّـنَّ مـن زيـارتـه زُرْهُ وزُرْهُ وزُرْ وزُرْ وزُرِ

وقال الحسين بن الفضل: التكرير؛ طرداً للغفلة، وتأكيداً للحجَّة.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ لما ذكر سبحانه خَلْق العالم الكبير من السماء والأرض، وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته، ذَكَر خَلْق العالم الصغير فقال: «خَلَقَ الإنْسَانَ» باتفاق من أهل التأويل يعني: آدم[4].

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٨، وزاد المسير ٨/ ١١١ - ١١٢، والصرورة: الرجل الذي لم يحجَّ قط. اللسان (صرر).

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص١٨٣، وزاد المسير ٨/ ١١١، وأمالي المرتضى ١/ ١٢١ ولم ينسبوه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٦.

﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ الصلصال: الطين اليابس الذي يُسمَع له صلصة، شبَّهه بالفَخَّار الذي طُبخَ[(١)]. وقيل: هو طين خُلطَ برمل[(٢)]. وقيل: هو الطين المنتن، من صَلَّ اللحمُ وأَصلَّ: إذا أنتنَ[(٣)]، وقد مضى في «الحجر»[(٤)]. وقال هنا: «مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ»، وقال هناك: ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات:١١]. وقال: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران:٥٩] وذلك متَّفق المعنى، وذلك أنَّه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طيناً، ثم انتقل فصار كالحمإِ المسنون، ثم انتقل فصار صلصالاً كالفخَّار[(٥)].

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ قال الحسن: الجانُّ: إبليس وهو أبو الجنِّ[(٦)]. وقيل: الجانُّ: واحد الجنِّ. والمارج: اللهب، عن ابن عباس[(٧)]، وقال: خلق الله الجانَّ من خالص النار. وعنه أيضاً: من لسانها الذي يكون في طرفها إذا التهبت[(٨)]. وقال الليث: المارج: الشُّعْلة الساطعة ذات اللهب الشديد[(٩)]. وعن ابن عباس أنَّه اللهب الذي يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر، ونحوه عن مجاهد[(١٠)]، وكلُّه متقارب المعنى. وقيل: المارج: كلُّ أمر مرسل غير ممنوع، ونحوه قول المبرِّد، قال المبرِّد: المارج: النار المرسلة التي لا تمنع[(١١)]. وقال أبو عبيدة

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٧ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٤ ، والنكت والعيون ٥/ ٤٢٨ وعزاه لابن عباس.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٢٨ وعزاه للضحاك.

(٤) ١٠/ ٢١ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٨ .

(٦) زاد المسير ٤/ ٣٩٩ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٢٨ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٩٥ .

(٨) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٩٥ .

(٩) تهذيب اللغة ١١/ ٧٢ .

(١٠) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٦ عن ابن عباس، والنكت والعيون ٥/ ٤٢٨ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٤٠ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٩٦ .

(١١) النكت والعيون ٥/ ٤٢٨ .

والحسن: المارج: خلط النار. وأصله من مرج: إذا اضطرب واختلط[1]. ويروى أنَّ الله تعالى خلَق نارَيْن فمرج إحداهما بالأخرى، فأكلت إحداهما الأخرى وهي نار السموم، فخلق منها إبليس. قال القُشَيريُّ: والمارج في اللغة: المرسل أو المختلط، وهو فاعل بمعنى مفعول، كقوله: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٦]، و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١] والمعنى: ذو مرج، قال الجوهريُّ في «الصحاح»[2]: و«مَارِجٍ مِنْ نَارٍ»: نار لا دخانَ لها، خُلقَ منها الجانُّ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي: هو ربُّ المشرقين. وفي «الصافات»: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ﴾ [الآية:٥] وقد مضى الكلام في ذلك هنالك[3].

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ «مَرَجَ» أي: خلَّى وأرسل وأهمل، يقال: مرج السلطانُ الناسَ: إذا أهملهم. وأصل المَرْج: الإهمال، كما تُمْرَج الدابَّةُ في المرعى[4]. ويقال: مَرَجَ: خَلَطَ. وقال الأخفش: ويقول قوم: أَمْرَج البحرين، مثل مَرَج، فَعَل وأَفْعَل بمعنًى[5].

«الْبَحْرَيْنِ» قال ابن عباس: بحر السماء وبحر الأرض، وقاله مجاهد وسعيد بن جبير[6]. «يَلْتَقِيَانِ» في كلِّ عام[7]. وقيل: يلتقي طرفاهما. وقال الحسن وقتادة: بحر

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤٣.
(٢) مادة: (مرج).
(٣) ١٨/ ٨.
(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٨.
(٥) تهذيب اللغة ١١/ ٧٢.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٦ عن ابن عباس وابن جبير، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٠٠.
(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٠٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فارس والروم[١]. وقال ابن جريج: إنَّه البحر المالح والأنهار العذبة. وقيل: بحر المشرق والمغرب يلتقي طرفاهما. وقيل: بحر اللؤلؤ والمرجان[٢].

«بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ» أي: حاجز، فعلى القول الأوَّل ما بين السماء والأرض، قاله الضحَّاك. وعلى القول الثاني: الأرض التي بينهما وهي الحجاز، قاله الحسن وقتادة[٣]. وعلى غيرهما من الأقوال: القدرة الإلهية، على ما تقدَّم في «الفرقان»[٤].

وفي الخبر عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ الله تعالى كلَّم الناحية الغربيَّة فقال: إنِّي جاعل فيك عباداً لي يُسبِّحوني ويُكَبِّروني ويهلِّلوني ويُمجِّدوني فكيف أنتِ لهم؟ فقالت: أُغرقُهم يا ربّ. قال: إنِّي أحملهم على يدي، وأجعل بأسك في نواحيك. ثم كَلَّم الناحية الشرقيَّة فقال: إنِّي جاعل فيك عباداً لي يُسبِّحوني ويكَبِّروني ويهلِّلوني ويمجِّدوني فكيف أنتِ لهم؟ قالت: أسبِّحكَ معهم إذا سَبَّحوكَ، وأكبِّرك معهم إذا كبَّروك، وأُهلِّلك معهم إذا هلَّلُوكَ، وأُمَجِّدُك معهم إذا مجَّدوك، فأثابها الله الْحِلْية، وجعل بينهما برزخاً، وتحوَّل أحدهما مِلحاً أُجَاجاً، وبقي الآخر على حالته عذباً فُرَاتاً» ذكر هذا الخبر الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله قال: حدَّثنا صالح بن محمد، حدَّثنا القاسم العمريُّ، عن سهل، عن أبيه، عن أبي هريرة.

«لَا يَبْغِيَانِ» قال قتادة: لا يبغيان على الناس فيغرقانهم، جعل بينهما وبين الناس يَبَساً[٥]. وعنه أيضاً ومجاهد: لا يبغي أحدهما على صاحبه فيغلبه. ابن زيد: المعنى «لَا يَبْغِيَانِ» أن يلتقيا، وتقدير الكلام: مرج البحرين يلتقيان، لولا البرزخ الذي بينهما لا يبغيان أن يلتقيا[٦]. وقيل: البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة[٧]، أي: بينهما مدَّة

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٩ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٠٠ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٢٩ - ٤٣٠ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٣٠ .
(٤) ١٥/ ٤٥١ .
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٦٩ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٠٣ .
(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٣٠ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٠٤ عن ابن زيد.
(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤٣ .

قدَّرها الله وهي مدَّة الدنيا، فهما لا يبغيان، فإذا أذن الله في انقضاء الدنيا صار البحران شيئاً واحداً، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣]. وقال سهل ابن عبد الله: البحران: طريق الخير والشرِّ، والبرزخ الذي بينهما: التوفيق والعصمة(١).

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي: يخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان، كما يخرج من التراب الحَبّ والعصف والريحان.

وقرأ نافع وأبو عمرو: «يُخْرَجُ» بضمِّ الياء وفتح الراء، على الفعل المجهول. الباقون: «يَخْرُجُ» بفتح الياء وضمِّ الراء على أنَّ اللؤلؤ هو الفاعل(٢).

وقال: «مِنْهُمَا» وإنَّما يخرج من الملح لا العذب؛ لأنَّ العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما، كقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وإنَّما الرسل من الإنس دون الجنِّ، قاله الكلبيُّ وغيره(٣). قال الزجَّاج(٤): قد ذكرهما الله، فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما، وهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٥] والقمر في سماء الدنيا ولكن أَجْمَلَ ذِكْر السبع، فكأنَّ ما في إحداهنَّ فيهنَّ. وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ: هذا من باب حذف المضاف(٥). أي: من أحدهما، كقوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] أي: من إحدى القريتين(٦). وقال الأخفش سعيد(٧):

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٣٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٨ ، والقراءة في السبعة ص٦١٩ ، والتيسير ص٢٠٦ ، والنشر ٢/ ٣٨٠ ، إلا أنه جاء في السبعة برفع الياء وكسر الراء. وقد أشار إلى هذه القراءة أبو الليث في التفسير ٣/ ٣٠٧ ، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٨ إلى أبي عمرو في رواية حسين الجعفي عنه.

(٣) منهم البغوي ٤/ ٢٦٩ .

(٤) نقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ١١٣ .

(٥) زاد المسير ٨/ ١١٣ .

(٦) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٥ .

(٧) في كتابه «الحجة» كما ذكره عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٨ .

زعم قوم أنَّه يخرج اللؤلؤ من العذب. وقيل: هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ، ومن الآخر المرجان. ابن عباس: هما بحرا السماء والأرض[١]. فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤاً فصار خارجاً منهما، وقاله الطبريُّ[٢].

قال الثعلبيُّ: ولقد ذُكر لي أنَّ نواة كانت في جوف صدفة، فأصابت القطرةُ بعض النواة ولم تُصب البعضَ، فكانت حيث أصاب القطرة من النواة لؤلؤة، وسائرها نواة.

وقيل: إنَّ العذب والملح قد يلتقيان، فيكون العذب كاللقاح للملح، فنسب إليهما كما ينسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى، ولذلك قيل: إنَّه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقي فيه العذب والملح. وقيل: المرجان: عظام اللؤلؤ وكباره، قاله عليٌّ وابن عباس رضي الله عنهما[٣]. واللؤلؤ: صغاره. وعنهما أيضاً بالعكس: إنَّ اللؤلؤ: كبار اللؤلؤ، والمرجان: صغاره، وقاله الضحَّاك وقتادة[٤]. وقال ابن مسعود وأبو مالك: المرجان: الخرز الأحمر[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ يعني: السفن[٦]. ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ قراءة العامة: «الْمُنْشَآتُ» بفتح الشين، قال قتادة: أي: المخلوقات للجَري، مأخوذ من الإنشاء[٧]. وقال مجاهد: هي السفن التي رُفع قِلْعها، قال: وإذا لم يُرفَع قِلْعها فليست بمنشآت[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٧، والنكت والعيون ٥/ ٤٣١.

(٢) في التفسير ٢٢/ ٢٠٩ - ٢١٠، وأخرجه عن ابن عباس وعكرمة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٣١، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٠٦ - ٢٠٧ عن ابن عباس، ومجاهد في التفسير ٢/ ٦٤١ عن علي ﷺ.

(٤) أخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٣١ عن ابن مسعود، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٣.

(٦) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٨.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٣١.

(٨) تفسير مجاهد ٢/ ٦٤١، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢١٠ - ٢١١، وعلَّقه البخاري في كتاب التفسير قبل حديث (٤٨٧٨)، والقِلْع: شراع السفينة. لسان العرب (قلع).

وقال الأخفش: إنَّها المَجريات[١]. وفي الحديث: أنَّ عليًا ﷺ رأى سفناً مُقْلَعة، فقال: وربِّ هذه الجوارِي المنشآتِ ما قَتلتُ عثمان ولا مالَأْتُ في قتله[٢]. وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم باختلاف عنه: «الْمُنْشِآتُ» بكسر الشين[٣]، أي: المنشِآت السير[٤]، أضيف الفعل إليها؛ على التجوُّز والاتساع. وقيل: الرافعات الشُّرُع، أي: القُلُع. ومن فتح الشين قال: المرفوعات الشُّرُع[٥].

﴿كَالْأَعْلَٰمِ﴾ أي: كالجبال، والعَلَم: الجبل الطويل[٦]، قال:

إذا قَـطَـعْـنَ عَـلَـمـاً بَـدَا عَـلَـم[٧]

فالسفن في البحر كالجبال في البَرِّ، وقد مضى في «الشورى»[٨] بيانه، وقرأ يعقوب: «الْجَوَارِي» بياء في الوقف، وحذف الباقون[٩].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَٰلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الضمير في «عَلَيْهَا» للأرض[١٠]، وقد جرى ذكرها في أوَّل السورة في قوله تعالى: «وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ» وقد يقال: هو أكرم مَنْ

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٣١ .

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٧٣٩)، والبخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٦٨ عن عميرة بن سعد.

(٣) السبعة ص٦٢٠ ، والتيسير ص٢٠٦ .

(٤) الوسيط ٤/ ٢٢٠ .

(٥) الكشاف ٤/ ٤٦ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٥ .

(٧) القائل جرير يصف الإبل، والرجز في ديوانه ١/ ٥١٢ ، وبعده:

فـهـنَّ بـحـثـاً كـمـضـلَّات الـخـدم

قال شارحه: يريد أنهنَّ يبحثن بمناسمهن الأرض كما تبحث النساء المضلَّات خلاخيلهن في التراب.

(٨) ١٨/ ٤٨١ .

(٩) النشر ٢/ ١٣٨ .

(١٠) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٩ .

عليها، يعنون الأرض وإن لم يَجْرِ لها ذِكْر. وقال ابن عباس: لما نزلت هذه الآيةُ قالت الملائكة: هَلَكَ أهل الأرض فنزلت: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] فأيقنت الملائكة بالهلاك[١]، وقاله مقاتل. ووجه النعمة في فناء الخَلْق التسويةُ بينهم في الموت، ومع الموت تستوي الأقدام. وقيل: وجه النعمة أنَّ الموت سببُ النقل إلى دار الجزاء والثواب.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: ويبقى الله، فالوجه عبارة عن وجوده وذاته سبحانه، قال الشاعر:

قَضَى على خَلْقه المنايا فكلُّ شيء سواه فانِ[٢]

وهذا الذي ارتضاه المحقِّقون من علمائنا: ابن فورك وأبو المعالي وغيرهم. وقال ابن عباس: الوجه عبارة عنه كما قال: «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». وقال أبو المعالي: وأما الوجه فالمراد به عند معظم أئمتنا وجودُ الباري تعالى، وهو الذي ارتضاه شيخنا. ومن الدليل على ذلك قوله تعالى: «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ» والموصف بالبقاء عند تعرُّض الخَلْق للفناء وجود الباري تعالى. وقد مضى في «البقرة»[٣] القول في هذا عند قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [الآية:١١٥] وقد ذكرناه في الكتاب «الأسنى»[٤] مستوفًى.

قال القشيريُّ: قال قوم: هو صفة زائدة على الذات لا تُكَيف، يحصل بها الإقبال على من أراد الربُّ تخصيصَه بالإكرام.

والصحيح أن يقال: وجهه: وجوده وذاته، يقال: هذا وجه الأمر، ووجه الصواب، وعين الصواب[٥]. وقيل: أي: يبقى الظاهر بأدلَّته كظهور الإنسان

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٧ دون عزو.
(٢) القائل أبو العتاهية، وهو في ديوانه ص٣٨٥ .
(٣) ٢/ ٣٣٠ - ٣٣٢ وتقدم هناك قول ابن عباس وابن فورك وأبي المعالي. والصحيح: أن صفة الوجه من الصفات الذاتية لله سبحانه فيجب إثباتها له على وجه يليق به .
(٤) لم نقف عليه في المطبوع منه.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٩ .

بوجهه[١]. وقيل: وتبقى الجهة التي يتقرَّب بها إلى الله.

﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ الجلال: عظمة الله وكبرياؤه واستحقاقه صفات المدح[٢]، يقال: جَلَّ الشيءُ، أي: عَظُم، وأجللته، أي: عظَّمته، والجلال: اسم من جلَّ[٣]. ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهل لأنْ يُكرَم عمَّا لا يليقُ به من الشرك، كما تقول: أنا أُكرمِك عن هذا، ومنه إكرام الأنبياء والأولياء[٤]. وقد أتينا على هذين الاسمين لغةً ومعنًى في الكتاب «الأسنى»[٥] مستوفًى. وروى أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أَلِظُّوا بيا ذا الجلالِ والإكرام»[٦]. وروي أنَّه من قول ابن مسعود، ومعناه: الزموا ذلك في الدعاء[٧]. قال أبو عبيد: الإلظاظ: لزوم الشيء والمثابرة عليه. ويقال: الإلظاظ: الإلحاح.

وعن سعيد المقبريِّ: أنَّ رجلاً أَلَحَّ فجعل يقول: اللَّهُمَّ يا ذا الجلال والإكرام! اللَّهُمَّ يا ذا الجلال والإكرام! فنودي: إنِّي قد سمعتُ، فما حاجتك[٨]؟.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قيل: المعنى يسأله من في السماوات

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٢١.

(٢) الوسيط ٤/ ٢٢١.

(٣) تهذيب اللغة ١٠/ ٤٨٦.

(٤) الوسيط ٤/ ٢٢١.

(٥) ص٣٢٤ - ٣٢٥.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) و(٣٥٢٥)، وقال: هذا حديث غريب. وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٥٩٦)، والبخاري في التاريخ الكبير ٣/ ٢٨٠ عن ربيعة بن عامر ﷺ، والحاكم ١/ ٤٩٩ عن أبي هريرة ﷺ، وينظر الكافي الشاف ص١٦٢.

(٧) الصحاح (لظظ)، وما بعده منه أيضاً.

(٨) الأسنى ص٣٢٥.

الرحمةَ، ومن في الأرض الرزقَ[١]. وقال ابن عباس وأبو صالح: أهل السماوات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق، وأهل الأرض يسألونهما جميعاً[٢]. وقال ابن جريج: وتسأل الملائكةُ الرزقَ لأهل الأرض، فكانت المسألتان جميعاً من أهل السماء وأهل الأرض لأهل الأرض[٣].

وفي الحديث: «إنَّ من الملائكة مَلكاً له أربعة أوجه، وجه كوجه الإنسان وهو يسأل الله الرزقَ لبني آدم، ووجه كوجه الأسد وهو يسأل اللهَ الرزقَ للسباع، ووجه كوجه الثور وهو يسأل اللهَ الرزقَ للبهائم، ووجه كوجه النَّسر وهو يسأل الله الرزقَ للطير»[٤]. وقال ابن عطاء: إنَّهم سألوه القوَّة على العبادة[٥].

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ هذا كلام مبتدأ. وانتصب: «كُلَّ يَوْمٍ» ظرفاً، لقوله: «فِي شَأْنٍ» أو ظرفاً للسؤال، ثم يبتدئ: «هُوَ فِي شَأْنٍ».

وروى أبو الدرداء ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْن» قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرِّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين»[٦]. وعن ابن عمر عن النبيِّ ﷺ في قول الله عزَّ وجلَّ: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» قال: «يغفر ذنباً، ويكشف كرباً، ويجيب داعياً»[٧]. وقيل: من شأنه أن يحيي ويميت، ويُعزّ ويذلّ، ويرزق ويمنع[٨].

وقيل: أراد شأنه في يومي الدنيا والآخرة. قال ابن بحر: الدهر كلُّه يومان،

(١) الوسيط ٤/ ٢٢١.

(٢) الوسيط ٤/ ٢٢١ عن أبي صالح، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧٠ عن ابن عباس.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٣٢.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٣٢.

(٦) أخرجه ابن ماجه (٢٠٢)، قال البوصيري في الزوائد: إسناده حسن. اهـ وعلَّقه البخاري في صحيحه، في التفسير، قبل حديث (٤٨٧٨) عن أبي الدرداء موقوفاً.

(٧) أخرجه البزار (٢٢٦٨ كشف الأستار)، وفي إسناده عبد الرحمن بن البيلماني، وهو ضعيف.

(٨) الوسيط ٤/ ٢٢١.

أحدهما: مدة أيام الدنيا، والآخر: يوم القيامة، فشأنه سبحانه وتعالى في أيام الدنيا الابتلاء والاختبار بالأمر والنهي، والإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع، وشأنه يوم القيامة الجزاء والحساب، والثواب والعقاب. وقيل: المراد بذلك الإخبار عن شأنه في كلِّ يوم من أيام الدنيا(١). وهو الظاهر. والشأن في اللغة: الخطب العظيم، والجمع الشؤون(٢)، والمراد بالشأن هاهنا الجمع، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]. وقال الكلبيُّ: شأنه سوق المقادير إلى المواقيت(٣). وقال عمرو بن ميمون في قوله تعالى: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»: من شأنه أن يميت حَيًّا، ويُقِرَّ في الأرحام ما شاء، ويُعزَّ ذليلاً، ويُذلَّ عزيزاً.

وسأل بعض الأمراء وزيرَه عن قوله تعالى: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» فلم يَعرِفْ معناها، واستمهله إلى الغد، فانصرف كئيباً إلى منزله، فقال له غلام له أسود: ما شأنك؟ فأَخبره. فقال له: عُدْ إلى الأمير فإنِّي أفسِّرها له، فدعاه فقال: أيُّها الأمير! شأنه أن يُولجَ الليل في النهار، ويولجَ النهار في الليل، ويخرج الحيَّ من الميِّت، ويخرج الميِّت من الحيِّ، ويَشفي سقيماً، ويُسقم سليماً، ويَبتلي معافًى، ويعافي مبتلًى، ويُعزَّ ذليلاً، ويذلَّ عزيزاً، ويُفقر غنيًّا، ويغني فقيراً. فقال له: فَرَّجت عني، فَرَّج اللهُ عنك، ثم أَمَرَ بخَلْع ثياب الوزير، وكساها الغلام، فقال: يا مولاي! هذا من شأن الله تعالى(٤). وعن عبد الله بن طاهر: أنَّه دعا الحسين بنَ الفضل وقال له: أَشكلت عليَّ ثلاث آيات دَعوتُكَ لتكشفها لي: قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] وقد صحَّ أنَّ الندم توبة، وقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وقد صحَّ أنَّ القلم جفَّ بما هو كائن إلى يوم القيامة، وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٣٢.

(٢) تهذيب اللغة ١١/ ٤١٥.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٩، ونسباه إلى الحسين بن الفضل.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٦، وما بعده منه أيضاً.

فما بال الأضعاف؟ فقال الحسين: يجوز ألا يكون الندمُ توبةً في تلك الأمَّة، ويكون توبةً في هذه الأمَّة؛ لأنَّ الله تعالى خصَّ هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم. وقيل: إنَّ ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل، ولكن على حمله. وأما قوله: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» فإنَّها شؤون يبديها لا شؤون يبتديها. وأما قوله: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» فمعناه: ليس له إلا ما سعى عدلاً، ولي أن أجزيَه بواحدة ألفاً فضلاً. فقام عبد الله وقبَّل رأسَه وسوَّغ خراجه.

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ يقال: فَرَغت من الشغل أفرغُ فُروغاً وفَرَاغاً، وتفرَّغت لكذا، واستفرغت مجهودي في كذا، أي: بذلتُه[١]. والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه، إنَّما المعنى: سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم، وهذا وعيد وتهديد لهم[٢]، كما يقول القائل لمن يريد تهديده: إذاً أتفرَّغ لك، أي: أَقْصِدُكَ. وفرغ بمعنى قصد[٣]، وأنشد ابن الأنباري في مثل هذا لجرير:

ألآن وقَدْ فَرَغْتُ إلى نُمَيْرٍ فهذا حين كُنْتُ لها عَذابا[٤]

يريد: وقد قصدت. وقال أيضاً، وأنشده النحَّاس:

فَرغْتُ إلى العَبْدِ المقَيَّدِ في الحِجْلِ[٥]

---

(١) الصحاح (فرغ).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٣٤ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٣٤ ، والحجة لأبي علي الفارسي ٤/ ٢٥٦ و ٦/ ٢٤٩ ، ولم نقف على البيت في ديوان جرير.

(٥) شرح ديوان جرير ٢/ ٩٥٢ ، إلا أن فيه: القين، بدل: العبد.

وفي الحديث: أنَّ النبيَّ ﷺ لما بايع الأنصار ليلةَ العقبة، صاح الشيطان: يا أهل الجَبَاجِب! هذا مُذَمَّم يبايع بني قَيْلة على حربكم. فقال النبيُّ ﷺ: «هذا أَزَبُّ العَقَبة، أَمَا والله يا عدوَّ الله لأتفرغنَّ لك»(١) أي: أقصد إلى إبطال أمرك. وهذا اختيار القتبيِّ(٢) والكسائيِّ وغيرهما(٣).

وقيل: إنَّ الله تعالى وعَد على التقوى، وأوعد على الفجور، ثم قال: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ» مما وعدناكم، ونوصل كُلًّا إلى ما وعدناه، أي: أَقْسِمُ ذلك وأتفرَّغ منه. قاله الحسن ومقاتل وابن زيد(٤). وقرأ عبد الله وأُبَيٌّ: «سَنفْرُغُ إِلَيْكُمْ»(٥)، وقرأ الأعمش وإبراهيم: «سَيُفْرَغُ لَكُمْ» بضمِّ الياء وفتح الراء، على ما لم يسمَّ فاعله. وقرأ ابن شهاب والأعرج: «سَنَفْرَغُ لَكُمْ» بفتح النون والراء(٦)، قال الكسائيُّ: هي لغةُ تميم، يقولون: فَرِغ يَفرَغ، وحكى أيضاً: فَرَغَ يَفرُغ(٧)، ورواهما هُبيرة، عن حفص، عن عاصم(٨). وروى الجُعْفيُّ عن أبي عمرو: «سَيَفْرَغُ» بفتح الياء والراء(٩)، ورويت عن

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٩٨)، والفاكهي في أخبار مكة (٢٥٤٢)، والطبراني في الكبير ١٩/ (١٧٥) عن كعب بن مالك. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٤٥ : رواه أحمد والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرَّح بالسماع. اهـ. ومعنى: هذا مذمَّم: أنَّ عدوَّ الله صرخ بما يضادُّ اسم محمد وزناً ومعنًى. والجباجب: جمع جُبْجُب ـ بالضمِّ ـ وهو المستوي من الأرض ليس بحَزْن، وهي أسماء منازل منى. وأَزَبُّ العقبة: اسم شيطان كان بالعقبة. النهاية (جبجب) و(أزب).

(٢) في تأويل مشكل القرآن له ص٧٧ .

(٣) منهم الزجَّاج في معاني القرآن له ٥/ ٩٩ ، وابن الأعرابي كما في تهذيب اللغة ٨/ ١١١ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧١ عن الحسن ومقاتل.

(٥) الحجة للفارسي ٦/ ٢٤٩ ، والكشف لمكي ٢/ ٣٠٢ ، والكشاف للزمخشري ٤/ ٤٧ عن أُبَيٍّ، وذكر محقق الكشف أنَّ في إحدى النسخ الخطية: ابن مسعود، بدل: أُبيٍّ.

(٦) القراءات الشاذة ص١٤٩ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٤ ، والبحر المحيط ٨/ ١٩٤ .

(٧) الحجة للفارسي ٦/ ٢٤٩ .

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٠ .

(٩) المحتسب ٢/ ٣٠٤ ، وذكرها مجاهد في السبعة ص٦٢٠ .

ابن هُرْمز. وروي عن عيسى الثَّقفيِّ: «سَنِفْرَغُ لَكُمْ» بكسر النون وفتح الراء[١]، وقرأ حمزة والكسائيُّ: «سَيَفْرُغُ لَكُمْ» بالياء، الباقون بالنون[٢]، وهي لغة تهامة.

والثَّقلان: الجِنُّ والإنس، سُمِّيا بذلك؛ لعِظَمِ شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف[٣]. وقيل: سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم ثِقَلٌ على الأرض أحياءً وأمواتاً، قال الله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] ومنه قولهم: أَعطِه ثِقَلَه، أي: وزنَه. وقال بعض أهل المعاني: كل شيء له قدر ووزن يُنافَسُ فيه، فهو ثقل. ومنه قيل لبيض النعام: ثقل؛ لأنَّ واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به. وقال جعفر الصادق: سُمِّيا ثقلين؛ لأنَّهما مثقلان بالذنوب[٤].

وقال: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ» فجمع، ثم قال: «أَيُّه الثَّقَلَانِ» لأنَّهما فريقان، وكلُّ فريق جمع، وكذا قوله تعالى: «يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنسِ إنِ استَطَعْتُمْ» ولم يقل: إن استطعتما[٥]؛ لأنَّهما فريقان في حال الجمع، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥] و﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] ولو قال: سنفرغ لكما، وقال: إن استطعتما، لجاز.

وقرأ أهل الشام: «أَيُّهُ الثَّقَلَانِ» بضمِّ الهاء. الباقون بفتحها، وقد تقدَّم[٦].

مسألة: هذه السورة و«الأَحْقَاف» و﴿قُلْ أُوحِىَ﴾ [الجن: ١] دليلٌ على أنَّ الجِنَّ مخاطبون مكلَّفون[٧]، مأمورون منهيون، مثابون معاقبون، كالإنس سواء، مؤمنُهم كمؤمنهم، وكافرُهم ككافرهم، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٩٤.

(٢) السبعة ص٦٠٢، والتيسير ص٢٠٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٧١.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٠.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٦.

(٦) ١٥/ ٢٢٨.

(٧) التمهيد ١١/ ١١٧.

قوله تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ الآية، ذكر ابن المبارك: وأخبرنا جويبر عن الضحاك قال: إذا كان يوم القيامة أَمَرَ الله السماء الدنيا فتشقَّقت بأهلها، فتكون الملائكة على حافَّاتها حتى يَأْمرهم الربُّ، فينزلون إلى الأرض، فيحيطون بالأرض ومن فيها، ثم يأمر الله السماء التي تليها كذلك، فينزلون فيكونون صفًّا في جوف[(١)] ذلك الصف، ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة، فينزل الملَك الأعلى في بهائه وملكه ومجنَّبته اليسرى جهنَّم، فيسمعون زفيرها وشهيقها، فلا يأتون قُطْراً من أقطارها إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة، فذلك قوله تعالى: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ والْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ» والسلطان: العذر.

وقال الضحَّاك أيضاً: بينما الناس في أسواقهم انفتحت السماء، ونزلت الملائكة، فتهرب الجنُّ والإنس، فتحدق بهم الملائكة، فذلك قوله تعالى: «لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ» ذكره النحَّاس. قلت: فعلى هذا، يكون في الدنيا، وعلى ما ذكر ابنُ المبارك، يكون في الآخرة. وعن الضحَّاك أيضاً: إن استطعتم أن تهربوا من الموت فاهربوا[(٢)]. وقال ابن عباس: إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات وما في الأرض فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان، أي: ببيِّنة من الله تعالى[(٣)]. وعنه أيضاً أنَّ معنى: «لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ» لا تخرجون من سلطاني وقدرتي عليكم[(٤)]. قتادة: لا تنفذون إلا بمِلْك، وليس لكم مِلْك[(٥)]. وقيل: لا تنفذون إلا إلى سلطان، الباء بمعنى «إلى»، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: إليَّ[(٦)]. قال الشاعر:

---

(١) في (م): من خلف. والمثبت من (د) و(ظ)، والزهد لابن المبارك (٣٥٤ زوائد نعيم)، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٢/٢١٧ - ٢١٨ من طريق الأجلح، عن الضحاك، به.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٠ ، وما بعده منه أيضاً.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٧١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢١٩ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢١٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٣٤ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٠ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧١ .

أَسِيئي بِنا أو أحسِني لا مَلُولَةٌ ... لَدَيْنا ولا مَقْلِيَّةٌ إن تَقَلَّتِ[١]

وقوله: «فَانْفُذُوا» أمر تعجيز.

قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ أي: لو خرجتم أرسل عليكم شواظ من نار، وأخذكم العذاب المانع من النفوذ. وقيل: ليس هذا متعلّقاً بالنفوذ، بل أخبر أنَّه يعاقب العصاة عذاباً بالنار. وقيل: أي: بآلاءِ ربِّكما تكذبان، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس؛ عقوبة على ذلك التكذيب. وقيل: يحاط على الخلائق بالملائكة وبلسان من نار، ثم ينادون: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ»، فتلك النار قوله: «يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُواظٌ مِنْ نَارٍ» والشواظ في قول ابن عباس وغيره: اللهب الذي لا دخان له. والنُّحَاس: الدخان الذي لا لهبَ فيه[٢]. ومنه قول أميَّة بن أبي الصَّلْت يهجو حسانَ بنَ ثابت ﷺ، كذا وقع في تفسير الثعلبيِّ والماورديِّ[٣]: ابن أبي الصَّلْت، وفي «الصحاح»[٤] و«الوقف والابتداء»[٥] لابن الأنباري: أميَّة بن خَلَف قال:

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ حَسَّانَ عَنِّي ... مُغَلْغَلَةً تَدُبُّ إلى عُكَاظِ

أَلَيْس أبوكَ فينا كان قَيْناً ... لَدَى الْقَيْنَاتِ فَسْلاً في الحِفَاظِ

يَمَانِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كِيراً ... ويَنْفُخُ دَائباً لَهَبَ الشُّواظِ[٦]

فأجابه حسان ﷺ فقال:

---

(١) القائل كُثيِّر عزَّة، وهو في ديوانه ص٨٠ . وقَلَته قِلًى وقلاء ومَقْلية: أبغضته وكرهته غاية الكراهة. اللسان (قلا).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٢ ، ٢٢٤ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٤٣٤ - ٤٣٥ ومقتصراً على البيت الثالث.

(٤) مادة (شوظ) ومقتصراً على البيتين الثاني والثالث.

(٥) ١/ ٩٥ .

(٦) ديوان أمية بن أبي الصلت ص١٦٨ ، والمغلغلة: الرسالة. والقين: العبد. والفسل: النذل. والكير: منفخ الحداد. اللسان (غلل) و(قين) و(فسل) و(كير).

هَجَوْتَكَ فَاخْتَضَعْتَ لها بِذُلٍّ بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كَالشُّوَاظِ[١]

وقال رُؤبة:

إنَّ لهم من وقْعِنَا أقْيَاظَا ونارَ حربٍ تُسْعِرُ الشُّوَاظَا[٢]

وقال مجاهد: الشّواظ: اللهب الأخضر المنقطع من النار[٣]. الضحَّاك: هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب[٤]. وقاله سعيد بن جبير[٥]. وقدقيل: إنَّ الشواظَ النارُ والدخانُ جميعاً، قاله أبو عمرو، وحكاه الأخفش عن بعض العرب[٦].

وقرأ ابن كَثير: «شِواظ» بكسر الشين. الباقون بالضمِّ[٧]، وهما لغتان، مثل صُوَار وصِوار لقطيع البقر[٨].

﴿وَنُحَاسٌ﴾ قراءة العامَّة: «ونُحَاسٌ» بالرفع عطف على «شُوَاظ». وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو: «ونُحَاسٍ» بالخفض[٩] عطفاً على النار. قال المهدويُّ:

---

(١) ديوان حسان ص١٤٢، وروايته فيه هكذا:

مُجَلَّلَةً تُعَمِّمُه شناراً مُضَرَّمَةً تَأَجَّج كالشواظ

وجاءت روايته في النكت والعيون ٥/ ٤٣٥ هكذا:

همزتك فاختضعت بذل نفس بقافية تأجج كالشواظ

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤٤، وتفسير الطبري ٢٢/ ٢٢١ - ٢٢٢، والصحاح (شوظ)، ولم نقف عليه في ديوان رؤبة، وذكره ابن دريد في جمهرة اللغة ٣/ ١٢٣ ونسبه للعجاج، ولم نقف عليه في ديوانه أيضاً.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٧١، وتفسير مجاهد ٢/ ٦٤٢، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٣.

(٤) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٣.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٣٥.

(٦) الوسيط ٤/ ٢٢٣، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٦.

(٧) السبعة ص٦٢١، والتيسير ص٢٠٦.

(٨) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٧.

(٩) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٦٢١، والتيسير ص٢٠٦، وقراءة مجاهد في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١١.

من قال: إنَّ الشّواظ النارُ والدخانُ جميعاً، فالجرُّ في «نُحَاس» على هذا بيِّن. فأمَّا الجرُّ على قول من جعل الشواظ اللهبَ الذي لا دخان فيه، فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف كأنَّه قال: «يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ» وشيءٌ من نحاس، فشيء معطوف على شواظ، و«من نحاس» جملة هي صفة لشيء، وحذف شيء، وحذفت «مِن»؛ لتقدُّم ذكرها في «مِنْ نَارٍ»[1] كما حذفت «على» من قولهم: على من تنزل، أنزل عليه. فيكون «نُحَاس» على هذا مجروراً بـ«من» المحذوفة.

وعن مجاهد وحُميد وعكرمة وأبي العالية: «ونِحاسٍ» بكسر النون[2]، لغتان كالشِّواظ والشُّواظ. والنِّحاس ـ بالكسر أيضاً ـ: الطبيعةُ والأصلُ، يقال: فلان كريم النِّحاس. والنُّحاس ـ أيضاً بالضمِّ ـ أي: كريم النُّجار[3]. وعن مسلم بن جُنْدَب: «ونَحْسٌ» بالرفع[4]. وعن حنظلة بن مرَّة بن النعمان الأنصاري: «ونَحْسٍ» بالجرِّ[5] عطف على نار. ويجوز أن يكون «ونِحاسٍ» بالكسر، جمع نَحْسٍ، كصَعْب وصِعاب. «ونَحْسٌ» بالرفع عطف على «شواظ»، وعن الحسن: «ونُحُسٍ» بالضمِّ فيهنَّ[6] جمع نَحْس. ويجوز أن يكون أصله: ونُحُوس، فقصر بحذف واوه؛ حسب ما تقدّم عند قوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]. وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة: «وَنَحُسُّ» بفتح النون وضمِّ الحاء وتشديد السين[7]، من حَسَّ يَحُسُّ حَسًّا: إذا استأصل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٥٢] والمعنى: ونقتل بالعذاب.

(١) حجة القراءات للفارسي ٦/ ٢٥٠ - ٢٥١، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٦.

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٩ عن مجاهد والكلبي مع إمالة الحاء، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١١، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣١ عن مجاهد، وينظر البحر المحيط ٨/ ١٩٥.

(٣) الصحاح (نحس).

(٤) القراءات الشاذة ص١٤٩، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١١.

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٩ وسمَّاه حنظلة بن يعمر، ولم نعرفه.

(٦) في (م): فيهما، والمثبت من النسخ الخطية، والقراءة في البحر المحيط ٨/ ١٩٥.

(٧) القراءات الشاذة ص١٤٩، والمحتسب ٢/ ٣٠٤، وما بعده منه.

وعلى القراءة الأولى: «ونُحَاسٌ» فهو الصُّفر المذاب يُصَبُّ على رؤوسهم، قاله مجاهد وقتادة، وروي عن ابن عباس[(١)]. وعن ابن عباس أيضاً وسعيد بن جُبير أنَّ النحاس: الدخان الذي لا لهبَ فيه[(٢)]، وهو معنى قول الخليل[(٣)]، وهو معروف في كلام العرب بهذا المعنى، قال نابغة بني جَعْدة:

يُضِيءُ كضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيـ ـطِ لم يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحَاسَا[(٤)]

قال الأصمعيُّ: سمعتُ أعرابياً يقول: السَّليط: دهن السِّمسم بالشام ولا دخانَ فيه.

وقال مقاتل: هي خمسة أنهار من صُفر مُذَاب، تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار، ثلاثة أنهار على مقدار الليل، ونهران على مقدار النهار.

وقال ابن مسعود: النُّحَاس: المُهْل[(٥)]. وقال الضحَّاك: هو دُرْديُّ الزّيت المغليّ وقال الكسائيُّ: هو النار التي لها ريح شديدة. ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: لا ينصر بعضكم بعضاً، يعني الجنّ والإنس[(٦)].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ﴾ أي: انصدعت يوم القيامة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٢، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ٢٢٥.

(٢) زاد المسير ٨/ ١١٦، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٢٤.

(٣) في العين ٦/ ٢٧٨.

(٤) ديوان النابغة الجعدي ص٨١، والسليط: الزيت، عند عامة العرب، وهو دهن السمسم عند أهل اليمن. اللسان (سلط).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٢.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٤ عن قتادة.

﴿كَالدِّهَانِ﴾ الدِّهَانُ: الدُّهْن، عن مجاهد والضحَّاك وغيرهما(١). والمعنى أنَّها صارت في صفاء الدهن، والدهان على هذا جمع دُهْن(٢).

وقال سعيد بن جُبير وقتادة: المعنى: فكانت حمراء(٣). وقيل: المعنى: تصير في حمرة الورد وجريان الدهن، أي: تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنَّم، وتصير مثل الدُّهن؛ لرقَّتها وذوبانها. وقيل: الدِّهان: الجلد الأحمر الصِّرف، ذكره أبو عبيد والفرَّاء(٤). أي: تصير السماء حمراء كالأديم؛ لشدة حَرِّ النار.

ابن عباس: المعنى: فكانت كالفرس الوَرْد(٥). يقال للكُمَيت: وَرْدٌ؛ إذا كان يتلوَّن بألوان مختلفة(٦). قال ابن عباس: الفرس الوَرْد؛ في الربيع كميت أصفر، وفي أوّل الشتاء كُمَيت أحمر، فإذا اشتدَّ الشتاء كان كُمَيتاً أغبر. وقال الفرَّاء(٧): أراد الفرس الوَرْديَّة، تكون في الربيع وَرْدةً إلى الصفرة، فإذا اشتدَّ البرد كانت وَرْدةً حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وَرْدةً إلى الغُبرة، فشبَّه تلوُّن السماء بتلوُّن الْوَرْد من الخيل. وقال الحسن: «كَالدِّهَانِ» أي: كصبِّ الدُّهْن، فإنَّك إذا صببته ترى فيه ألواناً. وقال زيد بن أسلم: المعنى أنَّها تصير كعَكَر الزيت، وقيل: المعنى أنَّها تمرُّ وتجيء. قال الزجَّاج: أصل الواو والراء والدال [للمجيء والإتيان. وهذا قريب مما قدَّمناه من أنَّ الفرس الوَرْدة تتغيَّر ألوانها. وقال قتادة]: إنَّها اليوم خضراء، وسيكون لها لون

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٢ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٢٨ - ٢٢٩ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٢ .

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٢ عن قتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٨ .

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١١٧ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٢٧ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠١ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١١٧ .

أحمر، حكاه الثعلبيُّ(١). وقال الماورديُّ(٢): وزعم المتقدمون أنَّ أصل لون السماء الحمرة، وأنَّها لكثرة الحوائل وبُعد المسافة تُرى بهذا اللون الأزرق، وشبَّهوا ذلك بعروق البدن، وهي حمراء كحمرة الدم، وتُرى بالحائل زرقاء، فإن كان هذا صحيحاً فإنَّ السماء لقُربها من النواظر يوم القيامة وارتفاع الحواجز تُرى حمراء؛ لأنَّه أصل لونها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] وأنَّ القيامة مواطن؛ لطول ذلك اليوم، فيسأل في بعض، ولا يسأل في بعض، وهذا قول عكرمة(٣).

وقيل: المعنى: لا يسألون إذا استقرُّوا في النار.

وقال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم؛ لأنَّ الله حفظها عليهم، وكتبتها عليهم الملائكة. رواه العوفيُّ عن ابن عباس(٤).

وعن الحسن ومجاهد أيضاً: المعنى: لا تسأل الملائكة عنهم؛ لأنَّهم يعرفونهم بسيماهم، دليله ما بعده. وقاله مجاهد عن ابن عباس(٥). وعنه أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٩٢] وقوله: «فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ» [الرحمن:٣٩] وقال: لا يسألهم ليعرف ذلك منهم؛ لأنَّه أعلم بذلك منهم، ولكنَّه يسألهم لم عملتموها، سؤالَ توبيخ. وقال أبو العالية: لا يسأل غير المجرم عن

---

(١) والواحدي في الوسيط ٤/ ٢٢٣، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٢٨ عن قتادة، وما بين حاصرتين ليست في (د).

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٤٣٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٢، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٢، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٥ عن الحسن، والطبري ٢٢/ ٢٣٠ عن قتادة.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٢، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٣٠ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٤٢ - ٦٤٣ بنحوه.

ذنب المجرم[١].

وقال قتادة: كانت المسألة قَبْلُ، ثم ختم على أفواه القوم وتكلَّمت الجوارح شاهدة عليهم[٢].

وفي حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ وفيه قال: «فيَلْقَى العبدَ فيقول: أي فُلْ، ألم أُكرِمْك وأُسوِّدْك وأُزَوِّجْك وَأُسخِّرْ لك الخيلَ والإبلَ، وأَذرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيقول: بلى. فيقول: أفظننتَ أنَّك مُلَاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول: إنِّي أنساكَ كما نسيتني. ثم يَلقى الثانيَ فيقول له مثلَ ذلك بعينه، ثم يلقى الثالث فيقول له مثلَ ذلك، فيقول: يا ربِّ آمنتُ بكَ وبكتابِكَ وبرسولِكَ، وصلَّيتُ وصمتُ وتصدَّقت، ويُثْني بخيرٍ ما استطاع، فيقول: هاهنا إذاً. ثُمَّ يقال له: الآن نبعثُ شاهدَنا عليك فيفتكر في نفسه مَن هذا الذي يشهد عليَّ، فيُختَم على فِيهِ، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انْطِقي، فتنطقُ فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله، وذلك ليُعْذِرَ من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يَسخَطُ اللهُ عليه» وقد مضى هذا الحديث في «حم السجدة» وغيرها[٣].

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ قال الحسن: سواد الوجه وزرقة الأعين[٤]، قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٣٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٣٠.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٦٨)، وسلف ١٧/ ٤٧٥ و ١٨/ ٤٠٦، ومعنى: فُلْ: يا فلان، وليس ترخيماً له... وقال قوم: إنه ترخيم فلان. وترأس: أي صرتَ رئيس القوم ومقدَّمهم. وتربع: تأخذ ربع الغنيمة. النهاية (فلل) و(رأس) و(ربع).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٢، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٥، والطبري ٢٢/ ٢٣١.

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي: تأخذ الملائكة بنواصيهم، أي: بشعور مقدَّم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار[١]. والنواصي جمع ناصية. وقال الضحَّاك: يجمع بين ناصيته وقدمَيْه في سلسلة من وراء ظهره[٢]. وعنه: يؤخذ بِرِجْلي الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندقَّ ظهره، ثم يُلقى في النار[٣]. وقيل: يفعل ذلك به ليكون أشدَّ لعذابه وأكثر لتشويهه. وقيل: تسحبهم الملائكة إلى النار، تارةً تأخذ بناصيته وتجرُّه على وجهه، وتارةً تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه[٤].

قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يقال لهم: هذه النار التي أُخبِرتُم بها فكذبتم[٥]. ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ قال قتادة: يطوفون مرَّةً بين الحميم، ومرَّةً بين الجحيم، والجحيم: النار. والحميم: الشراب[٦].

وفي قوله تعالى: «آنٍ»: ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه الذي انتهى حَرُّه وحميمه. قاله ابن عباس وسعيد بن جُبير والسُّدِّيُّ[٧]، ومنه قول النابغة الذُّبْياني:

وتُخْضَبُ لِحْيَةٌ غَدَرتْ وخَانتْ ... بأحمرَ من نَجيعِ الجوفِ آنِ[٨]

قال قتادة: «آنٍ»: طبخ منذ خلقَ الله السماوات والأرض[٩]. يقول: إذا استغاثوا

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٣١ ، وتفسير أبي الليث ٣/ ٣٠٩ .

(٢) الكشاف ٤/ ٤٨ ، وأخرجه عنه هناد في الزهد (٢٦٨).

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٤٥ وعزاه إلى ابن المنذر.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٢ بنحوه.

(٥) الوسيط ٤/ ٢٢٤ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٣٧ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٣٧ ، وما بعده منه أيضاً، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٣٣ عن ابن عباس وسعيد ابن جبير.

(٨) ديوان النابغة ص١٢٠ ، ونجيع الجوف: الدم. اللسان (نجع).

(٩) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٣٤ .

من النار، جعل غياثهم ذلك. وقال كعب: «آن»: وادٍ من أودية جهنَّم يجتمع فيه صديد أهل النار، فيغمسون بأغلالهم فيه حتى تنخلعَ أوصالهم، ثم يخرجون منها وقد أحدث الله لهم خَلْقاً جديداً فيلقون في النار، فذلك قوله تعالى: «يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ»(١). وعن كعب أيضاً: أنَّه الحاضر. وقال مجاهد: إنَّه الذي قد آنَ شربه وبلغ غايته(٢).

والنعمة فيما وصف من هول القيامة وعقاب المجرمين ما في ذلك من الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات. وروي عن النبيِّ ﷺ أنَّه أتى على شاب في الليل يقرأ: «فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ»، فوقف الشاب وخنقته العَبْرة وجعل يقول: وَيْحِي من يوم تنشقُّ فيه السماء وَيْحِي! فقال النبيُّ ﷺ: «وَيْحَك يا فتى مثلها، فوالذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: لما ذكر أحوال أهل النار ذكر ما أعدَّ للأبرار. والمعنى: خاف مقامه بين يدي ربِّه للحساب، فترَكَ المعصية. فـ «مَقَامَ» مصدر بمعنى القيام. وقيل: خاف قيام ربِّه عليه، أي: إشرافه واطلاعه عليه، بيانه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] وقال مجاهد وإبراهيم النخعيُّ: هو الرجل يَهُمُّ بالمعصية فيذكر اللهَ، فيدعها من خوفه(٤).

الثانية: هذه الآية دليل على أنَّ من قال لزوجه: إن لم أكن من أهل الجنَّة، فأنتِ

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٣٧، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٣٣ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٤٣.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٣، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٣٥ - ٢٣٦، وقول مجاهد أخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧٠، وهناد في الزهد (٨٩٩).

طالق. أنَّه لا يحنث إن كان هَمَّ بالمعصية وتركها خوفاً من الله وحياءً منه. وقاله سفيان الثوريُّ وأفتى به(١).

وقال محمد بن عليٍّ الترمذيُّ: جنةٌ لخوفه من ربِّه، وجنةٌ لتركه شهوته(٢). وقال ابن عباس: من خاف مقام ربِّه بعد أداء الفرائض(٣). وقيل: المقام: الموضع، أي: خاف مقامه بين يدي ربِّه للحساب، كما تقدَّم(٤). ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف إلى الله(٥)، وهو كالأجل في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقوله في موضع آخر: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤].

﴿جَنَّتَانِ﴾ أي: لمن خاف جنَّتان على حِدَة، فلكلِّ خائف جنَّتان. وقيل: جنَّتان لجميع الخائفين(٦). والأوَّل أظهر. وروي عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «الجنَّتان بستانان في عرض الجنَّة، كلُّ بستان مسيرة مئة عام، في وسط كلِّ بستان دار من نور، وليس منها شيء إلا يهتز نغمة وخضرة، قرارها ثابت وشجرها ثابت» ذكره المهدويُّ والثعلبيُّ أيضاً من حديث أبي هريرة(٧).

وقيل: إنَّ الجنَّتين جنَّته التي خلقت له وجنَّة ورثها. وقيل: إحدى الجنَّتين منزله، والأُخرى منزل أزواجه، كما يفعله رؤساء الدنيا. وقيل: إنَّ إحدى الجنَّتين مسكنه، والأُخرى بستانه. وقيل: إنَّ إحدى الجنَّتين أسافل القصور، والأخرى أعاليها. وقال مقاتل: هما جنَّة عدن، وجنَّة النعيم(٨).

---

(١) هذه اليمين ذُكرت عن هارون الرشيد، وأنَّ الليث بن سعد هو الذي أفتاه فيها كذلك، وقد أخرج القصة أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٣٢٣ - ٣٢٤، ولم نقف على فتيا سفيان الثوري في المسألة.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٣.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٣٧، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٣٥.

(٤) الوسيط ٤/ ٢٢٥.

(٥) تفسير الرازي ٢٩/ ١٢٢.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٣.

(٧) وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٤٧ وعزاه لابن مردويه عن عياض بن تميم.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٣٨، والوسيط ٤/ ٢٢٥.

وقال الفرَّاء: إنَّما هي جنَّة واحدة، فثنى؛ لرؤوس الآي. وأنكر القتبيُّ هذا وقال: لا يجوز أن يقال: خزنة النار عشرون، وإنَّما قال: تسعة عشر؛ لمراعاة رؤوس الآي. وأيضاً قال: «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ»[١]. وقال أبو جعفر النحَّاس: قال الفرَّاء[٢]: وقد تكون جنَّة فَتُثَنَّى في الشعر. وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله عزَّ وجلَّ، يقول الله عزَّ وجلَّ: «جَنَّتَانِ» ويصفهما بقوله: «فِيهِمَا» فيَدَعُ الظاهر ويقول: يجوز أن تكون جنَّة ويحتجُّ بالشعر! وقيل: إنَّما كانتا اثنتين؛ ليضاعف له السرور بالتنقُّل من جهة إلى جهة.

وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ خاصَّةً حين ذكر ذاتَ يومٍ الجنَّة حين أُزْلِفَت، والنار حين بُرِّزَت، قاله عطاء وابن شَوْذَب. وقال الضحَّاك: بل شرب ذات يوم لبناً على ظمأ فأعجبه، فسأل عنه، فأُخبِرَ أنَّه من غير حِلٍّ، فاستقاءه ورسولُ الله ﷺ ينظر إليه، فقال: «رحمك الله لقد أنزلت فيك آية» وتلا عليه هذه الآية[٣].

قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ قال ابن عباس وغيره: أي: ذواتا ألوان من الفاكهة، الواحد: فَنٌّ[٤]. وقال مجاهد: الأفنان: الأغصان، واحدها فَنَنٌ[٥]. قال النابغة[٦]:

بكاءَ حمامةٍ تدعو هَدِيلاً مُفَجَّعَةٍ على فَنَنٍ تُغَنِّي

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١٠، وكلام القتبي في غريب القرآن له ص٤٤٠ - ٤٤١.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١١٨.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٣٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٣٨ عن ابن عباس والضحاك، والوسيط ٤/ ٢٢٦ عن الضحاك وسعيد بن جبير، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٤١.

(٦) في ديوانه ص١٢٢.

وقال آخر يصف طائرين:

باتا على غُصْنِ بَانٍ في ذُرَى فَنَنٍ ... يُرَدِّدانِ لُحوناً ذاتَ أَلْوَانِ(١)

أراد باللحون: اللغات. وقال آخر:

ما هاجَ شَوْقَك مِن هَدِيلِ حمامةٍ ... تَدْعو على فَنَنِ الغُصونِ حَماماً

تدعو أبا فَرْخَيْن صادف ضارِياً ... ذا مِخْلَبَيْنِ مِن الصُّقورِ قَطَامَا(٢)

والفنن جمعه: أفنان، ثم الأفانين، وقال يصف رَحًى:

لها زِمامٌ مِن أفانِينِ الشَّجَرْ

وشجرة فَنَّاء، أي: ذات أفنان، وفنواء أيضاً على غير قياس(٣).

وفي الحديث: «إنَّ أهل الجنَّة مُرْدٌ مكحَّلون أولو أفانين» يريد: أولو فَنَن، وهو جمع أفنان، وأفنان جمع فننٍ [وهو الخُصْلة] من الشعر شُبِّه بالغصن(٤). ذكره الهرويُّ.

وقيل: «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ» أي: ذواتا سعة وفَضْل على ما سواهما، قاله قتادة(٥). وعن مجاهد أيضاً وعكرمة: إنَّ الأفنان: ظلُّ الأغصان على الحيطان(٦).

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: في كلٍّ واحدة منهما عين جارية(٧). قال ابن عباس: تجريان ماءً بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنَّة(٨). وعن

---

(١) أمالي القالي ١/ ٦، ولم ينسبه.

(٢) سلف ١/ ٤٥.

(٣) الصحاح (فنن)، والبيت ذكره أيضاً ابن منظور في اللسان، ولم ينسبه.

(٤) تهذيب اللغة ١٥/ ٤٦٦، وما بين حاصرتين منه، والحديث أخرجه الترمذي (٢٥٣٩) عن أبي هريرة و(٢٥٤٥) عن معاذ بن جبل بنحوه، وقال بعدهما: هذا حديث حسن غريب.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٥، والطبري ٢٢/ ٢٤١.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤.

(٧) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٤٢، وتفسير الرازي ٢٩/ ١٢٤.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤.

ابن عباس أيضاً والحسن: تجريان بالماء الزّلال، إحدى العينين التسنيم، والأخرى السلسبيل(١). وعنه أيضاً: عينان مثل الدنيا أضعافاً مضاعفةً، حصباؤهما الياقوت الأحمر والزَّبَرْجَد الأخضر، وترابهما الكافور، وحَمْأتهما المسك الأذفر، وحافتاهما الزعفران. وقال عطيَّة: إحداهما من ماء غيرِ آسنٍ، والأُخرى من خمر لذَّة للشاربين(٢). وقيل: تجريان من جبل مِسْكٍ(٣). وقال أبو بكر الورَّاق: فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عزَّ وجلَّ(٤).

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي: صنفان، وكلاهما حلوٌ يستلذُّ به. قال ابن عباس: ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مُرَّة إلا وهي في الجنَّة حتى الحنظل إلا أنَّه حُلْوٌ(٥). وقيل: ضربان رطب ويابس، لا يقصر هذا عن ذلك في الفضل والطِّيب(٦). وقيل: أراد تفضيل هاتين الجنَّتين على الجنَّتين اللتَيْن دونهما، فإنَّه ذكر هاهنا عينين جاريتين، وذكر ثَمَّ عينين تَنْضخان بالماء، والنَّضخ دون الجري، فكأنَّه قال: في تَيْنك الجنَّتين من كلٍّ فاكهة نوع، وفي هذه الجنَّة من كلٍّ فاكهة نوعان(٧).

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ هو نصب على الحال(٨). والفُرُش: جمع

---

(١) زاد المسير ٨/ ١٢٠ عن ابن عباس، والوسيط ٤/ ٢٢٦ عن الحسن.

(٢) زاد المسير ٨/ ١٢٠ ، والأذفر: الطِّيِّب الريح. اللسان (ذفر).

(٣) الكشاف ٤/ ٤٩ .

(٤) زاد المسير ٨/ ١٢٠ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ .

(٦) زاد المسير ٨/ ١٢٠ .

(٧) تفسير الرازي ٢٩/ ١٢٥ ، ١٣٣ بنحوه.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٤ .

فراش[١]. وقرأ أبو حَيْوة: «فُرْشٍ» بإسكان الراء[٢]. ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ جمع بطانة، وهي التي تحت الظِّهارة[٣]. والإستبرق: ما غلظ من الديباج وخشن[٤]، أي: إذا كانت البطانة التي تلي الأرض هكذا، فما ظنُّك بالظهارة، قاله ابن مسعود وأبو هريرة[٥]. وقيل لسعيد بن جُبير: البطائن من إستبرق، فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٦] [السجدة: ١٧]. وقال ابن عباس: إنَّما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم، فأمَّا الظواهر فلا يعلمها إلا الله[٧]. وفي الخبر عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «ظواهرها نور يتلألأ»[٨]. وعن الحسن: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور جامد[٩]. وعن الحسن أيضاً: البطائن هي الظواهر[١٠]، وهو قول الفرَّاء، وروي عن قتادة[١١]. والعرب تقول للظهر بطناً فيقولون: هذا بطن السماء وظهر الأرض، وقال الفراء: قد تكون البطانة الظهارة، والظهارة البطانة؛ لأنَّ كل واحد منهما يكون وجهاً، والعرب تقول[١٢]: هذا ظهر السماء، وهذا بطن السماء، لظاهرها الذي نراه. وأنكر ابن قتيبة[١٣] وغيره هذا، وقالوا: لا يكون هذا إلا

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٣ ، والبحر المحيط ٨/ ١٩٧ .

(٣) زاد المسير ٨/ ١٢١ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٤٢ .

(٥) الوسيط ٤/ ٢٢٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٤٣ عن ابن مسعود ﷺ.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١٠ ، والوسيط ٤/ ٢٢٦ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٣٩ .

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٣ ، ولم نقف عليه مسنداً.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤ عن سعيد بن جبير.

(١٠) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١٠ عن مقاتل، وزاد المسير ٨/ ١٢١ عن قتادة.

(١١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٨ ، وقول قتادة في زاد المسير ٨/ ١٢١ .

(١٢) ليست في (م)، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١١٨ ، وينظر زاد المسير ٨/ ١٢١ .

(١٣) في غريب القرآن له ص٤٤٢ .

في الوجهين المتساويين إذا وَلِيَ كلٌّ واحدٍ منهما قوماً، كالحائط بينك وبين قوم، وعلى ذلك أمر السماء.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجَنَى: ما يُجتنَى من الشجر، يقال: أتانا بجَنَاةٍ طيِّبة لكلٌ ما يجتنى. وثمر جنيٌّ ـ على فَعِيل ـ حين جُنِي[1]، وقال الشاعر:

هــذا جَــنَــايَ وخِــيَــاره فِــيــهْ إِذْ كــلُّ جــانٍ يَــدُهُ إِلــى فِــيــهْ[2]

وقرئ: «جِنَى» بكسر الجيم[3]. «دانٍ»: قريب. قال ابن عباس: تدنو الشجرة حتى يجتنيها وليُّ اللهِ، إن شاء قائماً، وإن شاء قاعداً[4]، وإن شاء مضطجعاً، لا يَرُدُّ يده بُعْدٌ ولا شوك[5].

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قيل: في الجنَّتين المذكورتَيْن. قال الزجَّاج[6]: وإنَّما قال: «فيهِنَّ» ولم يقل: فيهما؛ لأنَّه عنى الجنَّتين وما أعدَّ لصاحبهما من النعيم. وقيل: «فِيهِنَّ» يعود على الفُرُش[7] التي بطائنها من إستبرق، أي: في هذه الفرش «قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» أي: نساء قاصرات الطَّرْف، قَصَرْنَ أعينهنَّ

---

(١) الصحاح (جني).

(٢) هذا مثل يضرب في إيثار الرجل على نفسه، والقائل عمرو بن عدي اللخمي، وقصة المثل في مجمع الأمثال للميداني ٢/ ١٣٨، ٣٩٧، والمستقصى للزمخشري ٢/ ٣٨٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١٥٠ عن محبوب.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٤.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٣٩، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٥، والطبري ٢٢/ ٢٤٤.

(٦) في معاني القرآن له ٥/ ١٠٣.

(٧) زاد المسير ٨/ ١٢٢.

على أزواجهنَّ فلا يَرَيْنَ غيرهم(١). وقد مضى في ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾(٢) ووحَّد الطَّرْف مع الإضافة إلى الجمع؛ لأنَّه في معنى المصدر، من طَرَفت عينه تطرِف طَرْفاً(٣)، ثم سمِّيت العين بذلك، فأدَّى عن الواحد والجمع، كقولهم: قوم عَدْل وصَوْم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي: لم يُصِبْهنَّ بالجماع قبل أزواجهنَّ هؤلاء أحدٌ. الفرَّاء: والطمث: الافتضاض، وهو النكاح بالتَّدْمِية(٤)، طَمَثَها يَطمِثُها ويَطمثُها طَمْثاً: إذا افتضَّها. ومنه قيل: امرأة طامِث، أي: حائض(٥). وغير الفرَّاء يخالفه في هذا ويقول: طمثها بمعنى وَطِئَها على أيِّ الوجوه كان. إلا أنَّ قول الفرَّاء أعرف وأشهر. وقرأ الكسائيُّ: «لَمْ يَطْمُثْهُنَّ» بضمِّ الميم(٦)، يقال: طَمَثت المرأة تطمُث ـ بالضم ـ حاضت. وطَمِثت بالكسر لغة، فهي طامث(٧)، وقال الفرزدق:

وقَعْنَ إليَّ لم يُطْمَثْنَ قَبْلي ... وهنَّ أَصَحُّ مِنْ بَيْضِ النَّعامِ(٨)

وقيل: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ» لم يَمْسسهنَّ(٩)، قال أبو عمرو: والطمث: المَسُّ، وذلك في كل شيء يُمَسُّ. ويقال للمَرْتع: ما طَمث ذلك المرتعَ قبلَنا أحدٌ، وما طَمَثَ هذه الناقةَ حَبْل، أي: ما مسَّها عِقال(١٠). وقال المبرِّد: أي: لم يذلِّلهنَّ إنس قبلهم ولا جانٌّ، والطمث: التذليل(١١). وقرأ الحسن: «جَأن» بالهمز(١٢).

---

(١) الكشاف ٤/ ٤٩ .
(٢) ١٨/ ٣٣ .
(٣) الصحاح (طرف).
(٤) الوسيط ٤/ ٢٢٧ .
(٥) الصحاح (طمث).
(٦) السبعة ص٦٢١ ، والتيسير ص٢٠٧ .
(٧) الصحاح (طمث).
(٨) ثمار القلوب ص٤٤٢ ، وفيه: خرجن، بدل: وقعن. وأغضُّ، بدل: أصحُّ. ومنتهى الطلب ٥/ ٤٠٨ ، وفيه: مَشَيْنَ، بدل: وقعن.
(٩) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤٦ ، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠٣ .
(١٠) الصحاح (طمث).
(١١) النكت والعيون ٥/ ٤٣٩ .
(١٢) القراءات الشاذة ص١٤٩-١٥٠ عن عمرو بن عبيد، والمحتسب ٢/ ٣٠٥ عن الحسن وعمرو بن عبيد.

الثالثة: في هذه الآية دليل على أنَّ الجنَّ تغشى كالإنس[١]، وتدخل الجنَّة، ويكون لهم فيها جنِّيات[٢]. قال ضمرة: للمؤمنين منهم أزواج من الحور العين، فالإنسيات للإنس، والجِنِّيات للجنِّ[٣]. وقيل: أي: لم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الجنِّ في الجنَّة من الحور العين من الجنِّيات جِنٌّ، ولم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الإنس في الجنَّة من الحور العين من الإنسيات إنس، وذلك لأنَّ الجِنَّ لا تَطَأُ بناتِ آدم في الدنيا. ذكره القشيريُّ.

قلت: قد مضى في «النمل» القول في هذا، وفي «سبحان» أيضاً[٤]، وأنَّه جائز أن تَطَأَ بناتِ[٥] آدم. وقد قال مجاهد: إذا جامع الرجل ولم يُسَمِّ، انطوى الجانُّ على إحليله فجامع معه. فذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[٦] وذلك بأنَّ الله تبارك وتعالى وصف الحورَ العين بأنَّه لم يطمثهنَّ إنس قبلهم ولا جانٌّ، يعلمك أن نساءَ الآدمياتِ قد يطمثهنَّ الجانُّ، وأنَّ الحور العين قد بَرِئْنَ من هذا العيب ونُزِّهْنَ، والطمث: الجماع. ذكره بكماله الترمذيُّ الحكيم، وذكره المهدويُّ أيضاً والثعلبيُّ وغيرهما، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ روى الترمذيُّ عن عبد الله بن مسعود، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ المرأة من نساء أهل الجنَّة ليُرى بياض ساقيها من وراء سبعين حُلَّة

---

(١) معاني القرآن للزجَّاج ٥/ ١٠٣.

(٢) في (د) و(ظ): جنتان.

(٣) نوادر الأصول ص١١٦، ٢٤٣، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٤٨، وأبو الشيخ في العظمة (١١٦٨).

(٤) ١٦/ ١٧٧ و ١٣/ ١٢٠.

(٥) في (د) و(ظ): بني.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٥، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٤٨.

حتى يرى مخُّها» وذلك بأنَّ الله تعالى يقول: «كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ» فأما الياقوت فإنَّه حجر لو أدخلتَ فيه سِلكاً ثم استصفيته لأُرِيتَه [من ورائه] ويُروى موقوفاً(١). وقال عمرو بن ميمون: إنَّ المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حُلَّة فيرى مخُّ ساقها من وراء ذلك، كما يُرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء(٢). وقال الحسن: هنَّ في صفاء الياقوت، وبياض المرجان(٣).

قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ «هَلْ» في الكلام على أربعة أوجه: تكون بمعنى «قد» كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١]، وبمعنى الاستفهام كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤]، وبمعنى الأمر كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، وبمعنى «ما» في الجحد كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [النحل: ٣٥] و«هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ»(٤).

قال عكرمة: أي: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، إلا الجنَّة(٥). ابن عباس: ما جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعَمِلَ بما جاء به محمَّد ﷺ إلا الجنَّة(٦). وقيل: هل جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يُحسَن إليه في الآخرة، قاله ابن زيد(٧).

وروى أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ» ثم قال: «هل

---

(١) الترمذي (٢٥٣٣) مرفوعاً، و(٢٥٣٤) موقوفاً، وقال عنه: وهذا أصحُّ. اهـ وما بين حاصرتين منه، وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ في صفة الحور العين عند البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤) بلفظ: «ولكل واحد منهم زوجتان، يُرى مخُّ سوقهما من وراء اللحم من الحُسن...» الحديث.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٦ ، وأخرجه عنه هناد في الزهد (١٢)، والطبري ٢٢/ ٢٥٠ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٥٠ .

(٤) الأزهية للهروي ص٢٠٨-٢٠٩ ، وحروف المعاني للزجاجي ص٢ ، ومغني اللبيب ص٤٥٦-٤٦٠ .

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٤٩ وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٦ ، وزاد المسير ٨/ ١٢٣ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٤٠ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٥٢ - ٢٥٣ .

تدرونَ ماذا قال ربكم» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «يقول: ما جزاء من أنعمتُ عليه بالتوحيد إلا الجنَّة»(١).

وروى ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ هذه الآية فقال: «يقول الله: هل جزاء من أنعمتُ عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أُسكِنه جنَّتي وحظِيرة قُدْسي برحمتي»(٢). وقال الصادق: هل جزاء من أحسنتُ عليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد(٣). وقال محمَّد بن الحنفيَّة والحسن: هي مُسْجَلة للبَرِّ والفاجر(٤)، أي: مرسلة عليه، الفاجر في الدنيا، والبَرِّ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي: وله من دون الجنَّتين الأُوليين جنَّتان أُخريان. قال ابن عباس: ومن دونهما في الدَّرَج. ابن زيد: ومن دونهما في الفَضْل(٥). ابن عباس: والجنَّات لمن خاف مقام ربِّه، فيكون في الأُوليين النخل والشجر، وفي الأُخريين الزرع والنبات وما انبسط. الماورديُّ(٦): ويحتمل أن يكون «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ» لأتباعه؛ لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين، والأُخرى

(١) أخرجه البغوي في التفسير ٤/ ٢٧٦ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٤٠ بنحوه.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٩ عن محمد بن الحنفية، وأخرجه عنه أبو عبيد في غريب الحديث ٤/ ٣٤٩ ، والبخاري في الأدب المفرد (١٣٠)، والطبري ٢٢/ ٢٥٣ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٩١٥٢)، وأورده الطبرسي في مجمع البيان ٢٧/ ١٠٣ عن علي ﷺ، وعزاه إلى العياشي.

وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩١٥٤) عن ابن عباس مرفوعاً، وفي إسناده الهيثم بن عدي، متروك الحديث.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٦ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٢/ ٣٣٣ و ٢٢/ ٢٥٣ ، وأبو الشيخ في العظمة (٢٢٨)، وقول ابن زيد أخرجه أيضاً الطبري ٢٢/ ٢٥٤ .

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٤٤٠ - ٤٤١ ، وما قبله منه أيضاً.

للولدان المخلَّدين؛ ليتميَّز بهما الذكور عن الإناث. وقال ابن جريج: هي أربع: جنَّتان منها للسابقين المقرَّبين «فيهما من كلِّ فاكهة زوجان» و«عينان تجريان»، وجنَّتان لأصحاب اليمين «فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ» و«فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ»[١]. وقال ابن زيد: إنَّ الأُوليين من ذهب للمقرَّبين، والأُخريين من وَرِقٍ لأصحاب اليمين[٢].

قلت: إلى هذا ذهب الحَلِيميُّ أبو عبد الله الحسين بن الحسن[٣] في كتاب «منهاج الدين»[٤] له، واحتجَّ بما رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ» إلى قوله: «مُدْهَامَّتَانِ» قال: تانك للمقرَّبين، وهاتانِ لأصحاب اليمين. وعن أبي موسى الأشعري نحوه. ولما وصف الله الجنَّتين أشار إلى الفَرْق بينهما فقال في الأولتين: «فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ»، وفي الأُخريين: «فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ» أي: فوَّارتان، ولكنَّهما ليستا كالجاريتين؛ لأنَّ النضخ دون الجري. وقال في الأولتين: «فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ» فعمَّ ولم يخصَّ. وفي الأُخريين: «فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ» ولم يقل: من كلِّ فاكهة، وقال في الأولتين: «مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ» وهو الديباج، وفي الأُخريين: «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ» والعبقريُّ: الوَشْي[٥]، ولاشكَّ أنَّ الديباج أعلى[٦] من الوشي، والرفرف: كِسَر الخِباء، ولاشكَّ أنَّ الفرش المعدَّة للاتكاء عليها أفضل من فَضْل الخِباء.

وقال في الأولتين في صفة الحور: «كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ»، وفي الأخرتين: «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ» وليس كلُّ حسنٍ كحُسن الياقوت والمرجان.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٦ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٤١ .

(٣) في النسخ: الحسن بن الحسين. وكذا وقع في التذكرة ص٤٤٠-٤٤١ والكلام منه، وما أثبتناه هو الصواب، وتنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٣١ .

(٤) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٤٧٤ - ٤٧٦ .

(٥) سيأتي التعريف بها قريباً.

(٦) في المنهاج: أغلى.

وقال في الأولتين: «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ» وفي الأُخرتين: «مُدْهَامَّتَانِ» أي: خضروان، كأنَّهما من شدَّة خضرتهما سوداوان، ووصف الأولتين بكثرة الأغصان، والآخرتين بالخضرة وحدها، وفي هذا كلِّه تحقيق للمعنى الذي قصدناه بقوله: «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ» ولعلَّ ما لم يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر مما ذكر.

فإن قيل: كيف لم يَذكُر أهل هاتين الجنَّتين كما ذَكَر أهل الجنَّتين الأولتين؟ قيل: الجنان الأربع لمن خاف مقام ربِّه إلا أن الخائفين لهم مراتب، فالجنَّتان الأُوليان لأعلى العباد رتبة في الخوف من الله تعالى، والجنَّتان الأُخريان لمن قصرت حاله في الخوف من الله تعالى[١]. ومذهب الضحَّاك أنَّ الجنَّتين الأُولتين من ذهب وفضَّة، والأُخرتين من ياقوت وزمرد، وهما أفضل من الأولتين، وقوله: «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ» أي: ومن أمامهما ومن قِبلهما[٢]. وإلى هذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول»[٣] فقال: ومعنى «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ» أي: دون هذا إلى العرش، أي: أقرب وأدنى إلى العرش. وأخذ يفضِّلهما على الأولتين بما سنذكره عنه. وقال مقاتل: الجنَّتان الأولتان جنَّة عدن وجنَّة النعيم، والآخرتان جنَّة الفردوس وجنَّة المأوى[٤].

قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي: خضراوان من الرِّيِّ، قاله ابن عباس وغيره. وقال مجاهد: مُسْوَدَّتان. والدُّهْمة في اللغة: السواد[٥]، يقال: فرس أدهَم، وبعير أدهَم، وناقة دَهْماء، أي: اشتدَّت ورقته[٦] حتى ذهب البياض الذي فيه، فإن زاد على ذلك

(١) إلى هنا نهاية النقل من المنهاج في شعب الإيمان، وما بعده من التذكرة ص٤٤١ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٦ .

(٣) ص١٢٩ .

(٤) التذكرة ص٤٤١ ، وذكر الماوردي قول مقاتل في النكت والعيون ٥/ ٤٤١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٤١ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٥٥ ، والبيهقي في البعث والنشور (٣٠٨)، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٥٧ .

(٦) في (م): زرقته، والتصويب من النسخ والصحاح (دهم)، والكلام منه.

حتى اشتدَّ السواد فهو جَوْن. وادْهَمَّ الفرسُ ادهمَاماً، أي: صار أدهم. وادهامَّ الشيءُ ادهِماماً[١]، أي: اسوادَّ، قال الله تعالى: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أي: سوداوان من شدَّة الخضرة من الرِّيِّ، والعرب تقول لكلِّ أخضر: أسودُ. وقال لَبيد يرثي قتلى هَوازِن:

وجــاؤوا بــه فــي هَــوْدَجٍ وَوَرَاءَهُ ... كَتَائِبُ خُضْرٌ في نَسِيجِ السَّنَوَّرِ[٢]

السَّنَوَّر: لَبُوسٌ من قِدٍّ كالدِّرْع. وسمِّيت قُرَى العراق سواداً؛ لكثرة خضرتها[٣]. ويقال للَّيل المظلم: أخضر[٤]. ويقال: أبادَ الله خضراءَهم، أي: سوادهم[٥].

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي: فوَّارتان بالماء، عن ابن عباس[٦]. والنضخ بالخاء أكثر من النضح بالحاء[٧]. وعنه أنَّ المعنى نضَّاختان بالخير والبركة، وقاله الحسن ومجاهد[٨]. ابن مسعود وابن عباس أيضاً وأنس: تَنضَخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنَّة، كما يَنضَخ رشُّ المطر[٩]. وقال سعيد

---

(١) في (م): ادهيماماً.

(٢) الصحاح (سنر) وما بعده منه. ولم نقف على البيت في ديوان لبيد.

(٣) الصحاح (دهم).

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ١٠٥ .

(٥) الصحاح (خضر).

(٦) التذكرة ص٤٤٢ ، وما بعده منه أيضاً حتى قوله: بأنواع الفواكه والماء. وذكر قول ابن عباس الماورديُّ في النكت والعيون ٥/ ٤٤١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٥٩ ، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٨ (١٨٧٥٥)، والبيهقي في البعث والنشور (٣٠٨).

(٧) الكشاف ٤/ ٥٠ .

(٨) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١١ عن مجاهد، والنكت والعيون ٥/ ٤٤١ عن الحسن والكلبي، وزاد المسير ٨/ ١٢٤ عن الحسن.

(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٤١ عن أنس، والوسيط ٤/ ٢٢٨ عن ابن عباس، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧٦ عن ابن مسعود وأنس، وأخرجه ـ عن الأخير ـ ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٨ (١٨٧٥٧).

ابن جُبير: بأنواع الفواكه والماء[١]. الترمذيُّ: قالوا: بأنواع الفواكه والنعيم والجَوارِي المزيَّنات والدوابّ المسرَجات والثياب الملوَّنات. قال الترمذيُّ: وهذا يدلُّ على أنَّ النضخ أكثر من الجري. وقيل: تنبعان ثم تجريان[٢].

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قال بعض العلماء: ليس الرمان والنخل من الفاكهة؛ لأنَّ الشيء لا يُعطَف على نفسه، إنَّما يُعطَف على غيره. وهذا ظاهر الكلام[٣]. وقال الجمهور: هما من الفاكهة، وإنَّما أعاد ذكر النخل والرمان؛ لفَضْلهما وحُسْن موقعهما على الفاكهة؛ كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨] وقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨] وقد تقدَّم[٤].

وقيل: إنَّما كرَّرهما؛ لأنَّ النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البُرِّ عندنا؛ لأنَّ النخل عامَّة قُوْتهم، والرمان كالثمرات[٥]، فكان يكثر غرسهما عندهم؛ لحاجتهم إليهما، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي يعجبون بها، وإنَّما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان؛ لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن، فأخرجهما في الذكر من الفواكه، وأَفرد الفواكه على حِدَتها.

وقيل: أُفرِدا بالذكر؛ لأنَّ النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكُّه[٦]؛ ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله، وهي المسألة:

الثانية: إذا حلف أن لا يأكلَ فاكهةً، فأكل رمَّاناً أو رُطَباً، لم يحنث. وخالفه

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٤١، وأخرجه عنه ابن ابن شيبة ١٣/ ١٣٣، والطبري ٢٢/ ٢٥٩.

(٢) التذكرة ص٤٤١.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤١٥، وللهراسي ٤/ ٣٩٧، والكلام في التذكرة ص٤٤٢، وما بعده منه أيضاً.

(٤) ٤/ ١٧٤ و ٢/ ٢٦٢.

(٥) في النسخ الخطية: كالتمرات، والمثبت من (م) والتذكرة ص٤٤٢ والكلام منه.

(٦) الكشاف ٤/ ٥٠، وما بعده منه أيضاً.

صاحباه والناس. قال ابن عباس: الرمَّانة في الجنَّة مثل البعير المُقتب[١].

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا سفيان، عن حماد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: نخل الجنَّة جذوعها زمرد أخضر، وكرانيفها ذهب أحمر، وسَعَفها كسوة لأهل الجنَّة، منها مُقطَّعاتهم وحُلَلهم، وثمرها أمثال القِلال والدِّلاء، أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزُّبْد، ليس فيه عَجَم[٢].

قال: وحدَّثنا المسعوديُّ، عن عمرو بن مرَّة، عن أبي عبيدة، قال: نخل الجنَّة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال، كلَّما نزعت ثمرة، عادت مكانها أخرى، وإنَّ ماءها ليجري في غير أخدود، والعنقود اثنا عشر ذراعاً[٣].

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ» يعني النساء، والواحدة: خَيْرة، على معنى: ذوات خير[٤]. وقيل: خَيِّرات، بمعنى خيرات، فخفِّف، كهين ولين[٥].

---

(١) أورد ابن كثير في التفسير ٧/٥٠٨ عن ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن أبي هارون، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كمثل البعير المقتب.

(٢) الزهد لابن المبارك (١٤٨٨)، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/٣٣٢٨ (١٨٧٥٨)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٥ - ٤٧٦ من طريق سفيان، به، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. اهـ وجاء عند ابن المبارك وابن أبي حاتم: وكربها، بدل: وكرانيفها. والكَرَب والكَرانيف: أصول سَعَف النخل. النهاية (كرب) و(كرنف). والعَجَم: النوى. اللسان (عجم)، والمقطَّعات: شبه الجِباب ونحوها من الخَزِّ وغيره. اللسان (قطع).

(٣) التذكرة ص٤٥٢ عن ابن المبارك بهذا الإسناد، ولكن هو في كتابه الزهد (١٤٩٠) ـ وزهد هنَّاد أيضاً (١٠٤) ـ من طريق سفيان، عن عمرو بن مرة، به، وأخرجه ابن المبارك في الزهد أيضاً برقم (١٤٨٩) من طريق سفيان، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٤٢ ، والتذكرة ص٤٤٢ .

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٣ .

ابن المبارك: حدثنا الأوزاعيُّ، عن حسان بن عطيَّة، عن سعيد بن عامر قال: لو أنَّ خَيْرة من «خَيْرَات حِسَان» اطَّلعت من السماء لأضاءت لها، ولقهر ضوءُ وجهها الشمسَ والقمرَ، ولَنصِيفٌ تُكساه خيرة خيرٌ من الدنيا وما فيها[١].

«حِسان» أي: حسَان الخَلْق[٢]، وإذا قال الله تعالى: «حِسَانٌ» فمن ذا الذي يقدر أن يصف حُسْنهنَّ[٣]! وقال الزهريُّ وقتادة: «خَيْرَاتٌ» الأخلاق «حِسان» الوجوه[٤]. وروي ذلك عن النبيِّ ﷺ من حديث أمِّ سلمة[٥]. وقال أبو صالح: لأنهنَّ عَذَارى أبكار[٦].

وقرأ قتادة وابن السَّمَيْفَع وأبو رجاء العُطارديُّ وبكر بن حبيب السهميُّ: «خَيِّرَاتٌ» بالتشديد على الأصل[٧]. وقد قيل: إنَّ خَيْرات جمع خَيْر، والمعنى: ذوات خَير. وقيل: مختارات[٨].

قال الترمذيُّ: فالخيرات: ما اختارهنَّ الله فأبدع خَلْقهن باختياره، فاختيار الله

(١) الزهد لابن المبارك (٢٦١ زوائد نعيم) موقوفاً، ورفعه البزار (٣٥٢٨ كشف الأستار)، والطبراني في الكبير (٥٥١٢) من طريق مالك بن دينار، عن شهر بن حوشب، عن سعيد بن عامر مرفوعاً.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٧ : رواه الطبراني مطولاً... ورواه البزار باختصار كثير، وفيهما: الحسن عن عنبسة الوراق، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، وفي بعضهم ضعف. اهـ قلنا: ليس في إسناد الطبراني: الحسن بن عنبسة، بل فيه حماد بن الحسن بن عنبسة، وهو ثقة، وفيه الحارث بن نبهان، وهو متروك، ولكن تابعه جعفر بن سليمان. اهـ. والنصيف: الخمار. اللسان (نصف).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠٤ .

(٣) التذكرة ص٤٤٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٤٢ عن قتادة، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٦ ، والطبري ٢٢/ ٢٦٢ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٦٣ ، والطبراني في الكبير ٢٣/ ٣٦٧ (٨٧٠) مطولاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٩ : رواه الطبراني، وفيه سليمان بن أبي كريمة، ضعَّفه أبو حاتم وابن عدي.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٤٢ .

(٧) القراءات الشاذة ص١٥٠ عن أبي عثمان النهدي، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٥ ، وزاد المسير ٨/ ١٢٥ ، والبحر المحيط ٨/ ١٩٨ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٤٢ .

لا يُشبِه اختيار الآدميين. ثم قال: «حِسَانٌ» فوصفهنَّ بالحُسن، فإذا وصف خالق الحُسْنِ شيئاً بالحُسْنِ، فانظر ما هناك؟! وفي الأولتين ذكر بأنهنَّ «قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» و«كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ والْمَرْجَانُ» فانظر كم بين الخيرة وهي مختارة الله، وبين قاصرات الطرف(١)؟!

وفي الحديث: «إنَّ الحور العين يأخذ بعضهنَّ بأيدي بعض، ويتغنَّين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها: نحن الراضيات فلا نسخط أبداً، ونحن المقيمات فلا نَظعن أبداً، ونحن الخالدات فلا نموت أبداً، ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبداً، ونحن خَيْرَات حسان، حبيبات لأزواج كرام». خرَّجه الترمذيُّ بمعناه من حديث عليٍّ ﷺ(٢). وقالت عائشة رضي الله عنها: إنَّ الحور العين إذا قُلْنَ هذه المقالة أجابهنَّ المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصلِّيات وما صَلَّيتنَّ، ونحن الصائمات وما صُمتنَّ، ونحن المتوضِّآت وما توضأتنَّ، ونحن المتصدِّقات وما تصدَّقتنَّ. فقالت عائشة رضي الله عنها: فَغَلَبْنَهُنَّ واللهِ(٣).

الثانية: واختلف أيُّهما أكثر حسناً وأبهر جمالاً، الحور أو الآدميات؟ فقيل: الحور؛ لما ذكر من وصفهنَّ في القرآن والسنَّة، ولقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه على الميت في الجنازة: «وأَبْدِلْه زوجاً خيراً من زوجه». وقيل: الآدميَّات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف، ورويَ مرفوعاً. وذكر ابن المبارك: وأخبرنا رِشْدين، عن ابن أَنْعُم، عن حبان بن أبي جبلة، قال: إنَّ نساء الدنيا من دخل منهنَّ الجنَّة فُضِّلنَ على الحور العين بما عَمِلنَ في الدنيا(٤).

---

(١) التذكرة ص٤٤٢ .

(٢) الترمذي (٢٥٦٤)، وهو عند أحمد (١٣٤٣)، وهناد في الزهد (٩). قال الترمذي: حديث علي حديث غريب.

(٣) لطائف الإشارات ٣/ ٥١٥ ، والتذكرة ص٤٧٦ ، ومجمع البيان ٢٧/ ١٠٧ .

(٤) التذكرة ص٤٧٦ - ٤٧٧ ، والحديث المرفوع سلف ١٩/ ١٣٩ ، وقول ابن أبي جبلة في الزهد لابن المبارك (٢٥٥ زوائد نعيم).

وقد قيل: إنَّ الحور العين المذكورات في القرآن هنَّ المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يُخْلَقْن في الآخرة على أحسن صورة، قاله الحسن البصريُّ. والمشهور أنَّ الحور العين لَسْنَ من نساء أهل الدنيا، وإنَّما هنَّ مخلوقات في الجنة؛ لأنَّ الله تعالى قال: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ» وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات، ولأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ أقلَّ ساكِني الجنَّةِ النِّساء»[١] فلا يصيب كلُّ واحد منهم امرأة، ووعد الحور العين لجماعتهم، فثبت أنَّهنَّ من غير نساء الدنيا.

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ «حُورٌ» جمع حوراء، وهي: الشديدة بياض العين، الشديدة سوادها، وقد تقدَّم[٢]. «مَقْصُورَاتٌ»: محبوسات مستورات «فِي الْخِيَام» في الحجال، لَسْنَ بالطوَّافات في الطرق، قاله ابن عباس[٣]. وقال عمر رضي الله عنه: الخيمة: دُرَّة مجوَّفة[٤]. وقاله ابن عباس. وقال: هي فرسخ في فرسخ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب[٥].

وقال الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله في قوله تعالى: «حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ»: بلغنا في الرواية أنَّ سحابة أمطرت من العرش فخلقت الحور من قَطَرات الرحمة، ثم ضرب على كلِّ واحدة منهنَّ خيمة على شاطئ الأنهار، سعتها أربعون ميلاً، وليس لها باب، حتى إذا دخل وليُّ الله بالخيمة[٦]، انصدعت الخيمة عن باب

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٨)، وأحمد (١٩٨٣٧) عن عمران بن حصين رضي الله عنه.
(٢) ١٩/ ١٣٧ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٤٢ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٦٦ ، وسيأتي معنى: الحجال، قريباً.
(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٦٨ - ٢٦٩ .
(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١٢ ، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٧ ، والطبري ٢٢/ ٢٧١ .
(٦) في (م): بالجنة. وكذا هي في التذكرة ص٥٠٩ ، والمثبت من النسخ الخطية، والتذكرة ص٤٤٢-٤٤٣ .

لِيَعلَم وليُّ الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها، فهي مقصورة قد قُصِرَ بها عن أبصار المخلوقين. والله أعلم. وقال في الأُولتين: «فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» قصرنَ طَرْفهنَّ على الأزواج، ولم يذكر أنهنَّ مقصورات، فدلَّ على أنَّ المقصورات أعلى وأفضل[١]. وقال مجاهد: «مَقْصُورَاتٌ» قد قُصِرن على أزواجهنَّ، فلا يُرِدن بدلاً منهم[٢].

وفي «الصحاح»[٣]: وقَصَرْتُ الشيء أَقْصِرُه قَصْراً: حبسته، ومنه: مَقْصورة الجامع، وقَصَرْتُ الشيءَ على كذا، إذا لم تجاوز به إلى غيره، وامرأة قَصِيرة وقَصُورة، أي: مقصورة في البيت لا تُتْرَك أن تخرج، قال كُثَيِّر:

وأنتِ التي حَبَّبْتِ كلَّ قَصِيرَةٍ إليَّ وما تَدْرِي بذاكَ الْقَصَائرُ
عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الحجالِ ولم أُرِدْ قِصارَ الخُطَا شَرُّ النِّساءِ البَحاتِرُ[٤]

وأنشده الفرَّاء[٥]: قَصُورة، ذكره ابن السِّكِّيت[٦].

وروى أنس قال: قال النبيُّ ﷺ: «مررتُ ليلةَ أُسريَ بي في الجنة بنهر حافَّتاه قِبَاب المرجان، فنوديت منه: السلام عليك يا رسول الله. فقلتُ: يا جبريل مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء جوارٍ من الحور العِين استأذنَّ ربَّهنَّ في أن يُسلِّمنَ عليكَ، فأذن لهنَّ، فقلنَ: نحن الخالدات فلا نموت أبداً، ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبداً، ونحن الراضيات فلا نسخَط أبداً، أزواج رجال كرام» ثم قرأ النبيُّ ﷺ: «حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي

---

(١) التذكرة ص٤٤٢ .

(٢) سلف ١٨/ ٣٣ .

(٣) مادة: (قصر).

(٤) ديوان كُثيِّر ص١٤٩ ، والحِجال: جمع حَجَلة، وهي ستر يُضرب للعروس في جوف البيت. والبحاتر: القصيرات المجتمعات الخَلْق. الوسيط (حجل) و(بحتر).

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٠ .

(٦) في إصلاح المنطق ص٣٠٥ .

الْخيَامِ»[١]. أي: محبوسات حبسَ صيانةٍ وتكرمة.

وروي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنَّها أتتِ النبيَّ ﷺ فقالت: يا رسولَ الله! إنَّا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعدُ بيوتكم وحواملُ أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبيُّ ﷺ: «نعم، إذا أحسنتنَّ تَبعُّلَ أزواجكنَّ، وطلبتنَّ مرضاتهم»[٢].

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي: لم يمسسهنَّ، على ما تقدَّم قبل.

وقراءة العامة: «يَطْمِثْهُنَّ» بكسر الميم. وقرأ أبو حيوة الشاميُّ وطلحة بن مُصرِّف والأعرج والشيرازيُّ عن الكسائيِّ بضمِّ الميم في الحرفين. وكان الكسائيُّ يكسر إحداهما ويضمُّ الأخرى، ويُخيِّر في ذلك، فإذا رفع الأولى كسر الثانية، وإذا كسر الأولى رفع الثانية[٣]. وهي قراءة أبي إسحاق السَّبيعي. قال أبو إسحاق: كنت أصلِّي خَلْفَ أصحاب عليٍّ فيرفعون الميم، وكنت أَصَلِّي خَلْف أصحاب عبد الله فيكسرونها، فاستعمل الكسائيُّ الأثرين[٤].

وهما لغتان طَمُث وطَمِث[٥]، مثل يَعرُشُون ويَعْكِفُون، فمن ضمَّ؛ فللجمع بين اللغتين، ومن كسر؛ فلأنَّها اللغة السائرة. وإنَّما أعاد قوله: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ» ليبيِّن أنَّ صفة الحور المقصورات في الخيام كصفة الحور القاصرات الطرف[٦]. يقول: إذا

---

(١) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٣٧٦)، وفي إسناده: الكديمي، وهو محمد بن يونس، ضعيف وكان يهتم بالوضع. تهذيب التهذيب ٣/ ٧٤١، والمجروحين ٢/ ٣١٢-٣١٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٤٣، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٨٧٤٣) مطولاً، والقواعد: جمع قاعد، وهي المرأة الكبيرة المُسنَّة. النهاية (قعد). وتبعُّل أزواجكنَّ: أي: مصاحبتهم في الزوجية والعِشرة. والبعل: الزوج، ويجمع على بُعولة. النهاية (بعل).

(٣) السبعة ص٦٢١، والتيسير ص٢٠٧، والنشر ٢/ ٣٨١ - ٣٨٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٥، وأخرجه عن أبي إسحاق الفرَّاءُ في معاني القرآن له ٣/ ١١٨ - ١١٩ بنحوه مختصراً.

(٥) الحجة للفارسي ٦/ ٢٥٣، والكشف لمكي ٢/ ٣٠٣.

(٦) مجمع البيان ٢٧/ ١٠٨.

ضجرن[١] كانت لهنَّ الخيام في تلك الحال.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ الرفرف: المحابس[٢]. وقال ابن عباس: الرفرف: فضول الفَرْش والبسط[٣]. وعنه أيضاً الرفرف: المحابس، يتَّكئون على فضولها، وقاله قتادة[٤]. وقال الحسن والقُرظيُّ: هي البُسُط[٥]. وقال ابن عيينة: هي الزرابيُّ. وقال ابن كيسان: هي المرافق[٦]، وقاله الحسن أيضاً[٧]. وقال أبو عبيدة: هي حاشية الثوب. وقال الليث: ضَرْب من الثياب الخضر تُبسَط. وقيل: الفُرُش المرتفعة. وقيل: كلُّ ثوب عريض عند العرب فهو رفرف[٨]. قال ابن مقبل:

وإنّا لنَزّالونَ تَغْشى نِعالَنا ... سَوَاقِطُ من أصناف رَيْطٍ ورفرفُ[٩]

وهذه أقوال متقاربة. وفي «الصحاح»[١٠]: والرفرف: ثياب خُضَر تتَّخذ منها المحابس، الواحدة: رَفْرَفة. وقال سعيد بن جبير وابن عباس أيضاً: الرفرف: رياض الجنة[١١].

---

(١) في (ف): ضجرت، وفي (م): قصرن.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٤، والوسيط ٤/ ٢٣٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٤٣، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٧٤، والبيهقي في البعث والنشور (٣٣٨).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٤٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٣٦، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٧٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٨، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٧، والطبري ٢٢/ ٢٧٤ عن الحسن.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٨.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٧٦.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٨، ومجمع البيان للطبرسي ٢٧/ ١٠٥ وما بعده منه أيضاً.

(٩) ديوان تميم بن أبي مقبل ص١٩٨، وفيه: سوابغ، بدل: سواقط. وسبغ الشيء: طال إلى الأرض واتَّسع. والريط: جمع ريطة، وهي كل ثوب ليِّن رقيق.

(١٠) مادة: (رفف).

(١١) زاد المسير ٨/ ١٢٧، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٧٠ زوائد نعيم)، والطبري ٢٢/ ٢٧٣ عن سعيد بن جبير.

واشتقاق الرفرف من رَفَّ يَرِفُّ: إذا ارتفع، ومنه: رَفْرَفة الطائر؛ لتحريكه جناحَيْه في الهواء. وربما سمّوا الظَّلِيم رَفراقاً بذلك؛ لأنَّه يرفرف بجناحيه ثم يَعْدُو. ورَفْرَف الطائر أيضاً إذا حرَّك جناحَيْه حول الشيء يريد أن يقع عليه. والرفرف أيضاً: كِسَر الخباء، وجوانب الدِّرْع وما تدلَّى منها، الواحدة: رَفْرَفة. وفي الخبر في وفاة النبيِّ ﷺ: فرفع الرفرف فرأينا وجهَه كأنَّه وَرَقة [تُخَشْخِش] أي: رفع طرف الفسطاط[(١)].

وقيل: أصل الرفرف من رَفَّ النبتُ يَرِفُّ: إذا صار غضًّا نضيراً، حكاه الثعلبيُّ. وقاله القتبيُّ. يقال للشيء إذا كثر ماؤه من النَّعمة والغَضَاضة حتى كاد يهتز: رَفَّ يرِفُّ رفيفاً، حكاه الهرويُّ.

وقد قيل: إنَّ الرفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمِرْجاح يميناً وشمالاً، ورَفْعاً وخفضاً، يتلذَّذ به مع أنيسته، قاله الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» وقد ذكرناه في «التذكرة»[(٢)]. قال الترمذيُّ[(٣)]: فالرفرف أعظم خطراً من الفرش، فذكره في الأولتين: «مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ» وقال هنا: «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ» فالرفرف هو شيء إذا استوى عليه الوليُّ رفرف به، أي: طار به هكذا وهكذا حيث ما يريد كالمِرْجاح، وأصله من رفرف بين يدي الله عزَّ وجلَّ، روي لنا في حديث المعراج أنَّ رسول الله ﷺ لما بلغ سِدْرةَ المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مسند العرش، فذكر أنَّه قال: «طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بي بين يدي ربِّي»[(٤)] ثم لَمَّا حان الانصراف، تناوله فطار به خفضاً ورفعاً يهوي به حتى أدلَّه إلى جبريلَ صلوات الله وسلامه عليه،

(١) الصحاح (رفف)، وتهذيب اللغة ١٥/ ١٧٠ ، وما بين حاصرتين منه. وخبر وفاته ﷺ أورده ابن الجوزي في غريب الحديث ١/ ٤٠٧ ، وابن الأثير في النهاية ٢/ ٢٤٢ ، والخشخشة: صوت السلاح ونحوه. الصحاح (خشش).

(٢) ص٥٠٩ .

(٣) التذكرة ص٤٤٣ ، وكلام الترمذي في نوادر الأصول ص٣٦ - ٣٧ بنحوه.

(٤) لم نقف عليه إلا في نوادر الأصول ص٣٦ ، ونقله عنه القرطبي في التذكرة ص٤٤٣ ، والكلام منه.

وجبريل يبكي ويرفع صوته بالتحميد، فالرفرف: خادم من الخدم بين يدي الله تعالى، له خواصُّ الأمور في محلِّ الدنو والقرب، كما أنَّ البُرَاق دابَّة يركبها الأنبياء مخصوصة بذلك في أرضه، فهذا الرفرف الذي سخَّره الله لأهل الجنَّتين الدانيتين هو متكؤهما وفرشهما، يرفرف بالوليّ على حافَّات تلك الأنهار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخيرات الحسان. ثم قال: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ والعبقريُّ: ثياب منقوشة تبسط، فإذا قال خالق النقوش: إنَّها حسان، فما ظنُّك بتلك العباقر!.

وقرأ عثمان ﷺ والجحدريُّ والحسن وغيرهم: «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ» بالجمع، غيرَ مصروف، كذلك: «وَعَبَاقِرِيَّ حِسَانٍ»[١] جمع رَفْرَف وعَبْقريّ. و«رَفْرَف» اسم للجمع، و«عَبْقَرِيّ» واحد يدلُّ على الجمع، المنسوب إلى عَبْقَر. وقد قيل: إنَّ واحد رَفْرف وعَبْقريٍّ: رَفْرَفة وعَبْقريَّة[٢]، والرفارف والعَبَاقِر جمع الجمع. والعبقريُّ: الطَّنَافس الثخان منها، قاله الفرَّاء[٣]. وقيل: الزَّرَابي، عن ابن عباس وغيره[٤]. الحسن: هي البُسُط. مجاهد: الدِّيباج[٥]. القتبيُّ: كلُّ ثوب وشْي عند العرب عبقريٌّ[٦]. قال أبو عبيد[٧]: هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي، فينسب إليها كلُّ وَشْي حُبِك. قال ذو الرُّمَّة:

حتى كأنَّ رِياضَ الْقُفِّ أَلْبسَها ... مِن وَشْيِ عَبْقَر تَجْلِيلٌ وتَنْجِيدُ[٨]

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٠ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٥ ، والبحر المحيط ٨/ ١٩٩ .

(٢) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٠٨ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٠ ، وقاله ابن قتيبة في غريب القرآن ص٤٤٤ .

(٤) زاد المسير ٨/ ١٩٢ عن ابن عباس وعطاء وقتادة والضحاك وابن زيد، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٧٦ عن ابن عباس وابن جبير وقتادة.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٦ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٧ ، والطبري ٢٢/ ٢٧٧ عن مجاهد.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٨ ، وفيه: موشَّى، بدل: وشْي.

(٧) في غريب الحديث ١/ ٨٨ - ٨٩ و ٣/ ٤٠٠ - ٤٠١ .

(٨) ديوان ذي الرمة ٢/ ١٣٦٦ ، قال شارحه: والقُفُّ: ما غلظ من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلاً في ارتفاعه. والتنجيد: التزيين. فشبَّه الزهر بوشي عبقر.

ويقال: عَبْقر: قرية بناحية اليمن تُنسَج فيها بُسُط منقوشة[(١)]. وقال ابن الأنباري: إنَّ الأصل فيه أنَّ عَبْقر قرية يسكنها الجِنُّ، يُنسَب إليها كلُّ فائق جليل. وقال الخليل: كلُّ جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقريٌّ[(٢)]. ومنه قول النبيِّ ﷺ في عمر ﷺ: «فلم أرَ عبقريًّا من الناس يَفْرِي فَرِيَّه»[(٣)]. وقال أبو عمرو ابن العلاء وقد سئل عن قوله ﷺ: «فلم أَرَ عَبْقريًّا يَفْرِي فَرِيَّه» فقال: رئيس قوم وجليلهم[(٤)]. وقال زُهَير:

بِـخَـيْـلٍ عـلـيـهـا جِـنَّـةٌ عَـبْـقَـرِيَّـةٌ جَديرون يوماً أَنْ يَنالُوا فَيَسْتَعْلُوا[(٥)]

وقال الجوهريُّ[(٦)]: العبقريُّ: موضع تزعم العرب أنَّه من أرض الجِنِّ.

قال لَبِيد:

كُـهُـولٌ وشُـبَّـان كـجِـنَّـةِ عَـبْـقَـرِ[(٧)]

ثم نسبوا إليه كلَّ شيء يعجبون من حِذْقه وجودة صنعته وقوَّته فقالوا: عَبْقريٌّ. وهو واحد وجمع. وفي الحديث: «إنَّه كان يسجد على عبقريٍّ»[(٨)] وهو هذه البسط

---

(١) معجم البلدان ٤/ ٧٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٨.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٣٩٣)، وأحمد (٤٨١٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أيضاً البخاري (٣٦٣٤)، وأحمد (٨٢٣٩) عن أبي هريرة ﷺ، وهو عند مسلم (٢٣٩٢) بنحوه.

(٤) تهذيب اللغة ٣/ ٢٩٣، وما بعده منه أيضاً، وغريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٨٧.

(٥) شرح ديوان زهير ص١٠٣، قال شارحه: الجِنَّة: جمع جِنٍّ. وجديرون: خليقون. ويستعلوا: يظفروا ويَعْلُوا.

(٦) في الصحاح (عبقر).

(٧) شرح ديوان لبيد ص٥٤، وهذا عجز البيت، وصدره:

ومَـن فَـادَ مِـن إخـوانِـهـم وبـنـيـهِـمِ

قال شارحه: فاد: مات.

(٨) الصحاح (عبقر)، وما بعده منه أيضاً، وغريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٨٩ و ٣/ ٤٠٠، والحديث أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٣٦ عن عمر ﷺ أنه كان يسجد على عبقري. وأخرج ابن أبي شيبة ١/ ٤٠٠ عن أنس أن النبي ﷺ نضح بساطاً لهم فصلى عليه، وعن ابن عباس بنحوه.

التي فيها الأصباغ والنقوش حتى قالوا: ظُلْم عبقريّ، وهذا عبقريُّ قومٍ، للرجل القويِّ. وفي الحديث: «فلم أرَ عبقريًّا يَفْرِي فَرِيَّه»[١].

ثم خاطبهم الله بما تعارفوه فقال: «وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ»، وقرأ بعضهم: «عَبَاقِرِيٍّ» وهو خطأ؛ لأنَّ المنسوب لا يُجمَع على نسبته[٢]. وقال قُطْرُب: ليس بمنسوب وهو مثل: كُرْسيّ وكَراسِيّ، وبُخْتيّ وبَخَاتيّ. وروى أبو بكرة[٣] أنَّ رسول الله ﷺ قرأ: «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ خُضْرٍ وَعَبَاقِرَ حِسَانٍ»[٤] ذكره الثعلبيُّ. وضمُّ الضادَ من «خضر» قليلٌ.

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ «تَبَارَكَ» تفاعل من البركة، وقد تقدّم[٥]. «ذِي الْجَلَالِ» أي: العظمة. وقد تقدَّم «وَالْإِكْرَامِ»[٦]. وقرأ ابن[٧] عامر: «ذُو الْجَلَالِ» بالواو؛ جعله وصفاً للاسم، وذلك تقويةٌ لكون الاسم هو المسمَّى. الباقون «ذِي الْجَلَالِ»؛ جعلوا «ذِي» صفة لـ «رَبِّكَ». وكأنَّه يريد به الاسم الذي افتتح به

---

(١) سلف قريباً.

(٢) الصحاح (عبقر)، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٥٠ .

(٣) في (د) و(م): أبو بكر، والمثبت من (ق) و(ظ) و(خ)، والقراءة في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٨ ، والقراءات الشاذة ص١٥٠ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٥ ، وأخرجها أبو حفص الدوري في جزء فيه قراءات النبي ﷺ (١١٤)، والبزار (٣٦٧٣)، والحاكم ٢/ ٢٥٠ من طريق عبد الله بن حفص، عن عاصم الجحدري، عن أبي بكرة، به.

قال النحاس: وإسنادها ليس بالصحيح. وقال الطبري في التفسير ٢٢/ ٢٧٧ : وذكر عن النبي ﷺ خبر غير محفوظ، ولا صحيح السند. وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: منقطع، وعاصم لم يدرك أبا بكرة. اهـ. ووردت القراءة في مصادر التخريج: وعباقري، بالياء، بدل: وعباقر.

(٤) المحتسب ٢/ ٣٠٦ .

(٥) ١٥/ ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٦) ص١٣٣ من هذا الجزء.

(٧) قوله: ابن. ليست في (م) و(خ) و(د). والمثبت من (ق) و(ظ)، والقراءة في السبعة ص٦٢١ ، والتيسير ص٢٠٦ ، والحجة للفارسي ٦/ ٢٥٣ .

السورة، فقال: «الرَّحْمَنُ» فافتتح بهذا الاسم، فوصف خَلْق الإنسان والجنِّ[١]، وخَلْق السماوات والأرض وصنعه، وأنَّه «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»، ووصف تدبيره فيهم، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها، وصفة النار، ثم ختمها بصفة الجِنان. ثم قال في آخر السورة: «تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» أي: هذا الاسم الذي افتتح به هذه السورة، كأنَّه يُعلِمهم أنَّ هذا كلَّه خرج لكم من رحمتي، فمِن رحمتي خلقتكم، وخلقتُ لكم السماء والأرض والخَلْق والخليقة والجنَّة والنار، فهذا كلُّه لكم من اسم الرحمن فمدح اسمه ثم قال: «ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» جليل في ذاته، كريم في أفعاله.

ولم يختلف القرَّاء في إجراء النعت على الوجه بالرفع في أوَّل السورة، وهو يدلُّ على أنَّ المراد به وجهُ الله الذي يلقى المؤمنون عندما ينظرون إليه، فيستبشرون بحُسْن الجزاء، وجميل اللقاء، وحسن العطاء، والله أعلم.

(١) بعدها في (د) و(خ): والشياطين.

سورة الواقعة

مكِّيَّة، وهي سبع وتسعون آية

مكيَّة في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيةً منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1] [الآية: ٨٢]. وقال الكلبيُّ: مكيَّة إلا أربع آيات منها، آيتان: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [٨١-٨٢] نزلتا في سفره إلى مكَّة، وقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [٣٩-٤٠] نزلتا في سفره إلى المدينة.

وقال مسروق: من أراد أن يعلم نبأ الأوَّلين والآخرين، ونبأ أهل الجنَّة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة[2].

وذكر أبو عمر ابن عبد البر في «التمهيد»[3] و«التعليق»، والثعلبيُّ أيضاً: أن عثمان دخل على ابن مسعود يعوده في مرضه الذي مات فيه فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: أفلا نأمر لك بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه، حبستَه عني في حياتي، وتدفعه لي عند مماتي؟ قال: يكون لبناتك من بعدك. قال: أتخشى على بناتي الفاقةَ من بعدي؟ إنِّي أمرتهنَّ أن يقرأنَ سورةَ «الواقعة» كلَّ ليلة، فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كلَّ ليلة لم تُصِبْه فاقة أبداً»[4].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٤٥ .

(٢) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٢٣١ .

(٣) ٥/ ٢٦٩ .

(٤) وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان (٢٤٩٧) بتمامه، و(٢٤٩٨) و(٢٤٩٩) و(٢٥٠٠) مقتصرين على الحديث المرفوع، وأخرجه أيضاً ابن الضريس في فضائل القرآن (٢٢٦)، وابن السني في عمل =

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي: قامت القيامة، والمراد النفخة الأخيرة(١). وسمِّيت واقعة؛ لأنَّها تقع عن قُرب. وقيل: لكثرة ما يقع فيها من الشدائد(٢). وفيه إضمار، أي: اذكروا إذا وقعت الواقعة(٣). وقال الجرجانيُّ: «إذا» صلة، أي: وقعت الواقعة، كقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، و﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١] وهو كما يقال: قد جاء الصوم، أي: دنا واقترب. وعلى الأوَّل «إِذَا» للوقت، والجواب قوله: «فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ».

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ الكاذبة مصدر بمعنى الكذب(٤)، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضعَ المصدر، كقوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١] أي: لغو، والمعنى: لا يسمع لها كذب، قاله الكسائيُّ. ومنه قول العامَّة: عائذاً بالله، أي: معاذ الله، وقم قائماً: أي: قم قياماً. ولبعض نساء العرب ترقِّصُ ابنها:

قُمْ قائماً قُمْ قائما ... أصبت عبداً نائما

= اليوم والليلة (٦٨٠) بنحوه مختصراً. وفي إسناده: السري بن يحيى، قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٦٣: وقد اختلف في شيخه، هل هو شجاع، أو: أبو شجاع، واختلفوا أيضاً في شيخ شجاع، هل هو أبو فاطمة، أو: أبو ظبية، ثم اختلفوا في ضبط أبي ظبية، فعند الدارقطني بالطاء المهملة، بعدها تحتانية، ثم موحدة، وإنه عيسى بن سليمان الجرجاني، وأن روايته عن ابن مسعود منقطعة... وعند البيهقي أنه بالمعجمة، بعدها موحدة، ثم تحتانية، وأنه مجهول. وقال أحمد بن حنبل: هذا حديث منكر، وشجاع لا أعرفه. اهـ.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٩.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٤٥.

(٣) الكشاف ٤/ ٥١.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٢١.

وقيل: الكاذبة صفة، والموصوف محذوف، أي: ليس لوقعتها حال كاذبة، أو نفس كاذبة، أي: كلُّ من يخبر عن وقعتها صادق[١]. وقال الزجَّاج[٢]: «لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ» أي: لا يَردُّها شيء. ونحوه قول الحسن وقتادة[٣]. وقال الثوريُّ: ليس لوقعتها أحد يكذِّب بها. وقال الكسائيُّ أيضاً: ليس لها تكذيب، أي: ينبغي ألا يكذِّب بها أحد. وقيل: إنَّ قيامها جِدٌّ لا هزْلَ فيه.

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ قال عِكرمة ومقاتل والسُّدِّيُّ: خفضت الصوت فأسمعتْ من دنا، ورفعتْ فأسمعت من نأى[٤]. يعني: أَسمعت القريب والبعيد. وقال السُّدِّيُّ: خفضت المتكبِّرين، ورفعت المستضعفين. وقال قتادة: خفضت أقواماً في عذاب الله، ورفعت أقواماً إلى طاعة الله[٥]. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: خفضت أعداءَ الله في النار، ورفعت أولياءَ الله في الجنَّة. وقال محمد بن كعب: خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفوضين[٦]. وقال ابن عطاء: خفضت أقواماً بالعدل، ورفعت آخرين بالفَضْل. والخَفْض والرَّفْع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة، والعزِّ والإهانة. ونسب سبحانه الخفضَ والرفْع للقيامة؛ توسُّعاً ومجازاً على عادة العرب في إضافتها الفعل إلى المحلِّ والزمان وغيرهما مما لم يكن منه الفعل، يقولون: ليلٌ نائمٌ، ونهار صائم. وفي التنزيل: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] والخافض والرافع على الحقيقة إنَّما هو الله وحده، فرفَع أولياءَه في أعلى الدرجات، وخفض أعداءَه في أسفل الدَّرَكات.

وقرأ الحسن وعيس الثقفيُّ: «خَافِضَةً رَّافِعَةً» بالنصب[٧]. الباقون بالرفع؛ على

---

(١) الكشاف ٤/ ٥١ .

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ١٠٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٨ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٨٠ عن قتادة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٤٦ عن عكرمة، وأخرجه عنه الطبري ٢/ ٢٨١ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٩ ، والطبري ٢٢/ ٢٨١ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٤٦ ، وقول عمر أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٩ (١٧٨٦٦).

(٧) المحتسب ٢/ ٣٠٧ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٥٠ وعزاها إلى اليزيدي.

إضمار مبتدأ، ومن نصب، فعلى الحال. وهو عند الفرَّاء[١] على إضمار فعل، والمعنى: «إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ» وقعت خَافِضَةً رَّافِعَةً. والقيامة لا شكَّ في وقوعها، وأنَّها ترفع أقواماً وتضع آخرين، على ما بيَّنَّاه.

قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ أي: زُلزلت وحُركت، عن مجاهد وغيره[٢]. يقال: رَجَّه يَرُجُّه رجًا، أي: حرَّكه وزلزله. وناقة رجَّاء، أي: عظيمة السَّنَام. وفي الحديث: «مَنْ ركب البحرَ حين يَرْتَجُّ فلا ذِمَّةَ له» يعني: إذا اضطربت أمواجه[٣]. قال الكلبيُّ: وذلك أنَّ الله تعالى إذا أَوحى إليها اضطربت فَرَقًا من الله تعالى. قال المفسرون: تَرْتَجُّ كما يرتجُّ الصبيُّ في المهد حتى ينهدم كلُّ ما عليها، وينكسر كلُّ شيء عليها من الجبال وغيرها[٤]. وعن ابن عباس: الرَّجَّة: الحركة الشديدة يسمع لها صوت[٥].

وموضع «إِذَا» نصب على البدل من «إذا وَقَعَتِ»، ويجوز أن ينتصب بـ«خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ» أي: تخفض وترفَع وقت رجِّ الأرض وبسِّ الجبال؛ لأنَّ عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع، ويرتفع ما هو منخفض[٦]. وقيل: أي: وقعت الواقعة إذا رجَّت الأرض، قاله الزجَّاج[٧] والجرجانيُّ. وقيل: أي: اذكر «إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا» مصدر؛ وهو دليل على تكرير الزلزلة.

قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: فُتِّتت، عن ابن عباس[٨]. مجاهد: كما

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ١٢١ .
(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٤٥ ، وأخرجه عنه ـ وعن ابن عباس ـ الطبري ٢٢/ ٢٨٢ .
(٣) الصحاح (رجج)، والحديث أخرجه أحمد (٢٠٧٤٩)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٩٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٧٢٥)، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مطولاً، وأورده أبو عبيد في غريب الحديث ١/ ٢٧٥ وقال: وأكثر ظني أنه التجَّ ـ باللام. ا هـ. وهما بمعنًى.
(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٩ .
(٥) زاد المسير ٨/ ١٣١ .
(٦) الكشاف ٤/ ٥٢ .
(٧) في معاني القرآن له ٥/ ١٠٨ .
(٨) زاد المسير ٨/ ١٣٢ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٨٣ .

يُبَسُّ الدقيق، أي: يُلَتُّ(١).

والبَسِيْسَة: السّوِيق أو الدقيق يُلَتُّ بالسَّمن أو بالزيت، ثم يؤكل ولا يطبخ، وقد يُتَّخذ زاداً. قال الراجز:

لا تَخْبِزَا خُبْزاً وبُسَّا بَسَّا ولا تُطِيلاَ بِمُنَاخٍ حَبْسَا(٢)

وذكر أبو عبيدة(٣): أنَّه لصٌّ من غَطَفان أراد أن يخبِز فخاف أن يُعجَل عن ذلك فأكله عجيناً. والمعنى أنَّها خُلِطت فصارت كالدقيق الملتوت بشيء من الماء. أي: تصير الجبال تراباً فيختلط البعض بالبعض. وقال الحسن: وبُسَّت: قُلعت من أصلها فذهبت، نظيره: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾(٤) [طه:١٠٥]. وقال عطيَّة: بُسطت كالرمل والتراب. وقيل: البسُّ: السَّوق(٥)، أي: سيقت الجبال. قال أبو زيد: البسُّ: السَّوق، وقد بسستُ الإبل أبُسُّها ـ بالضمِّ ـ بسًّا. وقال أبو عبيد(٦): بَسَسْتُ الإبلَ وأبسست لغتان: إذا زجرتها، وقلتُ لها: بِسْ بِسْ. وفي الحديث: «يخرج قوم من المدينة إلى اليمن أو الشام أو العراق يَبُسُّون، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»(٧) ومنه الحديث الآخر: «جاءكم أهل اليمن يَبُسُّون عِيالهم»(٨) والعرب تقول: جِيْء به من حَسِّك وبَسِّك(٩). ورواهما أبو زيد بالكسر، فمعنى من حَسِّك، من حيث أحسسته، وبَسِّك، من حيث بلغه مسيرك، وقال مجاهد: سالت سيلاً. عكرمة: هُدَّت

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٩، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٦٤٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٨٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٤٧، والصحاح (بسس)، وما بعده منه أيضاً، والرجز لبعض لصوص العرب، كما ذكر ذلك الجاحظ في كتابه الحيوان ٤/ ٤٩٠-٤٩١، وذكرها المرزباني في معجم الشعراء ص٤٧٥ بنحوه ونسبها إلى الهفوان العقيلي أحد بني المنتفق وأحد اللصوص.

(٣) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧٩.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠٨.

(٦) في غريب الحديث ٣/ ٨٩-٩٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (بسس).

(٧) أخرجه البخاري (١٨٧٥)، ومسلم (١٣٨٨)، وأحمد (٢١٩١٦) عن سفيان بن أبي زهير البهزي ﵁.

(٨) لم نقف عليه بهذا اللفظ.

(٩) الصحاح (بسس)، والمثل في المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ٢/ ٣٦.

هدًّا. محمد بن كعب: سُيِّرت سيراً، ومنه قول الأغلب العجليِّ[١]:

[نـحـن بـسـسـنـا بـأثـر أطـاراً أضـاء خـمـسـاً ثـمَّـت سـارا]

وقال الحسن: قُطعت قطعاً. والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ قال عليٌّ ﷺ: الهباء المنبث: الرَّهَج الذي يسطع من حوافر الدوابِّ ثم يذهب، فجعل الله أعمالهم كذلك، وقال مجاهد: الهباء: هو الشعاع الذي يكون في الكوَّة كهيئة الغبار[٢]. وروي نحوه عن ابن عباس[٣]. وعنه أيضاً: هو ما تطاير من النار إذا اضطربت يطير منها شرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً[٤]. وقاله عطيَّة. وقد مضى في «الفرقان»[٥] عند قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الآية: ٢٣].

وقراءة العامَّة: «مُنْبَثًّا» بالثاء المثلثة، أي: متفرِّقاً من قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [لقمان: ١٠] أي: فرَّق ونشر. وقرأ مسروق والنخَعيُّ وأبو حَيْوة: «مُنْبَتًّا» بالتاء المثناة[٦]، أي: منقطعاً من قولهم: بتَّه الله، أي: قطعه، ومنه البتات.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ أي: أصنافاً ثلاثة[٧]، كلُّ صنف يُشاكِل ما هو

---

(١) النكت والعيون ٥/٤٤٦ وما بعده منه أيضاً، ولم يرد في النسخ قول الأغلب العجلي، واستدركناه منه.

(٢) النكت والعيون ٥/٤٤٧ ، وقول علي أخرجه مجاهد في التفسير ٢/ ٦٤٥ ، وعبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٦٩ ، والطبري ٢٢/ ٢٨٥ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٨٥ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٨٤ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٤٧ .

(٥) ١٥/ ٣٩٦ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٩ عن النخعي، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٤ .

(٧) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٦ .

منه، كما يُشاكِل الزوج الزوجة. ثم بيَّن من هم فقال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ فأصحاب الميمنة: هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنَّة. وأصحاب المشأمة: هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النَّار. قاله السُّدِّيُّ(١).

والمَشْأَمة: الميسرة، وكذلك الشأمة. يقال: قعد فلانٌ شأمةً. ويقال: يا فلان شائِمْ بأصحابك، أي: خُذْ بهم شَأمةً، أي: ذات الشمال(٢). والعرب تقول لليد الشمال: الشؤمى، وللجانب الشمال: الأشأم(٣). وكذلك يقال لما جاء عن اليمين: اليُمْن، ولما جاء عن الشّمال: الشؤم(٤).

وقال ابن عباس والسُّدِّيُّ: أصحاب الميمنة: هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذُّرِّيَّة من صُلْبه فقال الله لهم: هؤلاء في الجنَّة ولا أبالي(٥). وقال زيد بن أسلم(٦): هم الذين أُخِذوا من شقِّ آدم الأيمن يومئذ. وأصحاب المشأمة: الذين أُخِذوا من شقِّ آدم الأيسر. وقال عطاء ومحمد بن كعب: أصحاب الميمنة: من أُوتيَ كتابه بيمينه. وأصحاب المشأمة: من أُوتيَ كتابه بشماله. وقال ابن جريج: أصحاب الميمنة: هم أهل الحسنات. وأصحاب المشأمة: هم أهل السيئات. وقال الحسن والربيع: أصحاب الميمنة: الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة. وأصحاب المشأمة: المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة القبيحة(٧).

وفي «صحيح مسلم»(٨) من حديث الإسراء عن أبي ذرٍّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «فلما

---

(١) النكت والعيون ٥/٤٤٨ .

(٢) الصحاح (شأم).

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/٢٤٨ .

(٤) زاد المسير ٨/ ١٣٢ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) بعدها في (م): أصحاب الميمنة. ولم ترد في النسخ الخطية.

(٧) النكت والعيون ٥/٤٤٨ دون ذكر عطاء والربيع، وذكره عن الربيع ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٠ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ١٣٢ مقتصرين على الشّق الأول من قوله.

(٨) برقم (١٦٣)، هو عند البخاري أيضاً (٣٤٩).

عَلَونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أسْوِدة، وعن يساره أسْوِدة ـ قال: ـ فإذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قِبل شماله بكى ـ قال: ـ فقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصالح ـ قال: ـ قلت: يا جبريل مَن هذا؟ قال: هذا آدم عليه السلام، وهذه الأسودِة التي عن يمينه وعن شماله نَسَم بَنِيْه، فأهل اليمين أهل الجنَّة، والأسوِدة التي عن شماله أهل النار» وذكر الحديث.

وقال المبرِّد: وأصحاب الميمنة: أصحاب التقدُّم. وأصحاب المشأمة: أصحاب التأخُّر. والعرب تقول: اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك، أي: اجعلني من المتقدِّمين ولا تجعلنا من المتأخِّرين. والتكرير في «مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» و«مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» للتفخيم والتعجُّب، كقوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ . مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٢] و﴿ٱلْقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[1] [القارعة:١-٢] كما يقال: زيد ما زيد[2]! وفي حديث أمِّ زَرْع رضي الله عنها: مالِكٌ ومَا مَالِكٌ[3]! والمقصود تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب، ولأصحاب المشأمة من العقاب.

وقيل: «أَصْحَابُ» رفع بالابتداء، والخبر: «مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» كأنَّه قال: «فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» ما هم؟ المعنى: أيُّ شيء هم[4]. وقيل: يجوز أن تكون «ما» تأكيداً، والمعنى: فالذين يعطون[5] كتابَهم بأيمانهم هم أصحاب التقدُّم وعلوِّ المنزلة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «السابقون الذين إذا أُعطوا الحقَّ قبلوه، وإذا سُئِلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم» ذكره المهدويُّ[6]. وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: إنَّهم الأنبياء. الحسن وقتادة: السابقون

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/١٠٨-١٠٩.

(٢) معاني القرآن للأخفش ٢/٧٠١.

(٣) سلف ١/٢٩٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٢٤.

(٥) في (ظ): يؤتون.

(٦) وأخرجه أحمد (٢٤٣٧٩)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ١٦ و٢/١٨٦-١٨٧ عن عائشة رضي الله عنها. وفي إسناده ابن لهيعة، وهو ضعيف.

إلى الإيمان من كلِّ أمَّة(١). ونحوه عن عكرمة. محمد بن سيرين: هم الذين صَلُّوا إلى القِبْلَتَيْن؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾(٢) [التوبة: ١٠٠]. وقال مجاهد وغيره: هم السابقون إلى الجهاد، وأوَّل الناس رواحاً إلى الصلاة. وقال عليٌّ ﷺ: هم السابقون إلى الصلوات الخمس. الضحَّاك: إلى الجهاد. سعيد بن جُبير: إلى التوبة وأعمال البِرِّ، قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ثم أثنى عليهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾(٣) [المؤمنون: ٦١].

وقيل: إنَّهم أربعة، منهم سابق أمة موسى وهو حزقيل مؤمن آل فرعون، وسابق أمَّة عيسى وهو حبيب النجَّار صاحب أنطاكيَّة، وسابقان في أمَّة محمد ﷺ وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، قاله ابن عباس، حكاه الماورديُّ(٤).

وقال شُمَيْط بن العجلان: الناس ثلاثة، فرجل ابتكر للخير في حداثة سِنِّه ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا، فهذا هو السابق المقرَّب، ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم طوَّل الغفلة، ثم رجع بتوبته حتى خُتم له بها، فهذا من أصحاب اليمين، ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بها، فهذا من أصحاب الشمال(٥). وقيل: هم كلُّ من سَبق إلى شيء من أشياء الصلاح.

ثم قيل: «السَّابِقُونَ» رفع بالابتداء، والثاني توكيد له، والخبر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾. وقال الزجَّاج(٦): «السَّابِقُونَ» رفع بالابتداء، والثاني خبره، والمعنى: السابقون إلى

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٤٨.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٠، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٢٩٠ عن ابن سيرين.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٠.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٤٤٨، وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٩ (١٨٧٧٣) عن ابن عباس بنحوه.

(٥) الكشاف ٤/ ٥٢ دون عزو.

(٦) في معاني القرآن له ٥/ ١٠٩ وما قبله منه أيضاً.

طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله، «أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» من صفتهم. وقيل: إذا خرج رجل من السابقين المقرَّبين من منزله في الجنَّة كان له ضوء يعرفه به مَن دونه.

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: جماعة من الأمم الماضية. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: ممَّن آمن بمحمَّد ﷺ[1]. قال الحسن: ثُلَّة ممن قد مضى قبل هذه الأمَّة، وقليل من أصحاب محمَّد ﷺ[2]. اللهم اجعلنا منهم بكرمك. وسُمُّوا قليلاً، بالإضافة إلى مَن كان قبلهم؛ لأنَّ الأنبياء المتقدِّمين كثروا، فكثر السابقون إلى الإيمان منهم، فزادوا على عدد من سَبق إلى التصديق من أمَّتنا[3]. وقيل: لما نزل هذا شَقَّ على أصحاب رسولِ الله ﷺ فنزلت: «ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ. وثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرينَ» فقال النبيُّ ﷺ: «إنِّي لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنَّة، بل ثلثَ أهل الجنَّة، بل نصفَ أهل الجنَّة، وتقاسمونهم في النصف الثاني» رواه أبو هريرة، ذكره الماورديُّ[4] وغيره. ومعناه ثابت في «صحيح مسلم»[5] من حديث عبد الله بن مسعود. وكأنَّه أراد أنَّها منسوخة، والأشبه أنَّها محكمة؛ لأنها خبر[6]؛ ولأنَّ ذلك في جماعتين مختلفتين. قال الحسن: سابِقُو مَن مضى أكثرُ مِن سابقينا، فلذلك قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ وقال في أصحاب اليمين وهم سوى السابقين: «ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ. وثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرينَ» ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «إنِّي لأرجو أن تكون أمَّتي شطر أهل الجنَّة، ثم تلا قوله تعالى: «ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ. وثُلَّةٌ

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٩١ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤١ بنحوه.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠٩ بنحوه.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٤٤٩-٤٥٠ ، والحديث سلف ٢/ ١٢ .

(٥) برقم (٢٢١)، وهو عند البخاري أيضاً (٦٥٢٨)، وأحمد (٣٦٦١).

(٦) الكشاف ٤/ ٥٣ ، وتفسير الرازي ٢٩/ ١٤٨ بنحوه.

«مِّنَ الْآخِرِينَ» قال مجاهد: كلٌّ من هذه الأمَّة. وروى سفيان: عن أبان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ: «الثُّلّتان جميعاً من أمتي»[١] يعني: «ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ. وثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ». وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق ﷺ. قال أبو بكر ﷺ: كِلَا الثُّلتين من أمَّة محمَّد ﷺ، فمنهم من هو في أوَّل أمَّته، ومنهم من هو في آخرها، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]. وقيل: «ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ» أي: من أوَّل هذه الأمَّة. «وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ» يسارع في الطاعات حتى يلحقَ درجة الأوَّلين. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «خيركم قرْني»[٢] ثم سَوَّى في أصحاب اليمين بين الأوَّلين والآخرين. والثُّلَّة: من ثَلَلْت الشيء، أي: قطعته، فمعنى ثُلَّة كمعنى فرقة، قاله الزجَّاج.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ أي: السابقون في الجنَّة «عَلَى سُرُرٍ»، أي: مجالسهم على سرر، جمع سرير[٣]. «مَوْضُونَةٍ» قال ابن عباس: منسوجة بالذهب.

وقال عكرمة: مشبكة بالدُّرِّ والياقوت. وعن ابن عباس أيضاً: «مَوْضُونَةٍ» مصفوفة[٤]، كما قال في موضع آخر: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠]. وعنه أيضاً وعن مجاهد: مَرْمولة بالذهب[٥]. وفي التفاسير: «مَوْضُونَةٍ» أي: منسوجة بقضبان الذَّهب[٦]، مشبكة بالدُّرِّ والياقوت والزَّبرجد.

والوضْن: النسج المضاعف والنَّضد، يقال: وَضَن فلانٌ الحجرَ والآجُرَّ بعضه فوق بعض، فهو موضون، ودرع موضونة، أي: مُحكَمة النَّسْج، مثل مصفوفة[٧]، قال الأعشى:

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٣ بدون إسناد.
(٢) سلف ٤/ ٤٥٥ .
(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٠ .
(٤) زاد المسير ٨/ ١٣٥ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٩٢ ، ٢٩٤ .
(٥) أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٢٩٢ ، وهناد في الزهد (٧٧) و(٧٦). وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٦ .
(٦) الوسيط ٤/ ٢٣٣ .
(٧) تهذيب اللغة ١٢/ ٦٨-٦٩ .

وَمِــن نَــسْــجِ دَاوُدَ مَــوضُــونَــةً   تُـسَـاقُ مـع الـحـيِّ عِـيـراً فَـعِـيـرَا[١]

وقال أيضاً[٢]:

وبَـيْـضَـاء كـالـنَّـهْـي مَـوْضُـونَـةً   لـهـا قَـوْنَـسٌ فـوقَ جَـيْـبِ الـبَـدَنْ

والسرير الموضون: الذي سطحه بمنزلة المنسوج، ومنه الوَضِين: بِطانٌ من سُيور ينسج فيدخل بعضه في بعض؛ ومنه قوله:

إلـيـك تَـعْـدُوا قَـلِـقًـا وَضِـيـنُـهـا[٣]

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا﴾ أي: على السرر. ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ أي: لا يرى بعضهم قَفَا بعض، بل تدور بهم الأسرَّة، وهذا في المؤمن وزوجته وأهله، أي: يتَّكئون متقابلين. قاله مجاهد وغيره[٤]. وقال الكلبيُّ: طول كلِّ سرير ثلاث مئة ذراع، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت، فإذا جلس عليها ارتفعت.

قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٞ ۝٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ۝٢٣ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ۝٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: غلمان لا يموتون، قاله مجاهد[٥]. الحسن والكلبيُّ: لا يَهْرَمون ولا يتغيرون، ومنه قول امرئ القيس:

(١) ديوان الأعشى الكبير ص١٤٩، قال شارحه: والدروع الكثيفة قد نسجت نسجاً مضاعفاً، تُحمل فوق الجمال عِيراً من ورائها عير.

(٢) أي: الأعشى الكبير، والبيت سلف ١١/ ٤٩.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٤٨، والرجز ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٥٧٤ ونسبه لرجل من نجران، وقال: الوضين: الحزام، وذكره أيضاً ابن عبد ربِّه في العقد الفريد ٥/ ٣٣٣، عن عمر بن الخطاب فيما يرتجز به من شعر.

(٤) سلف ١٢/ ٢١٩ - ٢٢٠.

(٥) تفسير مجاهد ٢/ ٦٤٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٢٩٥.

وهَل يَنْعَمْن إلّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ قَلِيلُ الهُمُومِ ما يَبِيتُ بِأوجَالِ[1]

وقال سعيد بن جبير: مُخلَّدون: مُقرَّطون[2]، يقال للقُرْط: الخَلَدة، ولجماعة الحُليّ: الخِلدة[3]. وقيل: مسوَّرون ونحوه، عن الفراء[4]، قال الشاعر:

ومخلَّداتٌ بِاللُّجينِ كَأنَّما أعْجَازُهُنَّ أقاوِزُ الكُثْبَانِ[5]

وقيل: مقرَّطون، يعني: مُمَنْطَقون من المناطق. وقال عكرمة: «مُخَلَّدُونَ»: منعَّمون. وقيل: على سنٍّ واحدة[6]، أنشأهم الله لأهل الجنَّة يطوفون عليهم كما شاء من غير ولادة. وقال عليٌّ بن أبي طالب ﷺ والحسن البصريُّ: الولدان هاهنا: ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً ولا حسنة لهم ولا سيئة[7]. وقال سلمان الفارسيُّ: أطفال المشركين هم خدم أهل الجنَّة[8]. قال الحسن: لم يكن لهم حسنات يُجزَون بها، ولا سيئات يعاقبون عليها، فوضعوا في هذا الموضع[9]. والمقصود: أنَّ أهل الجنَّة على أتمِّ السرور والنعمة، والنعمة إنَّما تتمُّ باحتفاف الخدم والولدان بالإنسان.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ أكواب: جمع كوب، وقد مضى في «الزخرف»[10]. وهي الآنية

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٥٠ دون ذكر الكلبي، والبيت في ديوان امرئ القيس ص٢٧ ، وفيه: يَعِمَنْ، بدل: ينعمن. ومعناه: يقيم. وقال شارح الديوان: الأوجال: جمع وَجَل، وهو الفزع.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٨١ .

(٣) تهذيب اللغة ٧/ ٢٧٩ .

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٣ ، والمصنف نقله عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٥٠ ، وما بعده منه أيضاً.

(٥) ذكره ابن قتيبة في غريب القرآن ص٤٤٧ ولم ينسبه، وابن دريد في الاشتقاق ص١٦٣ وعزاه إلى أبي عبيدة، والأقاوز: جمع قوز، والقوز من الرمل: صغير مستدير، تشبَّه به أرداف النساء. اللسان (قوز).

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٢٢ .

(٧) الكشاف ٤/ ٥٣ .

(٨) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٠٧٩).

(٩) زاد المسير ٨/ ١٣٥ .

(١٠) ١٩/ ٧٩ .

التي لا عُرى لها ولا خراطيم. والأباريق: التي لها عُرى وخراطيم، واحدها: إبريق، سُمّي بذلك؛ لأنَّه يبرق لونه من صفائه[(١)]. ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ مضى في «والصافات»[(٢)] القول فيه. والمعين: الجاري من ماء أو خمر، غير أنَّ المراد في هذا الموضع الخمرُ الجاريةُ من العيون[(٣)]. وقيل: الظاهرة للعيون، فيكون «معين» مفعولاً من المعاينة. وقيل: هو فعيل من المَعْن، وهو الكثرة[(٤)]. وبيَّن أنَّها ليست كخمر الدنيا التي تستخرج بعصر وتكلُّف ومعالجة.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: لا تنصدع رؤوسهم من شربها[(٥)]، أي: إنَّها لذَّة بلا أذًى، بخلاف شراب الدنيا. ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ تقدَّم في «والصافات»[(٦)] أي: لا يسكرون فتذهب عقولهم.

وقرأ مجاهد: «لَا يُصَدَّعُونَ» بمعنى: لا يتصدَّعون: أي: لا يتفرَّقون، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[(٧)] [الروم:٤٣]. وقرأ أهل الكوفة: «يُنزِفُونَ» بكسر الزاي؛ أي: لا ينفد شرابهم[(٨)]، ولا تفنى خمرهم، ومنه قول الشاعر:

لَعَمْرِي لَئِنْ أنْزَفتُم أو صَحَوْتُم ... لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنتمُ آلَ أَبْجَرَا[(٩)]

وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: في الخمر أربع خصال: السُّكْر والصُّداع

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٣٣.
(٢) ١٨/ ٢٩ - ٣٠.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٥١.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٢.
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٨١.
(٦) عند الآية (٤٧).
(٧) الكشاف ٤/ ٥٤، والقراءة في البحر المحيط ٨/ ٢٠٥.
(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨١، والقراءة في السبعة ص٥٤٧، والتيسير ص٢٠٧، والنشر ٢/ ٣٨٣ عن ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر.
(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٥١، وما بعده منه أيضاً، والبيت للحطيئة وسلف ١٨/ ٣٢.

والقيء والبول، وقد ذكر الله تعالى خمرَ الجنَّة فنزَّهها عن هذه الخصال[١].

قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي: يتخيَّرون ما شاؤوا؛ لكثرتها. وقيل: وفاكهة متخيرة مرضيَّة، والتخير: الاختيار. ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ روى الترمذيُّ عن أنس بن مالك قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ ما الكوثر؟ قال: «ذاك نهر أعطانِيْه الله تعالى ـ يعني في الجنَّة ـ أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزُر» قال عمر: إنَّ هذه لناعِمةٌ. قال رسول الله ﷺ: «أَكَلَتُها أنعم منها» قال: هذا حديث حسن[٢].

وخرَّجه الثعلبيُّ من حديث أبي الدرداء أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّة طيراً مثل أعناق البُخْت تصطفُّ على يدي وليِّ الله، فيقول أحدها: يا وليَّ الله رَعيتُ في مُرُوج تحت العرش، وشربت من عيون التَّسنيم، فكُلْ منِّي، فلا يزلن يفتخرنَ بين يديه حتى يخطر على قلبه أَكْلُ أحدها، فتخرُّ بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد، فإذا شبع تُجمع عظام الطائر، فطار يرعى في الجنَّة حيث شاء». فقال عمر: يا نبيَّ الله إنَّها لناعِمة. فقال: «آكلُها أنْعمُ منها»[٣].

وروي عن أبي سعيد الخدريِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ في الجنة لطيراً، في الطائر منها سبعون ألف ريشة، فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنَّة، ثم ينتفض فيخرج من كلِّ ريشة لون، طعام أبيض من الثلج، وأبرد وألين من الزبد، وأعذب من الشَّهد، ليس فيه لون يشبه صاحبه، فيأكل منه ما أراد، ثم يذهب فيطير»[٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٢١١ (١٨١٧٧).

(٢) الترمذي (٢٥٤٢) وفيه: حديث حسن غريب. وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٦٣٩)، وأحمد (١٣٣٠٦)، ووقع عند الترمذي: أحسن، بدل: أنعم. وهذه وردت هكذا في التذكرة ص٤٨٥، والنقل منه. والجُزُر: جمع جزور، وهي الإبل. وقوله: لناعمة: أي: سِمان مترفَة. النهاية (نعم).

(٣) التذكرة ص٤٨٥.

(٤) أخرجه هناد في الزهد (١١٩)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٣٤٠)، وفي إسناده: عبيد الله بن الوليد الوصّافي وعطية بن سعد العوفي، وهما ضعيفان. تقريب التهذيب.

قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قرئ بالرفع والنصب والجرّ؛ فمن جرَّ ـ وهو حمزة والكسائي وغيرهما[١] ـ جاز أن يكون معطوفاً على «بِأَكْوَابٍ» وهو محمول على المعنى؛ لأنَّ المعنى: يتنعَّمون بأكواب وفاكهة ولحم وحُور، قاله الزجَّاج[٢]. وجاز أن يكون معطوفاً على «جَنَّات» أي: هم في «جَنَّاتِ النَّعِيم» وفي حور، على تقدير حذف المضاف، كأنَّه قال: وفي معاشرة حور[٣]. الفرَّاء[٤]: الجرُّ على الإتباع في اللفظ، وإن اختلفا في المعنى؛ لأنَّ الحور لا يطاف بهنَّ، قال الشاعر:

إذا ما الغانياتُ بَرَزْنَ يوماً ... وزَجَّجْنَ الحَواجِبَ والعُيونا[٥]

والعين لا تُزجَّج وإنَّما تكحل. وقال آخر:

ورأيتُ زَوْجَكِ في الوَغى ... مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحَا[٦]

وقال قُطْرب: هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى. قال: ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور ويكون لهم في ذلك لذَّة[٧].

ومن نصب ـ وهو الأشهب العقيلي والنّخعي وعيسى بن عمر الثّقفي، وكذلك هو في مصحف أُبَيٍّ[٨] ـ فهو على تقدير إضمار فعل؛ كأنَّه قال: ويزوَّجون حُوراً عِيناً[٩]. والحمل في النصب على المعنى أيضاً حسن؛ لأنَّ معنى يطاف عليهم به: يُعطَونه[١٠].

---

(١) السبعة ص٦٢٢، والتيسير ص٢٠٧ عن حمزة والكسائي، وزاد ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٨٣ أبا جعفر.

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ١١١.

(٣) الحجة للفارسي ٦/ ٢٥٧، والكشف لمكي ٢/ ٣٠٤.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٣.

(٥) البيت للراعي النميري، وهو في شعره ص١٥٦.

(٦) البيت لعبد الله بن الزبعرى، وسلف ١/ ٢٩١.

(٧) الكشف لمكي ٢/ ٣٠٤.

(٨) القراءات الشاذة ص١٥١، والمحتسب ٢/ ٣٠٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٦.

(٩) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٢٤.

(١٠) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١١.

ومن رفع ـ وهم الجمهور، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ـ فعلى معنى: وعندهم حور عين؛ لأنَّه لا يُطاف عليهم بالحور. وقال الكسائيُّ: ومن قال: «وَحُورٌ عِينٌ» بالرفع، وعلَّل بأنَّه لا يطاف بهنَّ، يلزمه ذلك في فاكهة ولحم؛ لأنَّ ذلك لا يطاف به، وليس يطاف إلا بالخمر وحدها[1]. وقال الأخفش: يجوز أن يكون محمولاً على المعنى؛ لأنَّ المعنى: لهم أكواب، ولهم حور عين[2]. وجاز أن يكون معطوفاً على «ثُلَّة»، و«ثُلَّةٌ» ابتداء، وخبره: «عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ» وكذلك «وَحُورٌ عِينٌ» وابتدأ بالنكرة؛ لتخصيصها بالصفة.

﴿كَأَمْثَـٰلِ﴾ أي: مثل أمثال ﴿ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ أي: الذي لم تمسّه الأيدي، ولم يقع عليه الغبار، فهو أشدُّ ما يكون صفاءً وتلألؤاً، أي: هنَّ في تشاكل أجسادهنَّ في الحسن من جميع جوانبهنَّ، كما قال الشاعر:

كأنَّما خُلِقَتْ في قِشْرِ لُؤْلُؤةٍ فَكُلُّ أكْنافِها وَجْهٌ لِمِرْصادِ[3]

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: ثواباً، ونصْبهُ على المفعول له. ويجوز أن يكون على المصدر[4]؛ لأنَّ معنى «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ»: يجازون. وقد مضى الكلام في الحور العين في «والطُّور» وغيرها[5].

وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «خلَق الله الحورَ العين من الزعفران»[6]. وقال خالد

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٢٤ بنحوه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٨١ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٥٢ ، والبيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٤٣ ، والكتَف: الجانب والناحية: اللسان (كنف).

(٤) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧١٢ .

(٥) ١٩/ ٥٢٣ و١٩/ ١٣٧ .

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٨١٢)، وفي الأوسط (٢٩٠)، ومن طريقه أبو نعيم في صفة الجنة (٣٨٣) و(٣٨٥) عن أبي أمامة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٩ : رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفي إسنادهما ضعفاء. اهـ. ولم نقف عليه من حديث أنس ﷺ.

ابن الوليد: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ الرجل من أهل الجنَّة ليمسك التفَّاحة من تفاح الجنَّة، فتنفلق في يده، فتخرج منها حوراء لو نظرت للشمس لأخجلت الشمسَ من حُسْنها، من غير أن ينقص من التفاحة» فقال له رجل: يا أبا سليمان إنَّ هذا لعجبٌ ولا يُنقَص من التفَّاحة؟ قال: نعم، كالسِّراج الذي يوقد منه سِراج آخر وسُرُجٌ ولا ينقص، والله على ما يشاء قدير.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: خلَق اللهُ الحورَ العينَ من أصابع رجليها إلى ركبتَيْها من الزعفران، ومن ركبتَيْها إلى ثديَيْها من المسك الأذفر، ومن ثدييْها إلى عنقها من العَنْبر الأشهب، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض، عليها سبعون ألف حُلَّة مثل شقائق النعمان، إذا أقبلَتْ يتلألأ وجهها نوراً ساطعاً كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا، وإذا أدبرت يرى كبدها من رقَّة ثيابها وجِلْدها، في رأسها سبعون ألف ذؤابة من المسك الأذفر، لكلِّ ذؤابة منها وصيفة ترفع ذيلها وهي تنادي: هذا ثواب الأولياء «جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»[١].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ قال ابن عباس: باطلاً ولا كذباً[٢]. واللغو: ما يُلغى من الكلام، والتأثيم مصدر أثَّمته، أي: قلت له: أثمت[٣]. محمد ابن كعب: «وَلا تَأْثِيماً» أي: لا يؤثِّم بعضُهم بعضاً. مجاهد: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا»: شتماً ولا مأثماً[٤].

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ «قِيلاً» منصوب بـ«يَسْمَعُونَ»، أو استثناء منقطع، أي: لكن يقولون قِيلاً أو يسمعون. و«سَلَاماً سلاماً» منصوبان بالقول، أي: إلا أنَّهم يقولون الخير. أو على المصدر، أي: إلا أن يقول بعضهم لبعض: سلاماً. أو يكون وصفاً

---

(١) التذكرة ص٤٨١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٥٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٥٢ .

لـ«قيلاً»، والسلام الثاني بدل من الأوَّل، والمعنى: إلا قيلاً يسلم فيه من اللغو. ويجوز الرفع على تقدير: سلام عليكم[١]. قال ابن عباس: أي: يُحيِّي بعضهم بعضاً. وقيل: تحيِّيهم الملائكة، أو يُحيِّيهم ربُّهم عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ رجع إلى ذكر منازل أصحاب الميمنة وهم السابقون على ما تقدَّم، والتكرير؛ لتعظيم شأن النعيم الذي هم فيه. ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ أي: في نَبْق قد خُضِدَ شوكه، أي: قطع، قاله ابن عباس وغيره[٢].

وذكر ابن المبارك: حدثنا صفوان، عن سليم بن عامر، قال: كان أصحابُ النبيِّ ﷺ يقولون: إنَّه لينفعنا الأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابيٌّ يوماً، فقال: يا رسول الله! لقد ذكَر الله في القرآن شجرةً مؤذيةً، وما كنت أرى في الجنَّة شجرة تؤذي صاحبها؟ قال رسول الله ﷺ: «وما هي»؟ قال: السِّدر؛ فإنَّ له شوكاً مؤذياً. فقال ﷺ: «أوَليس يقول: «فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ» خَضد اللهُ شوكَه، فجعل مكان كلِّ شوكة ثمرةً، فإنَّها تنبت ثمراً تَفتَّق الثمر منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام، ما فيه لون يشبه الآخر»[٣].

وقال أبو العالية والضحَّاك: نظر المسلمون إلى وَجٍّ ـ وهو وادٍ بالطائف مُخْصِب ـ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣٠، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٢.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٢ عن ابن عباس وعكرمة، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٠٧.

(٣) الزهد لابن المبارك (٢٦٣ زوائد نعيم). قال المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٤٣٤: رواه ابن أبي الدنيا بسند حسن.

فأعجبهم سِدْره، فقالوا: يا ليتَ لنا مثلَ هذا، فنزلت[١]. قال أميَّة بن أبي الصَّلْت[٢] يصف الجنَّة:

إن الحدائقَ في الجِنانِ ظليلةٌ فيها الكَوَاعِبُ سِدرُها مَخْضودُ

وقال الضحَّاك ومجاهد ومقاتل بن حيان: «فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ»: وهو الموقَر حَمْلاً[٣]. وهو قريب مما ذكرنا في الخبر. سعيد بن جبير: ثمرها أعظم من القِلال[٤]. وقد مضى هذا في سورة «النجم»[٥] عند قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [الآية:١٤] وأنَّ ثمرها مثل قلال هَجَر، من حديث أنس عن النبيِّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطَّلْح: شجر الموز، واحده: طلحة. قاله أكثر المفسرين[٦] عليٌّ[٧] وابن عباس[٨] وغيرهم[٩]. وقال الحسن: ليس هو موز، ولكنَّه شجر له ظِلٌّ بارد رطب[١٠]. وقال الفرَّاء وأبو عبيدة: شجر عظام له شوك[١١]. قال بعض الحداة وهو الجعديُّ:

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٢٨، وتفسير البغوي ٤/ ٢٨٢.

(٢) ديوانه ص٥٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٥٢، وتفسير البغوي ٤/ ٢٨٢ عن مجاهد والضحاك، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٠٨-٣٠٩.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٢، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٠٩.

(٥) ص٢٥ من هذا الجزء.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٢.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٠، وهناد في الزهد (١١٢)، والطبري ٢٢/ ٣١١.

(٨) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٠، وهناد في الزهد (١١١)، والطبري ٢٢/ ٣١١.

(٩) منهم أبو سعيد الخدري وأبو هريرة والحسن وعكرمة. النكت والعيون ٥/ ٤٥٤، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣١١ - ٣١٢ عن مجاهد وعطاء وقتادة وابن زيد، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٧.

(١٠) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٤.

(١١) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٢، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/ ٢٥٠، وما بعده منه، والبيت ذكره أيضاً الطبري ٢٢/ ٣١٠، والماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٥٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ١٤٠ ولم ينسبوه، ولم نقف عليه عند النابغة الجعدي.

بَشَّرَهَا دَلِيلُهَا وقَالَا غداً تَرَيْنَ الطَّلْحَ والأحْبَالَا

فالطَّلْح: كلُّ شجر عظيم كثير الشوك[1]. الزجَّاج[2]: يجوز أن يكون في الجنَّة وقد أُزيل شوكه. وقال الزجَّاج أيضاً: كشجر أمِّ غيلان [له] نَوْر طيّب جدًّا، فخوطبوا ووعدوا بما يُحبُّون مثله، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنَّة على ما في الدنيا. وقال السُّدِّيُّ: طلح الجنة يشبه طلح الدنيا، لكن له ثمر أحلى من العسل[3].

وقرأ عليٌّ بن أبي طالب ﷺ: «وَطَلْعٍ مَّنضُودٍ» بالعين[4]، وتلا هذه الآية: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء:١٤٨] وهو خلاف المصحف. وفي رواية أنه قُرئ بين يديه: «وطلح منضود» فقال: ما شأن الطلح؟ إنَّما هو «وَطَلْعٍ مَّنضُودٍ» ثم قال: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق:١٠] فقيل له: أفلا نحوِّلها؟ فقال: لا ينبغي أن يهاج القرآن ولا يحوَّل[5]. فقد اختار هذه القراءةَ ولم يَرَ إثباتها في المصحف؛ لمخالفة ما رَسْمُه مجمَع عليه. قاله القشيريُّ. وأسنده أبو بكر الأنباريُّ قال: حدثني أبي، قال: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عيسى بن يونس، عن مجالد، عن الحسن بن سعد، عن قيس بن عُبَاد، قال: قرأتُ عند عليٍّ، أو قُرِئت عند عليٍّ ـ شَكَّ مجالد ـ : «وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ»، فقال عليٌّ ﷺ: ما بال الطلح؟ أما تقرأ: «وَطَلْع» ثم قال: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق:١٠] فقال له: يا أمير المؤمنين أنحكُّها من المصحف؟ فقال: لا يهاج القرآن اليوم[6]. قال أبو بكر: ومعنى هذا أنَّه رجع إلى ما في المصحف، وعَلِمَ أنَّه هو الصواب، وأَبطل الذي كان فَرَطَ من قوله.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣١.

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ١١٢، وما بعده منه أيضاً، وما بين حاصرتين منه ومن (م).

(٣) الكشاف ٤/ ٥٤.

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٠.

(٥) الكشاف ٤/ ٥٤، وهاج الشيء: ثار لمشقَّة أو ضرر. اللسان (هيج).

(٦) وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٠٩-٣١٠ من طريق مجالد، به، وبنحوه، وأورده البغوي في التفسير ٤/ ٢٨٢ عن مجاهد، عن الحسن بن سعيد، عن علي ﷺ.

والمنضود: المتراكب الذي قد نُضِدَ أوّله وآخره بالحمل، ليست له سُوقٌ بارزة[(١)]، بل هو مرصوص، والنَّضْد: هو الرصُّ، والمنضَّد: المرصوص، قال النابغة:

خَلَّتْ سَبِيلَ أَتِيٍّ كان يَحْبِسُهُ ورَفَّعَتْهُ إلى السَّجْفَيْنِ فالنَّضَدِ[(٢)]

وقال مسروق: أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيدة، ثمر كلُّه[(٣)]. كلَّما أكل ثمرة، عاد مكانها أحسن منها.

قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي: دائم باقٍ لا يزول ولا تنسخه الشمس[(٤)]، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٥] وذلك بالغداة وهي ما بين الإسفار إلى طلوع الشمس، حسب ما تقدَّم بيانه هناك[(٥)]. والجنَّة كلُّها ظِلٌّ لا شمسَ معه. قال الربيع بن أنس: يعني ظلَّ العرش. وقال عمرو بن ميمون: مسيرة سبعين ألف سنة. وقال أبو عبيدة[(٦)]: تقول العرب للدهر الطويل والعمر الطويل والشيء الذي لا ينقطع: ممدود، وقال لبيد[(٧)]:

غلبَ العَزَاءُ وكنتُ غيرَ مُغَلَّبِ دَهرٌ طويلٌ دائِمٌ مَمْدودُ

وفي «صحيح الترمذيِّ» وغيره من حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «وفي الجنَّة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾»[(٨)].

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي: جارٍ لا ينقطع[(٩)]، وأصل السّكب: الصبُّ، يقال: سكبه

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٨، وتهذيب اللغة ١٢/ ٤.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص٣١، والأتيُّ: سَيْلٌ لا يدرى من أين أتى. والسجفان: الستران المقرونان بينهما فرجة. اللسان (أتي) و(سجف).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٢.

(٤) الوسيط ٤/ ٢٣٤.

(٥) ١٥/ ٤١٩.

(٦) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٥٠.

(٧) شرح ديوان لبيد ص٣٦.

(٨) الترمذي (٣٢٩٢) مطولاً، وقال: هذا حديث حسن صحيح. اهـ. وهو عند البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨٢٦)، وأحمد (١٠٢٥٩).

(٩) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٨.

سَكْباً، والسُّكُوب: انصبابه؛ يقال: سَكَب سُكُوباً، وانْسكَب انسكاباً[١]. أي: وماء مصبوب يجري الليلَ والنهار في غير أُخدود لا ينقطع عنهم[٢]. وكانت العرب أصحابَ بادية وبلادٍ حارَّة، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزةً لا يصلون إلى الماء إلا بالدَّلو والرِّشاء، فوعدوا في الجنَّة خلافَ ذلك، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة في الدنيا، وهي الأشجار وظلالها، والمياه والأنهار واطِّرادها.

قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ أي: ليست بالقليلة العزيزة، كما كانت في بلادهم ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ﴾ أي: في وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف في الشتاء ﴿وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ أي: لا يُحظَر عليها كثمار الدنيا[٣].

وقيل: «وَلَا مَمْنُوعَةٍ» أي: لا يُمنع من أرادها بشوك ولا بُعْدٍ ولا حائط[٤]، بل إذا اشتهاها العبد دَنَتْ منه حتى يأخذَها، قال الله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾[٥] [الإنسان: ١٤].

وقيل: ليست مقطوعة بالأزمان، ولا ممنوعة بالأثمان[٦]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ روى الترمذيُّ عن أبي سعيد عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: «وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ» قال: «ارتفاعها لَكَمَا بين السماء والأرض مسيرةَ خمسِ مئةِ سنةٍ» قال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رِشدِين بن سعد. وقال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث: الفُرُش في الدرجات، وما بين الدرجات كما بين السماء والأرض[٧].

وقيل: إنَّ الفُرُش هنا كناية عن النِّساء اللواتي في الجنَّة، ولم يتقدَّم لهنَّ ذِكْر،

---

(١) الصحاح (سكب).
(٢) الوسيط ٤/ ٢٣٤ .
(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٩ .
(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٣١٨ .
(٥) سيأتي ٢١/ ٤٧٣ .
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٣ .
(٧) الترمذي (٢٥٤٠) و(٣٢٩٤)، وهو عند أحمد (١١٧١٩).

ولكن قوله عزَّ وجلَّ: «وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ» دالٌّ؛ لأنَّها محلُّ النِّساء، فالمعنى: ونساء مرتفعات الأقدار في حسنهنَّ وكمالهنَّ، دليله قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي: خلقناهنَّ خَلْقاً وأبدعناهنَّ إبداعاً. والعرب تُسمِّي المرأة فِراشاً ولِباساً وإزاراً، وقد قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾[1] [البقرة: ١٨٧] ثم قيل على هذا: هنَّ الحور العين، أي: خلقناهنَّ من غير ولادة[2]. وقيل: المراد نساء بني آدم، أي: خلقناهنَّ خَلْقاً جديداً[3]، وهو الإعادة، أي: أعدناهنَّ إلى حال الشباب وكمال الجمال. والمعنى: أنشأنا العجوز والصَّبية إنشاءً واحداً. وأُضمرن ولم يتقدَّم ذكرهنَّ؛ لأنهنَّ قد دخلن في أصحاب اليمين؛ ولأنَّ الفُرُش كناية عن النساء كما تقدَّم.

وروي عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً» قال: «منهنَّ البِكْر والثَّيِّب»[4]. وقالت أمُّ سلمة رضي الله تعالى عنها: سألتُ النبيَّ ﷺ عن قوله تعالى: «إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء. فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا. عُرُبًا أَتْرَابًا» فقال: «يا أمَّ سلمة هنَّ اللواتي قُبِضن في الدنيا عجائزَ شُمْطاً عُمْشاً رُمْصاً، جعلهنَّ اللهُ بعد الكِبَر أتراباً على ميلاد واحد في الاستواء»[5]. أسنده النحَّاس عن أنس قال: حدَّثنا أحمد بن عمرو، قال: حدَّثنا عمرو بن عليٍّ، قال: حدَّثنا أبو عاصم، عن موسى بن عبيدة، عن يزيد الرقاشيِّ، عن أنس بن مالك رفعه: «إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء» قال: «هنَّ العجائز العُمْش الرُّمْص، كُنَّ في الدنيا عُمْشًا رُمْصاً»[6]. وقال المسيِّب بن شريك: قال النبيُّ ﷺ في

(١) التذكرة ص٤٦٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٢.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٣.

(٤) أخرجه الطيالسي (١٣٠٧)، والطبراني ٢٢/ ٣٢٠ والطبراني في الكبير (٦٣٢٢)، عن سلمة بن يزيد مرفوعاً، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٩: رواه الطبراني، وفيه: جابر الجعفي، وهو ضعيف.

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٢٢، والطبراني في الكبير ٢٣/ (٨٧٠)، وفي الأوسط (٣١٦٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٩: رواه الطبراني، وفيه: سليمان بن أبي كريمة، ضعفه أبو حاتم وابن عدي.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٢٩٦)، والطبري ٢٢/ ٣٢٠ من طريق موسى بن عبيدة، به. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان يضعَّفان في الحديث.

قوله: «إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء» الآية، قال: «هنَّ عجائز الدنيا أنشأهنَّ الله خَلْقاً جديداً، كلَّما أتاهنَّ أزواجهنَّ وجدوهنَّ أبكاراً» فلما سمعت عائشة ذلك قال: واوجعاه! فقال لها النبيُّ ﷺ: «ليس هناك وجع»[(١)].

﴿عُرُبًا﴾ جمع عَرُوب[(٢)]. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: العُرُب: العواشق لأزواجهنَّ[(٣)]. وعن ابن عباس أيضاً: إنَّها العَرُوب المَلَقة. عكرمة: الغَنِجة[(٤)]. ابن زيد: بلغة أهل المدينة[(٥)]. ومنه قول لبيد:

وفي الخِبَاءِ عَرُوبٌ غيرُ فاحِشةٍ رَيَّا الروادِفِ يَغْشَى دُونَها البصرُ[(٦)]

وهي الشَّكِلة، بلغة أهل مكَّة[(٧)]. وعن زيد بن أسلم أيضاً: الحسنة الكلام[(٨)]. وعن عكرمة أيضاً وقتادة: العُرُب: المتحبِّبات إلى أزواجهنَّ[(٩)]. واشتقاقه من أعرب إذا بيَّن، فالعروب تُبيِّن محبتها لزوجها بشَكَل وغُنْج وحُسن كلام. وقيل: إنَّها الحسنة التَّبَعُّل؛ لتكون ألذَّ استمتاعاً[(١٠)]. وروى جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جدِّه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عُرُباً» قال: «كلامهنَّ عربيٌّ»[(١١)].

---

(١) التذكرة ص٥٠٤-٥٠٥ ، وأخرجه الثعلبي كما في الكافي الشاف ص١٦٣ ، وأورده البغوي في التفسير ٤/ ٢٨٣ عن المسيب بن شريك موقوفاً.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥١ .

(٣) زاد المسير ٨/ ١٤٢ عن ابن عباس والحسن وقتادة ومقاتل والمبرد ومجاهد، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٢٣-٣٢٥ عن ابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٤ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٢٣-٣٢٤ ، والمَلَق: الوُدُّ واللطف الشديد. اللسان (ملق).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٥٥ وما بعده منه أيضاً.

(٦) شرح ديوان لبيد ص٦١ ، وفيه: الحُدُوج، بدل: الخباء. وهما بمعنى.

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٢٥ عن ابن بريدة، والشكلة: ذات الدَّلِّ والحُسن والتغنُّج. اللسان (شكل).

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٤ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٢٥ .

(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٥٥ عن عكرمة، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٢٧ عن قتادة.

(١٠) النكت والعيون ٥/ ٤٥٦ .

(١١) أورده ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٢ (١٨٧٩٣) بلفظ: وذكر عن سهل بن عثمان العسكري، =

وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم: «عُرْباً»، بإسكان الراء[١]. وضمَّ الباقون، وهما جائزان في جمع فَعُول.

«أتْراباً» على ميلاد واحد في الاستواء وسنٍّ واحدة، ثلاثٍ وثلاثين سنة. يقال في النساء: أتراب، وفي الرجال: أقران[٢]. وكانت العرب تميل إلى من جاوزت حدَّ الصِّبَا من النساء وانحطت عن الكبر. وقيل: «أتْراباً» أمثالاً وأشكالاً، قاله مجاهد[٣]. السُّدِّيُّ: أتراب في الأخلاق لا تباغضَ بينهنَّ ولا تحاسد.

﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ قيل: الحور العين للسابقين، والأتراب العُرُب لأصحاب اليمين.

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ رجع الكلام إلى قوله تعالى: «وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ» أي: هم «ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ» وقد مضى الكلام في معناه.

وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحَّاك: «ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ» يعني من سابقي هذه الأمَّة، و«ثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ» من هذه الأمَّة من آخرها؛ يدلُّ عليه ما روي عن ابن عباس في هذه الآية «ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ» فقال النبيُّ ﷺ: «هم جميعاً من أمَّتي»[٤].

= عن أبي علي، عن جعفر بن محمد، به. وبرقم (١٨٧٩٣) عن جعفر بن محمد، عن أبيه، ... الخبر، ولم يذكر فيه: عن جدِّه.

(١) السبعة ص٦٢٢ ، والتيسير ص٢٠٧ ، والحجة للفارسي ٦/ ٢٥٨ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٥٦ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٥٦ وما بعده منه أيضاً، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٨ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٢٩ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٥ ، والحديث أخرجه ابن عدي في الكامل ١/ ٣٧٨ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٢٣٥ ، والبغوي في التفسير ٤/ ٢٨٥ ، وفي إسناده: إسماعيل بن أبي عياش قال عنه ابن عدي: وعامة ما يرويه لا يتابع عليه، وهو بيِّن الأمر في الضعف. ا هـ. وأورده الطبري في التفسير ٢٢/ ٣٣٣ وضعَّفه. =

وقال الواحديُّ[١]: أصحاب الجنَّة نصفان، نصف من الأمم الماضية، ونصف من هذه الأمَّة. وهذا يردُّه ما رواه ابن ماجه في «سننه» والترمذيُّ في «جامعه» عن بُريدة ابن حصيب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنَّة عشرون ومئة صفٍّ، ثمانون منها من هذه الأمَّة، وأربعون من سائر الأمم». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن[٢].

و«ثُلَّةٌ» رفع على الابتداء، أو على حذف خبر حرف الصفة، ومجازه: لأصحاب اليمين ثلتان: ثلَّة من هؤلاء، وثلَّة من هؤلاء[٣]. والأوَّلون: الأمم الماضية، والآخرون: هذه الأمَّة، على القول الثاني[٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ ذكر منازل أهل النار وسمَّاهم أصحاب الشمال؛ لأنَّهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، ثم عظَّم ذِكْرهم في البلاء والعذاب فقال: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ . فِى سَمُومٍ﴾ والسموم: الريح الحارَّة التي تدخل في

= وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١١٨-١١٩ عن أبي بكرة مرفوعاً، وقال: رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح غير علي بن زيد وهو ثقة سيئ الحفظ. اهـ. ولم نقف عليه في معاجم الطبراني الثلاثة.

(١) في الوسيط ٤/ ٢٣٥ بنحوه.

(٢) ابن ماجه (٤٢٨٩)، والترمذي (٢٥٤٦).

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٢٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٥ .

مسامِّ البدن[١]. والمراد هنا حرُّ النار ولفحها[٢]. ﴿وَحَمِيمٍ﴾ أي: ماء حارٌّ قد انتهى حرُّه[٣]، إذا أحرقت النارُ أكبادَهم وأجسادهم فزعوا إلى الحميم، كالذي يفزع من النار إلى الماء ليطفئ به الحرَّ، فيجده حميماً حاراً في نهاية الحرارة والغليان. وقد مضى في «القتال»[٤]: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [الآية: ١٥].

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي: يفزعون من السَّموم إلى الظِّلِّ كما يفزع أهل الدنيا فيجدونه ظلاً من يَحْموم، أي: من دخان جهنَّم أسود شديد السواد. عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما[٥]. وكذلك اليَحْموم في اللغة: الشديد السواد، وهو يَفْعول من الحَمِّ، وهو الشحم المسودُّ باحتراق النار. وقيل: هو مأخوذ من الحُمَم وهو الفحم[٦]. وقال الضحَّاك: النار سوداء، وأهلها سود، وكلُّ شيء فيها أسود[٧]. وعن ابن عباس أيضاً: النار سوداء[٨]. وقال ابن زيد: اليَحْموم: جبل في جهنَّم يستغيث إلى ظلِّه أهل النار[٩].

﴿لَّا بَارِدٍ﴾ بل حارٌّ؛ لأنَّه من دخان شفير جهنم. ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ عذب، عن الضحَّاك[١٠]، وقال سعيد بن المسيَّب: ولا حسن منظره[١١]. وكلُّ ما لا خير فيه فليس بكريم. وقيل: «وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ» أي: من النار يُعذَّبون بها، كقوله: ﴿لَهُم مِّن

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٥.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٤٩.

(٣) الكشاف ٤/ ٥٥.

(٤) ١٩/ ٢٦١.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٦، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٣٥.

(٦) الصحاح (حمم)، وتهذيب اللغة ٤/ ١٨-١٩.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٦.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٥٦.

(٩) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٦.

(١٠) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٣٧.

(١١) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٦.

﴿فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[١] [الزمر: ١٦].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي: إنَّما استحقُّوا هذه العقوبة؛ لأنَّهم كانوا في الدنيا متنعِّمين بالحرام. والمترَف: المنعَّم، عن ابن عباس وغيره. وقال السديُّ: «مُتْرَفِينَ» أي: مشركين[٢].

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: يقيمون على الشِّرك، عن الحسن والضحَّاك وابن زيد[٣]. وقال قتادة ومجاهد: الذنب العظيم الذي لا يتوبون منه[٤]. الشعبيُّ: هو اليمين الغَمُوس[٥]. وهي من الكبائر. يقال: حَنِث في يمينه، أي: لم يَبرَّها ورجع فيها[٦]. وكانوا يقسمون أنْ لا بعثَ، وأنَّ الأصنام أنداد الله، فذلك حنثهم، قال الله تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[٧] [النحل: ٣٨]. وفي الخبر: كان يَتحنَّث في حِراء، أي: يفعل ما يُسقِط عن نفسه الحِنث، وهو الذَّنْب[٨].

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا﴾ هذا استبعاد منهم لأمر البعث وتكذيب له، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمَّد: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من آبائكم ﴿وَٱلْآخِرِينَ﴾ منكم ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ يريد يوم القيامة. ومعنى الكلام القَسَم، ودخول اللام في قوله تعالى: «لَمَجْمُوعُونَ» هو دليل القَسَم في المعنى، أي: إنَّكم لمجموعون قسَماً حقّاً،

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٣ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٥٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٥٧ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٣٩ عن الضحاك وابن زيد، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٣ (١٨٧٩٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٥٧ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٣٩-٣٤٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٥٧ .

(٦) الصحاح (حنث).

(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٣ .

(٨) الصحاح (حنث)، وتهذيب اللغة ٤/ ٤٨٠ .

خلافَ قَسَمكم الباطل.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن الهدى ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث[١]. ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ وهو شجر كَريه المنظر، كريه الطَّعم، وهي التي ذكرت في سورة «والصافات»[٢]. ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ أي: من الشجرة[٣]؛ لأنَّ المقصود من الشجرة شجرة. ويجوز أن تكون «من» الأولى زائدة، ويجوز أن يكون المفعول محذوفاً كأنَّه قال: «لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ» طعاماً. وقوله «مِنْ زَقُّوم» صفة لشجر، والصفة إذا قدَّرت الجارَّ زائداً، نصبت على المعنى، أو جررتَ على اللفظ، فإن قدَّرت المفعول محذوفاً، لم تكن الصفة إلا في موضع جرٍّ.

قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الزقوم، أو على الأكل، أو على الشجر[٤]؛ لأنَّه يذكَّر ويؤنَّث. ﴿مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ وهو الماء المغليُّ الذي قد اشتدَّ غليانه، وهو صديد أهل النار[٥]. أي: يورثهم حَرّ ما يأكلون من الزقوم مع الجوع الشديد عطشاً، فيشربون ماء يظنُّون أنَّه يزيل العطش، فيجدونه حميماً مُغْلًى.

قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ قراءة نافع وعاصم وحمزة: «شُرْبَ» بضمِّ الشين، الباقون بفتحها[٦]، لغتان جيِّدتان، تقول العرب: شَرِبت شُرْباً وشَرْباً وشِرْباً وشُرُباً بضمَّتين[٧]. قال أبو زيد: سمعت العربَ تقول بضمِّ الشين وفتحها وكسرها، والفتح هو المصدر الصحيح؛ لأنَّ كلَّ مصدر من ذوات الثلاث فأصله فَعْل، ألا ترى أنَّك تردّه إلى المرَّة الواحدة، فتقول: فَعْلة، نحو شَرْبة، وبالضمِّ الاسم. وقيل: إنَّ

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٥ .

(٢) بقوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ وسلف ١٨/ ٤١ .

(٣) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٠٢ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٧ .

(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٤٢ .

(٦) السبعة ص٦٢٣ ، والتيسير ص٢٠٧ .

(٧) الصحاح (شرب) دون ذكر: وشُرُباً بضمتين.

الفتح والاسم مصدران، فالشَّرْب كالأكل، والشُّرب كالذُّكْر، والشِّرب ـ بالكسر ـ المشروب، كالطِّحن المطحون[١].

والهِيم: الإبل العِطاش التي لا تَرْوى لدَاءٍ يصيبها، عن ابن عباس وعِكرمة وقتَادة والسُّديِّ وغيرهم[٢]، وقال عكرمة أيضاً: هي الإبل المِراض[٣]. الضحَّاك: الهيم: الإبل يصيبها داء تعطش منه عطشاً شديداً، واحدها: أهْيَم، والأنثى: هَيْماء[٤]. ويقال لذلك: الداء الهُيَام، قال قيس بن الملوّح:

يـقـال بِـه داء الـهُـيَـامِ أصـابـه وقد علِمت نفسي مكانَ شِفائِها[٥]

وقوم هِيم أيضاً، أي: عِطاش، وقد هاموا هُيَاماً. ومن العرب من يقول في الإبل: هائم وهائمة، والجمع هيم[٦]، قال لَبيد:

أَجَـزْتُ إلـى مـعـارِفِـهـا بِـشُـعْـثٍ وأطـلَاحٍ مِـن الـعِـيـدِيِّ هِـيـم[٧]

وقال الضحَّاك والأخفش وابن عيينة وابن كيسان: الهيم: الأرض السهلة ذات الرمل[٨]. وروي أيضاً عن ابن عباس: فيشربون شرب الرمال التي لا تَرْوى بالماء[٩]. المهدويُّ: ويقال لكلِّ ما لا يروى من الإبل والرمل: أهيم وهيماء.

---

(١) الحجة للفارسي ٦/ ٢٦٠ ، والبيان ٢/ ٤١٧-٤١٨ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٥٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٨٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٤٧ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٤٣ عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٤٩ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٤٣ .

(٤) زاد المسير ٨/ ١٤٥ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٥٧ ، ولم نقف عليه في ديوان قيس.

(٦) تهذيب اللغة ٦/ ٤٦٨ .

(٧) شرح ديوان لبيد ص١٠٣ ، قال شارحه: شعث: رجال سيئة حالهم من الجهد والسفر. وأطلاح: إبل رزايا مهازيل. والعيدي: إبل منسوبة إلى فحل أو إلى قوم.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٦ عن الضحاك وابن عيينة، والصحاح (هيم) عن الأخفش.

(٩) المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٧ .

وفي «الصحاح»[١]: والهُيَام بالضمِّ: أشدُّ العطش. والهُيَام كالجنون من العشق. والهُيَام: داء يأخذ الإبل فتهيم في الأرض لا ترعى. يقال: ناقة هَيْماء. والهيماء أيضاً: المفازة لا ماءَ بها. والهَيَام بالفتح: الرمل الذي لا يتماسك أن يسيل من اليد لِلِينِهِ، والجمع هُيُم مثل قَذَال وقُذُلٍ. والهِيَام بالكسر: الإبل العطاش، الواحد هَيْمان، وناقة هَيْمَى مثل عطشان وعطشى.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: رزقهم الذي يُعَدُّ لهم، كالنُّزُل الذي يعدُّ للأضياف؛ تكرمةً لهم، وفيه تهكُّم، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] وكقول أبي الشعر[٢] الضَّبيِّ:

وكنَّا إذا الجَبَّارُ بالجيشِ ضَافَنَا جعلنا القَنَا والمرهفاتِ له نُزْلَا

وقرأ يونس بن حبيب وعباس عن أبي عمرو: «هَذَا نُزْلُهُمْ» بإسكان الزاي[٣]، وقد مضى في آخر «آل عمران»[٤] القول فيه. «يَوْمَ الدِّينِ» يوم الجزاء، يعني في جهنَّم.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: فهلّا تصدِّقون بالبعث[٥]؟ لأنَّ

---

(١) مادة: (هيم).

(٢) في (م) و(د): السعد، والمثبت من (ظ) والكشاف ٤/ ٥٦، وأورده أيضاً الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٩١ وسمَّاه: أبو الشعراء الضبي.

(٣) قراءة أبي عمرو في السبعة ص٦٢٣، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٥١ وقال: هذا نزلهم، بالإسكان، هارون عن أبي عمرو وعياش.

(٤) ٥/ ٤٨٣.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٧.

الإعادة كالابتداء. وقيل: المعنى: نحن خلقنا رزقكم، فهلَّا تصدِّقون أنَّ هذا طعامكم[١] إن لم تؤمنوا؟.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي: ما تصبُّونه من المَنِيِّ في أرحام النساء[٢]. ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ أي: ما تصوِّرون منه الإنسان ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ المقدِّرون المصوِّرون[٣]. وهذا احتجاج عليهم وبيان للآية الأولى، أي: إذا أقررتم بأنَّا خالقوه لا غيرنا، فاعترفوا بالبعث. وقرأ أبو السَّمَّال ومحمد بن السميفع وأشهب العقيليُّ: «تَمْنُونَ» بفتح التاء[٤]، وهما لغتان أمْنى ومَنى، وأمذَى ومَذَى، يُمني ويَمنِي، يُمذِي ويَمذِي[٥].

الماورديُّ[٦]: ويحتمل أن يختلف معناهما عندي، فيكون أمنى: إذا أنزل عن جماع. ومَنَى: إذا أنزل عن الاحتلام. وفي تسمية المنيِّ مَنِيًّا وجهان: أحدهما: لإمنائه وهو إراقته. الثاني: لتقديره، ومنه المَنَا الذي يُوزَن به[٧]؛ لأنَّه مقدار لذلك، كذلك المنيُّ مقدار صحيح لتصوير الخلقة.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ احتجاج أيضاً، أي: الذي يَقدِر على الإماتة يَقدِر على الخَلْق، وإذا قدر على الخَلْق قدر على البعث.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٥٨ .

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٥٠ .

(٣) الكشاف ٤/ ٥٦ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٥١ ، والكشاف ٤/ ٥٦ عن أبي السَّمَّال، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٤٨ عن ابن عباس وأبي السمَّال.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٢٨ .

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٤٥٨ .

(٧) المَنَا، والمنُّ بلغة تميم، والمنا أفصح: كيل يكال به السمن، أو ميزان يوزن به، ويقدَّر بنصف كيلو غرام تقريباً في زماننا، أو يزيد أو ينقص قليلاً حسب نوعه، فمنه المنا المصري وهو ٣٤٧/ ٤١٢ غرام، والرومي وهو ٦٤٣/ ٥٤١ غرام، والطبي وهو ٥٦٣/ ٦١٨ غرام. معجم متن اللغة ١/ ٨٦ ، ومادة (منن) و(مني).

وقرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصن وابن كَثير: «قَدَرْنا» بتخفيف الدال، الباقون بالتشديد[١].

قال الضحَّاك: أي: سوَّينا بين أهل السماء وأهل الأرض[٢]. وقيل: قضينا. وقيل: كتبنا[٣]. والمعنى متقارب، فلا أحد يبقى غيره عزَّ وجلَّ.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي: إن أردنا أن نبدِّل أمثالكم لم يسبقنا أحد[٤]، أي: لم يغلبنا. «وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ» معناه: بمغلوبين[٥]. وقال الطبريُّ[٦]: المعنى: نحن قدَّرنا بينكم الموت على أن نبدِّل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم، وما نحن بمسبوقين في آجالكم، أي: لا يتقدَّم متأخِّر، ولا يتأخَّر متقدِّم.

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الصور والهيئات[٧]. قال الحسن: أي: نجعلكم قردةً وخنازيرَ كما فعلنا بأقوام قبلكم[٨]. وقيل: المعنى: ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا، فيجمَّل المؤمنُ ببياض وجهه، ويُقبَّح الكافرُ بسواد وجهه[٩]. سعيد ابن المسيب[١٠]: قوله تعالى: «فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ» يعني في حواصل طير سود تكون ببَرهُوت، كأنَّها الخطاطيف، وبَرَهُوت: وادٍ في اليمن. وقال مجاهد: «فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ»

---

(١) قراءة ابن كثير في السبعة ص٦٢٣، والتيسير ص٢٠٧.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٧.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٥٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٤.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٥٠.

(٦) في التفسير ٢٢/ ٣٤٧-٣٤٨.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣١٨.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٧.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣٩ بنحوه.

(١٠) في النسخ عدا (ظ): جبير، والمثبت (ظ) وتفسير البغوي ٤/ ٢٨٧ والكلام منه.

في أيِّ خَلْق شئنا[١]. وقيل: المعنى: ننشئكم في عالم لا تعلمون، وفي مكان لا تعلمون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: إذ خُلِقتم من نُطفة، ثم من عَلَقة، ثم من مُضْغة[٢]، ولم تكونوا شيئاً، عن مجاهد[٣] وغيره. قتادة والضحَّاك: يعني خَلْق آدم عليه السلام[٤]. ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فهلَّا تذكَّرون. وفي الخبر: عجباً كلُّ العجب للمكذِّب بالنشأة الأُخرى وهو يرى النشأة الأولى، وعجباً للمصدِّق بالنشأة الآخرة وهو لا يسعى لدار القرار[٥].

وقراءة العامة: «النَّشْأَةَ» بالقَصْر. وقرأ مجاهد والحسن وابن كثير وأبو عمرو: «النَّشَاءَة» بالمدِّ، وقد مضى في «العنكبوت»[٦] بيانه.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ هذه حجَّة أُخرى، أي: أخبروني عمَّا تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البَذر، أنتم تنبتونه وتحصِّلونه زرعاً فيكون فيه السُّنبل والحَبُّ، أم نحن نفعل ذلك[٧]؟ وإنَّما منكم البَذْر وشَقُّ الأرض، فإذا أقررتم بأنَّ إخراج السُّنبل من الحبِّ ليس إليكم، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم؟! وأضاف الحرث إليهم، والزرع إليه تعالى؛ لأنَّ الحرث فِعْلهم ويجري

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٥٠، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٤٦.
(٢) الوسيط ٤/ ٢٣٧.
(٣) في تفسيره ٢/ ٦٥٠.
(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٢، والطبري ٢٢/ ٣٤٧ عن قتادة.
(٥) أخرجه ابن الجوزي في المنتظم ٦/ ٣٢٨ عن علي بن الحسين بنحوه.
(٦) ١٦/ ٣٥٢.
(٧) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٤٨.

على اختيارهم، والزرع من فعل الله تعالى وينبت على اختياره لا على اختيارهم[(١)].
وكذلك ما روى أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا يقولنَّ أحدكم: زرعتُ، وليقلْ: حرثتُ، فإنَّ الزارع هو الله» قال أبو هريرة: ألَم تسمعوا قول الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[(٢)].

والمستحبُّ لكلِّ من يُلقي البذر في الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة: «أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ» الآية، ثم يقول: بل الله الزارع والمنبِت والمبلغ، اللهمَّ صلِّ على محمد، وارزقنا ثمره، وجنِّبنا ضرره، واجعلنا لأنْعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين، وبارك لنا فيه يا ربَّ العالمين. ويقال: إنَّ هذا القول أمان لذلك الزرع من جميع الآفات؛ الدود والجراد وغير ذلك، سمعناه من ثقة، وجُرِّب فوُجِد كذلك.

ومعنى «أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ» أي: تجعلونه[(٣)]. وقد يقال: فلان زرَّاع كما يقال: حرَّاث، أي: يفعل ما يؤول إلى أن يكون زرعاً يعجب الزرَّاع. وقد يطلق لفظ الزرع على بَذْر الأرض وتكريبها[(٤)] تجوُّزاً.

قلت: فهو نهي إرشاد وأدب، لا نهي حظر وإيجاب، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يقولنَّ أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: غلامي وجاريتي، وفَتاي وفَتاتي»[(٥)] وقد مضى في «يوسف»[(٦)] القول فيه. وقد بالغ بعض العلماء فقال:

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٦٠ ، وما بعده منه أيضاً.

(٢) أخرجه البزار (١٢٨٩ كشف الأستار)، والطبري ٢٢/ ٣٤٨ ، وابن حبان في صحيحه (٥٧٢٣)، والطبراني في الأوسط (٨٠٢٤). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٢٠ : رواه الطبراني في الأوسط والبزار، وفيه مسلم بن أبي مسلم الجرمي، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات. ا هـ. قلنا: مسلم ابن أبي مسلم الجرمي ذكره ابن حبان في الثقات ٩/ ١٥٨ ، ووثقه الخطيب في تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٠ .

(٣) بعدها في (م): زرعاً.

(٤) كَرَب الأرضَ يكربها كَرْباً وكِراباً: قَلَبها للحرث، وأثارها للزرع. اللسان (كرب).

(٥) سلف ٦/ ٢١٣ .

(٦) ١١/ ٣٥٤ .

لا يقل: حرثت فأصبت، بل يقل: أعانني الله فحرثت، وأعطاني بفَضْله ما أصبت.

قال الماورديّ[(١)]: وتتضمَّن هذه الآية أمرين: أحدهما: الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم. الثاني: البرهان الموجب للاعتبار بأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذره، وانتقاله إلى استواء حاله من العَفَن والتتريب حتى صار زرعاً أخضر، ثم جعله قوياً مشتداً أضعافَ ما كان عليه، فهو بإعادة من أمات أخفُّ عليه وأقدر، وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفِطَر السليمة.

ثم قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾ أي: متكسِّراً: يعني الزرع. والحُطام: الهشيم الهالك الذي لا يُنتفع به في مطعم ولا غذاء، فنبَّه بذلك أيضاً على أمرين: أحدهما: ما أولاهم به من النِّعم في زرعهم إذ لم يجعله حطاماً ليشكروه. الثاني: ليعتبروا بذلك في أنفسهم، كما أنَّه يجعل الزرع حطاماً إذا شاء، وكذلك يُهلِكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا[(٢)].

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: تعجَّبون بذهابها، وتندَّمون مما حلَّ بكم، قاله الحسن وقتادة وغيرهما[(٣)]. وفي «الصحاح»[(٤)]: وتفكَّه، أي: تعجَّب، ويقال: تندَّم، قال الله تعالى: «فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ» أي: تندَّمون. وتفكَّهت بالشيء: تمتَّعت به.

وقال يمان: تندمون على نفقاتكم، دليله: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]. وقال عكرمة: تلاومون[(٥)] وتندَّمون على ما سلف منكم من معصية الله التي أوجبت عقوبتكم حتى نالتكم في زرعكم. ابن كَيْسان: تحزنون[(٦)]. والمعنى متقارب.

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٤٦٠ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٦٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٠ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٥٠ .

(٤) مادة: (فكه).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٧ ، وتتمة قول عكرمة ذكره عن الحسن لا عن عكرمة، وكذلك ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٥٧ عن الحسن.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٦٠ .

وفيه لغتان: تفكَّهون وتَفَكَّنُون[١]، قال الفرَّاء: والنون لغة عُكْل[٢]. وفي «الصحاح»[٣]: التفكُّن: التندُّم على ما فات. وقيل: التفكُّه: التكلُّم فيما لا يعنيك، ومنه قيل للمزاح: فُكاهة، بالضمِّ، فأما الفَكاهة ـ بالفتح ـ فمصدر فَكِهَ الرجلُ ـ بالكسر ـ فهو فَكِهٌ: إذا كان طيِّب النفس مَزَّاحاً[٤].

وقراءة العامة: «فَظَلْتُمْ» بفتح الظاء. وقرأ عبد الله: «فَظِلْتُمْ» بكسر الظاء[٥]، ورواها هارون عن حسين عن أبي بكر. فمن فتح فعلى الأصل، والأصل: ظَلَلتُمْ، فحذف اللام الأولى تخفيفاً، ومن كسر نقل كسرة اللام الأولى إلى الظاء ثم حذفها.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ وقرأ أبو بكر والمفضَّل: «أَئِنَّا» بهمزتين على الاستفهام[٦]، ورواه عاصم عن زِرِّ بن حُبَيش. الباقون بهمزة واحدة على الخبر، أي: يقولون: «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ» أي: معذَّبون، عن ابن عباس وقَتَادة قالا: والغرام: العذاب[٧]، ومنه قول ابن المحلِّم:

وثقت بأنَّ الحِفظ منِّي سجيَّةٌ ... وأنَّ فؤادي مُتْبَلٌ بك مغرم[٨]

وقال مجاهد وعِكرمة: لمولع بنا[٩]، ومنه قول النَّمِر بن تَوْلَب:

سَلاَ عن تَذكُّره تُكْتَما ... وكان رَهيناً بها مُغرَمَا[١٠]

---

(١) تهذيب اللغة ١٠/ ٢٨٠ ونسبها إلى تميم.
(٢) الأضداد لأبي بكر الأنباري ص٦٥ دون عزوه للفرَّاء.
(٣) مادة: (فكن).
(٤) الصحاح (فكه).
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٠-٣٤١ .
(٦) السبعة ص٦٢٣ ، والتيسير ص٢٠٧ .
(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٨ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٥٢ عن قتادة.
(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٦١ .
(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٨ .
(١٠) مختارات ابن الشجري ص١٦ ، ومنتهى الطلب لابن ميمون ١/ ٢٨٦ .

يقال: أُغرم فلانٌ بفلانة، أي: أُولع بها، ومنه الغرام، وهو الشَّرُّ اللازم[(١)]. وقال مجاهد أيضاً: لملقون شرًّا[(٢)]. وقال مقاتل بن حيان: مهلكون. النحَّاس[(٣)]: «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ» مأخوذ من الغَرام وهو الهلاك، كما قال:

يـومُ الـنِّـسَـارِ ويـومُ الـجِـفَـا ... رِ كَـانَـا عَـذَابـاً وكـانَـا غَـرَامَـا[(٤)]

الضحَّاك وابن كيسان: هو من الغُرْم، والمُغْرَم: الذي ذهب ماله بغير عوض[(٥)]، أي: غرِمنا الحَبَّ الذي بذرناه. وقال مُرَّة الهَمداني: محاسبون.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: حرمنا ما طلبنا من الريع[(٦)]. والمحروم: الممنوع من الرزق. والمحروم ضدُّ المرزوق، وهو المحارِف في قول قتادة[(٧)]. وعن أنس: أنَّ النبيَّ ﷺ مرَّ بأرض الأنصار فقال: «ما يمنعكم من الحرث»؟ قالوا: الجدوبة. فقال: «لا تفعلوا، فإنَّ الله تعالى يقول: أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء، وإن شئت زرعت بالريح، وإن شئت زرعت بالبَذْر» ثم تلا: «أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ»[(٨)].

قلت: وفي هذا الخبر والحديث الذي قبله ما يصحِّح قولَ من أدخل الزارع في أسماء الله سبحانه، وأباه الجمهور من العلماء، وقد ذكرنا ذلك في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[(٩)].

---

(١) تهذيب اللغة ٨/ ١٣١ .

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٥٠ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٥٢ .

(٣) في إعراب القرآن له ٤/ ٣٤١ .

(٤) القائل بشر بن أبي خازم الأسدي، وهو في ديوانه ص١٩٨ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٨ .

(٦) الوسيط ٤/ ٢٣٨ .

(٧) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٢ ، والطبري ٢٢/ ٣٥٣ .

(٨) لم نقف عليه.

(٩) ص٩٤ و١٠٣ .

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ لتحيوا به أنفسكم، وتسكنوا به عطشكم؛ لأنَّ الشراب إنَّما يكون تبعاً للمطعوم، ولهذا جاء الطعام مقدَّماً في الآية قبلُ، ألا ترى أنَّك تسقي ضيفك بعد أن تطعمه. الزمخشريُّ: ولو عكستَ قعدتَ تحت قول أبي العلاء:

إذا سُقِيَتْ ضُيوفُ الناسِ مَحْضاً   سَقَوا أضيافَهم شَبِماً زُلالا[١]

وسُقي بعضُ العرب فقال: أنا لا أشرب إلا على ثَمِيلة[٢].

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أي: السَّحاب، الواحدة: مُزْنة[٣]، فقال الشاعر:

فنحنُ كماءِ المُزْنِ ما في نِصابِنَا   كَهَامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخيلُ[٤]

وهذا قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما أنَّ المُزْن السَّحاب[٥]. وعن ابن عباس أيضاً والثوري: المُزْن: السَّماء والسَّحاب[٦]. وفي «الصِّحاح»[٧]: أبو زيد: المُزْنة: السَّحابة البيضاء، والجمع: مُزْن، والمُزنة: المَطْرَة، قال:

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٧ ، وما بعده منه أيضاً، والمحض: اللبن الخالص الذي لم يخالطه ماء. والشَّبِم: الماء البارد. اللسان (محض) و(شبم).

(٢) الاشتقاق لابن دريد ٢/ ٣٦٥ وقال: أي: على شيء في بطنه. ويقال: ثمل الرجل: إذا سَكِرَ.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥٢ .

(٤) القائل: السموأل بن عاديا اليهودي، والبيت في ديوانه ص٦٩ ، والنصاب: الأصل. ورجل كَهام وكهيم: ثقيل مسنٌّ دثور لا غناء عنده. اللسان (نصب) و(كهم).

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٥٤ عن مجاهد وقتادة وابن زيد، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥١ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٥٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) مادة: (مزن).

ألم تَرَ أنَّ الله أنزَل مُزْنة وعُفْرُ الظِّباءِ في الكِناسِ تقمَّعُ[١]

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ أي: فإذا عرفتم بأنّي أنزلته، فلِمَ لا تشكروني بإخلاص العبادة لي؟ ولِمَ تنكرون قدرتي على الإعادة؟ .﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ أي: ملحاً شديد الملوحة، قاله ابن عباس. الحسن: مرًّا[٢] قُعَاعاً لا تنتفعون به في شرب ولا زرع ولا غيرهما[٣] .﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلَّا تشكرون الذي صنع ذلك بكم[٤].

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ أي: أخبروني عن النار التي تظهرونها بالقَدْح من الشجر الرَّطب ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ يعني التي تكون منها الزناد، وهي المرخُ والعَفَار[٥]، ومنه قولهم: في كلّ شجرٍ نارٌ، واسْتَمْجدَ المَرخ والعَفَارُ، أي: استكثر منها[٦]، كأنَّهما أخذا من النار ما هو حسبهما، ويقال: لأنَّهما يسرعان الوَرْيَ، يقال: أوريتُ النار: إذا قدحتها، ووَرَى الزَّنْدُ يَري: إذا انقدح منه النار. وفيه لغة أخرى: ووَرِيَ الزَّنْدُ يَرِي بالكسر فيهما[٧]. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ أي: المخترعون الخالقون، أي: فإذا عرفتم قدرتي فاشكروني، ولا تنكروا قدرتي على البعث.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ يعني نار الدنيا موعظة للنار الكبرى، قاله قتادة. ومجاهد: تبصرة للناس من الظلام[٨]. وصحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ ناركم هذه التي يُوقِدُ بنو آدم جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنَّم» فقالوا: يا رسول الله، إن كانت

---

(١) القائل: أوس بن حجر، وهو في ديوانه ص٥٧، والكناس: مَوْلج الوحش من الظباء والبقر تستكنُّ فيه من الحَرِّ. اللسان (كنس)، قال ابن قتيبة في المعاني الكبير ٢/ ٦٠٦: تقمَّع: تطرد عنها القمعة، وهو ذباب أزرق، يقول: خصَّه الله بهذه المزنة في غير وقت مطر في الحر، والذباب لم يخفّ ولم يذهب.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٢ والقُعَاع: الماء المُرُّ الغليظ. اللسان (قعع).

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٨ .

(٦) الكامل للمبرد ١/ ٢٧٥-٢٧٦ ، والمثل في المستقصى للزمخشري ٢/ ١٨٣ .

(٧) الصحاح (وري).

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٦١ .

لكافيةً. قال: «فإنَّها فُضِّلت عليها بتسعة وستين جُزءاً، كلُّهنَّ مثلُ حَرِّها»[(١)].

﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ قال الضحَّاك: أي: منفعة للمسافرين، سمُّوا بذلك؛ لنزولهم القَوَى، وهو القَفْر[(٢)]. الفرَّاء[(٣)]: إنَّما يقال للمسافرين: مُقْوين إذا نزلوا القيَّ، وهي الأرض القَفْر التي لا شيء فيها. وكذلك القَوى والقَوَاء بالمدِّ والقصر، ومنزلٌ قَواء: لا أنيسَ به، يقال: أقْوَتِ الدار وقَوِيَت أيضاً، أي: خَلَتْ من سكَّانها[(٤)]، قال النابغة:

يـا دارَ مَـيَّـةَ بـالـعَـلْـيَـاءِ فَـالـسَّـنَـدِ أقْوَتْ وطال عَليها سَالفُ الأَمَدِ[(٥)]

وقال عنترة:

حُـيِّـيـتَ مِـنْ طَـلَـلٍ تَـقَـادَمَ عَـهـدُهُ أقـوى وأقْـفَـر بَـعـد أُمِّ الـهَـيْـثَـمِ[(٦)]

ويقال: أقْوَى، أي: قَوِيَ وقَوِي أصحابه[(٧)]، وأقوى: إذا سافر، أي: نزل القَوَاء والقِيَّ. وقال مجاهد: «لِلمُقْوِينَ» المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ والخَبْز والاصطلاء والاستضاءة[(٨)]، ويتذكَّر بها نار جهنَّم فيستجار بالله منها. وقال ابن زيد: للجائعين في إصلاح طعامهم[(٩)]. يقال: أقويت منذ كذا وكذا، أي: ما أكلت شيئاً[(١٠)]، وبات فلان القَواء، وبات القفرَ: إذا بات جائعاً على غير طُعْم[(١١)]، قال

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣)، وأحمد (٨١٢٦) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٦١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٥٧ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٩ .

(٤) الصحاح (قوا).

(٥) سلف ١٠/ ٤٧٤ .

(٦) سلف ٢/ ١٠٧ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٣ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٨ ، والصحاح (قوا).

(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٦١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٥٨ .

(١٠) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٥٨ .

(١١) الصحاح (قوا)، وما بعده منه أيضاً.

الشاعر:

وإنّي لأختارُ القَوَى طَاوِيَ الحَشَى مـحَـافَـظَـةً مـن أنْ يـقـالَ لَـئِـيـم[١]

وقال الربيع والسديُّ: «الْمُقْوِينَ» المنزلين الذين لا زناد معهم؛ يعني ناراً يوقدون فيختبزون بها؟ ورواه العوفي عن ابن عباس. وقال قُطْرب: المُقْوِي من الأضداد يكون بمعنى الفقير، ويكون بمعنى الغني، يقال: أقوى الرجل: إذا لم يكن معه زاد. وأقوى: إذا قويت دوابه وكثر ماله[٢]. المهدويُّ: والآية تصلح للجميع؛ لأنَّ النار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغني والفقير. وحكى الثعلبيُّ أنَّ أكثر المفسرين على القول الأوَّل. القشيريُّ: وخصَّ المسافر بالانتفاع بها؛ لأنَّ انتفاعه بها أكثر من منفعة المقيم؛ لأنَّ أهل البادية لابدَّ لهم من النار يوقدونها ليلاً؛ لتهرب منهم السِّباع، وفي كثير من حوائجهم.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: فنزِّه الله عما أضافه إليه المشركون من الأنداد، والعَجْز عن البعث.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ «لا» صلة في قول أكثر المفسرين، والمعنى: فأقسم[٣]؛ بدليل قوله: «وإنَّهُ لَقَسَمٌ». وقال الفرَّاء: هي نَفْي، والمعنى:

---

(١) أورده المرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٤/ ١٧١٥ ولم ينسبه، وجاءت رواية صدره عنده:

لقد كنت أختار القرى طاوي الحشا

ثم قال: وبعضهم رواه: «لقد كنت أختار القَوَى»، وزعم أنه مقصور من القَوَاء، وليس بشيء. ا هـ.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٨ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٩ .

ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف «أُقْسِمُ»[(١)]. وقد يقول الرجل: لا واللهِ ما كان كذا. فلا يريد به نفي اليمين، بل يريد به نفي كلام تقدَّم. أي: ليس الأمر كما ذكرت، بل هو كذا. وقيل: «لا» بمعنى «ألَّا» للتنبيه كما قال:

أَلَا عِمْ صَبَاحاً أيُّها الطَّلَلُ البَالي[(٢)]

ونبَّه بهذا على فضيلة القرآن؛ ليتدبَّروه، وأنَّه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعموا[(٣)].

وقرأ الحسن وحميد وعيسى بن عمر: «فَلَا أُقْسِمُ»[(٤)] بغير ألف بعد اللام على التحقيق: وهو فعل حال، ويقدر مبتدأ محذوف، التقدير: فلأنا أُقسم بذلك. ولو أريد به الاستقبال للزمت النون، وقد جاء حذف النون مع الفعل الذي يراد به الاستقبال، وهو شاذٌّ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ مواقع النجوم: مساقطها ومغاربها، في قول قتادة وغيره[(٥)]. عطاء بن أبي رَبَاح: منازلها. الحسن: انكدارها وانتثارها يوم القيامة[(٦)]. الضحَّاك: هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون إذا مُطِروا قالوا: مُطِرنا بنَوْء كذا. الماورديُّ[(٧)]: ويكون قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ مستعملاً على حقيقته من نفي القسم. القشيريُّ: هو قَسَم، ولله تعالى أن يُقسِم بما يريد، وليس لنا أن نُقسِم بغير الله تعالى وصفاته القديمة.

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٥٩ ولم ينسبه.

(٢) القائل امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص٢٧، وتمامه:

وهل يَعِمَنْ من كان في العُصر خاليا

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٩ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٥١ ، والمحتسب ٢/ ٣٠٩ ، وما بعده منه، ومن الكشاف ٤/ ٥٨ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٦٠-٣٦١ عن قتادة ومجاهد، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٢ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٩ ، وأخرجه الطبريُّ ٢٢/ ٣٦١ عن الحسن.

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٤٦٣ ، وما قبله منه أيضاً.

قلت: يدلُّ على هذا قراءة الحسن: «فَلأُقْسِمُ» وما أقسم به سبحانه من مخلوقاته في غير موضع من كتابه. وقال ابن عباس: المراد بمواقع النجوم: نزول القرآن نجوماً، أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ من السماء العليا إلى السَّفَرة الكاتبين، فنجَّمه السفرةُ على جبريل عشرين ليلة، ونجمَّه جبريل على محمَّد عليهما الصلاة والسلام عشرين سنةً، فهو ينزله على الأحداث من أمَّته، حكاه الماورديُّ[١] عن ابن عباس والسُّدِّيِّ.

وقال أبو بكر الأنباري: حدَّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدَّثنا حجَّاج بن المنهال، حدَّثنا همَّام، عن الكلبيِّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزل القرآن إلى سماء الدنيا جملةً واحدةً، ثم نزل إلى الأرض نجوماً، وفُرِّقَ بعد ذلك خمسَ آيات خمسَ آيات، وأقلَّ وأكثر، فذلك قول الله تعالى: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ»[٢].

وحكى الفرَّاء[٣] عن ابنِ مسعود أنَّ مواقع النجوم هو مُحكَم القرآن.

وقرأ حمزة والكسائي: «بِمَوْقِعِ»[٤] على التوحيد، وهي قراءة عبد الله بن مسعود والنَّخَعيِّ والأعمش وابنِ مُحيصن ورُوَيس عن يعقوب. الباقون على الجمع؛ فمن أفرد؛ فلأنَّه اسم جنس يؤدي الواحد فيه عن الجمع، ومن جمع؛ فلاختلاف أنواعه[٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ قيل: إنَّ الهاء تعود على القرآن، أي: إنَّ القرآن لقَسَم عظيم، قاله ابن عباس وغيره[٦]. وقيل: ما أقسم الله به عظيم «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٤٦٣.

(٢) وأخرجه مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥١، والطبري ٢٢/ ٣٥٩ من طريق حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٩ بإسناده إلى ابن مسعود.

(٤) السبعة ص٦٢٤، والتيسير ص٢٠٧، والنشر ٢/ ٣٨٣.

(٥) الحجة للفارسي ٦/ ٢٦٣.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٦٣.

كَرِيمٌ» ذكر المقسم عليه، أي: أُقسم بمواقع النجوم إنَّ هذا القرآن قرآن كريم[١]، ليس بسحر ولا كهانة، وليس بمفترى، بل هو قرآن كريم محمود، جعله الله تعالى معجزةً لنبيِّه ﷺ، وهو كريم على المؤمنين؛ لأنَّه كلام ربِّهم، وشفاء صدورهم، كريم على أهل السماء؛ لأنَّه تنزيل ربِّهم ووَحْيه.

وقيل: «كَرِيمٌ» أي: غير مخلوق. وقيل: «كرِيمٌ» لما فيه من كريم الأخلاق ومعاني الأمور[٢]. وقيل: لأنَّه يُكرِّم حافظه، ويُعظِّم قارئه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾ مصون عند الله تعالى[٣]. وقيل: مكنون: محفوظ عن الباطل[٤]. والكتاب هنا كتاب في السماء، قاله ابن عباس[٥]. وقال جابر بن زيد وابن عباس أيضاً: هو اللوح المحفوظ[٦]. عِكرمة: التوراة والإنجيل فيهما ذِكْر القرآن ومن ينزل عليه. السُّدِّيُّ: الزبور. مجاهد وقتادة: هو المصحف الذي في أيدينا[٧].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ اختلف في معنى «لا يَمَسُّهُ» هل هو حقيقة في المسِّ بالجارحة أو معنًى؟ وكذلك اختلف في «الْمُطَهَّرُونَ» من هم؟ فقال أنس وسعيد بن جُبير: لا يمسُّ ذلك الكتاب إلا المطهَّرون من الذنوب، وهم الملائكة[٨]. وكذا قال أبو العالية وابن زيد: إنَّهم الذين طُهِّروا من الذنوب كالرُّسل

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٣٩ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٦٣ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٦٣ ، وما بعده منه أيضاً.

(٥) أخرجه عنه مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٢ ، والطبري ٢٢/ ٣٦٢ .

(٦) أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٦٣ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٦٣ ، وأخرج قول عكرمة الطبري ٢٢/ ٣٦٥ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٩ ، وما بعده منه أيضاً، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٦٤-٣٦٦ عن سعيد بن جبير وأبي العالية وابن زيد، وذكره ابن المنذر في الأوسط ٢/ ١٠٣ عن أنس.

من الملائكة والرُّسل من بني آدم، فجبريل النازل به مُطهَّر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مُطهَّرون. الكلبيُّ: هم السَّفَرة الكرام البرَرَة[١]. وهذا كلُّه قول واحد، وهو نحو ما اختاره مالك حيث قال: أَحسنُ ما سمعتُ في قوله: «لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ»: أنَّها بمنزلة الآية التي في «عَبَسَ وتَوَلَّى»: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ . فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ . بِأَيْدِى سَفَرَةٍ . كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٢-١٦] ويريد أنَّ المطهَّرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة في سورة «عبس»[٢].

وقيل: معنى «لا يَمَسُّهُ» لا ينزل به «إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» أي: الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء[٣]. وقيل: لا يمسُّ اللوح المحفوظ الذي هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهَّرون[٤]. وقيل: إنَّ إسرافيل هو الموكَّل بذلك، حكاه القشيريُّ. ابن العربي[٥]: وهذا باطل؛ لأنَّ الملائكة لا تناله في وقت ولا تصل إليه بحال، ولو كان المراد به ذلك لما كان للاستثناء فيه مجال. وأما من قال: إنَّه الذي بأيدي الملائكة من الصحف، فهو قول محتمل، وهو اختيار مالك.

وقيل: المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا[٦]، وهو الأظهر. وقد روى مالك وغيره أنَّ في كتاب عمرو بنِ حزم الذي كتبه له رسول الله ﷺ ونسخته: «من محمَّد النبيِّ إلى شُرَحْبيل بن عبد كُلَال والحارث بن عبد كُلَال ونُعَيْم بن عبد كُلَال قَيْل ذي رُعَين ومَعَافر وهَمْدان: أما بعد، وكان في كتابه: ألا يمسَّ القرآن إلا طاهر[٧].

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٦ ، وقول مالك في الموطأ ١/ ١٩٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٦٤ وعزاه إلى ابن زيد.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٦ .

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٢٥-١٧٢٦ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٦٤ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٦ ، والحديث عند مالك في الموطأ ١/ ١٩٩ ـ ومن طريقه أبو داود في المراسيل (٩٣) ـ عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم مرسلاً. وأخرجه أيضاً أبو داود في المراسيل =

وقال ابن عمر: قال النبيُّ ﷺ: «لا تمسَّ القرآن إلا وأنت طاهر»[(١)]. وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة: «لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» فقام واغتسل وأسلم[(٢)]. وقد مضى في أوَّل سورة «طه»[(٣)]. وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره: «لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» من الأحداث والأنجاس. الكلبي: من الشِّرْك. الربيع ابن أنس: من الذنوب والخطايا[(٤)].

وقيل: «لا يَمَسُّه»: لا يقرؤه «إلا المطهَّرون» إلا الموحِّدون، قاله محمد بن فضيل وعَبْدة. قال عكرمة: كان ابن عباس ينهى أن يُمكَّن أحدٌ من اليهود والنصارى من قراءة القرآن[(٥)].

وقال الفرَّاء[(٦)]: لا يجد طعمَه ونفعَه وبركته إلا المطهَّرون، أي: المؤمنون بالقرآن. ابن العربي[(٧)]: وهو اختيار البخاريِّ، قال النبيُّ ﷺ: «ذاق طَعْم الإيمان من رضيَ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمَّد ﷺ نبياً». وقال الحسين بن الفضل

= (٩٢) و(٩٤)، والدارقطني ١/ ١٢١ من طرق أخرى مرسلاً، قال أبو داود: روي هذا الحديث مسنداً، ولا يصحُّ. اهـ. وقال الدارقطني عن إحدى طرقه: مرسل، ورواته ثقات. اهـ

وأخرجه موصولاً ابن حبان في صحيحه (٦٥٥٩)، والدارقطني ١/ ١٢٢، والحاكم في المستدرك ١/ ٣٩٧، والبيهقي ٤/ ٨٩ مطولاً، وفي إسناده: سليمان بن أرقم، وهو متروك الحديث، وقد أخطأ بعض الرواة فسمَّاه سليمان بن داود، ينظر التفصيل في ذلك في الجوهر النقي ٤/ ٨٩.

قال ابن عبد البر في الاستذكار ٨/ ١٠، وفي التمهيد ١٧/ ٣٩٧: وكتاب عمرو بن حزم هذا تلقَّاه العلماء بالقبول والعمل، وهو عندهم أشهر وأظهر من الإسناد الواحد المتصل.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٢١٧)، وفي الصغير (١١٦٢)، والدارقطني ١/ ١٢١، والبيهقي ١/ ٨٨. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير والصغير، ورجاله موثقون.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٦.

(٣) ١٤/ ٥-٦، وسلف تخريج الخبر هناك.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٦٤.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٨٩.

(٦) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٠، والمصنف نقله عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٦٤.

(٧) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٢٦، والحديث الآتي سلف ٨/ ٢٠٧.

لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهَّره اللهُ من الشِّرْك والنفاق. وقال أبو بكر الورَّاق: لا يُوفَّق للعمل به إلا السُّعداء. وقيل: المعنى لا يمسّ ثوابه إلا المؤمنون. ورواه معاذ عن النبيِّ ﷺ[١]. ثم قيل: ظاهر الآية خبر عن الشرع، أي: لا يمسُّه إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ شرعاً، فإن وجد خلاف ذلك فهو غير الشرع، وهذا اختيار القاضي أبي بكر بن العربي[٢]. وأَبطل أن يكون لفظُه لفظَ الخبر، ومعناه الأمر. وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة»[٣]. المهدويُّ: يجوز أن يكون أمراً، وتكون ضمَّة السين ضمَّة إعراب. ويجوز أن يكون نهياً وتكون ضمَّة السين ضمَّة بناء، والفعل مجزوم.

السادسة: واختلف العلماء في مسِّ المصحف على غير وضوء، فالجمهور على المنع من مسِّه؛ لحديث عمرو بن حزم. وهو مذهب عليٍّ وابنِ مسعود وسعد بنِ أبي وقاص وسعيد بنِ زيد وعطاء والزُّهريِّ والنَّخعيِّ والحكم وحمَّاد، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي[٤]. واختلفت الرواية عن أبي حنيفة، فروي عنه أنَّه يمسُّه المحدِث[٥]، وقد روي هذا عن جماعة من السَّلف منهم ابن عباس والشعبيُّ وغيرهما[٦]. وروي عنه أنَّه يمسُّ ظاهرَه وحواشيَه وما لا مكتوبَ فيه، وأما الكتاب فلا يمسُّه إلا طاهر. ابن العربيِّ[٧]: وهذا إن سُلِّمه مما يُقوِّي الحجَّة عليه؛ لأنَّ حريم

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٦٤ ، والحديث أخرجه ابن عدي في الكامل ١/ ٣٠٩ ، وفي إسناده: إسماعيل بن أبي زياد، وهو منكر الحديث.

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٢٦ .

(٣) ٣/ ٤٩٠ .

(٤) التمهيد ١٧/ ٣٩٧-٣٩٩ ، والاستذكار ٨/ ١٠ ، وكلام الشافعي في الأم ١/ ٢٢١ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٧ ، ولم نقف على هذه الرواية فيما بين أيدينا من مصادر، بل الذي ورد أنه يحرم مسُّ المصحف للمحدِث ـ كما ذهب إليه الجمهور ـ ورواية أخرى عن بعض مشايخ الحنفية أنه يكره له مسُّ الموضع المكتوب دون الحواشي؛ لأنه لم يمسَّ القرآن حقيقة، والصحيح أنه إنَّما يكره مسُّ كلِّه، لأن الحواشي تابعة للمكتوب، فكان مسُّها مسًّا للمكتوب. بدائع الصنائع ١/ ٢٦٤-٢٦٦ ، وحاشية ابن عابدين ١/ ١٧٣-١٧٤ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢ .

(٧) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٢٧ ، وما قبله منه أيضاً.

الممنوع ممنوع. وفيما كتبه النبيُّ ﷺ لعمرو بن حزم أقوى دليل عليه. وقال مالك: لا يحمله غيرُ طاهر بعِلاَقة ولا على وِسادة[١]. وقال أبو حنيفة: لا بأس بذلك. ولم يمنع من حَمْله بعِلاَقة أو مسّه بحائل[٢]. وقد روي عن الحكم وحمَّاد وداود بن عليٍّ أنَّه لا بأس بحمله ومسِّه للمسلم والكافر، طاهراً أو محدِثاً[٣]، إلا أن داود قال: لا يجوز للمشرك حَمْله. واحتجوا في إباحة ذلك بكتاب النبيِّ ﷺ إلى قيصر، وهو موضع ضرورة، فلا حجَّةَ فيه. وفي مسِّ الصبيان إيَّاه على وجهين: أحدهما: المنع؛ اعتباراً، بالبالغ. والثاني: الجواز؛ لأنَّه لو منع لم يحفظ القرآن؛ لأنَّ تعلُّمه حال الصغر؛ ولأنَّ الصبيَّ وإن كانت له طهارة إلَّا أنَّها ليست بكاملة؛ لأنَّ النِّيَّة لا تصحُّ منه، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة، جاز أن يَحْمله محدِثاً.

السابعة: قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: منزل[٤]، كقولهم: ضَرْبُ الأميرِ ونَسْجُ اليَمَنِ[٥]. وقيل: «تَنْزِيلٌ» صفة لقوله تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ»[٦]. وقيل: أي: هو تنزيل.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أي: مكذِّبون، قاله ابن عباس وعطاء وغيرهما[٧]. والمُدْهِن: الذي ظاهره خلاف باطنه[٨]، كأنَّه شبّه

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢، وما بعده منه أيضاً، ومن تفسير البغوي ٤/ ٢٨٩، وقول مالك في الموطأ ١/ ١٩٩، وفي المدونة ١/ ١١٢.

(٢) مختصر اختلاف العلماء للطحاوي ١/ ١٥٦.

(٣) التمهيد ١٧/ ٣٩٨-٣٩٨، والاستذكار ٨/ ١٢.

(٤) الوسيط ٤/ ٢٤٠.

(٥) الحلل للبطليوسي ص١٥٥.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٦٤ عن ابن عباس، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٦٨.

(٨) الوسيط ٤/ ٢٤٠.

بالدُّهن في سهولة ظاهره. وقال مقاتل بن سليمان وقتادة: مُدْهِنون: كافرون[١]، نظيره: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]. وقال المؤرِّج: المدهِن: المنافق أو الكافر الذي يُلين جانبه ليُخْفِي كفره، والإدهان والمداهنة: التكذيب والكفر والنفاق، وأصله اللِّين، وأن يُسِرَّ خلافَ ما يظهر[٢]، وقال أبو قيس بنُ الأسْلَت:

الحَزْمُ والقُوَّةُ خيرٌ مِنَ الـ ... إدهان والفهَّةِ والهَاعِ[٣]

وأدهن وداهن واحد. وقال قوم: داهنت بمعنى واريت، وأدهنتُ بمعنى غَشَشْت[٤]. وقال الضحَّاك: «مُدْهِنُونَ»: معرضون. مجاهد: ممالئون الكفار على الكفر به[٥]. ابن كيسان: المدهن: الذي لا يَعقِلُ ما حقُّ الله عليه، ويدفعه بالعلل. وقال بعض اللغويين: مدهنون: تاركون للجَزْم في قَبول القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال ابن عباس: تجعلون شكركم التكذيب[٦]. وذكر الهيثم بنُ عديٍّ: أنَّ من لغة أزد شنوءة: ما رزقَ فلانٌ؟ أي: ما شكَره[٧]. وإنما صلح أن يوضع اسم الرزق مكان شكره؛ لأنَّ شكر الرزق يقتضي الزيادة فيه، فيكون الشكر رزقاً على هذا المعنى. فقيل: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ» أي: شكر رزقكم الذي لو وجد منكم لعاد رزقاً لكم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بالرزق، أي: تضعون الكذب مكان الشكر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥] أي: لم يكونوا يُصلُّون، ولكنَّهم كانوا يصفِّرون ويُصفِّقون

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٠ عن قتادة.

(٢) الوسيط ٤/ ٢٤٠ .

(٣) أمالي القالي ص٢١٥ ، والمفضليات ص٢٨٥ ، وورد عندهما: والفكَّة، بدل: والفهَّة. اهـ يقال: في فلان فكَّة: أي استرخاء في رأيه. والفهَّة: مثل السَّقْطة والجهلة ونحوها. ورجل هاعٌ لاعٌ: جبان ضعيف جزوع. اللسان (فكك) و(فهه) و(هوع).

(٤) الصحاح (دهن).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٦٥ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٤ .

(٧) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٦٨ .

مكان الصلاة. ففيه بيان أنَّ ما أصاب العباد من خير فلا ينبغي أن يَرَوْه من قِبَلِ الوسائط التي جرت العادة بأن تكن أسباباً، بل ينبغي أن يَرَوْه من قِبَلِ الله تعالى، ثم يقابلونه بشكرٍ إن كان نعمةً، أو صبرٍ إن كان مكروهاً؛ تعبُّداً له وتذلُّلاً.

وروي عن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ: «وتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» حقيقة[١]. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ المراد به الاستسقاء بالأنواء، وهو قول العرب: مُطِرنا بنَوء كذا، رواه عليُّ بنُ أبي طالب عن النبيِّ ﷺ[٢]. وفي «صحيح مسلم»[٣] عن ابن عباس قال: مُطِر الناسُ على عهد النبيِّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافرٌ، قالوا: هذه رحمةُ الله. وقال بعضهم: لقد صَدَقَ نَوْءُ كذا وكذا. قال: فنزلت هذه الآية: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ» حتى بلغَ: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ»».

وعنه أيضاً أنَّ النبيَّ ﷺ خرج في سفر فعطشوا، فقال النبيُّ ﷺ: «أرأيتم إن دعوتُ اللهَ لكم، فسُقِيتم، لعلكم تقولون: هذا المطر بِنَوء كذا». فقالوا: يا رسول الله، ما هذا بحين الأنواء. قال: فصلَّى ركعتين ودعا ربَّه، فهاجت ريح، ثم هاجت سحابة، فمُطِروا؛ فمرَّ النبيُّ ﷺ ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح له، وهو يقول: سُقينا بِنَوء كذا، ولم يقل: هذا من رزق الله، فنزلت: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» أي: شكركم لله على رزقه إيّاكم «أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» بالنعمة وتقولون: سُقِينا بنوء كذا، كقولك: جعلتَ إحساني إليك إساءةً منكَ إليَّ، وجعلتَ إنعامي لديكَ أن اتَّخذتني عدوًّا[٤]. وفي «الموطأ»[٥] عن زيد بن خالد الجُهنيِّ أنَّه قال: صلَّى بنا

(١) الكشاف ٤/ ٥٩، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٥١، والمحتسب ٢/ ٣١٠.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٦٥، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٧٠، وأما خبر علي المرفوع فأخرجه عبد الله بن أحمد في زيادات المسند ٢/ ٩٧ (٦٧٧)، والطبري ٢٢/ ٣٦٩.

(٣) برقم (٧٣)، وأخرجه أيضاً الواحدي في أسباب النزول ص٤٢٩، والكلام - وما بعده - منه أيضاً.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢.

(٥) ١/ ١٩٢، والحديث سلف ٨/ ٤٠٣، وقوله: على إثر سماء كانت من الليل. فإنه أراد سحاباً حيث نزل من الليل، والعرب تسمي السحاب والماء النازل منه سماء. التمهيد ١٦/ ٢٨٥.

رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحُديبِية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقْبَلَ على الناس وقال: «أتدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر بالكوكب، فأما من قال: مُطِرنا بفَضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطِرنا بنَوء كذا وكذا، فذلك مؤمن بالكوكب كافر بي».

قال الشافعيُّ[1] رحمه الله: لا أحبُّ أحداً أن يقول: مُطِرنا بنَوء كذا وكذا، وإن كان النَّوء عندنا الوقت المخلوق لا يضرُّ ولا ينفع، ولا يمطر ولا يحبس شيئاً من المطر، والذي أحبُّ أن يقول: مُطِرنا وقت كذا، كما تقول: مُطِرنا شهر كذا، ومن قال: مُطِرنا بنَوء كذا، وهو يريد أنَّ النَّوء أنزل الماء، كما عنى بعضُ أهل الشرك من الجاهلية بقوله، فهو كافر، حلال دمه إن لم يتب.

وقال أبو عمر بنُ عبد البر[2]: وأما قوله عليه الصلاة والسلام حاكياً عن الله سبحانه: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» فمعناه عندي على وجهين: أمَّا أحدهما: فإنَّ المعتقِد بأنَّ النوء هو الموجب لنزول الماء، وهو المنشئ للسحاب دون الله عزَّ وجلَّ، فذلك كافر كفراً صريحاً يجب استتابته عليه وقَتْله؛ لنَبذِه الإسلام، وردِّه القرآن. والوجه الآخر: أن يعتقد أنَّ النَّوء يُنزِل اللهُ به الماءَ، وأنَّه سببُ الماء على ما قدَّره الله وسَبَق في علمه، وهذا وإن كان وجهاً مباحاً، فإن فيه أيضاً كفراً بنعمة الله عزَّ وجلَّ، وجهلاً بلطيف حكمته في أنَّه يُنزِل الماء متى شاء، مرَّة بنَوء كذا، ومرَّة دون النوء[3]، وكثيراً ما يخوي[4] النَّوء فلا ينزل معه شيء من الماء، وذلك من الله تعالى لا من النَّوء. وكذلك كان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مُطِر: مطِرنا بنَوء

(١) في الأم ١/ ٢٢٣ ، والمصنف نقله عنه بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٨٥ .

(٢) في التمهيد ١٦/ ٢٨٦ .

(٣) في النسخ عدا (ظ): بنوء كذا، والمثبت من (ظ) والتمهيد ١٦/ ٢٨٦ .

(٤) في النسخ عدا (ظ): ينوء. والمثبت من (ظ) والتمهيد ١٦/ ٢٨٦ ، وخَوَت النجوم تخوي خيًّا: أمْحَلَتْ، وقيل: خَوَت وأخوَت: إذا سقطت ولم تمطر في نوئها. اللسان (خوا).

الفتح، ثم يتلو: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢] قال أبو عمر[١]: وهذا عندي نحو قول رسول الله ﷺ: «مُطِرنا بفَضْل الله ورحمته»[٢]. ومن هذا الباب قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين استسقى به: يا عمَّ رسولِ الله، كم بقيَ من نَوء الثريا؟ فقال العباس: العلماء يزعمون أنَّها تعترض في الأُفق سبعاً بعد سقوطها. فما مضت سابعة حتى مطروا، فقال عمر: الحمد لله، هذا بفَضل الله ورحمته. وكأنَّ عمر ﷺ قد عَلِمَ أنَّ نوء الثُّريا وقت يُرجى فيه المطر ويؤمَّل، فسأله عنه: أخَرج، أم بقيت منه بقيَّة[٣]؟.

وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أميَّة أنَّ النبي ﷺ سمع رجلاً في بعض أسفاره يقول: مُطرنا ببعض عثَانين الأسد. فقال رسول الله ﷺ: «كذبتَ، بل هو سُقْيا الله عزَّ وجلَّ» قال سفيان: عَثَانين الأسد: الذراع والجبهة[٤].

وقراءة العامة: «تُكَذِّبون» من التكذيب. وقرأ المفضَّل عن عاصم ويحيى بن وَثَّاب: «تَكْذِبُونَ» بفتح التاء مخفَّفاً[٥]. ومعناه ما قدَّمناه من قول من قال: مطِرنا بنَوْء كذا.

وثبت من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ لن يزلن في أمَّتي: التفاخر في الأحساب، والنِّياحة، والأنْواء»[٦] ولفظ مسلم[٧] في هذا: «أربع في أمَّتي من أمر الجاهلية لا يتركونهنَّ: الفَخر في الأحساب، والطَّعن في الأنساب،

---

(١) في التمهيد ١٦/ ٢٨٦ .

(٢) سلف قريباً.

(٣) التمهيد ١٦/ ٢٨٦ ، وخبر عمر أخرجه الحميدي في مسنده (١٠٠٩) ، والطبري ٢٢/ ٣٧٠-٣٧١ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٣٥٩ مطوَّلاً.

(٤) التمهيد ١٦/ ٢٨٤ ، والحديث أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢١ و٢٢/ ٣٧٠ عن يونس، عن سفيان، به.

(٥) قراءة عاصم في السبعة ص٦٢٤ .

(٦) أخرجه أبو يعلى (٣٩١١)، وابن عبد البر في التمهيد ١٢/ ٢٤٢ و١٦/ ٢٩٢ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٢ : رواه أبو يعلى، ورجاله ثقات.

(٧) في صحيحه (٩٣٤)، وهو عند أحمد (٢٢٩١٢).

والاستسقاء بالنجوم، والنِّياحة».

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ أي: فهلَّا إذا بلغت النفس أو الروح الحُلْقوم(١). ولم يتقدَّم لها ذِكْر؛ لأنَّ المعنى معروف، قال حاتم:

أَمَاوِيُّ ما يُغْني الثَّرَاءُ عنِ الفتى ... إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وضاقَ بِها الصَّدرُ(٢)

وفي حديث: «إنَّ مَلَكَ الموتِ له أعوان يقطعون العروق، ويجمعون الروح شيئاً فشيئاً، حتى ينتهي بها إلى الحُلْقوم، فيتوفاها مَلَك الموت»(٣).

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أَمْري وسلطاني(٤). وقيل: تنظرون إلى الميِّت لا تقدرون له على شيء. وقال ابن عباس: يريد من حضر من أهل الميت ينتظرون متى تَخرُج نفسه. ثم قيل: هو ردٌّ عليهم في قولهم لإخوانهم: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران:١٥٦] أي: فهلَّا ردُّوا رُوح الواحد منهم إذا بلغت الحلقوم. وقيل: المعنى: فهلَّا إذا بلغت نفس أحدكم الحلقومَ عند النزع وأنتم حضور، أمسكتم روحه في جسده، مع حرصكم على امتداد عُمُره، وحبِّكم لبقائه. وهذا ردٌّ لقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]. وقيل: هو خطاب لمن هو في النزع، أي: إن لم يَكُ ما بِكَ من الله، فهلَّا حفظت على نفسك الروح.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي: بالقدرة والعِلم والرؤية(٥). قال عامر بن عبد قيس: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقربَ إليَّ منه. وقيل: أراد: ورسلنا الذين يتولُّون قَبْضه «أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ» ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أي: لا تَرَوْنَهم(٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: فهلَّا إن كنتم غيرَ محاسبين ولا

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٥٢ .
(٢) ديوانه ص٣٩ ، والحشرجة: الغرغرة عند الموت وتردُّد النَّفَس. الصحاح (حشرج).
(٣) لم نقف عليه.
(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٠ .
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٩١ . والصحيح إثبات صفة القرب لله عز وجل على الوجه اللائق بجلاله وعظمته من غير تشبيه ولا تأويل ولا تمثيل ولا تعطيل.
(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٣، وتفسير الطبري ٢٢/ ٣٧٣ .

مجزيين بأعمالكم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي: مجزيُّون محاسبون. وقد تقدم[١]. وقيل: غير مملوكين ولا مقهورين. قال الفرَّاء وغيره: دَيَّنْتُه: ملَّكته، وأنشد للحطيئة:

لقد دُيِّنتِ أمرَ بَنِيكِ حتَّى   تركتِهمُ أدقَّ مِن الطَّحِينِ[٢]

يعني: مُلِّكْتِ. ودانه، أي: أذلَّه واستعبده، يقال: دِنْته فَدَان. وقد مضى في «الفاتحة»[٣] القول في هذا عند قوله تعالى: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الآية: ٤].

﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ ترجعون الروح إلى الجسد. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: ولن تُرجعوها، فبطل زعمكم أنَّكم غير مملوكين ولا محاسبين. و«ترجعونها» جواب لقوله تعالى: «فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ»، ولقوله: «فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ» أجيبا بجواب واحد، قاله الفرَّاء[٤]. وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] أجيبا بجواب واحد؛ وهما شرطان. وقيل: حذف أحدهما؛ لدلالة الآخر عليه. وقيل: فيها تقديم وتأخير، مجازها: فلولا وهلّا إن كنتم غير مَدِينين تَرجِعونها، تردُّون نَفْس هذا الميِّت إلى جسده إذا بلغت الحلقوم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ذكر طبقات الخَلْق عند الموت، وعند

---

(١) ١٩/ ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) الصحاح (دين) وما بعده منه أيضاً، والبيت في ديوان الحطيئة ص٦٥ ، إلا أنه ورد فيه: فقد سوِّست، بدل: لقد دُيِّنْت.

(٣) ١/ ٢٢١ .

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٠ ، وما بعده منه أيضاً.

البعث، وبيَّن درجاتهم فقال: «فَأَمَّا إِن كَانَ» هذا المتوفَّى «مِنَ الْمُقَرَّبِينَ» وهم السَابقون[(١)]. ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ وقراءة العامة: «فَرَوْحٌ» بفتح الراء[(٢)]، ومعناه عند ابن عباس وغيره: فراحة من الدنيا[(٣)]. وقال الحسن: الرَّوح: الرحمة[(٤)]. الضحَّاك: الرَّوح: الاستراحة. القُتَبيُّ[(٥)]: المعنى: له في القبر طيب نسيم. وقال أبو العباس بن عطاء: الرَّوح بالنظر إلى وَجْهِ الله، والريحان: الاستماع لكلامه ووحيه. «وَجَنَّةُ نَعِيمٍ» هو ألا يُحجَب فيها عن الله عزَّ وجلَّ. وقرأ الحسن وقتادة ونصر بن عاصم والجحدريُّ ورُوَيس وزيد عن يعقوب: «فَرُوحٌ» بضمِّ الراء، ورويت عن ابن عباس[(٦)]. قال الحسن: الرُّوح: الرحمة؛ لأنَّها كالحياة للمرحوم. وقالت عائشة رضي الله عنها: قرأ النبيُّ ﷺ: «فَرُوحٌ» بضمِّ الراء[(٧)] ومعناه: فبقاء له وحياة في الجنَّة، وهذا هو الرحمة.

«وَرَيْحَانٌ» قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي: رزق[(٨)]. قال مقاتل: هو الرزق بلغة حمير، يقال: خرجت أطلب ريحانَ الله، أي: رزقه؛ قال النَّمِر بن تَوْلَب:

سَلَامُ الإلهِ ورَيْحَانُه ورحمتُه وسَمَاءٌ دِرَرْ[(٩)]

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩١ .

(٢) النشر ٢/ ٣٨٣ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٦٦ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٧٦-٣٧٧ ، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٥ (١٨٨٠٩).

(٤) الكشاف ٤/ ٦٠ .

(٥) في غريب القرآن له ص٤٥٢ .

(٦) القراءات الشاذة ص١٥٢ ، والمحتسب ٢/ ٣١٠ ، والنشر ٢/ ٣٨٣ .

(٧) الكشاف ٤/ ٦٠ ، وأخرجه أحمد (٢٤٣٥٢) ، وأبو داود (٣٩٩١) ، والترمذي (٢٩٣٨)، والنسائي في الكبرى (١١٥٠٢).

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٣ ، وما بعده منه أيضاً، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٣٧٧ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٣ .

(٩) سلف ص١٢٢ من هذا الجزء.

وقال قتادة: إنَّه الجنَّة. الضحَّاك: الرحمة. وقيل: هو الريحان المعروف الذي يُشَمُّ. قاله الحسن وقتادة أيضاً[1]. الربيع بن خَيْثم: هذا عند الموت، والجنَّة مخبوءة له إلى أن يُبعَث. أبو الجوزاء: هذا عند قَبْضِ روحه يتلقَّى بضَبَائر الرَّيحان[2]. أبو العالية: لا يُفارِق أحد رُوحه من المقرَّبين في الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان، فيشمها ثم يقبض روحه فيها[3]، وأصل ريحان واشتقاقه تقدَّم في أوَّل سورة «الرحمن» فتأمَّله. وقد سرد الثعلبيُّ في الرَّوْحِ والرَّيحان أقوالاً كثيرةً سوى ما ذكرنا من أرادها وجدها هناك.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: «إنْ كَانَ» هذا المتوفَّى «مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: لست ترى منهم إلا ما تحبُّ من السلامة فلا تهتمّ لهم، فإنَّهم يَسْلَمون من عذاب الله. وقيل: المعنى: سلام لك منهم، أي: أنت سالم من الاغتمام لهم. والمعنى واحد. وقيل: أي: إنَّ أصحاب اليمين يَدْعُون لك يا محمَّد بأن يصلِّي اللهُ عليك ويُسلِّم. وقيل: المعنى إنَّهم يُسلِّمون عليك يا محمَّد[4]. وقيل: معناه: سَلِمتَ أيُّها العبد مما تكره، فإنَّك من أصحاب اليمين، فحذف: إنَّكَ[5]. وقيل: إنه يُحيَّا بالسلام؛ إكراماً.

فعلى هذا في محلِّ السلام ثلاثة أقاويل: أحدها: عند قَبْضِ روحه في الدنيا يُسلِّم عليه مَلَك الموت، قاله الضحَّاك. وقال ابن مسعود: إذا جاء مَلَك الموت ليقبض روح

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٦، والنكت والعيون ٥/ ٤٦٧، وزاد المسير ٨/ ١٥٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥٤، وقول الحسن أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٧٨.

(٢) تفسير السمعاني ٥/ ٣٦٢، والضبائر: الجماعات. اللسان (ضبر).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٩١، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٧٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٧، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٨، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩١، وزاد المسير ٨/ ١٥٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٧، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ١٣١.

المؤمن قال: ربُّك يقرئك السلام. وقد مضى هذا في سورة «النحل»[١] عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [الآية: ٣٢].

الثاني: عند مساءلته في القبر يُسلِّم عليه منكر ونكير.

الثالث: عند بعثه في القيامة تُسلِّم عليه الملائكة قبل وصوله إليها[٢].

قلت: وقد يحتمل أن تُسَلِّم عليه في المواطن الثلاثة، ويكون ذلك؛ إكراماً بعد إكرام. والله أعلم. وجواب «إنْ» عند المبرِّد محذوف، التقدير: مهما يكن من شيء «فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» إن كان من أصحاب اليمين «فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» فحذف جواب الشرط؛ لدلالة ما تقدَّم عليه، كما حذف الجواب في نحو قولك: أنت ظالم إن فعلتَ؛ لدلالة ما تقدَّم عليه. ومذهب الأخفش أنَّ الفاء جواب «أمَّا» و «إنْ»، ومعنى ذلك أنَّ الفاء جواب «أمَّا» وقد سدَّت مسدَّ جواب «إنْ» على التقدير المتقدِّم، والفاء جواب لهما على هذا الحدِّ. ومعنى «أمَّا» عند الزجَّاج: الخروج من شيء إلى شيء، أي: دَعْ ما كنَّا فيه، وخذ في غيره[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن الهدى وطريق الحقِّ[٤] ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: فلهم رزق من حميم، كما قال: «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ» وكما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٧]. ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ إدخال في النار. وقيل: إقامة في الجحيم ومقاساة لأنواع عذابها، يقال: أصلاه النارَ وصَلَّاه، أي: جعله يَصْلَاها، والمصدر ههنا أُضيف إلى المفعول، كما يقال: لفلان إعطاء مالٍ، أي: يُعطَى المال. وقرئ: «وَتَصْلِيَةِ» بكسر التاء، أي: ونزلٌ من تصلية جحيم. ثم أدغم أبو عمرو التاء في

(١) ١٢/ ٣٢٠.

(٢) الأقوال الثلاثة في النكت والعيون ٥/ ٤٦٧.

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧١٤-٧١٥، وقول المبرِّد في المقتضب ٢/ ٢٧.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٩١.

الجيم، وهو بعيد[(١)].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: هذا الذي قصصناه مَحْضُ اليقين وخالصه. وجاز إضافة الحقِّ إلى اليقين، وهما واحد؛ لاختلاف لفظهما. قال المبرِّد: هو كقولك: عين اليقين، ومحض اليقين، فهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند الكوفيين. وعند البصريين: حقُّ الأمر اليقين، أو الخبر اليقين. وقيل: هو توكيد. وقيل: أصل اليقين أن يكون نعتاً للحقِّ، فأُضيف المنعوت إلى النعت على الاتساع والمجاز، كقوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ﴾[(٢)] [يوسف: ١٠٩].

وقال قتادة في هذه الآية: إنَّ الله ليس بتارِك أحداً من الناس حتى يَقِفه على اليقين من هذا القرآن، فأمَّا المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: نَزِّه الله تعالى عن السُّوء. والباء زائدة، أي: سبِّح اسم ربِّك، والاسمُ المسمَّى[(٣)]. وقيل: «فَسَبِّحْ» أي: فَصَلِّ بذِكر ربِّك وأَمْره[(٤)]. وقيل: فاذكر اسمَ ربِّك العظيم وسبِّحه. وعن عقبة بن عامر قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال النبيُّ ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال النبيُّ ﷺ: «اجعلوها في سجودكم» خرَّجه أبو داود[(٥)]، والله أعلم.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٢ ، والكشاف ٤/ ٦٠ ، والبحر المحيط ٨/ ٢١٦ .

(٢) الإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري ٢/ ٤٣٦-٤٣٨ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤٨ .

(٣) الوسيط ٤/ ٢٤٣ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٢ .

(٥) برقم (٨٦٩)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٨٨٧)، وأحمد (١٧٤١٤)، والحاكم ٢/ ٤٧٧ وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

سورة الحديد

مدنيَّةٌ في قول الجميع، وهي تسع وعشرون آية[1].

عن العِرباض بن سارية أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ بالمسبِّحات قبل أن يرقد، ويقول: «إنَّ فيهنَّ آيةً أفضلُ من ألفِ آيةٍ»[2] يعني بالمسبِّحات: «الحديد» و«الحشر» و«الصف» و«الجمعة» و«التغابن».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مجَّد الله، ونزَّهه عن السوء. وقال ابن عباس: صلَّى لِله «مَا فِي السَّمواتِ» ممن خَلَق من الملائكة «وَالأَرْض» من شيء فيه رُوح أو لا رُوح فيه. وقيل: هو تسبيح الدلالة. وأنكر الزجَّاج[3] هذا وقال: لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهورِ آثار الصنعة لكانت مفهومةً؛ فلِمَ قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وإنَّما هو تسبيح مقال. واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] فلو كان هذا تسبيح دلالة، فأيُّ تخصيص لداود؟! قلت: وما ذكره هو الصحيح، وقد مضى بيانه والقول فيه في «سبحان»[4] عند قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الآية: ٤٤]. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٣.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٥٧)، والترمذي (٢٩٢١)، والنسائي في الكبرى (٧٩٧٢)، وأحمد (١٧١٦٠).
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) في معاني القرآن له ٥/ ١٢١.

(٤) ١٣/ ٨٩.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: انفرد بذلك. والمُلْك عبارة عن المَلْك ونفوذ الأمر، فهو سبحانه الملك القادر القاهر. وقيل: أراد خزائن المطر والنبات وسائر الرزق. ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ يميت الأحياء في الدنيا، ويحيي الأموات للبعث. وقيل: يُحيي النُّطَف وهي موات، ويُميت الأحياء. وموضع «يُحْيِي وَيُمِيتُ» رفع على معنى: وهو يحيي ويميت. ويجوز أن يكون نصباً بمعنى «لَهُ مُلْكُ السَّمَواتِ وَالْأَرْضِ» محيياً ومميتاً على الحال من المجرور في «لَهُ» والجار عاملاً فيها[(١)]. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: الله لا يُعجزه شيء.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ اختلف في معاني هذه الأسماء وقد بيَّنَّاها في الكتاب «الأسنى»[(٢)]. وقد شرحها رسول الله ﷺ شرحاً يغني عن قول كلِّ قائل، فقال في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة: «اللهمَّ أنت الأوَّل فليس قَبْلك شيء، وأنت الآخِر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنا الدَّيْن، واغننا من الفقر»[(٣)] عنى بالظاهر الغالب، وبالباطن العالم، والله أعلم. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ بما كان أو يكون، فلا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢١.

(٢) ص ١٣٣، ١٥١، ٢٠٩.

(٣) مسلم (٢٧١٣): (٦١)، وهو عند أحمد (٨٩٦٠).

تقدّم في «الأعراف»[١] مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يَدخُل فيها من مطر وغيره ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وغيره ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من رِزْق ومطر ومَلَك ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد[٢] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يعني: بقدرته وسلطانه وعِلْمه[٣] ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يبصر أعمالكم ويراها، ولا يخفى عليه شيء منها. وقد جمع في هذه الآية بين «اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» وبين «وَهُوَ مَعَكُمْ» والأخذ بالظاهرين تناقض، فدلَّ على أنَّه لا بُدَّ من التأويل، والإعراضُ عن التأويل اعتراف بالتناقض. وقد قال الإمام أبو المعالي: إنَّ محمَّداً ﷺ ليلةَ الإسراء لم يكن بأقربَ إلى الله عزَّ وجلَّ من يونس بنِ متى حين كان في بطن الحوت. وقد تقدَّم[٤].

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا التكرير؛ للتأكيد، أي: هو المعبود على الحقيقة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: أمور الخلائق في الآخرة.

وقرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حَيْوة وابن مُحَيصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائي وخَلَف: «تَرْجِع»[٥] بفتح التاء وكسر الجيم، الباقون: «تُرْجَعُ».

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[٦]. ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: لا تخفى عليه الضمائر[٧]، ومن كان بهذه الصفة فلا يجوز أن يُعبَد من سواه.

---

(١) ٩/ ٢٣٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٧٠.

(٤) ١٨/ ٩٦.

(٥) النشر ٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٦) ٥/ ٨٥ - ٨٦.

(٧) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٨٨.

قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: صدِّقوا أنَّ الله واحد، وأنَّ محمداً رسوله[١] ﴿وَأَنفِقُوا﴾ تصدَّقوا. وقيل: أنفقوا في سبيل الله. وقيل: المراد الزكاة المفروضة. وقيل: المراد غيرها من وجوه الطاعات وما يقرب منه[٢] ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ دليل على أنَّ أصل الملك لله سبحانه، وأنَّ العبد ليس له فيه إلا التصرُّف الذي يُرضِي الله، فيثيبه على ذلك بالجنَّة، فمن أنفق منها في حقوق الله وهانَ عليه الإنفاق منها، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أُذن له فيه، كان له الثواب الجزيل والأجْر العظيم[٣]. وقال الحسن: «مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» بوراثتكم إيَّاه عمَّن كان قبلكم[٤]. وهذا يدلُّ على أنَّها ليست بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النُّوَّاب والوكلاء، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحقِّ قبل أن تُزال عنكم إلى من بعدكم[٥]. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وعملوا الصالحات ﴿مِنكُمْ وَأَنفَقُوا﴾ في سبيل الله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ استفهام يُراد به التوبيخ. أي: أيُّ عُذْرٍ لكم في ألَّا تؤمنوا وقد أُزيحت العلل؟! ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ بيَّن بهذا أنَّه لا حكم قبل ورود الشرائع.

وقرأ أبو عمرو: «وقد أُخِذَ ميثاقُكُم» على غير مسمَّى الفاعل[٦]. والباقون على

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٢ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧١ .
(٣) الكشاف ٤/ ٦١ بنحوه .
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧١ .
(٥) الكشاف ٤/ ٦١ .
(٦) السبعة ص ٦٢٥، والتيسير ص ٢٠٨ .

مسمَّى الفاعل؛ أي: أخذ الله ميثاقكم. قال مجاهد: هو الميثاق الأوَّل الذي كان وهم في ظهر آدم بأنَّ الله ربَّكم لا إله لكم سواه(١). وقيل: أخذ مِيثاقكم بأن ركَّب فيكم العقول، وأقام عليكم الدلائل والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول ﷺ(٢).

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إذ كنتم. وقيل: أي: إن كنتم مؤمنين بالحُجَج والدلائل(٣). وقيل: أي: إن كنتم مؤمنين بحقٍّ يوماً من الأيام؛ فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا؛ لقيام الحُجَج والأعلام ببعثة محمَّد ﷺ، فقد صحَّت براهينه(٤). وقيل: إن كنتم مؤمنين بالله خالقكم. وكانوا يعترفون بهذا. وقيل: هو خطاب لقوم آمنوا، وأخذ النبيُّ ﷺ ميثاقهم، فارتدُّوا. وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» أي: إن كنتم تقرُّون بشرائط الإيمان.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يريد القرآن(٥). وقيل: المعجزات؛ أي: لزمكم الإيمان بمحمَّد ﷺ؛ لما معه من المعجزات، والقرآنُ أكبرها وأعظمها. ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ أي: بالقرآن. وقيل: بالرسول. وقيل: بالدعوة. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وهو الشرك والكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وهو الإيمان(٦). ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أيُّ شيء يمنعكم من

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٥٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٩٠.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤.
(٣) زاد المسير ٨/ ١٦٣.
(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٩٠.
(٥) الوسيط ٤/ ٢٤٥.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤.

الإنفاق في سبيل الله، وفيما يقرِّبكم من ربِّكم، وأنتم تموتون وتخلِّفون أموالكم، وهي صائرة إلى الله تعالى[(١)]. فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: إنَّهما راجعتان إليه بانقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحقِّ له[(٢)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ﴾ أكثر المفسِّرين على أنَّ المراد بالفتح فتح مكة. وقال الشعبيُّ والزهريُّ: فتح الحُدَيْبية[(٣)]. قال قتادة: كان قتالان أحدهما أفضلُ من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضلُ من الأخرى، كان القتال والنفقة قبل فتح مكَّة أفضلَ من القتال والنفقة بعد ذلك[(٤)]. وفي الكلام حذف، أي: «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ» ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، فحذف؛ لدلالة الكلام عليه[(٥)]. وإنَّما كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأنَّ حاجة الناس كانت أكثر؛ لضعف الإسلام، وفِعْلُ ذلك كان على المنفقين حينئذٍ أشقّ، والأجْر على قدر النَّصَب[(٦)]، والله أعلم.

الثالثة: روى أشهب عن مالك قال: ينبغي أن يُقدَّم أهل الفَضْل والعزم، وقد قال الله تعالى: «لا يَسْتَوي مِنْكُم من أَنْفَقَ من قَبْلِ الفَتْحِ وقَاتَلَ». وقال الكلبيُّ: نزلت في أبي بكر ﷺ؛ ففيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر ﷺ وتقديمه؛ لأنَّه أوَّل من أسلم. وعن ابن مسعود: أوَّل من أظهر الإسلام بسيفه النبيُّ ﷺ وأبو بكر؛ ولأنَّه أوَّل من أنفق على نبيِّ الله ﷺ. وعن ابن عمر قال: كنت عند النبيِّ ﷺ وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خَلَّلَها في صدره بِخِلال، فنزل جبريل فقال: يا نبيَّ الله! ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧١.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧١، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٩٣.

(٥) الكشاف ٤/ ٦٢.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٩، وما بعده منه أيضاً.

قد خلَّلَها في صدره بِخِلال؟ فقال: «قد أنفق عليَّ ماله قبل الفتح» قال: فإنَّ الله يقول لك: اقرأ على أبي بكر السلام وقل له: أراضٍ أنت في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقرأ عليك السلام، ويقول: أراضٍ أنتَ في فقرك هذا أم ساخط»؟ فقال أبو بكر: أأسخط على ربِّي؟ إنِّي عن ربِّي لراضٍ! إنِّي عن ربِّي لراضٍ! إنِّي عن ربِّي لراضٍ! قال: «فإنَّ الله يقول لك: قد رضيتُ عنك كما أنتَ عنِّي راضٍ» فبكى أبو بكر، فقال جبريل عليه السلام: والذي بعثكَ يا محمد بالحقِّ، لقد تَخلَّلت حملةُ العرش بالعُبِيّ منذ تَخلَّل صاحبك هذا بالعباءة[1]. ولهذا قدَّمته الصحابة على أنفسهم، وأقرُّوا له بالتقدُّم والسَّبق.

وقال عليُّ بن أبي طالب ﷺ: سبق النبيُّ ﷺ وصلَّى أبو بكر وَثَلَّثَ عمر؛ فلا أوتى برجل فَضَّلني على أبي بكر إلا جلدته حدَّ المفتري ثمانين جلدةً وطرح الشهادة[2]. فنال المتقدِّمون من المشقَّة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضًا أنفذ.

الرابعة: التقدُّم والتأخُّر قد يكون في أحكام الدنيا، فأمَّا في أحكام الدِّين فقد قالت عائشة رضي الله عنها: أَمَرَنا رسول الله ﷺ أن نُنْزِل الناسَ منازلهم. وأعظم المنازل مرتبةً الصلاة. وقد قال ﷺ في مرضه: «مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس»

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٤٥ - ٢٤٦ ، وأسباب النزول للواحدي ص ٤٣١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩٤ - ٢٩٥ ، والحديث أخرجه ابن حبان في المجروحين ٢/ ١٨٥ ، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ١٠٥ - ١٠٦ ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٢/ ١٠٥ من طرق ودون الزيادة الأخيرة ، وهي من قوله ﷺ : فإن الله يقول لك : «قد رضيت عنك...» إلى آخر الحديث ، ولم نقف عليها . وفي إسناد بعض طرقه: العلاء بن عمرو ، قال عنه ابن حبان : لا يجوز الاحتجاج به بحال. اهـ. وفي بعضها الآخر : محمد بن بابشاذ ، قال عنه البغدادي : في حديثه غرائب ومناكير .

(٢) أخرجه أحمد (١٠٢٠) ، وابن سعد في الطبقات ٦/ ١٣٠ ، وأبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٤٥٨ ، والطبراني في الأوسط (١٦٦١) من طرق ومقتصرين على شطره الأول مع زيادة . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٥٤ : رواه أحمد ، وقال : ثم خبطتنا فتنة ، يريد أن يتواضع بذلك . رواه الطبراني في الأوسط ، ورجال أحمد ثقات . اهـ. ومعنى قوله ﷺ: وصلَّى أبو بكر. أي: أتى ثانياً، والمصلِّي في خيل الحلبة هو الثاني، سُمِّي به؛ لأن رأسه يكون عند صَلَا الأول، وهو ما عن يمين الذَّنَب وشماله. النهاية (صلا).

الحديث[١]. وقال: «يَؤُمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله» وقال: «وليؤمّكما أكبركما» من حديث مالك بن الحُوَيْرث وقد تقدَّم[٢]. وفهم منه البخاري وغيره من العلماء أنه أراد كِبر المنزلة، كما قال ﷺ: «الولاء لِلكبر»[٣] ولم يَعْنِ كِبَرَ السِّنِّ. وقد قال مالك وغيره: إنَّ للسنِّ حقاً. وراعاه الشافعيُّ وأبو حنيفة، وهو أحقُّ بالمراعاة؛ لأنَّه إذا اجتمع العِلْم والسِّنُّ في خيِّرين، قُدِّم العِلْم، وأما أحكام الدنيا فهي مرتَّبة على أحكام الدِّين، فمن قُدِّم في الدين قُدِّم في الدنيا. وفي الآثار: «ليس مِنَّا من لم يُوقِّر كبيرَنَا، ويرحمْ صغيرنا، ويعرفْ لعالمنا حقَّه»[٤]. ومن الحديث الثابت في الأفراد: «ما أكرم شابٌّ شيخاً لِسِنِّه إلا قَيَّض الله له عند سنِّه من يُكرِمه»[٥]. وأنشدوا:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٩ ، وما بعده منه أيضاً ، وحديث عائشة أخرجه أبو داود (٤٨٤٢) وقال: ميمون لم يدرك عائشة. اهـ. وأورده مسلم في مقدمة صحيحه ١/ ٦ . والحديث الآخر سلف ٢/ ٣٧ .

(٢) الحديث الأول سلف ٢/ ٣٦ ، والثاني سلف ٨/ ٦٢ - ٦٣ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠ ، وما بعده منه أيضاً ، والحديث لم نقف عليه مرفوعاً ، وإنما أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٦٢٣٨) ، والدارمي (٣٠٢٢) عن علي وعمر وزيد بن ثابت أنهم كانوا يجعلون الولاء للكبر . وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١١/ ٤٠٤ عن عمر وعبد الله وزيد ، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٣٠٦ عن علي وعبد الله وزيد بن ثابت من قولهم . وورد عند بعضهم : الولاء للكبير . وذكره الزيلعي في نصب الراية ٤/ ١٥٥ وعزاه للقاسم بن حزم السرقسطي في كتابه «غريب الحديث» وقال : وقال في موضع آخر : قال يعقوب : الولاء للكُبْر - بضمِّ الكاف - وهو أكبر ولد الرجل المعتق . انتهى .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠ ، وقول مالك في المدونة ١/ ٨٣ ، والحديث أخرجه أحمد (٦٩٣٧) ، والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٨) ، والترمذي (١٩٢٠) من حديث عبد الله بن عمرو ، ودون قوله ﷺ : «ويعرف لعالمنا حقَّه» وأخرجها أحمد (٢٢٧٥٥) ، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٣٢٨) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ ، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٢٧ : رواه أحمد والطبراني في الكبير ، وإسناده حسن . اهـ. وقال الترمذي عن حديث عبد الله بن عمرو : حديث حسن صحيح .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠ ، والحديث أخرجه الترمذي (٢٠٢٢) ، والعقيلي في الضعفاء الكبير ٤/ ٣٧٥ عن أنس ﷺ . قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ يزيد ابن بيان. اهـ . وقال العقيلي : لا يتابع عليه ولا يعرف إلا به .

يا عائبًا للشيوخ مِن أشَر ... داخَلَهُ في الصِّبَا ومِن بَذَخِ
اذكر إذا شئتَ أن تُعيِّبهُمْ ... جَدَّكَ واذكر أباك يابن أخِ
واعلم بأن الشباب منسلِخٌ ... عنك وما وِزْرُه بمنسلِخِ
من لا يعزّ الشيوخَ لا بلغتْ ... يوماً به سِنُّه إلى الشَّيَخِ[1]

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المتقدِّمون المتناهون السابقون، والمتأخِّرون اللاحقون، وعَدَهم الله جميعاً الجنَّة مع تفاوت الدرجات[2].

وقرأ ابن عامر: «وَكُلٌّ» بالرفع، وكذلك هو بالرفع في مصاحف أهل الشام[3]. الباقون: «وَكُلًّا» بالنصب على ما في مصاحفهم، فمن نصب؛ فعلى إيقاع الفعل عليه، أي: وَعد الله كلًّا الحسنى. ومن رفع؛ فلأنَّ المفعول إذا تقدَّم ضَعُفَ عمل الفعل، والهاء محذوفة من وَعَدَه[4].

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ندب إلى الإنفاق في سبيل الله. وقد مضى في «البقرة»[5] القول فيه. والعرب تقول لكلِّ من فَعَلَ فِعْلًا حسنًا: قد أقرض. كما قال:

وإذا جُوزِيتَ قَرضاً فاجْزِهِ ... إنَّما يَجْزِي الفتى ليس الْجَمَلْ[6]

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠ ، ونسبه لابن عبد الصمد السرقسطي ، وورد فيه وفي (م): تُعيِّرهم، بدل: تُعيِّبهم.
(٢) الكشاف ٤/ ٦٣ .
(٣) السبعة ص ٦٢٥ ، والتيسير ص ٢٠٨ .
(٤) الحجة للفارسي ٦/ ٢٦٦ - ٢٦٧ .
(٥) ٤/ ٢١٩ .
(٦) القائل لبيد ، وسلف ٤/ ٢٢٢ .

وَسُمِّيَ قرضاً؛ لأنَّ القرض أُخرِج لاسترداد البدل. أي: من ذا الذي ينفق في سبيل الله حتى يبدِله الله بالأضعافِ الكثيرة. قال الكلبي: «قرضاً» أي: صدقة «حَسَناً» أي: محتسباً مِن قلبه بلا مَنٍّ ولا أذًى. ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ ما بين السبع إلى سبع مئة، إلى ما شاء الله من الأضعاف[1]. وقيل: القرض الحسن هو أن يقول: سبحانَ الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، رواه سفيان عن أبي حيان. وقال زيد ابن أسلم: هو النفقة على الأهل. الحسن: التطوُّع بالعبادات. وقيل: إنَّه عمل الخير، والعرب تقول: لي عند فلان قرضُ صِدْقٍ، وقرضُ سُوء[2]. القشيريُّ: والقرض الحسن أن يكون المتصدِّق صادقَ النِّيَّة، طيِّب النفس، يبتغي به وجه الله، دون الرياء والسُّمعة، وأن يكون من الحلال.

ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الرديء فيخرجه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢٦٧] وأن يتصدَّق في حال يأمل الحياة؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ سئل عن أفضلِ الصدقة فقال: «أن تُعطِيَه وأنت صحيح شحيح تأمل العيشَ، ولا تُمْهِلْ حتى إذا بلغت التراقي قلتَ: لفلان كذا، ولفلان كذا»[3]. وأن يُخفيَ صدقته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١]. وألَّا يَمُنَّ؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]. وأن يستحقرَ كثيرَ ما يُعطي؛ لأنَّ الدنيا كلَّها قليلة، وأن يكون من أحبِّ أمواله؛ لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢] وأن يكون كثيراً؛ لقوله ﷺ: «أفضل الرِّقاب أغلاها ثمنًا، وأَنْفَسُها عند أهلها»[4].

«فَيُضَاعِفَهُ لَهُ» وقرأ ابن كثير وابن عامر: «فَيُضَعِّفُه» بإسقاط الألف إلا ابنَ عامر

---

(١) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٢١ و٣٠/ ٢٨.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٢، وقول أبي حيان أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥١٠، وابن أبي حاتم في التفسير ٢/ ٤٦١ (٢٤٣٣)، وقول زيد بن أسلم أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ٢/ ٤٦٠ (٢٤٣٢).

(٣) الوسيط ٤/ ٢٤٧، وما بعده منه أيضاً، والحديث سلف تخريجه ٣/ ٦٢ بالهامش.

(٤) الوسيط ٤/ ٢٤٧، والحديث سلف تخريجه ١٠/ ٥٨.

ويعقوب نصبوا الفاء. وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة: «فَيُضَاعِفُهُ» بالألف وتخفيف العين إلا أنَّ عاصماً نصب الفاء، ورفع الباقون[١] عطفاً على «يُقْرِضُ». وبالنصب جواباً على الاستفهام. وقد مضى في «البقرة»[٢] القول في هذا مستوفى. ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ يعني الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ العامل في «يَوْمَ»: «وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ»[٣]، وفي الكلام حذف، أي: «وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ» في «يَوْم تَرَى» فيه ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ أي: يمضي على الصراط، في قول الحسن[٤]، وهو الضياء الذي يمرون فيه ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: قدَّامهم. ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ قال الفرَّاء[٥]: الباء بمعنى «في» أي: في إيمانهم. أو بمعنى «عن» أي: عن أيمانهم. وقال الضحَّاك[٦]: «نُورُهُم» هُدَاهُم «وَبِأَيْمَانِهِمْ» كتبهم، واختاره الطبريُّ[٧]. أي: يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانهم كتب أعمالهم. فالباء على هذا بمعنى «في». ويجوز على هذا أن يوقف على «بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» ولا يوقف إذا كانت بمعنى «عن».

وقرأ سهل بن سعد الساعدي وأبو حيوة: «وبِإِيمانِهِم» بكسر الألف[٨]، أراد الإيمان الذي هو ضدُّ الكفر. وعطف ما ليس بظرف على الظرف؛ لأنَّ معنى الظرف الحال، وهو متعلِّق بمحذوف. والمعنى: يسعى كائنًا «بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» وكائنًا «بِإِيْمَانِهِمْ»، وليس قوله: «بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» متعلِّقًا بنفس «يَسْعَى».

---

(١) السبعة ص ٦٢٥، والتيسير ص ٨١، والنشر ٢/ ٢٢٨.

(٢) ٤/ ٢٢٧.

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧١٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٣.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٢.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٥.

(٧) في تفسيره ٢٢/ ٣٩٨ بإسناده عنه.

(٨) القراءات الشاذة ص ١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١١، وما بعده منه.

وقيل: أراد بالنور: القرآن. وعن ابن مسعود: يُؤْتَوْنَ نورهم على قَدْر أعمالهم، فمنهم من يُؤتَى نوره كالنخلة، ومنهم من يُؤتَى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً مَن نوره على إبهام رِجْله، فيُطفأ مرَّةً ويُوقَد أخرى[١]. وقال قتادة: ذكر لنا أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «إنَّ مِن المؤمنين من يُضِيءُ نُوره كما بين المدينة وعدنٍ [أَبْيَنَ من اليَمَن أو صنعاء[٢]]، ودون ذلك، حتى يكون منهم من لا يُضِيءُ نوره إلا موضع قدميه». قال الحسن: ليستضيؤوا به على الصراط، كما تقدَّم. وقال مقاتل: ليكون دليلاً لهم إلى الجنَّة[٣]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ التقدير: يقال لهم: «بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ» دخول جنَّاتٍ. ولا بُدَّ من تقدير حذف المضاف؛ لأنَّ البشرى حدث، والجنَّة عين، فلا تكون هي هي[٤]. «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ» أي: من تحتهم أنهار اللبن والماء والخمر والعسل من تحت مساكنها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الدخول المحذوف، التقدير: «بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ» دخول جنَّاتٍ «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» مقدرين الخلود فيها، ولا تكون الحال من بشراكم؛ لأنَّ فيه فصلاً بين الصلة والموصول. ويجوز أن يكون مما دلَّ عليه البشرى، كأنَّه قال: تبشرون خالدين. ويجوز أن يكون الظرف الذي هو «الْيَوْمَ» خبراً عن «بُشْرَاكُمْ»، و«جَنَّاتٌ» بدلاً من البشرى، على تقدير حذف المضاف، كما تقدَّم. و«خَالِدِينَ» حال حسب ما تقدَّم. وأجاز الفرَّاء[٥] نصب «جَنَّات» على الحال، على أن يكون «الْيَوْمَ»

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٩، والطبري ٢٢/ ٣٩٨.

(٢) ما بين حاصرتين في (د) هكذا: أو ما بين اليمن وصنعاء. وفي (م): أو ما بين المدينة وصنعاء. والمثبت من (ظ)، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩٥، وتفسير الطبري ٢٢/ ٣٩٧ - ٣٩٨ بإسناده عنه، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٥. قال الحَمَوي في معجم البلدان ٤/ ٨٩: عَدَن، بالتحريك، وآخره نون: مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ... وتضاف إلى أَبْيَن، وهو مخلاف عدن من جملته.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٧٣.

(٤) البيان لابن الأنباري ٢/ ٤٢١، والمشكل لمكي ٢/ ٧١٧.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٢، ونقله عنه المصنف بواسطة مكي بن أبي طالب في المشكل ٢/ ٧١٧.

خبراً عن «بُشْرَاكُمُ» وهو بعيد، إذ ليس في «جَنَّات» معنى الفعل. وأجاز أن يكون «بُشْرَاكُمُ» نصبًا على معنى: يبشرونهم بشرى، وينصب «جنَّات» بالبشرى، وفيه تفرقة بين الصلة والموصول.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝١٤ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ العامل في «يَوْمَ»: «ذَلِكَ هُوَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ». وقيل: هو بدل من اليوم الأول[١]. ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ﴾ قراءة العامَّة: بوصل الألف مضمومة الظاء، من نظر، والنظر: الانتظار، أي: انتظرونا. وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثَّاب: «أَنْظِرُونَا» بقطع الألف وكسر الظاء[٢]، من الإنظار. أي: أمهلونا وأخِّرونا، أنظرته: أخَّرته. واستنظرته أي: استمهلته[٣]. وقال الفرَّاء[٤]: تقول العرب: أنظِرني: انتظرني، وأنشد لعمرو بنِ كُلْثوم:

أبـا هِـنـدٍ فـلا تَـعْـجَـلْ عَـلَـيْـنَـا وأَنْـظِـرْنَـا نُـخَـبِّـرْكَ الْـيَـقِـيـنَـا

أي: انتظرنا. ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نستضيء من نوركم[٥]. قال ابن عباس وأبو أمامة: يغشى الناسَ يوم القيامة ظلمةٌ ـ قال الماورديُّ[٦]: أظنُّها بعد فصل القضاء ـ ثم يعطون نوراً يمشون فيه. قال المفسِّرون: يُعطي الله المؤمنين نوراً يوم القيامة على

---

(١) المشكل لمكي ٢/٧١٨.

(٢) السبعة ص ٦٢٥ - ٦٢٦، والتيسير ص ٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤، وتفسير الطبري ٢٢/ ٤٠٠.

(٣) الصحاح (نظر).

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٣، والبيت الآتي سلف ٢/ ٢٩٨.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٦.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٤٧٤ وما قبله منه أيضاً، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٠١ عن ابن عباس.

قَدْر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويُعطي المنافقين أيضًا نوراً خديعةً لهم؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[١] [النساء: ١٤٢] وقيل: إنَّما يُعطَون النور؛ لأنَّ جميعَهم أهلُ دعوة دون الكافر، ثم يسلب المنافق نوره؛ لنفاقه، قاله ابن عباس[٢]. وقال أبو أمامة: يُعطى المؤمن النور، ويُترَك الكافر والمنافق بلا نور[٣]. وقال الكلبيُّ: بل يَستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يُعطَون النور، فبينما هم يمشون، إذ بعث الله فيهم ريحًا وظلمة، فأطفأ بذلك نور المنافقين، فذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ يقوله المؤمنون؛ خشيةَ أن يُسلبوه كما سلبه المنافقون، فإذا بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواضعَ أقدامهم قالوا للمؤمنين: «انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ».

﴿قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾ أي: قالت لهم الملائكة: «ارْجِعُوا». وقيل: بل هو قول المؤمنين لهم[٤]: «ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ» إلى الموضع الذي أخذنا منه النور، فاطلبوا هنالك لأنفسكم نوراً، فإنَّكم لا تقتبسون من نورنا. فلما رجعوا وانعزلوا في طلب النور، ضرب بينهم بسور. وقيل: أي: هلَّا طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا. «بِسُورٍ» أي: سُورٌ؛ والباء صلة[٥]. قاله الكسائيُّ. والسُّور: حاجز بين الجنَّة والنار. وروي أنَّ ذلك السُّور ببيت المَقْدس عند موضع يعرف بوادي جهنَّم[٦]. ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ يعني: ما يلي منه المؤمنين ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني: ما يلي المنافقين. قال كعب الأحبار: هو الباب الذي ببيت المقدس المعروف بباب الرحمة. وقال عبد الله ابن عمرو: إنَّه سُور بيت المقدس الشرقيُّ، باطنه فيه المسجد «وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٦.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٤.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٧ (١٨٨٢٢) و(١٨٨٢٣) بنحوه.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٥.
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٦.
(٦) تفسير الطبري ٢٢/ ٤٠١ - ٤٠٢، وأخرج القول الأخير عن ابن عباس وكعب وعبد الله بن عمرو، وسيوردهم المصنف قريباً.

الْعَذَابُ» يعني: جهنَّم. ونحوه عن ابن عباس(١). وقال زياد بن أبي سوادة: قام عبادة بن الصامت على سُور بيت المقدس الشرقيِّ فبكى، وقال: من هَاهُنَا أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّه رأى جهنَّم(٢). وقال قتادة: هو حائط بين الجنَّة والنار «بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ» يعني: الجنَّة «وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ» يعني: جهنَّم(٣). وقال مجاهد: إنَّه حجاب كما في «الأعراف» وقد مضى القول فيه(٤). وقد قيل: إنَّ الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين(٥).

قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا، يعني: نصلِّي مثل ما تصلُّون [ونغزوا مثل ما تغزون(٦)] ونفعل مثل ما تفعلون ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: يقول المؤمنون: «بَلَى» قد كنتم معنا في الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: استعملتموها في الفتنة. وقال مجاهد: أهلكتموها بالنِّفاق. وقيل: بالمعاصي، قاله أبو سنان. وقيل: بالشهوات واللذات، رواه أبو نمير الهمْدانيُّ(٧).

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٦ عن كعب وابن عمرو، وسلف تخريجه عنهما - وعن ابن عباس - في التعليق السابق.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٢، والحديث أخرجه ابن حبان (٧٤٦٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٢٦٦)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٢٩ من طريق سعيد بن عبد العزيز، عن زياد بن أبي سوادة، به. وسعيد بن عبد العزيز قد اختلط قبل موته، وزياد بن أبي سوادة قال عنه أبو حاتم في الجرح والتعديل ٣/ ٥٣٤: لا أراه سمع من عبادة بن الصامت. اهـ. وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٨-٤٧٩، عن محمد بن ميمون، عن بلال بن عبد الله، عن عبادة، به، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: بل منكر، وآخره باطل؛ لأنه ما اجتمع عبادة برسول الله ﷺ هناك، ثم من هو ابن ميمون وشيخه؟ وفي نسخة أبي مسهر: عن سعيد عن زياد بن أبي سوادة قال: رئي عبادة... فهذا المرسَل أجود. اهـ.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٧٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٠٤ مختصراً.

(٤) ١١/ ٢٢٦.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٧٥.

(٦) ما بين حاصرتين جاءت في (ظ) و(د) هكذا: ونقرأ مثل ما تقرؤون. والمثبت من (م)، والنكت والعيون ٥/ ٤٧٦ والكلام منه.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٧، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٠٤ - ٤٠٥.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: «تَرَبَّصْتُمْ» بالنبيِّ ﷺ الموت، وبالمؤمنين الدوائر. وقيل: «تَرَبَّصْتُمْ» بالتوبة «وارْتَبْتُمْ» أي: شككتم في التوحيد والنبوَّة. ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ أي: الأباطيل(١). وقيل: طول الأمل(٢)، وقيل: هو ما كانوا يتمنَّونه من ضَعْفِ المؤمنين ونزول الدوائر بهم(٣). وقال قتادة: الأماني هنا: خِدَع الشيطان. وقيل: الدنيا، قاله عبد الله بن عباس. وقال أبو سنان: هو قولهم: سَيُغْفَر لنا(٤). وقال بلال بن سعد: ذِكْرك حسناتِك، ونسيانك سيئاتِك غِرَّة. ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني: الموت. وقيل: نصرة نبيِّه ﷺ. وقال قتادة: إلقاؤهم في النار(٥).

﴿وَغَرَّكُم﴾ أي: خدعكم ﴿بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: الشيطان، قاله عكرمة. وقيل: الدنيا، قاله الضحاك(٦). وقال بعض العلماء: إنَّ للباقي بالماضي معتَبَرًا، وللآخِر بالأوَّل مزدجَرًا، والسعيد من لا يغترُّ بالطمع، ولا يركن إلى الخُدَع، ومن ذكر المنيَّة نسي الأمنيَّة، ومن أطال الأمل نسي العمل، وغفل عن الأجل. وجاء «الْغَرُورُ» على لفظ المبالغة للكثرة(٧).

وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمَيْفَع وسِمَاك بن حرب: «الغُرُور» بضمِّ الغين(٨)، يعني: الأباطيل، وهو مصدر.

وعن ابن عباس: أنَّ نبيَّ الله ﷺ خطَّ لنا خطوطًا، وخطَّ منها خطًّا ناحية فقال: «أتدرون ما هذا؟ هذا مَثَلُ ابنِ آدم ومثل التمنِّي، وتلك الخطوط الآمال بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت»(٩). وعن ابن مسعود قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا مربعًا،

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٥.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٣.
(٣) الوسيط ٤/ ٢٤٩.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٠٦ عن قتادة.
(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦، دون قوله: وقيل: نصرة نبيِّه ﷺ. فمن معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٥.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦.
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٥٩.
(٨) القراءات الشاذة ص١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١١.
(٩) لم نقف عليه.

وخطَّ وسطه خطًّا وجعله خارجًا منه، وخطَّ عن يمينه ويساره خطوطًا صغارًا فقال: «هذا ابن آدم، وهذا أَجَلُه محيط به، وهذا أَمَلُه قد جاوز أجلَه، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإن أَخْطَأَه هذا نهشه هذا، وإن أَخْطَأَه هذا نهشه هذا»[1].

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أيُّها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أيْأَسَهم من النجاة. وقراءة العامة: «يُؤْخَذُ» بالياء؛ لأنَّ التأنيثَ غيرُ حقيقيٍّ؛ ولأنَّه قد فصل بينها وبين الفعل. وقرأ ابن عامر ويعقوب: «تُؤْخَذُ» بالتاء[2]، واختاره أبو حاتم؛ لتأنيث الفدية. والأوَّل اختيار أبي عبيد، أي: لا يقبل منكم بَدَل ولا عِوَض ولا نَفْس أخرى. ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مقامكم ومنزلكم ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: أَوْلَى بكم[3]، والمولى: من يتولَّى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن كان ملازمًا للشيء. وقيل: أي: النار تملك أمرهم[4]، بمعنى أنَّ الله تبارك وتعالى يُرَكِّب فيها الحياة والعقل فهي تتميَّز غيظًا على الكفَّار، ولهذا خوطبت في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: ساءت مرجعًا ومصيرًا.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: يقرب ويحين[5]، قال الشاعر:

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٧)، قال ابن حجر في فتح الباري ١١/ ٢٣٨: الأعراض، جمع عَرَض - بفتحتين -: وهو ما ينتفع به في الدنيا في الخير والشر. ونَهَشَه: أصابه.

(٢) السبعة ص ٦٢٦، والتيسير ص ٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٨٤، والكشف لمكي ٢/ ٣١٠ - ٣١١.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥٢، وغريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٥٣.

(٤) الوسيط ٤/ ٢٤٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٧٨، وما بعده منه.

أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرِكَ الجهلا　　وأن يُحْدِثَ الشَّيبُ المبينُ لنا عَقْلَا[١]

وماضيه: أَنَى ـ بالقصر ـ يَأْنِي[٢]. ويقال: آنَ لكَ ـ بالمد ـ أن تفعل كذا، يَئِينُ أَيْناً، أي: حَانَ، مثل أَنَى لك، وهو مقلوب منه[٣]. وأنشد ابن السِّكِّيت:

أَلَـمَّـا يَـئِـنْ لِـي أَنْ تُـجَـلَّـى عَـمَـايَـتِـي　　وأُقْـصِـرُ عـن لَـيْـلَـى بَـلَـى قَـدْ أَنَـى لِـيَـا

فجمع بين اللغتين.

وقرأ الحسن: «أَلَمَّا يَأْنِ»[٤]، وأصلها «أَلَمْ» زيدت «ما» فهي نفي لقول القائل: قد كان كذا، و«لم» نفي لقوله: كان كذا.

وفي «صحيح مسلم»[٥] عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا اللهُ بهذه الآية: «أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْرِ اللهِ» إلا أربعُ سنين.

قال الخليل: العتاب: مخاطبة الإدلال، ومذاكرة المَوْجِدة[٦]. تقول: عاتبته معاتبة ﴿أَن تَخْشَعَ﴾ أي: تذلَّ وتلين ﴿قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ روي أنَّ المزاح والضحك كثر في أصحاب النبيِّ ﷺ لما ترفَّهوا بالمدينة، فنزلت الآية[٧]؛ ولما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «إنَّ الله يستبطئكم بالخشوع»[٨] فقالوا عند ذلك: خَشَعنا.

وقال ابن عباس: إنَّ الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاثة عشرة سنة من نزول القرآن[٩].

---

(١) القائل كُثيِّر عزَّة، وهو في ديوانه ص ٢١٥، ورواية عجزه هكذا:

وأن يُحدِث الشيب الملمُّ لِيَ العقلا

(٢) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٥٣.

(٣) الصحاح (أين)، وما بعده منه أيضاً.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١٢، وما بعده منه.

(٥) برقم (٣٠٢٧).

(٦) الصحاح (عتب)، وما بعده منه أيضًا، والمصنف نقله عنه بواسطة المفهم ٧/ ٤٠٦، وما بعده منه أيضاً.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٤، وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٨ (١٨٨٢٣) عن مقاتل بن حيان.

(٨) لم نقف عليه.

(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٧٧، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٨ (١٨٨٢٥).

وقيل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة. وذلك أنَّهم سألوا سلمانَ أن يُحدِّثهم بعجائب التوراة فنزلت: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ الآية [يوسف: ١-٣]؛ فأخبرهم أنَّ هذا القصص أحسن من غيره وأنفع لهم، فكفُّوا عن سلمان، ثم سألوه مثل الأوَّل فنزلت: «أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لِذِكْر اللهِ وما نَزَلَ من الحقِّ» فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا في العلانية باللسان[١].

قال السديُّ وغيره: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا» بالظاهر، وأسرُّوا الكفر «أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ». وقيل: نزلت في المؤمنين[٢].

قال سعد: قيل: يا رسول الله، لو قصصتَ علينا، فنزل: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ» فقالوا بعد زمان: لو حدَّثْتَنا، فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] فقالوا بعد مدَّة: لو ذكَّرتنا، فأنزل الله تعالى: «أَلَمْ يَأْنِ للَّذين آمنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لِذِكْر اللهِ وما نَزَلَ من الحقِّ»[٣]. ونحوه عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض ويقول: ما أَحدثنا؟ قال الحسن: استبطأهم وهم أحبُّ خَلْقه إليه[٤].

وقيل: هذا الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد عليهم السلام؛ لأنَّه قال عقيب هذا: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ» أي: ألم يَأْنِ للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلينَ قلوبهم للقرآن، وألَّا يكونوا كمتقدِّمي قوم موسى وعيسى، إذ طال عليهم الأمَد بينهم وبين نبيِّهم فقست قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟﴾ أي: وألَّا يكونوا، فهو منصوب عطفاً على «أَنْ

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٧.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٧ وعزاه لابن عباس وابن مسعود والقاسم بن محمد.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٤٣٢ بإسناده عنه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٧، وسلف تخريجه قريباً عن ابن مسعود.

تَخْشَعَ». وقيل: مجزوم على النهي[١]، مجازه: ولا يكونن، ودليل هذا التأويل رواية رُوَيس عن يعقوب: «لَا تَكُونوا» بالتاء[٢]، وهي قراءة عيسى وابن إسحاق. يقول: لا تسلكوا سبيلَ اليهود والنصارى، أُعطوا التوراةَ والإنجيلَ فطالت الأزمان بهم.

قال ابن مسعود: إنَّ بني إسرائيل لما طال عليهم الأمَد قست قلوبُهم، فاخترعوا كتاباً من عند أنفسهم استحلته أنفسهم، وكان الحقُّ يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم كأنَّهم لا يعلمون، ثم قالوا: اعْرِضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل، فإن تابعوكم فاتركوهم، وإلا فاقتلوهم. ثم اصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم، وقالوا: إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد، وإن أَبَى قتلناه، فلا يختلف علينا بعده أحد، فأرسلوا إليه، فكتب كتابَ الله في ورقة وجعلها في [قَرنٍ] وعَلَّقها فِي عنقه، ثم لبس عليه ثيابه، فأتاهم، فعرضوا عليه كتابَهم، وقالوا: أتؤمن بهذا؟ فضرب بيده على صدره، وقال: آمنتُ بهذا. يعني: المعلَّق على صدره. فافترقت بنو إسرائيل على بِضْع وسبعين مِلَّة، وخير مللهم أصحاب ذِي القَرْن. قال عبد الله: ومن يَعِشْ منكم فسيرى منكَراً، وبِحَسب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيِّره أن يُعلِمِ اللهَ من قلبه أنَّه له كاره[٣].

وقال مقاتل بن حيان: يعني: مؤمني أهل الكتاب طال عليهم الأمد واستبطؤوا بَعْثَ النبيِّ ﷺ[٤].

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ يعني: الذين ابتدعوا الرهبانيَّة أصحاب الصوامع. وقيل: من لا يعلم ما يتديَّن به من الفقه ويخالف من يعلم. وقيل: هم من لا يؤمن في علم الله تعالى، ثبتت طائفة منهم على دين عيسى حتى بُعِث النبيُّ ﷺ فآمنوا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٠.
(٢) النشر ٢/ ٣٨٤.
(٣) أخرجه بتمامه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٩ (١٨٨٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٥٨٩)، وأخرجه مختصراً الطبري ٢٢/ ٤١٠، وما بين حاصرتين من مصادر التخريج، والقَرَن: الجعبة. اللسان (قرن).
(٤) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٣٠ عن مقاتل بن سليمان.

به، وطائفة منهم رجعوا عن دين عيسى وهم الذين فَسَّقهم اللهُ. وقال محمد بن كعب: كانت الصحابة بمكّة مجدِبِين، فلما هاجروا أصابوا الرِّيف والنعمة، ففتروا عمَّا كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا.

وذكر ابن المبارك[١]: أخبرنا مالك بن أنس، قال: بلغني أنَّ عيسى عليه السلام قال لقومه: لا تُكثِروا الكلام بغير ذِكْر الله تعالى فتقسو قلوبكم، فإنَّ القلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنَّكم أرباب، وانظروا فيها ـ أو قال: في ذنوبكم ـ كأنَّكم عبيد، فإنَّما الناس رجلان، معافًى ومبتلًى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية.

وهذه الآية: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لِذِكْرِ اللهِ» كانت سببَ توبة الفُضيل بن عياض وابنِ المبارك ـ رحمهما الله تعالى. ذكر أبو المطرِّف عبد الرحمن ابن مروان القَلَانسيُّ قال: حدثنا أبو محمد الحسن بن رشيق، قال: حدَّثنا علي بن يعقوب الزيَّات، قال: حدَّثنا إبراهيم بن هشام، قال: حدَّثنا زكريا بن أبي أبان، قال: حدَّثنا الليث بن الحارث، قال: حدَّثنا الحسن بن داهر، قال: سئل عبد الله بن المبارك عن بدء زهده قال: كنت يوماً مع إخواني في بستان لنا، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا، وكنت مولعًا بضَرْب العودِ والطُّنبور، فقمت في بعض الليل فضربت بصوت يقال له: راشين السَّحَر، وأراد سنان يغنِّي، وطائر يصيح فوق رأسي على شجرة، والعود بيدي لا يجيبني إلى ما أريد، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان ـ يعني العود الذي بيده ـ ويقول: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لِذِكْرِ اللهِ وما نَزَلَ من الحقِّ» قلت: بلى واللهِ! وكسرتُ العودَ، وصَرَفتُ مَن كان عندي، فكان هذا أوَّل زهدي وتشميري[٢]. وبلغنا عن الشعر الذي أراد ابن المبارك أن يضرب به العود:

أَلَمْ يَأْنِ لي منك أن ترحَمَا وتَعْصِ العَواذِلَ واللُّوَّما

---

(١) في كتابه الزهد (١٣٥)، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٢٨.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٣١٧) – ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٢/ ٤٠٧ بإسناد آخر عن ابن المبارك، ودون ذكر قوله: فضربت بصوت يقال له ... إلى قوله: يغني.

وتَـرْثِـي لِـصَـبٍّ بِـكُـم مُـغْـرَم أقـام عـلـى هـجـرِكـم مَـأْتَـمَـا
يَـبِـيـتُ إذَا جَـنَّـهُ لَـيْـلُـهُ يُـراعِـي الـكَـواكِـبَ والأَنْـجُـمَـا
ومـاذا عـلـى الـظَّـبْـيِ لَـوْ أنَّـهُ أَحَـلَّ مِـنَ الـوَصْـلِ مـا حَـرَّمَـا

وأما الفُضيل بن عياض فكان سبب توبته أنَّه عشق جاريةً، فواعدته ليلًا، فبينما هو يرتقِي الجدران إليها إذ سمع قارئًا يقرأ: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذين آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لِذِكْرِ اللهِ» فرجع القهقرى وهو يقول: بلى واللهِ قد آن! فآواه الليل إلى خَرِبَة وفيها جماعة من السابلة، وبعضهم يقول لبعض: إنَّ فضيلًا يقطع الطريق. فقال الفضيل: أوَّاه! أراني بالليل أسعى في معاصي الله، قوم من المسلمين يخافونني! اللهمَّ إنِّي قد تبتُ إليك، وجعلتُ توبتِي إليك جوار بيتك الحرام[1].

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: «يُحْيِي الْأَرْضَ» الجَدْبة «بَعْدَ مَوْتِهَا» بالمطر. وقال صالح المُرِّيُّ: المعنى: يُلَيِّن القلوب بعد قساوتها[2]. وقال جعفر بن محمد: يُحييها بالعدل بعد الجَوْر. وقيل: المعنى: فكذلك يُحيي الكافرَ بالهدى إلى الإيمان بعد موته بالكفر والضلالة. وقيل: كذلك يُحيِي الله الموتى من الأمم، ويميِّز بين الخاشع قلبه وبين القاسي قلبه[3]. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله، وأنَّه لمحيي الموتى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٣١٦)، والخَرِبة: موضع الخراب. والسابلة: المارُّون على الطرقات المتردِّدون في حوائجهم. المعجم الوسيط (خرب) و(سبل).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٨.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٤ بنحوه.

الصاد فيهما[١]، من التصديق، أي: المصدِّقين بما أنزل الله تعالى. الباقون بالتشديد، أي: المتصدِّقين والمتصدِّقات، فأدغِمت التاء في الصاد، وكذلك في مصحف أُبيٍّ[٢]. وهو حثٌّ على الصدقات، ولهذا قال: ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالصدقة والنفقة في سبيل الله. قال الحسن: كلُّ ما في القرآن من القَرْض الحسن فهو التطوُّع[٣]. وقيل: هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسبًا صادقًا. وإنَّما عطف بالفعل على الاسم؛ لأنَّ ذلك الاسم في تقدير الفعل، أي: إنَّ الذين صدَّقوا وأقرضوا ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ أمثالها. وقراءة العامة بفتح العين على ما لم يُسَمَّ فاعله. وقرأ الأعمش: «يُضَاعِفُه» بكسر العين وزيادة هاء[٤]. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب: «يُضَعَّفُ» بفتح العين وتشديدها[٥]. ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ اختلف في «الشُّهَدَاء» هل هو مقطوع مما قبل، أو متَّصل به. فقال مجاهد وزيد بن أسلم: إنَّ الشهداء والصدِّيقين هم المؤمنون، وأنَّه متصل، وروى معناه عن النبيِّ ﷺ، فلا يُوقَف على هذا على قوله: «الصِّدِّيقُونَ» وهذا قول ابن مسعود في تأويل الآية[٦]. قال القشيريُّ: قال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] فالصدِّيقون هم الذين يتلون الأنبياء، والشهداء هم الذين يتلون الصدِّيقين، والصالحون يتلون الشهداء، فيجوز أن تكون

(١) السبعة ص ٦٢٦، والتيسير ص ٢٠٨.
(٢) القراءات الشاذة ص ١٥٢.
(٣) سلف تخريجه عند الآية (١١) من هذه السورة.
(٤) لم نقف عليها.
(٥) السبعة ص ١٨٤ - ١٨٥، والتيسير ص ٨١، والنشر ٢/ ٢٢٨.
(٦) أخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ٤١٤ - ٤١٥، إلا أن خبر زيد بن أسلم أخرجه عنه، عن البراء بن عازب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: مؤمنو أمتي شهداءُ. قال: ثم تلا النبيُّ ﷺ: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله فأولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم﴾. وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٨، وينظر المكتفى في الوقف والابتداء للداني ص ٥٥٥ - ٥٥٦.

هذه الآية في جملة من صدَّق بالرسل، أعني: «والَّذين آمَنُوا باللهِ ورسلِه أولئك هُمُ الصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ». ويكون المعنى بالشهداء، مَن شهِدَ لله بالوحدانية، فيكون صدِّيق فوق صدِّيق في الدرجات، كما قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّ أهل الجنَّات العلا ليراهم مَن دونهم، كما يرى أحدكم الكوكب الذي في أُفق السماء، وإنَّ أبا بكر وعمر منهم وأنْعَمَا»[1].

وروي عن ابن عباس ومسروق أنَّ الشهداءَ غيرُ الصدِّيقين[2]. فالشهداء على هذا منفصل مما قبله، والوقف على قوله: «الصِّدِّيقُونَ» حسن[3]. والمعنى: «والشهداء عند ربِّهم لهم أجرهم ونورهم» أي: لهم أجر أنفسهم ونور أنفسهم. وفيهم قولان:

أحدهما: أنَّهم الرسل يَشهدون على أُممهم بالتصديق والتكذيب، قاله الكلبيُّ، ودليله قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

الثاني: أنَّهم أمم الرسل يَشهدون يوم القيامة، وفيما يشهدون به قولان: أحدهما: أنَّهم يشهدون على أنفسهم بما عملوا من طاعة ومعصية. وهذا معنى قول مجاهد[4]. الثاني: يشهدون لأنبيائهم بتبليغهم الرسالة إلى أُممهم، قاله الكلبيُّ. وقال مقاتل قولاً ثالثاً: إنَّهم القتلى في سبيل الله تعالى. ونحوه عن ابن عباس أيضاً قال: أراد شهداء المؤمنين. والواو واو الابتداء. والصدِّيقون على هذا القول مقطوع من الشهداء[5].

وقد اختلف في تعيينهم، فقال الضحَّاك: هم ثمانية نفر؛ أبو بكر وعليٌّ وزيد

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٦، والحديث لم نقف عليه مسنداً.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٨، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٤١٣، وعن مسروق - وحده ـ أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٦.
(٣) ذكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٢٥، والداني في المكتفى في الوقف والابتداء ص ٥٥٥ أن الوقف على قوله تعالى: ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ تامٌّ.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٩، وما بعده منه أيضاً.
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦١.

وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة. وتابعهم عمر بن الخطاب ﷺ، ألحقه اللهُ بهم لما صدَّق نبيَّه ﷺ[١]. وقال مقاتل بن حبان: الصدِّيقون هم الذين آمنوا بالرسل ولم يكذبوهم طرفةَ عين[٢]، مثل مؤمن آل فرعون، وصاحب آل ياسين، وأبي بكر الصديق، وصاحب أصحاب الأخدود[٣].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالرسل والمعجزات ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ فلا أجر لهم ولا نور.

قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)﴾

قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وجه الاتصال أنَّ الإنسان قد يَترُك الجهاد خوفاً على نفسه من القتل، وخوفًا من لزوم الموت، فبيَّن أنَّ الحياة الدنيا منقضِية فلا ينبغي أن يترك أمْرَ الله محافظةً على ما لا يبقى.

و«ما» صلة، تقديره: اعلموا أنَّ الحياة الدنيا لعِب باطل ولهو فرح ثم ينقضي[٤]. وقال قتادة: لعب ولهو: أكل وشرب. وقيل: إنَّه على المعهود من اسمه. قال مجاهد:

---

(١) الوسيط ٢٥١/٤، وتفسير البغوي ٢٩٨/٤، وجاءت تتمة العبارة فيهما هكذا: وتاسعهم عمر بن الخطاب ألحقه الله بهم؛ لما عرف من صدق نيته.

(٢) الوسيط ٢٥١/٤، ونسبه إلى المقاتِلَيْن ابن حبان، وابن حيان.

(٣) في (م): وأصحاب الأخدود.

(٤) تفسير البغوي ٢٩٨/٤.

كلُّ لعب لهو[١]. وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»[٢]، وقيل: اللَّعب: ما رَغَّب في الدنيا. واللَّهو: ما ألهى عن الآخرة، أي: شَغل عنها. وقيل: اللعب: الاقتناء. واللهو: النساء[٣]. ﴿وَزِينَةٌ﴾ الزينة: ما يتزيَّن به، فالكافر يتزيَّن بالدنيا ولا يعمل للآخرة[٤]، وكذلك من تزيَّن في غير طاعة الله.

﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: يفخر بعضكم على بعض بها. وقيل: بالخِلْقة والقوَّة. وقيل: بالأنساب على عادة العرب في المفاخرة بالآباء[٥]. وفي «صحيح مسلم» عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد»[٦]. وصحَّ عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه قال: «أربع في أمتي من أمْرِ الجاهلية: الفخر في الأحساب»[٧] الحديث. وقد تقدَّم جميع هذا. ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ لأنَّ عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة[٨]. قال بعض المتأخِّرين: «لَعِبٌ» كلعب الصبيان «وَلَهْوٌ» كلهو الفتيان «وَزِينَةٌ» كزينة النسوان «وَتَفَاخُرٌ» كتفاخر الأقْران «وَتَكَاثُرٌ» كتكاثر الدُّهقان[٩]. وقيل: المعنى أنَّ الدنيا كهذه الأشياء في الزوال والفناء[١٠].

وعن عليٍّ ﷺ أنَّه قال لعمَّار: لا تحزن على الدنيا؛ فإنَّ الدنيا ستَّة أشياء: مأكول

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠ .

(٢) ٨/ ٣٦١ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠ .

(٤) زاد المسير ٨/ ١٧١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠ .

(٦) مسلم (٢٨٦٥) : (٦٤) ، وسلف ١١/ ١٢٩ .

(٧) سلف ص٢٢٨ من هذا الجزء.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠ .

(٩) الدهقان ، بكسر الدال وضمها : التاجر ، فارسي معرَّب . اللسان (دهق) .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٢ .

ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح؛ فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة، وأكثر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان، وأفضل ملبوسها الدِّيباج وهو نَسْجُ دودة، وأفضل المشموم المِسْك وهو دم فأرة، وأفضل المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال، وأما المنكوح فالنساء وهو مبال في مبال، واللَّهِ، إنَّ المرأة لتزيّن أحسنها يراد به أقبحها.

ثم ضرب الله تعالى لها مثَلا بالزرع في غيث فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي: مطر ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ الكفَّار هنا: الزرَّاع؛ لأنَّهم يغطُّون البَذْر. والمعنى أنَّ الحياة الدنيا كالزرع يُعجِب الناظرين إليه، لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشِيمًا كأنْ لم يكن، وإذا أعجب الزرَّاع فهو غاية ما يستحسن[1]. وقد مضى هذا المثل في «يونس» و«الكهف»[2] وقيل: الكفَّار هنا الكافرون بالله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّهم أشدُّ إعجابًا بزينة الدنيا من المؤمنين[3]. وهذا قول حسن؛ فإنَّ أصل الإعجاب لهم وفيهم، ومنهم يظهر ذلك، وهو التعظيم للدنيا وما فيها. وفي الموحِّدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم، وتتقلَّل عندهم وتدِقُّ إذا ذكروا الآخرة. وموضع الكاف رفع على الصفة[4].

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يجفُّ بعد خضرته ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: متغيِّرًا عما كان عليه من النضرة. ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ أي: فُتاتًا وتِبْنًا فيذهب بعد حُسْنه، كذلك دنيا الكافر[5]. ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: للكافرين. والوقف عليه حسن[6]، ويبتدئ:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٧.

(٢) ١٠/ ٤٧٧، وعند الآية (٤٥) من سورة الكهف.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٧، وتفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٧.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠.

(٦) لم نقف عليه.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي: للمؤمنين. وقال الفرَّاء(١): «وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ» تقديره: إما عذاب شديد وإما مغفرة، فلا يُوقَف على «شَدِيدٌ». ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ هذا تأكيد ما سبق، أي: تغرُّ الكفَّار، فأما المؤمن فالدنيا له متاعُ بلاغٍ إلى الجنَّة(٢). وقيل: العمل للحياة الدنيا متاع الغرورِ، تزهيداً في العمل للدنيا، وترغيباً في العمل للآخرة.

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: سارعوا بالأعمال الصالحة التي تُوجِب المغفرة لكم من ربِّكم(٣). وقيل: سارعوا بالتوبة(٤)؛ لأنَّها تؤدي إلى المغفرة، قاله الكلبيُّ. وقيل: التكبيرة الأولى مع الإمام، قاله مكحول. وقيل: الصف الأول(٥). ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لو وصل بعضها ببعض(٦). قال الحسن: يعني جميع السماوات والأرضين مبسوطتان، كلٌّ واحدة إلى صاحبتها. وقيل: يريد لرجل واحد، أي: لكلِّ واحد جنَّة بهذه السَّعَة. وقال ابن كيسان: عنى به جنَّة واحدة من الجنَّات. والعَرْض أقلُّ من الطول، ومن عادة العرب أنَّها تعبِّر عن سَعِة الشيء بعَرْضه دون طوله. قال:

كَأن بِلَادَ اللهِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ على الْخَائِفِ المطْلوبِ كفَّةُ حابِلِ

وقد مضى هذا كلُّه في «آلِ عمران»(٧). وقال طارق بن شهاب: قال قوم من أهل الحِيْرَة لعمر ﷺ: أرأيتَ قولَ الله عزَّ وجلَّ: «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْض» فأين النارُ؟ فقال لهم عمر: أرأيتم الليل إذا وَلَّى وجاء النهار أين يكون الليل؟ فقالوا: لقد نزعت بما في التوراة مثله(٨).

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٥ .
(٢) الوسيط ٤/ ٢٥٢ .
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٣ .
(٤) مجمع البيان للطبرسي ٢٧/ ١٥٥ .
(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨١ .
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩ .
(٧) ٥/ ٣١٣ - ٣١٧ ، والبيت سلف تخريجه هناك ٥/ ٣١٥ .
(٨) سلف تخريجه ٥/ ٣١٥ .

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ شَرَطَ الإيمانَ لا غير، وفيه تقويةُ الرجاء[1]. وقد قيل: شَرَطَ الإيمانَ هنا، وزاد عليه في «آل عمران» فقال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ [الآيــــة: ١٣٤]. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: إنَّ الجنَّة لا تُنال ولا تُدخَل إلا برحمة الله تعالى وفَضْله[2]. وقد مضى هذا في «الأعراف»[3] وغيرها. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: القَحْط وقلَّة النبات والثمار. وقيل: الجوائح في الزرع[4]. ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ بالأوصاب والأسقام، قاله قتادة. وقيل: إقامة الحدود، قاله ابن حيان. وقيل: ضيق المعاش، وهذا معنى رواية ابن جريج[5]. ﴿إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ. ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ﴾ الضمير في «نَبْرَأَهَا» عائد على النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع. وقال ابن عباس: من قبل أن يَخْلق المصيبة[6]. وقال سعيد بن جبير: من قبل أن يخلق الأرض والنفس[7]. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: خَلْق ذلك وحِفْظ جميعه «عَلَى الله يَسِيرٌ»

(١) الوسيط ٤/ ٢٥٢.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩.
(٣) ٩/ ٢٢٣.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨١ دون عزوه لمقاتل، والجوائح: جمع جائحة، وهي الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المالَ من سَنَة أو فتنة. اللسان (جوح).
(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢، وما بعده منه أيضاً، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٥، والطبري ٢٢/ ٤١٩.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٢٠.
(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩ دون عزو، وما بعده منه أيضاً.

هيِّن. قال الربيع بن صالح: لما أُخِذَ سعيد بن جبير ﷺ بَكَيت، فقال: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لما أرى بكَ، ولما تذهب إليه. قال: فلا تَبْكِ؛ فإنَّه كان في عِلْم الله أن يكون، ألم تسمع قوله تعالى: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ في الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ» الآية[١]. وقال ابن عباس: لما خَلَق الله القَلَم قال له: اكتب. فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة[٢]. ولقد ترك لهذه الآية جماعةٌ من الفضلاء الدواءَ في أمراضهم فلم يستعملوه؛ ثقةً بربِّهم، وتوكُّلًا عليه، وقالوا: قد علم الله أيَّام المرض وأيَّام الصحة، فلو حرص الخَلْق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا، قال الله تعالى: «مَا أَصَابَ من مُصِيبَةٍ في الأرضِ ولا في أنفسِكم إلَّا في كتابٍ من قَبْلِ أن نَبْرَأها».

وقد قيل: إنَّ هذه الآية تتَّصل بما قبل، وهو أنَّ الله سبحانه هوَّن عليهم ما يصيبهم في الجهاد من قَتْلٍ وجَرْح، وبيَّن أنَّ ما يخلِّفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران، فالكلُّ مكتوب مقدَّر لا مدفع له، وإنَّما على المرء امتثال الأمر.

ثم أدَّبهم فقال هذا: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق. وذلك أنَّهم إذا علموا أنَّ الرزق قد فُرِغ منه لم يَأْسَوْا على ما فاتهم منه. وعن ابن مسعود أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «لا يجد أحدكم طَعْمَ الإيمان حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه» ثم قرأ: «لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ»[٣]. أي: كي لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا، فإنَّه لم يُقدَّر لكم، ولو قُدِّر

(١) تفسير أبي الليث ٣/٣٢٨.

(٢) سلف ١/٣٥٨.

(٣) لم نقف عليه هكذا مرفوعاً، بل أخرج عبد الرزاق في المصنف (٢٠٠٨٢) - ومن طريقه الطبراني في الكبير (٨٧٩٠) - عن معمر، عن قتادة أن ابن مسعود قال: ثلاث من كنَّ فيه يجد حلاوة الإيمان: ترك المراء في الحق، والكذب في المزاحة، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٥٥: رواه الطبراني، وقتادة لم يسمع من ابن مسعود. اهـ.

وفي الباب عن جابر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشرِّه، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال الترمذي: حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون، وعبد الله بن ميمون منكر الحديث.

لكم لم يفتْكم ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: من الدنيا، قاله ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: من العافية والخِصْب[١]. وروى عِكرمة عن ابن عباس: ليس مِن أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبرًا، وغنيمته شكراً[٢]. والحزن والفرح المنهيُّ عنهما هم اللّذان يتعدَّى فيهما إلى ما لا يجوز، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: متكبِّر بما أُوتِيَ من الدنيا، فخور به على الناس.

وقراءة العامة: «آتَاكُمْ» بمدِّ الألف، أي: أعطاكم من الدنيا. واختاره أبو حاتم. وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو: «أَتَاكُمْ» بقَصْر الألف، واختاره أبو عبيد[٣]. أي: جاءكم، وهو معادل لـ«فَاتَكُمْ» ولهذا لم يقل: أفاتكم.

قال جعفر بن محمد الصادق: يا بنَ آدمَ مالَكَ تأسى على مفقود لا يردّه عليك الفَوْت، أو تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت[٤]. وقيل لِبُزُرْجُمِهْر: أيُّها الحكيم! مالك لا تحزن على ما فات، ولا تفرح بما هو آتٍ؟ قال: لأنَّ الفائت لا يتلافى بالْعَبْرةِ، والآتي لا يُستدام بالحَبْرةِ[٥]. وقال الفضيل بن عِياض في هذا المعنى: الدنيا مُبِيد ومُفِيد، فما أباد فلا رجعةَ له، وما أفاد آذن بالرحيل. وقيل: المختال: الذي ينظر إلى نفسه بعين الافتخار. والفخور: الذي ينظر إلى الناس بعين الاحتقار. وكلاهما شِرْكٌ خفيٌّ. والفخور بمنزلة المُصَرَّاةِ تُشَدُّ أخلافها ليجتمع فيها

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ٢٢/ ٤٢١، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٠ (١٨٨٣٢).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٧٣ - ٣٧٤، والطبري ٢٢/ ٤٢١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٥، والقراءة في السبعة ص ٦٢٦، والتيسير ص ٢٠٨، والحجة للفارسي ٦/ ٢٧٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩.

(٥) مجمع البيان للطبرسي ٢٧/ ١٥٦، والحَبْرة: السرور. القاموس (حبر). وبُزُرْجُمِهْر: وزير أنوشروان، واسمه مركَّب من جزأين: بُزُرْج، وهو معرَّب بزرك، أي: عظيم. ومهر بمعنى: شمس. تاج العروس (بزرج)، وإعجام الأعلام لمحمود مصطفى ص ٧٣ - ٧٤.

اللبن، فيتوهَّم المشتري أنَّ ذلك معتاد وليس كذلك، فكذلك الذي يرى من نفسه حالًا وزينةً وهو مع ذلك مدَّع فهو الفخور.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ أي: لا يحب المختالين «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ» فـ«ـالَّذِينَ» في موضع خفض، نعتًا للمختال[١]. وقيل: رفع بابتداء[٢]، أي: الذين يبخلون فالله غنيٌّ عنهم. قيل: أراد رؤساء اليهود الذين يبخلون ببيان صفة محمَّد ﷺ التي في كتبهم؛ لِئلا يؤمنَ به الناس، فتذهب مأكلتهم، قاله السديُّ والكلبيُّ. وقال سعيد بن جبير: «الَّذِينَ يَبْخَلُون» يعني: بالعلم[٣] ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ أي: بألَّا يعلِّموا الناس شيئاً. زيد بن أسلم: إنَّه البخل بأداء حقِّ الله عزَّ وجلَّ. وقيل: إنَّه البخل بالصدقة والحقوق، قاله عامر بن عبد الله الأشعريُّ. وقال طاوس: إنَّه البخل بما في يديه[٤]. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. وفرَّق أصحاب الخواطِر بين البخل والسخاء بفرقين: أحدهما: أنَّ البخيل الذي يلتذُّ بالإمساك. والسخيَّ الذي يلتذُّ بالإعطاء. الثاني: أنَّ البخيل الذي يُعطي عند السؤال، والسخيَّ الذي يعطي بغير سؤال.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عن الإيمان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ غنيٌّ عنه[٥]. ويجوز أن يكون لما حثَّ على الصدقة أعلمهم أنَّ الذين يبخلون بها، ويأمرون الناس بالبخل بها، فإنَّ الله غنيٌّ عنهم.

وقراءة العامة: «بالْبُخْلِ» بضمِّ الباء وسكون الخاء. وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن وحمزة والكسائيُّ: «بِالْبَخَلِ»

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٦ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢ ، وما بعده منه أيضاً .

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٩ .

بفتحتين[١]، وهي لغة الأنصار. وقرأ أبو العالية وابن السَّمَيْفع «بِالْبَخْلِ» بفتح الباء وإسكان الخاء. وعن نصر بن عاصم: «الْبُخُلِ» بضمَّتين، وكلُّها لغات مشهورة. وقد تقدَّم الفرق بين البخل والشحِّ في آخر «آل عمران»[٢].

وقرأ نافع وابن عامر: «فَإِنَّ اللّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» بغير «هُوَ»[٣]. والباقون: «هُوَ الْغَنِيُّ» على أن يكون فصلًا. ويجوز أن يكون مبتدأ، و«الْغَنِيُّ» خبره، والجملة خبر «إنَّ». ومن حذفها فالأحسن أن يكون فصلًا؛ لأنَّ حذف الفصل أسهل من حذف المبتدأ[٤].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات البيِّنة والشرائع الظاهرة[٥]. وقيل: الإخلاص للّه تعالى في العبادة، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، بذلك دعت الرسل، نوح فمَن دونه إلى محمَّد ﷺ. ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتب، أي: أوحينا إليهم خبر ما كان قبلهم ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ قال ابن زيد: هو ما يُوزَن به ويتعامل[٦] ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل في معاملاتهم[٧]. وقوله: «بِالْقِسْطِ»

---

(١) السبعة ص ٢٣٣، والتيسير ص ٩٦.

(٢) ٥/ ٤٤١.

(٣) السبعة ص ٦٢٧، والتيسير ص ٢٠٨.

(٤) الحجة للفارسي ٦/ ٢٧٦.

(٥) الكشاف ٤/ ٦٦.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٩.

يدلُّ على أنَّه أراد الميزان المعروف. وقال قوم: أراد به العدل[١]. قال القشيريُّ: وإذا حملناه على الميزان المعروف، فالمعنى: أنزلنا الكتابَ ووضعنا الميزان، فهو من باب:

عَـلَـفْـتُـهَـا تِـبـنًـا ومـاءً بـاردًا[٢]

ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٧-٩] وقد مضى القول فيه. ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ روى عمر ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله أنزل أربع بركاتٍ من السماء إلى الأرض: الحديد والنار والماء والملح»[٣]. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: ثلاثة أشياء نزلت مع آدمَ عليه السلام: الحجر الأسود وكان أشدَّ بياضاً من الثلج، وعصا موسى وكانت من آسِ الجنَّة، طولها عشرة أذرع مع طول موسى، والحديد أنزل معه ثلاثة أشياء: السندان والكَلْبَتان والمِيقَعة، وهي المِطرقة، ذكره الماورديُّ[٤].

وقال الثعلبيُّ: قال ابن عباس: نزل آدم من الجنَّة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدَّادين: السَّنْدان، والْكَلْبَتَان، والمِيقَعة، والمِطْرقة، والإبرة. وحكاه القشيريُّ قال: والمِيقَعة: ما يحدَّد به؛ يقال: وَقَعْتُ الحديدَةُ أَقَعُها، أي: حَدَدتها[٥].
وفي «الصحاح»[٦]: والمِيقَعة: الموضع الذي يألفه البازِيُّ[٧] فيقع عليه، وخشبة القَصَّار التي يَدقُّ عليها، والمِطْرقة والمِسنُّ الطويل.

---

(١) زاد المسير ٨/ ١٧٤ .

(٢) سلف ١/ ٢٩١ .

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٤/ ٢٥٣ ، والديلمي في الفردوس ١/ ١٧٥ ، والبغوي في التفسير ٤/ ٢٩٩ ، والطبرسي في مجمع البيان ٢٧/ ١٥٧ ، وابن حجر في الكافي الشاف ص ١٦٤ ولكن عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وعزاه - أي ابن حجر - للثعلبي ، وقال : وفي إسناده من لا أعرفه .

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٤٨٣ ، وفيه : مثل طول موسى ، بدل : مع طول موسى .

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ٣٧ .

(٦) مادة : (وقع) .

(٧) البازِيُّ: واحد البُزاة التي تَصِيدُ، ضَرْبٌ من الصقور. اللسان (بزا).

وروي أنَّ الحديد أُنزل في يوم الثلاثاء. «فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» أي: لإهراق الدماء. ولذلك نُهيَ عن الفَصْد والحِجامة في يوم الثلاثاء؛ لأنَّه يوم جرى فيه الدم. وروي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «في يوم الثلاثاء ساعة لا يرقأ فيها الدم»[(١)]. وقيل: «أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ» أي: أنشأناه وخلقناه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[(٢)] [الزمر: ٦] وهذا قول الحسن. فيكون من الأرض غير منزل من السماء[(٣)]. وقال أهل المعاني: أي: أخرج الحديد من المعادن وعلَّمهم صنعته بوحيه[(٤)]. «فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» يعني: السلاح والكُرَاع والجُنَّة[(٥)]. وقيل: أي: فيه من خشية القتل خوف شديد[(٦)]. ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ قال مجاهد: يعني: جُنَّة[(٧)]. وقيل: يعني انتفاع الناس بالماعون من الحديد، مثل السكين والفأس والإبرة ونحوه[(٨)].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أي: أنزل الحديد؛ ليعلم من ينصره. وقيل: هو عطف على قوله تعالى: «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسطِ» أي: أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب، وهذه الأشياء؛ ليتعامل الناس بالحقِّ، «وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرَهُ» وليرى الله من ينصر دينه[(٩)] ﴿وَ﴾ ينصر ﴿رُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال ابن عباس: ينصرونهم: لا يكذِّبونهم،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٦٢) عن أبي بكرة نفيع الحارث الثقفي ، والراوية عنه ابنتُه كَيِّسة، ولا يُعرف حالها. كذا قال ابن حجر في لسان الميزان ٧/ ٥٢٩ . وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٥/ ٣٤٩: في إسناده: أبو بكرة بكَّار بن عبد العزيز بن أبي بكرة. قال يحيى بن معين: ليس حديثه بشيء. وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به. اهـ. وعدَّه ابن الجوزي في الموضوعات (١٦٢٤). ومعنى يرقأ: ينقطع. اللسان (رقأ).

(٢) زاد المسير ٨/ ١٧٤ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٣ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ .

(٥) الكراع: السلاح، وقيل: اسم يجمع الخيل والسلاح. والجُنَّة: ما واراك من السلاح واستترت به منه. اللسان (كرع) و(جنن).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٨٣ .

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٦٥٨ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٢٦ .

(٨) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٥٤ .

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ .

ويؤمنون بهم «بِالْغَيْبِ» أي: وهم لا يرونهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ «قَوِيٌّ» في أخذه «عَزِيزٌ» أي: منيع غالب. وقد تقدَّم[١]. وقيل: «بِالْغَيْبِ» بالإخلاص.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ فصَّل ما أجمل من إرسال الرُّسل بالكتب، وأخبر أنَّه أرسل نوحًا وإبراهيم وجعل النبوَّة في نسلهما[٢] ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جعلنا بعض ذرِّيَّتهما الأنبياء، وبعضهم أُمماً يتلون الكتب المنزلة من السماء: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان[٣]. وقال ابن عباس: الكتاب: الخطُّ بالقلم[٤] ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: منِ ائتمَّ بإبراهيم ونوح ﴿مُّهْتَدٍ﴾. وقيل: «فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ» أي: من ذرِّيَّتهما مهتدون. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ كافرون خارجون عن الطاعة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أي: أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: على آثار الذرِّيَّة. وقيل: على آثار نوح وإبراهيم[٥] ﴿بِرُسُلِنَا﴾ موسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ فهو من ذرِّيَّة إبراهيم من جهة أمِّه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وهو الكتاب المنزل عليه. وقد تقدَّم اشتقاقه في أوَّل سورة «آل عمران»[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ على دينه، يعني الحواريين

---

(١) ١٤/٤١٢ - ٤١٣.
(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٠.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٩.
(٤) الكشاف ٤/ ٦٧.
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧.
(٦) ٥/ ١١.

وأتباعهم[١] ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: مَوَدَّةً، فكان يوادُّ بَعضهم بعضًا[٢]. وقيل: هذا إشارة إلى أنَّهم أمروا في الإنجيل بالصلح وتَرْكِ إيذاء الناس، وألانَ الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرَّفوا الكَلِمَ عن مواضعه. والرأفة: اللين، والرحمة: الشفقة. وقيل: الرأفة: تخفيف الْكَلِّ. والرحمة: تحمُّل الثقل[٣]. وقيل: الرأفة: أشدُّ الرحمة. وتمَّ الكلام. ثم قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي: من قِبَلِ أنفسِهم. والأحسن أن تكون الرهبانية منصوبةً بإضمار فعل[٤]، قال أبو عليٍّ: وابتدعوها رهبانيةً ابتدعوها. وقال الزجَّاج[٥]: أي: ابتدعوها رهبانيةً، كما تقول: رأيت زيداً وعَمْراً كلَّمتُ. وقيل: إنَّه معطوف على الرأفة والرحمة[٦]، والمعنى على هذا أنَّ الله تعالى أعطاهم إياها فغيَّروا وابتدعوا فيها.

قال الماورديُّ[٧]: وفيها قراءتان؛ إحداهما: بفتح الراء، وهي الخوف من الرَّهب. الثانية: بضمِّ الراء[٨]، وهي منسوبة إلى الرُّهبان، كالرُّضْوانيَّة من الرُّضْوان؛ وذلك لأنَّهم حَمَلوا أنفسهم على المشقَّات في الامتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلُّق بالكهوف والصوامع[٩]، وذلك أنَّ ملوكهم غيَّروا وبَدَّلوا، وبقي نفر قليل فترهَّبوا وتبتَّلوا. قال الضحَّاك: إنَّ ملوكًا بعد عيسى عليه السلام ارتكبوا المحارم ثلاث مئة سنة، فأنكرها عليهم من كان بقي على منهاج عيسى فقتلوهم، فقال قوم بقوا بعدهم: نحن إذا نهيناهم قتلونا، فليس يَسَعُنا المقام بينهم، فاعتزَلوا الناس واتَّخذوا

(١) زاد المسير ٨/ ١٧٦ .
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٤ ، والكَلُّ: المصيبة تحدث. اللسان (كلل).
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧ .
(٥) في معاني القرآن له ٥/ ١٣٠ .
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٨ .
(٧) في النكت والعيون ٥/ ٤٨٤ .
(٨) الكشاف ٤/ ٦٧ ، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٨ .
(٩) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ .

الصوامع[1]. وقال قتادة: الرهبانيَّة التي ابتدعوها رَفْضُ النساء واتِّخاذ الصوامع. وفي خبر مرفوع: هي لحوقهم بالبراري والجبال[2].

﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها، قاله ابن زيد[3].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أمرناهم إلا بما يُرضِي الله، قاله ابن مسلم. وقال الزجَّاج[4]: «مَا كَتَبنَاهَا عَلَيْهِم» معناه: لم نكتب عليهم شيئًا ألبَتَّة. ويكون «ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ» بدلًا من الهاء والألف في «كَتَبْنَاهَا»، والمعنى: ما كتبناها عليهم، إلا ابتغاءَ رضوان الله. وقيل: «إِلَّا ابْتِغَاءَ» الاستثناء منقطع[5]، والتقدير: ما كتبناها عليهم، لكن ابتدعوها؛ ابتغاءَ رضوان الله.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: فما قاموا بها حقَّ القيام. وهذا خصوص؛ لأنَّ الذين لم يَرْعوها بعض القوم، وإنَّما تسبَّبوا بالترهُّب إلى طلب الرياسة على الناس وأكْلِ أموالهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] وهذا في قوم أدَّاهم الترهُّب إلى طلب الرياسة في آخر الأمر.

وروى سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا» قال: كانت ملوكٌ بعد عيسى بدَّلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل، ويَدْعُون إلى دين الله تعالى، فقال أناس لملكهم: لو قتلتَ هذه الطائفة. فقال المؤمنون: نحن نكفيكم أنفسنا. فطائفة قالت: ابنوا لنا اسطوانةً ارفعونا فيها، وأعطونا شيئًا نَرفعُ به طعامنا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٤، وفيه: فاعتزلوا النساء، بدل: فاعتزلوا الناس.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٨٤ والقول الثاني فيه هكذا: أنها لحوقهم بالجبال، ولزومهم البراري، وروي فيه خبر مرفوع. اهـ. وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢٨، والحديث المرفوع سيأتي ص٢٧٤-٢٧٥ من هذا الجزء عن ابن مسعود ﷺ، وثمة تخريجه هناك.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٦، والطبري ٢٢/ ٤٢٨.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧ - ٣٦٨، وما بعده منه أيضاً.

وشرابنا ولا نَرِدُ عليكم. وقالت طائفة: دعونا نهيم في الأرض ونسيح، ونشرب كما تشرب الوحوش في البرِّيَّة، فإذا قَدَرْتم علينا فاقتلونا. وطائفة قالت: ابنوا لنا دُوراً في الفيافي، ونحتفر الآبار، ونَحترِث البقول، فلا تروننا - وليس أحد من هؤلاء إلا وله حميم منهم - ففعلوا، فمضى أولئك على منهاج عيسى، وخَلَف قوم من بعدهم ممن قد غيَّر الكتاب فقالوا: نسيح ونتعبَّد كما تعبَّد أولئك، وهم على شِرْكهم لا عِلْم لهم بإيمانِ مَن تقدَّم من الذين اقْتَدَوْا بهم، فذلك قوله تعالى: «ورهبانيَّةً ابتدعُوها ما كَتَبْنَاها عَلَيْهم إلا ابتغاءَ رضوانِ اللهِ» الآية[١]. يقول: ابتدعها هؤلاء الصالحون «فَمَا رَعَوْهَا» المتأخِّرون «حَقَّ رِعَايَتِهَا» ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ يعني الذين ابتدعوها أوَّلًا ورَعوها ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ يعني المتأخِّرين، فلما بعث الله محمَّدًا ﷺ ولم يَبْقَ منهم إلا قليل، جاؤوا من الكهوف والصَّوَامع والغِيران فآمنوا بمحمَّد ﷺ[٢].

الثالثة: وهذه الآية دالَّة على أنَّ كلَّ مُحدَثَة بدعةٌ، فينبغي لمن ابتدعَ خيراً أن يدوم عليه، ولا يعدل عنه إلى ضدِّه؛ فيدخل في الآية[٣]. وعن أبي أمامة الباهلي - واسمه: صُدَيُّ بن عَجْلان - قال: أَحدثتم قيامَ رمضان ولم يُكتَب عليكم، إنَّما كُتبَ عليكم الصيام، فدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه، فإنَّ ناسًا من بني إسرائيل ابتدعوا بِدَعًا لم يكتبها الله عليهم، ابتغوا بها رضوان الله فما رَعَوها حقَّ رعايتها، فعاتَبهم الله بتَرْكها فقال: «ورهبانيَّة ابتدعُوها ما كَتَبْنَاها عَلَيهم إلا ابتغاءَ رضوانِ اللهِ فَمَا رَعَوْها حقَّ رعايَتِها»[٤].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٠١ ، والأثر أخرجه النسائي في المجتبى ٨/ ٢٣١-٢٣٣ ، وفي الكبرى (٥٩٠٨) و(١١٥٠٣) من طريق الفضل بن موسى ، عن سفيان ، به . والأسطوانة: السارية. المعجم الوسيط (أسطوانة).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٠١ .

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤١٦ - ٤١٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٣٣ ، والخبر أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٣٣ عن أبي أمامة موقوفاً . وأخرجه عنه مرفوعاً الطبراني في الأوسط (٧٤٤٦) ، وقال : لا يروى هذا الحديث عن أبي أمامة إلا بهذا الإسناد ، تفرَّد به إسماعيل بن عمرو . اهـ . وهو إسماعيل بن عمرو بن نجيح البَجَلي الكوفي ثم =

الرابعة: وفي الآية دليل على العزلة عن الناس في الصوامع والبيوت، وذلك مندوب إليه عند فساد الزمان وتغيُّر الأصدقاء والإخوان. وقد مضى بيان هذا في سورة «الكهف»[(١)] مستوفًى، والحمد لله.

وفي «مسند أحمد بن حنبل» من حديث أبي أمامة الباهليِّ ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سَرِيَّة من سراياه قال: فمَرَّ رجلٌ بغارٍ فيه شيءٌ من ماء، فحدَّث نفسه بأن يقيم في ذلك الغارِ، فَيَقُوته ما كان فيه من ماء، ويُصِيب ما حوله من البَقْل، ويتخلَّى عن الدنيا. قال: لو أنِّي أتيت النبيَّ ﷺ فذكرتُ ذلك له، فإن أَذِنَ لي، فَعَلْتُ، وإلا لم أفعل، فأتاه فقال: يا نبيَّ الله! إنِّي مررتُ بغارٍ فيه ما يَقُوتني من الماء والبقل، فحدَّثتني نفسي بأن أُقيم فيه وأتخلَّى من الدنيا. قال: فقال النبيُّ ﷺ: «إنِّي لم أُبعَث باليهوديَّة ولا بالنصرانيَّة، ولكنِّي بُعِثْتُ بالحنيفيَّة السَّمْحة، والذي نفسُ محمَّد بيده لغَدْوةٌ أو رَوْحةٌ في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولَمَقام أحدِكم في الصفِّ الأوَّل خيرٌ من صلاته ستِّين سنةً»[(٢)].

وروى الكوفيون عن ابن مسعود، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «هل تدرِي أيُّ الناس أَعلم»؟ قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: «أعلم الناس أبصرهم بالحقِّ إذا اختلف الناس فيه وإن كان مقصِّرًا في العمل، وإن كان يزحف على اسْتِهِ، هل تدري من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانيَّة؟ ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهزم أهل الإيمان ثلاثَ مرَّات، فلم يَبْقَ منهم إلا القليل فقالوا: إن أفنونا فلم يَبْقَ للدِّين أَحَدٌ يدعوا إليه، فتعالوا نفترق في

= الأصبهاني، قال ابن عدي: حدَّث بأحاديث لا يتابع عليها. وقال أبو حاتم والدارقطني: ضعيف. ميزان الاعتدال ١/ ٢٣٩.

(١) ١٣/ ٢١٧.

(٢) أحمد (٢٢٢٩١)، وأخرجه أيضًا الطبراني في الكبير (٧٨٦٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٧٩: رواه أحمد والطبراني، وفيه: علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف. اهـ. وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ بنحو هذه القصة أخرجه عنه الترمذي (١٦٥٠)، وأحمد (٩٧٦٢). قال الترمذي: حديث حسن.

الأرض إلى أن يبعث الله النبيَّ الأُمِّيَّ الذي وعدنا عيسى ـ يعنون محمَّداً ﷺ ـ فتفرَّقوا في غِيران الجبال وأحدثوا رهبانيةً، فمنهم من تمسَّك بدينه، ومنهم من كفر ـ وتلا: «وَرَهْبَانِيَّةً» الآية ـ أتدري ما رهبانيَّة أُمَّتي: الهجرة: والجهاد، والصوم، والصلاة، والحجُّ، والعمرة، والتكبير على التلاع، يا ابن مسعود اختلف مَن كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فنجا منهم ثلاثة، وهلك سائرها[١]، فرقة أزَّت[٢] الملوكَ وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى ـ عليه السلام ـ حتى قُتِلوا، وفرقة لم تكن لهم طاقة بمؤازاة[٣] الملوك أقاموا بين ظهراني قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير، وفرقة لم تكن لهم طاقة بمؤازاة الملوك، ولا بأن يقيموا بين ظهراني قومهم فيدعونهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فساحوا في الجبال وترهَّبوا فيها، وهي التي قال الله تعالى فيهم: «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا» ـ الآية ـ فمَن آمن بي واتَّبعني وصدَّقني، فقد رعاها حقَّ رعايتها، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون»[٤]. يعني الذين تهوَّدوا وتنصَّروا. وقيل:

(١) في (ظ): سائرهم. وكذا في الموضع الآتي.

(٢) في (ظ) و(ق): وارت. وفي (م): وازت. والمثبت من مصادر التخريج، ومن النهاية (أزي) حيث قال: وفي الحديث: «وفرقة آزت الملوك» أي: قاومتهم. يقال: فلانٌ إزاءٌ لفلانٍ: إذا كان مقاوماً له.

(٣) في (ظ): بموارة. وفي (م): بموازاة. وكذا في الموضع الآتي.

(٤) من قوله: وروى الكوفيون ... إلى قوله: وإن كان يزحف على استه. فمن أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٢. ومن قوله: هل تدري من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ... إلى نهاية الحديث، فمن تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ - ٣٠١، والحديث أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٢٩، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٧) من طريق بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود بنحوه مقطَّعًا. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٦٠ - ٢٦١: رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير بكير بن معروف، وثَّقه أحمد وغيره، وفيه ضعف.

وأخرجه أيضاً المروزي في السنة (٥٤)، والطبري ٢٢/ ٤٣٠ - ٤٣١، والطبراني في الكبير (١٠٥٣١)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٨٠ من طريق الصَّعِق بن حَزْن، عن عقيل، عن أبي إسحاق الهمداني، عن سويد بن غفلة، عن ابن مسعود ﷺ بنحوه مقطَّعًا. قال الحاكم: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: ليس بصحيح، فإن الصعق بن حزن، وإن كان موثقاً، فإن شيخه منكر الحديث، قاله البخاري. اهـ.

هؤلاء الذين أدركوا محمداً ﷺ فلم يؤمنوا به، فأولئك هم الفاسقون[١]. وفي الآية تسلية للنبيِّ ﷺ؛ أي: إنَّ الأوَّلين أصرُّوا على الكفر أيضًا، فلا تَعْجَبْ من أهل عصرك إن أصرُّوا على الكفر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: آمنوا بموسى وعيسى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ بمحمَّد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: مِثْلين من الأجر على إيمانكم بعيسى ومحمد صلى الله[٢] عليهما وسلم، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤] وقد تقدَّم القول فيه[٣]. والكِفْل: الحظُّ والنصيب، وقد مضى في «النساء»[٤]، وهو في الأصل كِساء يكتفل به الراكب، فيحفظه من السقوط، قاله ابن جريج[٥]. ونحوه قال الأزهريُّ[٦]، قال[٧]: اشتقاقه من الكِساء الذي يُحوِّيه راكب البعير على سنامه إذا ارتدفه، لئلا يسقط. فتأويله: يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي، كما يحفظ الكِفْلُ الراكبَ[٨]. وقال أبو موسى الأشعريُّ: «كِفْلَينِ»: ضعفين، بلسان الحبشة[٩]. وعن ابن زيد: «كِفْلَيْن» أجر الدنيا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٨ .

(٢) تكررت هذه العبارة في (ظ) مرَّة ثانية، والكلام من النكت والعيون ٥/ ٤٨٥ .

(٣) ١٦/ ٢٩٥ .

(٤) ٦/ ٤٨٥ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٣٧ دون نسبة .

(٦) في تهذيب اللغة ١٠/ ٢٥٠ .

(٧) ليست في (ظ) .

(٨) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣١ .

(٩) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧١ ، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ١٠/ ٤١٧ ، ومجاهد في التفسير ٢/ ٦٥٨ ، والطبري ٢٢/ ٤٣٨ .

والآخرة(١). وقيل: لمَّا نزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤] افتخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبيِّ ﷺ، فنزلت هذه الآية(٢).

وقد استدلَّ بعض العلماء بهذه الآية على أنَّ الحسنة إنَّما لها من الأجر مِثْل واحد، فقال: الحسنة اسم عامٌّ ينطلق على كلِّ نوع من الإيمان، وينطلق على عمومه، فإذا انطلقت الحسنة على نوع واحد فليس له عليها من الثواب إلا مِثْل واحد. وإن انطلقت على حسنة تشتمل على نوعين، كان الثواب عليها مِثْلين؛ بدليل هذه الآية فإنَّه قال: «كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ» والكِفْل: النصيب، كالمِثْل، فجعل لمن اتقى الله وآمن برسوله نصيبين؛ نصيباً لتقوى الله، ونصيباً لإيمانه برسوله، فدلَّ على أنَّ الحسنة التي جعل لها عشر هي التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات، وهو الإيمان الذي جمع الله تعالى في صفته عشرة أنواع، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية بكمالها. فكانت هذه الأنواع العشرة التي هي ثوابها أمثالها، فيكون لكلِّ نوع منها مِثْل، وهذا تأويل فاسد؛ لخروجه عن عموم الظاهر في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] بما لا يحتمله تخصيص العموم؛ لأنَّ ما جمع عشر حسنات فليس يُجزَى عن كلِّ حسنة إلا بِمِثْلها. وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالها، والأخبار دالَّة عليه. وقد تقدَّم ذكرها(٣). ولو كان كما ذكر لما كان بين الحسنة والسيئة فرقان.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾ أي: بيانًا وهدًى، عن مجاهد. وقال ابن عباس: هو القرآن(٤). وقيل: ضياء ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ في الآخرة على الصراط، وفي القيامة إلى الجنَّة. وقيل: تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإسلام، فتكونون رؤساء في دين

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٣٨.

(٢) الكشاف ٤/ ٦٨، وتفسير الرازي ٢٩/ ٢٤٧.

(٣) ٩/ ١٣٦، ١٦/ ٢٢٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨٦، وتفسير البغوي ٤/ ٣٠٢، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٤٤٢، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٨.

الإسلام لا تزول عنكم رياسة كنتم فيها، وذلك أنَّهم خافوا أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمَّد عليه السلام. وإنَّما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضَّعَفَة بتحريف أحكام الله، لا الرياسة الحقيقيَّة في الدين. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: ليعلم، و«أن لا» صلة زائدة مؤكدة؛ قاله الأخفش. وقال الفرَّاء: معناه: لأن يعلم، و«لا» صلة زائدة في كلِّ كلام دخل عليه جَحْد[1]. قال قتادة: حسَد أهلُ الكتاب المسلمين فنزلت: «لِئَلَّا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ»[2]. أي: لأن يعلم أهل الكتاب أنَّهم ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾. وقال مجاهد: قالت اليهود: يُوشِك أن يخرج منا نبيٌّ يقطع الأيدي والأرجل. فلما خرج من العرب كفروا، فنزلت: «لِئَلَّا يَعْلَمَ» أي: ليعلم أهل الكتاب «أَنْ لَا يَقْدِرُونَ» أي: أنَّهم لا يقدرون[3]، كقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: ٨٩].

وعن الحسن: «لَيْلَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ» وروي ذلك عن ابن مجاهد. وروى قُطْرُب: بكسر اللام وإسكان الياء[4]. وفتح لام الجرِّ لغة معروفة. ووجه إسكان الياء أنَّ همزة «أَنْ» حذفت فصارت «لَنْ» فأدغمت النون في اللام، فصار «للَّا» فلما اجتمعت اللَّامات أُبدلت الوسطى منها ياء، كما قالوا في أمَّا: أَيْمَا. وكذلك القول في قراءة من قرأ: «لِيْلَا» بكسر اللام، إلا أنَّه أبقى اللام على اللغة المشهورة فيها، فهو أقوى من هذه الجهة.

وعن ابن مسعود: «لِكَيْلَا يَعْلَمَ»[5]، وعن حِطَّان بنِ عبد الله: «لأَنْ يَعْلَمَ»[6]،

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٦، وكلام الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٧٠٥، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١٣٧.
(٢) أخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٦، والطبري ٢٢/ ٤٤٣ - ٤٤٤.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٢.
(٤) القراءات الشاذة ص ١٥٣، والمحتسب ٢/ ٣١٤، وما بعده منه أيضًا.
(٥) القراءات الشاذة ص ١٥٣ عن عبد الله بن أبي سلمة، والكشاف ٤/ ٦٨ ولم ينسبها.
(٦) القراءات الشاذة ص ١٥٣.

وعن عِكرمة «لِيَعْلَمَ»[١]، وهو خلاف المرسوم.

﴿مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِۙ﴾ قيل: الإسلام. وقيل: الثواب. وقال الكلبيُّ: من رزق الله. وقيل: نِعَمُ الله التي لا تُحصى[٢]. «وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ» ليس بأيديهم فيصرفون النبوَّة عن محمَّد ﷺ إلى من يحبُّون. وقيل: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي: هو له ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾.

وفي «البخاري»: حدَّثنا الحكم بن نافع، قال: حدَّثنا شعيب، عن الزهريِّ، قال: أخبرني سالم بن عبد الله: أنَّ عبد الله بن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول وهو قائم على المنبر: «إنَّما بقاؤكم فيما سلف قَبْلَكم من الأُمم، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أُعطي أهلُ التوراةِ التوراةَ، فعملوا بها حتى انتصف النهار، ثم عَجَزوا، فأُعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أُعطي أهلُ الإنجيلِ الإنجيلَ، فعملوا به حتى صلاة العصر، ثم عَجَزوا، فأُعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أُعطيتم القرآنَ، فعملتم به حتى غروب الشمس، فأُعطيتم قيراطين قيراطين، قال أهل التوراة: ربَّنا هؤلاءِ أقلُّ عملًا وأكثرُ أجرًا؟ قال: هل ظلمتكم من أَجْرِكم من شيء؟ قالوا: لا. فقال: فَضْلي أُوتيه من أشاء». وفي رواية: «فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: ربنا» الحديث[٣].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

تم تفسير سورة الحديد، والحمد لله

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٥٣ عن عبد الله، والكشاف ٤/ ٦٨ ولم ينسبها.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٨٦ دون ذكر قوله: وقيل: الثواب.

(٣) البخاري (٧٤٦٧)، وهو عند أحمد (٦٠٢٩)، والرواية الأخرى برقم (٢٢٦٨) و(٢٢٦٩)، وهي عند أحمد (٤٥٠٨).

تفسير سورة المجادلة

وهي اثنتان وعشرون آية

مدنيَّة في قول الجميع، إلا رواية عن عطاء: أنَّ العشر الأوَّل منها مدنِيٌّ وباقيها مكيٌّ، وقال الكلبيُّ: نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [الآية: ٧] نزلت بمكَّة[١].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾التي اشتكت إلى الله هي خَوْلة بنت ثعلبة. وقيل: بنت حكيم. وقيل: اسمها جميلة. وخَوْلة أصحُّ، وزوجها أَوْس بن الصَّامِت أخو عُبَادة بن الصامت، وقد مرَّ بها عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته ـ والناس معه ـ على حمار، فاستوقفته طويلًا ووعظته وقالت: يا عمر قد كنتَ تدعى عُمَيرًا، ثم قيل لك: عمر، ثم قيل لك: أمير المؤمنين، فاتَّقِ اللهَ يا عمر؛ فإنَّه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب. وهو واقف يسمع كلامها، فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقفُ لهذه العجوز هذا الوقوف؟ فقال: واللهِ لو حبستني من أوَّل النهار إلى آخره لا زلتُ إلا للصلاة المكتوبة، أتدرونَ من هذه العجوز؟ هي خَوْلة بنت ثعلبة، سمع اللهُ قولَها من فوقِ سبع سماوات، أيسمع ربُّ العالمين قولَها ولا يسمعه عمر[٢]؟!

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٧ .

(٢) التعريف والإعلام للسهيلي ص ١٦٤ - ١٦٥ ، والخبر أخرجه الدارمي في الرد على الجهميَّة ص٢١ ، =

وقالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وَسِع سمعه كلَّ شيء، إنِّي لأَسمع كلامَ خَوْلةَ بنتِ ثعلبةَ ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجَها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسولَ الله! أكَلَ شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبرت سنِّي، وانقطع ولدي، ظاهَرَ منِّي، اللهمَّ إنِّي أشكو إليكَ! فما بَرِحتْ حتى نزل جبريلُ بهذه الآية: «قد سَمِعَ اللهُ قولَ التي تجادِلك في زوجِها وتَشْتَكِي إلى اللهِ» خرَّجه ابن ماجه في «السنن»[١].

والذي في البخاريِّ من هذا عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وَسِعَ سمعُه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة تشكو إلى رسول الله ﷺ، وأنا في ناحية البيت ما أَسمعُ ما تقول، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «قد سَمِعَ اللهُ قولَ التي تجادِلُكَ في زوجِها»[٢].

وقال الماورديُّ[٣]: هي خَوْلة بنت ثعلبة. وقيل: بنت خويلد. وليس هذا بمختلف؛ لأنَّ أحدهما أبوها، والآخر جدُّها، فنُسبت إلى كلٍّ واحد منهما، وزوجها أَوْس بن الصَّامِت[٤].

وقال الثعلبيُّ: قال ابن عباس: هي خَوْلة بنت خويلد الخزرجيَّة، كانت تحت

= وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٢ (١٨٨٤١) من طريق جرير بن حازم، عن أبي يزيد المدني قال: لقيت امرأةٌ عمرَ، يقال لها: خولة بنت ثعلبة... الخبر بنحوه، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٣٤ - ١٧٣٥.

(١) برقم (٢٠٦٣)، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٤٧٨٠)، والطبري ٢٢/ ٤٥٤، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٨١، والواحدي في أسباب النزول ص ٤٣٣.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. اهـ. ومعنى: نثرت له بطني: أرادت أنها كانت شابة تلد الأولاد عنده. وامرأة نثور: كثيرة الولد. النهاية (نثر).

(٢) البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، قبل حديث (٧٣٨٦) معلقاً بصيغة الجزم، ووصله أحمد (٢٤١٩٥) واللفظ له، وابن ماجه (١٨٨)، والنسائي في المجتبى ٦/ ١٦٨، والواحدي في أسباب النزول ص ٤٣٤.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٤٨٧.

(٤) بعدها في (م): أخو عبادة بن الصامت.

أوس بنِ الصَّامت أخو عُبَادة بن الصامت، وكانت حسنةَ الجِسم، فرآها زوجها ساجدةً، فنظر عجيزتها فأعجبه أمْرَها، فلما انصرفت أرادها، فأبَتْ، فغضب عليها، قال عُرْوة: وكان امرأً به لَمَم، فأصابه بعضُ لَمَمِه فقال لها: أنت عليَّ كظهر أمِّي ـ وكان الإيلاء والظهار من الطلاق في الجاهلية ـ فسألت النبيَّ ﷺ فقال لها: «حَرُمْتِ عليه» فقالت: واللهِ ما ذَكَر طلاقًا. ثم قالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وابنِ عمِّي، وقد نفضتُ له بطني[١]. فقال: «حَرُمْتِ عليه» فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت عليه الآية.

وروى الحسن: أنَّها قالت: يا رسولَ الله! قد نسخ الله سننَ الجاهلية، وإنَّ زوجي ظاهر منِّي. فقال رسول الله ﷺ: «ما أوحي إليَّ في هذا شيء» فقالت: يا رسولَ الله، أوحي إليكَ في كلِّ شيء وطُويَ عنك هذا؟! فقال: «هو ما قلتُ لكِ» فقالت: إلى اللهِ أشكو لا إلى رسوله. فأنزل الله: «قد سَمِعَ اللهُ قولَ التي تجادِلُكَ في زوجِها وتَشْتَكِي إلى اللهِ» الآية[٢].

وروى الدَّارَقُطْنِيُّ من حديث قتادة أنَّ أنس بن مالك حدَّثه قال: إنَّ أَوْس بن الصّامت ظاهَرَ من امرأته خُوَيْلَةَ بنتِ ثعلبةَ، فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقالت: ظاهَرَني حين كَبِرَتْ سِنِّي ورقَّ عظمي. فأنزل الله تعالى آيةَ الظهار، فقال رسول الله ﷺ لأوس: «أعتق رقبةً» قال: مالي بذلك يدان. قال: «فصم شهرين متتابعين» قال: أما إنِّي إذا أخطأني أن آكل في اليوم[٣] يكِلُّ بصري. قال: «فأطعم ستِّين مسكيناً» قال: ما

---

(١) نَفَضَتِ المرأةُ كَرِشَها، فهي نفوض: كثيرة الولد. اللسان (نفض)، والخبر أورده العيني في عمدة القاري ٢٠/ ٢٨١ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٨٧ - ٤٨٨، ولم نقف عليه عند غيره.

(٣) بعدها في (د) و(ز) و(ق) و(م): ثلاث مرات، والمثبت من (ظ)، والدارقطني (٣٨٥٣ طبعة مؤسسة الرسالة)، وأخرجه أيضاً من طريقه الواحدي في أسباب النزول ص ٤٣٤ - ٤٣٥، وورد في مطبوع الدارقطني (بتحقيق عبد الله هاشم اليماني) ٣/ ٣١٦ زيادة كلمة: مرَّتين. بعد قوله: أن آكل في اليوم. وكذا أضافها محقق أسباب النزول، ولعله اعتمد على مطبوع الدارقطني الآنف الذكر. وفي إسناد الحديث: سعيد بن بشير الدمشقي، الراوي عن قتادة، وهو ضعيف. تقريب التهذيب، والجرح والتعديل للرازي ٤/ ٦-٧، والمغني في الضعفاء للذهبي ١/ ٢٥٦.

وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٤٧-٤٤٨ عن قتادة من قوله بنحوه.

أَجِدُ إلا أن تعينني منك بعَوْنٍ وصِلَة. قال: فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعًا حتى جمع الله له، والله رحيم[(١)]، قال: فكانوا يرون أنَّ عنده مثلَها، وذلك لستِّين مسكيناً.

وفي الترمذِّي و«سنن ابن ماجه»: أنَّ سلمة بنَ صخر البياضيَّ ظاهَرَ من امرأته، وأنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «أعتق رقبةً» قال: فضربت صفحة عنقي بيدي، فقلت: لا والذي بعثك بالحقِّ ما أصبحتُ أملكُ غيرَها. قال: «فصم شهرين» فقلت: يا رسولَ الله! وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام. قال: «فأطعم ستِّين مسكيناً» الحديث[(٢)].

وذكر ابن العربي في «أحكامه»[(٣)]: روي أنَّ خولةَ بنت دُلَيْج ظاهَرَ منها زوجها، فأتتِ النبيَّ ﷺ فسألته عن ذلك. فقال النبيُّ ﷺ: «قد حَرُمْتِ عليه» فقالت: أشكو إلى الله حاجتي. [ثم عادت فقال رسول الله ﷺ: «حَرُمْتِ عليه» فقالت: إلى الله أشكو حاجتي إليه] وعائشة تغسل شقَّ رأسه الأيمن، ثم تحوَّلت إلى الشقِّ الآخر، وقد نزل عليه الوحي، فذهبت أن تعيد، فقالت عائشة: اسكتي؛ فإنَّه قد نزل الوحي. فلما نزل القرآن قال رسول الله ﷺ لزوجها: «أعتق رقبة» قال: لا أجد. قال: «صم شهرين متتابعين» قال: إن لم آكل في اليوم ثلاث مرَّات خفت أن يعشوَ[(٤)] بصري. قال: «فأطعم ستِّين مسكيناً». قال: فأعنِّي. قال: فأعانه بشيء.

قال أبو جعفر النحاس: أهل التفسير على أنَّها خولة وزوجها أَوْس بن الصّامت، واختلفوا في نسبها، فقال بعضهم: هي أنصاريَّة وهي بنت ثعلبة، وقال بعضهم: هي بنت دُلَيْج، وقيل: هي بنت خُوَيلد، وقال بعضهم: هي بنت الصامت[(٥)]، وقال

---

(١) بعدها في (م): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

(٢) الترمذي (٣٢٩٩)، وابن ماجه (٢٠٦٦)، واللفظ للترمذي، وأخرجه أيضاً أبو داود (٢٢١٣)، وأحمد (١٦٤٢١). قال الترمذي: هذا حديث حسن، وسليمان بن يسار لم يسمع عندي من سلمة بن صخر، ويقال: سلمة بن صخر، وسليمان بن صخر. اهـ.

(٣) في أحكام القرآن له ٤/١٧٣٦، وما بين حاصرتين منه، والحديث أخرجه الطبري في التفسير ٢٢/٤٤٦ - ٤٤٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٣٨٤ - ٣٨٥ عن أبي العالية مرسلاً بنحوه، وأورده الزمخشري في الكشاف ٤/ ٦٩ مختصراً.

(٤) في (د) و(ظ): يغشو.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٢ بنحوه.

بعضهم: هي أمَة كانت لعبد الله بن أُبَيّ، وهي التي أنزل الله فيها: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور:٣٣] لأنَّه كان يُكرهها على الزنى[١]. وقيل: هي بنت حكيم. قال النحَّاس: وهذا ليس بمتناقض، يجوز أن تنسب مرَّةً إلى أبيها، ومرَّةً إلى أمِّها، ومرَّةً إلى جدِّها، ويجوز أن تكون أمة كانت لعبد الله بن أبيّ، فقيل لها: أنصارية بالولاء؛ لأنَّه كان في عداد الأنصار، وإن كان من المنافقين.

الثانية: قرئ: «قَد سَّمِعَ اللهُ» بالإدغام، و«قَدْ سَمِعَ اللهُ» بالإظهار[٢]. والأصل في السماع إدراك المسموعات، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن. وقال ابن فُورك: الصحيح أنَّه إدراك المسموع. وقال الحاكم أبو عبد الله في معنى السميع: إنَّه المدرِك للأصوات التي يدركها المخلوقون بآذانهم من غير أن يكون له أُذن، وذلك راجع إلى أنَّ الأصوات لا تخفى عليه، وإن كان غيرَ موصوف بالحِسِّ المركَّب في الأذن، كالأصمِّ من الناس لمَّا لم تكن له هذه الحاسة لم يكن أهلًا لإدراك الصوت. والسمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة، والحياة والإرادة، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه وتعالى متَّصفاً بهما[٣].

وشكى واشتكى بمعنى واحد. وقرِئ: «تُحَاوِرُكَ»[٤] أي: تراجعك الكلام. و«تُجَادِلُكَ» أي: تسائلك.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾

فيه ثلاث وعشرون مسألة:

---

(١) أورد الواحدي في أسباب النزول ص٣٣٩-٣٤٠ عن مقاتل أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ...﴾ الآية، نزلت في ستِّ جوارٍ لعبد الله بن أُبَيّ، كان يُكرِههنَّ ويأخذ أجورهنَّ، وهنَّ: معاذة، ومُسَيْكة، وأميمة، وعمرة، وأروى، وقُتيلة... الخبر.

(٢) النشر ٢/ ٣ - ٤، والإدغام عن أبي عمرو وحمزة والكسائي وخلف وهشام.

(٣) الأسنى ص ٢٧٨، وكلام الحاكم أبي عبد الله ـ وهو الحليمي ـ في كتابه شعب الإيمان ١/ ١٩٩.

(٤) وهي قراءة ابن مسعود، القراءات الشاذة ص ١٥٣.

الأولى: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ﴾[(١)] قرأ ابن عامر وحمزة والكسائيُّ وخلف: «يَظَّاهَرونَ» بفتح الياء وتشديد الظاء وألف. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «يَظَّهَّرُونَ» بحذف الألف وتشديد الهاء والظاء وفتح الياء. وقرأ أبو العالية وعاصم وزِرُّ بن حُبَيش: «يُظاهِرُونَ» بضمِّ الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء[(٢)]. وقد تقدَّم هذا في «الأحزاب»[(٣)]. وفي قراءة أُبَيٍّ: «يَتَظَاهَرُونَ»[(٤)] وهي معنى قراءة ابن عامر وحمزة.

وذكر الظهر كناية عن معنى الركوب، والآدميَّة إنَّما يُركَب بطنها، ولكن كنَّى عنه بالظهر؛ لأنَّ ما يُركَب من غير الآدميَّات فإنَّما يركب ظهره، فكنَّى بالظهر عن الركوب[(٥)]. ويقال: نزل عن امرأته، أي: طلَّقها، كأنَّه نزل عن مركوب. ومعنى: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي: أي: أنتِ عليَّ محرَّمة لا يحلُّ لي ركوبك.

الثانية: حقيقة الظهار تشبيه ظهر بظهر، والموجب للحكم منه تشبيه ظهرٍ محلَّل بظهرٍ محرَّم[(٦)]، ولهذا أجمع الفقهاء على أنَّ من قال لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي. أنَّه مظاهر[(٧)]. وأكثرهم على أنَّه إن قال لها: أنتِ عليَّ كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم، أنَّه مظاهر، وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وغيرهما. واختلف فيه عن الشافعي ﷺ، فروي عنه نحو قول مالك؛ لأنه شبَّه امرأته بظهر محرَّم

(١) كذا في النسخ، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب، وكذا سترد في كل المواضع الآتية من هذه السورة.

(٢) السبعة ص٦٢٨، والتيسير ص٢٠٦-٢٠٧، والنشر ٢/ ٣٨٥.

(٣) لم نقف عليه هناك، بل أحال الكلام هناك على هذه السورة.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٥٣.

(٥) تهذيب اللغة ٦/ ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٦، ومسألة الظهار وأحكامه في المدونة ٣/ ٤٩-٨٤، وبدائع الصنائع ٥/ ٣-٢٤، والأم ٥/ ٢٦١-٢٧٢، والمغني ١١/ ٥٤-١١٩، فلتراجع لمن أراد التوسع فيها.

(٧) الإجماع لابن المنذر ص ٩٢.

عليه مؤبَّد كالأم. وروى عنه أبو ثور: أنَّ الظهار لا يكون إلا بالأمِّ وحدها. وهو مذهب قتادة والشعبي. والأوَّل قول الحسن والنخعيِّ والزهريِّ والأوزاعيِّ والثوريِّ[١].

الثالثة: أصل الظهار أن يقول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي. وإنَّما ذكر الله الظهر كنايةً عن البطن وستراً. فإن قال: أنتِ عليَّ كأمِّي، ولم يذكر الظهر، أو قال: أنتِ عليَّ مثل أمِّي؛ فإن أراد الظهار، فله نيته، وإن أراد الطلاق، كان مطلِّقاً ألْبَتَّة عند مالك، وإن لم يكن له نية في طلاق ولا في ظهار، كان مظاهراً. ولا ينصرف صريح الظهار بالنية إلى الطلاق، كما لا ينصرف صريح الطلاق وكنايته المعروفة له إلى الظهار، وكناية الظهار خاصَّة تنصرف بالنية إلى الطلاق الْبتِّ[٢].

الرابعة: ألفاظ الظهار ضربان: صريح وكناية؛ فالصريح: أنتِ عليِّ كظهر أمِّي، وأنتِ عندي، وأنتِ منِّي، وأنتِ معي، كظهر أمِّي. وكذلك: أنتِ عليَّ كبطن أمِّي، أو: كرأسها، أو: فرجها، أو نحوه، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك عليَّ كظهر أمِّي، فهو مظاهر، مثل قوله: يدك أو رجلك أو رأسك أو فرجك طالق، تطلق عليه. وقال الشافعيُّ في أحد قوليه: لا يكون ظهاراً. وهذا ضعيف منه؛ لأنَّه قد وافقنا على أنَّه يصحُّ إضافة الطلاق إليه خاصَّة حقيقة، خلافًا لأبي حنيفة، فصحَّ إضافة الظهار إليه. ومتى شبَّهها بأمِّه أو بإحدى جدَّاته من قِبَلِ أبيه أو أمه، فهو ظهار بلا خلاف. وإن شبَّهها بغيرهنَّ من ذوات المحارم التي لا تحلُّ له بحال، كالبنت والأخت والعمَّة والخالة، كان مظاهراً عند أكثر الفقهاء، وعند الإمام الشافعيِّ ﷺ على الصحيح من المذهب، على ما ذكرنا[٣].

والكناية أن يقول: أنتِ عليَّ كأمِّي، أو: مثل أمِّي، فإنَّه يعتبر فيه النية. فإن أراد الظهار، كان ظهاراً، وإن لم يرد الظهار، لم يكن مظاهراً عند الشافعيِّ وأبي حنيفة.

---

(١) المغني لابن قدامة ٥٨/١١ .
(٢) الكافي لابن عبد البر ٦٠٣/٢ - ٦٠٤ .
(٣) المغني ١١/ ٦٠ وما بعدها .

وقد تقدَّم مذهب مالك ﷺ في ذلك، والدليل عليه أنَّه أطلق تشبيه امرأته بأمِّه، فكان ظهاراً. أصله إذا ذكر الظهر، وهذا قويٌّ؛ فإنَّ معنى اللفظ فيه موجود ـ واللفظ بمعناه ـ ولم يلزم حكم الظهر للفظه، وإنَّما أُلْزِمَه بمعناه وهو التحريم، قاله ابن العربيّ[1].

الخامسة: إذا شبَّه جملة أهله بعضوٍ من أعضاء أمِّه، كان مظاهراً، خلافاً لأبي حنيفة في قوله: إنَّه إن شبَّهها بعضوٍ يحلُّ له النظر إليه، لم يكن مظاهراً. وهذا لا يصحُّ؛ لأنَّ النظر إليه على طريق الاستمتاع لا يحلُّ له، وفيه وقع التشبيه، وإيَّاه قصد المظاهر، وقد قال الإمام الشافعيُّ في قول: إنَّه لا يكون ظهاراً إلا في الظهر وحده. وهذا فاسد؛ لأنَّ كلَّ عضو منها محرَّم، فكان التشبيه به ظهاراً كالظهر؛ ولأنَّ المظاهر إنَّما يقصد تشبيه المحلَّل بالمحرَّم؛ فلزم على المعنى.

السادسة: إن شبَّه امرأته بأجنبيَّة، فإن ذكر الظهر، كان ظهاراً؛ حملًا على الأوَّل، وإن لم يذكر الظهر، فاختلف فيه علماؤنا؛ فمنهم من قال: يكون ظهاراً. ومنهم من قال: يكون طلاقاً. وقال أبو حنيفة والشافعيُّ: لا يكون شيئاً. قال ابنُ العربيِّ[2]: وهذا فاسد؛ لأنَّه شبَّه محلَّلًا من المرأة بمحرَّم، فكان مقيَّدًا بحكمه كالظهر، والأسماء بمعانيها عندنا، وعندهم بألفاظها، وهذا نقض للأصل منهم.

قلت: الخلاف في الظهار بالأجنبية قويٌّ عند مالك، وأصحابُه منهم من لا يرى الظهار إلا بذوات المحارم خاصَّة، ولا يرى الظهار بغيرهنَّ. ومنهم من لا يجعله شيئاً. ومنهم من يجعله في الأجنبية طلاقاً. وهو عند مالك إذا قال: كظهر ابني أو غلامي، أو كظهر زيد أو كظهر أجنبيَّة، ظهار لا يحلُّ له وطؤها في حين يمينه. وقد روي عنه أيضاً: أنَّ الظهار بغير ذوات المحارم ليس بشيء[3]، كما قال الكوفيُّ والشافعيُّ. وقال الأوزاعيُّ: لو قال لها: أنتِ عليَّ كظهر فلانٍ ـ رجلٍ ـ فهو يمين يكفِّرها. والله أعلم.

---

(١) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٣٧ ، وما بعده منه أيضاً .

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٣٧ ، وما قبله منه أيضاً .

(٣) الكافي ٢/ ٦٠٤ .

السابعة: إذا قال: أنتِ عليَّ حرام كظهر أمِّي، كان ظهاراً ولم يكن طلاقاً؛ لأنَّ قوله: أنتِ حرام عليَّ، يحتمل التحريم بالطلاق فهي مطلَّقة، ويحتمل التحريم بالظهار، فلما صرَّح به كان تفسيراً لأحد الاحتمالين يقضى به فيه(١).

الثامنة: الظهار لازم في كلِّ زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها، على أيِّ الأحوال كانت، من زوج يجوز طلاقه. وكذلك عند مالك من يجوز له وطؤها من إمائه، إذا ظاهر منهنَّ، لزمه الظهار فيهنَّ. وقال أبو حنيفة والشافعيُّ: لا يلزم. قال القاضي أبو بكر بنُ العربيِّ(٢): وهي مسألة عسيرة جدًّا علينا؛ لأنَّ مالكاً يقول: إذا قال لأمته: أنتِ عليَّ حرام. لا يلزم. فكيف يبطل فيها صريح التحريم، وتصحُّ كنايته، ولكن تدخل الأمَة في عموم قوله: ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾(٣) [النساء: ٢٣] لأنَّه أراد من محلَّلاتكم(٤). والمعنى فيه أنَّه لفظ يتعلَّق بالبُضع دون رَفْعِ العقد، فصحَّ في الأمة، أصله الحلف بالله تعالى.

التاسعة: ويلزم الظهار قبل النكاح إذا نكح التي ظاهر منها عند مالك. ولا يلزم عند الشافعيِّ وأبي حنيفة؛ لقوله تعالى: «مِنْ نِسَائِهِمْ» وهذه ليست من نسائه(٥). وقد مضى أصل هذه المسألة في سورة «براءة»(٦) عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [الآية: ٧٥].

العاشرة: الذمِّيُّ لا يلزم ظهاره. وبه قال أبو حنيفة. وقال الشافعيُّ: يصحُّ ظهار الذمِّيِّ؛ ودليلنا قوله تعالى: «مِنْكُمْ» يعني: من المسلمين. وهذا يقتضي خروج الذمِّيِّ من الخطاب. فإن قيل: هذا استدلال بدليل الخطاب. قلنا: هو استدلال بالاشتقاق،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٧ .

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٣٩ ، وما قبله منه أيضاً.

(٣) في (م) : ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ .

(٤) في (م) : محللاتهم .

(٥) المغني ١١/ ٧٥ .

(٦) ١٠/ ٣٠٩ .

والمعنى: فإن أنكحة الكفار فاسدة مستحقَّة الفسخ، فلا يتعلَّق بها حكم طلاقٍ ولا ظِهار، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَىۡ عَدۡلٍ مِّنكُمۡ﴾ [الطلاق: ٢] وإذا خلت الأنكحة عن شروط الصحَّة فهي فاسدة، ولا ظهارَ في النكاح الفاسد بحال(١).

الحادية عشرة: قوله تعالى: «مِنْكُمْ» يقتضي صحَّة ظهار العبد، خلافاً لمن منعه. وحكاه الثعلبيُّ عن مالك؛ لأنَّه من جملة المسلمين، وأحكام النكاح في حقِّه ثابتة، وإن تعذَّر عليه العتق والإطعام، فإنَّه قادر على الصيام.

الثانية عشرة: وقال مالك ﷺ: ليس على النساء تظاهر، إنَّما قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ» ولم يقل: واللاتي يَظَّهَّرنَ منكم(٢) من أزواجهنَّ، إنَّما الظهار على الرجال. قال ابن العربيِّ(٣): هكذا روي عن ابن القاسم وسالم ويحيى بن سعيد وربيعة وأبي الزناد. وهو صحيح معنًى؛ لأنَّ الحلَّ والعقد [والتحليل والتحريم] في النكاح بيد الرجال ليس بيد المرأة منه شيء، وهذا إجماع.

قال أبو عمر(٤): ليس على النساء ظهار في قول جمهور العلماء. وقال الحسن بن زياد: هي مظاهرة. وقال الثوري وأبو حنيفة ومحمد: ليس ظهار المرأة من الرجل بشيء، قبل النكاح كان أو بعده. وقال الشافعيُّ: لا ظهار للمرأة من الرجل. وقال الأوزاعيُّ: إذا قالت المرأة لزوجها: أنتَ عليَّ كظهر أمِّي فلانة، فهي يمين تكفِّرُهَا. وكذلك قال إسحاق، قال: لا تكون امرأةٌ متظاهرةً من رجل، ولكن عليها يمين تكفِّرها. وقال الزهريُّ: أرى أن تُكفِّر كفَّارة الظهار، ولا يَحُول قولُها هذا بينها وبين زوجها أن يُصيبها، رواه عنه معمر. وابن جريج عن عطاء قال: حرَّمت ما أحلَّ الله، عليها كفَّارة يمين. وهو قول أبي يوسف. وقال محمد بن الحسن: لا شيء عليها(٥).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٣٨، وما بعده منه أيضاً.

(٢) في (م): منهن.

(٣) في أحكام القرآن له ٤/١٧٣٩، وما بين حاصرتين استدركناه منه.

(٤) في الاستذكار ١٧/١٢٦ - ١٢٨.

(٥) الاستذكار ١٧/ ١٢٦ - ١٢٧، وقول الزهري وعطاء أخرجه عنهما عبد الرزاق في المصنف (١١٥٩٣) و(١١٥٩٥).

الثالثة عشرة: من به لَمَمٌ وانتظمت له في بعض الأوقات الكَلِم، إذا ظاهر، لزم ظهارُه؛ لما روي في الحديث: أنَّ خَوْلة بنت ثعلبة، وكان زوجها أَوْس بن الصّامت، وكان به لَمَم، فأصابه بعض لَمَمِه، فظاهر من امرأته[١].

الرابعة عشرة: من غضب فظاهر من امرأته، أو طلّق، لم يُسقط عنه غضبُه حكمَه. وفي بعض طرق هذا الحديث: قال يوسف بن عبد الله بن سلام: حدَّثتني خَوْلة امرأة أَوْس بنِ الصَّامت، قالت: كان بيني وبينه شيء، فقال: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي. ثم خرج إلى نادي قومه. فقولها: كان بيني وبينه شيء؛ دليل على منازعة أحرجته[٢]، فظاهر منها. والغضب: لغو لا يرفع حكمًا ولا يغيِّر شرعاً، وكذلك السكران. وهي:

الخامسة عشرة: يلزمه حكم الظهار والطلاق في حال سكره إذا عقَل قولَه ونظَم كلامَه[٣]؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] على ما تقدَّم في «النساء»[٤] بيانه. والله أعلم.

السادسة عشرة: ولا يَقرُب المظاهر امرأته، ولا يباشرها، ولا يتلذَّذ منها بشيء حتى يكفِّر، خلافًا للشافعي في أحد قوليه؛ لأنَّ قوله: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي، يقتضي تحريمَ كلِّ استمتاع[٥] بلفظه ومعناه، فإن وطئها قبل أن يكفِّر، وهي:

السابعة عشرة: إسْتَغْفَر اللهَ تعالى وأَمسكَ عنها حتى يكفِّر كفَّارة واحدة[٦]. وقال

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٩، والحديث سلف تخريجه في أول السورة.

(٢) في النسخ الخطية: أحوجته. والمثبت من (م) وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٩ والكلام منه، والحديث أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٢٥٨)، والطبري في التفسير ٢٢/ ٤٥٥ من طريق معمر بن عبد الله، عن يوسف بن عبد الله بن سلام، به. ومعمر بن عبد الله بن حنظلة مجهول.

وأخرجه أيضاً أحمد (٢٧٣١٩)، وأبو داود (٢٢١٤) و(٢٢١٥) بلفظ: فراجعته بشيء. بدل: كان بيني وبينه شيء. وحسَّنه الحافظ في الفتح ٩/ ٤٣٣.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٩.

(٤) ٦/ ٣٣٥.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٤٠.

(٦) الكافي لابن عبد البر ٢/ ٦٠٦.

مجاهد وغيره: عليه كفَّارتان[١]. روى سعيد عن قتادة ومطر[٢]، عن رجاء بن حَيْوة، عن قَبيصة بن ذؤيب، عن عمرو بنِ العاص في المظاهر: إذا وَطِئَ قبل أن يكفِّر، عليه كفَّارتان. ومعمر عن قتادة قال: قال قبيصة بن ذؤيب: عليه كفَّارتان[٣].

وروى جماعة من الأئمة ـ منهم ابن ماجه والنسائيُّ عن ابن عباس: أنَّ رجلًا ظاهر من امرأته، فغشيها قبل أن يكفِّر، فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له فقال: «ما حَمَلَكَ على ذلك»؟ فقال: يا رسول الله! رأيتُ بياض خلخالها في ضوء القمر، فلم أملك نفسي أن وقعت عليها. فضحك النبيُّ ﷺ، وَأَمَرَه ألَّا يَقْرَبَها حتى يكفِّر[٤]. وروى ابن ماجه والدَّارقُطْنيُّ عن سليمان بن يسار، عن سلمة بن صخر أنَّه ظاهر في زمان النبيِّ ﷺ، ثم وقع بامرأته قبل أن يكفِّر، فأتى رسولَ الله ﷺ فذكر ذلك له، فأمره أن يكفِّر تكفيراً واحدًا[٥].

الثامنة عشرة: إذا ظاهر من أربع نسوة في كلمة واحدة، كقوله: أنتنَّ عليَّ كظهر أمِّي، كان مظاهراً من كلِّ واحدة منهنَّ، ولم يجز له وَطْء إحداهنَّ، وأجزأته كفَّارة واحدة. وقال الشافعيُّ: تلزمه أربع كفَّارات. وليس في الآية دليل على شيء من ذلك؛ لأنَّ لفظ الجمع إنَّما وقع في عامَّة المؤمنين، والمعوَّل على المعنى[٦]. وقد روى الدَّارقُطْنيُّ[٧] عن ابن عباس قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إذا كان تحت الرجل أربع نسوة، فظاهر منهنَّ، يجزيه كفَّارة واحدة. فإن ظاهر من واحدة بعد

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٤٢.

(٢) في (د) و(ظ) و(م): مطرف. والمثبت من (ق) وسنن الدارقطني (٣٨٥٧) والكلام منه، وهو الصواب.
قال في التعليق المغني على الدارقطني: قال أحمد بن حنبل والدارقطني والبيهقي: إن قبيصة بن ذؤيب لم يسمع من عمرو بن العاص.

(٣) الدارقطني (٣٨٥٨).

(٤) النسائي في المجتبى ٦/ ١٦٧، وابن ماجه (٢٠٦٥)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٢٢٢٥)، والترمذي (١١٩٩) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٥) ابن ماجه (٢٠٦٤)، والدارقطني (٣٨٥٩) واللفظ له، وأخرجه أيضاً الترمذي (١١٩٨) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٤٠.

(٧) في سننه (٣٨٦٥).

أخرى، لزمه في كلِّ واحدة منهنَّ كفَّارة[١]. وهذا إجماع.

التاسعة عشرة: فإن قال لأربع نسوة: إن تزوجتكنَّ فأنتنَّ عليَّ كظهر أمِّي، فتزوَّج إحداهنَّ لم يَقْرَبْها حتى يكفِّر، ثم قد سقط عنه اليمين في سائرهنَّ. وقد قيل: لا يطأ البواقي منهنَّ حتى يكفِّر. والأوَّل هو المذهب[٢].

الموفية عشرين: وإن قال لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمِّي، وأنتِ طالق ألبَتّة. لزمه الطلاق والظهار معًا، ولم يكفِّر حتى ينكحها بَعْدُ زوجٌ[٣]، ولا يطأها إذا نكحها حتى يكفِّر، فإن قال لها: أنتِ طالق ألبتة، وأنتِ عليَّ كظهر أمِّي، لزمه الطلاق، ولم يلزمه الظهار؛ لأنَّ المبتوتةَ لا يلحقها طلاق.

الحادية والعشرون: قال بعض العلماء: لا يصحُّ ظهار غير المدخول بها. وقال المزنيُّ: لا يصحُّ الظهار من المطلَّقة الرجعية. وهذا ليس بشيء؛ لأنَّ أحكام الزوجيَّة في الموضعين ثابتة، وكما يلحقها الطلاق كذلك يلحقها الظهار؛ قياسًا ونظرًا. والله أعلم.

الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ أي: ما نساؤهم بأمَّهاتهم. وقراءة العامة: «أُمَّهَاتِهِمْ» بخفض التاء على لغة أهل الحجاز، كقوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]. وقرأ أبو معمر والسلميُّ وغيرهما: «أُمَّهَاتُهُمْ» بالرفع[٤] على لغة تميم. قال الفرَّاء[٥]: أهل نجد وبنو تميم يقولون: «مَا هَذَا بَشَرٌ»، و«مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ» بالرفع. ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ أي: ما أمَّهاتهم إلا الوالدات. وفي المَثَل: وُلْدُكِ مَنْ دَمَّى عَقِبَيْكِ[٦]. وقد تقدَّم القول في اللائي في «الأحزاب»[٧].

---

(١) الإقناع لابن المنذر ١/ ٣٢٠.
(٢) الكافي لابن عبد البر ٢/ ٦٠٥، وما بعده منه أيضاً.
(٣) بعدها في (م): آخر. والمثبت من النسخ الخطية، والكافي لابن عبد البر ٢/ ٦٠٥.
(٤) السبعة ص ٦٢٨ عن عاصم في رواية المفضل عنه.
(٥) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٩.
(٦) أي: مَن نَفِسْتِ به. مجمع الأمثال للميداني ١/ ٣٩.
(٧) لم نقف عليه هناك.

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ﴾ أي: فظيعًا من القول لا يُعرَف في الشرع. والزور: الكذب[١] ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إذ جعل الكفَّارة عليهم مخلِّصة لهم من هذا القول المنكر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾

فيه اثنتا عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ هذا ابتداء، والخبر: «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» وحذف: عليهم؛ لدلالة الكلام عليه[٢]، أي: فعليهم تحرير رقبة. وقيل: أي: فكفَّارتهم عتق رقبة. والمجمع عليه عند العلماء في الظهار قول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي[٣]. وهو قول المنكر والزور الذي عنى الله بقوله: «وإنَّهم ليقُولُونَ مُنْكَراً من القولِ وزُورًا» فمن قال هذا القول، حرم عليه وطء امرأته. فمن عاد لِمَا قال، لزمته كفَّارة الظهار؛ لقوله عزَّ وجلَّ: «والذين يظَّهَّرون من نِسَائهم ثم يعودونَ لِمَا قالوا فتحريرُ رقبةٍ» وهذا يدلُّ على أنَّ كفَّارة الظهار لا تلزم بالقول خاصَّة حتى ينضمَّ إليها العَوْد[٤]، وهذا حرف مُشكِل اختلف الناس فيه على أقوال سبعة[٥]:

الأوَّل: أنَّه العزم على الوطء، وهو مشهور قول العراقيين أبي حنيفة وأصحابه[٦].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٤.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣٤.

(٣) الإجماع ص ٩٢.

(٤) الكافي لابن عبد البر ٢/ ٦٠٤.

(٥) الأقوال السبعة في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٤٠ - ١٧٤١، والاستذكار ١٧/ ١٢٩ وما بعدها، والمغني ١١/ ٧٣ وما بعدها.

(٦) بدائع الصنائع ٥/ ٢٢.

وروي عن مالك: فإن عزم على وطئها، كان عَوْدًا، وإن لم يعزم، لم يكن عَوْدًا.

الثاني: العزم على الإمساك بعد التظاهر منها، قاله مالك.

الثالث: العزم عليهما. وهو قول مالك في «موطئه»[(١)]، قال مالك في قول الله عزَّ وجلَّ: «والذين يظَّهَّرون من نِسَائهم ثم يعودونَ لِمَا قالوا» قال: سمعت أنَّ تفسير ذلك أن يظاهر الرجل من امرأته، ثم يجمع على إصابتها وإمساكها؛ فإن أجمع على ذلك، فقد وجبت عليه الكفَّارة، وإن طلَّقها ولم يُجمِع بعد تظاهره منها على إمساكها وإصابتها، فلا كفَّارة عليه. قال مالك: وإن تزوَّجها بعد ذلك لم يمسَّها حتى يكفِّر كفَّارة التظاهر.

القول الرابع: أنَّه الوطء نفسه، فإن لم يطأ لم يكن عَوْدًا، قاله الحسن ومالك أيضًا[(٢)].

الخامس: وقال الإمام الشافعيُّ[(٣)] ﷺ: هو أن يُمسكها زوجةً بعد الظهار مع القدرة على الطلاق؛ لأنَّه لما ظاهر قصد التحريم، فإن وصل به الطلاقَ، فقد جرى على خلاف ما ابتدأه من إيقاع التحريم، ولا كفَّارة عليه. وإن أمسك عن الطلاق، فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفَّارة.

السادس: أنَّ الظهار يوجب تحريمًا لا يرفعه إلا الكفَّارة. ومعنى العَود عند القائلين بهذا: أنَّه لا يستبيح وطأها إلا بكفَّارة يُقدِّمها، قاله أبو حنيفة وأصحابه والليث بن سعد[(٤)].

السابع: هو تكرير الظهار بلفظه. وهذا قول أهل الظاهر النافين للقياس[(٥)]،

---

(١) ٢/ ٥٦٠.

(٢) المنتقى للباجي ٤/ ٤٩.

(٣) في الأم ٨/ ٢٦٥.

(٤) الاستذكار ١٧/ ١٣٢.

(٥) المحلى ١٠/ ٥٢.

قالوا: إذا كرَّر اللفظ بالظهار، فهو العَوْد، وإن لم يكرِّر، فليس بِعَود. ويسند ذلك إلى بكير بن الأشجِّ[١] وأبي العالية وأبي حنيفة[٢] أيضًا، وهو قول الفرَّاء[٣]. وقال أبو العالية: وظاهر الآية يشهد له؛ لأنَّه قال: «ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا» أي: إلى قول ما قالوا. وروى عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عزَّ وجلَّ: «والذين يظَّهَّرون من نِسَائهم ثم يعودونَ لِمَا قالوا» هو أن يقول لها: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي. فإذا قال لها ذلك، فليست تحلُّ له حتى يكفِّر كفَّارة الظهار[٤].

قال ابن العربي[٥]: فأما القول بأنَّه العَوْد إلى لفظ الظهار، فهو باطل قطعًا لا يصحُّ عن بكير، وإنَّما يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه. وقد رويت قصص المتظاهرين وليس في ذِكْر الكفَّارة عليهم ذِكْر لِعَود القول منهم، وأيضًا فإنَّ المعنى ينقضه؛ لأنَّ الله تعالى وصفه بأنَّه مُنكَر من القول وزور، فكيف يقال له: إذا أَعَدْتَ القول المحرَّم والسببَ المحظور، وجبت عليك الكفَّارة، وهذا لا يعقل؛ ألا ترى أنَّ كلَّ سبب يوجب الكفَّارة لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطء في صوم أو غيره.

قلت: قوله: يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه. حملٌ منه عليه، وقد قال بقول داود من ذكرناه عنهم.

وأما قول الشافعيِّ: بأنَّه ترك الطلاق مع القدرة عليه، فينقضه ثلاثة أمور أمهات:

---

(١) الاستذكار ١٧/ ١٣٤، وبكير هو: ابن عبد الله بن الأشج، أبو عبد الله، ويقال: أبو يوسف القرشي، مولى بني مخزوم، معدود في صغار التابعين (ت ١٢٧ هـ). الكاشف ١/ ١٠٩، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٦/ ١٧٠.

(٢) لم نقف على قوله فيما بين أيدينا من مصادر، ولعلَّ المصنِّف اشتبه عليه بما عند ابن حزم في المحلى ١٠/ ٥١، حيث ذكر ابن حزم تعليل قول أبي حنيفة - السالف الذكر في القول السادس آنفاً - بما نصه: والظهار قول كانوا يقولونه في الجاهلية، فنهوا عنه، فكل من قاله فقد عاد لما قال. اهـ. وينظر لزاماً الاستذكار ١٧/ ١٣٢، وتفسير ابن كثير ٨/ ٣٩.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٩.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٦٠ - ٤٦١ من طريق معاوية، عن علي بن أبي طلحة، به.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٤١.

الأوَّل: أنَّه قال: «ثُمَّ» وهذا بظاهره يقتضي التراخي.

الثاني: أنَّ قوله تعالى: «ثُمَّ يَعُودُونَ» يقتضي وجود فعل من جهة، ومرور الزمان ليس بفعل منه.

الثالث: أنَّ الطلاق الرجعيَّ لا ينافي البقاء على الملك، فلم يسقط حكم الظهار كالإيلاء. فإن قيل: فإذا رآها كالأمِّ، لم يمسكها؛ إذ لا يصحُّ إمساك الأمِّ بالنكاح. وهذه عمدة أهل ما وراء النهر. قلنا[1]: إذا عزم على خلاف ما قال، ورآها خلاف الأمِّ، كفَّر وعاد إلى أهله. وتحقيق هذا القول: أنَّ العزم قولٌ نفسيٌّ، وهذا رجل قال قولًا اقتضى التحليل وهو النكاح، وقال قولًا اقتضى التحريم وهو الظهار، ثم عاد لما قال وهو التحليل، ولا يصحُّ أن يكون منه ابتداء عقد؛ لأنَّ العقد باقٍ، فلم يَبْقَ إلا أنَّه قول عزم يخالف ما اعتقده وقاله في نفسه من الظهار الذي أخبر عنه بقوله: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي، وإذا كان ذلك، كفَّر وعاد إلى أهله؛ لقوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا». وهذا تفسير بالغ [في فنه].

الثانية: قال بعض أهل التأويل: الآية فيها تقديم وتأخير، والمعنى: «والذين يظَّهَّرون من نِسَائهم ثم يعودونَ» إلى ما كانوا عليه من الجماع «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» لما قالوا، أي: فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا، فالجار في قوله: «لِمَا قَالُوا» متعلِّق بالمحذوف الذي هو خبر الابتداء، وهو: عليهم، قاله الأخفش[2]. وقال الزجَّاج[3]: المعنى: ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا. وقيل: المعنى الذين كانوا يَظَّهَّرون من نسائهم في الجاهلية، ثم يعودون لما كانوا قالوه في الجاهلية في

(١) القائل ابن العربي في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٤٠ - ١٧٤١، وما بين حاصرتين منه، وما قبله منه أيضاً.

(٢) ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن له ٤/ ٣٧٣، وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٠٥ - ٧٠٦.

(٣) في معاني القرآن له ٥/ ١٣٥.

الإسلام، فكفَّارة من عاد أن يحرِّر رقبة[١]. الفرَّاء[٢]: اللام بمعنى «عن» والمعنى: ثم يَرجعون عمَّا ما قالوا ويريدون الوطء. وقال الأخفش: لما قالوا، وإلى ما قالوا، واحد، واللام و«إلى» يتعاقبان، قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وقال: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، وقال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] وقال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [هود: ٣٦].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فعليه إعتاق رقبة، يقال: حرَّرته، أي: جعلته حرًّا. ثم هذه الرقبة يجب أن تكون كاملةً سليمةً من كلِّ عيب، ومن كمالها إسلامها عند مالك والشافعي، كالرقبة في كفَّارة القتل. وعند أبي حنيفة وأصحابه تُجزئ الكافرة ومن فيها شائبة رِقٍّ، كالمكاتبة وغيرها[٣].

الرابعة: فإن أعتق نصفي عبدين، فلا يجزيه عندنا ولا عند أبي حنيفة. وقال الشافعيُّ: يجزئ؛ لأنَّ نصف العبدين في معنى العبد الواحد[٤]؛ ولأنَّ الكفَّارة بالعتق طريقها المال، فجاز أن يدخلها التبعيض والتجزِّي، كالإطعام، ودليلنا قوله تعالى: «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» وهذا الاسم عبارة عن شخص واحد، وبعض الرقبة ليس برقبة، وليس ذلك مما يدخله التلفيق؛ لأنَّ العبادة المتعلِّقة بالرقبة لا يقوم النصف من رقبتين مقامها؛ أصله إذا اشترك رجلان في أضحيتين؛ ولأنَّه لو أَمَرَ رجلين أن يحجَّا عنه حجَّة، لم يجز أن يحجَّ عنه واحد منهما نصفها، كذلك هذا، ولأنَّه لو أوصى بأن تشترى رقبة فتعتق عنه، لم يجز أن يعتق عنه نصف عبدين، كذلك في مسألتنا، وبهذا يبطل دليلهم. والإطعام وغيره لا يَتَجَزَّى في الكفَّارة عندنا.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: يجامعها، فلا يجوز للمظاهر

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٩ .

(٣) المسألة في أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤٢٥ ، والمغني ١١/ ٨١ ، والكافي ٢/ ٦٠٦ ، والأم ٥/ ٢٦٦ ، والمبسوط ٧/ ٢ .

(٤) بداية المجتهد ٣/ ١٥٨ .

الوطء قبل التكفير[١]، فإن جامعها قبل التكفير، أَثِمَ وعصى، ولا يسقط عنه التكفير. وحكي عن مجاهد: أنَّه إذا وَطِئَ قبل أن يُشرع في التكفير، لزمته كفَّارة أخرى[٢]. وعن غيره: أنَّ الكفَّارة الواجبة بالظهار تسقط عنه، ولا يلزمه شيء أصلاً؛ لأنَّ الله تعالى أوجب الكفَّارة وأمر بها قبل المسيس، فإذا أخَّرها حتى مسَّ، فقد فات وقتها. والصحيح ثبوت الكفَّارة؛ لأنَّه بوطئه ارتكب إثماً، فلم يكن ذلك مسقطاً للكفَّارة، ويأتي بها قضاءً، كما لو أخَّر الصلاة عن وقتها[٣]. وفي حديث أَوْس بن الصامت لما أخبر النبيَّ ﷺ بأنَّه وطئ امرأته، أمره بالكفَّارة[٤]. وهذا نصٌّ، وسواء كانت كفَّارة بالعتق أو الصوم أو الإطعام. وقال أبو حنيفة: إن كانت كفَّارته بالإطعام، جاز أن يطأ، ثم يطعم[٥].

فأمَّا غير الوطء من القُبلة والمباشرة والتلذُّذ، فلا يحرم في قول أكثر العلماء. وقاله الحسن وسفيان، وهو الصحيح من مذهب الشافعيِّ[٦]. وقيل: وكلُّ ذلك محرَّم وكلُّ معاني المسيس، وهو قول مالك وأحد قولي الشافعيِّ[٧]. وقد تقدَّم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: تؤمرون به ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من التكفير وغيره.

السابعة: من لم يجد الرقبة ولا ثمنها، أو كان مالكاً لها إلا أنَّه شديد الحاجة

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٥ .

(٢) سلف تخريجه قريبًا .

(٣) الاستذكار ١٧/ ١٢٣ ، وأحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤٢٠ .

(٤) لم يرد في حديث أوس المتقدم أنه وطئ امرأته ، بل ورد في حديث سلمة بن صخر ، كما مرَّ في أول السورة ، عند المسألة السابعة عشرة.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٥ ، ولم نقف عليه في المظانِّ من كتبه ، وذكره الكاساني في بدائع الصنائع ٥/ ٣٧ وعزاه لمالك .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٥ ، والاستذكار ١٧/ ١٢٣ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٦١ عن الحسن وسفيان .

(٧) المغني ١١/ ٦٧ .

إليها لخدمته، أو كان مالكاً لثمنها إلا أنَّه يحتاج إليه لنفقته، أو كان له مسكن ليس له غيره، ولا يجد شيئًا سواه، فله أن يصوم عند الشافعيِّ. وقال أبو حنيفة: لا يصوم وعليه عتق، ولو كان محتاجًا إلى ذلك. وقال مالك: إذا كان له دار وخادم، لزمه العتق(١)، فإن عجز عن الرقبة، وهي:

الثامنة: فعليه صوم شهرين متتابعين. فإن أفطر في أثنائهما بغير عذر، استأنفهما، وإن أفطر لعذر من سفر أو مرض، فقيل: يبني، قاله ابن المسيّب والحسن وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والشعبي. وهو أحد قولي الشافعيِّ، وهو الصحيح من مذهبه(٢). وقال مالك: إنَّه إذا مرض في صيام كفَّارة الظهار، بنى إذا صحَّ. ومذهب أبي حنيفة ﷺ أنَّه يبتدئ. وهو أحد قولي الشافعيِّ(٣).

التاسعة: إذا ابتدأ الصيام ثم وجد الرقبة، أتمَّ الصيام وأجزأه عند مالك والشافعيِّ؛ لأنَّه بذلك أُمِرَ حين دخل فيه. ويهدم الصوم ويعتق عند أبي حنيفة وأصحابه(٤)؛ قياسًا على الصغيرة المعتدَّة بالشهور ترى الدم قبل انقضائها، فإنَّها تستأنف الحيضَ إجماعًا من العلماء. وإذا ابتدأ سفرًا في صيامه فأفطر، ابتدأ الصيام عند مالك والشافعيِّ وأبي حنيفة؛ لقوله: «مُتَتَابِعَيْنِ». ويبني في قول الحسن البصري(٥)؛ لأنَّه عُذر [وقياسًا على رمضان، فإن تخلَّلها زمان لا يحلُّ صومه في الكفَّارة، كالعيدين وشهر رمضان، انقطع](٦).

العاشرة: إذا وطئ المتظاهر في خلال الشهرين نهارًا، بطل التتابع في قول الشافعيِّ، وليلًا، فلا يبطل؛ لأنه ليس محلًّا للصوم. وقال مالك وأبو حنيفة: يبطل

---

(١) المسألة في الإشراف لابن المنذر ٤/ ٢٥٠ - ٢٥١، والمغني ١١/ ٨٥ - ٨٦، والأم ٥/ ٢٦٩.

(٢) المغني ١١/ ٨٨ بنحوه، وأخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ٤٦٢ - ٤٦٤.

(٣) المسألة في الإشراف لابن المنذر ٤/ ٢٤٩، والكافي لابن عبد البر ٢/ ٦٠٧، والمبسوط ٧/ ١٢.

(٤) المسألة في الإشراف ٤/ ٢٥٠، والمدونة ٣/ ٦٤، والأم ٥/ ٢٧٠، والمبسوط ٧/ ١٢.

(٥) المسألة في الإشراف ٤/ ٢٤٩، والمنتقى للباجي ٤/ ٤٤، والأم ٥/ ٢٧٠، والمبسوط ٧/ ١٢.

(٦) ما بين حاصرتين لم يرد في (ظ).

بكلِّ حال، ووجب عليه ابتداء الكفَّارة[1]؛ لقوله تعالى: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا» وهذا الشرط عائد إلى جملة الشهرين، وإلى أبعاضهما، فإذا وطئ قبل انقضائهما، فليس هو الصيام المأمور به، فلزمه استئنافه، كما لو قال: صلِّ قبل أن تُكلِّم زيدًا. فكلَّم زيدًا في الصلاة، أو قال: صلِّ قبل أن تبصر زيدًا. فأبصره في الصلاة، لزمه استئنافها؛ لأنَّ هذه الصلاة ليست هي الصلاة المأمور بها، كذلك هذا، والله أعلم.

الحادية عشرة: ومن تطاول مرضه طولاً لا يُرجَى برؤه، كان بمنزلة العاجز من كِبَر، وجاز له العدول عن الصيام إلى الإطعام. ولو كان مرضه مما يُرجَى برؤه واشتدَّت حاجته إلى وطء امرأته، كان الاختيار له أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام. ولو كفَّر بالإطعام ولم ينتظر القدرة على الصيام، أجزأه[2].

الثانية عشرة: ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر، لم يجزه الصوم. ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يكفِّر، صام. وإنما يُنْظر إلى حاله يوم يكفِّر. ولو جامعها في عدمه وعسره، فلم يصم حتى أيسر، لزمه العتق. ولو ابتدأ بالصوم ثم أيسر، فإن كان مضى من صومه صدر صالح نحو الجمعة وشبهها، تمادى. وإن كان اليوم واليومين ونحوهما، ترك الصوم وعاد إلى العتق، وليس ذلك بواجب عليه. ألا ترى أنَّه غير واجب على من طرأ الماء عليه وهو قد دخل بالتيمم في الصلاة، أن يقطع ويبتدئ الطهارة عند مالك.

الثالثة عشرة: ولو أعتق رقبتين عن كفارتَي ظهار وقتل أو فطر في رمضان، وأَشرك بينهما في كلٍّ واحدة منهما، لم يجزه. وهو بمنزلة من أعتق رقبة واحدة من كفَّارتين. وكذلك لو صام عنهما أربعة أشهر حتى يصوم عن كلٍّ واحدة منهما شهرين. وقد قيل: إنَّ ذلك يجزيه[3].

ولو ظاهر من امرأتين له، فأعتق رقبة عن إحداهما بغير عينها، لم يجز له وطء

(١) المسألة في المغني ١١/ ٩١ - ٩٢، والأم ٥/ ٢٦٥، والمدونة ٣/ ٦٦، والمبسوط ٧/ ١٤.

(٢) الكافي ٢/ ٦٠٨، وما بعده منه أيضًا.

(٣) الكافي ٢/ ٦٠٨ - ٦٠٩، وما بعده منه أيضًا.

واحدةٍ منهما حتى يكفِّر كفَّارة أخرى. ولو عيَّن الكفَّارة عن إحداهما، جاز له أن يطأها قبل أن يكفِّر الكفَّارة عن الأخرى.

ولو ظاهر من أربع نسوة، فأعتق عنهنَّ ثلاث رقاب، وصام شهرين، لم يجزه العتق ولا الصيام؛ لأنَّه إنَّما صام عن كلِّ واحدة خمسة عشر يومًا، فإن كفَّر عنهنَّ بالإطعام، جاز أن يطعم عنهنَّ مئتي مسكين [وأربعين مسكيناً]، وإن لم يَقْدر، فرّق، بخلاف العتق والصيام؛ لأنَّ صيام الشهرين لا يفرق، والإطعام يفرق[١].

فصل وفيه ستُّ مسائل:

الأولى: ذكر الله عزَّ وجلَّ الكفَّارة هنا مرتَّبةً، فلا سبيلَ إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام، فمن لم يطق الصيام، وجب عليه إطعام ستِّين مسكيناً، لكلِّ مسكين مُدَّان بمُدِّ النبيِّ ﷺ. وإن أطعم مدّاً بمدِّ هشام، وهو مدَّان إلا ثلثاً، أو أطعم مدّاً ونصفًا بمدِّ النبيِّ ﷺ، أجزأه. قال أبو عمر بن عبد البر[٢]: وأفضل ذلك مدَّان بمدِّ النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يقل في كفَّارة الظهار: ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ﴾ [المائدة: ٨٩] فواجب قصد الشبع.

قال ابنُ العربيِّ[٣]: وقال مالك في رواية ابن القاسم وابن عبد الحكم: مُدٌّ بمدِّ هشام، وهو الشبع ها هنا؛ لأنَّ الله تعالى أطلق الطعام ولم يذكر الوسط. وقال في رواية أشهب: مدَّان بمدِّ النبيِّ ﷺ: [قيل له: ألم تكن قلت: مدّ هشام؟ قال: بلى، ومدَّان بمدِّ النبيِّ ﷺ][٤] أحبُّ إليَّ. وكذلك قال عنه ابن القاسم أيضًا.

قلت: وهي رواية ابن وهب ومطرِّف عن مالك: أنَّه يُعطي مدَّين لكلِّ مسكين،

---

(١) الكافي ٢/٦٠٨ - ٦٠٩، وما بين حاصرتين لم يرد في النسخ، واستدركناه منه، وكذلك كلمة: فرّق. لم ترد في النسخ الخطية ولا الكافي، وهي من (م)، ولا بدَّ منها.

(٢) في الكافي ٢/٦٠٧، وما قبله منه أيضاً.

(٣) في أحكام القرآن له ٤/١٧٤٤، وكلام مالك ـ الآتي ـ في المدونة ٣/٦٨-٦٩.

(٤) ما بين حاصرتين لم يرد في (د).

بمدِّ النبيِّ ﷺ[١]. وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه[٢]. ومذهب الشافعيِّ[٣] وغيره: مدٌّ واحد لكلِّ مسكين، لا يلزمه أكثر من ذلك؛ لأنَّه يكفِّر بالإطعام، ولم يلزمه صرف زيادة على المدِّ، أصله كفَّارة الإفطار واليمين. ودليلنا قوله تعالى: «فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً» وإطلاق الإطعام يتناول الشِّبع، وذلك لا يحصل بالعادة بمدٍّ واحد إلا بزيادة عليه.

وكذلك قال أشهب: قلت لمالك: أيختلف الشِّبع عندنا وعندكم؟ قال: نعم، الشِّبع عندنا مدٌّ بمدِّ النبيِّ ﷺ، والشِّبع عندكم أكثر؛ لأنَّ النبي ﷺ دعا لنا بالبركة دونكم، فأنتم تأكلون أكثر مما نأكل نحن[٤].

وقال أبو الحسن القابسيُّ: إنَّما أخذ أهل المدينة بمدِّ هشام في كفَّارة الظهار؛ تغليظاً على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنَّهم يقولون منكراً من القول وزورًا.

قال ابنُ العربيِّ[٥]: وقع الكلام ها هنا في مدِّ هشام كما ترون، وَوَدِدْتُ أن يهشم الزمانُ ذِكْره، ويمحوَ من الكتب رَسْمه؛ فإنَّ المدينة التي نزل الوحيُ بها، واستقرَّ الرسول بها، ووقع عندهم الظهار، وقيل لهم فيه: «فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً» فهموه وعرفوا المراد به وأنَّه الشِّبع. وقَدْره معروف عندهم، متقرِّر لديهم، وقد ورد ذلك الشِّبع في الأخبار كثيراً، واستمرَّت الحال على ذلك أيَّام الخلفاء الراشدين المهديِّين، حتى نفخ الشيطانُ في أذن هشام، فرأى أنَّ مدَّ النبيِّ ﷺ لا يُشبِعه، ولا مثله من حواشيه ونظرائه، فسوّل له أن يتخذ مدّاً يكون فيه شبعه، فجعله رِطْلين، وحمل الناس عليه، فإذا ابتلَّ عاد نحو الثلاثة أرطال؛ فغيَّر السُّنَّة، وأَذْهَبَ محلَّ البركة. قال

---

(١) النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني ٥/ ٣٠٧ ، والبيان والتحصيل لابن رشد ٥/ ١٧٠ .

(٢) المبسوط ٧/ ١٦ .

(٣) الأم ٥/ ٢٧٢ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٤٤ ، ودعاؤه ﷺ لأهل المدينة بالبركة ، سيأتي قريباً .

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٤٤ - ١٧٤٥ ، وهشام هو: ابن عبد الملك الخليفة الأموي، كما صرَّح بذلك أبو داود في سننه (٣٢٨٠) عن محمد بن محمد بن خلاد.

النبيُّ ﷺ حين دعا ربَّه لأهل المدينة بأن تبقى لهم البركة في مدِّهم وصاعهم، مثل ما بارك لإبراهيم بمكَّة[١]، فكانت البركة تجري بدعوة النبيِّ ﷺ في مدِّه، فسعى الشيطان في تغيير هذه السنة وإذهاب هذه البركة، فلم يستجب له في ذلك إلا هِشام، فكان من حقِّ العلماء أن يُلْغُوا ذِكْره، ويمحوا رسمه، إذا لم يُغيِّروا أمره، وأما أن يحيلوا على ذِكْره في الأحكام، ويجعلوه تفسيراً لما ذَكَره الله ورسوله بعد أن كان مفسَّراً عند الصحابة الذين نزل عليهم، فخَطْبٌ جسيم، ولذلك كانت رواية أشهب في ذِكْر مدَّين بمدِّ النبيِّ ﷺ في كفَّارة الظهار أحبُّ إلينا من الرواية بأنَّها بمدِّ هشام. ألا ترى كيف نبَّه مالك على هذا العِلْم بقوله لأشهب: الشِّبع عندنا بمدِّ النبيِّ ﷺ، والشِّبع عندكم أكثر؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ دعا لنا بالبركة. وبهذا أقول، فإنَّ العبادة إذا أُديت بالسنة، فإن كانت بالبدن، كانت أسرعَ إلى القَبول، وإن كانت في المال، كان قليلُها أثقلَ في الميزان، وأبركَ في يد الآخذ، وأطيبَ في شدْقه، وأقلَّ آفة في بطنه، وأكثر إقامة لصلبه. والله أعلم.

الثانية: ولا يجزئ عند مالك والشافعيِّ أن يُطعِم أقلَّ من ستِّين مسكيناً. وقال أبو حنيفة وأصحابه: إن أطعم مسكيناً واحداً كلَّ يوم نصف صاع حتى يكمل العدد، أجزأه[٢].

الثالثة: قال القاضي أبو بكر العربيِّ[٣]: من غريب الأمر أنَّ أبا حنيفة قال: إنَّ الحَجْرَ على الحرِّ باطل. واحتجَّ بقوله تعالى: «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» ولم يفرِّق بين الرشيد والسفيه؛ وهذا فِقْهٌ ضعيفٌ لا يناسب قَدْرَه، فإنَّ هذه الآية عامَّة، وقد كان القضاء بالحَجْرِ في أصحاب رسول الله ﷺ فاشياً، والنظر يقتضيه، ومن كان عليه حَجْر لِصغَرٍ أو لولاية، وبلغ سفيهاً، قد نهي عن دَفْع المال إليه، فكيف ينفذ فعله فيه، والخاصُّ يقضي على العامِّ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٦٠): (٤٥٥) عن عبد الله بن زيد ﷺ.

(٢) المسألة في الإشراف ٤/ ٢٥٣، والمدونة ٣/ ٦٨، والأم ٥/ ٢٧٢، والمبسوط ٧/ ١٧.

(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٤٦.

الرابعة: وحكم الظهار عند بعض العلماء ناسخ لما كانوا عليه من كون الظهار طلاقاً، وقد روي معنى ذلك عن ابن عباس وأبي قِلابة وغيرهما[١].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: ذلك الذي وصفنا من التغليظ في الكفَّارة «لِتُؤْمِنُوا» أي: لتصدِّقوا أنَّ الله أمر به[٢]. وقد استدلَّ بعض العلماء على أنَّ هذه الكفارة إيمان بالله سبحانه وتعالى؛ لما ذكرها وأوجبها قال: «ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ» أي: ذلك لتكونوا مطيعين لله تعالى، واقفين عند حدوده لا تتعدّوها، فسمَّى التكفير ـ لأنَّه طاعة ومراعاة للحدِّ ـ إيماناً، فثبت أنَّ كلَّ ما أشبهه فهو إيمان. فإن قيل: معنى قوله: «ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ» أي: لئلا تعودوا للظهار الذي هو منكر من القول وزور. قيل له: قد يجوز أن يكون هذا مقصودًا، والأول مقصوداً، فيكون المعنى: ذلك لئلا تعودوا للقول المنكر والزور، بل تَدَعونهما؛ طاعةً لله سبحانه وتعالى إذ كان قد حرَّمهما، ولتجتنبوا المظاهَر منها إلى أن تُكفِّروا، إذ كان الله منع من مسيسها، وتكفِّروا إذ كان الله تعالى أَمَرَ بالكفَّارة وألزم إخراجها منكم، فتكونوا بهذا كلِّه مؤمنين بالله ورسوله؛ لأنَّها حدود تحفظونها، وطاعات تؤدُّونها، والطاعة لله ولرسوله ﷺ إيمان. وبالله التوفيق.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: بيَّن معصيته وطاعته، فمعصيته الظهار، وطاعته الكفارة. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لمن لم يصدِّق بأحكام الله تعالى عذاب جهنَّم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا ۚ أَحْصَىٰهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ لما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده،

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٥٢ - ٥٣ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٥٥ ، وقول أبي قلابة أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١١٥٧٨) ، والطبري ٢٢/ ٤٥٦ .

(٢) الوسيط ٤/ ٢٦١ .

ذكر المحادِّين المخالفين لها. والمحادَّة: المعاداة والمخالفة في الحدود، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ١٣]. وقيل: «يُحَادُّونَ اللهَ» أي: أولياءَ الله[١]، كما في الخبر: «من أهان لي وليًّا، فقد بارزني بالمحاربة»[٢]. وقال الزجَّاج[٣]: المحادَّة أن تكون في حدٍّ يخالف حدَّ صاحبك. وأصلها الممانعة، ومنه: الحديد، ومنه: الحدَّاد للبوَّاب[٤].

﴿كُبِتُوا۟﴾ قال أبو عبيدة والأخفش: أُهلكوا. وقال قتادة: اخْزُوا كما أُخْزي الذين من قبلهم. وقال ابن زيد: عذِّبوا. وقال السُّدِّيُّ: لعنوا[٥]. وقال الفرَّاء[٦]: غيظوا يوم الخندق. وقيل: يوم بدر. والمراد المشركون[٧]. وقيل: المنافقون. ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. وقيل: «كُبِتُوا» أي: سَيُكْبَتون، وهو بِشارة من الله تعالى للمؤمنين بالنصر، وأُخرج الكلام بلفظ الماضي؛ تقريبًا للمخبَر عنه. وقيل: هي بلغة مَذْحج[٨]. ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فيمن حادَّ اللهَ ورسولَه من الذين مِن قبلهم فيما فعلنا بهم. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ نصب بـ«عَذَابٍ مُهِينٍ» أو بفعل مضمر، تقديره: واذكر تعظيمًا لليوم[٩]. ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: الرجال والنساء يبعثهم من قبورهم في

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٥.

(٢) سلف ١٨/ ٤٧٥.

(٣) ونقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٨٩.

(٤) الصحاح (حدد).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨٩ دون قول ابن زيد، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٢/ ٢٥٥، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٦٦.

(٦) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٩.

(٧) الوسيط ٤/ ٢٦٣.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٨٩.

(٩) الكشاف ٤/ ٧٣.

حالة واحدة[١] ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ أي: يخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ في الدنيا ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ عليهم في صحائف أعمالهم ﴿وَنَسُوهُ﴾ هم حتى ذكَّرهم به في صحائفهم؛ ليكون أبلغَ في الحجَّة عليهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطَّلع وناظر لا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه سرٌّ ولا علانية. ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ﴾ قراءة العامة بالياء؛ لأجل الحائل بينهما. وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع والأعرج وأبو حَيْوة وعيسى: «مَا تَكُونُ» بالتاء[٢]؛ لتأنيث الفعل. والنَّجوى: السِّرَار[٣]، وهو مصدر، والمصدر قد يوصف به، يقال: قوم نجوى، أي: ذوو نجوى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾[٤] [الإسراء: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ خفض بإضافة «نَجْوَى» إليها[٥]. قال الفرَّاء[٦]: «ثَلَاثَةٍ» نعت للنجوى فانخفضت، وإن شئت أضفتَ «نَجْوَى» إليها. ولو نصبت على إضمار فعل، جاز. وهي قراءة ابن أبي عبلة: «ثَلَاثَةً» و«خَمْسَةً» بالنصب على الحال، بإضمار يتناجون؛ لأنَّ نجوى يدلُّ عليه، قاله الزمخشريُّ[٧]. ويجوز رفع «ثلاثة» على البدل من موضع «نَجْوَى»[٨]. ثم قيل: كلُّ سِرَار نجوى. وقيل: النجوى: ما يكون من خلوة

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧٤.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٥٣، والمحتسب ٢/ ٣١٥، والنشر ٢/ ٣٨٥.

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٥٧.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧٥.

(٦) في معاني القرآن له ٣/ ١٤٠.

(٧) في الكشاف ٤/ ٧٣، وينظر البحر المحيط ٨/ ٢٣٥.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧٥.

ثلاثة يُسِرُّون شيئًا ويتناجون به. والسِّرار: ما كان بين اثنين[١].

﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعلم ويسمع نجواهم؛ يدلُّ عليه افتتاح الآية بالعِلْم ثم ختمها بالعِلْم. وقيل: النجوى: من النَّجْوة: وهي ما ارتفع من الأرض[٢]، فالمتناجيان يتناجيان ويخلوان بسرِّهما، كخلو المرتفع من الأرض عمَّا يتصل به، والمعنى: أنَّ سَمْع الله محيطٌ بكلِّ كلام، وقد سمع الله مجادلة المرأة التي ظاهر منها زوجها.

﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾ قرأ سلَّام ويعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بالرفع[٣] على موضع «مِنْ نَجْوَى» قبل دخول «مِنْ» لأنَّ تقديره: ما يكون نجوى، و«ثَلَاثَةٍ» يجوز أن يكون مرفوعًا على محلِّ «لَا» مع «أَدْنَى» كقولك: لا حولَ ولا قوّةً إلا بالله، بفتح الحول ورَفْع القوَّة. ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء، كقولك: لا حولٌ ولا قوّةٌ إلا بالله[٤]. وقد مضى في «البقرة»[٥] بيان هذا مستوفًى.

وقرأ الزهريُّ وعكرمة: «أكبر» بالباء[٦]. والعامَّة بالثاء وفتح الراء على اللفظ، وموضعها جرٌّ. وقال الفرَّاء[٧] في قوله: «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسةٍ إلا هو سادسُهم» قال: المعنى غير مصمود[٨]، والعدد غير مقصود؛ لأنَّه تعالى إنَّما قصد ـ وهو أعلم ـ أنَّه مع كلِّ عدد، قلَّ أو كثر، يعلم ما يقولون سرًّا وجهرًا، ولا تخفى عليه خافية، فمن أجل ذلك اكتفى بذِكْر بعض العدد دون بعض. وقيل: معنى ذلك أنَّ الله معهم بِعلْمه حيث كانوا من غير زوال ولا انتقال.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٩٠ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣٧ .

(٣) القراءات الشاذة ص ١٥٣ ، والنشر ٢/ ٣٨٥ .

(٤) الكشاف ٤/ ٧٤ .

(٥) ٤/ ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٦) الكشاف ٤/ ٧٤ ، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٥ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١٤٠ ، وما قبله منه أيضاً .

(٨) في (ظ) : مضمر . وفي (د): مضمور . وكذا هي في معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤٠ . ولعلَّ الصواب ما أثبتناه من (ق) ، و(ز) ، و (م) ، يقال : صَمَد صَمْدَ الأَمْر : قصد قصده واعتمده . اللسان (قصد) .

ونزل ذلك في قوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئاً سرًّا، فأعلم الله أنَّه لا يخفى عليه ذلك، قاله ابن عباس[١]. وقال قتادة ومجاهد: نزلت في اليهود. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ يخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من حسَن وسيِّئ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٨﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ قيل: إنَّ هذا في اليهود والمنافقين حسب ما قدَّمناه. وقيل: في المسلمين[٢]. قال ابن عباس: نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فيقول المؤمنون: لعلَّهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قَتْل أو مصيبة أو هزيمة، ويسوءهم ذلك، فكثرت شكواهم إلى النبيِّ ﷺ، فنهاهم عن النجوى، فلم ينتهوا، فنزلت[٣]. وقال مقاتل: كان بين النبيِّ ﷺ وبين اليهود موادعة، فإذا مرَّ بهم رجل من المؤمنين، تناجوا بينهم حتى يظنَّ المؤمن شرًّا، فيعرج عن طريقه، فنهاهم رسولُ الله ﷺ[٤] فلم يَنتهوا، فنزلت. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يأتي النبيَّ ﷺ فيسأله الحاجة، ويناجيه، والأرض يومئذٍ حرب، فيتوهَّمون أنَّه يناجيه في حرب، أو بليَّة، أو أمر مهمٍّ، فيفزعون لذلك، فنزلت[٥].

(١) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٦٥ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٩٠.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٤٣٦، وتفسير البغوي ٤/ ٣٠٨.

(٤) في النسخ الخطية: فنهاهم الله. والمثبت من (م)، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٤٣ (١٨٨٤٢)، وزاد المسير ٨/ ١٨٨ - ١٨٩.

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٧٤ - ٤٧٥ بنحوه.

الثانية: روى أبو سعيد الخدريُّ قال: كنَّا ذاتَ ليلةٍ نتحدَّث، إذ خرج علينا رسولُ الله ﷺ فقال: «ما هذه النجوى، ألم تُنهوا عن النجوى»؟ فقلنا: تبنا إلى الله يا رسولَ الله؛ إنَّا كنَّا في ذِكْر المسيخ ـ يعني الدجال ـ فَرَقًا منه. فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عندي منه»؟ قلنا: بلى يا رسولَ الله. قال: «الشرك الخفيُّ أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل» ذكره الماورديُّ[(١)].

وقرأ حمزة وخلف ورُوَيس عن يعقوب: «وَيَنْتَجُونَ»[(٢)] في وزن يفتعلون، وهي قراءة عبد الله وأصحابه[(٣)]. وقرأ الباقون: «وَيَتَنَاجَوْنَ» في وزن يتفاعلون، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: «إِذَا تَنَاجَيْتُمْ» و«تَنَاجَوْا». النحَّاس: وحكى سيبويه أنَّ تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنًى واحد، نحو تخاصموا واختصموا، وتقاتلوا واقتتلوا، فعلى هذا «يَتَنَاجَوْنَ» و«يَنْتَجُون» واحد[(٤)].

ومعنى ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي: الكذب والظلم. ﴿وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: مخالفته. وقرأ الضحاك ومجاهد وحميد: «وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُول»[(٥)] بالجمع.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ لا خلافَ بين النقلة أنَّ المراد بها اليهود، كانوا يأتون النبيَّ ﷺ فيقولون: السَّامُ عليك. يريدون بذلك السلام ظاهراً، وهم يعنون الموت باطناً، فيقول النبيُّ ﷺ: «عليكم» في رواية، وفي رواية أخرى: «وعليكم»[(٦)]. قال ابن العربيِّ[(٧)]: وهي مُشْكِلَة. وكانوا يقولون: لو كان

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٤٩٠ - ٤٩١ ، والحديث أخرجه أحمد (١١٢٥٢) ، وابن ماجه (٤٢٠٤) . قال البوصيري في الزوائد ٢/ ٢٣٧ : إسناده حسن . اهـ . وورد في المصادر : المسيح ، بدل : المسيخ .

(٢) السبعة ص ٦٢٨ ، والتيسير ص ٢٠٩ ، والنشر ٢/ ٣٨٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٦ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٧ ، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٦ .

(٦) سيأتي تخريجهما قريباً .

(٧) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٤٦ - ١٧٤٧ ، وما قبله منه أيضاً .

محمد نبيًّا لما أمهلنا الله بسبِّه والاستخفاف به، وجهلوا أنَّ البارئ تعالى حليم لا يعاجل من سبَّه، فكيف من سبَّ نبيَّه. وقد ثبت أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا أحدَ أصبر على الأذى من الله، يدعون له الصاحبةَ والولدَ، وهو يعافيهم ويرزقهم»(١) فأنزل الله تعالى هذا؛ كشفًا لسرائرهم، وفضحًا لبواطنهم، ومعجزةً لرسوله ﷺ.

وقد ثبت عن قتادة، عن أنس: أنَّ يهوديًّا أتى على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه فقال: السامُ عليكم. فردَّ عليه النبيُّ ﷺ وقال: «أتدرون ما قال هذا»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال كذا، ردُّوه عليَّ»، فَرَدُّوه، قال: «قلتَ: السامُ عليكم»؟ قال: نعم. فقال النبيُّ ﷺ عند ذلك: «إذا سلَّم عليكم أهل الكتاب فقولوا: عليكَ ما قلتَ» فأنزل الله تعالى: «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ»(٢). قلت: خرَّجه الترمذيُّ، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وثبت عن عائشة أنَّها قالت: جاء أناس من اليهود إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: السامُ عليكَ يا أبا القاسم. فقلت: السامُ عليكم، وَفَعَلَ اللهُ بكم وفَعَلَ. فقال عليه السلام: «مَهْ يا عائشة، فإنَّ الله لا يحبُّ الفُحْش ولا التَّفحُّش» فقلت: يا رسولَ الله، ألستَ ترى ما يقولون؟! فقال: «ألستِ تَرَيْنَ أردُّ عليهم ما يقولون، أقول: وعليكم» فنزلت هذه الآية: «بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ» أي: إنَّ الله سلَّم عليك، وهم يقولون: السامُ عليكَ. والسامُ: الموت(٣). خرَّجه البخاريُّ ومسلم بمعناه(٤).

وفي «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: «إذا سلَّم

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٤٦ وما بعده منه أيضاً، ولم نقف على الحديث عند غيره.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٤٦ – ١٧٤٧، والحديث أخرجه الترمذي (٣٣٠١)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٣٦ – ٤٣٧.

(٣) الوسيط ٤/ ٢٦٤.

(٤) البخاري (٦٢٥٦)، ومسلم (٢١٦٥)، والحديث بلفظه عند الطبري ٢٢/ ٤٧٠ – ٤٧١، ومن طريقه الواحدي في أسباب النزول ص٤٣٦.

عليكم أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم» كذا الرواية: «وعليكم»[١] بالواو، وتكلَّم عليها العلماء؛ لأنَّ الواو العاطفة تقتضي التشريك، فيلزم منه أن نَدْخُلَ معهم فيما دَعَوْا به علينا من الموت، أو من سآمة ديننا، وهو الملال[٢]. يقال: سئم يسأم سآمةً وسآماً. فقال بعضهم: الواو زائدة، كما زيدت في قول الشاعر:

فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى[٣]

أي: لما أجزنا، انتحى، فزاد الواو. وقال بعضهم: هي للاستئناف، كأنَّه قال: والسامُ عليكم. وقال بعضهم: هي على بابها من العطف ولا يضرُّنا ذلك؛ لأنَّا نجاب عليهم، ولا يجابون علينا، كما قال النبيُّ ﷺ، روى [أبو] الزبير أنَّه سمع جابر بن عبد الله يقول: سلَّم ناس من يهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السامُ عليكَ يا أبا القاسم، فقال: «وعليكم» فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «بلى، قد سمعتُ فَرَدَدْتُ عليهم، وإنَّا نجاب عليهم، ولا يجابون علينا» خرَّجه مسلم[٤]. ورواية الواو أحسن معنًى، وإثباتها أصحُّ روايةً وأشهر[٥].

وقد اختلف في ردِّ السلام على أهل الذمة، هل هو واجب كالردِّ على المسلمين، وإليه ذهب ابن عباس والشَّعبيُّ وقتادة؛ للأَمْرِ بذلك. وذهب مالك فيما روى عنه أشهب وابن وهب إلى أنَّ ذلك ليس بواجب، فإن رَدَدْتَ، فقل: عليكَ. وقد اختار

---

(١) البخاري (٦٢٥٨)، ومسلم (٢١٦٣): (٧)، وهو عند أحمد (١١٩٤٨)، ورواية: «عليكم» بدون الواو عند مسلم (٢١٦٥): (...) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) هذا تأويل قتادة، كما في المفهم ٥/ ٤٩٠، وسلف ٦/ ٤٩٩.

(٣) المفهم ٥/ ٤٩٠ - ٤٩١، وما بعده منه أيضاً، وصدر البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ١٥، وعجزه:

بنا بطن حقف ذي ركام عقنقل

(٤) في صحيحه برقم (٢١٦٦)، وما بين حاصرتين منه، ولم ترد في النسخ، وسلف ٦/ ٤٩٩.

(٥) المفهم ٥/ ٤٩١، وسلف الكلام في سورة النساء ٦/ ٥٠٠.

ابن طاوس أن يقول في الردِّ عليهم: علاكَ السلامُ، أي: ارتفع عنك. واختار بعض أصحابنا: السِّلام ـ بكسر السين ـ يعني: الحجارة. وما قاله مالك أولى، اتباعًا للسنة، والله أعلم[١].

وروى مسروق عن عائشة قالت: أتى النَّبيَّ ﷺ ناسٌ من اليهود، فقالوا: السامُ عليك يا أبا القاسم. قال: «وعليكم». قالت عائشة: قلت: بل عليكم السَّامُ والذَّامُ. فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة لا تكوني فاحشة» فقالت: ما سمعتَ ما قالوا! فقال: «أوليسَ قد رَدَدْتُ عليهم الذي قالوا، قلتُ: وعليكم». وفي رواية قال: ففطنت بهم عائشة، فسبَّتهم، فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ يا عائشة، فإنَّ اللهَ لا يحبُّ الفُحْش والتفحُّش» وزاد: فأنزل الله تبارك وتعالى: «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ» إلى آخر الآية[٢]. الذام بتخفيف الميم، هو: العيب، وفي المثل: لا تَعْدَم الحسناءُ ذامًا. أي: عيباً، ويهمز ولا يهمز، يقال: ذَأَمَهُ يَذْأَمُه، مثل دأب عليه يدأب[٣]، والمفعول مذءوم مهموزًا، ومنه: ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف:١٨] ويقال: ذامَهُ يَذُومُه مخفَّفًا، كَرَامَهُ يَرُومُه.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ قالوا: لو كان محمد نبيًّا لعذَّبنا اللهُ بما نقول، فهلَّا يُعذِّبنا الله[٤]. وقيل: قالوا: إنَّه يردُّ علينا، ويقول: وعليكم السامُ، والسام: الموت، فلو كان نبيًّا لاستُجيب له فينا ومتنا[٥]. وهذا موضع تعجُّب منهم؛ فإنَّهم كانوا أهلَ الكتاب، وكانوا يعلمون أنَّ الأنبياء قد يُغضَبون، فلا

---

(١) المفهم ٥/ ٤٩٢، وكلام مالك في المنتقى للباجي ٧/ ٢٨٠ - ٢٨١، وقول ابن طاوس أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٦٣٢، وسلفا ٦/ ٥٠٠.

(٢) أخرجهما مسلم (٢١٦٥): (١١) و (...) على الترتيب.

(٣) في (م): ذأب يذأب. والمثبت من النسخ الخطية والمفهم ٥/ ٤٩٣، والكلام ـ وما بعده ـ منه أيضاً. والمثل في جمهرة الأمثال للعسكري ٢/ ٣٩٨ ومعناه: لا يخلو أحدٌ من شيء يُعاب به.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣٧.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤١.

يُعاجَل من يُغضبهم بالعذاب. ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: كافيهم جهنَّم، عقابًا غدًا ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ﴾ نهى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ» أي: تساررتم. ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ﴾ هذه قراءة العامة. وقرأ يحيى بن وثّاب وعاصم ورويس عن يعقوب: «فلا تَنْتَجُوا»[1] من الانتجاء ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ﴾ أي: بالطاعة ﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ بالعفاف عما نهى الله عنه. وقيل: الخطاب للمنافقين، أي: يا أيُّها الذين آمنوا بزعمهم[2]. وقل: أي يا أيها الذين آمنوا بموسى. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تجمعون في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: من تزيين الشياطين ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إذا توهَّموا أنَّ المسلمين أصيبوا في السرايا، أو إذ رَأَوْا[3] اجتماعهم على مكايدة المسلمين، وربَّما كانوا يناجون النبيَّ ﷺ فيظنَّ المسلمون أنَّهم ينتقصونهم عند النبيِّ ﷺ ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ﴾ أي: التناجي ﴿شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بمشيئته[4] وقيل: بعِلْمه. وعن ابن عباس: بأَمْرِه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي:

---

(١) النشر ٢/ ٣٨٥.

(٢) زاد المسير ٨/ ١٩٠ وعزاه لعطاء ومقاتل.

(٣) في (م): إذا أجروا.

(٤) الكشاف ٤/ ٧٥.

يكلون أمرهم إليه[١]، ويفوِّضون جميعَ شؤونهم إلى عونه، ويستعيذون به من الشيطان ومن كلِّ شرٍّ، فهو الذي سلَّط الشيطان بالوساوس؛ ابتلاءً للعبد، وامتحاناً، ولو شاء لصَرَفه عنه.

الثانية: في «الصحيحين»[٢] عن ابن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا كان ثلاثةٌ، فلا يتناجى اثنان دون الواحد». وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثةً، فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أَجْلِ أن يُحْزِنَه»[٣]. فبيَّن في هذا الحديث غايةَ المنع، وهي أن يَجِدَ الثالثُ من يتحدَّث معه، كما فعل ابن عمر، وذلك أنَّه كان يتحدَّث مع رجل، فجاء آخر يريد أن يناجيه، فلم يناجه حتى دعا رابعًا، فقال له وللأوَّل: تأخَّرا، وناجى الرجلَ الطالبَ للمناجاة. خرَّجه «الموطأ»[٤].

وفيه أيضاً التنبيه على التعليل بقوله: «من أجل أن يحزنه» أي: يقع في نفسه ما يَحزن لأَجْله. وذلك بأن يقدِّر في نفسه أنَّ الحديث عنه بما يكره، أو أنَّه لم يَرَوْهُ أهلًا ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من أُلْقِيات الشيطان وأحاديث النفس. وحصل ذلك كلُّه من بقائه وحده، فإذا كان معه غيره، أُمِن ذلك، وعلى هذا يستوي في ذلك كلُّ الأعداد، فلا يتناجى أربعة دون واحدٍ، ولا عشرة، ولا ألف، مثلًا؛ لوجود ذلك المعنى في حقِّه؛ بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع، فيكون بالمنع أولى. وإنَّما خصَّ الثلاثة بالذِّكر؛ لأنَّه أوَّل عددٍ يتأتَّى ذلك المعنى فيه. وظاهر الحديث يعمُّ جميع الأزمان والأحوال، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور. وسواء أكان التناجي في

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٦٥.

(٢) البخاري (٦٢٨٨)، ومسلم (٢١٨٣) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤) واللفظ له.

(٤) ٢/ ٩٨٨، والمصنف نقله عنه بواسطة القرطبي في المفهم ٥/ ٥٢٤ - ٥٢٥، والكلام - وما بعده - منه أيضًا.

مندوبٍ أو مباح أو واجب، فإنَّ الحزن يقع به. وقد ذهب بعض الناس إلى أنَّ ذلك كان في أوَّل الإسلام؛ لأنَّ ذلك كان في حال المنافقين، فيتناجى المنافقون دون المؤمنين، فلمَّا فشا الإسلام، سقط ذلك. وقال بعضهم: ذلك خاصٌّ بالسفر في المواضع التي لا يأمن الرجل فيها صاحبه، فأمَّا في الحَضَر وبين العمارة، فلا[1]؛ فإنَّه يَجِدُ من يعينه، بخلافِ السفر فإنَّه مظنَّة الاغتيال وعدم المغيث. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ﴾ لما بيَّن أنَّ اليهود يحيُّونه بما لم يحيِّه به الله، وذمَّهم على ذلك، وصل به الأمر بتحسين الأدب في مجالسة رسولِ الله ﷺ، حتى لا يضيِّقوا عليه المجلس، وأَمَرَ المسلمين بالتعاطف والتآلف حتى يفسح بعضهم لبعضٍ، حتى يتمكَّنوا من الاستماع من رسول الله ﷺ والنظر إليه.

قال قتادة ومجاهد: كانوا يتنافسون في مجلس النبيِّ ﷺ، فأُمِروا أن يفسح بعضهم لبعض[2]. وقاله الضحَّاك[3].

وقال ابن عباس: المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب[4].

قال الحسن ويزيد بن أبي حبيب: كان النبيُّ ﷺ إذا قاتل المشركين تشاحَّ أصحابه

(١) المفهم ٥/ ٥٢٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧٨ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٤٧٦ - ٤٧٧ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٠ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٧٧ .

(٤) زاد المسير ٨/ ١٩١ - ١٩٢ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٧٨ .

على الصف الأوَّل، فلا يُوسع بعضهم لبعض؛ رغبةً في القتال والشهادة، فنزلت[١]. فيكون كقوله: ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ﴾ [آل عمران: ١٢١].

وقال مقاتل: كان النبيُّ ﷺ في الصُّفَّة، وكان في المكان ضِيْقٌ يومَ الجمعة، وكان النبيُّ ﷺ يُكرِم أهلَ بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثابت ابن قيس بن شماس، وقد سُبِقوا في المجلس، فقاموا حيالَ النبيِّ ﷺ على أرجلهم، ينتظرون أن يُوسّع لهم، فلم يفسحوا لهم، فشقَّ ذلك على النبيِّ ﷺ، فقال لمن حوله من [غير] أهل بدر: «قم يا فلان، وأنت يا فلان» بعدد القائمين من أهل بدر، فشقَّ ذلك على من أُقيم، وعرف النبيُّ ﷺ الكراهيةَ في وجوههم، فغمز المنافقون وتكلَّموا بأن قالوا: ما أنصف هؤلاء وقد أحبُّوا القربَ من نبيِّهم فَسبقوا إلى المكان؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية[٢].

«تَفَسَّحُوا»: أي: توسَّعوا. وفَسَحَ فلان لأخيه في مجلسه، يَفْسَح فَسْحًا، أي: وسَّع له؛ ومنه قولهم: بلد فَسِيح، ولك في كذا فُسْحة، وفَسَح يَفْسَح ـ مثل منع يَمْنَع ـ أي: وسَّع في المجلس، وفَسُح يَفْسُح فَسَاحةً مثل كَرُم يَكْرُمُ كرامة أي: صار واسعًا؛ ومنه: مكان فسيح[٣].

الثانية: قرأ السُّلَميُّ وزِرُّ بن حُبَيش وعاصم: «في الْمَجَالِسِ»[٤]. وقرأ قتادة وداود ابن أبي هند والحسن باختلاف عنه: «إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَاسَحُوا»[٥]، الباقون: «تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِس» فمن جمع؛ فلأنَّ قوله: «تَفَسَّحُوا في الْمَجَالِسِ» يُنْبِئُ أنَّ لكلٍّ واحد مجلسًا. وكذلك إن أريد به الحرب. وكذلك يجوز أن يراد مسجد النبيِّ ﷺ، وجمع؛

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧٨ بنحوه مختصراً، وتفسير البغوي ٤/ ٣٠٩ بنحوه.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٤٣٧ دون ذكر: ثابت بن قيس، وما بين حاصرتين منه ومن (م)، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٣ - ٣٣٤٤ (١٨٨٤٦).

(٣) الصحاح (فسح)، وتهذيب اللغة ٤/ ٣٢٧، ولسان العرب (فسح).

(٤) السبعة ص ٦٢٨، والتيسير ص ٢٠٩ عن عاصم.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٥٣، والمحتسب ٢/ ٣١٥، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧٨.

لأنَّ لكلِّ جالس مجلسًا. وكذلك يجوز إن أُريد بالمجلس المفرد مجلس النبيِّ ﷺ، ويجوز أن يراد به الجمع على مذهب الجنس، كقولهم: كثر الدينار والدرهم(١).

قلت: الصحيح في الآية أنَّها عامَّة في كلِّ مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، سواء كان مجلس حربٍ أو ذِكْر أو مجلس يوم الجمعة؛ فإنَّ كلَّ واحد أحقُّ بمكانه الذي سبَق إليه، ولكن يُوسِّع لأخيه ما لم يتأذَّ بذلك، فيخرجه الضيق عن موضعه(٢). روى البخاريُّ ومسلم عن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يُقِيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه»(٣). وعنه عن النبيِّ ﷺ أنَّه نهى أن يُقام الرجل من مجلسه ويجلسَ فيه آخر، ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا. وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه. لفظ البخاريِّ(٤).

الثالثة: إذا قعد واحد من الناس في موضع من المسجد لا يجوز لغيره أن يقيمه حتى يقعدَ مكانه؛ لما روى مسلم عن أبي الزبير عن جابر عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يقيمنَّ أحدكم أخاه يوم الجمعة، ثم يخالف إلى مقعده، فيقعدَ فيه، ولكن يقول: افسحوا»(٥).

فرع: القاعد في المكان إذا قام حتى يقعد غيره موضعه، نُظِر؛ فإن كان الموضع الذي قام إليه مثل الأوَّل في سماع كلام الإمام، لم يكره له ذلك، وإن كان أبعدَ من الإمام، كره له ذلك؛ لأنَّ فيه تفويت حظِّه.

الرابعة: إذا أَمَر إنسان إنسانًا أن يبكِّر إلى الجامع، فيأخذ له مكانًا يَقعد فيه، لا يكره، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع؛ لما روي: أنَّ ابنَ سيرين كان يُرسِل غلامَه

(١) الحجة للفارسي ٦/ ٢٨٠ .

(٢) المفهم ٥/ ٥١٠ - ٥١١ بنحوه .

(٣) البخاري (٦٢٦٩) ، ومسلم (٢١٧٧) ، واللفظ للبخاري .

(٤) في صحيحه (٦٢٧٠) ، وأخرجه أيضاً مسلم (٢١٧٧) : (٢٨) و(٢٩) ، وهو عند أحمد (٤٦٥٩) .

(٥) مسلم (٢١٧٨) .

إلى مجلس له في يوم الجمعة فيجلس له فيه، فإذا جاء قام له منه(١).

فرع: وعلى هذا من أرسل بساطًا أو سجادةً فتُبسط له في موضع من المسجد(٢)...

الخامسة: روى مسلم(٣) عن أبي هريرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا قام أحدكم ـ وفي حديث أبي عوانة: من قام ـ من مجلسه، ثم رجع إليه، فهو أحقُّ به». قال علماؤنا: هذا يدلُّ على صحَّة القول بوجوب اختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه؛ لأنَّه إذا كان أَولى به بعد قيامه، فقَبْله أولى به وأحرى. وقد قيل: إنَّ ذلك على الندب؛ لأنَّه موضع غيرُ متملَّك لأحد لا قبل الجلوس ولا بعده. وهذا فيه نظر؛ وهو أن يقال: سلَّمنا أنَّه غيرُ متملَّك، لكنه يختصُّ به إلى أن يَفرُغ غَرضُه منه، فصار كأنَّه يملك منفعته؛ إذ قد مُنع غيره من أن يزاحمه عليه(٤). والله أعلم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: في قبوركم. وقيل: في قلوبكم. وقيل: يوسِّع عليكم في الدنيا والآخرة(٥). ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم بضمِّ الشين فيهما(٦). وكسر الباقون، وهما لغتان مثل: ﴿يَعْكُفُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨] و﴿يَعْرِشُونَ﴾(٧) [الأعراف:١٣٧] والمعنى: انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير، قاله أكثر المفسرين(٨). وقال مجاهد والضحَّاك: إذا نودي للصلاة

---

(١) أورده ابن قدامة في المغني ٣/ ٢٣٣.

(٢) بعدها في النسخ الخطية بياض، وعبَّر عنه بعض النُّسَّاخ بقوله: بياض في الأم. اهـ. وأورد المسألة العجيلي ـ الشهير بالجمل ـ في الفتوحات الإلهية ٤/ ٣٠٥ وجاءت تتمَّتها هكذا: حتى يحضر هو فيجلس عليها فذلك حرام لما فيه من تحجير المسجد بلا فائدة، وقيل: مكروه. والأول هو المعتمد كما في حواشي المنهج. اهـ.

(٣) في صحيحه (٢١٧٩)، وهو عند أحمد (٧٥٦٨).

(٤) المفهم ٥/ ٥١١.

(٥) الكشاف ٤/ ٧٥ بنحوه.

(٦) السبعة ص ٦٢٩، والتيسير ص ٢٠٩.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤١، وسلفت القراءة فيهما ٩/ ٣١٧.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٩.

فقوموا إليها. وذلك أنَّ رجالًا تثاقلوا عن الصلاة، فنزلت[١]. وقال الحسن ومجاهد أيضًا: أي: انهضوا إلى الحرب[٢]. وقال ابن زيد: هذا في بيت النبيِّ ﷺ، كان كلُّ رجل منهم يحبُّ أن يكون آخر عهدِه بالنبيِّ ﷺ، فقال الله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا» عن النبيِّ ﷺ «فَانْشُزُوا» فإنَّ له حوائجَ، فلا تمكثوا[٣]. وقال قتادة: المعنى: أجيبوا إذا دعيتم إلى أمرٍ بمعروف. وهذا هو الصحيح[٤]؛ لأنَّه يعمُّ.

والنشز: الارتفاع، مأخوذ من نشز الأرض، وهو ارتفاعها، يقال: نَشَزَ يَنشُز ويَنْشِز: إذا انتحى من موضعه، أي: ارتفع منه. وامرأة ناشز: منتحية عن زوجها. وأصل هذا من النَّشز، والنَّشَز: هو ما ارتفع من الأرض وتنحَّى[٥]، ذكره النحَّاس.

السابعة: قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: في الثواب في الآخرة، وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن، والعالم على من ليس بعالم[٦]. وقال ابن مسعود: مدح اللهُ العلماءَ في هذه الآية، والمعنى: أنَّه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم «دَرَجاتٍ»[٧] أي: درجات في دينهم إذا فعلوا ما أُمِروا به[٨]. وقيل: كان أهل الغنى يكرهون أن يُزاحمهم من يلبس الصوف، فيستَبِقون إلى مجلس النبيِّ ﷺ فالخطاب لهم. ورأى عليه الصلاة والسلام رجلًا من الأغنياء يقبض ثوبَه نفورًا من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه فقال: «يا فلان خشيت أن يتعدَّى غناكَ إليه أو فقره إليك»[٩]. وبيَّن

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٩ عن عكرمة والضحاك، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٧٩ عن الضحاك.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٩٢، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٠، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٧٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٩٢، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٨٠.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٤٨.

(٥) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٤ - ٣٠٥، والصحاح واللسان (نشز) بنحوه.

(٦) زاد المسير ٨/ ١٩٣.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٧.

(٨) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٨١ عن ابن زيد.

(٩) لم نقف عليه.

في هذه الآية أنَّ الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس. وقيل: أراد بالذين أوتوا العلم: الذين قرؤوا القرآن.

وقال يحيى بن يحيى عن مالك: «يَرفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» الصحابة «وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» يرفع الله بها العالم والطالب للحقِّ.

قلت: والعموم أوقع في المسألة وأولى بمعنى الآية، فيرفع المؤمن بإيمانه أوَّلًا، ثم بعِلْمه ثانياً[١].

وفي «الصحيح» أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ كان يقدِّم عبد الله بن عباس على الصحابة، فكلَّموه في ذلك، فدعاهم ودعاه، وسألهم عن تفسير: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١] فسكتوا، فقال ابن عباس: هو أَجَلُ رسولِ الله ﷺ أعلمه اللهُ إيَّاه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[٢].

وفي «البخاري» عن عبد الله بن عباس، قال: قدم عُيَينة بن حصن بنِ حذيفة بنِ بدرٍ فنزل على ابنِ أخيه الحُرِّ بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يُدنيهم عمر، وكان القُرَّاءُ أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كُهولًا كانوا أو شبانًا. الحديث وقد مضى في آخر «الأعراف»[٣].

وفي «صحيح مسلم» أن نافع بن عبد الحارث لقيَ عمر بعُسْفَان، وكان عمر يستعمله على مكَّة، فقال: من استعملته على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. فقال: ومن ابنُ أبزى؟ قال: مَوْلًى من موالينا. قال: فاستخلفتَ عليهم مولًى! قال: إنَّه قارئٌ لكتاب الله، وإنَّه عالم بالفرائض. قال عمر: أما إنَّ نبيَّكم ﷺ قد قال: «إنَّ الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين»[٤] وقد مضى أول الكتاب، ومضى القول في

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٤٩ .

(٢) البخاري (٣٦٢٧) .

(٣) ٩/٤٢١ - ٤٢٢ .

(٤) سلف ١٧/٢٢٤ .

فضل العِلْم والعلماء في غير موضع من هذا الكتاب[١]، والحمد لله.

وروي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «بين العالم والعابد مئة درجة، بين كلِّ درجتين حُضْرُ الجواد المُضَمَّر سبعين سنة»[٢]. وعنه ﷺ: «فَضْل العالم على العابد، كفضل القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب»[٣]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «يشفع يوم القيامة ثلاثةٌ: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»[٤] فأعظِم بمنزلة هي واسطة بين النبوَّة والشهادة، بشهادة رسول الله ﷺ. وعن ابن عباس: خُيِّر سليمان بين العِلْم والمال والملك، فاختار العِلْم، فأُعطيَ المال والملك معه[٥].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ «ناجيتم» ساررتم. قال ابن عباس: نزلت بسبب أنَّ المسلمين كانوا يُكثرون المسائلَ على رسول الله ﷺ حتى شقُّوا عليه، فأراد الله عزَّ وجلَّ أن يُخفِّف عن نبيِّه ﷺ، فلمَّا قال ذلك، كفَّ كثير من

---

(١) ١/ ٤٣٠ و٥/ ٦٣ - ٦٤، وغيرها.

(٢) الكشاف ٤/ ٧٦، والحديث أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٤٥٣ من طريق عبد الله بن محرر، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ، وقال: وهذا بهذا الإسناد منكر، لا أعلم يرويه عن الزهري إلا ابن محرر ومحمد بن عبد الملك، وجميعاً ضعيفان. اهـ.

وذكر ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٢٩) أن ابن عون رواه عن ابن سيرين، عن أبي هريرة مرفوعاً، وقال: ومَن دون ابن عون لا يحتج به. اهـ. وسلف ٧/ ٦٠ من قول ابن محيريز.

(٣) سلف ١٠/ ٤٣١.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٣١٣) عن عثمان بن عفان ﷺ، قال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد ضعيف؛ لضعف علّاق بن أبي مسلم. وقال ابن حجر في الكافي الشاف ص ١٦٥: رواه ابن ماجه وأبو يعلى والعقيلي والبيهقي في الشعب من حديث عثمان، وفيه: عنبسة بن عبد الرحمن، وهو متروك.

(٥) الكشاف ٤/ ٧٦، وقول ابن عباس ذكره الديلمي في الفردوس ٢/ ١٩٢، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٢٢/ ٢٧٥ عن ابن عباس مرفوعًا.

الناس، ثم وسَّع الله عليهم بالآية التي بعدها. وقال الحسن: نزلت بسبب أنَّ قومًا من المسلمين كانوا يستخلون النبيَّ ﷺ ويناجونه، فظنَّ بهم قوم من المسلمين أنَّهم ينتقصونهم في النجوى، فشقَّ عليهم ذلك، فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى؛ ليقطعهم عن استخلائه[١].

وقال زيد بن أسلم: نزلت بسبب أنَّ المنافقين واليهود كانوا يناجون النبيَّ ﷺ ويقولون: إنَّه أُذنٌ، يسمع كلَّ ما قيل له، وكان لا يمنع أحدًا مناجاته. فكان ذلك يشقُّ على المسلمين؛ لأنَّ الشيطان كان يُلقي في أنفسهم أنَّهم ناجَوْه بأنَّ جموعًا اجتمعت لقتاله. قال: فأنزل الله تبارك وتعالى: «يَا أَيُّها الَّذين آمنوا إذا تَنَاجَيْتُم فلا تَتَنَاجَوْا بالإثم والعُدوانِ ومَعْصِيَتِ الرسولِ» الآية [٩]، فلم ينتهوا، فأنزل الله هذه الآية، فانتهى أهل الباطل عن النجوى؛ لأنَّهم لم يُقدِّموا بين يدي نجواهم صدقة، وشقَّ ذلك على أهل الإيمان، وامتنعوا من النجوى؛ لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة، فخفَّف الله عنهم بما بعد الآية.

الثانية: قال ابنُ العربي[٢]: وفي هذا الخبر عن زيد ما يدلُّ على أنَّ الأحكام لا تترتَّب بحسب المصالح، فإنَّ الله تعالى قال: «ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ» ثم نسخه، مع كونه خيرًا وأطهر. وهذا رَدٌّ على المعتزلة عظيم في التزام المصالح، لكن راوي الحديث عن زيد ابنُه عبد الرحمن، وقد ضعَّفه العلماء. والأمر في قوله تعالى: «ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ» نصٌّ متواتر في الردِّ على المعتزلة. والله أعلم.

الثالثة: روى الترمذيُّ[٣] عن عليِّ بن علقمة الأنماريِّ، عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٩٣، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٨٤، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٤ (١٨٨٤٨).

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٠، وما قبله منه أيضًا.

(٣) في سننه (٣٣٠٠).

سألته(١)، قال لي النبيُّ ﷺ: «ما ترى دينارًا»؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «فنصف دينار»؟ قلت: لا يطيقونه. قال: «فكم». قلت: شعيرة. قال: «إنَّك لزهيد». قال: فنزلت: «أأشْفَقْتُم أن تُقدِّموا بين يدي نَجْواكم صَدَقاتٍ» الآية. قال: فَبِي خفَّف الله عن هذه الأمَّة. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، إنَّما نعرفه من هذا الوجه، ومعنى قوله: شَعِيرة. يعني: وزنَ شعيرةٍ من ذهب. قال ابنُ العربيِّ(٢): وهذا يدلُّ على مسألتين حسنتين أصوليَّتَيْن: الأولى: نَسْخُ العبادة قبل فعلها. والثانية: النظر في المقدَّرات بالقياس، خلافًا لأبي حنيفة.

قلت: الظاهر أنَّ النَّسْخ إنَّما وقع بعد فِعْل الصدقة. وقد روي عن مجاهد: أنَّ أوَّل من تصدَّق في ذلك عليُّ بن أبي طالب ﷺ، وناجى النبيَّ ﷺ. روي أنَّه تصدَّق بخاتم(٣). وذكر القشيريُّ وغيره عن عليِّ بن أبي طالب أنَّه قال: في كتاب الله آية، ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، وهي: «يا أيُّها الَّذين آمنوا إذا ناجَيْتُم الرسولَ فقدِّموا بين يَدَي نجواكُم صَدَقةً» كان لي دينار فبعته، فكنت إذا ناجيتُ الرسولَ، تصدَّقت بدرهم حتى نفدَ؛ فنسخت بالآية الأخرى: «أأشْفَقْتُم أن تُقدِّموا بين يَدَي نجواكُم صَدَقاتٍ»(٤). وكذلك قال ابن عباس: نسخها الله بالآية التي بعدها(٥).

---

(١) لم ترد هذه اللفظة في مطبوع الترمذي.

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٤٩.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٤٩ - ١٧٥٠، وقال عقبها: وهذا كلُّه لا يصح. اهـ. وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٠ - ٦٦١، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٠، والطبري ٢٢/ ٤٨٢ - ٤٨٣، وفيه أنه تصدَّق بدينار.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٤٣٨، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ١٢/ ٨١، والطبري ٢٢/ ٤٨٣، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٨١ - ٤٨٢، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. اهـ. إلا أنه وقع في مطبوع المستدرك - وهي طبعة مكتب المطبوعات الإسلامية، وكذا ورد في طبعة دار الكتب العلمية - مرفوعاً، وهو خطأ، لأن سياق الحديث يدلُّ على أنَّ قائله هو عليٌّ، وهو الذي كان يتصدَّق عندما كان يناجي النبيَّ ﷺ، ولأنه لم يَرِدْ ذكر رسول الله ﷺ في تلخيص المستدرك للذهبي، ولا في إتحاف المهرة لابن حجر (١٤٥٨٥) عند ذكره لإسناد هذا الحديث وعزوه للحاكم.

(٥) الكشاف ٤/ ٧٦، وما بعده منه أيضاً، وأخرجه عنه ابن الجوزي في نواسخ القرآن ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

وقال ابن عمر: لقد كانت لعليٍّ ﷺ ثلاثة، لو كانت لي واحدة منهنَّ كانت أحبَّ إليَّ من حُمُر النَّعم: تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى[١].

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: من إمساكها ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لقلوبكم من المعاصي ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ يعني الفقراء[٢] ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ استفهام معناه التقرير. قال ابن عباس: «أَأَشْفَقْتُمْ» أي: أبخلتم بالصدقة[٣]، وقيل: خفتم. والإشفاق: الخوف من المكروه[٤]. أي: خفتم وبخلتم بالصدقة، وشقَّ عليكم ﴿أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾. قال مقاتل بن حيان: إنَّما كان ذلك عشر ليالٍ، ثم نُسخ. وقال الكلبيُّ: ما كان ذلك إلا ليلة واحدة[٥]. وقال ابن عباس: ما بقي إلا ساعة من النهار حتى نُسخ. وكذا قال قتادة[٦]. والله أعلم.

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الطبرسي في مجمع البيان ٢٨/ ١٥، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١١٩٩) إلا أنه ورد فيه: وغلق الأبواب، بدل: وآية النجوى. وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٤/١٤٩٦، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ١٢٠ عن عمر ﷺ، وفيه: وسكناه المسجد مع رسول الله ﷺ يحل له فيه ما يحل له، بدل: وآية النجوى. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٢١: رواه أبو يعلى في الكبير، وفيه: عبد الله بن جعفر بن نجيح، وهو متروك.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١١.

(٣) الوسيط ٤/ ٢٦٦.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٤٨٦.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣١١، إلا أنه ورد عن الكلبي أنه قال: ما كانت إلا ساعة من نهار. وكذا أخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٠.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٠، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٠ عن قتادة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: نسخ الله ذلك الحكم. وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدَّق به ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ فنسخت فرضيَّةُ الزكاة هذه الصدقةَ[١]. وهذا يدلُّ على جواز النسخ قبل الفعل، وما روي عن عليٍّ ﷺ ضعيف[٢]؛ لأنَّ الله تعالى قال: «فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا» وهذا يدلُّ على أنَّ أحداً لم يتصدَّق بشيء. والله أعلم. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في فرائضه ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في سننه ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ قال قتادة: هم المنافقون تولَّوا اليهود[٣] ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ يقول: ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين، بل هم ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾[٤]. ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١٤٣] وكانوا يحملون أخبارَ المسلمين إليهم.

قال السُّدِّيُّ ومقاتل: نزلت في عبد الله بنِ أُبيٍّ وعبد الله بن نَبْتَل المنافقَيْن؛ كان أحدهما يجالس النبيَّ ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينا النبي ﷺ في حُجْرة من حُجُراته إذ قال: «يدخل عليكم الآن رجلٌ قلبه قلب جبَّار، وينظر بعينَي شيطان» فدخل عبد الله بن نَبْتَل ـ وكان أزرقَ أسمرَ قصيراً خفيف اللحية ـ فقال له عليه الصلاة والسلام: «علامَ تشتُمني أنتَ وأصحابُك؟» فحلف بالله ما فعلَ ذلك. فقال له

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٧.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٠، كما مرَّ قريبًا.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٠، والطبري ٢٢/ ٤٨٧.

(٤) في (م): مذبذبون. والمثبت من النسخ الخطية وتفسير البغوي ٤/ ٣١١، والكلام منه.

النبيُّ ﷺ: «فعلتَ» فانْطَلقَ، فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه؛ فنزلت هذه الآية[١].

وقال معناه ابن عباس، روى عِكرمة عنه، قال: كان النبيُّ ﷺ جالساً في ظلٍّ شجرة قد كاد الظلُّ يتقلَّص عنه إذ قال: «يجيئكم الساعة رجل أزرق، ينظر إليكم نظر شيطان» فنحن على ذلك، إذ أقبل رجل أزرق، فدعا به النبيُّ ﷺ فقال: «علامَ تشتمني أنتَ وأصحابُك» قال: دعني أجيئك بهم. فمرَّ فجاء بهم، فحلفوا جميعاً أنَّه ما كان من ذلك شيء؛ فأنزل الله عز وجل: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً» إلى قوله: «هُمُ الْخَاسِرُونَ»[٢] واليهود مذكورون في القرآن بـ «غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ».

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المنافقين ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في جهنَّم، وهو الدَّرْك الأسفل. ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بئس الأعمال أعمالهم ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ يستجِنُّون بها من القتل[٣].

وقرأ الحسن وأبو العالية: «إِيمَانَهُمْ» بكسر الهمزة هنا، وفي «الْمُنَافقون»[٤]. أي: إقرارهم اتَّخذوه جُنَّة، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل، وكفرت قلوبهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار. والصَّدُّ: المنع «عَنْ سَبِيلِ اللهِ» أي: عن الإسلام. وقيل: في قتلهم بالكفر؛ لِمَا أظهروه من النفاق. وقيل: أي: بإلقاء الأراجيف، وتثبيط المسلمين عن الجهاد، وتخويفهم[٥].

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٣٨ - ٤٣٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣١١ .

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٤٣٩ بإسناده عن ابن عباس ، وأخرجه عنه أيضاً أحمد (٢٤٠٧) ، والبزار (٢٢٧٠ كشف الأستار)، والطبري ٢٢/ ٤٨٩ ، والطبراني في الكبير (١٢٣٠٩) ، والحاكم ٢/ ٤٨٢ من طرق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، به. ولم نقف على رواية عكرمة. وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه . اهـ . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢٢ : رواه أحمد والبزار ، ورجال الجميع رجال الصحيح .

(٣) الوسيط ٤/ ٢٦٧ .

(٤) المحتسب ٢/ ٣١٥ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٩٤ ، وزاد المسير ٨/ ١٩٧ بنحوه .

قوله تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: من عذابه شيئًا. وقال مقاتل: قال المنافقون: إنَّ محمّدًا يزعم أنَّه يُنصَر يوم القيامة، لقد شقينا إذًا! فواللهِ لنُنْصرَنَّ يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة. فنزلت: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾[1] أي: لهم عذاب مهين يوم يبعثهم ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ اليومَ، وهذا أمر عجيب وهو مغالطتهم باليمين غدًا. وقد صارت المعارف ضرورية. وقال ابن عباس: هو قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[2][الأنعام: ٢٣]. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ بإنكارهم وحلفهم. قال ابن زيد: ظنُّوا أنَّهم ينفعهم في الآخرة. وقيل: «وَيَحْسَبُونَ» في الدنيا «أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ» لأنَّهم في الآخرة يعلمون الحقَّ باضطرار. والأوَّل أظهر. وعن ابن عباس قال: قال النبيُّ ﷺ: «يُنادي منادٍ يومَ القيامة: أين خصماءُ الله، فتقوم القَدَريَّة مسودَّة وجوههم، مزرقَّة أعينهم، مائل شدقهم، يسيل لعابهم، فيقولون: واللهِ ما عَبَدْنَا مِن دونك شمسًا ولا قمرًا ولا صنمًا ولا وثنًا، ولا اتخذنا من دونك إلهًا». قال ابن عباس: صدقوا واللهِ! أتاهم الشِّرْك من حيث لا يعلمون؛ ثم تلا: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ هم واللهِ القَدَريَّة. ثلاثًا[3].

قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: غلب واستعلى[4]، أي: بوسوسته في الدنيا. وقيل: قَوي عليهم. وقال المفضَّل: أحاط بهم[5]. ويحتمل رابعًا، أي:

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨١ بنحوه ودون عزو.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٨ دون عزو.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨١ وعزاه للثعلبي، وأخرجه عنه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٣٨- ١٣٩.

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٥٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٩٤.

جَمَعَهُم[١] وضمَّهم. يقال: أَحوذَ الشيءَ، أي: جمعه وضمَّ بعضه إلى بعض، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقويَ عليهم وأحاط بهم. ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: أوامره في العمل بطاعته. وقيل: زواجره في النهي عن معصيته. والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة، ويكون بمعنى الترك[٢]، والوجهان محتملان هنا. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ طائفته ورهطه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في بيعهم؛ لأنَّهم باعوا الجنَّة بجهنَّم، وباعوا الهدى بالضلالة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ تقدم أوَّل السورة. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي: من جملة الأذلَّاء، لا أذلَّ منهم ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ أي: قضى الله ذلك[٣]. وقيل: كتب في اللوح المحفوظ، عن قتادة[٤]. الفرَّاء: كتب بمعنى «قال». ﴿أَنَا۠﴾ توكيد[٥] ﴿وَرُسُلِىٓ﴾ من بُعث منهم بالحرب؛ فإنَّه غالب بالحرب، ومن بُعث منهم بالحجَّة، فإنَّه غالب بالحجَّة[٦]. قال مقاتل: قال المؤمنون: لئن فتح الله لنا مكَّة والطائف وخيبر وما حولهنَّ رجَوْنا أن يظهرنا الله على فارس والروم. فقال عبد الله ابن أُبيّ ابن سَلُول: أتظنُّون الروم وفارس مثل القرى التي غلبتم عليها؟! واللهِ إنَّهم لأكثر عددًا، وأشدُّ بطشًا من أن تظنُّوا فيهم ذلك؛ فنزلت: «لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي». نظيره: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤٠.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٩٥، ووقع في مطبوعه: الشرك، بدل: الترك. وهو خطأ.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٩.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٨٢، ولم ينسب القول الأول لقتادة، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١٤٢.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٨٢.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٩.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ أي: يحبُّون ويُوالون ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ تقدَّم ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ قال السُّدِّيُّ: نزلت في [عبد الله بن] عبد الله بن أبيّ، جلس إلى النبيِّ ﷺ فشرب النبيُّ ﷺ ماءً، فقال له: باللهِ يا رسولَ الله ما أبقيتَ من شرابك فضلةً أسقيها أبي؛ لعلَّ الله يُطهِّر بها قلبه. فأَفْضَلَ له، فأتاه بها، فقال له عبد الله: ما هذا؟ فقال: هي فَضْلة من شراب النبيِّ ﷺ جئتك بها تشربها، لعلَّ اللهَ يطهِّر قلبَك بها. فقال له أبوه: فهلَّا جئتني ببول أمِّك، فإنَّه أطهر منها. فغضب، وجاء إلى النبيِّ ﷺ، وقال: يا رسولَ الله! أما أذنتَ لي في قتل أبي؟ فقال النبيُّ ﷺ: «بل ترفق به، وتحسن إليه»[1].

وقال ابن جريج: حُدِّثت أنَّ أبا قُحافة سبَّ النبيَّ ﷺ فصكَّه أبو بكر - ابنُه - صكَّةً سقط منها على وجهه، ثم أتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلكَ له، فقال: «أَوَفعلته! لا تَعُدْ إليه» فقال: والذي بعثك بالحقِّ نبيًّا، لو كان السيف منِّي قريباً لقتلته[2]. وقال ابن مسعود: نزلت في أبي عبيدة بن الجرَّاح، قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أُحد[3]، وقيل: يوم بدر. وكان الجرَّاح يتصدَّى لأبي عبيدة، وأبو عبيدة يَحيدُ عنه، فلما أكثر، قصد إليه أبو عبيدة فقتله؛ فأنزل الله حين قتل أباه: «لا تَجِدُ قوماً يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ»

(١) زاد المسير ٨/ ١٩٩ ، وما بين حاصرتين منه .

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٤٤٠ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٨٦ لابن المنذر .

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٤٤٠ ، وأورده الزجاج في معاني القرآن له ٥/ ١٤١ ، والبغوي ٤/ ٣١٢ .

الآية(١). قال الواقديُّ: كذلك يقول أهل الشام. ولقد سألتُ رجالاً من بني الحارث ابن فهر فقالوا: تُوفِّي أبوه من قبل الإسلام.

﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ يعني: أبا بكر دعى ابنَه عبدَ الله إلى البراز يوم بدر، فقال النبيُّ ﷺ: «مَتِّعْنَا بنفسك يا أبا بكر، أما تعلم أنَّك عندي بمنزلة السمع والبصر»(٢).

﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ يعني مصعبَ بنَ عمير قتل أخاه عبيدَ بنَ عمير يوم أُحُد(٣). ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ يعني عمر بنَ الخطاب قتل خالَه العاصَ بنَ هشام بنِ المغيرة يوم بدر، وعليًّا وحمزة قتلا عُتبة وشيبة والوليد يوم بدر(٤). وقيل: إنَّ الآية نزلت في حاطب بن أبي بَلْتَعة، لما كتب إلى أهل مكَّة بمسير النبيِّ ﷺ عامَ الفتح(٥)، على ما يأتي بيانه أوَّل سورة «الممتحنة» إن شاء الله تعالى، بيَّن أنَّ الإيمان يفسد بموالاة الكفَّار، وإن كانوا أقارب.

الثانية: استدلَّ مالك ـ رحمه الله ـ من هذه الآية على معاداة القَدَريَّة وتَرْك مجالستهم. قال أشهب عن مالك: لا تجالس القَدَريَّة وعادِهم في الله؛ لقوله تعالى:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥١، وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٦٠)، والحاكم في المستدرك ٣/ ٢٦٤ - ٢٦٥، وأبو نعيم في الحلية ١/ ١٠١ عن عبد الله بن شوذب مرسلاً. قال الحافظ في التلخيص الحبير ٤/ ١٠٢: وهذا معضل، وكان الواقدي ينكره ....

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٤٤٠، وأخرجه الواقدي في المغازي ١/ ٢٥٧، وذكره عنه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٨٦، وورد عند الواقدي أنَّ ابنَ أبي بكر اسمه: عبد الرحمن، ولم يصرِّح باسمه الواحديُّ في أسباب النزول، ولعلَّ الصواب ما ذكره الواقدي؛ لأن ابن الجوزي ذكر في كتابه تلقيح فهوم أهل الأثر ص١٠٧-١٠٨ أولادَ أبي بكر، وعدَّ منهم عبد الله وعبد الرحمن...، وبيَّن أن عبد الرحمن هو الذي شهد يوم بدر مع المشركين، ثم أسلم، وأما عبد الله فإنه شهد مع النبي ﷺ الطائف فجرح وبقي إلى خلافة أبيه....

(٣) في (م): بدر، والمثبت من النسخ الخطية، وأسباب النزول للواحدي ص ٤٤٠، والكلام منه.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٤٤٠، والمغازي للواقدي ١/ ٦٩.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣١٢، وما بعده منه أيضاً.

«لا تَجِدُ قومًا يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ يُوادُّون من حادَّ اللهَ ورسولَه»[(١)].

قلت: وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم والعدوان. وعن الثوريِّ أنَّه قال: كانوا يَرَوْنَ أنَّها نزلت في مَن كان يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي روَّاد[(٢)] أنَّه لقيَ المنصورَ في الطواف، فلما عرفه هرب منه وتلاها. وعن النبيِّ ﷺ أنَّه كان يقول: «اللهمَّ لا تجعل لفاجر عندي نعمة، فإنِّي وجدتُ فيما أوحيت: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» إلى قوله: «أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ»»[(٣)] أي: خلق في قلوبهم التصديق[(٤)]، يعني من لم يُوالِ من حادَّ الله[(٥)]. وقيل: كتب: أثبت، قاله الربيع بن أنس. وقيل: جعل[(٦)]، كقوله تعالى: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣] أي: اجعلنا. وقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقيل: «كَتَبَ» أي: جمع، ومنه: الكَتيبة، أي: لم يكونوا ممن يقول: نؤمن ببعض ونكفر ببعض[(٧)].

وقراءة العامة: بفتح الكاف من «كَتَبَ»، ونصب النون من «الإيمان» بمعنى: كَتَبَ الله، وهو الأجود؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾. وقرأ أبو العالية وزِرّ بن حُبيش والمفضل عن عاصم: «كُتِبَ» على ما لم يُسمَّ فاعله، «الْإِيمَانُ» برفع النون[(٨)].

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥١، إلا أنه وقع فيه: ابن وهب، بدل: أشهب. وقد وردت في إحدى نسخه الخطية، كما أشار لذلك محققه.

(٢) في (د) و(م): داود.

(٣) الكشاف ٤/ ٧٨ - ٧٩، والحديث أورده الديلمي في الفردوس (٢٠١١)، وابن مردويه كما في الكافي الشاف لابن حجر ص ١٦٦.

(٤) الوسيط ٤/ ٢٦٨.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤٢.

(٦) زاد المسير ٨/ ١٩٩.

(٧) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٧٧.

(٨) السبعة ص ٦٣٠.

وقرأ زِرّ بن حُبيش: «وَعَشِيرَاتِهِمْ» بألف وكسر التاء على الجمع، ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم(١). وقيل: «كَتَبَ في قُلُوبِهِمْ» أي: على قلوبهم، كما في قوله: ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] وخصَّ القلوب بالذِّكْر؛ لأنَّها موضع الإيمان. «وَأَيَّدَهُمْ» قوَّاهم ونصرهم بروح منه، قال الحسن: وبنصر منه. وقال الربيع بن أنس: بالقرآن وحُججه. وقال ابن جريج: بنور وإيمان وبرهان وهدي. وقيل: برحمة من الله. وقال بعضهم: أيَّدهم بجبريلَ عليه السلام(٢). ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: قَبِلَ أعمالهم ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ﴾ فرحوا بما أعطاهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قال سعيد بن أبي سعيد الجرجانيُّ، عن بعض مشايخه، قال داود عليه السلام: إلهي! مَن حِزْبُكَ وحَوْلَ عرشِك؟ فأوحى الله إليه: «يا داود الغاضَّةُ أبصارهم، النقيَّة قلوبهم، السليمة أكفُّهم، أولئك حزبي وحول عرشي»(٣).

ختمت السورة والحمد لله.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٥٤ عن علي ﷺ، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١٣، دون ذكر قول ابن جريج، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٢ دون نسبته إليه.

(٣) لم نقف عليه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحَشْر

مدنِيّةٌ في قول الجميع. وهي أربع وعشرون آية(١)، روى ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الحشر، لم يَبْقَ شيء من الجنَّة والنار والعرش والكرسيِّ والسماوات والأرض والهوامِّ والريح والسحاب والطير والدوابِّ والشجر والجبال والشمس والقمر والملائكة إلا صَلّوْا عليه، واستغفروا له. فإنْ مات من يومه أو ليلته مات شهيداً». خرَّجه الثعلبيُّ(٢). وخرَّج الثعالبيُّ عن يزيد الرقاشيِّ، عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قرأ آخر سورة الحشر: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ» ـ إلى آخرها ـ فمات من ليلته مات شهيداً»(٣).

وروى الترمذيُّ عن مَعْقِل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يُصبح ثلاثَ مرَّات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاثَ آيات من آخر سورة الحشر، وكَّلَ اللهُ به سبعين ألف مَلك يُصَلُّون عليه حتى يُمْسِي، وإن مات في يومه مات شهيداً، ومن قرأها حين يُمْسِي فكذلك». قال: حديث غريب(٤).

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾

تقدّم.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣١٣.

(٢) لم نقف عليه عند غيره.

(٣) أورده بنحوه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٠٢ وعزاه إلى ابن مردويه.

(٤) وقعت العبارة في بعض النسخ الخطية و(م): حسن غريب، ولم ترد عند الترمذي (٢٩٢٢)، وهو عند أحمد (٢٠٣٠٦) وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٦٣١، وقال: لم يحسِّنه الترمذي، وهو حديث غريب جداً.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: قل سورة النَّضير. وهم رهط من اليهود من ذُرِّيَّة هارون عليه السلام، نزلوا المدينة في فِتن بني إسرائيل؛ انتظاراً لمحمَّد ﷺ، وكان من أمرهم ما نصَّ الله عليه[1].

الثانية: قوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ﴾ الحشرُ: الجمعُ[2]؛ وهو على أربعة أوجه: حشران في الدنيا، وحشران في الآخرة؛ أمَّا الذي في الدنيا فقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» قال الزهريُّ: كانوا من سِبْطٍ لم يصبهم جلاء، وكان الله عزَّ وجلَّ قد كتب عليهم الجلاء؛ فلولا ذلك لعذَّبهم في الدنيا[3]. وكان أوَّلَ حشر حُشِروا في الدنيا إلى الشام[4]. قال ابن عباس وعكرمة: من شكَّ أنَّ المحشر في الشام فليقرأ هذه الآية، وأنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم: «اخرجوا» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر». قال قتادة: هذا أوَّل المحشر. قال

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٢، والأثر أخرجه البخاري (٤٠٢٩)، ومسلم (٣٠٣١).

(٢) من هنا إلى نهاية قول قتادة الآتي من التذكرة ص١٩٨.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣١٣، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٢، وأبو عبيد في الأموال (٨١)، والطبري ٢٢/ ٤٩٧ - ٤٩٨.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٢، والطبري ٢٢/ ٤٩٨ - ٤٩٩، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ١٧٦ - ١٧٧.

ابن عباس: هم أوَّل من حُشِر من أهل الكتاب وأُخرِج من دياره[١]. وقيل: إنَّهم أُخرجوا إلى خَيْبر، وأنَّ معنى «لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخره إخراج عمر ﷺ إياهم من خَيْبر إلى نجد وأذرِعات. وقيل: تَيماء وأرِيحاء، وذلك بكفرهم ونقض عهدهم[٢]. وأما الحشر الثاني: فحشرهم قربَ القيامة. قال قتادة: تأتي نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، تَبِيت معهم حيث باتوا، وتَقِيل معهم حيث قالوا، وتأكل منهم مَن تخلَّف[٣]. وهذا ثابت في الصحيح، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٤]. ونحوه روى ابن وهب عن مالك قال: قلت لمالك: هو جلاؤهم من ديارهم؟ فقال لي: الحشر يوم القيامة حشر اليهود. قال: وإجلاء رسول الله ﷺ اليهودَ إلى خَيْبر حين سُئلوا عن المال فكتموه، فاستحلَّهم بذلك. قال ابن العربيِّ[٥]: للحشر أوَّل ووسط وآخِر؛ فالأوَّل: إجلاء بني النضير، والأوسط: إجلاء خيبر، والآخِر: حشر يوم القيامة. وعن الحسن: هم بنو قُرَيظة. وخالفه بقيَّة المفسرين وقالوا: بنو قُرَيظة ما حُشروا ولكنهم قتلوا. حكاه الثعلبيُّ.

الثالثة: قال الكيا الطبريُّ[٦]: ومصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير شيء لا يجوز الآن، وإنَّما كان ذلك في أوَّل الإسلام، ثم نُسخ. والآن فلابدَّ من قتالهم، أو سَبْيِهم، أو ضرب الجِزية عليهم.

قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ يريد: لِعظم أمرِ اليهود ومَنَعتهم وقوَّتهم في

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٥٩ ، عدا قول قتادة فمن النكت والعيون ٥/ ٤٩٩ ، وقول ابن عباس أخرجه البزار (٣٤٢٦ كشف الأستار)، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٥ (١٨٨٥٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٣ : رواه البزار، وفيه: أبو سعدالبقال، والغالب عليه الضعف.

(٢) التعريف والإعلام ص ١٦٥ ، وأذرعات وتيماء وأريحاء من بلاد الشام، كما قاله السهيلي.

(٣) النكت والعيون ٥/٤٩٩ ، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٢ ، والطبري ٢٢/ ٤٩٩ .

(٤) ص١٩٨ .

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٢ ، وما قبله منه أيضاً.

(٦) في أحكام القرآن له ٤/ ٤٠٥ .

صدور المسلمين، واجتماع كلمتهم. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ قيل: هي الوَطِيح والنَّطاة والسُّلالِم والكَتِيبة[١]. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من أمره، وكانوا أهل حَلْقة - أي: سلاح كثير - وحصون منيعة، فلم يمنعهم شيء منها. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمره وعذابه[٢]. ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ أي: لم يظنوا[٣]. وقيل: من حيث لم يعلموا. وقيل: «مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا» بقتل كَعْب بن الأشرف، قاله ابن جُريج والسُّدِّيُّ وأبو صالح[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ بقتل سَيِّدهم كعب بن الأشرف، وكان الذي قتله هو محمد بن مَسْلمة، وأبو نائلة سِلْكان بن سلامة بن وَقْش - وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة - وعبّاد بن بِشر بن وَقْش، والحارث بن أَوْس بن معاذ، وأبو عَبْس بن جبر. وخبره مشهور في السيرة[٥]. وفي «الصحيح»: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «نُصِرتُ بالرُّعْب بين يَدَي مَسِيرةِ شهر»[٦] فكيف لا يُنْصر به مسيرة ميل من المدينة إلى محلَّة بني النضير. وهذه خصيصَة لمحمَّد ﷺ دون غيره[٧].

قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ قراءة العامة بالتخفيف من أخرب، أي: يهدمون. وقرأ السُّلمِيُّ والحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية وقتادة وأبو عمرو: «يُخَرِّبون» بالتشديد[٨] من التخريب. قال أبو عمرو: إنَّما اخترت التشديد؛ لأنَّ الإخراب ترك الشيء خراباً بغير ساكن، وبنو النَّضير لم يتركوها خراباً، وإنما خرَّبوها بالهدم، يؤيده

---

(١) التعريف والإعلام ص١٦٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٩٩ عن ابن جبير والسدي.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٥ .

(٦) سلف ٤/ ٢٥٨ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٣ .

(٨) السبعة ص٦٣٢ ، والتيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨٤ .

قوله تعالى: «بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ». وقال آخرون: التخريب والإخراب بمعنًى واحد، والتشديد بمعنَى التكثير(١). وحكى سيبويه: أنَّ معنى فَعَّلت وأفعلت يتعاقبان، نحو أخربته وخرَّبته، وأفرحته وفرَّحته(٢). واختار أبو عبيد وأبو حاتم الأُولى.

قال قتادة والضحَّاك: كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا، واليهود يُخربون من داخل ليبنُوا به ما خُرِّب من حِصْنهم(٣). فرُوِيَ أنَّهم صالحوا رسولَ الله ﷺ على ألا يكونوا عليه ولا له، فلما ظهر يومَ بَدْر قالوا: هو النبيُّ الذي نُعِت في التوراة، فلا تُردُّ له راية. فلما هُزِم المسلمون يوم أُحُد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكَّة، فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة، فأمر عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة الأنصاريَّ، فقتل كَعْباً غِيلةً، ثم صبَّحهم بالكتائب، فقال لهم: اخرجوا من المدينة. فقالوا: الموت أحبُّ إلينا من ذلك، فتنادَوْا بالحرب. وقيل: استمهلوا رسولَ الله ﷺ عشرة أيام ليتجهَّزوا للخروج، فدسَّ إليهم عبدُ الله بن أُبَيٍّ المنافقُ وأصحابُه: لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن أُخرِجتم لنخرجنَّ معكم. فدُرِّبُوا على الأزقَّة وحصنوها إحدى وعشرين ليلةً، فلما قذف الله في قلوبهم الرُّعب، وأيِسُوا من نصر المنافقين، طلبوا الصلح، فأبى عليهم إلا الجلاء(٤)، على ما يأتي بيانه.

وقال الزهريُّ وابن زيد وعروة بن الزبير: لما صالحهم النبيُّ ﷺ على أنَّ لهم ما أقلَّت الإبل، كانوا يستحسنون الخشَبَة والعمود فيهدمون بيوتهم، ويحملون ذلك على إبلهم، ويخرب المؤمنون باقيها(٥). وعن ابن زيد أيضاً: كانوا يخربونها؛ لئلا يسكنها

---

(١) الحجة للفارسي ٦/ ٢٨٣، والنكت والعيون ٥/ ٥٠٠.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٨٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥ عن قتادة، والنكت والعيون ٥/ ٥٠٠ عن الضحاك، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٥٠١ - ٥٠٢.

(٤) الكشاف ٤/ ٧٩ - ٨٠.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٠٠ عن ابن زيد وابن الزبير، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٢، والطبري ٢٢/ ٥٠١ عن الزهري.

المسلمون بعدهم. وقال ابن عباس: كانوا كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم، هدموها ليتَّسع موضع القتال، وهم ينقبون دورهم من أدبارها إلى التي بعدها؛ ليتحصَّنوا فيها، ويرموا بالتي أخرِجوا منها المسلمين[(١)]. وقيل: ليسدُّوا بها أزِقَّتهم[(٢)]. وقال عِكرمة: «بِأَيْدِيهِمْ» في إخراب دواخلها وما فيها؛ لئلا يأخذه المسلمون. وبـ«أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» في إخراب ظاهرها؛ لِيَصِلُوا بذلك إليهم[(٣)]. قال عكرمة: كانت منازلهم مزخرفةً، فحسدوا المسلمين أن يسكنوها، فخربوها من داخل، وخربها المسلمون من خارج. وقيل: «يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ» بنقض الموادعة[(٤)] «وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» بالمقاتلة، قاله الزهريُّ أيضاً. وقال أبو عمرو بن العلاء: «بِأَيْدِيهِمْ» في تركهم لها. وبـ«أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» في إجلائهم عنها. قال ابن العربيِّ[(٥)]: التناول للإفساد إذا كان باليد كان حقيقةً، وإذا كان بنقض العهد كان مجازاً؛ إلا أنَّ قول الزهريِّ في المجاز أمْثَل من قول أبي عمرو بن العلاء.

قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: اتَّعِظُوا يا أصحابَ العقول والألباب. وقيل: يا من عاين ذلك ببصره[(٦)]، فهو جمع للبصر. ومن جملة الاعتبار هنا أنَّهم اعتصموا بالحصون من الله فأنزلهم الله منها. ومن وجوهه: أنَّه سلَّط عليهم من كان ينصرهم. ومن وجوهه أيضاً: أنَّهم هدموا أموالهم بأيديهم. ومن لم يعتبر بغيره، اعتبر في نفسه. وفي الأمثال الصحيحة: السَّعيد من وُعِظ بغيره[(٧)].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥.

(٢) الكشاف ٤/ ٨٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٠٠ دون نسبته إلى عكرمة، وما بعده منه أيضاً.

(٤) في النسخ: المواعدة، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ٥٠٠ والكلام منه، والموادعة والتوادع: شبه المصالحة والتصالح. اللسان (ودع).

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٤.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤٣.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٤، والمثل في مجمع الأمثال للميداني ١/ ٣٤٣، وورد في حديث مرفوع أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٧٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٦) عن عبد الله =

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ أي: لولا أنَّه قضى أنَّه سَيُجْليهم عن دارهم، وأنَّهم يبقون مدَّة فيؤمن بعضهم ويولد لهم من يؤمن. ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ أي: بالقتل والسَّبْي[1]، كما فعل ببني قُرَيظة. والجلاء: مفارقة الوطن[2]، يقال: جَلَا بنفسه جلاءً، وأجلاه غيرُه إجلاءً[3]. والفرق بين الجلاء والإخراج ـ وإن كان معناهما في الإبعاد واحداً ـ من وجهين: أحدهما: أنَّ الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد. الثاني: أنَّ الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد ولجماعة، قاله الماورديُّ[4].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الجلاء ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: عادَوْه، وخالفوا أمره[5]. ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ قرأ طلحة بن مُصَرِّف ومحمد بن السَّمَيْفَع: «وَمَنْ يُشاقِقِ اللهَ»[6] بإظهار التضعيف، كالتي في «الأنفال»[7]، وأدغم الباقون.

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

فيه خمس مسائل:

= ابن مسعود ﷺ. وفي إسناده: أبو إسحاق وهو: عمرو بن عبد الله السبيعي كان اختلط، وهو مدلِّس، وقد عنعنه ولم يصرِّح بالسماع. والمحفوظ أنه موقوف على ابن مسعود أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٣.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥٦.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٥٠١.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٣.

(٦) مجمع البيان للطبرسي ٢٨/ ٢٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٤.

(٧) وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الآية: ١٣] وسلفت ٩/ ٤٦٩.

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ «ما» في محلٍّ نصب بـ «قَطَعْتُمْ»[١]، كأنَّه قال: أيّ شيء قطعتم. وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ لما نزل على حصون بني النضِير - وهي البُوَيْرة - حين نقضوا العهد بمعونة قريش عليه يوم أُحُد، أمر بقَطْع نخيلهم وإحراقها. واختلفوا في عدد ذلك، فقال قتادة والضحَّاك: إنَّهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ستَّ نخلات. وقال محمد بن إسحاق: إنَّهم قطعوا نخلة، وأحرقوا نخلة. وكان ذلك عن إقرار رسول الله ﷺ أو بأمره؛ إمَّا لإضعافهم بها، وإما لسعَة المكان بقَطْعها. فشقَّ ذلك عليهم فقالوا - وهم يهود أهل الكتاب -: يا محمَّد، ألستَ تزعم أنَّك نبيٌّ تريد الصلاح، أفمن الصلاح قَطْع النخل وحرق الشجر؟[٢] وهل وجدتَ فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد في الأرض؟ فشقَّ ذلك على النبيِّ ﷺ، ووجد المؤمنون في أنفسهم حتى اختلفوا، فقال بعضهم: لا تقطعوا مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: اقطعوا؛ لنغيظهم بذلك. فنزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع، وتحليل من قطع من الإثم، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله[٣]. وقال شاعرهم سماك اليهوديُّ في ذلك:

أَلَسْنَا وَرِثْنا الكتابَ الحكيم ... على عهد موسى ولم نَصْدِفِ
وأنتم رِعاءٌ لِشاءٍ عِجافٍ ... بسَهْلِ تِهامة والأَخْيَفِ
تَرَوْنَ الرِّعايةَ مجداً لكم ... لدى كلّ دهرٍ لكم مُجْحِفِ
فيا أيها الشاهدون انتهُوا ... عن الظلم والمنطق المُؤْنِفِ
لعلَّ الليالي وصَرف الدهور ... يُدِلْنَ من العادل المنصف
بقتل النَّضِير وإجلائها ... وعَقْرِ النخيل ولم تُقْطَفِ[٤]

فأجابه حسان بن ثابت:

---

(١) الكشاف ٤/ ٨١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠١، وخبر قطع نخيل بني النضير وإحراقها أخرجه البخاري (٤٠٣٢)، ومسلم (١٧٤٦): (٣٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٤٤٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠١.

تفاقَدَ مَعْشَرٌ نصرُوا قريشاً ... وليس لهم ببلدتهم نَصيرُ
هُمُوا أوتوا الكتاب فضيَّعوه ... وهم عُمْيٌ عن التوراة بُورُ
كفرتم بالقُرَان وقد أبيتم ... بتصديق الذي قال النذيرُ
وهان على سَرَاة بني لُؤَيٍّ ... حريقٌ بالبُوَيْرة مستطيرُ(١)

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

أدام الله ذلك من صنيعٍ ... وحرَّق في نواحيها السَّعِيرُ
ستَعْلَمُ أيُّنا منها بنُزْهٍ ... وتَعْلَمُ أيُّ أرْضِيْنا تَضيرُ
فلو كان النخيل بها رِكاباً ... لقالوا لا مُقامَ لكم فسِيرُوا(٢)

الثانية: كان خروج النبيِّ ﷺ إليهم في ربيع الأوَّل، أوَّل السنة الرابعة من الهجرة، وتحصَّنوا منهم في الحصون، وأمر بقطع النخل وإحراقها، وحينئذٍ نزل تحريم الخمر. ودسَّ عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُول ومن معه من المنافقين إلى بني النَّضير: إنَّا معكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم؛ فاغترُّوا بذلك. فلما جاءت الحقيقة خذلوهم وأسلموهم وألقوا بأيديهم، وسألوا رسول الله ﷺ أن يكفَّ عن دمائهم ويُجْلِيهم، على أنَّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فاحتملوا كذلك إلى خَيْبَر، ومنهم من سار إلى الشام. وكان ممن سار منهم إلى خَيْبَر أكابرهم، كَحُيَيِّ بن أَخْطَب، وسَلّام بن أبي الحُقَيْق، وكِنانة بن الربيع. فدانت لهم خَيبر(٣).

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٢ ، والأبيات في شرح ديوان حسان لعبد الرحمن البرقوقي ص٢٥٠ ، قال شارحه: وقوله: تفاقَدَ معشر: أي: فَقَدَ بعضهم بعضاً. وقوله: بُورُ: يعني ضُلَّال أو هلكى، من البوار وهو الهلاك. وقوله: سراة بني لؤي: أي خيارهم. والبويرة: موضع بني قريظة. ا هـ. والبيت الأخير سيأتي ضمن خبر ابن عمر، وثمة تخريجه هناك.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٢ ، وورد فيه: طرائقها، بدل: نواحيها. وأبو سفيان بن الحارث: هو ابن عبد المطلب، وهو ابن عمِّ النبي ﷺ، وكان حينئذٍ لم يُسلم، وقد أسلم بعدُ في الفتح. وبنزه: ببعد. وتضير: من الضَّيْر، وهو بمعنى الضُرِّ. فأبو سفيان يقول: تخرَّبت أرض بني النضير، وتخريبها إنما يضرُّ أرضَ من جاورها، وأرضكم [يعني أرض الأنصار] هي التي تجاورها فهي التي تتضرَّر لا أرضنا [يعني أرض قريش]. فتح الباري ٧/ ٣٣٣-٣٣٤ . والبيتان الأول والثاني ذكرهما البخاري (٤٠٣٢) ضمن خبر ابن عمر الآتي قريباً، وكما أشرنا إليه هناك.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٠ - ١٩١ ، حيث ذكر أن هذه الغزوة كانت سنة أربع، وكذا ذكر =

الثالثة: ثبت في «صحيح مسلم» وغيره عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ قطع نخل بني النَّضير وحَرَّق، ولها يقول حسان:

وهان على سَرَاة بني لُؤَيٍّ حريقٌ بالبُوَيْرة مستطيرُ

وفي ذلك نزلت: «مَا قَطَعْتُم مِنْ لِينَةٍ» الآية[١].

واختلف الناس في تخريب دار العدوِّ وتحريقها وقطع ثمارها على قولين: الأوَّل: أنَّ ذلك جائز، قاله في «المدوَّنة»[٢]. الثاني: إن علم المسلمون أنَّ ذلك لهم، لم يفعلوا، وإن يئسوا، فعلوا، قاله مالك في «الواضحة». وعليه يناظر أصحاب الشافعي. ابن العربيِّ[٣]: والصحيح الأوَّل. وقد علم رسول الله ﷺ أنَّ نخل بني النَّضير له، ولكنه قَطع وحَرَّق؛ ليكون ذلك نكايةً لهم، ووَهْناً فيهم، حتى يخرجوا عنها. وإتلافُ بعض المال لصلاح باقيه مصلحة جائزة شرعاً، مقصودة عقلاً.

الرابعة: قال الماورديُّ: إنَّ في هذه الآية دليلاً على أنَّ كلَّ مجتهد مصيبٌ. وقاله الكِيَا الطَّبَريُّ[٤] قال: وإن كان الاجتهاد يَبعُد في مثله مع وجود النبيِّ ﷺ بين

= البلاذري في فتوح البلدان ص٣١، وذكر السهيلي في الروض الأنف ٣/ ٢٥٠ أن ابن إسحاق ذكر هذه الغزوة في هذا الموضع ـ أي بعد غزوة أحد ـ وكان ينبغي أن يذكرها بعد بدر، لما روى عقيل بن خالد وغيره عن الزهري قال: كانت غزوة بني النضير بعد بدر بستة أشهر. اهـ. وخبر الزهري في مغازيه ص٧١، وأخرجه البلاذري في فتوح البلدان ص٣١ ولكن ورد فيه أن وقيعة بني النضير من يهود كانت على ستة أشهر من يوم أحد. وعلَّقه البخاري قبل حديث (٤٠٢٨) عن الزهري عن عروة، ووصله عبد الرزاق في المصنف ٥/ ٣٥٧، وردَّه ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٢٢٣، وذكر الواقدي في المغازي ١/ ٣٦٣ أنها كانت في ربيع الأول على رأس سبعة وثلاثين شهراً من مهاجرة النبي ﷺ.

(١) مسلم (١٧٤٦): (٣٠)، وأخرجه أيضاً البخاري (٤٠٣٢)، وزاد: فأجابه أبو سفيان بن الحارث:

أدام الله ذلك من صنيعٍ وحرَّق في نواحيها السعيرُ
ستعلم أيُّنا منها بنزهٍ وتعلم أيُّ أرضينا تضيرُ

وسلفت قريباً.

(٢) ٣/ ٧ - ٨، والمصنف نقله عنه بواسطة ابن العربي في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٦، وما بعده منه أيضاً.

(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٦.

(٤) في أحكام القرآن له ٤/ ٤٠٦.

أظهرهم، ولا شكَّ أنَّ رسول الله ﷺ رأى ذلك وسكت، فتلَقَّوا الحكم من تقريره فقط. قال ابن العربيّ[١]: وهذا باطل؛ لأنَّ رسول الله ﷺ كان معهم، ولا اجتهادَ مع حضور رسول الله ﷺ، وإنَّما يدلُّ على اجتهاد النبيِّ ﷺ فيما لم ينزل عليه؛ أخذاً بعموم الأذِيَّة للكفار، ودخولاً في الإذن للكلِّ بما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار، وذلك قوله تعالى: «وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ».

الخامسة: اختلف في اللِّينة ما هي، على أقوال عشرة: الأوَّل: النخل كلُّه إلا العَجْوةَ، قاله الزهريُّ ومالك وسعيد بن جُبير وعِكْرمة والخليل[٢]. وعن ابن عباس ومجاهد والحسن: أنَّها النخل كلُّه، ولم يستثنوا عَجْوةً ولا غيرها[٣]. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّها لون من النخل. وعن الثوريِّ: أنَّها كرام النخل[٤]. وعن أبي عبيدة[٥]: أنَّها جميع ألوان التمر سوى العجوة والبَرْنِي. وقال جعفر بن محمد: إنَّها العجوة خاصّةً[٦]. وذكر أنَّ العتيق والعجوة كانتا مع نوح عليه السلام في السفينة. والعتيق: الفحل. وكانت العجوة أصلَ الإناث كلِّها، فلذلك شقَّ على اليهود قطعها، حكاه الماورديُّ[٧]. وقيل: هي ضَرْبٌ من النخل، يقال لتمره: اللَّون، تمره أجود التمر، وهو شديد الصفرة يُرَى نواه من خارجه، ويغيب فيه الضِّرس؛ النخلة منها أحبُّ إليهم من وَصِيف[٨]. وقيل: هي النخلة القريبة من الأرض. وأنشد الأخفش:

---

(١) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٧ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٦ ، دون عزوه لسعيد بن جبير وعزاه له النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٩١ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٥٠٧ عن عكرمة والزهري وابن عباس وآخرين.

(٣) زاد المسير ٨/ ٢٠٨ عن ابن عباس. وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩١ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٦٣ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٦ عن الحسن.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣١٦ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٥٠٩ .

(٥) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٥٦ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٦ .

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٥٠٢ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣١٦ وعزاه لمقاتل، والوصيف: الخادم، غلاماً كان أو جارية. اللسان (وصف).

قد شجاني الحمام حين تَغَنَّى بفراق الأحباب من فوق لِينَهْ[١]

وقيل: إنَّ اللِّينة: الفَسِيلة؛ لأنَّها ألين من النخلة. ومنه قول الشاعر:

غَرَسُوا لِينها بمجرى مَعِين ثم حَفّوا النخيل بالآجامِ[٢]

وقيل: إنَّ اللينة: الأشجارُ كلُّها؛ للينها بالحياة، قال ذو الرُّمَّة:

طِراقُ الخَوَافي واقعٌ فوق لِينة نَدَى ليله في ريشه يترقرقُ[٣]

والقول العاشر: أنَّها الدقَل، قاله الأصمعيُّ. قال: وأهل المدينة يقولون: لا تنتفخ[٤] الموائد حتى توجد الألوان، يعنون: الدَّقَل. قال ابن العربيِّ[٥]: والصحيح ما قاله الزهريُّ ومالك؛ لوجهين: أحدهما: أنَّهما أعرف ببلدهما وأشجارهما. الثاني: أنَّ الاشتقاق يَعْضُده، وأهل اللُّغة يصححونه؛ فإنَّ اللِّينة وزنها لُونة، واعتلَّت على أصولهم، فآلت إلى لِينة، فهي لون، فإذا دخلت الهاء كُسر أولها؛ كَبَرْك: الصَّدْرُ - بفتح الباء - وبِرْكة - بكسرها - لأجل الهاء.

وقيل: لِينة، أصلها لِوْنة، فقلِبت الواو ياءً؛ لانكسار ما قبلها. وجمع اللينة: لِين.

وقيل: لِيان، قال امرؤ القيس يصف عنق فرسه:

وسالفة كسَحُوقِ اللِّيا نِ أضْرَمَ فيها الغَويُّ السُّعُرْ[٦]

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠٢ ولم ينسبه، وأورده الحميري في الروض المعطار ص٦١٧ ، إلا أنه ورد فيه: الفسيل، بدل: النخيل، وكما نسبه لبعض ولد يثرب بن قانية أول من نزل مدينة النبي ﷺ، وسمِّيت باسمه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٠٢ ، والبيت في ديوان ذي الرمة ١/ ٤٨٨ إلا أنه ورد فيه: ريعة، بدل: لينة. قال شارحه: طراق: أي بعضه على بعض. والخوافي: ما دون القوادم من جناح الطائر. والريعة: المكان المرتفع. ويترقرق: يجيء ويذهب.

(٤) في (خ): لا ينتفخ. وفي أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٧ والكلام منه: لا ننحى. وقول الأصمعي ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٧١ .

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٧ .

(٦) الصحاح (لون)، والبيت في ديوان امرئ القيس ص١٦٥ ، إلا أنه ورد فيه: اللُّبان، بدل: اللِّيان، قال شارحه: السالفة: العُنُق. وكسحوق اللُّبان: كالشجرة في الطول. واللُّبان: شجرة اللُّبان، وهو الكُنْدر.

وقال الأخفش: إنَّما سمِّيت لينةً؛ اشتقاقاً من اللَّون، لا من اللين[١]. المهدوِيُّ: واختلف في اشتقاقها، فقيل: هي من اللون، وأصلها لُونة. وقيل: أصلها لِينة، من لان يلين.

وقرأ عبد الله: «ما قطعتم مِن لِينةٍ ولا تركتم قُوَّماً على أصولها»[٢] أي: قائمة على سوقها. وقرأ الأعمش: «ما قطعتم مِن لِينةٍ أو تركتموها قُوَّماً على أصولِها»[٣] المعنى: لم تقطعوها. وقرئ: «قُوَّماً على أُصُلِها». وفيه وجهان: أحدهما: أنَّه جمع أصلٍ، كَرَهْن ورُهُن. والثاني: اكْتُفِي فيه بالضمَّة عن الواو. وقرئ: «قائماً على أصوله» ذهاباً إلى لفظ «ما»[٤]. ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمره ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: ليذلَّ اليهودَ الكفَّارَ به وبنبيِّه وكتبه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ هذه الآية والتي بعدها إلى قوله: «شَدِيدُ الْعِقَابِ» **فيه عشر مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني: ما ردَّه الله تعالى ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من أموال بني النَّضِير. ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أوْضَعْتم عليه. والإيجاف: الإيضاع في السير، وهو الإسراع[٥]، يقال: وَجَف الفرسُ: إذا أسرع، وأوجفته أنا، أي: حرَّكته

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٠٢.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤٤ إلا أنه ورد فيه: أصوله، بدل: أصولها.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٤٤.

(٤) الكشاف ٤/ ٨١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٠٣.

وأتعبته، ومنه قول تميم بن مقبل:

مَذاوِيد بالبِيض الحديثِ صِقالُها ... عن الركب أحياناً إذا الركب أوْجَفُوا(١)

والركاب: الإبل، واحدها: راحلة(٢). يقول: لم تقطعوا إليها شُقَّة، ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقَّة؛ وإنَّما كانت من المدينة على مِيلَيْن، قاله الفرَّاء(٣). فمشَوْا إليها مَشْياً، ولم يركبوا خيلاً ولا إبلاً، إلا النبيَّ ﷺ فإنَّه ركب جملاً، وقيل: حماراً مخطوماً بليف، فافتتحها صلحاً، وأجلاهم، وأخذ أموالهم(٤). فسأل المسلمون النبيَّ ﷺ أن يَقسم لهم فنزلت: «وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ» الآية. فجعل أموال بني النَّضير للنبيِّ ﷺ خاصَّةً يضعها حيث شاء، فقسمها النبيُّ ﷺ بين المهاجرين. ـ قال الواقديُّ: ورواه ابن وهب عن مالك ـ ولم يُعْطِ الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثةَ نفر محتاجين، منهم أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشة، وسهل بن حُنيف، والحارث بن الصِّمَّة(٥). وقيل: إنَّما أَعطى رجلين، سهلاً وأبا دُجَانة. ويقال: أَعطى سعد بن معاذ سيفَ ابن أبي الحُقَيق، وكان سيفاً له ذِكْرٌ عندهم(٦). ولم يُسلم من بني النَّضير إلا رجلان: سفيان بن عمير، وسعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها(٧).

وفي «صحيح مسلم» عن عمر قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٣ - ١٩٤، والبيت في ديوان تميم بن أُبيٍّ بن مقبل ص٣٧٢، والذَّود: السَّوق والطرد والدفع. والبِيض: جمع أبيض وهو السيف. المعجم الوسيط (ذود) و(بيض).

(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٤.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٤٤.

(٤) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٥، عدا قوله: وقيل: حماراً مخطوماً بليف. فمن الكشاف ٤/ ٧٩.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣١٦ عدا ما بين معترضتين.

(٦) المغازي للواقدي ١/ ٣٧٩، والقول الأول أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٢٦ عن عبد الله بن أبي بكر ﷺ.

(٧) الدرر لابن عبد البر ص١٨٥، وورد فيه أنهما: يامين بن عمير، وأبو سعيد بن وهب، وكذا وردا في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٢.

رسوله، مما لم يُوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، وكانت للنبيِّ ﷺ خاصَّةً، فكان ينفق على أهله نفقةَ سنةٍ، وما بقي يجعله في الكُرَاع والسلاح عُدَّةً في سبيل الله تعالى[(١)].

وقال العباس لعمر رضي الله عنهما: اقضِ بيني وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن ـ يعني: علياً ﷺ، فيما أفاء الله على رسوله من أموال بني النضير ـ فقال عمر: أتعلمانِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا نُورث ما تركناه صدقة» قالا: نعم. قال عمر: إنَّ الله عزَّ وجلَّ كان خصَّ رسوله ﷺ بخاصَّة ولم يُخَصِّص بها أحداً غيره. قال: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ» ـ ما أدري هل قرأ الآية التي قبلها أم لا ـ فقسم رسول الله ﷺ بينكم أموال بني النَّضير، فو اللهِ ما استأثرها عليكم ولا أخذها دونكم حتى بقي هذا المال، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منه نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي أُسْوَةَ المال... الحديث بطوله، خرَّجه مسلم[(٢)]. وقيل: لما ترك بنو النَّضير ديارهم وأموالهم، طلب المسلمون أن يكون لهم فيها حظٌّ كالغنائم، فبيَّن الله تعالى أنَّها فَيْءٌ، وكان قد جرى ثَمَّ بعضُ القتال؛ لأنَّهم حوصِروا أياماً وقاتلوا وقتلوا، ثم صالحوا على الجلاء. ولم يكن قتال على التحقيق، بل جرى مبادئ القتال وجرى الحصار، وخصَّ الله تلك الأموال برسوله ﷺ. وقال مجاهد[(٣)]: أعلمهم الله تعالى وذكَّرهم أنَّه إنَّما نصر رسوله ﷺ ونصرهم بغير كُراع ولا عُدَّة. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من أعدائه. وفي هذا بيان أنَّ تلك الأموال كانت خاصَّةً لرسول الله ﷺ دون أصحابه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ قال ابن عباس: هي قُرَيْظَة والنَّضير، وهما بالمدينة، وفَدَك، وهي على ثلاثة أيام من المدينة وخَيْبَر. وقُرَى

(١) مسلم (١٧٥٧)، وهو عند البخاري (٢٩٠٤)، وأحمد (١٧١)، والكراع: الدوابُّ التي تصلح للحرب.
(٢) برقم (١٧٥٧): (٤٩)، وهو عند البخاري (٣٠٩٤)، وأحمد (٤٢٥).
(٣) في تفسيره ٢/ ٦٦٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥١٤ .

عُرَينة[١]. ويَنْبُع جعلها الله لرسوله. وبَيَّن أنَّ في ذلك المال الذي خصَّه بالرسول عليه السلام سُهْماناً لغير الرسول، نظراً منه لعباده.

وقد تكلَّم العلماء في هذه الآية والتي قبلها، هل معناهما واحد أو مختلف، والآية التي في الأنفال، فقال قوم من العلماء: إنَّ قوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» منسوخ بما في سورة الأنفال من كون الخُمس لمن سُمِّيَ له، والأخماس الأربعة لمن قاتل. وكان في أوَّل الإسلام تُقسم الغَنِيمة على هذه الأصناف، ولا يكون لمن قاتل عليها شيء. وهذا قول يزيد بن رُومان وقتادة وغيرهما[٢]. ونحوه عن مالك. وقال قوم: إنَّما غنم بصلح من غير إيجاف خيل ولا رِكاب، فيكون لمن سمَّى الله تعالى فيه فَيْئاً، والأُولى للنبيِّ ﷺ خاصَّة، إذا أخذ منه حاجته كان الباقي في مصالح المسلمين. وقال معمر: الأُولى للنبيِّ ﷺ، والثانية هي الجزية والخراج، للأصناف المذكورة فيه. والثالثة الغنيمة في سورة الأنفال للغانمين[٣]. وقال قوم منهم الشافعيُّ: إنَّ معنى الآيتين واحد، أي: ما حصل من أموال الكفار بغير قتال قسم على خمسة أسهم؛ أربعة منها للنبيِّ ﷺ. وكان الخمس الباقي على خمسة أسهم: سهم لرسول الله ﷺ أيضاً، وسهم لذوي القربى - وهم بنو هاشم وبنو المطلب - لأنَّهم مُنِعوا الصدقة، فجعل لهم حقٌّ في الْفَيْء، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل[٤]. وأما بعد وفاة رسول الله ﷺ، فالذي كان من الْفَيْء لرسول الله ﷺ يصرف عند الشافعيِّ في قولٍ إلى المجاهدين المترصِّدين للقتال في الثغور؛ لأنَّهم القائمون مقام الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي قول آخر له: يُصرَف إلى مصالح المسلمين من سدِّ الثغور وحفر الأنهار وبناء

---

(١) تفسير البغوي ٤/٣١٧ .

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/٥٦ ، ونواسخ القرآن لابن الجوزي ص٢٣٧ ، وأخرجه الطبري ٢٢/٥١٧ - ٥١٨ عن يزيد بن رومان وقتادة.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٥٩ .

(٤) الأم ٤/٧٧ ، وأحكام القرآن للشافعي جمع الإمام البيهقي ١/١٥٣ وما بعدها.

القناطر، يُقدَّم الأهمُّ فالأهمّ، وهذا في أربعة أخماس الفيء[١]. فأمَّا السهم الذي كان له من خمس الفيء والغنيمة فهو لمصالح المسلمين بعد موته ﷺ بلا خلاف، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ليس لي من غنائمكم إلا الخمس، والخمس مردودٌ فيكم»[٢]. وقد مضى القول فيه في سورة «الأنفال»[٣]. وكذلك ما خلَّفه من المال غير موروث، بل هو صدقة يُصرَف عنه إلى مصالح المسلمين، كما قال عليه السلام: «إنا لا نُورَث، ما تركناه صدقة»[٤]. وقيل: كان مال الفيء لنبيِّه ﷺ؛ لقوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ» فأضافه إليه؛ غير أنَّه كان لا يتأثَّل[٥] مالاً، إنَّما كان يأخذ بقدر حاجة عياله، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين.

قال القاضي أبو بكر بنُ العربيِّ[٦]: لا إشكالَ أنَّها ثلاثةُ معانٍ في ثلاث آيات؛ أما الآية الأولى فهي قوله: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» ثم قال تعالى: «وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ» يعني من أهل الكتاب معطوفاً عليهم. ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يريد كما بَيَّنَّا؛ فلا حقَّ لكم فيه، ولذلك قال عمر: إنَّها كانت خالصةً لرسول الله ﷺ، يعني بني النضير وما كان مثلها. فهذه آية واحدة ومعنًى متَّحد. الآية الثانية: قوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ» وهذا كلام مبتدأ غير الأوَّل لمستحقٍّ غيرِ الأوَّل. وسمَّى الآية الثالثة آيةَ الغنيمة، ولا شكَّ في أنَّه معنًى آخر باستحقاق ثانٍ لمستحقٍّ آخر، بَيْدَ أنَّ الآية الأولى والثانية، اشتركتا في أنَّ كلَّ واحدة منهما تضمَّنت شيئاً

(١) الأوسط لابن المنذر ١١/ ٩٥ .

(٢) سلف ٩/ ٤٤٤ .

(٣) ١٠/ ٢٤ وما بعدها.

(٤) سلف تخريجه قريباً.

(٥) أي: غير جامع، يقال: مال مؤثَّل، ومجد مؤثَّل. أي: مجموع ذو أصل، وأثلة الشيء: أصله. النهاية (أثل).

(٦) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٦٠ - ١٧٦١ .

أفاءه الله على رسوله، واقتضت الآية الأولى أنّه حاصل بغير قتال، واقتضت آية الأنفال أنَّه حاصل بقتال، وعرِيت الآية الثالثة وهي قوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» عن ذِكْر حصوله بقتال أو بغير قتال؛ فنشأ الخلاف من ها هنا، فمن طائفة قالت: هي ملحقة بالأولى، وهو مال الصلح كلّه ونحوه. ومن طائفة قالت: هي ملحقة بالثانية، وهي آية الأنفال. والذين قالوا: إنَّها ملحقة بآية الأنفال، اختلفوا؛ هل هي منسوخة ـ كما تقدَّم ـ أو مُحكَمة؟ وإلحاقها بشهادة الله بالتي قبلها أَوْلى؛ لأنَّ فيه تجديد فائدة ومعنى. ومعلوم أنَّ حمل الحرف من الآية ـ فضلاً عن الآية ـ على فائدة متجدِّدة أَوْلى من حمله على فائدة معادة.

وروى ابن وهب عن مالك في قوله تعالى: «فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ» هي[1] النضير، لم يكن فيها خمس، ولم يُوجف عليها بخيل ولا ركاب. كانت صافيةً لرسول الله ﷺ، فقَسَمها بين المهاجرين وثلاثة من الأنصار، حسب ما تقدَّم. وقوله: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» هي قُرَيظة، وكانت قُريظة والخندق في يوم واحد. قال ابن العربيِّ[2]: قول مالك: إنَّ الآية الثانية في بني قُريظة، إشارة إلى أنَّ معناها يعود إلى آية الأنفال، ويلحقها النسخ، وهذا أَقوى من القول بالإحكام، ونحن لا نختار إلا ما قسمنا وبيَّنَّا أنَّ الآية الثانية لها معنًى مجدَّد حسب ما دلَّلنا عليه. والله أعلم.

قلت: ما اختاره حَسَن. وقد قيل: إنَّ سورة «الحشر» نزلت بعد الأنفال، فمن المحال أن ينسخ المتقدِّمُ المتأخِّرَ[3]. وقال ابن أبي نَجيح: المال ثلاثة: مَغْنم، أوْفَيْءٌ، أو صَدَقة، وليس منه درهم إلا وقد بيَّن الله موضعه[4]. وهذا أشبه.

---

(١) في (د) و(م): بني. والمثبت من (ظ) و(خ) و(ز)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٩ - ١٧٦٠ ، والكلام منه.

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٦١ .

(٣) نواسخ القرآن لابن الجوزي ص٢٣٨ .

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٨٥ وعزاه لابن المنذر.

الثالثة: الأموال التي للأئمة والوُلاة فيها مَدْخَلٌ، ثلاثةُ أضْرُب: ما أُخِذ من المسلمين على طريق التطهير لهم، كالصدقات والزكوات. والثاني: الغنائم، وهو ما يحصُل في أيدي المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والقهر والغلبة. والثالث: الْفَيْء، وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عَفواً صفْواً من غير قتال ولا إيجاف، كالصلح والجِزية والخراج والعشور المأخوذة من تجّار الكفَّار. ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم، أو يموت أحد منهم في دار الإسلام ولا وارثَ له. فأمَّا الصدقة فمصرفها الفقراء والمساكين والعاملين عليها، حسب ما ذكره الله تعالى، وقد مضى في «براءة»[(١)]. وأمَّا الغنائم فكانت في صدر الإسلام للنبيِّ ﷺ يصنع فيها ما شاء، كما قال في سورة «الأنفال»: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ [الآية: ١]، ثم نسخ بقوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ» الآية [٤١ :من سورة الأنفال]. وقد مضى في الأنفال بيانه[(٢)].

فأما الفَيْءُ فقسمته وقسمة الخمس سواء. والأمر عند مالك فيهما إلى الإمام، فإن رأى حبسهما لنوازل تنزل بالمسلمين فَعَل، وإن رأى قسمتهما أو قسمة أحدهما، قَسَمه كلَّه بين الناس، وسوَّى فيه بين عربيِّهم ومَوْلاهم. ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يَغْنَوْا، ويعطوا ذَوُو القربى من رسول الله ﷺ من الفيء سهمهم على ما يراه الإمام، وليس له حدٌّ معلوم. واختلف في إعطاء الغنيِّ منهم؛ فأكثر الناس على إعطائه، لأنَّه حقٌّ لهم. وقال مالك: لا يُعطَى منه غير فقرائهم؛ لأنَّه جُعل لهم عِوَضاً من الصدقة[(٣)].

وقال الشافعيُّ: أيّما حصل من أموال الكفَّار من غير قتال كان يقسم في عهد النبيِّ ﷺ على خمسة وعشرين سهماً: عشرون للنبيِّ ﷺ يفعل فيها ما يشاء. والخُمس يقسم على ما يقسم عليه خُمس الغنيمة. قال أبو جعفر أحمد بن الدَّاوُديّ: وهذا قول

---

(١) ١٠/ ٢٤٤ وما بعدها.

(٢) ١٠/ ١٩ وما بعدها.

(٣) الكافي لابن عبد البر ١/ ٤٧٨ .

ما سبقه به أحدٌ علمناه، بل كان ذلك خالصاً له، كما ثبت في الصحيح عن عمر[١] مبيِّناً للآية. ولو كان هذا لكان قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] يدلُّ على أنَّه يجوِّز الموهوبةَ لغيره، وأنَّ قوله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] يجوِّز أن يشركهم فيها غيرهم. وقد مضى قول الشافعيِّ مستوعَباً في ذلك، والحمد لله. ومذهب الشافعيِّ ﷺ: أنَّ سبيل خمس الْفَيْء سبيل خمس الغنيمة، وأنَّ أربعة أخماسه كانت للنبيِّ ﷺ، وهي بعده لمصالح المسلمين. وله قول آخر: أنَّها بعده للمرصدين أنفسَهم للقتال بعده خاصة، كما تقدَّم.

الرابعة: قال علماؤنا: ويُقسم كلُّ مال في البلد الذي جُبِيَ فيه، ولا يُنقَل عن ذلك البلد الذي جُبِيَ فيه حتى يَغنَوا، ثم يُنقَل إلى الأقرب من غيرهم، إلا أن ينزل بغير البلد الذي جُبِيَ فيه فاقةٌ شديدة، فينتقل ذلك إلى أهل الفاقة حيث كانوا، كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ في أعوام الرَّمادة، وكانت خمسةَ أعوام أو ستَّة. وقد قيل: عامين. وقيل: عامٌ فيه اشتدَّ الطاعون مع الجوع. وإن لم يكن ما وصفنا، ورأى الإمام إيقافَ الْفَيْء، أوقفه لنوائب المسلمين، ويعطي منه المنفوس، ويبدأ بمن أبوه فقير. والْفَيْء حلال للأغنياء. ويسوِّي بين الناس فيه إلا أنَّه يُؤْثِر أهل الحاجة والفاقة. والتفضيل فيه إنَّما يكون على قَدْر الحاجة. ويُعطى منه الغرماء ما يؤدُّون به ديونهم. ويُعطى منه الجائزة والصلة إن كان ذلك أهلاً، ويرزق القضاة والحكام ومن فيه منفعة للمسلمين. وأوْلاهم بتوفر الحظِّ منهم أعظمهم للمسلمين نفعاً. ومن أخذ من الْفَيْء شيئاً في الديوان، كان عليه أن يغزو إذا غزى[٢].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ﴾ قراءة العامة: «يَكُونَ» بالياء. «دُولَةً» بالنصب، أي: كي لا يكون الفَيْء دُولةً[٣]. وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام ـ عن ابن

(١) سلف تخريجه عند الآية السادسة من هذه السورة.

(٢) الكافي لابن عبد البر ١/ ٤٧٨، وأعوام الرمادة كانت سنة ثمان عشرة للهجرة، وخبرها في تاريخ الطبري ٤/ ٩٦-١٠١. والمنفوس: المولود. معجم متن اللغة (نفس).

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٢٥.

عامر - وأبو حيوة: «تكون» بتاء، «دُولةٌ» بالرفع[١]، أي: كي لا تقع دُولة. فكان تامَّة. و«دُولَةٌ» رفع على اسم كان، ولا خبرَ له. ويجوز أن تكون ناقصةً، وخبرها: «بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ». وإذا كانت تامَّة فقوله: «بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» متعلِّق بـ «دُولة» على معنى: تداول بين الأغنياء منكم. ويجوز أن يكون «بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» وصفاً لـ «دُولة». وقراءة العامة: «دُولة» بضمِّ الدال. وقرأها السُّلَمِيُّ وأبو حيوة بالنصب[٢]. قال عيسى بن عمر ويونس والأصمعيُّ: هما لغتان بمعنًى واحد[٣]. وقال أبو عمرو بن العلاء: الدَّوْلَة - بالفتح - الظَّفَر في الحرب وغيره، وهي المصدر. وبالضمِّ: اسم الشيء الذي يتداول من الأموال[٤]. وكذا قال أبو عبيدة: الدُّولة: اسم الشيء الذي يُتداول. والدَّوْلة: الفعل. ومعنى الآية: فعلنا ذلك في هذا الفَيْء؛ كي لا تقسمه الرؤساء والأغنياء والأقوياء بينهم دون الفقراء والضعفاء؛ لأنَّ أهل الجاهلية كانوا إذا غنِموا، أخذ الرئيس رُبْعها لنفسه، وهو المِرْباع، ثم يصطفي منها أيضاً بعد المرْباع ما شاء[٥]، وفيها قال شاعرهم:

لك المِرْباع منها والصَّفايا[٦]

يقول: كي لا يُعمَل فيه كما كان يُعمَل في الجاهلية. فجعل الله هذا لرسوله ﷺ، يقسمه في المواضع التي أمر بها ليس فيها خمس، فإذا جاء خمس وقع بين المسلمين جميعاً.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ أي: ما

---

(١) التيسير ص٢٠٩ عن هشام، والنشر ٢/ ٣٨٦ ، والمحتسب ٢/ ١٥٤ عن أبي جعفر، وما بعده منه، ومن الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي ٢/ ٣١٦ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٤ عن السلمي.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦ عن عيسى بن عمر، والنكت والعيون ٥/ ٥٠٣ عن يونس والأصمعي.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٣ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣١٨ .

(٦) هذا صدر بيت لعبد الله بن عَنَمة الضبي، وعجزه:

وحُكْمك والنشيطة والفضول

وسلف ١٠/ ٢٤ .

أعطاكم من مال الغَنيمة فخذوه، وما نهاكم عنه من الأخذ والغُلول، فانتهوا، قاله الحسن وغيره. السُّدِّيُّ: ما أعطاكم من مال الْفَيْء، فاقبلوه، وما منعكم منه، فلا تطلبوه. وقال ابن جُريج: ما آتاكم من طاعتي فافعلوه، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه. الماوردِيُّ[1]: وقيل: إنَّه محمول على العموم في جميع أوامره ونواهيه، لا يأمر إلا بصلاح، ولا ينهى إلا عن فساد.

قلت: هذا هو معنى القول الذي قبله. فهي ثلاثة أقوال.

السابعة: قال المهدوِيُّ: قوله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» هذا يوجب أنَّ كلَّ ما أَمَرَ به النبيُّ ﷺ أَمْرٌ من الله تعالى. والآية وإن كانت في الغنائم، فجميع أوامره ﷺ ونواهيه دخل فيها. وقال الحَكَم بن عُمير ـ وكانت له صحبة ـ: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ هذا القرآنَ صَعْبٌ مُسْتَصْعَب، عسير على من تركه، يسير على من اتَّبعه وطلبه. وحديثي صعب مستصعب، وهو الحَكَم، فمن استمسك بحديثي وحَفِظَه، نجا مع القرآن، ومن تهاون بالقرآن وحديثي، خسر الدنيا والآخرة. وأُمرتم أن تأخذوا بقولي وتكتنفوا أمري وتتَّبعوا سُنَّتي، فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن، ومن استهزأ بقولي، فقد استهزأ بالقرآن، قال الله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»[2].

الثامنة: قال عبد الرحمن بن زيد: لقي ابنُ مسعود رجلاً مُحْرِماً وعليه ثيابه، فقال له: انزع عنك هذا. فقال الرجل: أتقرأ عليَّ بهذا آيةً من كتاب الله تعالى؟ قال: نعم، «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»[3].

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٥٠٤ ، وما قبله منه أيضاً، وقول الحسن أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٤٩٥ ، والطبري ٢٢/ ٥٢٢ .

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٦٣٠) مقتصراً على طرفه الأول، وفي إسناده: عيسى بن إبراهيم القرشي، وهو منكر الحديث، وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/ ٣٠٨ - ٣٠٩ وعدَّه من مناكيره.

(٣) الكشاف ٤/ ٨٢ - ٨٣ ، وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٢٣٨) عن عبد الرحمن بن يزيد، دون ذكر ابن مسعود ﷺ.

وقال عبيد الله بن محمد بن هارون الفِرْيَابِيُّ: سمعتُ الشافعيَّ ﷺ يقول: سلوني عمَّا شئتم، أُخبركم من كتاب الله تعالى وسنَّة نبيِّكم ﷺ. قال: فقلت له: ما تقولُ ـ أصلحكَ اللهُ ـ في المُحْرِمِ يقتل الزُّنْبُور؟ قال: فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا». وحدَّثنا سُفيان بن عُيَيْنَة، عن عبد الملك بن عُمير، عن رِبْعِيِّ بنِ حراش، عن حُذيفة بن اليَمَان، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللَّذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر». وحدَّثنا سفيان بن عُيينة، عن مِسْعر بن كِدَام، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ أنَّه أمر بقَتْل الزُّنْبُور[1].

قال علماؤنا: وهذا جواب في نهاية الحُسْنِ، أفتى بجواز قتل الزنبور في الإحرام، وبيَّن أنَّه يَقتدي فيه بعمر، وأنَّ النبيَّ ﷺ أَمَرَ بالاقتداء به، وأنَّ الله سبحانه أَمَرَ بقبول ما يقوله النبيُّ ﷺ، فجواز قَتْله مستنبَط من الكتاب والسنة. وقد مضى هذا المعنى من قول عكرمة حين سُئل عن أمهات الأولاد فقال: هنَّ أحرار. في سورة «النساء» عند قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [الآية: ٥٩][2].

وفي «صحيح مسلم» وغيره عن علقمة، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله الواشِماتِ والمُسْتَوْشِماتِ، والمُتَنَمِّصاتِ، والمُتَفلِّجاتِ للحُسْن، المُغيِّرَاتِ

---

(١) أخرجه بتمامه البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٢١٢ من طريق عبد الله بن وهب الدينوري، عن الفريابي، به، وهو عند أبي نعيم في الحلية ٩/ ١٠٩ -١١٠ من طريق محمد يزيد بن حكيم، قال: رأيت محمد بن إدريس الشافعي في المسجد الحرام، وقد جعلت له طنافس يجلس عليها، . فأتاه رجل من أهل خراسان فقال: يا أبا عبد الله ما تقول في أكل فرخ الزنبور؟ قال: حرام. فقال الخراساني: حرام؟! فقال: نعم، من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ والمعقول، . . . الخبر، فذكر الآية المذكورة أعلاه، وخبر الاقتداء، وخبر عمر لكن بإسناد آخر عنه. وقوله ﷺ: «اقتدوا باللَّذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر» أخرجه الترمذي (٣٦٦٢) بإسنادين، أحدهما: عن أحمد بن منيع، عن ابن عيينة، به. والآخر: عن الحسن بن الصباح، عن سفيان بن عيينة، عن زائدة، عن عبد الملك بن عمير، به. وهو عند أحمد (٢٣٢٤٥). قال الترمذي: وكان سفيان بن عيينة يُدلِّس في هذا الحديث، فربَّما ذكره عن زائدة، عن عبد الملك بن عمير، وربَّما لم يذكر فيه: عن زائدة. وقال أيضاً: هذا حديث حسن. اهـ. وبرقم (٣٦٦٣) من طريق عمرو بن هرم، عن ربعي، به.

وقول عمر أورده الشافعي في الأم ٧/ ١٩٨ ، وسلف ٨/ ١٨٣ .

(٢) ٦/ ٤٣٠ .

خَلْقَ الله» فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، فجاءت فقالت: بلغني أنَّك لعنتَ كَيْتَ وكيت! فقال: ومالِيَ لا ألعنُ مَن لَعَنَ رسولُ الله ﷺ وهو في كتاب الله! فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول؟! فقال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وَجَدْتِيه! أما قرأتِ: «وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوْهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»! قالت: بلى. قال: فإنَّه قد نهى عنه.. الحديث. وقد مضى القول فيه في «النساء» مستوفًى[١].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وإن جاء بلفظ الإيتاء: وهو المناولة، فإنَّ معناه الأمر؛ بدليل قوله تعالى: «وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»، فقابله بالنهي، ولا يُقابل النهي إلا بالأمر، والدليل على فهم ذلك ما ذكرناه قبل[٢]، مع قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا أمرتكم بأمْرٍ فَأْتُوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»[٣]. وقال الكلبيُّ: إنَّها نزلت في رؤساء المسلمين، قالوا فيما ظهر عليه رسولُ الله ﷺ من أموال المشركين: يا رسولَ الله، خُذ صَفِيَّك والرُّبع، ودعنا والباقي؛ فهكذا كنَّا نفعل في الجاهلية. وأنشدوه:

لكَ المِرْباعُ منها والصَّفايا ... وحُكْمُكَ والنَّشِيطةُ والفُضُولُ

فأنزل الله تعالى هذه الآية[٤].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: عذاب الله، إنَّه شديد لمن عصاه[٥]. وقيل: اتقوا الله في أوامره ونواهيه فلا تضيِّعوها[٦]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف ما أمره به.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٢ - ١٧٦٣ بتمامه، والحديث عند مسلم (٢١٢٥)، ولم يرد منه عبارة: قال رسول الله ﷺ. والحديث سلف ٧/ ١٤٢ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٢ .

(٣) سلف ٥/ ٢١٦ - ٢١٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٤ ، والبيت لعبد الله بن عَنَمة الضبي، وسلف ١٠/ ٢٤ .

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٤ .

(٦) الكشاف ٤/ ٨٢ .

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ⑧﴾

أي: الفَيْءُ والغنائمُ «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ». وقيل: «كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ» ولكن يكون «لِلْفُقَرَاءِ»[١]. وقيل: هو بيان لقوله: «وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ»[٢] فلما ذُكروا بأصنافهم، قيل: المال لهؤلاء؛ لأنَّهم فقراء ومهاجرون، وقد أُخرجوا من ديارهم؛ فهم أحقُّ الناس به. وقيل: «وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» للفقراء المهاجرين؛ لكيلا يكون المال دولةً للأغنياء من بني الدنيا. وقيل: والله شديد العقاب للمهاجرين؛ أي: شديد العقاب للكفَّار بسبب الفقراء المهاجرين ومن أجْلهم. ودخل في هؤلاء الفقراء المتقدِّم ذكرهم في قوله تعالى: «وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى». وقيل: هو عطف على ما مضى، ولم يأتِ بواو العطف كقولك: هذا المال لزيد لِبَكْر لفلان لفلان.

والمهاجرون هنا: من هاجر إلى النبيِّ ﷺ؛ حُبّاً فيه ونُصْرَةً له. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والأوطان، حبّاً لله ولرسوله، حتى إنَّ الرجل منهم كان يَعْصِب الحجر على بطنه؛ ليقيم به صُلبه من الجوع، وكان الرجل يتَّخذ الحَفِيرة في الشتاء ماله دِثار غيرها[٣]. وقال عبد الرحمن بن أبزى وسعيد بن جُبَير: كان ناس من المهاجرين لأحدهم العبد والزوجة والدار والناقة يحجُّ عليها ويغزو، فنسبهم الله إلى الفقْر، وجعل لهم سهماً في الزكاة[٤]. ومعنى «أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ»، أي: أخرجهم كفَّار مكَّة، أي: أحْوَجُوهم إلى الخروج، وكانوا مئةَ رجل. ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون. ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: غنيمة في الدنيا ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ في الآخرة، أي:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣٩٦/٤.

(٢) المحرر الوجيز ٢٨٦/٥.

(٣) تفسير البغوي ٣١٨/٤، وأخرجه عنه الطبري ٥٢٣/٢٢.

(٤) أخرجه الطبري ٥٢٣/٢٢ عن سعيد بن جبير وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزى.

مرضاة ربِّهم. ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في الجهاد في سبيل الله. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في فعلهم ذلك. ورُوِيَ أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ خطب بالجابية فقال: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأتِ أُبَيَّ بنَ كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأتِ زيدَ بنَ ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأتِ معاذَ بنَ جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني؛ فإنَّ الله تعالى جعلني له خازناً وقاسماً. ألَا وإنِّي بادٍ بأزواج النبيِّ ﷺ فمعطيهنَّ، ثم بالمهاجرين الأوَّلين؛ أنا وأصحابي أُخْرِجنا من مكَّة من ديارنا وأموالنا[1].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ لا خلاف أنَّ الذين تبوَّؤوا الدار هم الأنصار الذين استوطنوا المدينة قبل المهاجرين إليها[2]. «وَالْإِيمَانَ» نصب بفعل غير تبوَّأ؛ لأنَّ التبوُّءَ إنَّما يكون في الأماكن. و﴿مِن قَبْلِهِم﴾ «مِنْ» صلة تبوَّأ، والمعنى: والذين تبوَّؤوا الدار من قبل المهاجرين، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه؛ لأنَّ الإيمان ليس بمكان يتبوَّأ، كقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] أي: وادعوا شركاءكم؛ ذكره أبو عليٍّ والزمخشري[3] وغيرهما. ويكون من باب قوله:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٠٥ وعزاه إلى علي بن رباح اللخمي، وأخرجه عنه أبو عبيد في الأموال (٥٤٨). وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٣٧٩٥) من طريق عكرمة، عن ابن عباس، بنحوه. وقال: لم يروِ هذا الحديث عن داود بن الحصين إلا ابنه سليمان، تفرَّد به عبد الله بن محمد بن عمارة الأنصاري. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٣٥: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله موثقون.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١٩.

(٣) في الكشاف ٤/ ٨٣، وما بعده منه أيضاً.

عَــلَـفْـتُــهَــا تِــبْــنــاً ومــاءً بــارداً[١]

ويجوز حمله على حذف المضاف، كأنه قال: تبوَّؤوا الدارَ ومواضعَ الإيمان. ويجوز حمله على ما دلَّ عليه تبوَّأ، كأنَّه قال: لزموا الدارَ ولزموا الإيمانَ، فلم يفارقوهما. ويجوز أن يكون تبوَّأ الإيمان على طريق المَثَل، كما تقول: تبوَّأ من بني فلان الصميم[٢]. والتبوُّء: التمكُّن والاستقرار. وليس يريد أنَّ الأنصار آمنوا قبل المهاجرين، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبيِّ ﷺ إليهم.

الثانية: واختلف أيضاً هل هذه الآية مقطوعة مما قبلها، أو معطوفة؟ فتأوَّل قوم أنَّها معطوفة على قوله: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» وأنَّ الآياتِ التي في الحَشْر كلَّها معطوفة بعضها على بعض. ولو تأمَّلوا ذلك وأنصفوا، لوجدوه على خلاف ما ذهبوا إليه؛ لأنَّ الله تعالى يقول: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا» إلى قوله: «الْفَاسِقِينَ» فأخبر عن بني النَّضِير وبني قَيْنُقاع. ثم قال: «وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» فأخبر أنَّ ذلك للرسول ﷺ؛ لأنَّه لم يُوجف عليه حين خَلُّوه. وما تقدَّم فيهم من القتال وقَطْع شجرهم، فقد كانوا رجعوا عنه، وانقطع ذلك الأمر. ثم قال: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ» وهذا كلام غيرُ معطوف على الأوَّل. وكذا: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ» ابتداءُ كلام في مدح الأنصار والثناء عليهم؛ فإنَّهم سلَّموا ذلك الْفَيْءَ للمهاجرين؛ وكأنَّه قال: الفيء للفقراء المهاجرين، والأنصار يُحبُّون لهم، لم يحسدوهم على ما صَفَا لهم من الْفَيْء. وكذا «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» ابتداءُ كلام، والخبر: «يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا».

وقال إسماعيل بن إسحاق: إنَّ قوله: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ»، «وَالَّذِينَ جَاءُوا»

(١) سلف ١/ ٢٩١ .

(٢) قال المبرِّد في الكامل ٣/ ١٠٩٣ : الصميم: الخالص من كل شيء، يقال: فلان من صميم قومه، أي: من خالصهم.

معطوف على ما قبلُ، وأنَّهم شركاء في الفيء، أي: هذا المال للمهاجرين والذين تبوَّؤوا الدار.

وقال مالك بن أوْس: قرأ عمر بن الخطاب ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠] فقال: هذه لهؤلاء. ثم قرأ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١] فقال: هذه لهؤلاء. ثم قرأ: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ» حتى بلغ: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ»، «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ»، «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» ثم قال: لئن عشتُ ليأتينَّ الراعِيَ وهو بسَرْوِ حِمْيَر نصيبُه منها لم يَعْرَق فيها جبينه[١].

وقيل: إنَّه دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتحَ الله عليه من ذلك، وقال لهم: تثبَّتوا الأمر وتدبَّروه، ثم اغدوا عليَّ. ففكَّر في ليلته فتبيَّن له أنَّ هذه الآيات في ذلك أُنزلت. فلما غدَوْا عليه قال: قد مررت البارحةَ بالآيات التي في سورة «الحشر» وتلا: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» إلى قوله: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» فلما بلغ قوله: «أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» قال: ما هي لهؤلاءِ فقط. وتلا قوله: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» إلى قوله: «رَؤُوفٌ رَحِيمٌ». ثم قال: ما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل في ذلك. والله أعلم.

الثالثة: روى مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنَّ عمر قال: لولا من يأتي من آخِرِ الناس ما فُتحت قريةٌ إلا قسمتها، كما قسم رسولُ الله ﷺ خَيْبر[٢]. وفي الروايات المستفيضة من الطرق الكثيرة: أنَّ عمر أَبقى سوادَ العراق ومصر وما ظهر عليه من الغنائم[٣]؛ لتكونَ من أُعطِيات المقاتلة وأرزاق الحِشْوة والذَّراري، وأنَّ الزبير وبِلالاً

(١) أخرجه بهذا اللفظ عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٤، وأبو عبيد في الأموال (٥٢٦)، وهو عند البخاري (٤٠٣٣)، ومسلم (١٧٥٧) مطولاً بنحوه. قال أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٢٦٧ عن أبي عمرو: السرو: ما انحدر من حزونة الجبل، وارتفع عن منحدر الوادي، فما بينهما سرو.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٣٤) من طريق عبد الرحمن، عن مالك، به، وهو عند أحمد (٢٨٤)، ومن طريقه أبو داود (٣٠٢٠) وسلف ١٠/ ٩.

(٣) الأوسط لابن المنذر ١١/ ٤٤ - ٤٥، ومختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣/ ٤٩٥. والسواد: جماعة النخل والشجر؛ لخضرته واسوداده، والسواد: ما حوالي الكوافة من القرى والرساتيق. اللسان (سود).

وغيرَ واحد من الصحابة أرادوه على قَسْمِ ما فتح عليهم، فكره ذلك منهم، واختلف فيما فعل من ذلك، فقيل: إنَّه استطاب أنفس أهل الجيش؛ فمن رضيَ له بترك حَظّه بغير ثمن ليُبْقِيَه للمسلمين قلَّةٌ. ومن أبى، أعطاه ثمن حظِّه[١]. فمن قال: إنَّما أبقى الأرض بعد استطابة أنفس القوم، جعل فعله كفعل النبيِّ ﷺ؛ لأنَّه قسم خَيْبر؛ لأنَّ اشتراءه إيَّاها وترك من ترك عن طيب نفسه، بمنزلة قسمها. وقيل: إنَّه أبقاها بغير شيء أَعطاه أهل الجيوش. وقيل: إنَّه تأوّل في ذلك قول الله سبحانه وتعالى: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» إلى قوله: «رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» على ما تقدّم[٢]. والله أعلم.

الرابعة: واختلف العلماء في قسمة العَقار؛ فقال مالك: للإمام أن يوقفها لمصالح المسلمين. وقال أبو حنيفة: الإمام مخيَّر بين أن يقسمها أو يجعلها وَقْفاً لمصالح المسلمين. وقال الشافعيُّ: ليس للإمام حبسها عنهم بغير رضاهم، بل يقسمها عليهم، كسائر الأموال. فمن طاب نفساً عن حقِّه للإمام أن يجعله وقْفاً عليهم، فله. ومن لم تَطِب نفسُه، فهو أحقُّ بماله[٣]. وعمر ﷺ استطاب نفوس الغانمين واشتراها منهم[٤].

قلت: وعلى هذا يكون قوله: «والَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» مقطوعاً مما قبله، وأنَّهم نُدبوا بالدعاء للأوَّلين والثناء عليهم.

الخامسة: قال ابن وهب: سمعت مالكاً يذكر فَضْلَ المدينة على غيرها من الآفاق فقال: إنَّ المدينة تُبُوِّئت بالإيمان والهجرة، وإنَّ غيرها من القُرَى افتُتِحت بالسيف، ثم قرأ: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ» الآية[٥]. وقد مضى الكلام في هذا، وفي فَضْلِ الصلاة في المسجدين: المسجد

---

(١) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤٠٧ بنحوه.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤٣٣ بنحوه.

(٣) التمهيد ٦/ ٤٥٨ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٣ .

(٥) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤٠٧ .

الحرام ومسجد المدينة، فلا معنى للإعادة[(١)].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ يعني لا يحسدون المهاجرين على ما خُصُّوا به من مال الفَيْء وغيره، كذلك قال الناس[(٢)]. وفيه تقدير حذف مضافين؛ المعنى: مَسَّ حاجةٍ مِن فَقْدِ ما أوتوا. وكلُّ ما يجد الإنسان في صدره مما يحتاج إلى إزالته فهو حاجة. وكان المهاجرون في دُوْرِ الأنصار، فلما غَنم عليه الصلاة والسلام أموال بني النَّضير، دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إيَّاهم في منازلهم، وإشراكهم في أموالهم. ثم قال: «إن أحببتم قسمتُ ما أفاء الله عليَّ من بني النَّضِير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُّكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم». فقال سعد بن عُبَادة وسعد بن معاذ: بل تقسمه بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا. ونادت الأنصار: رضينا وسَلَّمنا يا رسولَ الله. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارحم الأنصار وأبناءَ الأنصار». وأَعطى رسول الله ﷺ المهاجرين، ولم يُعْطِ الأنصارَ شيئاً إلا الثلاثة الذين ذكرناهم[(٣)]. ويحتمل أن يريد به: «وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا» إذا كان قليلاً [بل] يقنعون به، ويرضَوْن عنه. وقد كانوا على هذه الحالة حين حياة النبيِّ ﷺ دُنْيَا، ثم كانوا عليه بعد موته ﷺ بحكم الدنيا. وقد أنذرهم النبيُّ ﷺ وقال: «سترون بعدي أَثَرَة، فاصبروا حتى تلقوْني على الحوض»[(٤)].

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ في الترمذيّ عن أبي هريرة: أنَّ رجلاً بات به ضيفٌ، فلم يكن عنده إلا قوتُه وقوتُ صبيانه؛ فقال

---

(١) ٨/ ١٨٨ و١٢/ ١٥١ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٣ .

(٣) أخرجه الواقدي في المغازي ١/ ٣٧٨ - ٣٧٩ عن أم العلاء رضي الله عنها، وسلف ذكر الثلاثة ص٣٤٦ من هذا الجزء.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٣ - ١٧٦٤ وما بين حاصرتين منه، والحديث سلف ١١/ ٦١ .

لامرأته: نَوِّمي الصِّبيةَ، وأَطفئي السراج، وقَرِّبي للضيف ما عندك، فنزلت هذه الآية: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ». قال: هذا حديث حسن صحيح. خرَّجه مسلم أيضاً(١).

وخرَّج عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنِّي مجهود. فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحقِّ ما عندي إلا ماءٌ. ثم أرسل إلى الأُخرى فقالت مثل ذلك، حتى قُلْنَ كلُّهنَّ مثلَ ذلك: لا، والذي بعثكَ بالحقِّ ما عندي إلا ماءٌ. فقال: «مَن يُضيف هذا الليلةَ رحمه الله»؟. فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فانْطَلَق به إلى رَحْلِه، فقال لامرأته: هل عندكِ شيءٌ؟ قالت: لا، إلا قوتُ صِبياني. قال: فعلِّليهم بشيء، فإذا دخل ضيفُنا، فأطفئي السِّراج وأَرِيه أنَّا نأكل، فإذا أهوى ليأكل، فقومي إلى السراج حتى تُطفئيه. قال: فقعدوا وأَكَلَ الضيف. فلما أصبح غدَا على النبيِّ ﷺ فقال: «قد عَجِبَ اللهُ من صنيعكما بضيفكما الليلة»(٢).

وفي رواية عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ليُضيفه، فلم يكن عنده ما يُضيفُه. فقال: «ألا رَجُلٌ يُضيفُ هذا رحمه الله»؟ فقام رجل من الأنصار يقال له: أبو طلحة. فانطلق به إلى رحله، وساق الحديث بنحو الذي قبله، وذكر فيه نزولَ الآية(٣).

وذكر المهدويُّ عن أبي هريرة أنَّ هذا نزل في ثابت بنِ قيس ورجلٍ من الأنصار ـ نزل به ثابت ـ يقال له: أبو المتوكِّل، فلم يكن عند أبي المتوكِّل إلا قوته وقوت صِبيانه، فقال لامرأته: أطفئي السراج ونوِّمي الصبيةَ؛ وقَدَّم ما كان عنده إلى ضيفه. وكذا ذكر النحَّاس قال: قال أبو هريرة: نزل برجل من الأنصار ـ يقال له: أبو المتوكِّل ـ ثابت بن قيس ضيفاً، ولم يكن عنده إلا قوته وقوت صِبيانه، فقال لامرأته:

(١) الترمذي (٣٣٠٤)، ومسلم (٢٠٥٤): (١٧٣).
(٢) مسلم (٢٠٥٤)، وهو عند البخاري (٤٨٨٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٤٥ - ٤٤٦ بنحوه.
(٣) مسلم (٢٠٥٤): (...).

أطفئي السراج ونوّمي الصبية؛ فنزلت: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» إلى قوله: «فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». وقيل: إنَّ فاعل ذلك أبو طلحة[١]. وذكر القشيريُّ أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم: وقال ابن عمر: أُهديَ لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأسُ شاة فقال: إنَّ أخي فلاناً وعياله أحوجُ إلى هذا منَّا، فبعثه إليهم، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعةُ أبيات، حتى رجعت إلى أولئك؛ فنزلت: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ»[٢]. ذكره الثعلبيُّ عن أنس قال: أُهْدِيَ لرجل من الصحابة رأسُ شاة ـ وكان مجهوداً ـ فوجَّه به إلى جارٍ له، فتداولته سبعةُ أنفس في سبعة أبيات، ثم عاد إلى الأوَّل، فنزلت: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ» الآية[٣].

وقال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ للأنصار يوم بني النَّضير: «إن شئتم قسمت للمهاجرين من دياركم وأموالكم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يقسم لكم من الغنيمة شيئاً» فقالت الأنصار: بل نقسم لإخواننا من ديارنا وأموالنا، ونؤثرهم بالغنيمة، فنزلت: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ» الآية[٤]. والأوَّل أصحُّ[٥].

وفي «الصحيحين» عن أنس: أنَّ الرجل كان يجعل للنبيِّ ﷺ النخلات من أرضه حتى فُتحت عليه قُرَيْظة والنَّضِير، فجعل بعد ذلك يردُّ عليه ما كان أعطاه. لفظ مسلم[٦]. وقال الزُّهريُّ عن أنس بن مالك: لما قدم المهاجرون ـ من مكَّةَ ـ المدينةَ، قَدِموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهلَ الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٧ بنحوه، وسلف ذكر أبي طلحة في حديث مسلم (٢٠٥٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٨٣ - ٤٨٤ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٧٩). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: فيه عبيد الله بن الوليد ضعَّفوه.

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٢١٤ بنحوه، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٤٤٦ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٠ ، وزاد المسير ٨/ ٢١٤ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٤ .

(٦) برقم (١٧٧١)، والبخاري (٣١٢٨).

على أن أعطوهم أنصافَ ثمار أموالهم كلَّ عام، ويكفُونهم العملَ والمؤونة، وكانت أمُّ أنس بن مالك تُدْعَى بأمِّ سُلَيم، وكانت أمَّ عبدِ الله بن أبي طلحة، كان أخاً لأنَسٍ لأمِّه، وكانت أعطت أمُّ أنَسٍ رسولَ الله ﷺ عِذاقاً لها، فأعطاها رسول الله ﷺ أمَّ أيْمَنَ مَوْلَاتَه، أمَّ أسامة بنِ زيد. قال ابنُ شهاب: فأخبرني أنس بن مالك: أنَّ رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خَيْبَر وانصرف إلى المدينة، ردَّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا مَنَحُوهم من ثمارهم. قال: فردَّ رسول الله ﷺ إلى أمِّي عِذاقها، وأعطى رسولُ الله ﷺ أمَّ أيْمَن مكانهنَّ من حائطه. خرَّجه مسلم أيضاً[١].

الثامنة: الإيثار: هو تقديم الغير على النفس وحظوظِها الدنياوية، رغبةً في الحظوظ الدينية. وذلك ينشأ عن قوَّة اليقين، وتوكيد المحبَّة، والصبر على المشقَّة[٢]. يقال: آثرته بكذا، أي: خصصته به وفضَّلته[٣]. ومفعول الإيثار محذوف، أي: يؤثرونهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم، لا عن غِنًى، بل مع احتياجهم إليها[٤]، حسب ما تقدَّم بيانه.

وفي «موطأ مالك»: أنَّه بلغه عن عائشة زوج النبيِّ ﷺ، أنَّ مسكيناً سألها وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أَعطيه إيَّاه. فقالت: ليس لكِ ما تُفطِرين عليه؟ فقالت: أعطيه إيَّاه. قالت: ففعلت. قالت: فلما أمسينا أهْدَى لنا أهلُ بيت، أو إنسانٌ، ما كان يُهدى لنا: شاةً وكَفَنَها. فدعتني عائشة فقالت: كُلِي من هذا، فهذا خير من قُرْصك[٥].

قال علماؤنا: هذا من المال الرابح، والفعل الزاكي عند الله تعالى، يعجِّل منه

(١) برقم (١٧٧١)، وهو عند البخاري (٢٦٣٠)، وعذاقاً: جميع عَذق، وهي النخلة، والمنيحة: المنحة. النهاية (عذق) و(منح).
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٥ .
(٣) اللسان (أثر).
(٤) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٧ .
(٥) الموطأ ٢/ ٩٩٧ ، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٣٤٨٢).

ما يشاء، ولا ينقص ذلك مما يدَّخر عنه. ومن تَرَكَ شيئاً لله، لم يجد فَقْدَه. وعائشة رضي الله عنها في فعلها هذا من الذين أثنى الله عليهم بأنَّهم يؤثرون على أنفسهم مع ما هم فيه من الخصاصة، وأنَّ من فعل ذلك، فقد وقي شُحَّ نفسِه، وأفلح فلاحاً لا خسارةَ بعده. ومعنى: شاةٌ وكَفَنَها: فإنَّ العرب ـ أو بعض العرب، أو بعض وجوههم ـ كان هذا من طعامهم، يأتون إلى الشاة أو الخروف إذا سلخوه غَطَّوْه كلَّه بعجِينِ البُرِّ، وكفنُوه به، ثم عَلَّقوه في التَّنُّور، فلا يخرج من وَدَكِه شيء إلا في ذلك الكفن؛ وذلك من طيِّب الطعام عندهم(١).

وروى النسائيُّ عن نافع أنَّ ابن عمر اشتكى واشتهى عِنَباً، فاشْتُرِي له عنقود بدرهم، فجاء مسكين فسأل، فقال: أَعطوه إيَّاه. فخالف إنسانٌ، فاشتراه بدرهم، ثم جاء به إلى ابن عمر، فجاء المسكينُ فسأل، فقال: أَعطوه إيَّاه. ثم خالف إنسانٌ، فاشتراه بدرهم، ثم جاء به إليه، فأراد السائل أن يرجع، فمنع. ولو علم ابنُ عمر أنَّه ذلك العنقود ما ذاقه(٢)؛ لأنَّ ما خرج للهِ لا يعود فيه.

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا محمد بن مطرِّف قال: حدَّثنا أبو حازم، عن عبد الرحمن بن سعيد بن يَرْبُوع، عن مالك الدار: أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ أخذ أربع مئة دينار، فجعلها في صُرَّة ثم قال للغلام: اذهب بها إلى أبي عُبيدة بنِ الجرَّاح، ثم تَلَكَّأْ

(١) الاستذكار ٢٧/ ٤٠٦ - ٤٠٧ ، ووقع في مطبوعه: وأفلح فلا حاجة لإحسان بعده. بدل: وأفلح فلاحاً لا خسارة بعده. والوَدَك: دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه. اللسان (ودك).

(٢) لم نقف عليه عند النسائي في المجتبى والكبرى، وأخرجه ابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/ ٤٠٧ من طريق القيروان، عن أحمد بن شعيب النسائي، عن الحسن بن الحسن المروذي، والطبراني في الكبير (١٣٠٦٧)، ـ ومن طريقه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٢٩٧ ـ من طريق نعيم بن حماد، كلاهما عن ابن المبارك، عن عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر، عن نافع، به.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٤٧: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، غير نعيم بن حماد، وهو ثقة. اهـ.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٩٧ من طريق خبيب بن عبد الرحمن، عن نافع، أن ابن عمر اشتهى عنباً... بنحوه.

ساعةً في البيت حتى تنظرَ ماذا يصنع بها. فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: وَصَلَه الله ورَحمه، ثم قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفدها. فرجع الغلام إلى عمر، فأخبره، فوجده قد أعدَّ مثلها لمعاذ بن جبل، وقال: اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل، وتَلَكّأْ في البيت ساعةً حتى تنظرَ ماذا يصنع، فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: رحمه الله ووَصَله، وقال: يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، وبيت فلان بكذا، فاطَّلعت امرأةُ معاذ فقالت: ونحن! واللهِ مساكين، فأعطنا. ولم يَبْقَ في الخرقة إلا ديناران فدحا[1] بهما إليها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسُرَّ بذلك عمر وقال: إنَّهم إخوة! بعضهم من بعض[2]. ونحوه عن عائشة رضي الله عنها في إعطاء معاوية إيَّاها، وكان عشرة آلاف، وكان المُنْكَدِر دخل عليها[3].

فإن قيل: وردت أخبار صحيحة في النهي عن التصدُّق بجميع ما يملكه المرء، قيل له: إنَّما كره ذلك في حقِّ من لا يُوثَق منه الصبر على الفقر، وخاف أن يتعرَّض للمسألة إذا فقد ما ينفقه. فأمَّا الأنصار الذين أثنى الله عليهم بالإيثار على أنفسهم، فلم يكونوا بهذه الصفة، بل كانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

---

(١) في (م): قد جاء. والمثبت من النسخ الخطية ومصادر التخريج، ودحا: رمى وألقى. اللسان (دحا).

(٢) الزهد لابن المبارك (٥١١) ـ ومن طريقه أخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ٢٠/ ٣٣ (٤٦)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٧ ـ عن محمد بن مطرِّف، به. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير، ومالك الدار: لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ.

وقوله: تلكَّأْ. في الموضعين، وقعت عند ابن المبارك والطبراني: تلهَّ. وعند أبي نعيم وقعت في الموضع الأول: تلبَّث، وفي الموضع الثاني: وتلهَّ. قال ابن الأثير في النهاية (لها): وحديث عمر أنه بعث إلى أبي عبيدة بمال في صرَّة، وقال للغلام: اذهب بها إليه، ثم تلهَّ ساعة في البيت... أي: تشاغل وتعلَّل.

(٣) بعدها في (د)و(ظ) بياض، والخبر أخرجه ابن سعد في الطبقات ٥/ ٢٨ .

وكان الإيثار فيهم أفضلَ من الإمساك. والإمساك لمن لا يصبر ويتعرَّض للمسألة أَولى من الإيثار[١]. وروي أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ ﷺ بمثل البيضة من الذهب فقال: هذه صدقة، فرماه بها وقال: «يأتي أحدكم بجميع ما يملكه فيتصدَّق به، ثم يقعد يتكفَّف الناس»[٢]، والله أعلم.

التاسعة: والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال، وإن عاد إلى النفس. ومن الأمثال السائرة:

والجُودُ بالنَّفْس أقصَى غاية الجُودِ[٣]

ومن عبارات الصوفية الرشيقة في حدِّ المحبة: أنَّها الإيثار، ألا ترى أنَّ امرأة العزيز لمَّا تناهت في حُبِّها ليوسف عليه السلام، آثرته على نفسها فقالت: ﴿أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١] وأفضل الجودِ بالنفس الجودُ على حماية رسول الله ﷺ، ففي الصحيح: أنَّ أبا طَلْحة تَرَّس على النبيِّ ﷺ يوم أُحُد، وكان النبيُّ ﷺ يتطلَّع ليرى القوم. فيقول له أبو طلحة: لا تُشرِف يا رسولَ الله! لا يصيبونك! نَحْرِي دون نَحْرِك! ووَقَى بيده رسولَ الله ﷺ، فشُلَّت[٤].

وقال حُذيفة العدوِيُّ: انطلقتُ يوم اليَرْمُوك أطلب ابنَ عمٍّ لي ـ ومعي شيء من الماء ـ وأنا أقول: إن كان به رَمقٌ سقيتُه، فإذا أنا به، فقلت له: أَسقيك؟ فأشار برأسه أنْ نَعم، فإذا أنا برجل يقول: آه! آه! فأشار إليَّ ابنُ عمِّي أن أنطلق إليه، فإذا هو هشام

(١) أحكام القرآن للهراسي ٤/٤٠٨ .

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٣) و(١٦٧٤)، وابن حبان في صحيحه (٣٣٧٢) واللفظ له. وفي إسناده: محمد ابن إسحاق، وهو مدلِّس، ولم يصرِّح بالتحديث.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٦٥ ، وما بعده منه أيضاً، والمثل عجز بيت لمسلم بن الوليد، ذكره العسكري في جمهرة الأمثال ١/٩٥، وصدره:

يجود بالنفس إذ ضنَّ الجواد بها

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٦٥ ، والخبر أخرجه البخاري (٣٨١١)، ومسلم (١٨١١)، وأحمد (١٢٠٢٤) عن أنس ﷺ.

ابن العاص فقلت: أسقيكَ؟ فأشار أنْ نعم. فسمع آخر يقول: آه! آه! فأشار هشام أن أنطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات. فرجعت إلى ابن عمِّي فإذا هو قد مات. وقال أبو يزيد البِسْطَامِيُّ: ما غَلَبني أحد ما غَلَبني شابٌّ من أهل بَلْخ! قدِم علينا حاجّاً، فقال لي: يا أبا يزيد، ما حدُّ الزهد عندكم؟ فقلت: إنْ وَجَدْنا أَكَلْنا. وإن فقدنا صَبَرْنَا. فقال: هكذا كلاب بَلْخ عندنا. فقلت: وما حَدُّ الزهد عندكم؟ قال: إن فَقَدْنا شكرنا، وإن وَجَدْنا آثرنا[١].

وسُئل ذو النُّون المصريُّ: ما حَدُّ الزاهد المنشرح صدره؟ قال: ثلاث: تفريق المجموع، وتَرْك طلب المفقود، والإيثار عند القوت. وحكي عن أبي الحسن الأنطاكيِّ: أنَّه اجتمع عنده نيِّف وثلاثون رجلاً بقرية من قُرَى الرِّيِّ، ومعهم أرغفة معدودة لا تُشبع جميعَهم، فكسروا الرغفان، وأطفؤوا السراج، وجلسوا للطعام؛ فلما رفُع، فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئاً؛ إيثاراً لصاحبه على نفسه.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الخصاصة: الحاجة التي تختلُّ بها الحال. وأصلها من الاختصاص، وهو انفراد بالأمر. فالخصاصة: الانفراد بالحاجة؛ أي: ولو كان بهم فاقة وحاجة. ومنه قول الشاعر:

أمَّا الربيع إذا تكون خصاصةٌ عاش السقيم به وأَثْرَى الْمُقْتِرُ[٢]

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الشُّحُّ والبُخْلُ سواء[٣]، يقال: رجل شحيح: بَيِّن الشُّحِّ والشَّحِّ والشَّحاحة[٤]. قال عمرو ابن كلثوم:

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٢٨٧ - ٢٨٨، وفيه: صبرنا، بدل: شكرنا.

(٢) لم نقف على قائله.

(٣) النكت والعيون ٥/٥٠٧.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/٥٢٩.

تـرى الـلَّـحِـزَ الـشَّـحـيـحَ إذا أُمِـرَّتْ   عـلـيـه لِـمـالِـه فـيـهـا مُـهِـيـنـا[١]

وجعل بعض أهل اللغة الشُّحَّ أشدَّ من البخل. وفي «الصحاح»[٢]: الشُّحُّ: البخلُ مع حِرص، تقول: شَحِحْتَ ـ بالكسر ـ تَشَحُّ. وشَحَحْتَ أيضاً تَشُحُّ وتَشِحُّ. ورجل شَحيح، وقومٌ شِحاح و أشِحَّة.

والمراد بالآية: الشُّحُّ بالزكاة وما ليس بفرض، من صلة ذوي الأرحام والضيافة، وما شاكل ذلك. فليس بشحيح ولا بخيل من أنفق في ذلك، وإن أمسك عن نفسه. ومن وَسَّع على نفسه ولم ينفق فيما ذكرناه من الزكوات والطاعات، فلم يُوقَ شُحَّ نفسه.

وروى الأسْوَد عن ابن مسعود أنَّ رجلاً أتاه فقال له: إنِّي أخاف أن أكون قد هَلكتُ؟ قال: وما ذاك؟ قال: سمعتُ الله عَزَّ وجلَّ يقول: «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» وأنا رجل شحيح لاأكادُ أن أُخرِجَ من يدي شيئاً. فقال ابن مسعود: ليس ذلك بالشُّحِّ الذي ذكره الله تعالى في القرآن، إنَّما الشُّحُّ الذي ذكره الله تعالى في القرآن أن تأكل مالَ أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل، وبئس الشَّيء البخل[٣]. ففرَّق ﷺ بين الشُّحِّ والبخل.

وقال طاوس: البخل: أن يبخلَ الإنسان بما في يده، والشُّحُّ: أن يَشِحَّ بما في أيدي الناس، يحب أن يكون له ما في أيديهم بالحِلِّ والحرام، لا يقنع. ابن جبير: الشُّحُّ: منع الزكاة وادِّخار الحرام. ابن عُيَيْنَة: الشُّحُّ: الظلم. الليث: ترك الفرائض، وانتهاك المحارم. ابن عباس: من اتَّبع هواه ولم يقبل الإيمان، فذلك الشحيح[٤].

---

(١) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح أبي الحسن بن كيسان ص٤٦ ، قال شارحه: اللَّحِز: الضَّيِّق الخُلُق. وأُمِرَّت: أُديرت عليه. والمعنى: فإذا كُرِّرت عليه الخمر اتسعَ صدره، وأنفق ماله.

(٢) مادة (شحح).

(٣) النكت والعيون ٥/٥٠٦ -٥٠٧ ، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ٩/٩٨ ، والطبري ٢٢/٥٢٩ - ٥٣٠ ، والحاكم ٢/٤٩٠ من طرق، عن الأسود بن هلال، به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: على شرط مسلم.

(٤) النكت والعيون ٥/٥٠٦ - ٥٠٧ .

ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً [لشيء] نهاه الله عنه، ولم يَدْعُه الشُّحُّ [على أن يمنع شيئاً من شيء] أمره الله به، فقد وقاه الله شُحَّ نفسه(١).

وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «بَرِئَ من الشُّحِّ من أدَّى الزكاة، وقَرَى الضيف، وأعطى في النائبة»(٢). وعنه أنَّ النبيَّ ﷺ كان يدعو: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذ بِكَ من شُحِّ نفسي وإسرافها ووساوسها»(٣).

وقال أبو الهَيَّاج الأسدي: رأيت رجلاً في الطّواف يدعو: اللهمَّ قِنِي شُحَّ نفسي. لا يزيد على ذلك شيئاً، فقلت له؟ فقال: إذا وُقِيتُ شُحَّ نفسي لم أسرق، ولم أزْنِ، ولم أفعل. فإذا الرجل عبد الرحمن بن عَوْف(٤).

قلت: يدلُّ على هذا قوله ﷺ: «اتَّقوا الظلم، فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلك من كان قَبلكم، حملهم على أن سَفَكوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم». وقد بيَّنّاه في آخر «آل عمران»(٥). وقال كِسرى لأصحابه: أيُّ شيء أضرُّ بابن آدم؟ قالوا: الفقر. فقال كِسرى: الشُّحُّ أضرُّ من الفقر؛ لأنَّ الفقير إذا وجد شبع، والشحيح إذا وجد لم يشبع أبداً(٦).

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٨، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣١ - ٥٣٢، وما بين حاصرتين منهما ومن (م).

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٣٠ - ٥٣١، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٤٢) من طريق محمد بن إسحاق، عن سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، عن إسماعيل بن عياش، عن مجمع بن جارية، عن عمه، عن أنس، به. ومحمد بن إسحاق هو: ابن عمرو بن عمر بن عمران أبو الحسن القرشي المؤذّن المعروف بابن الحريص، ختن هشام بن عمار. ذكره ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٥٢/ ٢٦ ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، وقد توفي سنة (٢٢٨هـ).

وأخرجه أيضاً هناد في الزهد (١٠٦٠)، والطبراني في الكبير (٤٠٩٧)، وابن حبان في الثقات ٤/ ٢٠٢ من طريق مجمع بن يحيى، عن عمِّه خالد بن زيد، مرسلاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٦٨: رواهما الطبراني في الكبير، وفيه: إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، وهو ضعيف. اهـ. وحسَّن إسناده ابن حجر في الإصابة ٣/ ٥٨.

(٣) أورده الديلمي في الفردوس ١/ ٤٦٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٣٠، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤١/ ٢٨٣.

(٥) ٥/ ٤٤١، وسلف تخريج الحديث ثمة.

(٦) روضة العقلاء لابن حبان ص٢٣٨.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ يعني التابعين ومن دخل في الإسلام إلى يوم القيامة(١). قال ابن أبي ليلى: الناس على ثلاثة منازل: المهاجرون، والذين تبوَّؤوا الدار والإيمان، والذين جاؤوا من بعدهم. فاجْهَدْ ألَّا تخرج من هذه المنازل(٢).

وقال بعضهم: كن شَمْساً، فإن لم تستطع فكن قَمَراً، فإن لم تستطع فكن كَوْكباً مضيئاً، فإن لم تستطع فكن كوكباً صغيراً، ومن جهة النور لا تَنقطِع. ومعنى هذا: كن مهاجريّاً. فإن قلت: لا أجد، فكن أنصارِيّاً. فإن لم تجد فاعمل كأعمالهم، فإن لم تستطع فأحبَّهم واستغفر لهم كما أمَرَك الله. وروى مصعب بن سعد قال: الناس على ثلاثة منازل، فمضت منزلتان وبقِيت منزلة، فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت(٣).

وعن جعفر بن محمد بن علي، عن أبيه، عن جدِّه عليِّ بنِ الحسين ﷺ، أنَّه جاءه رجل فقال له: يابنَ بنتِ رسول الله ﷺ، ما تقول في عثمان؟ فقال له: يا أخي أنت من قوم قال الله فيهم: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» الآية؟ قال: لا. قال: فواللهِ لئن لم تكن من أهل الآية فأنت من قوم قال الله فيهم: «والَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ» الآية؟ قال: لا. قال: فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجنَّ من الإسلام! وهي قوله تعالى: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٦٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/٣٢١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣٣ ، وابن أبي حاتم في التفسير ٦/١٨٦٨ (١٠٣٠٣).

(٣) النكت والعيون ٥/٥٠٧ .

﴿بِالْإِيمَانِ﴾ الآية. وقد قيل: إنَّ محمد بن علي بن الحسين ﷺ، روى عن أبيه: أنَّ نفراً من أهل العِراق جاؤوا إليه، فسبُّوا أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ثم عثمان ـ ﷺ ـ فأكثروا، فقال لهم: أمِنَ المهاجرين الأوَّلين أنتم؟ قالوا: لا. فقال: أفمن الذين تبوَّؤوا الدار والإيمان من قبلهم؟ فقالوا: لا. فقال: قد تبرَّأتم من هذين الفريقين! أنا أشهد أنَّكم لستم من الذين قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا للذين آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قوموا، فعل الله بكم وفعل!! ذكره النحَّاس[(١)].

الثانية: هذه الآية دليل على وجوب محبَّة الصحابة؛ لأنَّه جعل لمن بعدهم حظّاً في الفَيْء ما أقاموا على محبَّتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وأنَّ مَن سبَّهم أو واحداً منهم أو اعتقد فيه شرّاً أنَّه لا حقَّ له في الْفَيْء، روي ذلك عن مالك وغيره. قال مالك: من كان يُبْغِض أحداً من أصحاب محمَّد ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غِلٌّ، فليس له حقٌّ في فَيْء المسلمين؛ ثم قرأ: ﴿والَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية[(٢)].

الثالثة: هذه الآية تدلُّ على أنَّ الصحيح من أقوال العلماء قسمة المنقول، وإبقاء العقار والأرض، شملاً بين المسلمين أجمعين ـ كما فعل ﷺ ـ إلا أن يجتهد الوالي فينفذ أمراً فيمضي عمله فيه، لاختلاف الناس عليه، وأنَّ هذه الآية قاضية بذلك؛ لأنَّ الله تعالى أخبر عن الْفَيْء وجعله لثلاثِ طوائف: المهاجرين والأنصار ـ وهم معلومون ـ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾. فهي عامَّة في جميع التابعين والآتِيْنَ بعدهم إلى يوم الدين. وفي الحديث الصحيح: أنَّ النبيَّ ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: «السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين، وإنَّا إنْ شاء اللهُ بكم لاحقونَ، ودِدْت أن رأيت إخواننا». قالوا: يا رسول الله، ألسنا بإخوانك؟ فقال: «بل أنتم أصحابي، وإخوانُنا الذين لم يأتوا بعدُ، وأنا فَرَطُهم على

(١) وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٦ ، وقول مالك أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٢٧ .

الحَوْض». فبيَّن ﷺ أنَّ إخوانهم كلُّ من يأتي بعدهم[١]. لا كما قال السُّدِّيُّ والكَلْبيُّ: إنَّهم الذين هاجروا بعد ذلك[٢]. وعن الحسن أيضاً «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ»: مَن قصد إلى النبيِّ ﷺ إلى المدينة بعد انقطاع الهجرة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ نصب في موضع الحال[٣]، أي: قائلين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أُمِروا أن يستغفروا لمن سَبَقَ هذه الأمَّة من مؤمني أهل الكتاب. قالت عائشة رضي الله عنها: فأُمِروا أن يستغفروا لهم، فسبُّوهم. الثاني: أمروا أن يستغفروا للسابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار[٤].

قال ابن عباس: أمر الله تعالى بالاستغفار لأصحاب محمَّد ﷺ، وهو يعلم أنَّهم سَيُفْتَنُونَ. وقالت عائشة: أُمِرْتُم بالاستغفار لأصحاب محمَّد فسببتموهم، سمعتُ نبيَّكم ﷺ يقول: «لا تذهب هذه الأمَّة حتى يلعنَ آخرُها أوَّلَها»[٥]. وقال ابن عمر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأيتم الذين يسبُّون أصحابي فقولوا: لعن الله أَشَرَّكم»[٦]. وقال العوَّام بن حَوْشَب: أدركتُ صدر هذه الأمَّة يقولون: اذكروا محاسن أصحابِ رسول الله ﷺ حتى تألف عليهم القلوب، ولا تذكروا ما شَجَر بينهم فتُحرِّشوا[٧] الناس عليهم[٨].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٧ ، والحديث أخرجه مسلم (٢٤٩)، وأحمد (٧٩٩٣) .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩٨ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٧ ، وقول عائشة أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٧ (١٨٨٥٦).

(٥) أخرجه البغوي في التفسير ٤/ ٣٢١ ، وفي الباب لقوله ﷺ: «حتى يلعن آخرها أولها» عن أويس القرني عن النبي ﷺ قال: «احفظوني في أصحابي، فإن من أشراط الساعة أن يلعن آخر هذه الأمة أولها،...» الحديث، أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٨٧ .

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٦٢)، والذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ٢٥٦ ، قال الطبراني: لم يروِ هذا الحديث عن عبيد الله إلا سيف، تفرَّد به النضر. وقال الذهبي: رواه الترمذي عن أبي بكر بن نافع، عن العتكي، وقال: هذا منكر.

(٧) في (د) و(م): فتجسَّروا. والمثبت من (ظ) ومصادر التخريج.

(٨) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٣٥٠ ، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٣/ ٢١٥ بتمامه، =

وقال الشعبيُّ: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: مَن خيرُ أهل مِلَّتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى. وسئلت النصارى: من خير أهل ملَّتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى. وسئلت الرافضة من شرُّ أهل مِلَّتكم؟ فقالوا: أصحاب محمَّد، أُمِروا بالاستغفار لهم، فسبُّوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقوم لهم راية، ولا تثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة، كلَّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وإدحاض حجَّتهم. أعاذنا الله وإيَّاكم من الأهواء المضلَّة[١]. ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: حِقْداً وحسداً ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾

تعجُّبٌ من اغترار اليهود بما وعدهم المنافقون من النصر مع علمهم بأنَّهم لا يعتقدون ديناً ولا كتاباً. ومن جملة المنافقين عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُول، وعبد الله بن نَبْتَل، ورفاعة بن زيد. وقيل: رافعة بن تابوت، وأوْس بن قَيْظِيٍّ[٢]، كانوا من الأنصار ولكنَّهم نافقوا، وقالوا ليهود قُرَيظة والنَّضير: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾. وقيل: هو من قول بني النَّضير لقُرَيْظَة[٣]. وقوله: ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ يعنون محمَّداً ﷺ، لا نطيعه في قتالكم. وفي هذا دليل على صحَّة نُبُوَّة محمَّدٍ ﷺ من جهة علم الغيب[٤]؛ لأنَّهم أُخرجوا فلم يَخرجوا، وقوتلوا فلم ينصروهم[٥]، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ

= والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٣٩٨) مختصراً. وفي إسناده: شهاب بن خراش، قال عنه ابن عدي: ولشهاب أحاديث ليست بكثيرة، وفي بعض رواياته ما ينكر عليه....

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٢١ ، وأخرجه عنه ابن الجوزي في الموضوعات (٤١٣) مطولاً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٣٥ عن مجاهد، وذكر فيه: رفاعة، أو رافعة بن تابوت، ودون ذكر: رفاعة بن زيد، وذكره الرازي في تفسيره ٢٩/ ٢٨٨ ، وقول مجاهد في التفسير ٢/ ٦٦٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٩ .

(٤) الكشاف ٤/ ٨٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤٧ .

يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: في قولهم وفعلهم.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ⑫﴾

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي: منهزمين[١]. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ قيل: معنى «لَا يَنْصُرُونَهُمْ» طائعين. «وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ» مكرهين «لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ». وقيل: معنى «لَا يَنْصُرُونَهُمْ» لا يدومون على نصرهم. هذا على أنَّ الضميرين متفقان. وقيل: إنَّهما مختلفان، والمعنى: لئن أُخرِج اليهود لا يخرج معهم المنافقون، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، «وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ» أي: ولئن نصر اليهودُ المنافقين «لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ». وقيل: «لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ» أي: عَلِمَ الله منهم أنَّهم لا يخرجون إن أُخرجوا. «وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ» أي: عَلِمَ الله منهم ذلك. ثم قال: «لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ» فأخبر عمَّا قد أخبر أنَّه لا يكون، كيف كان يكون لو كان؟[٢] وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. وقيل: معنى «وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ» أي: ولئن شئنا أن ينصروهم زَيَّنَّا ذلك لهم. «لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ».

قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ⑬﴾

قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ﴾ يا معشرَ المسلمين ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: خوفاً وخشية[٣] ﴿فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني صدور بني النَّضير. وقيل: في صدور المنافقين[٤].

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٦.
(٢) الكشاف ٤/ ٨٥، وتفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٩.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢.
(٤) زاد المسير ٨/ ٢١٧ - ٢١٨، وعزا القول الأول للفراء، والثاني لمقاتل، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١٤٦.

ويحتمل أن يرجع إلى الفريقين، أي: يخافون منكم أكثر مما يخافون من ربِّهم ذلك الخوف. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفقهون قَدْرَ عظمة الله وقدرته[١].

قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ يعني اليهود[٢] ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي: بالحيطان والدُّور، يظنُّون أنَّها تمنعهم منكم. ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ أي: من خَلْف حيطان يستترون بها؛ لجُبْنِهم وَرَهْبَتِهم.

وقراءة العامة: «جُدُرٍ» على الجمع، وهو اختيار أبي عبيدة وأبي حاتِم؛ لأنَّها نظير قوله تعالى: «فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ» وذلك جمع. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن كثير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو: «جِدَارٍ» على التوحيد[٣]؛ لأنَّ التوحيد يؤدِّي عن الجمع[٤]. وروي عن بعض المكِّيِّين: «جَدْر» بفتح الجيم وإسكان الدال[٥]، وهي لغة في الجدار. ويجوز أن يكون معناه: مِن وراء نخيلهم وشجرهم[٦]، يقال: أَجْدَرَ النخلُ: إذا طلعت رؤوسه في أوَّل الربيع. والجَدْر: نبتٌ، واحدته: جَدْرة[٧]. وقُرِئ: «جُدْر» بضمِّ الجيم وإسكان الدال[٨]، جمع الجدار. ويجوز أن تكون الألف في الواحد، كألف كِتاب، وفي الجمع، كألف ظِراف. ومثله: ناقة هِجَانٌ، ونُوقٌ هجان؛ لأنَّك تقوله في التثنية:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢.

(٣) السبعة ص٦٣٢، والتيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٦.

(٤) الحجة للفارسي ٦/ ٢٨٤.

(٥) القراءات الشاذة ص١٥٤ عن ابن كثير في رواية.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٩.

(٧) تهذيب اللغة ١٠/ ٦٣٤.

(٨) القراءات الشاذة ص١٥٤، والمحتسب ٢/ ٣١٦، وما بعده منه أيضاً.

هجانان، فصار لفظ الواحد والجمع مشتبهين في اللفظ، مختلفين في المعنى، قاله ابن جِنِّي[١].

قوله تعالى: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ﴾ يعني عداوة بعضهم لبعض. وقال مجاهد: «بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ» أي: بالكلام والوعيد لنفعلنَّ كذا. وقال السُّدِّيُّ: المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتَّفقوا على أمر واحد[٢]. وقيل: «بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ» أي: إذا لم يلقَوْا عدوّاً نسبوا أنفسهم إلى الشِّدَّة والبأس، ولكن إذا لَقُوا العدوَّ انهزموا. ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ يعني اليهود والمنافقين، قاله مجاهد. وعنه أيضاً: يعني المنافقين. الثورِيُّ: هم المشركون وأهل الكتاب. وقال قتادة: «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً» أي: مجتمعين على أمر ورأي. «وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى» متفرِّقة. فأهل الباطل مختلفة آراؤهم، مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، وهم مجتمعون في عداوة أهلِ الحقِّ. وعن مجاهد أيضاً: أراد أن دينَ المنافقين مخالف لدين اليهود[٣]. وهذا ليقوِّيَ أنفس المؤمنين عليهم. وقال الشاعر:

إلى الله أشكو نِيَّةً شَقَّت العَصَا ... هي اليوم شَتَّى وهي أمس جُمَّعُ[٤]

وفي قراءة ابن مسعود: «وقلوبهم أشَتّ»[٥] يعني أشدَّ تشتيتاً، أي: أشدَّ اختلافاً[٦]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ أي: ذلك التشتيت والكفر بأنَّهم لا عقلَ لهم يعقلون به أمر الله[٧].

---

(١) في الخصائص ٢/ ١٠١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣٨.

(٤) القائل: قيس بن الملوَّح، وهو في ديوانه ص١٩١، والنِّيَّة والنوى جميعاً: البُعد. اللسان (نوي).

(٥) القراءات الشاذة ص١٥٤.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٥٠٨.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٦.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

قال ابن عباس: يعني به قَيْنُقاع، أمكن الله منهم قبل بني النَّضير[١]. وقال قتادة: يعني بني النَّضِير، أمكن الله منهم قبل قُرَيظة. مجاهد: يعني كفَّار قريش يوم بدر[٢]. وقيل: هو عامٌّ في كلٍّ من انتقم منه على كفره قبل بني النَّضِير من نوح إلى محمد ﷺ[٣]. ومعنى ﴿وَبَالَ﴾ جزاءَ كفرهم. ومن قال: هم بنو قُرَيظة، جعل «وَبَالَ أَمْرِهِمْ» نزولهم على حكم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بقَتْل المقاتلة وسَبْيِ الذُّرِّيَّة. وهو قول الضحَّاك[٤]. ومن قال: المراد بنو النَّضِير قال: «وَبَالَ أَمْرِهِمْ» الجلاء والنفي. وكان بين النَّضير وقُرَيظة سنتان[٥]. وكانت وقعة بدر قبل غزوة بني النَّضير بستَّة أشهر؛ فلذلك قال: «قَرِيباً» وقد قال قوم: غزوة بني النَّضير بعد وقعة أحد[٦]. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ هذا ضرب مثلٍ للمنافقين واليهود في تخاذلهم، وعدم الوفاء في نُصْرتهم[٧]. وحَذَف حرف العطف، ولم يقل: وكمثل الشيطان؛ لأنَّ حذف حرف العطف كثير، كما تقول: أنت عاقل، أنت كريم، أنت عالم.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣٩ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠٩ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٥ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٠ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٩ ، وخبر تحكيم سعد بن معاذ في بني قريظة أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨)، وهو عند أحمد (١١١٦٨) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢ .

(٦) سلف الكلام عليها ص٣٤٠-٣٤١ من هذا الجزء.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢ .

وقد روي عن النبيِّ ﷺ: أنَّ الإنسان الذي قال له الشيطان: اكفر، راهبٌ تُركت عنده امرأة أصابها لَمَمٌ ليَدْعُوَ لها، فزيَّن له الشيطان، فوطئها فحملت، ثم قتلها؛ خوفاً أن يفتضح، فدلَّ الشيطانُ قومَها على موضعها، فجاؤوا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه، فجاء الشيطان فوعده أنَّه إن سجد له أنجاه منهم، فسجد له فتبرَّأ منه، فأسلمه. ذكره القاضي إسماعيل وعليُّ بنُ المدِيني عن سفيان بن عُيَيْنة، عن عمرو بن دينار، عن عروة بن عامر، عن عُبيد بن رفاعة الزُّرَقيِّ، عن النبيِّ ﷺ[1].

وذكر خبره مطوَّلاً ابنُ عباس ووهب بن مُنَبِّه. ولفظهما مختلف. قال ابن عباس في قوله تعالى: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ»: كان راهب في الفَتْرة يقال له: برصيصا، قد تعبَّد في صَوْمعته سبعين سنة، لم يعصِ الله فيها طَرْفةَ عين، حتى أعيا إبليسَ، فجمع إبليس مردةَ الشياطين فقال: ألا أجد منكم من يكفيني أمر برصيصا؟ فقال الأبيض ـ وهو صاحب الأنبياء، وهو الذي قصد النبيَّ ﷺ في صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه الوحي، فجاء جبريل فدخل بينهما، ثم دفعه بيده حتى وقع بأقصى الهند؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] ـ فقال: أنا أكْفِيكَه. فانطلق فتزيّا بزِيِّ الرهبان، وحَلَق وسط رأسه حتى أتى صومعة برصِيصا فناداه فلم يجبه، وكان لا ينفتل من صلاته إلا في كلِّ عشرة أيام يوماً، ولا يُفطر إلا في كلِّ عشرة أيام، وكان يواصل العشرة الأيام والعشرين والأكثر؛ فلما رأى الأبيضُ أنَّه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صَوْمعته، فلما انفتل برصيصا من صلاته، رأى الأبيضَ قائماً يصلِّي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان، فندم حين لم يجبه، فقال: ما حاجتك؟ فقال: أن أكونَ معك، فأتأدَّب بأدبك، وأقتبس من عملك، ونجتمع على العبادة. فقال: إنِّي في

(١) التعريف والإعلام ص١٦٧، وأخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان (٦١)، وابن الجوزي في المنتظم ٢/١٥٨ وفي تلبيس إبليس ص٢٦ من طريق عبد الرحمن بن يونس، عن سفيان بن عيينة، به. ورواية عبيد بن رفاعة عن النبي ﷺ مرسلة. وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في المنتظم ٢/١٥٨ عن وهب ابن منبِّه مطوَّلاً، وسيأتي.

شغل عنك. ثم أقبل على صلاته، وأقبل الأبيض أيضاً على الصلاة، فلما رأى برصيصا شدَّة اجتهاده وعبادته قال له: ما حاجتك؟ فقال: أن تأذن لي فأرتفعَ إليك. فأَذِنَ له، فأقام الأبيض معه حَوْلاً لا يُفطر إلا في كلِّ أربعين يوماً يوماً واحداً، ولا ينفتل من صلاته إلا في كلِّ أربعين يوماً، وربما مدَّ إلى الثمانين، فلما رأى برصيصا اجتهاده، تقاصرت إليه نفسه. ثم قال الأبيض: عندي دعوات يَشْفِي الله بها السقيم والمبتلى والمجنون. فعلَّمه إياها. ثم جاء إلى إبليس فقال: قد واللهِ أهلكتُ الرجلَ. ثم تعرَّض لرجل فخنقه، ثم قال لأهله ـ وقد تصوَّر في صورة الآدميين ـ: إنَّ بصاحبكِم جنوناً أفأَطِبّه؟ قالوا: نعم. فقال: لا أقوى على جِنِّيَّته، ولكن اذهبوا به إلى برصيصا، فإنَّ عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب، فجاؤوه، فدعا بتلك الدعوات، فذهب عنه الشيطان. ثم جعل الأبيض يفعل بالناس ذلك، ويرشدهم إلى برصيصا فيعافَوْن. فانطلق إلى جارية من بناتِ الملوك بين ثلاثة إخوة، وكان أبوهم ملكاً فمات واستخلف أخاه، وكان عمُّها مَلِكاً في بني إسرائيل، فعذَّبها وخنقها، ثم جاء إليهم في صورة رجل متطبِّب ليعالجها فقال: إنَّ شيطانها مارد لا يطاق، ولكن اذهبوا بها إلى برصيصا فدعوها عنده، فإذا جاء شيطانها دعا لها فبرئت. فقالوا: لا يجيبنا إلى هذا. قال: فابْنُوا صومعةً في جانب صومعته، ثم ضعوها فيها، وقولوا: هي أمانة عندك فاحتسب فيها. فسألوه ذلك، فأبى، فبنَوْا صومعةً، ووضعوا فيها الجارية، فلما انفتل من صلاته عاينَ الجاريةَ وما بها من الجمال، فَأُسْقِطَ في يده، فجاءها الشيطان فخنقها فانفتل من صلاته ودعا لها فذهب عنها الشيطان، ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها، وكان يكشف عنها ويتعرَّض بها لبرصيصا، ثم جاءه الشيطان فقال: وَيْحَكَ! واقِعْها، فما تجد مثلَها ثم تتوب بعد ذلك. فلم يزل به حتى واقعها، فحملت وظهر حَمْلها. فقال له الشيطان: ويحكَ! قد افتُضحتَ، فهل لك أن تقتلها ثم تتوبَ؛ فلا تفتضح، فإن جاؤوك، سألوك فقل: جاءها شيطانها، فذهب بها. فقتلها برصيصا ودفنها ليلاً، فأخذ الشيطان طَرف ثوبها

حتى بقي خارجاً من التراب، ورجع برصيصا إلى صلاته. ثم جاء الشيطان إلى إخوتها في المنام فقال: إنَّ برصيصا فعل بأختكم كذا وكذا، وقتلها ودفنها في جبل كذا وكذا، فاستعظموا ذلك وقالوا لبرصيصا: ما فعلت أختنا؟ فقال: ذهب بها شيطانها. فصدَّقوه وانصرفوا. ثم جاءهم الشيطان في المنام وقال: إنَّها مدفونة في موضع كذا وكذا، وإنَّ طرف ردائها خارج من التراب، فانطلَقوا فوجدوها، فهدموا صومعته وأنزلوه وخنقوه، وحملوه إلى الملك فأقرَّ على نفسه، فأَمَرَ بقتله. فلما صُلب قال الشيطان: أتعرفني؟ قال: لا والله! قال: أنا صاحبك الذي علَّمتك الدعوات، أما اتقيتَ الله، أما استحييتَ وأنت أعبد بني إسرائيل! ثم لم يكفِك صنيعك حتى فضحتَ نفسك، وأقررت عليها وفضحت أشباهك من الناس! فإن متَّ على هذه الحالة، لم يفلح أحد من نظرائك بعدك. فقال: كيف أصنع؟ قال: تطيعني في خصلة واحدة وأنجيك منهم، وآخذ بأعينهم. قال: وما ذاك؟ قال: تسجد لي سجدةً واحدة، فقال: أنا أفعل. فسجد له من دون الله. فقال: يا برصيصا، هذا أردت منك؛ كان عاقبة أمرك أن كفرت بربِّك، إنِّي بريء منك، إنِّي أخاف الله ربَّ العالمين[1].

وقال وهب بن منبِّه. إنَّ عابداً كان في بني إسرائيل، وكان من أعبدِ أهل زمانه، وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت، وكانت بِكراً، ليست لهم أخت غيرها، فخرج البعثُ على ثلاثتهم، فلم يَدْروا عند من يخلِّفون أختهم، ولا عند من يأمنون عليها، ولا عند من يضعونها. قال: فاجتمع رأيهم على أن يخلِّفوها عند عابد بني إسرائيل، وكان ثقةً في أنفسهم، فأَتَوْه فسألوه أن يخلِّفوها عنده، فتكون في كَنَفه وجواره إلى أن يقفلوا من غَزاتهم، فأبى ذلك عليهم وتعوَّذ بالله منهم ومن أختهم. قال: فلم يزالوا به

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢ - ٣٢٤، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٤٨ (١٨٨٦٠)، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٥٤٣ عن محمد بن سعد، عن أبيه، عن عمِّه، عن أبيه، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، والراوي عن ابن عباس عطية بن سعد العوفي ومن قبله من رجال الإسناد ضعفاء، وأخرجه أيضاً الخرائطي في اعتلال القلوب ص١١٥ - ١١٦ بإسناد آخر عن ابن عباس، وبنحوه مختصراً.

حتى أطاعهم(١) فقال: أنزلوها في بيتٍ حِذاءَ صَوْمعتي. فأنزلوها في ذلك البيت، ثم انطلقوا وتركوها، فمكثت في جوار ذلك العابد زماناً، يُنزِل إليها الطعام من صومعته، فيضعه عند باب الصومعة، ثم يُغلِق بابه ويصعد في صومعته، ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام. قال: فتلطَّف له الشيطان فلم يزل يرغِّبه في الخير، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً، ويخوِّفه أن يراها أحد فيعلقها. قال: فلبث بذلك زماناً، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير والأجر، وقال له: لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظمَ لأجرك. قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها فوضعه في بيتها، قال: فلبث بذلك زماناً، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير وحَضَّه عليه، وقال: لو كنتَ تكلِّمها وتحدِّثها فتأنس بحديثك، فإنَّها قد استوحشت وحشةً شديدة. قال: فلم يزل به حتى حدَّثها زماناً، يطَّلع عليها من فوق صومعته. قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال: لو كنتَ تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدِّثها، وتقعد على باب بيتها فتحدِّثك، كان آنسَ لها. فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدِّثها، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها، فلبثا زماناً يتحدَّثان، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير والثواب فيما يصنع بها، وقال: لو خرجتَ من باب صومعتك فجلست قريباً من باب بيتها، كان آنسَ لها. فلم يزل به حتى فعل. قال: فلبثا زماناً، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير، وفيما له من حسن الثواب فيما يصنع بها، وقال له: لو دنوتَ من باب بيتها فحدَّثتها ولم تَخرج من بيتها. ففعل، فكان ينزل من صومعته فيقعد على باب بيتها فيحدِّثها. فلبثَا بذلك حيناً،

---

(١) في النسخ: أطمعهم. والمثبت من المنتظم لابن الجوزي ٢/ ١٥٩ وما بعدها، والكلام منه بإسناده عن وهب بن منبِّه.

وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٥/ ٢١٣، وعبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٥، والطبري ٢٢/ ٥٤١، والحاكم ٢/ ٤٨٢ عن علي بن أبي طالب بنحوه مختصراً، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

وأخرجه الطبري في التفسير ٢٢/ ٥٤٢ عن ابن مسعود ﷺ بنحوه مختصراً.

ثم جاءه إبليس فقال: لو دخلتَ البيت معها تحدِّثها ولم تتركها تُبرز وجهها لأحد، كان أحسنَ بك. فلم يزل به حتى دخل البيت، فجعل يُحدِّثها نهارَه كلَّه، فإذا أمسى صعد في صومعته. قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فلم يزل يزيِّنها له حتى ضرب العابد على فخذها وقَبَّلها. فلم يزل به إبليس يحسِّنها في عينه، ويسوِّل له حتى وقع عليها، فأحبلها، فولدت له غلاماً. فجاءه إبليس فقال له: أرأيتَ إن جاء إخوة هذه الجارية وقد وَلدتْ منك! كيف تصنعُ؟! لا آمنُ عليك أن تُفتضَح أو يفضحوك! فاعمِد إلى ابنها فاذبحه وادفنه؛ فإنَّها ستكتم عليكَ؛ مخافةَ إخوتها أن يطَّلعوا على ما صنعتَ بها، ففعل. فقال له: أتراها تكتم إخوتها ما صنعتَ بها وقتلتَ ابنها! خذها فاذبحها وادفنها مع ابنها. فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحَفِيرة مع ابنها، وأطبق عليها صخرةً عظيمة، وسوَّى عليها التراب، وصعد في صومعته يتعبَّد فيها، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، حتى قفل إخوتها من الغزو، فجاءوه فسألوه عنها، فنعاها لهم وترحَّم عليها، وبكى لهم وقال: كانت خيرَ أَمَة، وهذا قبرها فانظروا إليه. فأتى إخوتها القبر فبكَوْا على قبرها وترحَّموا عليها، وأقاموا على قبرها أيَّاماً ثم انصرفوا إلى أهاليهم. فلما جَنَّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم، أتاهم الشيطان في النوم في صورة رجل مسافر، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم، فأخبره بقول العابد وموتها وترحُّمه عليها، وكيف أراهم موضع قبرها، فكذَّبه الشيطان وقال: لم يَصْدُقْكم أَمْرَ أختكم، إنَّه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً، فذبحه وذبحها معه؛ فزعاً منكم، وألقاها في حفيرة احتفرها خَلْفَ الباب الذي كانت فيه عن يمين من دخله. فانْطَلِقوا فادخلوا البيتَ الذي كانت فيه عن يمين من دخله، فإنَّكم ستجدونهما هنالك جميعاً كما أخبرتكم. قال: وأتى الأوسطَ في منامه، وقال له مثل ذلك. ثم أتى أصغرَهم فقال له مثل ذلك. فلما استيقظ القوم، استيقظوا متعجِّبين لما رأى كلُّ واحد منهم. فأقبل بعضهم على بعض، يقول كل واحد منهم: لقد رأيتُ عجباً، فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى. قال أكبرهم: هذا حُلم ليس بشيء، فامضوا بنا ودَعُوا هذا. قال أصغرهم: لا

أمضي حتى آتي ذلك المكان فأنظر فيه. قال: فانطلقوا جميعاً حتى دخلوا البيت الذي كانت فيه أختهم، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة كما قيل لهم، فسألوا عنه العابد، فصدَّق قولَ إبليس فيما صنع بهما. فاستعدَوْا عليه مَلِكَهم، فأُنزِل من صومعته فقدَّموه لِيُصْلَب، فلما أوثقوه[١] على الخشبة أتاه الشيطان فقال له: قد علمتَ أنِّي صاحبك الذي فتنتُك في المرأة حتى أحبلتها وذبحتها وذبحتَ ابنها، فإن أنتَ أطعتني اليوم، وكفرتَ بالله الذي خلقك، خلَّصتك مما أنتَ فيه. قال: فكفر العابد بالله، فلما كفر، خلَّى عنه الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه. قال: ففيه نزلت هذه الآية: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ الله رَبَّ الْعَالَمِينَ» إلى قوله: «جَزَاءُ الظَّالِمِينَ».

قال ابن عباس: فضرب الله هذا مثلاً للمنافقين مع اليهود. وذلك أن الله تعالى أمر نبيَّه عليه السلام أن يُجْلي بني النَّضِير من المدينة، فَدَسَّ إليهم المنافقون ألَّا تخرجوا من دياركم، فإن قاتلوكم كنَّا معكم، وإن أخرجوكم كنا معكم، فحاربوا النبيَّ ﷺ، فخذلهم المنافقون، وتبرَّؤوا منهم كما تبرَّأ الشيطان من بَرْصِيصَا العابد. فكان الرهبان بعد ذلك لا يمشون إلا بالتَّقِيَّة والكتمان. وطمع أهل الفسوق والفجور في الأَحبار فرموهم بالبُهتان والقبيح، حتى كان أمر جُريج الراهب، وبرَّأه الله، فانبسطت بعده الرهبان وظهروا للناس[٢].

وقيل: المعنى: مَثَلُ المنافقين في غدرهم[٣] لبني النَّضِير كمثل إبليس إذ قال لكفار قريش: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾[٤] الآية [٤٨ من

(١) في (م): أوقفوه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٥، واتقيت الشيء تقيَّة: حذرته. اللسان (وقي)، وخبر جريج سلف تخريجه ١٣٩/٥.

(٣) في (د): وعدهم.

(٤) معاني القرآن للزجاج ١٤٨/٥.

سورة الأنفال]. وقال مجاهد: المراد بالإنسان ها هنا جميع الناس في غرور الشيطان إيَّاهم[(١)].

ومعنى قوله تعالى: «إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ» أي: أغواه حتى قال: إنِّي كافر. وليس قول الشيطان: «إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ» حقيقة، إنَّما هو على وجه التبرُّؤ من الإنسان، فهو تأكيد لقوله تعالى: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ».

وفتح الياء من «إنِّي» نافع وابن كثير وأبو عمرو. وأسكن الباقون[(٢)]. ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي: عاقبة الشيطان وذلك الإنسان ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ﴾ نصب على الحال. والتثنية ظاهرة فيمن جعل الآية مخصوصة في الراهب والشيطان. ومن جعلها في الجنس، فالمعنى: وكان عاقبة الفريقين أو الصنفين. ونصب «عَاقِبَتَهُمَا» على أنَّه خبر «كان»، والاسم «أَنَّهُمَا فِي النَّارِ»، وقرأ الحسن: «فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا» بالرفع[(٣)]، على الضِّدِّ من ذلك. وقرأ الأعمش: «خَالِدَانِ فِيهَا» بالرفع[(٤)]، وذلك خلاف المرسوم. ورفعه على أنَّه خبر «أنَّ» والظرف ملغى[(٥)].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أوامره ونواهيه، وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه. ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ﴾ يعني: يوم القيامة[(٦)]. والعرب تكني عن المستقبل بالغدِ. وقيل: ذِكْر الغدِ؛ تنبيهاً على أنَّ الساعة قريبة، كما قال الشاعر:

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٦٥ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٤ - ٥٤٥ .

(٢) السبعة ص٦٣٢ ، والنشر ٢/ ٣٨٦ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠١ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٥٤ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٤ .

(٥) المشكل لمكي ٢/ ٧٢٦ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠٢ .

وإنَّ غـداً لـلـنـاظـريـن قـريـب[١]

وقال الحسن وقتادة: قرَّب الساعة حتى جعلها كغَدٍ. ولا شكَّ أنَّ كلَّ آتٍ قريبٌ[٢]، والموت لا محالة آتٍ. ومعنى «ما قَدَّمت» يعني: من خير أو شَرٍّ[٣]. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أعاد هذا؛ تكريراً، كقولك: اعجل اعجل، اِرْمِ اِرْمِ. وقيل: التقوى الأولى: التوبة فيما مضى من الذنوب. والثانية: اتِّقاء المعاصي في المستقبل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قال سعيد بن جبير: أي: بما يكون منكم[٤]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: تركوا أمره ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾ أن يعملوا لها خيراً، قاله ابن حبَّان. وقيل: نسوا حقَّ الله فأنساهم حقَّ أنفسهم، قاله سفيان. وقيل: «نَسُوا اللهَ» بترك شكره وتعظيمه. «فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ» بالعذاب أن يذكر بعضهم بعضاً، حكاه ابن عيسى. وقال سهل بن عبد الله: «نَسُوا اللهَ» عند الذنوب «فَأَنْسَاهُم أَنْفُسَهُمْ» عند التوبة[٥].

ونسب تعالى الفعل إلى نفسه في «أَنْسَاهُمْ» إذ كان ذلك بسبب أمره ونهيه الذي تركوه. وقيل: معناه: وجدهم تاركين أمره ونهيه، كقولك: أحمدت الرجل: إذا وجدته محموداً. وقيل: «نَسُوا اللهَ» في الرخاء «فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ» في الشدائد.

---

(١) هذا عجز بيت أورده ابن حبان في روضة العقلاء ص٢٧، ولم ينسبه، وصدره هكذا:

ألـم تَـرَ أن الـيـوم أسـرع ذاهـب

والبيت ذكره ضمن أبيات لم ينسبها، وهي لأبي العتاهية في ديوانه ص٢١، دون ذكر البيت الآنف الذكر.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩١ عن قتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٧.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥١٠ عن ابن زيد، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥١١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥١١، وقول سفيان أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٤٨.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قال ابن جبير: العاصون. وقال ابن زيد: الكاذبون[١]. وأصل الفسق: الخروج، أي: الذين خرجوا عن طاعة الله.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ﴾ أي: في الفضل والرتبة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: المقرَّبون المكرَّمون. وقيل: الناجون من النار[٢]. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في «المائدة»[٣] عند قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [الآية: ١٠٠] وفي سورة «السجدة»[٤] عند قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [الآية: ١٨] وفي سورة «صٓ»[٥]: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [الآية: ٢٨] فلا معنى للإعادة، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ حثٌّ على تأمُّل مواعظ القرآن، وبيَّن أنَّه لا عذر في ترك التدبُّر؛ فإنَّه لو خوطب بهذا القرآنِ الجبالُ مع تركيب العقل فيها، لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعةً متصدِّعةً، أي: متشقِّقةً من خشية الله. والخاشع: الذليل. والمتصدِّع: المتشقِّق[٦]. وقيل: «خَاشِعاً» لله بما كلَّفه من طاعته. «مُتَصَدِّعاً» من خشية الله أن يعصيَه فيعاقبه. وقيل:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥١١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥١١ .

(٣) ٨/ ٢٢٥ -٢٢٦ .

(٤) ١٧/ ٣٧ .

(٥) ١٨/ ١٨٨ - ١٨٩ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٠ .

هو على وجه المَثَل للكفار(١).

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: إنَّه لو أنزل هذا القرآن على جبل، لخشع لوعده، وتصدَّع لوعيده، وأنتم أيُّها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده، ولا ترهبون من وعيده؟! وقيل: الخطاب للنبيِّ ﷺ، أي: لو أنزلنا هذا القرآن يا محمَّد على جبل لما ثبت، وتصدَّع من نزوله عليه، وقد أنزلناه عليك وثبَّتْناك له، فيكون ذلك امتناناً عليه أن ثبَّته لما لا تثبت له الجبال. وقيل: إنَّه خطاب للأمَّة، وأنَّ الله تعالى لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدَّعت من خشية الله. والإنسان أقلّ قوَّةً وأكثر ثباتاً، فهو يقوم بحقِّه إن أطاع، ويقدر على ردِّه إن عصى؛ لأنَّه موعود بالثواب، ومزجور بالعقاب(٢).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ قال ابن عباس: عالم السِّرِّ والعلانية. وقيل: ما كان وما يكون. وقال سهل: عالم بالآخرة والدنيا(٣). وقيل: «الْغَيْبِ» ما لم يَعْلَم العباد ولا عاينوه. «وَالشَّهَادَةِ» ما عَلموا وشاهدوا(٤). ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تقدَّم(٥).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ أي: المنزَّه عن كلِّ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٠ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ٥١٢ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٥١٢ .
(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٨ .
(٥) ١/ ١٥٩ - ١٦٠ .

نقص، والطاهر عن كلِّ عيب. والقَدَس ـ بالتحريك ـ: السَّطْل، بلغة أهل الحجاز؛ لأنَّه يتطهَّر به. ومنه القادوس: لواحد الأواني التي يُستخرج بها الماء من البئر بالسانِية[١]. وكان سِيبويه يقول: قَدُّوس وسَبُّوح، بفتح أوَّلهما. وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنَّه سمع عند الكسائيِّ أعرابيّاً فصيحاً يُكْنَى أبا الدينار يقرأ: «القَدُّوس» بفتح القاف[٢]. قال ثعلب: كلُّ اسم على فَعُّول، فهو مفتوح الأوَّل، مثل سَفُّود وكَلُّوب وتَنُّور وسَمُّور وشَبُّوط، إلا السُّبُّوح والقُدُّوس فإنَّ الضمَّ فيهما أكثر، وقد يفتحان. وكذلك الذُّرُّوح ـ بالضمِّ ـ وقد يفتح[٣].

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي: ذو السلامة من النقائص. وقال ابن العربيِّ: اتَّفق العلماء ـ رحمة الله عليهم ـ على أنَّ معنى قولنا في الله «السَّلَامُ»: النسبة، تقديره: ذو السلامة. ثم اختلفوا في ترجمة النسبة على ثلاثة أقوال: الأوَّل: معناه الذي سلِم من كلِّ عيب، وبَرِئ من كلِّ نقص. الثاني: معناه ذو السلام، أي: المسلِّم على عباده في الجنَّة، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]. الثالث: أنَّ معناه الذي سلم الخَلْقُ من ظلمه[٤].

قلت: وهذا قول الخطابي، وعليه ـ والذي قبله ـ يكون صفةَ فعل. وعلى أنَّه البريء من العيوب والنقائص يكون صفةَ ذات. وقيل: السلام معناه: المسلِّم لعباده[٥].

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي: المصدِّق لرسله بإظهار معجزاته عليهم، ومصدِّق المؤمنين ما وعدهم به من الثواب، ومصدِّق الكافرين ما أوعدهم من العقاب[٦]. وقيل: «المؤمن»

---

(١) الأسنى ص٢٢٩، وما بعده منه أيضاً، والسانية: الناضحة، وهي الناقة التي يُستقى عليها. اللسان (سنا).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠٤ بنحوه.

(٣) الأسنى ص٢٢٩، والسَّفُّود: حديدة يشوى به اللحم. والكلُّوب بمعناه. والسَّمُّور: دابة معروفة تسوَّى من جلودها فِراء غالية الأثمان. والشبُّوط: ضرب من السمك. والذرُّوح: دُوَيْبَّة أعظم من الذباب شيئاً. اللسان (سفد) و(كلب) و(سمر) و(شبط) و(ذرح) على الترتيب.

(٤) الأسنى ص٢٢٠ - ٢٢١.

(٥) الأسنى ص٢١٩.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٦.

الذي يؤمِّن أولياءه من عذابه[١]، ويؤمِّن عباده من ظلمه[٢]، يقال: آمنه، من الأمان الذي هو ضدُّ الخوف، كما قال تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:٤] فهو مؤمن، قال النابغة:

والمُؤمِنِ العائذاتِ الطيرَ يَمْسَحُها رُكْبانُ مَكَّةَ بينَ الغِيلِ والسَّنَدِ[٣]

وقال مجاهد: المؤمن الذي وَحَّد نفسه بقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[٤] [آل عمران:١٨]. وقال ابن عباس: إذا كان يوم القيامة أخرج أهل التوحيد من النار، وأوَّل من يخرج من وافق اسمُه اسمَ نبيٍّ، حتى إذا لم يَبْقَ فيها من يوافق اسمه اسمَ نبيٍّ، قال الله تعالى لباقيهم: أنتم المسلمون وأنا السلام، وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن، فيُخرجهم من النار؛ ببركة هذين الاسمين[٥]. ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ﴾ تقدَّم الكلام في المهيمن في «المائدة»[٦]، وفي «العزيز» في غير موضع[٧]. ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ قال ابن عباس: هو العظيم. وجبروت الله: عظمته. وهو على هذا القول صفة ذات[٨]، من قولهم: نخلة جَبَّارة. قال امرؤ القيس:

سوامقَ جبَّارٍ أَثِيثٍ فروعُه وعالَيْنَ قِنْواناً من البُسْرِ أَحْمرا[٩]

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٥٢.

(٣) ديوان النابغة ص٣٥، إلا أنه ورد فيه: والسعد، بدل: والسند. قال في زهر الأكم لليوسي ١/ ٨٠: وأراد بالعائذات هذه الطير، والمؤمن هو الله تعالى، وقوله: يمسحها ركبان مكة. أي: يمسحون عليها ولا يهيجونها، والغيل والسعد: أَجَمتان بين مكة والمدينة. والمعنى: أي: أقسم بالله تعالى الذي أمَّن الطير العائذات أن تصاد أو أن تؤخذ.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٠ دون نسبة.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) ٨/ ٣٥.

(٧) ٢/ ٤٠٣.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٧.

(٩) الأسنى ص٣٧٦ - ٣٧٧، والبيت في شرح ديوان امرئ القيس ص٥٧، قال شارحه: والسوامق: النخل المرتفعات الطوال. والجبَّار: الذي قد فات اليدَ لطوله. والأثيث: الغزير. وعالين قنواناً: أي =

يعني النخلة التي فاتت اليَدَ.

فكان هذا الاسم يدلُّ على عظمة الله وتقديسه عن أن تناله النقائص وصفات الحدث. وقيل: هو من الجَبْر، وهو الإصلاح، يقال: جبرت العظم فجبَر، إذا أصلحته بعد الكسر، فهو فعَّال من جبر، إذا أصلح الكسير وأغنى الفقير[١]. وقال الفرَّاء: هو من أَجبره على الأمر، أي: قهره. قال: ولم أسمع فعَّالاً من أفعل إلا في جبَّار، ودرَّاك من أدرك. وقيل: الجبَّار لذي لا تُطاق سطوته.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبَّر بربوبيَّته فلا شيء مثله. وقيل: المتكبِّر عن كلِّ سوء، المتعظِّم عمَّا لا يليق به من صفات الحدث والذَّمِّ. وأصل الكبر والكبرياء: الامتناع وقلَّة الانقياد[٢]. وقال حميد بن ثور:

عَفَت مثل ما يعفو الفَصيل فأصبحتْ بها كبرياءُ الصَّعْبِ وهي ذلولُ[٣]

والكبرياء في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذمٌّ[٤]. وفي «الصحيح» عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالى أنَّه قال: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحد منهما، قصمته، ثم قذفته في النار»[٥]. وقيل: المتكبِّر، معناه: العالي. وقيل: معناه: الكبير؛ لأنَّه أَجَلُّ من أن

= قد أدرك هذا النخل وأينع فتمايلت عروقه، وإنما قصد تشبيه ما على الهوادج من الصوف الأحمر والأصفر مع ارتفاعها بهذه النخل الطوال وما فيها من ألوان.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٧ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٧ .

(٣) ديوان حميد بن ثور الهلالي ص٥٨ ، إلا أنه ورد فيه: الطليح، بدل: الفصيل.وركوب، بدل: ذلول. وعفت الأرض: غطَّاها النبات.وعفا البعير: سمن وكثر شعر ظهره وطال حتى غطى دبره. والطليح: البعير المهزول المعيي. القاموس المحيط (عفا) و(طلح).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥١٤ .

(٥) أخرجه أحمد (٩٣٥٩) دون ذكر لفظة: قصمته. وهي عند الحاكم ١/ ٦١ بلفظ: الكبرياء ردائي، فمن نازعني ردائي قصمته. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه بهذا اللفظ، إنما أخرجه مسلم [٢٦٢٠] من طريق الأغر، عن أبي هريرة بغير هذا اللفظ. وقال الذهبي: أخرجه مسلم من حديث الأغر، عن أبي هريرة [وأبي سعيد الخدري قالا: قال رسول الله ﷺ: العزُّ إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني، عَذَّبته] بنحو منه. اهـ.

يتكلَّف كبراً. وقد يقال: تظلَّم بمعنى ظلم، وتشتَّم بمعنى شتم[١]، واستقرَّ بمعنى قرَّ. كذلك المتكبِّر بمعنى الكبير. وليس كما يوصف به المخلوق، إذا وصف بتفعَّل إذا نسب إلى ما لم يكن منه.

ثم نَزَّه نفسه فقال ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزيهاً لجلالته وعظمته ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ «الْخَالِقُ» هنا المقدِّر. و«الْبَارِئُ» المنشئ المخترع[٢]. و«الْمُصَوِّرُ» مصوِّر الصور ومركِّبها على هيئات مختلفة[٣]. فالتصوير مرتَّب على الخلق والبراية وتابع لهما. ومعنى التصوير: التخطيط والتشكيل. وخلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلَق: جعله عَلَقَةً، ثم مُضْغَةً، ثم جعله صورة، وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يُعرف بها ويتميَّز عن غيره بِسمتها. فتبارك الله أحسن الخالقين[٤]. وقال النابغة[٥]:

الخالق البارئ المصوِّر في الْـ أَرحامِ ماءً حتى يصير دماً

وقد جعل بعض الناس الخَلْق بمعنى التصوير[٦]، وليس كذلك، وإنَّما التصوير آخِراً، والتقدير أوّلاً، والبراية بينهما. ومنه قوله الحقّ: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ [المائدة: ١١٠] وقال زُهير:

ولأنتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبعـ ضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِي[٧]

(١) الوسيط ٤/ ٢٧٩ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ٥١٤ .
(٣) الأسنى ص٣٤٩ .
(٤) الأسنى ص٣٥٠ .
(٥) وهو: الجعدي، والبيت في ديوانه ص١٣٣ .
(٦) وهما ابن العربي وابن الحصار كما ذكر ذلك القرطبي في الأسنى ص٣٣٦ ، والكلام منه.
(٧) سلف ١/ ٣٤١ .

يقول: تُقَدِّر ما تُقَدِّر ثم تَفْرِيه، أي: تُمضيه على وَفْق تقديرك، وغيرك يقدِّر ما لا يتمُّ له ولا يقع فيه مراده؛ إمَّا لقصوره في تصوُّر تقديره، أو لعجزه عن تمام مراده. وقد أتينا على هذا كلِّه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[(١)] والحمد لله.

وعن حاطب بن أبي بَلْتَعَة أنَّه قرأ: «البارئ المصوَّرَ» بفتح الواو ونصب الراء، أي: الذي يُبرِئُ المصوَّر، أي: يميِّز ما يصوِّره بتفاوت الهيئات. ذكره الزَّمَخْشَرِيُّ[(٢)].

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم الكلام فيه[(٣)].

وعن أبي هريرة قال: سألتُ خليلي أبا القاسم رسولَ الله ﷺ عن اسم اللهِ الأعظم فقال: «يا أبا هريرة، عليك بآخرِ سورة الحشر فأكْثِر قراءَتها» فأعدتُ عليه، فأعاد عليَّ، فأعدتُ عليه، فأعاد عليَّ[(٤)]. وقال جابر بن زيد: إنَّ اسم الله الأعظم هو الله؛ لمكان هذه الآية[(٥)]. وعن أنس بن مالك: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الحشر، غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر»[(٦)]. وعن أبي أُمامة قال: قال النبيُّ ﷺ: «من قرأ خواتيم سورة الحشر في ليل أو نهار، فقبضه اللهُ في تلك الليلة أو ذلك اليوم، فقد أَوجب الله له الجنَّة»[(٧)].

---

(١) ص٣٣٦ وما بعدها.

(٢) في الكشاف ٤/ ٨٧ - ٨٨ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٥٤ عن اليماني.

(٣) ١/ ٤٢٨ و٢/ ٤٠٣ و١٣/ ٨٩ .

(٤) أخرجه الثعلبي كما في الكافي الشاف لابن حجر ص ١٦٧ من رواية علي بن رزيق، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، به، وعلي بن رزيق: ذكره ابن ماكولا في الإكمال ٤/ ٥٣ وقال: المقرئ المصري، يروي عن ابن لهيعة، روى عنه حرملة بن يحيى. اهـ. وهشام ابن سعد هو أبو عباد المدني، صدوق له أوهام. التهذيب.

(٥) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/ ٢٠٩ ، وابن أبي شيبة ١٠/ ٢٧٣ ، والطبري ٢٢/ ٥٥٥ .

(٦) أخرجه الثعلبي كما في الكافي الشاف ص١٦٧ من رواية يزيد بن أبان، عن أنس، به، ويزيد بن أبان هو: أبو عمرو الرَّقَاشي القاصُّ، زاهد ضعيف. التهذيب.

(٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٥٠١)، والقزويني في التدوين ٤/ ٢٦ من طريق محمد بن زياد الألهاني، عن أبي أمامة، به.

قال البيهقي: تفرَّد به سليم بن عثمان هذا عن محمد بن زياد. اهـ. قلنا: وسُلَيْم بن عثمان هو: الفوزي الحمصي، متَّهم واهٍ. المغني في الضعفاء ١/ ٢٨٤ .

سورة الممتحنة

مدنيَّةٌ في قول الجميع[1]، وهي ثلاث عشرة آية[2]

الممتحِنة ـ بكسر الحاء ـ أي: المختبِرة، أُضيفَ الفعل إليها مجازًا، كما سُمِّيت سورة «براءة» المبعثِرة والفاضِحة؛ لما كشفت من عيوب المنافقين. ومن قال في هذه السورة: الممتحَنة ـ بفتح الحاء ـ فإنَّه أضافها إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي أمُّ كُلْثُوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيْط، قال الله تعالى: «فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيْمَانِهِنَّ» الآية. وهي امرأة عبد الرحمن بن عَوْف، ولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ عدَّى اتَّخذ إلى مفعولين، وهما «عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ». والعَدُوُّ فَعُول من عَدَا، كعفُوّ من عَفَا. ولكونه على زِنَة المصدر أوقع على الجماعة إيقاعه على الواحد[4]. **وفي هذه الآية سبع مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ روى الأئمَّة ـ واللفظ لمسلم ـ عن عليٍّ ﷺ قال: بَعَثَنَا رسولُ الله ﷺ أنا والزُّبيرَ والمِقْدادَ فقال:

(١) النكت والعيون ٥/٥١٦ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٠ .

(٣) التعريف والإعلام ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٤) الكشاف ٤/ ٨٩ .

«ائْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فإنَّ بها ظَعِينة معها كتاب، فخذوه منها»، فانطلقنا تَعادَى بنا خَيْلنا، فإذا نحن بالمرأة، فقلنا: أَخرِجي الكتاب. فقالت: ما معي كتاب. فقلنا: لَتُخْرِجِنَّ الكتابَ أوْ لَتُلْقِيَنَّ الثياب. فأخرجته من عِقاصها. فأتينا به رسولَ الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بَلْتَعَة إلى ناس من المشركين من أهل مكَّة يُخبِرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطبُ ما هذا»؟ قال: لا تَعجلْ عليَّ يا رسولَ الله، إنِّي كنت امْرأً مُلْصَقًا في قريش ـ قال سفيان: كان حَلِيفًا لهم، ولم يكن من أنْفُسِها ـ وكان ممَّن كان معك من المهاجرين لهم قراباتٌ يَحْمُون بها أهليهم، فأَحببتُ إذ فاتني ذلك من النَّسَب فيهم أن أتَّخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي، ولم أفعلْه كُفرًا ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكُفر بعد الإسلام. فقال النبيُّ ﷺ: «صَدَق». فقال عمر: دَعْنِي يا رسول الله، أَضرِبُ عنقَ هذا المنافق. فقال: «إنَّه قد شهد بدرًا، وما يدرِيك لعلَّ اللهَ اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: «يا أيها الذين آمنوا لا تتَّخذوا عَدُوِّي وعَدُوَّكم أولياء»[(١)].

قيل: اسم المرأة سارة من موالي قريش. وكان في الكتاب: أمَّا بعدُ، فإنَّ رسول الله ﷺ قد توجَّه إليكم بجيش كالليل يسير كالسَّيْل، وأقسم بالله لو لم يَسِر إليكم إلا وحدَه لأظفره الله بكم، وأنجز له مَوْعِدَه فيكم، فإنَّ الله وليُّه وناصره. ذكره بعض المفسرين[(٢)].

وذكر القُشَيريُّ والثَّعْلبيُّ: أنَّ حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ كان رجلًا من أهل اليمن، وكان له حِلْف بمكَّة في بني أسد بن عبد العُزَّى رَهْطِ الزبير بن العَوَّام. وقيل: كان حليفاً للزبير بن العوَّام[(٣)]، فقدمت من مكَّة سارَة مولاة أبي عمرو بن صَيْفِيِّ بن

---

(١) البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وأبو داود (٢٦٥٠)، والترمذي (٣٣٠٥)، والنسائي في الكبرى (١١٥٢١)، وأحمد (٦٠٠)، والواحدي في أسباب النزول ص ٤٤٨ - ٤٤٩ . وروضة خاخ: موضع بين مكة والمدينة. والظعينة: المرأة، وسميت بذلك؛ لأنها تظعن مع الزوج حيثما ظعن. النهاية (خوخ) و(ظعن).

(٢) التعريف والإعلام ص ١٦٨ .

(٣) الاستيعاب (٢/ ٢٨٠ بهامش الإصابة)، والإصابة ٢/ ١٩٢ - ١٩٣ .

هاشم[١] بن عبد مناف إلى المدينة ورسول الله ﷺ يتجهَّز لفتح مكَّة ـ وقيل: كان هذا في زمن الحُدَيْبِية ـ فقال لها رسول الله ﷺ: «أمهاجرة جئتِ يا سارَة»؟ فقالت: لا. قال: «أمسلمةً جئتِ»؟ قالت: لا. قال: «فما جاء بكِ»؟ قالت: كنتم الأهل والموالي والأصل والعشيرة، وقد ذهب الموالي ـ تعني قُتلوا يومَ بدر ـ وقد احتجتُ حاجةً شديدةً فقدِمتُ عليكم؛ لتعطوني وتكسوني. فقال عليه الصلاة والسلام: «فأين أنتِ عن شباب أهل مكَّة» وكانت مغنِّية، قالت: ما طُلب منِّي شيء بعد وقعة بدر. فحثَّ رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وبني المطلب على إعطائها، فكسَوْها وأعطوْها وحملُوها، فخرجت إلى مكَّة، وأتاها حاطب فقال: أعطيك عشرة دنانير وبُرُداً على أن تبلِّغي هذا الكتاب إلى أهل مكَّة. وكتب في الكتاب: أنَّ رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حِذْركم. فخرجت سارة، ونزل جبريلُ فأخبرَ النبيَّ ﷺ بذلك، فبعث عليًّا والزبير وأبا مَرْثَد الغَنَوِيَّ ـ وفي رواية: عليًّا والزبير والمِقْداد. وفي رواية: أرسل عليًّا وعمّار بن ياسِر. وفي رواية: عليًّا وعمارًا وعمر والزبير وطَلْحة والمقداد وأبا مَرْثَد ـ وكانوا كلُّهم فرساناً، وقال لهم: «انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَةَ خاخٍ، فإنَّ بها ظعينةً، ومعها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها وخلُّوا سبيلها، فإن لم تدفعه لكم، فاضربوا عنقها» فأدركوها في ذلك المكان، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت ما معها كتاب، ففتَّشوا أمتعتها فلم يجدوا معها كتاباً، فهمُّوا بالرجوع، فقال عليٌّ: واللهِ ما كَذَبْنَا ولا كَذَبَنا! وسَلَّ سيفه وقال: أخرجي الكتابَ وإلَّا واللهِ لأجردنَّكِ ولأضربَنَّ عنقكِ، فلما رأت الجِدَّ، أخرجته من ذؤابتها ـ وفي رواية: من حُجْزَتها ـ فخلَّوْا سبيلها، ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ. فأرسل إلى حاطب فقال: «هل تعرف الكتاب»؟ قال: نعم. وذكر الحديث بنحو ما تقدَّم[٢]. ورُوِي أنَّ النبيَّ ﷺ أمَّن

---

(١) في (م): هشام.

(٢) المغازي للواقدي ٢/ ٧٩٧ - ٧٩٩، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٩٨ - ٣٩٩، وتفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٠ - ٣٥١، والبغوي ٤/ ٣٢٨ - ٣٢٩، والكشاف ٤/ ٨٨. وقول المصنِّف: وقيل: كان هذا في زمن الحديبية. أخرجه ابن المنذر عن قتادة، وابن مردويه عن أنس، كما في الدر المنثور ٦/ ٢٠٣. والحديث سلف تخريجه قريباً، ورواية إرسال علي والزبير وأبي مرثد الغنوي عند البخاري (٦٢٥٩) ومسلم (٢٤٩٤): (. . .) وإرسال علي والزبير والمقداد عند البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤).

جميعَ الناس يوم الفتح إلا أربعة، هي أحدهم[١].

الثانية: السورة أصلٌ في النَّهْيِ عن موالاة الكفَّار. وقد مضى ذلك في غير موضع. من ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[٢] [المائدة: ٥١]. ومثله كثير. وذكر أنَّ حاطبًا لما سمع: «يا أيها الذين آمنوا» غُشِيَ عليه من الفرح بخطاب الإيمان.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ يعني بالظاهر؛ لأنَّ قلب حاطب كان سليمًا؛ بدليل أنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم: «أمَّا صاحبكم فقد صَدَقَ» وهذا نصٌّ في سلامة فؤاده وخلوص اعتقاده[٣].

والباء في «بِالْمَوَدَّةِ» زائدة[٤]، كما تقول: قرأت السورة، وقرأت بالسورة، ورميت إليه ما في نفسي، وبما في نفسي. ويجوز أن تكون ثابتة على أنَّ مفعول «تُلْقُونَ» محذوف، معناه: تلقون إليهم أخبارَ رسولِ الله ﷺ بسبب المودَّة التي بينكم وبينهم. وكذلك «تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّة» أي: بسبب المودَّة[٥]. وقال الفرَّاء[٦]: «تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ» من صلة «أولياء»، ودخول الباء في المودَّة وخروجها سواء. ويجوز أن تتعلَّق بـ«لا تَتَّخِذُوا» حالًا من ضميره. وبـ«أولياء» صفة له. ويجوز أن تكون استئنافًا. ومعنى «تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ»: تخبرونهم بسرائر المسلمين، وتنصحون لهم،

---

(١) الكشاف ٤/ ٨٨ - ٨٩، والخبر أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٥٧٣)، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٦٠ - ٦١ عن أنس ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٦٧-١٦٨: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه: الحكم بن عبد الملك، وهو ضعيف. اهـ. وأخرجه أيضاً أبو داود (٢٦٨٣)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٠٥ - ١٠٦ عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: لمَّا كان يوم فتح مكة أمَّن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين... الحديث. دون ذكر اسم المرأتين.

(٢) سلفت ٥/ ٨٧، ٢٧٢ و٨/ ٤٦.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧١.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١٠.

(٥) الكشاف ٤/ ٨٩.

(٦) في معاني القرآن له ٣/ ١٤٧ - ١٤٩.

وقاله الزجاج[١].

الرابعة: مَن كَثُر تطلُّعه على عورات المسلمين، وينبِّه عليهم، ويعرِّف عدوَّهم بأخبارهم، لم يكن بذلك كافرًا إذا كان فعله لغَرَض دُنْيَوِيٍّ واعتقاده على ذلك سليم، كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليَدِ، ولم يَنْوِ الرِّدَّة عن الدِّين[٢].

الخامسة: إذا قلنا: لا يكون بذلك كافرًا، فهل يقتل بذلك حدًّا، أم لا؟ اختلف الناس فيه، فقال مالك وابن القاسم وأشهب: يجتهد في ذلك الإمام. وقال عبد الملك: إذا كانت عادته تلك، قُتل؛ لأنَّه جاسوس، وقد قال مالك بقتل الجاسوس - وهو صحيح - لإضراره بالمسلمين، وسعيه بالفساد في الأرض. ولعل ابن الماجِشُون[٣] إنَّما اتَّخذ التكرار في هذا؛ لأنَّ حاطبًا أُخذ في أوَّل فعله. والله أعلم.

السادسة: فإن كان الجاسوس كافرًا، فقال الأوزاعيُّ: يكون نقضًا لعهده. وقال أَصْبَغ: الجاسوس الحربِيُّ يُقتَل، والجاسوس المسلم والذميُّ يعاقبان إلا أن يظاهرا[٤] على الإسلام، فيُقتلان. وقد روي عن عليٍّ بن أبي طالب ﵁ أنَّ النبيَّ ﷺ أتى بَعينٍ للمشركين اسمه فُرَات بن حَيَّان، فأمر به أن يُقتل، فصاح: يا معشرَ الأنصار، أُقْتَلُ وأنا أشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله! فأمر به النبيُّ ﷺ، فخلَّى سبيله. ثم قال: «إنَّ منكم من أَكِلُه إلى إيمانه منهم فُرَات بن حَيَّان»[٥].

---

(١) في معاني القرآن له ٥/ ١٥٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧١ ، وما بعده منه أيضاً.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٢ : ابن الجارود. وأشير في هامشه إلى أنه ورد في إحدى النسخ: ابن الماجشون.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٢ : أن يتعاهدا. وأشير في هامشه إلى لفظة: يظاهرا.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٢ ، والحديث أخرجه هكذا ابن عدي في الكامل ٤/ ١٣٣٢ . وفي إسناده: جُبَارة بن المُغَلِّس، وهو ضعيف. التهذيب. وأخرجه أيضاً البزار (٢٧٤٨ كشف الأستار) عن علي ﵁ بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٨١ : رواه البزار، وفيه: ضرار بن صُرَد، وهو ضعيف. اهـ. وهو عند أبي داود (٢٦٥٢)، وأحمد (١٨٩٦٥) عن فرات بن حيان بنحوه. وعن بعض أصحاب النبي ﷺ وهو عند أحمد (١٦٥٩٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٨٠ - ٣٨١ : رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب، وهو ثقة.

وقوله: «وَقَدْ كَفَرُوا» حال، إمَّا من «لَا تَتَّخِذُوا»، وإما من «تُلْقُونَ»، أي: لا تتولّوهم أو تُوادُّوهم، وهذه حالهم. وقرأ الْجَحْدَرِيُّ: «لما جاءكم»(١) أي: كفروا؛ لأجل ما جاءكم من الحقِّ.

السابعة: قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ استئناف كلام، كالتفسير لكفرهم وَعُتُوِّهم، أو حال من «كَفَرُوا». ﴿وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تعليلٌ لـ «يخرِجون» المعنى: يُخرِجون الرسولَ، ويخرجونكم من مكّة؛ لأن تؤمنوا بالله، أي: لأجل إيمانكم بالله(٢). قال ابن عباس: وكان حاطب ممن أُخرج مع النبيِّ ﷺ. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: لا تتَّخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي. وقيل: في الكلام حذف، والمعنى: إن كنتم خرجتم جهادًا فِي سبيلي، وابتغاء مرضاتي، فلا تلقوا إليهم بالمودَّة. وقيل: «إِنْ كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي» شرط، وجوابه مقدَّم. والمعنى: إن كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي فلا تتخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياء(٣). ونصب «جِهَادًا» و«ابْتِغَاءَ» لأنَّه مفعول له(٤). وقوله: «تُسِرُّون إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدّةِ» بدل من «تلقون» ومبيِّن عنه. والأفعال تبدل من الأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ [الفرقان: ٦٨]. وأنشد سِيبويه:

مَتَى تأتِنَا تَلْمِم بنا في ديارنا تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً ونارًا تأَجَّجا(٥)

وقيل: هو على تقدير: أنتم تُسِرُّون إليهم بالمودَّة. فيكون استئنافًا. وهذا كلُّه معاتبةٌ لحاطب. وهو يدلُّ على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله ﷺ وصِدْقِ إيمانه،

---

(١) الكشاف ٤/ ٨٩، وما بعده منه أيضاً.

(٢) الكشاف ٤/ ٨٩.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٦.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١ - ٤٢، وما بعده منه أيضًا.

(٥) سلف ٢/ ٨٥.

فإنَّ المعاتبة لا تكون إلا من مُحِبٍّ لحبيبه. كما قال:

أعاتب ذا المودَّة من صديقٍ إذا ما رابني منه اجتناب
إذا ذهب العتاب فليس وُدٌّ ويبقى الودُّ ما بقي العتاب[1]

ومعنى «بِالْمَوَدَّةِ» أي: بالنصيحة في الكتاب إليهم[2]. والباء زائدة، كما ذكرنا، أو ثابتة غير زائدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ﴾ أضمرتم ﴿وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ أظهرتم. والباء في «بِمَا» زائدة، يقال: علمت كذا وعلمت بكذا. وقيل: وأنا أعلم من كلٍّ أحد بما تخفون وما تعلنون[3]، فحذف: من كلٍّ أحد. كما يقال: فلان أعلم وأفضل من غيره. وقال ابن عباس: وأنا أعلم بما أخفيتم في صدوركم، وما أظهرتم بألسنتكم من الإقرار والتوحيد. ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ﴾ أي: من يُسِرُّ إليهم ويكاتبهم منكم ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: أخطأ قصد الطريق.

قوله تعالى: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ يلقوكم[4] ويصادفوكم، ومنه: المثاقفة، أي: طلب مصادفة الغُرّة في المسايفة وشبهها[5]. وقيل: «يَثْقَفُوكُمْ» يظفروا بكم ويتمكّنوا منكم[6] ﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: أيديهم بالضرب والقتل،

(١) القائل علي بن الجهم، والبيتان في بهجة المجالس ٢/ ٧٢٨ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١١ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٦ .

(٥) أساس البلاغة للزمخشري (ثقف)، وقال الجاحظ في البيان والتبيين ١/ ١٤٧ : فإن قالوا: رمى فأصاب الغُرَّة، وأصاب عين القرطاس: فهو الذي ليس فوقه أحد.

(٦) الكشاف ٤/ ٩٠ ، وما بعده منه أيضاً.

وألسنتهم بالشتم. ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ بمحمَّد؛ فلا تناصحوهم؛ فإنَّهم لا يناصحونكم.

قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ لما اعتذر حاطب بأنَّ له أولادًا وأرحامًا فيما بينهم، بيَّن الرَّبُّ عزَّ وجلَّ أنَّ الأهل والأولاد لا ينفعون شيئًا يوم القيامة إن عُصِيَ من أجل ذلك[1]. ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ﴾ فيدخِل المؤمنين الجنَّة، ويدخل الكافرين النار[2].

وفي «يفصل» قراءات سبع: قرأ عاصم: «يَفصِل» بفتح الياء وكسر الصاد مخففًا. وقرأ حمزة والكسائيُّ مشدَّدًا إلا أنَّه على ما لم يُسَمَّ فاعله[3]. وقرأ طلحة والنَّخَعيُّ: بالنون وكسر الصاد مشدَّدة[4]. وروي عن علقمة كذلك بالنون مخفَّفة. وقرأ قتادة وأبو حَيْوَة: «يُفْصِل» بضمِّ الياء وكسر الصاد مخفَّفة، من أفصل[5]. وقرأ الباقون: «يُفْصَل» بياء مضمومة وتخفيف الفاء وفتح الصاد، على الفعل المجهول[6]، واختاره أبو عبيد. فمن خفَّف؛ فلقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧] وقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ [النبأ: ١٧]. ومن شدَّد؛ فلأنَّ ذلك أبين في الفعل الكثير المكرَّر المتردِّد. ومن أتى به على ما يُسَمَّ فاعله؛ فلأنَّ الفاعل معروف. ومن أتى به مُسَمَّى الفاعل، ردَّ الضمير إلى الله تعالى[7]. ومن قرأ بالنون؛ فعلى التعظيم. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١١.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٣.
(٣) السبعة ص ٦٣٣، والتيسير ص ٢١٠.
(٤) القراءات الشاذة ص ١٥٥.
(٥) الكشاف ٤/ ٩٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٤.
(٦) السبعة ص ٦٣٣، والتيسير ص ٢١٠.
(٧) الحجة للفارسي ٦/ ٢٨٥ - ٢٨٦، والكشف لمكي ٢/ ٣١٨ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لما نهى عن موالاة الكفّار، ذكر قصّة إبراهيم عليه السلام، وأنّ من سيرته التبرُّؤ من الكفّار، أي: فاقتدوا به وأتمُّوا، إلا في استغفاره لأبيه[١]. والإِسْوَةُ والأُسْوَةُ: ما يُتَأَسَّى به، مثل القِدْوة والقُدْوة[٢]. ويقال: هو إسوتك، أي: مثلك، وأنت مثله. وقرأ عاصم: «أُسْوَة» بضمّ الهمزة لغتان[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ يعني: أصحاب إبراهيم من المؤمنين[٤]. وقال ابن زيد: هم الأنبياء[٥] ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾ الكفّار[٦] ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: الأصنام. وبُرَآء: جمع بَرِيْء[٧]، مثل شريك وشركاء، وظريف وظرفاء.

وقراءة العامة على وزن فُعَلَاء. وقرأ عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «بِرَاء» بكسر الباء على وزن فِعال[٨]، مثل قَصير وقِصار، وطَويل وطِوال، وظَريف وظِراف. ويجوز ترك الهمزة حتى تقول: بَرًا، وتنوَّن. وقرِئ: «بَرَاء» على الوصف بالمصدر.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٠.
(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٢.
(٣) السبعة ص ٦٣٣، والتيسير ص ١٧٨.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٦.
(٥) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٦٦.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٥١٨.
(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٠.
(٨) القراءات الشاذة ص ١٥٥، والمحتسب ٢/ ٣١٩.

وقرئ: «بُراء» على إبدال الضمِّ من الكسر، كرُخَال ورُباب[١].

والآية نصٌّ في الأمر بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام في فعله. وذلك يصحِّح أنَّ شَرْعَ مَن قبلنا شَرْعٌ لنا فيما أخبر الله ورسوله[٢].

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: بما آمنتم به من الأوثان. وقيل: أي: بأفعالكم، وكذَّبناها وأنكرنا أن تكونوا على حقٍّ[٣]. ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ أي: هذا دأبنا معكم مادتم على كفركم ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ فحينئذٍ تنقلب المعاداةُ موالاةً ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فلا تتأسَّوْا به في الاستغفار فتستغفرون للمشركين؛ فإنَّه كان عن مَوْعِدة منه له، قاله قتادة ومجاهد وغيرهما[٤]. وقيل: معنى الاستثناء أنَّ إبراهيم هجر قومه وباعدهم إلا في الاستغفار لأبيه[٥]، ثم بيَّن عذره في سورة «التوبة»[٦].

وفي هذا دلالة على تفضيل نبيِّنا عليه الصلاة والسلام على سائر الأنبياء؛ لأنَّا حين أُمِرْنَا بالاقتداء به أُمِرْنَا أمرًا مطلقًا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] وحين أُمِرنا بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام استثني بعض أفعاله. وقيل: هو استثناء منقطع، أي: لكن قول إبراهيم لأبيه: لأستغفرنَّ لك. إنَّما جرى؛ لأنَّه ظنَّ أنَّه أسلم، فلما بان له أنَّه لم يُسلم، تبرَّأ منه. وعلى هذا يجوز

---

(١) الكشاف ٤/ ٩١ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص ١٥٥ عن عيسى بن عمر، والرخال، جمع رخل: وهي الأنثى من أولاد الضأن. والرباب، جمع الرُّبَّى: وهي الشاة التي وضعت حديثاً. اللسان (رخل) و(ربب).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٣ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥١٨ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥١٨ عن قتادة، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٧ ، والطبري ٢٢/ ٥٦٨ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٧ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٦٧ - ٥٦٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥١٨ وعزاه للكلبي.

(٦) عند الآية (١١٤)، وسلفت ١٠/ ٤٠٠ .

الاستغفار لمن يُظَنُّ أنَّه أسلم، وأنتم لم تجدوا مثل هذا الظَّنِّ، فَلِمَ توالوهم؟!.

﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ هذا من قول إبراهيم عليه السلام لأبيه، أي: ما أدفع عنك من عذابِ الله شيئًا إن أشركتَ به. ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا﴾ هذا من دعاء إبراهيم عليه السلام وأصحابه. وقيل: علَّم المؤمنين أن يقولوا هذا[1]، أي: تبرَّؤوا من الكفَّار، وتوكَّلوا على الله، وقولوا: «ربنا عليك توكلنا» أي: اعتمدنا ﴿وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ أي: رجعنا ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لك الرجوع في الآخرة ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: لا تُظهر عدوَّنا علينا؛ فيظنُّوا أنَّهم على حقٍّ، فيفتتنوا بذلك[2]. وقيل: لا تسلِّطهم علينا فيفتنونا ويعذِّبونا[3]. ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٦ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ﴾ أي: في إبراهيم ومن معه من الأنبياء والأولياء[4]. ﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ أي: في التبرُّؤ من الكفَّار. وقيل: كرّر؛ للتأكيد. وقيل: نزل الثاني بعد الأوَّل بمدَّة، وما أكثر المكرَّرات في القرآن على هذا الوجه.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عن الإسلام وقبول هذه المواعظ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ أي: لم يتعبَّدهم لحاجته إليهم. ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ في نفسه وصفاته.

ولما نزلت، عادى المسلمون أقرباءَهم من المشركين، فعلم الله شدَّة وَجْدِ المسلمين في ذلك فنزلت: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾ وهذا

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٠.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٧.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥١٨ وعزاه لابن عباس، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٦٩.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٧٠.

بأن يُسْلِم الكافر. وقد أَسلم قوم منهم بعد فتح مكَّة، وخالطهم المسلمون(١)، كأبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسُهيل بن عمرو، وحكيم بن حِزام(٢). وقيل المودَّة: تزويج النبيِّ ﷺ أمَّ حَبيبة بنت أبي سفيان؛ فلانت عند ذلك عَرِيكة أبي سفيان، واسترخت شكيمته في العداوة(٣).

قال ابن عباس: كانت المودَّة بعد الفتح تزويج النبيِّ ﷺ أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت تحت عبد الله بن جَحْش، وكانت هي وزوجها من مهاجرة الحبشة. فأمَّا زوجها فتنصَّر وسألها أن تتابعه على دينه، فأبت وصبرت على دينها، ومات زوجها على النصرانيَّة. فبعث النبيُّ ﷺ إلى النجاشيِّ فخطبها، فقال النجاشيُّ لأصحابه: من أَوْلاكم بها؟ قالوا: خالد بن سعيد بن العاص. قال: فزوِّجْها من نبيِّكم. ففعل، وأمهرها النجاشيُّ من عنده أربع مئة دينار. وقيل: خطبها النبيُّ ﷺ إلى عثمان بن عَفَّان، فلما زوَّجه إيَّاها، بعث إلى النجاشيِّ فيها، فساق عنه المهر، وبعث بها إليه. فقال أبو سفيان وهو مشرك لما بلغه تزويج النبيِّ ﷺ ابنته: ذلك الفَحْلُ لا يُقْدَعُ أَنْفُه(٤).

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٥٠ .

(٢) خبر إسلام أبي سفيان في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٠٣ ، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٥/ ١٠٣ عن الزهري مرسلاً. وخبر إسلام الحارث بن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٤١٣ ، وخبر إسلام سهيل بن عمرو في طبقات ابن سعد ٧/ ٤٠٤ ، وأما خبر حكيم بن حزام فأخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٤٠ بإسناده عن موسى بن عقبة.

(٣) الكشاف ٤/ ٩١ ، والعريكة: الطبيعة. ولانت عريكته: إذا انكسرت نخوته. والشكيمة: الأَنَفة والانتصار من الظلم. اللسان (عرك) و(شكم).

(٤) الكشاف ٨/ ٩١ ، وقول ابن عباس: كانت المودَّة بعد الفتح تزويج النبي ﷺ أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان. أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ٩٩ ، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢١٢٩ ، وفي إسناده: محمد بن السائب الكلبي، وعنده مناكير. وقال ابن حجر في الكافي الشاف ص ١٦٧ ـ ١٦٨ بعد أن أورد الخبر بطوله: هكذا ذكره الثعلبي بغير سند، ومجموعه مفرَّق في أحاديثه، وروى أبو داود [٢١٠٧]، والحاكم [٤/ ٢٢] من رواية الزهري، عن عروة، عن أم حبيبة أنها كانت تحت عبد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة، فزوَّجها النجاشيُّ النبيَّ ﷺ، وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل ابن حسنة. وروى الحاكم [٤/ ٢٠] عن الزهري قال: تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش الأسدي، وكان قد هاجر بها من مكة إلى الحبشة، ثم افتُتِن وتنصر ومات نصرانيًا وأثبت الله الإسلام لأم حبيبة حتى رجعت إلى المدينة فخطبها رسول الله ﷺ فزوَّجها إياه عثمان بن عفان. قال الزهري: وزعموا أن النبي ﷺ كتب إلى النجاشي فزوَّجها إياه، وساق =

«يقدع» بالدال غير المعجمة، يقال: هذا فحل لا يُقدَع أنفه، أي: لا يُضرَب أنفه. وذلك إذا كان كريمًا[(١)].

قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: هذه الآية رُخصةٌ من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم. قال ابن زيد: كان هذا في أوَّل الإسلام عند الموادعة وتَرْكِ الأمر بالقتال، ثم نسخ[(٢)]. قال قتادة: نسختها: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[(٣)] [التوبة: ٥]. وقيل: كان هذا الحكم لعلَّة، وهو الصلح، فلما زال الصلح بفتح مكَّة، نُسخ الحكم وبقي الرسم يُتْلَى. وقيل: هي مخصوصة في حلفاء النبيِّ ﷺ ومَنْ بينه وبينه عهد لم ينقضه، قاله الحسن. الكلبي: هم خُزَاعة وبنو الحارث بن عبد مناف. وقاله

= عنه أربعين أوقية. وروى الواقدي في المغازي وأخرجه عنه ابن سعد في الطبقات ٨/ ٩٨ - ٩٩ ومن طريقه الحاكم [٤/ ٢٢] من رواية جعفر بن محمد، عن أبيه قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية إلى النجاشي يخطب عليه أم حبيبة، وأصدقها من عنده أربع مئة دينار. قال الواقدي: حدثني عبد الله بن جعفر، عن عبد الواحد بن أبي عون قال: لما بلغ أبا سفيان بن حرب نكاح النبي ﷺ ابنته قال: ذاك الفحل لا يقدع أنفه. وقال أبو نعيم في الدلائل: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، فزوَّجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وأصدقها عنه أربع مئة دينار، وبعث بها إليه، وقال: وكان ذلك في سنة ستٍّ من الهجرة بعد رجوعه من خيبر، ولا أعلم في ذلك خلافاً. انتهى كلام ابن حجر.

ومسألة زواجه ﷺ من أمِّ حبيبة ذكرها مفصَّلة ابن عبد البر في (الاستيعاب ١٣/ ٣ بهامش الإصابة) والمقريزي في إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع ٦/ ٦٣ وما بعدها، فلتنظر لمن أراد التوسع فيها.

(١) تاج العروس والنهاية (قدع)، وكذا وردت في الاستيعاب (١٣/ ٨ بهامش الإصابة)، ويروى بالراء كما في المستدرك للحاكم ٤/ ٢٢، وأسباب النزول للواحدي ص ٤٥٠، والنهاية (قرع) أي: كُفْءٌ كريم لا يُرَدُّ.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٣، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٧٣.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٧، والطبري ٢٢/ ٥٧٣، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ٦٧، وابن الجوزي في نواسخ القرآن ص ٢٣٩.

أبو صالح، وقال: هم خزاعة[١]. وقال مجاهد: هي مخصوصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا[٢]. وقيل: يعني به النساء والصبيان؛ لأنَّهم ممَّن لا يقاتل، فأذن الله في بِرِّهم. حكاه بعض المفسرين[٣].

وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة. واحتجوا بأنَّ أسماء بنت أبي بكر سألت النبيَّ ﷺ: هل تَصِلُ أمَّها حين قدِمت عليها مشركة؟ قال: «نعم». خرَّجه البخاريُّ ومسلم[٤]. وقيل: إنَّ الآية فيها نزلت. روى عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه: أنَّ أبا بكر الصديق طلَّق امرأته قُتيلة في الجاهلية، وهي أمُّ أسماء بنت أبي بكر، فقدمت عليهم في المدة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله ﷺ وبين كفَّار قريش، فأهدت إلى أسماء بنت أبي بكر الصديق قُرْطاً وأشياء، فكرهت أن تَقْبَلَ منها حتى أتت رسولَ الله ﷺ فذكرت ذلك له، فأنزل الله تعالى: «لا يَنْهاكُمُ اللهُ عن الَّذين لم يُقاتِلوكُم في الدِّيْنِ». ذكر هذا الخبر الماورديُّ[٥] وغيره، وخرَّجه أبو داود الطَّيَالِسي في «مسنده»[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ «أن» في موضع خفض على البدل من

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٦٦ - ٦٧ .

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٦٨ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٧٥ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥١٩ ، وممن قال بذلك الزجاج في معاني القرآن له ٥/ ١٥٨ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٧٤ ، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٦٨ ، والحديث عند البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣)، وسلف ٦/ ١٤ .

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٥٢٠ .

(٦) برقم (١٦٣٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٦١١١)، وابن سعد في الطبقات ٨/ ٢٥٢ ، والطبري ٢٢/ ٥٧٢ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ٧٢ - ٧٣ ، والحاكم ٢/ ٤٨٥ - ٤٨٦ ، والواحدي في أسباب النزول ص ٤٥٠ من طريق مصعب بن ثابت، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. قلنا: في إسناده مصعب بن ثابت، وهو ضعيف. وأصل الخبر عند البخاري (٥٩٧٨)، ومسلم (١٠٠٣) عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وهي التي سألت النبيَّ ﷺ.

«الَّذِينَ»[١]، أي: لا ينهاكم الله عن أن تبرُّوا الذين لم يقاتلوكم. وهم خُزاعة، صالحوا النبيَّ ﷺ على ألَّا يقاتلوه ولا يُعينوا عليه أحدًا، فأمر ببرِّهم والوفاء لهم إلى أجلهم، حكاه الفرَّاء[٢]. ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ﴾ أي: تعطوهم قسطًا من أموالكم على وجه الصلة، وليس يريد به من العدل؛ فإنَّ العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل، قاله ابن العربيّ[٣].

الثالثة: قال القاضي أبو بكر في كتاب «الأحكام» له[٤]: استدلَّ به بعض مَن تُعقد عليه الخناصر على وجوب نفقة الابن المسلم على أبيه الكافر. وهذه وهلة[٥] عظيمة، إذ الإذن في الشيء أو ترك النهي عنه لا يدلُّ على وجوبه، وإنَّما يعطيك الإباحة خاصَّةً. وقد بيَّنَّا أنَّ إسماعيل بنَ إسحاق القاضي دخل عليه ذِمِّيٌّ، فأكرمه، فأخذ عليه الحاضرون في ذلك، فتلا هذه الآية عليهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: جاهدوكم على الدِّين ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ وهم عتاة أهل مكَّة. ﴿وَظَٰهَرُواْ﴾ أي: عاونوا على إخراجكم[٦]، وهم مشركو أهل مكَّة[٧] ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْۚ﴾ «أنْ» في موضع جرٍّ على البدل[٨]، على ما تقدَّم في «أنْ تبرُّوهُمْ». ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ أي: يتَّخذهم أولياء وأنصاراً وأحبابًا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١٤ .

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٠ .

(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٧٣ .

(٤) ٤/ ١٧٧٤ .

(٥) وَهِل في الشيء وعنه وَهِلاً: غلط فيه ونسيه. اللسان (وهل).

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٨ .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٢ .

(٨) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٨ .

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ **فيه ست عشرة مسألة:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ لما أمر المسلمين بترك موالاة المشركين، اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، وكان التناكح من أوْكد أسباب الموالاة، فبيَّن أحكام مهاجرة النساء. قال ابن عباس: جرى الصلح مع مشركي قريش عام الْحُدَيْبِيَة، على أنَّ من أتاه من أهل مكَّة، ردَّه إليهم، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلميَّة بعدَ الفراغ من الكتاب، والنبيُّ ﷺ بالحديبية بعدُ، فأقبل زوجها وكان كافراً ـ وهو صَيْفِيُّ بن الراهب. وقيل: مسافر المخزومي ـ فقال: يا محمَّد، اردد عليَّ امرأتي، فإنَّك شرطتَ ذلك! وهذه طِينة الكتاب لم تَجِفَّ بعدُ، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

وقيل: جاءت أمُّ كلثوم بنتُ عُقْبة بن أبي مُعَيْط، فجاء أهلها يسألون رسولَ الله ﷺ أن يردَّها[2]. وقيل: هربت من زوجها عمرو بنِ العاص وتبعها[3] أخواها عِمارة والوليد، فردَّ رسول الله ﷺ أَخويْها وحبسها، فقالوا للنبيِّ ﷺ: ردَّها علينا للشرط،

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٥١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٣٢ عن ابن عباس، والنكت والعيون ٥/ ٥٢١ وعزاه للكلبي، وورد في (م): سعيدة، بدل: سبيعة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧١١) و(٢٧١٢) عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ.

(٣) في (د) و(ظ) و(ز) و(م): ومعها. والمثبت من (ح)، وهو الموافق لما ورد في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٥ - ٣٢٦ ، وطبقات ابن سعد ٨/ ٢٣٠ .

فقال ﷺ: «كان الشرط في الرجال لا في النساء» فأنزل الله تعالى هذه الآية[١].

وعن عروة قال: كان مما اشترط سُهيل بن عمرو على النبيِّ ﷺ يومَ الْحُدَيْبِيَة: ألَّا يأتيك منَّا أحد ـ وإن كان على دينك ـ إلا رددتَه إلينا، حتى أنزل الله تعالى في المؤمنات ما أَنزل، يُومئ إلى أنَّ الشرط في ردِّ النساء نُسخ بذلك[٢]. وقيل: إنَّ التي جاءت أمَيْمة بنتُ بشر، كانت عند ثابت بنِ الشِّمْراخ، ففرَّت منه وهو يومئذٍ كافر، فتزوَّجها سَهْل بن حُنيف فولدت له عبد الله، قاله يزيد بن أبي حبيب[٣]. كذا قال الماورديُّ: أميمة بنت بشر كانت عند ثابت بنِ الشِّمْراخ. وقال المهدوِيُّ: وروى ابن وهب عن خالد أنَّ هذه الآية نزلت في أُمَيْمَة بنت بشر من بني عمرو بن عوف. وهي امرأة حسَّان بن الدَّحدَاح، وتزوَّجها بعد هجرتها سهل بن حُنيف[٤]. وقال مقاتل: إنَّها سعيدة زوجة صَيْفِي بن الراهب مشرك من أهل مكة[٥]. والأكثر من أهل العلم أنَّها أمُّ كلثوم بنت عُقبة.

الثانية: واختلف أهل العلم هل دخل النساء في عقد المهادنة لفظًا أو عمومًا؛ فقالت طائفة منهم: قد كان شرط ردّهنَّ في عقد المهادنة لفظًا صريحاً، فنسخ الله ردَّهنَّ من العقد ومنعَ منه، وبَقّاه في الرجال على ما كان. وهذا يدلُّ على أنَّ للنبيِّ ﷺ أن يجتهد رأيه في الأحكام، ولكن لا يقرُّه الله على خطأ. وقالت طائفة من أهل العلم: لم يشترط ردَّهنَّ في العقد لفظًا، وإنَّما أَطلق العقد في ردِّ من أَسلم. فكان ظاهر العموم اشتماله عليهنَّ مع الرجال، فبيَّن الله تعالى خروجهنَّ عن عمومه، وفرَّق بينهنَّ وبين الرجال لأمرين: أحدهما: أنهنَّ ذوات فروج يَحْرمْنَ عليهم. الثاني: أنهنَّ

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٤، وأورده ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٤١٩ وعزاه لابن أبي حاتم عن مقاتل ابن حيان.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٠٧، والحديث سلف تخريجه قريباً.

(٣) في النسخ: زيد بن حبيب، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ٥٢١ والكلام منه، وورد فيه: ابن الدحداحة، بدل: ابن الشمراخ. وينظر لزاماً أسد الغابة ٧/ ٢٥، والإصابة ١٢/ ١٣٣.

(٤) وأخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٤٩ (١٨٨٦٥) عن يزيد بن أبي حبيب ﷺ.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٢١، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٥٠ (١٨٨٦٦).

أرقُّ قلوبًا وأسرع تقلُّبًا منهم. فأما المقيمة منهنَّ على شركها، فمردودة عليهم(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ قيل: إنَّه كان من أرادت منهنَّ إضرارَ زوجها فقالت: سأهاجر إلى محمَّد ﷺ، فلذلك أمر ﷺ بامتحانهنَّ. واختلف فيما كان يمتحنهنَّ به على ثلاثة أقوال:

الأوَّل: قال ابن عباس: كانت الْمِحنَة أن تُستحلف بالله أنَّها ما خرجت من بُغْضِ زوجها، ولا رغبةً من أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقًا لرجل منَّا؛ بل حُبًّا لله ولرسوله(٢). فإذا حلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك، أعطى النبيُّ ﷺ زوجَها مهرَها وما أنفق عليها، ولم يردَّها(٣)، فذلك قوله تعالى: «فإن عَلِمْتُموهنَّ مؤمناتٍ فلا تَرجعُوهُنَّ إلى الكفَّار لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم يَحِلُّون لَهُنَّ».

الثاني: أنَّ المحنة كانت أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله، قاله ابن عباس أيضًا(٤).

الثالث: بما بيَّنه في السورة بعدُ من قوله تعالى: «يا أيُّها النَّبِيُّ إذا جاءكَ المؤمناتُ»(٥) قالت عائشة رضي الله عنها: ما كان رسول الله ﷺ يمتحن إلا بالآية التي قال الله: «إذا جاءكَ المؤمناتُ يُبايعْنَكَ» رواه مَعْمَر، عن الزُّهْرِيّ، عن عائشة. خرَّجه الترمذيُّ، وقال: هذا حديث حسن صحيح(٦).

الرابعة: أكثر العلماء على أنَّ هذا ناسخ لما كان عليه الصلاة والسلام عاهد عليه قريشًا، مِن أنَّه يردُّ إليهم من جاءه منهم مسلمًا، فنُسِخ من ذلك النساء. وهذا مذهب

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٢١، وما بعده منه أيضًا.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٢١ - ٥٢٢، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٧٥.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٧٦ - ٥٧٧.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٢٢.

(٦) الترمذي (٣٣٠٦)، وأخرجه أيضاً البخاري (٧٢١٤)، ومسلم (١٨٦٦)، وأحمد (٢٥٣٠٠).

من يرى نسخَ السُّنَّة بالقرآن[1].

وقال بعض العلماء: كلُّه منسوخ في الرجال والنساء، ولا يجوز أن يهادن الإمامُ العدوَّ على أن يردَّ إليهم من جاءه مسلمًا؛ لأنَّ إقامة المسلم بأرض الشرك لا تجوز. وهذا مذهب الكوفيين[2]. وعقد الصلح على ذلك جائز عند مالك.

وقد احتجَّ الكوفيون لما ذهبوا إليه من ذلك بحديث إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن خالد بن الوليد، أنَّ رسولَ الله ﷺ بعثه إلى قوم من خَثْعَم، فاعتصموا بالسجود، فقتلهم، فَوَداهم رسولُ الله ﷺ بنصف الدِّيَة، وقال: «أنا بريء من كلِّ مسلم أقام مع مشرك في دار الحرب لا تَراءَى ناراهما». قالوا: فهذا ناسخٌ لردِّ المسلمين إلى المشركين، إذ كان رسول الله ﷺ قد بَرِئَ ممَّن أقام معهم في دار الحرب[3]. ومذهب مالك والشافعيِّ أنَّ هذا الحكم غيرُ منسوخ. قال الشافعيُّ[4]:

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٧٤ وما بعده منه أيضًا.

(٢) شرح معاني الآثار للطحاوي ٣/ ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس٣/ ١١٣ ، وما بعده منه أيضًا، والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في الديات (٢٤٨)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٢٣٣)، والطبراني في الكبير (٣٨٣٦) من طريق حفص ابن غياث، عن إسماعيل بن أبي خالد، به. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٥٣ : رواه الطبراني ورجاله ثقات. اهـ. قلنا: وهو عند أبي داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤) من طريق أبي معاوية، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خثعم... الحديث بنحوه. وقال أبو داود إثره: رواه هشيم ومعمر وخالد الواسطي وجماعة لم يذكروا جريراً.

وأخرجه الترمذي (١٦٠٥)، وسعيد بن منصور ٢/ ٢٤٩ ، وابن أبي شيبة ١٤/ ٣٤٠ من طرق، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم مرسلاً. قال الترمذي: وهذا أصحُّ... وسمعت محمداً [يعني البخاري] يقول: الصحيح حديث قيس عن النبي ﷺ مرسل.اهـ.

وقوله ﷺ: لا تراءى ناراهما. قال الطحاوي في شرح المشكل ٨/ ٢٧٥ - ٢٧٦ : أي: هذه تدعو إلى الله، وهذه تدعو إلى الشيطان. أو: لا يحل لمسلم أن يسكن بلاد المشركين، فيكون معهم بقدر ما يرى كل واحد منهما نار صاحبه.

(٤) في الأم ٤/ ١١٧ ، والمصنف نقله عنه بواسطة النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١١٣ .

وليس لأحد هذا العقد إلا الخليفة أو رجل يأمره؛ لأنَّه يَلي الأموال كلَّها. فمن عقد ـ غير الخليفة ـ هذا العقد، فهو مردود.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ أي: هذا الامتحان لكم، والله أعلم بإيمانهنَّ[١]؛ لأنه مُتَوَلِّي السرائر. ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ أي: بما يظهر من الإيمان. وقيل: إن علمتموهنَّ مؤمنات قبل الامتحان ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي: لم يحِلّ اللهُ مؤمنةً لكافر، ولا نكاح مؤمن لمشركة[٢].

وهذا أدلُّ دليل على أنَّ الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامُها لا هجرتها. وقال أبو حنيفة: الذي فرَّق بينهما هو اختلاف الدارين. وإليه إشارة في مذهب مالك، بل عبارة. والصحيح الأوَّل؛ لأنَّ الله تعالى قال: «لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم يحلونَ لهنَّ» فبيَّن أنَّ العلَّة عدم الحِلِّ بالإسلام، وليس باختلاف الدار[٣]. والله أعلم. وقال أبو عمر[٤]: لا فرق بين الدارين لا في الكتاب ولا في السنة ولا في القياس، وإنَّما المراعاة في ذلك الدِّينان، فباختلافهما يقع الحكم وباجتماعهما، لا بالدار. والله المستعان.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ أمر الله تعالى إذا أُمْسِكت المرأة المسلمة أن تَرُدَّ على زوجها ما أنفق، وذلك من الوفاء بالعهد؛ لأنَّه لما مُنع من أهله بحرمة الإسلام، أمر بردِّ المال حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين: الزوجة والمال[٥].

السابعة: ولا غُرْمَ إلا إذا طالب الزوج الكافر، فإذا حضر وطالب منعناها

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٣.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٤.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٥.

(٤) في الاستذكار ١٦/ ٣٣٢.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٥.

وغَرِمنا. فإذا كانت ماتت قبل حضور الزوج، لم نَغرَم المهر؛ إذ لم يتحقق المنع. وإن كان المسمَّى خمرًا أو خنزيرًا، لم نَغْرم شيئًا؛ لأنَّه لا قيمةَ له.

وللشافعيِّ في هذه الآية قولان: أحدهما: أن هذا منسوخ. قال الشافعيُّ: وإذا جاءتنا المرأة الحرَّة من أهل الهُدنَة مسلمةً مهاجِرةً من دار الحرب إلى الإمام في دار السلام أو في دار الحرب، فمن طلبها مِن وَلِيٍّ - سِوَى زوجها - مُنع منها بلا عِوَض. وإذا طلبها زوجها لنفسه أو غيره بوكالته، ففيه قولان: أحدهما: يُعطَى العِوض، والقول ما قال الله عزَّ وجلَّ. وفيه قول آخر: أنَّه لا يُعطَى الزوج المشرك الذي جاءت زوجته مسلمةً العِوضَ. فإن شرط الإمامُ ردَّ النساء، كان الشرط [منتقضاً، ومن قال هذا قال: إن شرط رسول الله ﷺ لأهل الحديبية - أن فيه أن يردَّ من جاء منهم، وكان النساء منهم - كان شرطاً صحيحاً، فنسخه الله تعالى وردَّ العوض مِن نَسْخ من نَسَخَه منهم، فلما قضى الله تعالى ثم رسوله ﷺ ألّا يردَّ النساء، كان شَرْطُ من شَرَطَ ردَّ النساء منسوخًا، وليس عليه عِوض؛ لأنَّ الشرط المنسوخ باطل، ولا عوض للباطل[(١)].

الثامنة: أمر الله تعالى بردِّ مثل ما أنفقوا إلى الأزواج، وأنَّ المخاطَب بهذا الإمامُ، ينفذ ممَّا بين يديه من بيت المال الذي لا يتعيَّن له مصرف[(٢)]. وقال مقاتل: يردُّ المهر الذي يتزوَّجها من المسلمين، فإن لم يتزوجها من المسلمين أحد، فليس لزوجها الكافر شيء[(٣)]. وقال قتادة: الحكم في ردِّ الصداق إنَّما هو في نساء أهل العهد، فأمَّا من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يردُّ إليهم الصداق. والأمر كما قاله.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ يعني إذا أسلمنَ وانقضت عِدَّتهنَّ؛ لما ثبت من تحريم نكاح المشركة [والمعتدَّة[(٤)]. فإن أسلمت قبل الدخول

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٠ - ١١١، وما بين حاصرتين منه، ومن الأم للشافعي ٤/ ١١٥ - ١١٧.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٥ - ١٧٧٦.

(٣) زاد المسير ٨/ ٢٤١.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٦، وما بين حاصرتين لم يرد في (د) و(ظ).

ثبت النكاح] في الحال، ولها التزوُّج.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أباح نكاحها بشرط المهر؛ لأنَّ الإسلام فرَّق بينها وبين زوجها الكافر(١).

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ قراءة العامة بالتخفيف؛ من الإمساك. وهو اختيار أبي عبيد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وقرأ الحسن وأبو العالية وأبو عمرو: «وَلَا تُمَسِّكُوا»(٢) مشدَّدة من التمسُّك. يقال: مَسَّك يُمَسِّك تمسُّكًا، بمعنى: أمسك يُمسك. وقرئ: «وَلَا تَمَسَّكوا»(٣) بنصب التاء، أي: لا تتمسكوا.

والعِصَم، جمع العِصْمة: وهو ما اعتصم به. والمراد بالعصمة هنا النكاح. يقول: من كانت له امرأة كافرة بمكَّة فلا يعتدُّ بها، فليست له امرأة، فقد انقطعت عصمتها(٤)؛ لاختلاف الدارين. وعن النَّخَعِيِّ: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر(٥).

وكان الكفَّار يتزوَّجون المسلمات، والمسلمون يتزوَّجون المشركات، ثم نسخ ذلك في هذه الآية(٦). فطلَّق عمر بن الخطاب حينئذٍ امرأتين له بمكَّة مشركتين: قُرَيبة بنت أبي أميَّة، فتزوَّجها معاوية بن أبي سفيان، وهما على شِرْكهما بمكَّة. وأمَّ كُلْثوم بنت عمرو الخُزَاعِيَّة أمَّ عبد الله بنِ المغيرة، فتزوَّجها أبو جَهم بن حُذافة وهما على شِرْكهما(٧).

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦، ولم ترد المسألتان التاسعة والعاشرة في (ح).

(٢) السبعة ص ٦٣٤، والتيسير ص ٢١٠، والحجة للفارسي ٦/ ٢٨٦.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٥٥ عند أبي عمرو والحسن.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٣.

(٥) الكشاف ٤/ ٩٣.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٦.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٣، والخبر في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٢٧، عن ابن إسحاق، عن الزهري، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٨٤، وأخرجه أيضاً البخاري ضمن حديث صلح الحديبية (٢٧٣١) و(٢٧٣٢) =

فلما وَلِيَ عمر، قال أبو سفيان لمعاوية: طلِّق قُرَيبة؛ لئلا يرى عمر سَلَبَه في بيتك، فأبى معاوية من ذلك[١]. وكانت عند طلحة بن عبيد الله أَرْوَى بنت ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب، ففرَّق الإسلام بينهما، ثم تزوَّجها في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص، وكانت ممَّن فرَّ إلى النبيِّ ﷺ من نساء الكفَّار، فحبسها وزوَّجها خالدًا[٢].

وزوَّج النبيُّ ﷺ زينبَ ابنته ـ وكانت كافرةً ـ من أبي العاص بنِ الربيع، ثم أسلمت وأَسلم زوجها بعدها. ذَكر عبد الرزاق، عن ابن جُريج، عن رجل، عن ابن شهاب، قال: أَسلمت زينب بنت النبيِّ ﷺ، وهاجرت بعد النبيِّ ﷺ في الهجرة الأولى، وزوجها أبو العاص بن الربيع عبد العُزَّى مشرك بمكَّة. الحديث، وفيه: أنَّه أسلم بعدها. وكذلك قال الشعبيُّ. قال الشَّعبيُّ: وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأةَ أبي العاص بنِ الربيع، فأَسلمت ثم لحقت بالنبيِّ ﷺ، ثم أَتى زوجها المدينةَ، فأمَّنته، فأَسلم، فردَّها عليه النبيُّ ﷺ[٣].

وقال أبو داود: عن عكرمة عن ابن عباس: بالنكاح الأوَّل، ولم يحدث شيئاً. قال محمد بن عمرو في حديثه: بعد ستِّ سنين. وقال الحسن بن عليٍّ: بعد سنتين[٤]. قال أبو عمر[٥]: فإن صحَّ هذا، فلا يخلو من وجهين: إمَّا أنَّها لم تَحِضْ حتى أسلم

= بلفظ: فطلَّق عمر يومئذ امرأتين، كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. اهـ. وقصة طلاق أمِّ كلثوم بنت عمرو أخرجها ابن بشكوال في غوامض الأسماء المبهمة ٢/ ٧١٧ من طريق الزهري، عن عروة. وورد في مصادر التخريج: أم عبيد الله بن عمر، بدل: أم عبد الله بن المغيرة. وورد أيضاً عند ابن هشام وغوامض الأسماء المبهمة: حذيفة، بدل: حذافة.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٣ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٥٨٤ - ٥٨٥ عن الزهري.

(٣) قول الزهري عند عبد الرزاق في المصنف (١٢٦٤٩). وقول الشعبي عند البغوي ٤/ ٣٣٣ ، وأخرجه عنه عبد الرزاق (١٢٦٤٠)، ومن طريقه الطبراني في الكبير ٢٠/ ٢٠١ (٤٥٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٥ : رواه الطبراني وفيه: جابر الجعفي، وهو ضعيف، وقد وثق. اهـ.
وأخرجه من طريق أخرى سعيد بن منصور في السنن ٢/ ٧٣ .

(٤) سنن أبي داود (٢٢٤٠)، وأخرجه أيضاً الترمذي (١١٤٣)، وابن ماجه (٢٠٠٩)، وأحمد (١٨٧٦) من طريق داود بن حصين، عن عكرمة، به. قال الترمذي: هذا حديث ليس بإسناده بأس ...

(٥) في الاستذكار ١٦/ ٣٢٦ .

زوجها، وإمَّا أنَّ الأمر فيها منسوخ بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [البقرة:٢٢٨] يعني: في عِدَّتهنَّ. وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء أنَّه عنى به العِدَّة. وقال ابن شهاب الزهريُّ - رحمه الله - في قصَّة زينب هذه: كان قبل أن تنزل الفرائض. وقال قتادة: كان هذا قبل أن تنزل سورة «براءة» بقطع العهود بينهم وبين المشركين. والله أعلم.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ المراد بالكوافر هنا: عبدة الأوثان، مَن لا يجوز ابتداءً نكاحها، فهي خاصَّة بالكوافر من غير أهل الكتاب. وقيل: هي عامَّة، نُسِخَ منها نساء أهل الكتاب. ولو كان إلى ظاهر الآية، لم تحلَّ كافرة بوجه. وعلى القول الأوَّل إذا أسلم وَثَنِيٌّ أو مجوسيٌّ ولم تُسلم امرأته، فرّق بينهما. وهذا قول بعض أهل العلم. ومنهم من قال: ينتظر بها تمام العِدَّة. فمن قال يفرّق بينهما في الوقت ولا ينتظر تمام العِدَّة إذا عرض عليها الإسلام ولم تُسلم، مالكُ بن أنس، وهو قول الحسن وطاوس ومجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة والحَكَم، واحتجُّوا بقوله تعالى: «ولا تُمْسِكوا بِعِصَمِ الكوافِرِ»(١).

وقال الزهريُّ: ينتظر بها العِدَّة. وهو قول الشافعي وأحمد(٢). واحتجُّوا بأنَّ أبا سفيان بن حرب أَسلم قبل هند بنت عُتبة امرأتِه، وكان إسلامه بمرِّ الظَّهْران، ثم رجع إلى مكَّة وهندٌ بها كافرة مقيمة على كفرها، فأَخذت بلحيته وقالت: اقتلوا الشيخ الضَّالَّ. ثم أَسلمت بعده بأيام، فاستقرَّا على نكاحهما؛ لأنَّ عدَّتها لم تكن انقضت. قالوا: ومثله حكيم بن حزام أَسلم قبل امرأته، ثم أَسلمت بعده، فكانا على نكاحهما(٣).

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٣ - ١١٤، وقول مالك في الموطأ ٢/ ٥٤٥، والمدونة ٢/ ٢٩٨، وقول الحسن أخرجه ابن أبي شيبة ٥/ ١٠٤ - ١٠٥، والمسألة ذكرها أيضاً ابن المنذر في الإشراف ٤/ ٢١٠ وعزاها للمذكورين أعلاه.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٤ - ١١٥، وقول الشافعي في الأم ٤/ ١٨٥، وقول أحمد في المغني ١٠/ ٨.

(٣) الاستذكار ١٦/ ٣٢٤ - ٣٢٥، وما بعده منه أيضاً، وينظر الأم ٤/ ١٨٥ و٥/ ٤١، ومرُّ الظهران: =

قال الشافعيُّ: ولا حجَّة لمن احتج بقوله تعالى: «ولا تُمْسِكوا بِعِصَمِ الكوافِر» لأنَّ نساء المسلمين محرَّمات على الكفَّار، كما أنَّ المسلمين لا تحلُّ لهم الكوافر والوثنيات ولا المجوسيَّات بقول الله عزَّ وجلَّ: «لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم يَحِلُّونَ لهنَّ» ثم بيَّنت السنَّة أنَّ مراد الله من قوله هذا أنَّه لا يَحِلُّ بعضهم لبعض إلا أن يُسلم الباقي منهما في العِدَّة.

وأما الكوفيون ـ وهم سفيان وأبو حنيفة وأصحابه ـ فإنَّهم قالوا في الكافرين الذِّمِّيِّين: إذا أَسلمت المرأة، عُرِض على الزوج الإسلام، فإن أَسلم، وإلا فُرِّق بينهما. قالوا: ولو كانا حربيين فهي امرأته حتى تحيضَ ثلاثَ حِيَضٍ[1]. إذا كانا جميعاً في دار الحرب، أو في دار الإسلام. وإن كان أحدهما في دار الإسلام والآخر في دار الحرب، انقطعت العصمة بينهما، فراعوا الدار، وليس بشيء. وقد تقدَّم.

الثالثة عشرة: هذا الاختلاف إنَّما هو في المدخول بها، فإن كانت غيرَ مدخول بها، فلا نعلم اختلافًا في انقطاع العصمة بينهما؛ إذ لا عِدَّة عليها. كذا يقول مالك في المرأة ترتدُّ وزوجها مسلم: انقطعت العصمة بينهما. وحجَّته: «ولا تمسكوا بعصم الكوافر» وهو قول الحسن البصري والحسن بن صالح بن حَيٍّ. ومذهب الشافعي وأحمد أنَّه ينتظر بها تمام العدَّة[2].

الرابعة عشرة: فإن كان الزوجان نصرانيين، فأسلمت الزوجة، ففيها أيضًا اختلاف، ومذهب مالك وأحمد والشافعيِّ الوقوف إلى تمام العدَّة. وهو قول مجاهد[3]. وكذا الوَثَنِي تُسلم زوجته، أنَّه إن أسلم في عدَّتها فهو أحقُّ بها، كما كان

= قرية قرب مكة. معجم البلدان ٤/ ٦٣ . وخبر إسلام هند بنت عتبة أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ٢٣٦ بإسناده عن عبد الله بن الزبير، وعلَّق طرفاً منه البخاري (٣٨٢٥) عن عائشة رضي الله عنها.

(١) الاستذكار ١٦/ ٣٣١ .

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٥ - ١١٦ ، وسلف ذكر الأقوال قريباً.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٦ ، وقول مالك في المدونة ٢/ ٢٩٨ ، وقول أحمد في المغني ١٠/ ٦ ، وقول الشافعي في الأم ٥/ ٤٣ ، وقول مجاهد أخرجه عنه ابن أبي شيبة ٥/ ٩٣ .

صَفْوان بن أمَيّة وعِكْرمة بن أبي جهل أحقَّ بزوجتَيْهما لمَّا أَسلما في عدَّتيهما، على حديث ابن شهاب. ذكره مالك في «الموطأ»[(١)]، قال ابن شهاب: كان بين إسلام صفوانَ وبين إسلام زوجتِه نحوٌ من شهر. قال ابن شهاب: ولم يبلغنا أنَّ امرأةً هاجرت إلى رسول الله ﷺ وزوجها كافر مقيم بدار الحرب، إلا فرَّقت هجرتُها بينها وبين زوجها، إلا أن يقْدَم زوجها مهاجرًا قبل أن تنقضي عدَّتها. ومن العلماء من قال: ينفسخ النكاح بينهما. قال يزيد بن علقمة: أسلم جدِّي ولم تُسلم جدَّتي، ففرَّق عمر بينهما ﷺ، وهو قول طاوس. وجماعة غيره منهم عطاء والحسن وعكرمة قالوا: لا سبيلَ عليها إلا بخطبة[(٢)].

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ قال المفسرون: كان من ذهب من المسلمات مرتدَّات إلى الكفَّار من أهل العهد يقال للكفَّار: هاتُوا مهرها. ويقال للمسلمين إذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة: ردُّوا إلى الكفار مهرَها. وكان ذلك نَصَفًا وعدلًا بين الحالتين. وكان هذا حكم الله مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصَّةً بإجماع الأمة، قاله ابن العربيِّ[(٣)].

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما ذكر في هذه الآية. ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

---

(١) ٢/ ٥٤٤ .

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٦ ، وقول يزيد ذكره عنه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩/ ٢٨٢ ، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ٥/ ٩١ بلفظ: أن رجلاً من بني ثعلب يقال له: عباد بن النعمان فكان تحته امرأة من بني تميم، فأسلمت، فدعاه عمر فقال: إما أن تسلم، وإما أن أنزعها منك. فأبى أن يسلم، فنزعها منه عمر. وقول طاوس وعطاء والحسن أخرجه عنهم ابن أبي شيبة ٥/ ٩٠ ، وذكره عنهم ابن المنذر في الإشراف ٤/ ٢٠٩ .

(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٧٦ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ في الخبر: أنَّ المسلمين قالوا: رضينا بما حكم الله، وكتبوا إلى المشركين، فامتنعوا، فنزلت: «وإنْ فَاتَكُم شيءٌ من أزواجِكم إلى الكفَّار فعاقَبْتُم فآتُوا الَّذِينَ ذهبتْ أزواجُهم مثلَ ما أنفقوا»[1]. وروى الزهريُّ، عن عُروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: حكم الله عزَّ وجلَّ بينكم فقال جلَّ ثناؤه: «واسْألُوا ما أنفقتُم ولْيَسْألوا ما أنفقوا» فكتب إليهم المسلمون: قد حكم الله عزَّ وجلَّ بيننا بأنَّه إن جاءتكم امرأة منَّا أن توجِّهوا إلينا بصداقها، وإن جاءتنا امرأة منكم وجَّهنا إليكم بصداقها. فكتبوا إليهم: أما نحن فلا نعلم لكم عندنا شيئاً، فإن كان لنا عندكم شيء فوجِّهوا به، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «وإنْ فَاتَكُم شيءٌ من أزواجِكم إلى الكفَّار فعاقبتُم فآتُوا الذين ذهبتْ أزواجُهم مثلَ ما أنفقوا»[2].

وقال ابن عباس في قوله تعالى: «ذلكم حُكْم اللهِ يَحكُم بَينكُم» أي: بين المسلمين والكفَّار من أهل العهد من أهل مكَّة، يردُّ بعضهم إلى بعض. قال الزهريُّ: ولولا العهد لأمسك النساء ولم يردَّ إليهم صداقًا[3]. وقال قتادة ومجاهد: إنَّما أمروا أن يُعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثلَ ما أنفقوا من الْفيء والغَنِيمة. وقالا: هي فيمن بيننا وبينه عهد، وليس بيننا وبينه عهد. وقالا: ومعنى «فعاقبتم» فاقتصصتم. ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ يعني الصدقات. فهي عامَّة في جميع الكفَّار. وقال قتادة أيضًا: وإن فاتكم شيء من أزوجكم إلى الكفَّار الذين بينكم وبينهم عهد، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا. ثم نسخ هذا في سورة «براءة»[4]. وقال الزهريُّ: انقطع هذا عامَ الفتح. وقال سفيان الثوريُّ: لا يعمل به اليوم[5]. وقال قوم: هو ثابت

---

(١) الكشاف ٤/ ٩٤ بنحوه.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٩ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٨٧ .

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٩ - ١٢٠ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٩ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٨٨ - ٥٨٩ . وقول قتادة أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٨٩ دون ذكر النسخ.

(٥) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١١٩ .

الحكم الآن أيضاً. حكاه القشيريُّ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ قراءة العامة: «فَعَاقَبْتُمْ»، وقرأ عَلْقمة والنَّخَعِيُّ وحُميد والأعرج: «فعقَّبتم» مشدَّدة. وقرأ مجاهد: «فأعقبتم»، وقال: صنعتم كما صنعوا بكم. وقرأ الزهريُّ: «فَعَقَبْتُم» خفيفة بغير ألف. وقرأ مسروق وشَقيق بن سلمة: «فعقِبتم» بكسر القاف خفيفة[١]، وقال: غنمتم. وكلها لغات بمعنًى واحد. يقال: عاقب وعقَب وعقَّب، وأعقب وتعقَّب واعتقب وتعاقب: إذا غنم[٢]. وقال القُتَبيُّ[٣]: «فعاقبتم»: فغزوتم، معاقبين غزوًا بعد غَزْو. وقال ابن بحر: أي: فعاقبتم المرتدَّة بالقتل، فلزوجها مهرها من غنائم المسلمين[٤].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ قال ابن عباس: يقول: إن لحقت امرأة مؤمنة بكفَّار أهل مكَّة، وليس بينكم وبينهم عهد، ولها زوج مسلم قِبَلَكم، فغنمتم، فأعطوا هذا الزوجَ المسلمَ مهرَه من الغنيمة قبل أن تُخَمَّس[٥]. وقال الزهريُّ: يُعْطَى من مال الفيء[٦]. وعنه: يُعْطَى من صداق من لَحِق بنا[٧]. وقيل: أي: إن امتنعوا من أن يَغْرَمُوا مهرَ هذه المرأة التي ذهبت إليهم، فانبذوا العهدَ إليهم حتى إذا ظفرتم، فخذوا ذلك منهم. قال الأعمش: هي منسوخة. وقال عطاء: بل حكمها ثابت. وقد تقدَّم جميع هذا.

القُشيريُّ: والآية نزلت في أمِّ الحكم بنت أبي سفيان، ارتدَّت وتركت زوجها

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٥٥ ، والمحتسب ٢/ ٣١٩ - ٣٢٠ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٤ .

(٣) في غريب القرآن له ص ٤٦٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٢٣ .

(٥) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٩١ بنحوه.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٨ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٩٣ بنحوه.

(٧) الكشاف ٤/ ٩٤ ، وأورده النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٤١٦ بنحوه.

عِيَاض بن غَنْم القرشيِّ، ولم ترتدَّ امرأة من قريش غيرها، ثم عادت إلى الإسلام[١].

وحكى الثعلبيُّ عن ابن عباس: هنَّ ستُّ نسوة رجعن عن الإسلام ولحِقن بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين: أمُّ الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن أبي شدَّاد الفهريِّ. وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أمِّ سلمة، وكانت تحت عمر بن الخطاب، فلما هاجر عمر أبَتْ وارتدَّت. وبَرْوَع بنت عقبة، كانت تحت شَمَّاس بن عثمان. وعبدة بنت عبد العُزَّى، كانت تحت هشام بن العاص. وأم كلثوم بنت جَرْوَل كانت تحت عمر بن الخطاب. وشهبة بنت غَيْلان. فأعطاهم النبيُّ ﷺ مهورَ نسائهم من الغنيمة[٢]. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ احذروا أن تتعدَّوْا ما أمرتم به.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

فيه ثماني مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ لما فتح رسول الله ﷺ مكَّة، جاء نساء أهل مكَّة يبايعنه، فأُمِر أن يأخذ عليهنَّ ألَّا يُشْرِكن[٣]. وفي «صحيح مسلم» عن عائشة زوج النبيِّ ﷺ قالت: كان المؤمنات إذا هاجرنَ إلى رسول الله ﷺ يُمْتَحَنَّ بقولِ الله تعالى: «يا أيُّها النبيُّ إذا جاءَكَ المؤمناتُ يُبايعْنَكَ على ألَّا يُشْرِكْنَ بالله شيئاً ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنِيْنَ» إلى آخر الآية. قالت عائشة: فمن أقرَّ بهذا من

---

(١) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٢٤٣ - ٢٤٤، ولم يعزه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٤، والكشاف ٤/ ٩٤، ولم يرد فيهما ذكر: شهبة بنت غيلان، بل ورد فيهما: بدلاً عنها: هند بنت أبي جهل وكانت تحت هشام بن العاص. وورد أيضاً أن عبدة بنت عبد العزى كانت تحت عمرو بن عبد ودٍّ، لا تحت هشام بن العاص.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦.

المؤمنات، فقد أقرَّ بالمِحنة، وكان رسول الله ﷺ إذا أقْررن بذلك من قولهنَّ، قال لهن رسول الله ﷺ: «انطلقْنَ فقد بايَعْتُكنَّ» ولا واللهِ ما مَسَّت يدُ رسول الله ﷺ يدَ امرأة قطُّ، غيرَ أنَّه بايعهنَّ بالكلام. قالت عائشة: واللهِ، ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء قطُّ إلا بما أمره الله عزَّ وجلَّ، وما مسَّتْ كَفُّ رسولِ الله ﷺ كفَّ امرأةٍ قطُّ، وكان يقول لهنَّ إذا أخذ عليهنَّ: «قد بايَعْتُكُنَّ كلامًا»(١).

وروي أنَّه عليه الصلاة والسلام بايع النساء وبين يديه وأيديهنَّ ثوب، وكان يشترط عليهنَّ(٢). وقيل: لما فرغ من بيعة الرجال، جلس على الصَّفَا ومعه عمر أسفل منه، فجعل يشترط على النساء البَيْعة، وعمر يصَافحهنَّ(٣). ورُوِيَ أنَّه كلَّف امرأةً وقفت على الصَّفَا فبايعتهنَّ(٤). ابن العربيّ: وذلك ضعيف، وإنَّما ينبغي التعويل على ما في الصحيح.

وقالت أمُّ عَطِيَّة: لما قدِم رسول الله ﷺ المدينة جَمَعَ نساء الأنصار في بيت، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب، فقام على الباب فسلَّم فردَدْنَ عليه السلام، فقال: أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكنَّ، ألَّا تشرِكَن بالله شيئاً. فقلنَ: نعم. فمدَّ يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت، ثم قال: اللَّهُمَّ اشهد(٥).

---

(١) مسلم (١٨٦٨)، وهو عند البخاري (٥٢٨٨).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦١ بنحوه، والخبر أخرجه الطبراني في الكبير ٢٥/ ٢٠١ (٤٥٤)، وفي الأوسط (٢٨٧٦) عن معقل بن يسار ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٩: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه: عتاب بن حرب، وهو ضعيف. اهـ. وأورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٢٤ وعزاه للشعبي، وأخرجه عنه أبو داود في المراسيل (٣٧٣).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦١ بنحوه، والنكت والعيون ٥/ ٥٢٤ وعزاه لمقاتل، وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٥٠ (١٨٨٧٠).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٧٩ وما بعده منه، وذكر الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٢٤ أنه أَمَرَ أُميمة بنت رقيقة ـ أخت خديجة خالة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ـ بعد أن بايعته، أن تبايع النساء عنه. والخبر أخرجه الترمذي (١٥٩٧)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٥٢ ، وابن ماجه (٢٨٧٤)، وأحمد (٢٧٠٠٦). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث محمد بن المنكدر.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢٠٧٩٧)، وأبو يعلى (٢٢٦)، وابن حبان في صحيحه (٣٠٤١)، والطبراني =

وروى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا بايع النساء دَعَا بقدح من ماء، فغمس يده فيه، ثم أمر النساء فغمسنَ أيديهنَّ فيه[(١)].

الثانية: رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ لما قال: «على ألّا يُشْرِكْنَ بالله شيئًا» قالت هنْد بنت عُتْبة وهي مُنْتَقِبة؛ خوفاً من النبيِّ ﷺ أن يعرفها لِمَا صنعته بِحَمْزَة يوم أُحُد: واللهِ إنَّك لتأخذ علينا أمرًا ما رأيتك أخذته على الرجال ـ وكان بايع الرجال يومئذٍ على الإسلام والجهاد فقط ـ فقال النبيُّ ﷺ: «ولا يَسْرِقن». فقالت هند: إنَّ أبا سفيان رجل شَحِيح، وإنِّي أُصيب من ماله قُوتَنا. فقال أبو سفيان: هو لكِ حلال. فضحك النبيُّ ﷺ وعَرفَها، وقال: «أنت هند»؟ فقالت: عفا الله عمَّا سلف. ثم قال: «ولا يزنينَ». فقالت هند: أَوَتَزْنِي الحرَّة! ثم قال: «ولا يقتلنَ أولادهنَّ». أي: لا يَئِدْنَ الموؤدَات، ولا يُسقطن الأجِنَّة. فقالت هند: رَبَّيناهم صِغارًا، وقتلتهم كبارًا يوم بدر، فأنتم وهم أبصر. وروى مقاتل أنَّها قالت: ربَّيناهم صغارًا، وقتلتموهم كبارًا، وأنتم وهم أعلم. فضحك عمر ابن الخطاب حتى استلقى[(٢)]. وكان حنظلة بن أبي سفيان ـ وهو بِكْرُها ـ قُتِل يوم بَدْر[(٣)].

ثم قال: «ولا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِيْنَهُ بينَ أيديهنَّ وأرجلهنَّ ولا يَعْصِيْنَكَ في

= في الكبير ٢٥/ ٤٥ (٨٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أبو داود [١١٣٩] باختصار كثير، ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجاله ثقات. اهـ.

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ١١ من طريق محمد بن عمر الواقدي، وهو ضعيف. وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ١٧/ ١٤٩ (٣٧٦) عن عروة بن مسعود الثقفي ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٩: رواه الطبراني، وفيه: عبد الله بن عكيم، أبو بكر الداهري، وهو ضعيف.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٢٤ - ٥٢٥، والبغوي ٤/ ٣٣٤ - ٣٣٥، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٥٩٦ عن ابن عباس ﷺ، دون ذكر قول مقاتل، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٥١ (١٨٨٧٢)، وأورد الخبر ابن كثير في التفسير ٨/ ٩٨ - ٩٩ من طريق الطبري وقال: وهذا أثر غريب، وفي بعضه نكارة، والله أعلم. اهـ. وخبر نفقة هند مع زوجها أبي سفيان عند البخاري (٢٢١١)، ومسلم (١٧١٤) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٥، والخبر في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٧٠٨ والذي قتله هو: زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، ويقال: اشترك فيه حمزة وعلي وزيد.

معروفٍ». قيل: معنى «بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ» ألسنتهنَّ بالنَّمِيمة. ومعنى بين «أَرْجُلِهِنَّ» فروجهنَّ. وقيل: ما كان بين أيديهنَّ: من قُبْلة، أو جَسَّة. وبين أرجلهنَّ: الجماع. وقيل: المعنى لا يُلْحِقن برجالهنَّ ولدًا من غيرهم. وهذا قول الجمهور[١]. وكانت المرأة تلتقط ولدًا فَتُلْحقه بزوجها وتقول: هذا ولدي منكَ. فكان هذا من البهتان والافتراء. وقيل: ما بين يديها ورجليها كناية عن الولد؛ لأنَّ بطنها الذي تحمل فيه الولد بين يديها، وفرجها الذي تلد منه بين رجليها[٢]. وهذا عامٌّ في الإتيان بولد وإلحاقه بالزوج، وإن سبق النهي عن الزِّنى. ورُوي أنَّ هند لما سمعت ذلك قالت: واللهِ إنَّ البهتان لأمر قبيح؛ ما تأمرُ إلا بالأرشد ومكارِمِ الأخلاق[٣]!.

ثم قال: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال قتادة: لا يَنُحْنَ. ولا تخلُو امرأة منهنَّ إلا بذي مَحْرَم. وقال سعيد بن المسيّب ومحمد بن السائب وزيد بن أسلم: هو ألَّا يَخْمِشْنَ وجهًا، ولا يَشْقُقْنَ جَيْباً، ولا يَدْعُونَ وَيْلًا، ولا يَنْشُرْن شعرًا، ولا يحدِّثن الرجال إلا ذا مَحْرَم[٤]. وروت أمُّ عطيَّة عن النبيِّ ﷺ أنَّ ذلك في النَّوْح[٥]. وهو قول ابن عباس[٦]. وروى شَهْر بن حَوْشَب عن أمِّ سلمة عن النبيِّ ﷺ: «وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ» فقال: «هو النَّوْح»[٧]. وقال مصعب بن نوح: أدركتُ عجوزًا ممن بايع النبيَّ ﷺ، فحدَّثتني عنه عليه الصلاة والسلام في قوله: «وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ» فقال: «النوح»[٨].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٢٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٨٠ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨٧ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٥ عن ابن المسيب ومحمد بن السائب، وزاد المسير ٨/ ٢٤٧ عن زيد بن أسلم.

(٥) أخرجه البخاري (١٣٠٦)، ومسلم (٩٣٦)، وأحمد (٢٠٧٩١).

(٦) زاد المسير ٨/ ٢٤٧ ، وأخرجه البخاري (٤٨٩٣) عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٥٢٥، والحديث أخرجه الترمذي (٣٣٠٧)، وابن ماجه (١٥٧٩)، وأحمد (٢٦٧٢٠). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٨) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ٨ ، وأحمد (١٦٥٥٦)، والطبري ٢٢/ ٥٩٨ - ٥٩٩ ، وفي إسناده: مصعب بن نوح، وهو مجهول. تعجيل المنفعة ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥ .

وفي «صحيح مسلم» عن أمِّ عطية لما نزلت هذه الآية: «يُبَايِعْنَكَ على أَلَّا يُشْرِكْنَ بالله شيئًا» إلى قوله: «ولا يَعْصِينَكَ في معروفٍ» قال: «كان منه النياحة» قالت: فقلت: يا رسول الله إلا آل فلان؛ فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية، فلا بُدَّ لي من أن أسعدهم. فقال رسول الله ﷺ: «إلَّا آل فلان»(١). وعنها قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ مع البيعة ألَّا نَنُوح، فما وَفَتْ منَّا امرأةٌ إلا خمسٌ: أمُّ سُليم، وأمُّ العلاء، وابنةُ أبي سَبْرة امرأة معاذ أو ابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ(٢).

وقيل: إنَّ المعروف ها هنا الطاعة للَّه ولرسوله، قاله ميمون بن مِهران(٣). وقال بكر بن عبد الله المُزَنِيُّ: لا يعصِينك في كلِّ أمر فيه رشدهنَّ. الكلبيُّ: هو عامٌّ في كلِّ معروف أمر الله عزَّ وجلَّ ورسولُه به(٤). فروي أنَّ هندًا قالت عند ذلك: ما جلسنا في مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصِيك في شيء(٥).

الثالثة: ذَكَرَ الله عزَّ وجلَّ ورسولُه عليه الصلاة والسلام في صفة البيعة خصالًا شَتَّى، صُرِّح فيهنَّ بأركان النهي في الدِّين، ولم يذكر أركان الأمر. وهي ستَّة أيضًا: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والاغتسال من الجنابة. وذلك لأنَّ النهي دائم في كلِّ الأزمان، وكلِّ الأحوال، فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد. وقيل: إنَّ هذه المناهي كان في النساء كثير من يرتكبها ولا يحجزهنَّ عنها شرف النسب، فَخُصَّت بالذِّكْر لهذا. ونحوٌ منه قوله عليه الصلاة والسلام لوَفْد عبد القيس: «وأنهاكم عن الدُّباء والحَنْتَم والنَّقِير والمُزَفَّت». فنبَّههم على ترك المعصية في شرب الخمر دون سائر المعاصي؛ لأنَّها كانت شهوتهم وعادتهم، وإذا ترك المرء شهوته من

---

(١) مسلم (٩٣٦): (٣٦)، وهو عند أحمد (٢٠٧٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٦)، ومسلم (٩٣٦)، وأحمد (٢٧٣٠٥).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٢٥ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٢٦ .

(٥) الوسيط ٤/ ٣٥٥ ، والبغوي ٤/ ٣٣٥ ، والكشاف ٤/ ٩٥ ، ضمن خبر طويل، وسلف قريبًا.

المعاصي، هان عليه ترك سائرها مما لا شهوةَ له فيها[١].

الرابعة: لما قال النبيُّ ﷺ في البيعة: «ولا يَسْرِقن» قالت هند: يا رسولَ الله، إنَّ أبا سفيان رجل مَسِيك فهل عليَّ حرج أن آخذ ما يكفيني وولدي؟ قال: «لا، إلَّا بالمعروف» فخشِيتْ هند أن تقتصر على ما يعطيها، فتضيع، أو تأخذ أكثرَ من ذلك، فتكون سارقة ناكثة للبيعة المذكورة. فقال لها النبيُّ ﷺ: «لا» أي: لا حرجَ عليكِ فيما أخذتِ بالمعروف. يعني: من غير استطالة إلى أكثر من الحاجة. قال ابن العربيِّ[٢]: وهذا إنَّما هو فيما لا يَخْزُنه عنها في حجاب، ولا يَضبِطُ عليه بقُفْل، فإنَّه إذا هتكته الزوجة وأخذت منه، كانت سارقةً تعصي به، وتُقطَع يدها.

الخامسة: قال عُبادة بن الصَّامت: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: «ألَّا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا يَعْضَهْ بعضُكم بعضًا، ولا تَعْصُوا في معروف آمركم به»[٣]. معنى «يَعْضَه»: يسحر. والعَضْه: السِّحر. ولهذا قال ابن بحر وغيره في قوله تعالى: «ولا يأتين ببهتان» إنَّه السحر[٤]. وقال الضَّحَّاك: هذا نهي عن البهتان، أي: لا يَعْضَهْنَ رجلًا ولا امرأة. «بِبُهْتَانٍ» أي: بسحر. والله أعلم. ﴿يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ والجمهور على أنَّ معنى «بِبُهْتَانٍ» بولد يفترينه بين أيديهنَّ ما أخذَتْه لقيطًا. «وَأَرْجُلِهِنَّ» ما ولدته من زنًى. وقد تقدَّم.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٨٢ - ١٧٨٣، والحديث أخرجه البخاري (١٣٩٨)، ومسلم (١٧)، والدُّبَّاء: القَرْع. والحنتم: جِرار مدهونة خضر كانت تُحمل الخمر فيها إلى المدينة. والمزفَّت: الإناء الذي طلي بالزِّفْت. وهذه كلها أوعية ينتبذون فيها فتسرع الشِّدَّة في الشراب. النهاية (دبب) و(حنتم) و(زفت).

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٨٣، وما قبله منه أيضًا. والحديث سلف قريبًا.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الشافعي في السنن المأثورة ٢/ ٢٦٨، وهو عند مسلم (١٧٠٩): (٤٣)، وأحمد (٢٢٧٣٢).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٢٥.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ في البخاريِّ[١] عن ابن عباس في قوله تعالى: «ولا يعصينك في معروف» قال: إنَّما هو شرط شرطه الله للنساء. واختلف في معناه على ما ذكرنا. والصحيح أنَّه عامٌّ في جميع ما يأمر به النبيُّ ﷺ وينهى عنه؛ فيدخل فيه النَّوح، وتخريق الثياب، وجَزُّ الشعر، والخَلْوة بغير مَحْرَم إلى غير ذلك. وهذه كلُّها كبائر ومن أفعال الجاهلية.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي مالك الأشعريِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أربع في أمَّتي من أمر الجاهلية» فذكر منها النياحة[٢]. وروى يحيى بن أبي كَثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه النوائح يُجعلنَ يوم القيامة صفَّين، صفًّا عن اليمين، وصفًّا عن اليسار، ينبحن كما تنبح الكلاب في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يُؤمَر بهنَّ إلى النار». وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصلِّي الملائكة على نائحة ولا مُرِنَّة». وروي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنَّه سمع نائحةً، فأتاها فضربها بالدرَّة حتى وقع خِمارها عن رأسها. فقيل: يا أمير المؤمنين، المرأةَ المرأةَ! قد وقع خمارها. فقال: إنَّها لا حُرْمَة لها. أسند جميعَه الثعلبيُّ رحمه الله[٣].

أما تخصيص قوله: «في مَعْرُوفٍ» مع قوَّة قوله: «وَلَا يَعْصِينَكَ» ففيه قولان:

---

(١) برقم (٤٨٩٣).

(٢) مسلم (٩٣٤)، وسلف ص٢٢٨ من هذا الجزء.

(٣) والحديث الأول أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٢٢٥) من طريق سليمان بن داود اليمامي، عن يحيى ابن أبي كثير، به، إلا أنه لم يرد فيه قوله ﷺ: في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يؤمر بهنَّ إلى النار. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٤: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه: سليمان بن داود اليمامي، وهو ضعيف. اهـ.

والحديث الثاني أخرجه الطيالسي (٢٤٥٧)، ومن طريقه أحمد (٨٧٤٦)، وأبو يعلى (٦١٣٧). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٣: رواه أحمد وأبو يعلى، وفيه: أبو مُرَاية [وتصحَّفت في مطبوع المجمع إلى: مرانة. قال ابن حجر في تبصير المنتبه ٤/ ١٢٧١: مُرَاية، بالضم والتخفيف، وبعد الألف ياء تحتانية. أبو مراية العجلي اسمه: عبد الله بن عمرو. اهـ. وذكره ابن حبان في الثقات ٥/ ٣١]، ولم أجد من وثقه ولا جرحه، وبقية رجاله ثقات. اهـ.

وخبر عمر بن الخطاب ذكره الذهبي في الكبائر في الكبيرة التاسعة والأربعين.

أحدهما: أنَّه تفسير للمعنى على التأكيد، كما قال تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء:١١٢] لأنَّه لو قال: احكم، لكفى. الثاني: إنَّما شرط المعروف في بَيْعة النبيِّ ﷺ؛ حتى يكون تنبيهاً على أنَّ غيره أولى بذلك، وألزم له، وأنفى للإشكال.

السابعة: روى البخاريُّ عن عبادة بن الصامت قال: كنَّا عند النبيِّ ﷺ فقال: «أتبايعوني على ألَّا تشركوا بالله شيئًا. ولا تزنوا، ولا تسرقوا» قرأ آيةَ النساء. وأكثر لفظ سفيان: قرأ في الآية: «فمن وَفَى منكم، فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب، فهو كفَّارة له، ومن أصابَ من ذلك شيئًا فستره الله، فهو إلى الله إن شاء عذَّبه، وإن شاء غفر له منها»(١).

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: شهدتُ الصلاةَ يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلُّهم يصلِّيها قبل الخطبة، ثم يخطب، فنزل نبيُّ الله ﷺ فكأنِّي أنظرُ إليه حين يُجلِّس الرجال بيده، ثم أقبل يَشُقُّهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ حتى فرغ من الآية كلِّها، ثم قال حين فرغ: «أنتنَّ على ذلك»؟ فقالت امرأة واحدة لم يُجبْه غيرُها: نعم، يا رسول الله. لا يَدْرِي الحسن من هي. قال: «فَتَصَدَّقْنَ» وبسط بلال ثوبَه، فجعلن يُلقِينَ الفَتَخ والخواتيم في ثوب بلال. لفظ البخاريِّ(٢).

الثامنة: قال المَهدَوِيُّ: أجمع المسلمون على أنَّه ليس للإمام أن يشترط عليهنَّ هذا، والأمر بذلك ندب لا إلزام. وقال بعض أهل النظر: إذا احتيج إلى المِحنة من أجل تباعد الدار، كان على إمام المسلمين إقامة المحنة.

---

(١) البخاري (٤٨٩٤)، وهو عند مسلم (١٧٠٩): (٤٢).

(٢) برقم (٤٨٩٥)، وهو عند مسلم (٨٨٤)، وأحمد (٣٠٦٣). قال عبد الرزاق إثر رواية البخاري (٩٧٨): الفَتَخ: الخواتيم العظام كانت في الجاهلية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود[١]. وذلك أنَّ ناساً من فقراء المسلمين كانوا يُخْبِرون اليهود بأخبار المؤمنين ويواصلونهم، فيصيبون بذلك من ثمارهم فنُهُوا عن ذلك[٢]. ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني: اليهود، قاله ابن زيد[٣]. وقيل: هم المنافقون. وقال الحسن: هم اليهود والنصارى. قال ابن مسعود: معناه أنَّهم تركوا العمل للآخرة، وآثروا الدنيا. وقيل: المعنى يئسوا من ثواب الآخرة، قاله مجاهد[٤]. ومعنى ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ أي: الأحياء من الكفَّار ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أن يرجعوا إليهم، قاله الحسن وقتادة[٥]. قال ابن عرفة: وهم الذين قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وقال مجاهد: المعنى: كما يئس الكفَّار الذين في القبور أن يرجعوا إلى الدنيا[٦].

وقيل: إنَّ الله تعالى ختم السورة بما بدأها من ترك موالاة الكفَّار، وهي خطاب لحاطب بن أبي بَلْتَعَة وغيره. قال ابن عباس: «يا أيُّها الذين آمنوا لا تَتولَّوا» أي: لا توالوهم ولا تناصحوهم، رجع تعالى بطَوْله وفَضْله على حاطب بن أبي بَلْتَعَة. يريد أنَّ كفَّار قريش قد يئسوا من خير الآخرة، كما يئس الكفَّار المقبورون من حظٍّ يكون لهم في الآخرة من رحمة الله تعالى. وقال القاسم بن أبي بَزَّة في قوله تعالى: «قد يَئِسُوا من الآخرةِ كما يَئِسَ الكفَّارُ من أصحابِ القبورِ» قال: من مات من الكفَّار، يئس من الخير. والله أعلم.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٢٦ وعزاه لمقاتل.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٢٦، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٧٠، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٠٤.

(٥) وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٦٠٢ - ٦٠٣، وقول قتادة أخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٩.

(٦) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٠٤.

سورة الصَّفّ

مَدَنِيَّةٌ في قول الجميع، فيما ذكر الماورديُّ[1]. وقيل: إنَّها مكِّيَّة، ، ذكره النحَّاس[2] عن ابن عباس. وهي أربع عشرة آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ تقدَّم[3].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ روى الدَّارِمِيُّ أبو محمد في «مسنده»: أخبرنا محمد بنُ كثير، عن الأوزاعيِّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سَلاَم قال: قَعَدنَا نَفَرٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أيّ الأعمال أحبّ إلى الله تعالى لعملناه، فأنزل الله تعالى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ حتى ختمها.

قال عبد الله: فقرأها علينا رسولُ الله ﷺ حتى ختمها. قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سَلاَم. قال يحيى: فقرأها علينا أبو سلمة، وقرأها علينا يحيى، وقرأها علينا

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٥٢٧ .

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٢٢ .

(٣) ص٢٣٥ من هذا الجزء.

الأوزاعيُّ، وقرأها علينا محمد[1]. وقال ابن عباس: قال عبد الله بن رَوَاحة: لو علمنا أحبّ الأعمال إلى الله لعملناه، فلما نزل الجهاد كرهوه[2].

وقال الكلبيُّ: قال المؤمنون: يا رسولَ الله، لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى الله، لسارعنا إليها، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ فمكثوا زماناً يقولون: لو نعلم ما هي لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين، فدلَّهم الله تعالى عليها بقوله: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ الآية. فابْتُلُوا يوم أُحُد، ففرُّوا، فنزلت تعيِّرهم بترك الوفاء[3].

وقال محمد بن كعب: لما أخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ بثواب شهداء بدر، قالت الصحابة: اللَّهمَّ اشهد! لئن لقِينا قتالاً لَنُفْرِغَنَّ فيه وُسْعَنا، ، ففرُّوا يوم أُحُد فعيَّرهم الله بذلك. وقال قتادة والضحَّاك: نزلت في قوم كانوا يقولون: نحن جاهدنا وأَبْلَيْنَا، ولم يفعلوا[4].

وقال صُهيب: كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر وأنكاهم، فَقَتَلْتُه. فقال رجل:

---

(١) سنن الدارمي (٢٣٩٠)، وأخرجه أيضاً الترمذي (٣٣٠٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٥٣ من طريقين، عن محمد بن كثير، به. إلا أنه ورد في أسباب النزول مختصراً. قال الترمذي: وقد خولف محمد بن كثير في إسناد هذا الحديث عن الأوزاعي. وروى ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، عن عبدالله بن سلام، أو عن أبي سلمة عن عبد الله بن سلام. اهـ. قلنا: هو عند أحمد (٢٣٧٨٩) من طريق يعمر، عن ابن المبارك، به.

وأخرجه ايضاً الحاكم ٢/ ٤٨٦-٤٨٧ من طريق الوليد بن مزيد وأبي إسحاق الفزاري، كلاهما عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن سلام، بنحوه. وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٤١٩ : وقد وقع لنا سماع هذه السورة [يعني الصف] مسلسلاً في حديث ذكر في أوله سبب نزولها، وإسناده صحيح قلَّ أن وقع في المسلسلات مثله مع مزيد علوه.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٤٥٤ دون عزوٍ، وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٥٤ (١٨٨٨٥) عن مقاتل.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٧ ، وقول قتادة والضحاك أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٦٠٨-٦٠٩ .

يا نبيَّ الله، إنِّي قتلت فلاناً، ففرح النبيُّ ﷺ بذلك. فقال عمر بن الخطاب وعبدالرحمن بن عَوْف: يا صُهيب، أما أخبرتَ رسولَ الله ﷺ أنَّك قتلتَ فلاناً! فإنَّ فلاناً انْتَحَل قَتْلَه، فأخبره فقال: «أكذلك يا أبا يحيى»؟ قال: نعم، واللهِ يارسول الله، فنزلت الآية في المنتحِل[1]. وقال ابن زيد: نزلت في المنافقين، كانوا يقولون للنبيِّ ﷺ وأصحابه: إن خرجتم وقاتلتم، خرجنا معكم وقاتلنا، فلما خرجوا، نكصوا عنهم وتخلفوا[2].

الثانية: هذه الآية توجب على كلِّ من ألزم نفسه عملاً فيه طاعة، أن يفيَ بها[3].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي موسى[4] أنَّه بعث إلى قرَّاء أهل البصرة فدخل عليه ثلاثُ مئةِ رجلٍ قد قرؤوا القرآن، فقال: أنتم خيارُ أهل البصرة وقرَّاؤهم، فاتْلُوه ولا يَطُولَنَّ عليكم الأَمَدُ فتَقْسُوَ قلوبكم، كما قستْ قلوب من كان قَبلكم. وإنَّا كُنَّا نقرأ سورةً، كنَّا نُشبِّهها في الطُّول والشِّدَّة بـ «براءة» فأُنْسيتها، غيرَ أنِّي قد حفِظت منها: لو كان لابن آدم واديان من مال، لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يَملأُ جوفَ ابنِ آدم إلا التراب. وكنا نقرأ سورة كنَّا نشبهها بإحدى المسبِّحات فأُنسيتها، غير أنِّي حفظتُ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ فتُكْتَب شهادةً في أعناقكم فتُسألون عنها يوم القيامة. قال ابن العربيّ[5]: وهذا كلُّه ثابت في الدِّين. أما قوله تعالى:

---

(١) الكشاف ٤/ ٩٦ ، وأورده أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٢٥٠ بنحوه، وعزاه ابن حجر في الكافي الشاف ص١٦٩ للثعلبي، ومعنى قوله: وأنكاهم. أي: أصاب منهم. اللسان(نكي).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٧ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٠٩ .

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤٤٢ .

(٤) برقم (١٠٥٠)، إلا أنه لم يرد فيه: عن أبي موسى، بل ورد فيه: عن أبي حرب بن أبي الأسود، عن أبيه [وهو: ظالم بن عمرو الدِّيْلي]، قال: بعث أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة، ...الخبر.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٨٧، وما بين حاصرتين منه، والكلام الآتي كلُّه منه إلى قوله: والصحيح عندي أن الوفاء به على كل حال إلا لعذر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ فثابت في الدِّين لفظاً ومعنًى في هذه السورة.

وأما قوله: «شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة» فمعنًى ثابتٌ في الدِّين؛ فإنَّ من التزم شيئاً، لزمه شرعاً. والملتَزَم على قسمين: أحدهما: النذر، وهو على قسمين، نذر تقرُّبٍ مبتدأ كقوله: للهِ عليَّ صلاة وصوم وصدقة، ونحوه من القُرَب. فهذا يلزم الوفاء به إجماعاً.

ونذرُ مباحٍ: وهو ما علِّق بشرطٍ رغبةً، كقوله: إن قَدِمَ غائبي، فعليَّ صدقة، أو عُلِّق بشرط رهبةً، كقوله: إن كفاني الله شرَّ كذا، فعليَّ صدقة.

فاختلف العلماء فيه، فقال مالك وأبو حنيفة: يلزمه الوفاء به[١]. وقال الشافعيُّ في أحد أقواله: إنَّهُ لا يلزمه الوفاء به[٢]. وعموم الآية حجَّة لنا؛ لأنَّها بمطلقها تتناول ذمَّ من قال مالا يفعله على أيِّ وجه كان من مطلق أو مقيَّد بشرط. وقد قال أصحابه: إنَّ النذر إنَّما يكون بما القصد منه القُرْبة مما هو من جنس القربة. وهذا وإن كان من جنس القربة، لكنه لم يُقصَد به القربة، وإنَّما قصد مَنْع نفسه عن فعل، أو الإقدام على فعل. قلنا: القُرب الشرعية مَشَقَّات[٣] وكُلَف، وإن كانت قربات. وهذا تكلُّف [في] التزام هذه القربة بمشقَّة، لجَلْبْ نفع أو دفع ضرٍّ، فلم يخرج عن سنن التكليف، ولازال عن قصد التقرُّب. قال ابن العربيِّ: فإن كان المقول منه وعداً، فلا يخلو أن يكون منوطاً بسببٍ، كقوله: إن تزوَّجتَ، أعنتُك بدينار، أو ابتعتَ حاجةَ كذا، أعطيتك [كذا]. فهذا لازم إجماعاً من الفقهاء. وإن كان وعداً مجرَّداً، فقيل: يلزم بتعلُّقه[٤]. وتعلَّقوا بسبب الآية، فإنَّه روي أنَّهم كانوا يقولون: لو نعلم أيَّ الأعمال أفضل أو أحبّ إلى الله، لعملناه، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وهو حديث لا بأس به.

(١) النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني ٤/ ١٨، وبدائع الصنائع ٦/ ٣٥٥.

(٢) الأم ٧/ ٦١.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي: مقتضيات.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي: بمطلقه.

وقد روي عن مجاهد أنَّ عبد الله بن رَوَاحة لما سمعها قال: لا أزال حبيساً في سبيل الله حتى أُقتل[١]. والصحيح عندي: أنَّ الوعد يجب الوفاء به على كلِّ حال إلا لعذر.

قلت: قال مالك: فأما العِدَة مثل أن يسأل الرجلُ الرجلَ أن يَهَب له الهبة، فيقولَ له: نعم. ثم يبدو له ألَّا يفعل، فما أرى ذلك يلزمه. وقال ابن القاسم: إذا وعَد الغرماءَ فقال: أُشهدكم أنِّي قد وهبت له من أين يؤدِّي إليكم[٢]، فإنَّ هذا يلزمه. وأما أن يقول: نعم أنا أفعل. ثم يبدو له، فلا أرى عليه ذلك.

قلت: أي: لا يقضى عليه بذلك، فأمَّا في مكارم الأخلاق وحسن المروءة، فنَعَم. وقد أثنى الله تعالى على من صَدقَ وعده ووَفَى بنذره فقال: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾ [البقرة:١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم:٥٤] وقد تقدَّم بيانه.

الثالثة: قال النَّخَعِيُّ: ثلاث آيات منعتني أن أقصَّ على الناس: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤] ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ﴾ [هود:٨٨]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢].

وخرَّج أبو نُعيم الحافظ من حديث مالك بن دينار، عن ثُمَامة، أنَّ أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيتُ ليلة أُسْرِيَ بي على قوم تُقرَض شفاههم بمقاريضَ من نار، كلَّما قُرضت، وَفَت. قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمَّتك الذين يقولون ولا يفعلون، ويقرؤون كتابَ الله ولا يَعملون»[٣]. وعن بعض السلف أنَّه قيل له: حدِّثْنَا. فسكت. ثم قيل له: حدِّثْنَا. فقال: أتأمرونني أن أقول ما لا أفعل،

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٧١ ، وأخرجه عنه عبد الله بن المبارك في الجهاد (٣)، والطبري ٢٢/ ٦٠٧-٦٠٨ .

(٢) في (خ)و(د) و(م): من أن يؤدي إليكم. والمثبت من (ف) و(ز) والتمهيد ٣/ ٢٠٨ والكلام منه.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٣٨٦-٣٨٧ ، وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان(١٧٧٣) من طريق صدقة بن موسى والحسن بن جعفر، عن مالك بن دينار ، به. وصدقة بن موسى ضعيف. ومعنى: وفت، أي: تمَّت وطالت. النهاية(وفا).

وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٤٠٦٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٦٥)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٧٢ من طريقين، عن سليمان التيمي، عن أنس بنحوه والإسنادان صحيحان.

فأستعْجِلَ مَقْتَ الله[1]!.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير مالا يفعله؛ أما في الماضي فيكون كذباً، وأما في المستقبل فيكون خُلْفاً، وكلاهما مذموم. وتأوَّل سفيان بن عُيَينة قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: لِمَ تقولون ما ليس الأمر فيه إليكم، فلا تدرونَ هل تفعلون أو لا تفعلون. فعلى هذا يكون الكلام محمولاً على ظاهره في إنكار القول.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قد يحتجُّ به في وجوب الوفاء في اللجاج والغضب على أحد قولي الشافعي[2].

و«أَنْ» رفع بالابتداء، وما قبلها الخبر، وكأنَّه قال: قولكم ما لا تفعلون مذمومٌ، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف[3]. الكسائي: «أن» في موضع رفع؛ لأنَّ «كَبُرَ» فعلٌ بمنزلة: بئسَ رجلاً أخوكَ[4]. و«مَقْتاً» نصب بالتمييز، المعنى: كبر قولهم مالا يفعلونَ مقتاً[5]. وقيل: هو حال. والمقت والمَقَاتة مصدران، يقال: رجل مقيت وممقوت: إذا لم يحبّه الناس[6].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾

فيه ثلاث مسائل:

---

(١) الكشاف ٤/ ٩٧.

(٢) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤١٣، ونذر اللجاج والغضب: هو أن يمنع نفسه من فعل، أو يحثها عليه بتعليق التزام قربة بالفعل أو بالترك. ويقال فيه: يمين اللجاج والغضب، ويقال له أيضاً: يمين الغَلَق، ونذر الغَلَق. المجموع ٨/ ٣٧٦.

(٣) المشكل لمكي ٢/ ٧٣٠.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٣.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦٣.

(٦) الصحاح (مقت).

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ أي: يصفُّون صفًّا[1]: والمفعول مضمر، أي: يصفُّون أنفسهم صفًّا. ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ قال الفرَّاء[2]: مرصوص بالرَّصاص. وقال المبرِّد: هو من رصصت البناء إذا لا أَمْتَ بينه وقاربتَ حتى يصيرَ كقطعة واحدة[3]. وقيل: هو من الرصيص، وهو انضمام الأسنان بعضها إلى بعض.

والتراصُّ: التلاصق. ومنه: وتراصُّوا في الصف[4]. ومعنى الآية: يحبُّ مَن يثبت في الجهاد في سبيل الله، ويلزم مكانه كثبوت البناء[5]. وقال سعيد بن جبير: هذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوِّهم.

الثانية: وقد استدلَّ بعض أهل التأويل بهذا على أنَّ قتال الراجل أفضل من قتال الفارس؛ لأنَّ الفرسان لا يصطفُّون على هذه الصفة[6]. المهدَوِيُّ: وذلك غير مستقيم؛ لما جاء في فضل الفارس فِي الأجر والغنيمة. ولا يخرج الفرسان من معنى الآية؛ لأنَّ معناه الثبات.

الثالثة: لا يجوز الخروج عن الصف إلا لحاجة تعرض للإنسان، أو فِي رسالة يرسلها الإمام، أو في منفعة تظهر في المقام، كفرصة تنتهز، و لا خلاف فيها[7]. وفي الخروج عن الصفّ للمبارزة، خلاف على قولين: أحدهما: أنَّه لا بأسَ بذلك، إرهاباً للعدوِّ، وطلباً للشهادة، وتحريضاً على القتال. وقال أصحابنا: لا يبرز أحد طالباً لذلك؛ لأنَّ فيه رياءً وخروجاً إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدوِّ. وإنما تكون

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٧ .
(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٣ .
(٣) تفسير الرازي ٢٩/ ٣١٢ ولم يعزه.
(٤) لسان العرب (رصص) بنحوه.
(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦٤ .
(٦) الكشاف ٤/ ٩٧ ، وذكره الطبري في التفسير ٢٢/ ٦١١ بنحوه.
(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٨٩ ، وما بعده منه أيضاً.

المبارزة إذا طلبها الكافر، كما كانت في حروب النبيِّ ﷺ يوم بَدْر، وفي غَزْوة خَيْبر، وعليه دَرَج السلف. وقد مضى القول مستوفى في هذا في «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1] [الآية: ١٩٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ لما ذكر أمر الجهاد بيَّن أنَّ موسى وعيسى أمرا بالتوحيد وجاهدا في سبيل الله، وحلَّ العقاب بمن خالفهما، أي: واذكر لقومك يا محمد هذه القصَّة[2].

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ وذلك حين رَمَوْه بالأُدْرَة، حسب ما تقدَّم في آخر سورة«الأحزاب»[3]. ومن الأذى ما ذكر في قصَّة قارون: أنَّه دسَّ إلى امرأة تَدَّعي على موسى الفجور[4]. ومن الأذى قولهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[5] [الأعراف: ١٣٨]. وقولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾[6] [المائدة: ٢٤]. وقولهم: إنَّك قتلتَ هارونَ. وقد تقدَّم هذا[7].

﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ والرسول يُحترم ويعظَّم[8]. ودخلت «قد» على «تعلمون» للتأكيد؛ كأنَّه قال: وتعلمون علماً يقيناً لا شبهةَ لكم فيه.

---

(١) ٣/ ٢٦٠.

(٢) زاد المسير ٨/ ٢٥٣.

(٣) عند الآية (٦٩).

(٤) عرائس المجالس ص٢١٨.

(٥) سلفت ٩/ ٣١٧.

(٦) سلفت ٧/ ٣٩٩.

(٧) ٩/ ٣٤٨.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٧.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي: مالوُا عن الحقِّ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ أي: أمالها عن الهُدَى[١]. وقيل: «فَلَمَّا زَاغُوا» عن الطاعة «أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ» عن الهداية[٢].

وقيل: «فَلَمَّا زَاغُوا» عن الإيمان«أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ» عن الثواب. وقيل: أي: لما تركوا ما أمِرُوا به من احترام الرسول عليه الصلاة والسلام وطاعة الربِّ، خَلَقَ اللهُ الضلالةَ في قلوبهم؛ عقوبةً لهم على فعلهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: واذكر لهم هذه القصَّة أيضاً. وقال: «يَابنِي إسرائيل» ولم يقل: «ياقوم» كما قال موسى؛ لأنَّه لا نسبَ له فيهم، فيكونون قومه.

﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾أي: بالإنجيل .﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ لأنَّ في التوراة صفتي، وأنِّي لم آتكم بشيء يُخالِفُ التوراة، فتنفروا عني .﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ﴾ مصدِّقاً.

«وَمُبَشِّراً» نصب على الحال[٣]، والعامل فيها معنى الإرسال. و«إليكم» صلة الرسول.

﴿يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «مِنْ بَعْدِيَ» بفتح الياء[٤]. وهي قراءة السُّلَمِيِّ وزرٍّ بن حُبيش وأبي بكر، عن عاصم. واختاره أبو حاتم؛

---

(١) زاد المسير ٨/ ٢٥٣ .

(٢) النكت والعيون ٥/٥٢٨ ، وما بعده منه أيضاً.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٠ .

(٤) السبعة ص٦٣٥ ، والنشر ٢/ ٣٨٧ .

لأنَّه اسم، مثل الكاف من بعدك، والتاء من قمت. الباقون: بالإسكان. وقرئ: «من بعدي اسمه أحمد» بحذف الياء من اللفظ[١].

و«أحمد» اسم نبيِّنا ﷺ. وهو اسم عَلَمٍ منقول من صفة، لا من فعل، فتلك الصفة «أفعل» التي يراد بها التفضيل. فمعنى «أحمد» أي: أَحْمَدُ الحامدين لربِّه. والأنبياء صلوات الله عليهم كلُّهم حامدونَ الله، ونبيُّنا أحمدُ أكثرُهم حمداً.

وأمَّا محمد فمنقول من صفة أيضاً، وهي في معنى: محمود، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار. فالمحمَّد هو الذي حُمِد مرَّةً بعد مرَّةٍ. كما أنَّ المُكَرَّم من الكرم مرَّة بعد مرَّة. وكذلك الممدَّح ونحو ذلك. فاسم محمد مطابق لمعناه، والله سبحانه سمَّاه قبل أن يُسَمِّيَ به نفسَه. فهذا عَلَمٌ من أعلام نبوَّته، إذ كان اسمه صادقاً عليه، فهو محمود في الدنيا، لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة. وهو محمود في الآخرة بالشفاعة. فقد تكرَّر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ.

ثم إنَّه لم يكن مُحَمَّداً حتى كان أحمدَ، حَمِد ربَّه فَنبَّأه وشرَّفه، فلذلك تقدَّم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد، فذكره عيسى عليه السلام فقال: «اسْمُهُ أَحْمَدُ». وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربُّه: تلك أمَّة أحمد، فقال: اللَّهُمَّ اجعلني من أمَّة أحمد. فبأحمد ذَكره قبل أن يذكره بمحمَّد؛ لأنَّ حَمْدَه لِرَبِّه كان قبل حَمْدِ الناس له. فلما وُجد وبُعث، كان محمداً بالفعل. وكذلك في الشفاعة يحمد ربَّه بالمحامد التي يفتحها عليه، فيكون أحمد الناس لربِّه، ثم يشفع فيحمد على شفاعته[٢].

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «اسمي في التوراة: أحيد؛ لأنِّي أحيد أمَّتي عن النار، واسمي في الزبور: الماحي؛ محا الله بي عَبَدة الأوثان، واسمي في الإنجيل:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢١ ونسبها إلى ابن محيصن وحمزة والكسائي.

(٢) من قوله: وأحمد، اسم نبينا ﷺ، إلى هنا من التعريف والإعلام ص١٦٩ ، والروض الأنف ١/ ١٨٢ - ١٨٣ .

أحمد، واسمي في القرآن محمَّد؛ لأنِّي محمود في أهل السماء والأرض»[١]. وفي الصحيح: «لِي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بيَ الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قَدَمي، وأنا العاقب». وقد تقدَّم[٢].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قيل: عيسى[٣]. وقيل: محمَّد صلى الله عليهما وسلم[٤]. ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ الكسائي وحمزة: «ساحر»[٥] نعتاً للرجل. وروي أنَّها قراءة ابن مسعود. الباقون: «سحر» نعتاً لما جاء به الرسول.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ تقدَّم في غير موضع[٦]. ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ هذا تعجُّب ممن كفر بعيسى ومحمَّد بعد المعجزات التي ظهرت لهما.

وقرأ طلحة بن مُصرِّف: «وَهُوَ يَدَّعِي» بفتح الياء والدال وشدِّها وكسر العين[٧]، أي: ينتسب. ويَدَّعِي وينتسب سواء. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من كان في حكمه أنَّه يُختَم له بالضلالة.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٢٩، وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ١٨٥ في ترجمة إسحاق بن بشر بنحوه وعزاه لابن عدي بإسناده عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه: إسحاق بن بشر، وهو كذَّاب متروك، وأورده أيضاً الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص٣٢٦، وقال: في إسناده وضَّاع.

(٢) البخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤)، وسلف ١٠/ ٤٥١.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٨.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٦١٣.

(٥) السبعة ص٦٤٩، والتيسير ص٢١٠.

(٦) ٨/ ٣٣٩و٤٥٧.

(٧) القراءات الشاذة ص١٥٥، والمحتسب ٢/ ٣٢١ وما بعده منه، إلا أن القراءة وردت في مطبوع القراءات الشاذة هكذا: وهو يدعى إلا الإسلام. كما ينظر هامش القراءة المتعلِّق بها.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ الإطفاء: هو الإخماد، يستعملان في النار، ويستعملان فيما يَجري مجراها من الضياء والظهور[1]. ويَفترق الإطفاء والإخماد من وجه، وهو أنَّ الإطفاء يستعمل في القليل والكثير، والإخماد إنَّما يستعمل في الكثير دون القليل، فيقال: أطفأت السراج، ولا يقال: أخمدت السراج.

وفي «نُور اللهِ» هنا خمسة أقاويل: أحدها: أنَّه القرآن، يريدون إبطالَه وتكذيبه بالقول، قاله ابن عباس وابن زيد.

والثاني: أنَّه الإسلام، يريدون دفعه بالكلام، قاله السُّدِّيُّ.

الثالث: أنَّه محمَّد ﷺ، يريدون هلاكه بالأراجيف، قاله الضحَّاك.

الرابع: حجج الله ودلائله، يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم، قاله ابن بحر.

الخامس: أنَّه مثَل مضروب، أي: من أراد اطفاءَ نور الشمس بِفِيْهِ، فوجده مستحيلاً ممتنعاً، فكذلك من أراد إبطال الحقِّ، حكاه ابن عيسى[2].

وسبب نزول هذه الآية حكاه عطاء، عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ أبطأ عليه الوحي أربعين يوماً، فقال كعب بن الأشرف: يامعشرَ اليهود، أَبشِروا! فقد أطفأ اللهُ نورَ محمَّد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتمَّ أمره. فحزن رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، واتَّصل الوحي بعدها، حكى جميعَه الماورديُّ[3] رحمه الله.

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أي: بإظهاره في الآفاق. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «وَاللهُ مُتمُّ نُورِه»[4] بالإضافة على نيَّة الانفصال، كقوله تعالى:

(١) في النكت والعيون ٥/ ٥٣٠ : والنور. والكلام ـ وما بعده ـ منه.

(٢) الأقوال الخمسة في النكت والعيون ٥/ ٥٣٠ ، وقول ابن زيد أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦١٤ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٥٣٠ .

(٤) السبعة ص٦٣٥ ، والتيسير ص٢١٠ .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وشبهه، حسب ما تقدَّم بيانه في «آل عمران»[١]. الباقون: «مُتِمٌّ نُورَهُ» لأنَّه فيما يستقبل، فعمِل. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ من سائر الأصناف.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: محمَّداً بالحقِّ والرشاد. ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: بالحجج. ومن الظهور الغلبَةُ باليد في القتال، وليس المراد بالظهور ألَّا يبقى دين آخر من الأديان، بل المراد: يكون أهل الإسلام عالين غالبين. ومن الإظهار ألَّا يبقى دين سوى الإسلام في آخر الزمان. قال مجاهد: وذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلَّا دين الإسلام[٢].

وقال أبو هريرة: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» بخروج عيسى[٣]. وحينئذ لايبقى كافر إلا أسلم. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لينزلنَّ ابنُ مريم حَكَماً عادلاً، فَلَيَكْسِرَنَّ الصليبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الخنزيرَ، ولَيَضَعَنَّ الجِزْيَةَ، وَلَتُتْرَكَنَّ القِلَاص، فلا يُسْعَى عليها، ولَتَذْهَبَنَّ الشَّحْناءُ والتَّباغُضُ والتَّحاسدُ، ولَيَدْعُوَنَّ إلى المال فلا يَقْبَلُهُ أحَدٌ»[٤]. وقيل: «لِيُظْهِرَهُ»أي: ليطلع محمَّداً ﷺ على سائر الأديان، حتى يكون عالماً بها، عارفاً بوجوه بطلانها، وبما حَرَّفوا وغَيَّروا منها. ﴿عَلَى ٱلدِّينِ﴾ أي: الأديان؛ لأنَّ الدين مصدر يعبَّر به عن جمع.

---

(١) ٥/ ٤٤٧.

(٢) الكشاف ٤/ ٩٩.

(٣) أخرجه الطبري ١١/ ٤٢٣ و٢٢/ ٦١٥.

(٤) مسلم (١٥٥): (٢٤٣)، وهو عند أحمد (١٠٤٠٤)، والقلاص: جمع قلوص، وهي الناقة الشابة. النهاية (قلص).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ قال مقاتل: نزلت في عثمان بن مظعون، وذلك أنَّه قال لرسول الله ﷺ: لو أذِنْتَ لي فطلَّقتُ خَوْلة، وتَرَهَّبْتُ واخْتَصَيْتُ وحَرَّمْتُ اللَّحم، ولا أَنام بليل أبداً، ولا أُفطر بنهار أبداً! فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِن سُنَّتي النكاح، ولا رَهبَانيَّةَ في الإسلام، إنَّما رهبانية أمَّتي الجهادُ في سبيل الله، وخِصاءُ أُمَّتي الصومُ، ولا تُحَرِّموا طيباتِ ما أحلَّ اللهُ لكم ومِنْ سُنَّتي أنام وأقوم، وأُفطر وأصوم، فمن رغب عن سُنَّتي فليس منِّي». فقال عثمان: واللهِ لوَدِدْتُ يا نبيَّ الله أيّ التجاراتِ أحبُّ إلى الله فأتَّجر فيها، فنزلت[1].

وقيل: «أَدُلُّكُمْ» أي: سأدلكم. والتجارة: الجهاد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١].

وهذا خطاب لجميع المؤمنين. وقيل: لأهل الكتاب.

---

(١) لم نقف عليه هكذا، بل ورد معناه في عدة أحاديث، منها: ما أخرجه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢)، وأحمد (١٥٨٨) عن سعد بن أبي وقاص قال: لقد ردَّ ذلك ـ يعني النبيَّ ﷺ ـ على عثمان بن مظعون التبتُّلَ، ولو أذِنَ له لاختصينا. ومنها: ما أخرجه أحمد (١٣٨٠٧)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٣٣)، وأبو يعلى في مسنده (٤٢٠٤) عن أنس، عن النبي ﷺ قال: لكل نبيٍّ رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله. ومنها: ما أخرجه البخاري (٥٠٧٥)، ومسلم (١٤٠٤) عن عبد الله قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا شيء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخَّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب، ثم قرأ علينا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. ومنها ما أخرجه البخاري (٥٠٦٣) عن أنس في الثلاثة الذين سألوا عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها... فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلِّي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني. وهو عند مسلم (١٤٠١) بنحوه.

الثانية: قوله: ﴿تُنجِيكُم﴾ أي: تخلصكم﴿مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم. وقد تقدَّم[١].

وقراءة العامة: «تُنْجِيكُمْ» بإسكان النون من الإنجاء. وقرأ الحسن وابن عامر وأبو حيوة: «تُنَجِّيكُمْ» مشدَّداً[٢]، من التَّنجية. ثم بيَّن التجارة وهي المسألة:

الثالثة: فقال: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ذكر الأموال أوّلاً؛ لأنَّها التي يبدأ بها في الإنفاق .﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: هذا الفعل﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من أموالكم وأنفسكم﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾. و«تُؤْمِنُونَ» عند المبرِّد والزجَّاج[٣] في معنى: آمنوا، ولذلك جاء «يَغْفِرْ لَكُمْ» مجزوماً على أنَّه جواب الأمر. وفي قراءة عبد الله «آمنوا بالله»، وقال الفرَّاء: «يَغْفِرْ لَكُمْ» جواب الاستفهام، وهذا إنَّما يصحُّ على الحمل على المعنى، وذلك أن يكون «تُؤْمِنُونَ بِالله وتُجَاهِدُونَ» عطف بيان على قوله: «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» كأنَّ التجارة لم يُدْرَ ماهي، فبُيِّنت بالإيمان والجهاد، فهي هما في المعنى. فكأنَّه قال: هل تؤمنون بالله وتجاهدون، يغفر لكم. الزَّمَخشريُّ[٤]: وجه قول الفرَّاء أنَّ متعلَّق الدلالة هو التجارة، والتجارة مفسَّرة بالإيمان والجهاد. كأنَّه قيل: هل تتَّجرون بالإيمان والجهاد، يغفر لكم. قال المهدويُّ: فإن لم تقدِّر هذا التقدير، لم تصحَّ المسألة؛ لأنَّ التقدير يصير: إن دُللتم، يغفر لكم، والغفران إنَّما نُعت بالقبول والإيمان، لابالدلالة. قال الزجّاج[٥]: ليس إذا دلَّهم على ما ينفعهم، يغفر لهم، إنَّما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا. وقرأ زيد بن عليٍّ: «تؤمنوا»، «وتجاهدوا» على إضمار لام الأمر، كقوله:

(١) ١/ ٣٠١ .

(٢) السبعة ص٦٣٥ ، والتيسير ص٢١٠ .

(٣) في معاني القرآن له ٥/ ١٦٦ ، وقراءة ابن مسعود فيه، وفي معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٤ ، وما بعده منه أيضاً.

(٤) الكشاف ٤/ ١٠٠ .

(٥) في معاني القرآن له ٥/ ١٦٦ .

مـحـمَّـدُ تَـفْـدِ نـفـسَـكَ كـلُّ نـفـسٍ إذا مـا خِـفْـتَ مـن شـيء تَـبَـالا[١]

أراد: لِتَفْدِ. وأدغم بعضهم فقال: «يغفر لكم»[٢] والأحسن ترك الإدغام؛ لأنَّ الراء حرف متكرِّر قويٌّ، فلا يحسن إدغامه في اللام؛ لأنَّ الأقوى لا يُدغَم في الأضعف.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ خرَّج أبو الحسين[٣] الآجُرِّي عن الحسن قال: سألتُ عمرانَ بنَ الحُصَين وأبا هريرة عن تفسير هذه الآية: «وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً» فقالا: على الخبير سقطتَ، سَأَلْنا رسولَ الله ﷺ عنها فقال: «قَصْرٌ من لؤلؤة في الجنَّة، فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كلِّ دار سبعون بيتاً من زَبَرْجَدة خضراء، في كلِّ بيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون فراشاً من كلِّ لَوْن، على كلِّ فراش سبعون امرأةً من الحُور العين، في كلِّ بيت سبعون مائدة، على كلِّ مائدة سبعون لوناً من الطعام، في كلِّ بيت سبعون وَصيفاً ووصيفة، فيُعطي الله تبارك وتعالى المؤمنَ من القُوَّة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كلِّه».

﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ أي: إقامة. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: السعادة الدائمة الكبيرة. وأصل الفوز الظَّفَر بالمطلوب.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٠٠ ، والقراءة في البحر المحيط ٨/ ٢٦٣ ، والبيت سلف ٤/ ٤٣٢ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦٧ ونسبها لأبي عمرو بن العلاء، وما بعده منه أيضاً.

(٣) كذا في النسخ، ولعلّه: محمد بن الحسين الآجري في كتابه «النصيحة»، كما عزاه إليه السيوطي في اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ٢/ ٣٧٦ ، والحديث أخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (١٥٧٧)، والبزار في البحر الزخار (٣٥٦٣)، والطبري ١١/ ٥٥٨-٥٥٩ ، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ١٨٣٩ (١٠٣٠٢)، والطبراني في الكبير ١٨/ ١٦٠ (٣٥٣) من طرق، عن الحسن، به.

وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (١٧٠٤) وقال: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، وفي إسناده: جسر بن فرقد، قال يحيى: ليس بشيء، ولا يكتب حديثه. وقال أبو حاتم بن حبان: خرج عن حدِّ العدالة. اهـ. وأورده أيضاً ابن عراق الكناني في تنزيه الشريعة المرفوعة ٢/ ٣٨٢-٣٨٣ . اهـ. وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٢٠/ ٢٨٦ : وهذا الحديث غريب، بل الأشبه أنه موضوع، وإذا كان الخبر ضعيفاً لم يمكن اتصاله، فإن جسراً هذا ضعيف جداً.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ قال الأخفش والفرَّاء: «أُخْرَى» معطوفة على «تِجَارَةٍ» فهي في محلِّ خفض[١]. وقيل: محلُّها رفع، أي: ولكم خصلة أخرى وتجارة تحبونها ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هو نصر من الله، فـ «نصر» على هذا تفسير «وأخرى»[٢]. وقيل: رفع على البدل من «أُخْرَى» أي: ولكم نصر من الله[٣]. ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: غنيمة في عاجل الدنيا[٤]، وقيل: فتح مكة. وقال ابن عباس: يريد فتح فارس والروم[٥]. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ برضا الله عنهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

أكَّد أمر الجهاد، أي: كونوا حوارِيَّ نبيِّكم؛ ليظهركم الله على من خالفكم، كما أظهر حواريَّ عيسى على مَن خالفهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: «أنصاراً لِلهِ» بالتنوين[٦]. قالوا: لأنَّ معناه: اثبتوا وكونوا أعواناً لِلهِ بالسيف على أعدائه[٧]. وقرأ الباقون من أهل البصرة والكوفة والشام: «أنصار الله» بلا تنوين، وحذفوا لامَ الإضافة من اسم الله تعالى. واختاره أبو عُبيد لقوله: «نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ» ولم ينوِّن، ومعناه: كونوا أنصاراً لدين الله[٨]. ثم قيل: في الكلام إضمار، أي: قل لهم يا محمَّد: كونوا أنصار الله. وقيل: هو ابتداء

(١) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٠٨ .
(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٤ .
(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦٦ .
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٤ .
(٥) الوسيط ٤/ ٢٩٣ ، ونسب القول الأول للكلبي، والثاني لعطاء.
(٦) السبعة ص٦٣٥ ، والتيسير ص٢١٠ .
(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٩ .
(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٣ .

خطاب من الله، أي: كونوا أنصاراً، كما فعل أصحاب عيسى فكانوا بحمد الله أنصاراً، وكانوا حواريِّين.

والحوَارِيُّون: خواصُّ الرسل. قال مَعْمَر: كان ذلك بحمد الله، أي: نصروه وهم سبعون رجلاً، وهم الذين بايعوه ليلةَ العَقَبَة[1]. وقيل: هم من قريش، وسمَّاهم قتادة: أبا بكر، وعمر، [وعثمان]، وعليّاً، وطلحة، والزبير، وسعد بن مالك، وأبا عبيدة ـ واسمه عامر ـ وعثمان بن مَظْعُون، وحمزة بن عبد المطلب، ولم يذكر سعيداً فيهم، وذكر جعفر بن أبي طالب ﷺ أجمعين[2]. ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ وهم أصفياؤه اثنا عشر رجلاً، وقد مضت أسماؤهم في «آل عمران»[3]، وهم أوَّل من آمن به من بني إسرائيل، قاله ابن عباس[4]. وقال مقاتل: قال الله لعيسى: إذا دخلتَ القريةَ فَأْتِ النهر الذي عليه القَصَّارون، فاسألهم النُّصرة، فأتاهم عيسى وقال: مَن أنصاري إلى الله؟ قالوا: نحن ننصرك. فصدَّقوه ونصروه. ومعنى «مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ» أي: مَن أنصاري مع الله، كما تقول: الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل، أي: مع الذَّوْد. وقيل: أي: مَن أنصاري فيما يقرِّب إلى الله. وقد مضى هذا في «آل عمران»[5]. ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ والطائفتان في زمن عيسى افترقوا بعد رفعه إلى السماء، على ما تقدَّم في «آل عمران»[6] بيانه. ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ الذين كفروا بعيسى. ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: غالبين[7]. قال ابن عباس: أيَّد الله الذين آمنوا في

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٩٠، والطبري ٢٢/ ٦٢٠-٦٢١، وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٢٩ بهامش الإصابة) عن معمر، عن قتادة.

(٢) التعريف والإعلام ص١٧٠، وما بين حاصرتين منه، والخبر أخرجه عن قتادة عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٩٠، والطبري ٢٢/ ٦٢١، والثعلبي في عرائس المجالس ص٣٩٤، إلا أنهم زادوا: عبد الرحمن ابن عوف.

(٣) ٥/ ١٤٩ ولم يذكر هناك أسماءهم، بل ذكر سبب تسميتهم.

(٤) الكشاف ٤/ ١٠١ دون عزو.

(٥) ٥/ ١٤٨، والذَّوْدُ من الإبل: ما بين الثلاث إلى العشر، والمعنى: إذا جمعتَ القليل مع القليل، صار كثيراً. الصحاح (ذود).

(٦) ٥/ ١٥٤.

(٧) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٦٤.

زمن عيسى بإظهار محمَّد على دين الكفار[١]. وقال مجاهد: أُيِّدوا في زمانهم على مَن كفر بعيسى. وقيل: أيَّدنا الآن المسلمين على الفرقتين الضالَّتين، من قال: كان الله فارتفع، ومن قال: كان ابْنَ الله فرفعه الله إليه؛ لأنَّ عيسى ابن مريم لم يقاتل أحداً، ولم يكن في دين أصحابه بعده قتال. وقال زيد بن عليٍّ وقتادة: «فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ»: غالبين بالحجَّة والبرهان؛ لأنَّهم قالوا فيما روي: ألستم تعلمونَ أنَّ عيسى كان ينام، واللهُ لا ينام، وأنَّ عيسى كان يأكل، واللهُ تعالى لا يأكل!. وقيل: نزلت هذه الآية في رسل عيسى عليه الصلاة والسلام.

قال ابنُ اسحاق[٢]: وكان الذي بعثهم عيسى من الحواريِّين والأتباع فطرس[٣] وبولس إلى رُومِية، وأندراييس[٤] ومتى[٥] إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس. وتوماس[٦] إلى أرض بابل من أرض المشرق. وفيلبس[٧] إلى قُرْطَاجَنَّة، وهي أفريقية. ويحنس[٨] إلى دفسوس[٩] قرية أهل الكهف. ويعقوبس إلى أورِيشَلم وهي بيت المقدس. وابن تلما إلى العرابية[١٠] وهي أرض الحجاز. وسِيمن إلى أرض البربر.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٩ بنحوه.

(٢) أخرجه عنه الطبري في تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٦٠٣ ، وقد اختلفت النسخ الخطية في رسم هذه الأسماء، فأثبتناه من التاريخ كما هو، ثم أشرنا إلى اختلاف النسخ الخطية، ووردت أسماءهم أيضاً عند الثعلبي في عرائس المجالس ص٣٩٤ ، والماوردي في المحبر ص٤٦٤ بنحو ما ذكر هنا، وينظر لزاماً: الإعلام بأصول الأعلام للدكتور عبد الرحيم، وقاموس الكتاب المقدس.

(٣) في (ف) و(د) و(خ): قطرس، وفي (ظ): يطرس.

(٤) في (خ): اندراريس.

(٥) في (ف): متا، وفي (خ): ومتنا.

(٦) في (ف) و(خ): بوناس، وفي (د): اتوناس.

(٧) في (ف) : قليس، وفي (خ): قَيْلِيْس.

(٨) ضبطها في (خ) هكذا: يُحَنَّس.

(٩) في (ف) و(د) و(خ) : أقسوس. وفي (ظ): أفسوس.

(١٠) في النسخ الخطية: الأعرابية.

ويهوذا وبردس[1] إلى الإسكندرية وما حولها. فأيَّدهم الله بالحجَّة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: عالين، من قولك: ظهرتُ على الحائط، أي: عَلَوْت عليه. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

سورة الجُمُعة

مدنِيَّةٌ في قول الجميع، وهي إحدى عشرة آية[2].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «خير يوم طَلَعَتْ عليه الشمس يومُ الجمعة؛ فيه خُلِقَ آدم، وفيه أُدخِل الجنَّة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»[3]. وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخِرون [الأوّلون] يوم القيامة، ونحن أوّل من يدخل الجنَّة، بيدَ أنَّهم أوتوا الكتاب مِن قَبْلِنا، وأوتيناه من بعدهم، فاختلفوا، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحقِّ، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه، هدانا الله له ـ قال: يوم الجمعة ـ فاليوم لنا، وغدًا لليهود، وبعد غدٍ للنصارى»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾

تقدَّم الكلام فيه. وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم: «الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ

(١) في (ف) و(خ) و(ظ): وبودس.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٩.

(٣) مسلم (٨٥٤): (١٨) وهو عند أحمد (٩٤٠٩).

(٤) أخرجه مسلم (٨٥٥): (٢٠)، وما بين حاصرتين منه، والبخاري (٨٧٦)، وأحمد (٧٣١٠).

﴿الْحَكِيمُ﴾ كلُّها رفعاً[١]؛ أي: هو المَلِكُ.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ قال ابن عباس: الأمِّيُّون: العرب كلُّهم، من كتَب منهم ومن لم يكتُب؛ لأنَّهم لم يكونوا أهلَ كتاب. وقيل: الأمِّيُّون الذين لا يكتبون. وكذلك كانت قريش[٢]. وروى منصور عن إبراهيم قال: الأمِّيُّ: الذي يقرأ ولا يكتب[٣]. وقد مضى في «البقرة»[٤].

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني محمَّداً ﷺ. وما من حَيٍّ من العرب إلا ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة وقد وَلَدُوه. قال ابن إسحاق: إلا حَيَّ تَغْلِب؛ فإنَّ الله تعالى طهَّر نبيَّه ﷺ منهم لنَصْرَانِيَّتهم، فلم يجعل لهم عليه ولادة. وكان أمِّيًّا لم يقرأ من كتاب، ولم يتعلَّم ﷺ. قال الماورديُّ[٥]: فإن قيل: ما وجه الامتنان بأن بُعث نبيًّا أمِّيًّا؟ فالجواب عنه من ثلاثة أوجه: أحدها: لموافقته ما تقدّمت بشارة الأنبياء. الثاني: لمشاكلة حاله لأحوالهم، فيكون أقربَ إلى موافقتهم. الثالث: لينتفي عنه سوء الظَّنِّ في تعليمه ما دعى إليه من الكتب التي قرأها، والحِكَم التي تلاها.

قلت: وهذا كلُّه دليل معجزته وصدق نبوَّته.

قوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ يعني: القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان، قاله ابن عباس. وقيل: يطهِّرهم من دنس الكفر والذنوب، قاله ابن

(١) القراءات الشاذة ص١٥٦ عن شقيق بن سلمة ورؤبة وأبي الدينار الأعرابي، والكشاف ٤/ ١٠٢ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٥ .

(٣) أخرجه الطبري ٢/ ١٥٣ ، وابن أبي حاتم في التفسير ١/ ١٥٢ (٧٩١) من طريق سفيان، عن منصور، به.

(٤) ٢/ ٢١٦ .

(٥) في النكت والعيون ٦/ ٦ .

جُريج ومقاتل. وقال السُّدِّيُّ: يأخذ زكاة أموالهم[١] ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾يعني: القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السُّنَّة، قاله الحسن. وقال ابن عباس: «الكتاب»: الخطُّ بالقلم؛ لأنَّ الخطَّ فشَا في العرب بالشرع لمَّا أُمِروا بتقييده بالخطِّ. وقال مالك بن أنس: «الحِكْمَة»: الفقه في الدِّين. وقد مضى القول في هذا في «البقرة»[٢]. ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْله وقَبْل أن يرسل إليهم. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في ذهاب عن الحقِّ.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ③﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ هو عطف على «الأمِّيين» أي: بعث في الأمِّيِّين وبعث في آخرين منهم. ويجوز أن يكون منصوباً بالعطف على الهاء والميم في «وَيُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمهُمْ»[٣]؛ أي: يعلِّمهم ويعلِّم آخرين من المؤمنين؛ لأنَّ التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كلُّه مسندًا إلى أوَّله، فكأنَّه هو الذي تولَّى كلَّ ما وجد منه.

﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ أي: لم يكونوا في زمانهم وسيجيئون بعدهم[٤]. قال ابن عمر وسعيد بن جبير: هم العجم[٥]. وفي «صحيح البخاريِّ ومسلم» عن أبي هريرة قال: كنَّا جلوساً عند النبيِّ ﷺ، إذ نزلت عليه سورة «الجمعة»، فلما قرأ: «وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ». قال رجل: مَن هؤلاءِ يا رسول الله؟ فلم يُراجعْه النبيُّ ﷺ حتى سأَلَه مَرَّة أو مرَّتين أو ثلاثاً. قال: وفينا سَلْمانُ الفارسيُّ. قال: فوضع النبيُّ ﷺ يدَه على سلمانَ، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثُّريَّا لناله رجال من هؤلاء»[٦]. في رواية: «لو

(١) النكت والعيون ٦/ ٦ وما بعده منه أيضاً.

(٢) ٢/ ٤٠٣، وقول مالك أخرجه الطبري ٢/ ٥٧٦، وابن أبي حاتم في التفسير ٢/ ٥٣٢ (٢٨٢٩).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٥-٤٢٦.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٦٢.

(٥) زاد المسير ٨/ ٢٥٩.

(٦) البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦): (٢٣١)، وهو عند أحمد (٩٤٠٦).

كان الدِّين عند الثُّرَيَّا لذهب به رجل من فارس - أو قال: من أبناء فارس - حتى يتناوله» لفظ مسلم(١).

وقال عكرمة: هم التابعون(٢). مجاهد: هم الناس كلُّهم، يعني: من بعد العرب الذين بُعث فيهم محمَّد ﷺ(٣). وقاله ابن زيد ومقاتل بن حَيَّان قالا: هم من دخل في الإسلام بعد النبيِّ ﷺ إلى يوم القيامة(٤). وروى سهل بن سعد السَّاعديُّ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ في أصلاب أمَّتي رجالاً ونساءً يدخلون الجنة بغير حساب، ثم تلا: «وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ»(٥). والقول الأوَّل أثبت.

وقد روي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «رأيتُني أسقي غنماً سوداً، ثم أتبعتها غنماً عُفْرًا، أَوِّلْها يا أبا بكر»؟ فقال: يا رسولَ الله، أمَّا السود فالعرب، وأما العُفْر فالعجم تتبعك بعد العرب. فقال النبيُّ ﷺ: «كذا أَوَّلَها المَلَك» يعني: جبريل عليه السلام. رواه ابن أبي لَيلَى عن رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ، وهو عليُّ بن أبي طالب ﷺ(٦).

(١) برقم (٢٥٤٦): (٢٣٠)، وهو عند أحمد (٨٠٨١).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٠.

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٦٧٣، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٣١.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٠ عن ابن زيد، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٣١، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٠٧ عن مقاتل بنحوه.

(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٣٠٩)، والطبراني في الكبير (٦٠٠٥)، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٥٥ (١٨٨٩١) بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤٠٨: رواه الطبراني وإسناده جيد.

(٦) لم نقف عليه هكذا، بل أخرجه الحاكم ٤/ ٣٩٥ من طريق حصين بن عبد الرحمن، عن ابن أبي ليلى، عن أيوب ﷺ مرفوعاً بنحوه. ومن طريق زيد بن أسلم، عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً بنحوه ومع زيادة. قال الحاكم: هذا حديث على شرط البخاري، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وأخرج أحمد (٢٣٨٠١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٩٥١)، وأبو يعلى (٩٠٤)، والبزار (٢٧٨٥)، واللفظ له، عن أبي الطفيل ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: رأيت فيما يرى النائم غنماً سودًا تتبعها غنم عفر، فأولت أن الغنم السود العرب، وأن العفر العجم. مع زيادة فيما عداه من المصادر. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٨٣: رواه البزار، وفيه: علي بن زيد، وهو ثقة سيء الحفظ، وبقية رجاله ثقات.

وذكر ابن حجر في فتح الباري ١٢/ ٤١٣ أن أبا ذر الهروي أخرجه في كتابه الرؤيا عن ابن مسعود، وورد في آخره: «فعبِّرها يا أبا بكر». قال: ألي الأمرَ بعدك، ويليه بعدي عمر. قال: «كذلك عبَّرها الملك». وفي سنده: أيوب بن جابر، وهو ضعيف، وهذه الزيادة منكرة. اهـ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

قال ابن عباس: حيث ألحق العجم بقريش. وقيل: يعني الإسلام، فضلُ الله يؤتيه من يشاء، قاله الكلبيُّ[١]. وقيل: يعني الوحي والنبوَّة، قاله مقاتل. وقول رابع: إنَّه المال يُنفق في الطاعة، وهو معنى قول أبي صالح. وقد روى مسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أنَّ فقراء المهاجرين أتَوْا رسولَ الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدُّثُور بالدرجات العلا والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك»؟ قالوا: يُصَلُّون كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون ولا نتصدَّق، ويُعتِقُون ولا نُعْتِق. فقال رسول الله ﷺ: «أَفلا أُعلِّمكم شيئاً تُدرِكون به مَن سبقكم، وتَسبِقون به مَن بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضلَ منكم، إلا من صنع مثلَ ما صنعتم». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «تُسبِّحون، وتُكبِّرون، وتَحمدون، دُبُرَ كلِّ صلاة ثلاثاً وثلاثين مرَّة». قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمِع إخوانُنا أهلُ الأموال بما فعلنا، ففعلوا مِثْلَه. فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[٢]. وقول خامس: أنَّه انقياد الناس إلى تصديق النبيِّ ﷺ، ودخولهم في دينه ونصرته[٣]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾

ضرب مَثَلاً لليهود لمَّا تركوا العمل بالتوراة، ولم يؤمنوا بمحمَّد ﷺ[٤]. ﴿حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ أي: كُلِّفوا العمل بها، عن ابن عباس. وقال الجُرْجانيُّ: هو من الحَمَالة

(١) النكت والعيون ٦/ ٧ – ٨، وما بعده منه أيضاً.
(٢) مسلم (٥٩٥)، وهو عند البخاري (٨٤٣) بنحوه.
(٣) النكت والعيون ٦/ ٨.
(٤) زاد المسير ٨/ ٢٦٠.

بمعنى الكفالة، أي: ضمنوا أحكام التوراة. ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ هي جمع سِفْر: وهو الكتاب الكبير[١]؛ لأنَّه يسفر عن المعنى إذا قرئ. قال مَيمون بن مِهْران: الحمار لا يدري أسِفْر على ظهره أم زبل[٢]، فهكذا اليهود. وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلَّم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذَّمِّ ما لحق هؤلاء. وقال الشاعر:

زواملُ للأسفارِ لا عِلْم عندهم ... بجيِّدها إلا كعِلْم الأباعر
لَعَمْرك ما يدري البعيرُ إذا غدَا ... بأوساقِه أو راحَ ما في الغرائر[٣]

وقال يحيى بن يمان: يكتب أحدهم الحديث ولا يتفهَّم ولا يتدبَّر، فإذا سُئل أحدهم عن مسألة جلس كأنَّه مكاتب[٤]. وقال الشاعر:

إنَّ الرواةَ على جهل بما حَمَلوا ... مِثْلُ الجِمال عليها يُحمل الوَدَعُ
لا الوَدْع ينفعه حَمْلُ الجِمال له ... ولا الجِمال بحَمْل الوَدْع تنتفع[٥]

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٥ .

(٢) في (م): زبيل.

(٣) من هنا إلى نهاية أشعار البلوطي من جامع بيان العلم لابن عبد البر ٢/ ١٠٣١-١٠٣٢ ، والبيتان لمروان ابن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة، يهجو قوماً من رواة الشعر بأنهم لا يعلمون ما هو، على كثرة استكثارهم من روايته، والبيتان في عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ١٣٠ إلا أنه ورد فيه: المطي، بدل: البعير، وذكرهما أيضاً المبرد في الكامل ٢/ ١٠٣٧ ، والجرجاني في دلائل الإعجاز ص٢٥٤ إلا أنه ورد فيهما: للأشعار، بدل: للأسفار. قال المرصفي في رغبة الآمل ٧/ ٣٧ : الزوامل جمع زاملة: وهي البعير يحمل عليه المتاع والطعام. والأوساق جمع وَسْق: وهو حِمْل البعير. والغرائر جمع الغِرارة: وهي الأوعية التي تسمى بالجَوالق.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٩٧٦)، والكلام - وما قبله وما بعده - منه.

(٥) جامع بيان العلم ٢/ ١٠٣٢ ، ونسبهما لعمار الكلبي، وأوردهما اليوسي في زهر الأكم ٢/ ١٣٨ ولم ينسبهما، إلا أنه ورد عنده صدر البيت الأول هكذا: إن الرواة بلا فهم لما حفظوا.
قال اليوسي: والوَدَع: خرز أبيض يستخرج من البحر، الواحد: وَدَعة، والجمع: وَدَع - وتُسكَّن الدال أيضاً - وودعات.

وقال منذر بن سعيد البَلُّوطي ـ رحمه الله ـ فأحسن[1]:

إنْعِقْ[2] بما شئتَ تجد أنصارًا وزمَّ[3] أسفارًا تجد حِمارًا

يَحملُ ما وضعتَ من أسفارِ مَثَلُه[4] كمثل الحمارِ

يَحملُ أسفارًا له وما دَرَى إن كان ما[5] فيها صواباً أو خطا

إن سُئلوا قالوا كذا روينا ما إن كَذَبْنا [لا] ولا اعتدينا

كبيرهم يصغر عند الحَفلِ لأنه قَلَّد[6] أهل الجهلِ

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: لم يعملوا بها[7]. شبَّههم ـ والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها ـ بالحمار يحمل كتبًا، وليس له إلا ثِقْل الحِمل من غير فائدة. و«يحمل» في موضع نصب على الحال، أي: حاملاً[8]. ويجوز أن يكون في موضع جرٍّ على الوصف؛ لأنَّ الحمار كاللئيم[9]. قال:

ولقد أمُرُّ على اللئيم يَسُبّني[10]

---

(١) الأبيات في جامع بيان العلم ٢/ ١٠٣٢ مع اختلاف يسير، وما بين حاصرتين منه، وبزيادة بيت بعد البيت الرابع، وهو:

أوجههم من قال: ذي رواية ليس بمعناها له دراية

(٢) في (د) و(ز): أنفق.

(٣) في (ظ): ورمّ. وزمَّ: تكلَّم. المعجم الوسيط (زمم).

(٤) في (م): يحمله.

(٥) زيادة من (خ) و(م).

(٦) في (ق): قدّر.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٦٢.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٦.

(٩) الكشاف ٤/ ١٠٣، وما بعده منه أيضاً.

(١٠) صدر بيت لرجل من بني سلول، كما ذكر ذلك سيبويه في الكتاب ٣/ ٢٤، ونسبه الأصمعي في الأصمعيات ص١٢٦ إلى شَمِر بن عمرو الحنفي، أحد شعراء بني حنيفة باليمامة، إلا أنه ورد فيه: مررت، بدل: أمرّ. وجاءت رواية عجزه عندهما هكذا: =

﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ المثل الذي ضربناه لهم؛ فحذف المضاف[١]. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: من سَبَقَ في علمه أنَّه يكون كافرًا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٧﴾

لما ادَّعت اليهود الفضيلة، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨] قال الله تعالى: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ﴾ فللأولياء عند الله الكرامة. ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ لتصيروا إلى ما يصير إليه أولياء الله ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أسلفوه من تكذيب محمَّد ﷺ، فلو تمنَّوه، لماتوا، فكان في ذلك بطلان قولهم، وما ادَّعوه من الولاية. وفي حديثٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «والذي نفس محمَّد بيده، لو تمنَّوا الموت، ما بقي على ظهرها يهوديٌّ إلا مات»[٢]. وفي هذا إخبار عن الغيب، ومعجزةٌ للنبيِّ ﷺ. وقد مضى معنى هذه الآية في «البقرة» في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ

= فمضيت ثُمَّتَ قلتُ لا يعنيني

وأورده أيضاً المبرِّد في الكامل ٢/ ٩٨٣ ولم ينسبه، وجاءت رواية عجزه هكذا:

فأجوز ثم أقول لا يعنيني

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٧ .

(٢) أخرجه ابن إسحاق كما في العجاب في بيان الأسباب لابن حجر ١/ ٢٨٦ ، ومن طريقه الطبري ٢/ ٢٦٨ ، عن ابن عباس موقوفاً، بلفظ: لو تمنَّوه يوم قال لهم ذلك، ما بقي على ظهر الأرض يهودي إلا مات. وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ١/ ٥٢ ، ومن طريقه الطبري ٢/ ٢٦٨ ، وابن أبي حاتم في التفسير ١/ ١٧٧ (٩٣٨) عن ابن عباس بنحوه موقوفاً. قال ابن حجر في العجاب ١/ ٢٨٦ عن إسناده: وهذا سند صحيح.

وأخرجه أيضاً أحمد (٢٢٢٦)، والبزار (٢١٨٩ كشف الأستار)، وأبو يعلى (٢٦٠٤) عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه: .... ولو أن اليهود تمنَّوا الموت لماتوا ورأَوْا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣١٤ : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح. اهـ. وينظر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٤٢ .

ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[١] [الآية: ٩٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

قال الزجَّاج[٢]: لا يقال: إنَّ زيدًا فمنطلق، وهاهنا قال: «فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ» لِما في معنى «الَّذِي» من الشرط والجزاء، أي: إن فررتم منه، فإنَّه ملاقيكم، ويكون مبالغة في الدلالة على أنَّه لا ينفع الفرار منه. قال زهير:

ومن هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ... ولو رامَ أسبابَ السماء بُسلَّمِ[٣]

قلت: ويجوز أن يتمَّ الكلام عند قوله: «الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ»، ثم يبتدئ: «فإنَّه مُلَاقِيكُمْ»[٤]. وقال طرفة:

وكفى بالمَوْت فاعلم واعظاً ... لِمَن المَوْتُ عليه قد قُدِرْ
فاذكر الموتَ وحاذر ذكره ... إنَّ في الموت لذي اللُّبِّ عِبَرْ
كلُّ شيءٍ سوف يَلْقَى حَتْفَه ... في مقامٍ أو على ظَهْرِ سَفَرْ
والمنايا حَوْلَه تَرْصُدُه ... ليس يُنجيه من الموت الحَذَرْ[٥]

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ قرأ

---

(١) ٢/ ٢٥٧-٢٥٨.
(٢) في معاني القرآن له٥/ ١٧١.
(٣) سلف ٣/ ٩.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧١.
(٥) لم نقف عليها.

عبد الله بن الزبير والأعمش وغيرهما: «الجُمْعة» بإسكان الميم على التخفيف[١]. وهما لغتان. وجمعهما: جُمَع، وجُمُعات. قال الفرَّاء[٢]: يقال: الْجُمْعَة ـ بسكون الميم ـ والجُمُعة ـ بضمِّ الميم ـ والجُمَعة ـ بفتح الميم ـ فيكون صفة اليوم، أي: تجمع الناس. كما يقال: ضُحَكة للذي يضحك. وقال ابن عباس: نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم فاقرؤوها جُمُعة، يعني: بضمِّ الميم[٣]. وقال الفرَّاء[٤] وأبو عبيد: والتخفيف أقْيَس وأحسن، نحو غُرْفة وغُرَف، وطُرْفة وطُرَف، وحُجْرة وحُجَر. وفتح الميم لغة بني عقيل. وقيل: إنَّها لغة النبيِّ ﷺ.

وعن سَلْمان أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّما سُمِّيت جمعةً؛ لأنَّ الله جمَع فيها خَلْقَ آدم»[٥]. وقيل: لأنَّ الله تعالى فرغ فيها من خَلْق كلِّ شيء، فاجتمعت فيها المخلوقات. وقيل: لتجتمع الجماعات فيها. وقيل: لاجتماع الناس فيها للصلاة[٦]. و«مِن» بمعنى «في»، أي: في يوم[٧]، كقوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠] أي: في الأرض.

الثانية: قال أبو سلمة: أول من قال: «أما بعد» كعب بن لُؤَيٍّ، وكان أوَّل من سَمَّى الجمعة جمعة. وكان يقال ليوم الجمعة: العَرُوبة[٨].

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٧ عن الأعمش.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٦ .

(٣) أورده السيوطي في الإتقان ١/ ٩٣-٩٤ وعزاه للداني بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٦ .

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٧١٨)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١٠٤ عن سلمان مطولاً، ويشهد لخلق آدم يوم الجمعة ما أخرجه مسلم (٨٥٤): (١٨)، وأحمد (٩٤٠٩) عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، ...» الحديث، وسلف في بداية السورة.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٤١ .

(٧) البيان ٢/ ٤٣٨ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٤١ ، وذكر ابن حجر في فتح الباري ٢/ ٤٠٤ أن القاضي أبا أحمد الغساني أخرج من طريق أبي بكر بن عبد الرحمن [أنَّ أول من قال: أما بعد، كعب بن لؤي] وإسناده ضعيف. اهـ. وذكر في ٢/ ٣٥٣ أن الزبير أخرج في كتابه «النسب» عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف مقطوعاً [أنَّ أول من سمَّى الجمعة جمعةً كعب بن لؤي].

وقيل: أول من سمَّاها جمعةً الأنصارُ، قال ابن سيرين: جَمَّع أهلُ المدينة مِن قبل أن يَقْدَم النبيُّ ﷺ المدينةَ، وقبل أن تنزل الجمعة، وهم الذين سمَّوها الجمعة؛ وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ لليهود يوماً يجتمعون فيه، في كلِّ سبعة أيام يوم، وهو السبت. وللنصارى يوم مثل ذلك، وهو الأحد، فتعالوا فلنجتمع حتى نجعلَ يوماً لنا نذكر اللهَ ونصلِّي فيه، ونستذكر ـ أو كما قالوا ـ فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العَرُوبة. فاجتمعوا إلى أسعد بن زُرَارة ـ أبو أمامة ﷺ ـ فصلَّى بهم يومئذٍ ركعتين وذكَّرهم، فسمَّوْهُ يوم الجمعة حين اجتمعوا، فذبح لهم أسعد شاةً، فتعشَّوْا وتغدَّوْا منها لقلَّتهم[1]. فهذه أوَّل جمعة في الإِسلام.

قلت: وروي أنَّهم كانوا اثني عشر رجلاً على ما يأتي. وجاء في هذه الرواية: أنَّ الذي جَمَّع بهم وصلَّى أسعد بن زُرَارة، وكذا في حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه كعب على ما يأتي[2]. وقال البَيْهَقِيُّ[3]: وروينا عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب الزُّهرِيِّ أنَّ مُصْعَب بنَ عمير كان أوَّلَ من جَمَّع الجمعة بالمدينة للمسلمين قبل أن يَقْدَمها رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال البيهقيُّ: يحتمل أن يكون مصعب جَمَّع بهم بمعونة أسعد بن زُرارة، فأضافه كعب إليه. والله أعلم.

وأما أوَّل جمعة جمَّعها النبيُّ ﷺ بأصحابه، فقال أهل السير والتواريخ: قَدِمَ رسولُ الله ﷺ مهاجراً حتى نزل بقُبَاء، على بني عمرو بنِ عوف يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيعِ الأوَّل حين اشتدَّ الضُّحَى ـ ومن تلك السنة يُعَدُّ التاريخ ـ فأقام بقُبَاء إلى يوم الخميس، وأسَّس مسجدَهم. ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عَوْف في بطن وادٍ لهم قد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجداً، فجمَّع بهم وخَطَب. وهي أوَّل خُطْبة خطبها بالمدينة[4]،

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٤١، وأخرجه عنه عبد الرزاق في المصنف (٥١٤٤)، وعبد بن حميد كما في فتح الباري ٢/ ٣٥٣ وصحَّحه.

(٢) ص٤٨١-٤٨٢ من هذا الجزء.

(٣) في دلائل النبوة له ٢/ ٤٤١.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٩٤، ٥٠٠، وتاريخ الطبري ٢/ ٣٩٤-٣٩٦، وما بين حاصرتين =

وقال فيها: «الحمدُ لِله. أحْمَده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأُومن به ولا أكفُره، وأُعادي من يكفُر به. وأشهد أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له. وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهُدَى ودِين الحقِّ، والنور والموعظة والحكمة، على فَتْرة من الرُّسل، وقلَّة من العلْم، وضلالةٍ من الناس، وانقطاعٍ من الزمان، ودُنُوٍّ من الساعة، وقُرْب من الأجل. من يُطِع الله ورسولَه، فقد رَشَد، ومن يَعْصِ الله ورسوله، فقد غَوَى وفرَّط وضلَّ ضلالاً بعيداً. أُوصِيكم بتَقْوَى الله، فإنَّه خير ما أَوصَى به المسلمُ المسلمَ، أن يحضَّه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله. واحذروا ما حذَّركم الله من نفسه، فإنَّ تقوى الله لمن عَمِل به على وَجَلٍ ومخافةٍ من ربِّه عَوْنُ صدقٍ على ما تبغُون من [أمر] الآخرة. ومن يُصْلِح الذي بينه وبين ربِّه من أمره في السرِّ والعَلَانِية، لا ينوي به إلا وَجْهَ الله، يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذُخْرًا فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قَدَّم. وما كان مما سوى ذلك يَوَدُّ لو أنَّ بينه وبينه أمداً بعيداً. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]. هو الذي صدَق قولَه وأَنجز وَعْدَه لا خُلْف لذلك؛ فإنَّه يقول تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]. فاتَّقوا الله في عاجل أمركم وآجِله، في السرِّ والعلانية؛ فإنَّه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]. ومن يَتَّقِ الله فقد فاز فوزًا عظيماً. وإنَّ تقوى الله توقي مَقْتَه، وتوقي عقوبتَه، وتوقي سَخَطه. وإنَّ تقوى الله تبيِّض الوجوهَ، وتُرْضِي الربَّ، وترفع الدرجة. فخُذوا بحظِّكم ولا تفرِّطوا في جَنْبِ الله، فقد علَّمكم كتابَه، ونَهَج لكم سبيلَه؛ ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين. فأَحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءَه، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، هو اجتباكم وسمَّاكم المسلمين. ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله، فأكثروا ذِكْرَ الله تعالى، واعمَلوا لما بعد الموت، فإنَّه من يُصلح ما بينه وبين الله يَكْفِه اللهُ ما بينه وبين الناس؛ ذلك بأن الله يقضِي على الناس

= منه، والكلام دون ذكر الخطبة من تفسير البغوي ٤/ ٣٤١، وأخرجها البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٥٢٤-٥٢٥ من طريق ابن إسحاق بنحوها.

ولا يَقْضُون عليه، ويملِك من الناس ولا يملِكون منه. الله أكبر، ولا حَوْل ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم».

وأوّل جمعة جُمّعت بعدها جمعة بقرية يقال لها: جُوَاثى، من قُرَى الْبَحْرَين(١). وقيل: إنَّ أوّل من سمَّاها الجمعة كعب بن لؤيٍّ بن غالب؛ لاجتماع قريش فيه إلى كعب(٢)، كما تقدَّم.

الثالثة: خاطب الله المؤمنين بالجمعة دون الكافرين؛ تشريفاً لهم وتكريماً فقال: «يا أيُّهَا الَّذين آمنُوا» ثم خصَّه بالنداء، وإن كان قد دخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٥٨] ليدلَّ على وجوبه، وتأكيد فرضه. وقال بعض العلماء: كون الصلاة الجمعة هاهنا معلوم بالإجماع، لا من نفس اللفظ. قال ابن العربيِّ(٣): وعندي أنَّه معلوم من نفس اللفظ بنكتة، وهي قوله: «مِنْ يَومِ الْجُمُعَةِ» وذلك يفيده؛ لأنَّ النداء الذي يختصُّ بذلك اليوم هو نداء تلك الصلاة. فأمَّا غيرها فهو عامٌّ في سائر الأيام، ولو لم يكن المراد به نداء الجمعة لما كان لتخصيصه بها وإضافته إليها، معنًى ولا فائدة.

الرابعة: فقد تقدَّم حكم الأذان في سورة «المائدة» مستوفًى(٤). وقد كان الأذان على عهد رسول الله ﷺ كما في سائر الصلوات، يؤذِّن واحد إذا جلس النبيُّ ﷺ على المنبر. وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر وعليٌّ بالكوفة. ثم زاد عثمان على المنبر أذاناً ثالثاً على داره التي تسمَّى: الزَّوْراء(٥)، حين كثر الناس بالمدينة. فإذا سمعوا أقبلوا، حتى إذا جلس عثمان على المنبر أذَّن مؤذِّن النبيِّ ﷺ، ثم يخطب عثمان. خرَّجه ابن

(١) أخرجه البخاري (٨٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٤ ،وسلف تخريجه قريباً.
(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٩٠-١٧٩٢ ، وما قبله منه أيضاً.
(٤) ٨/ ٥٩ وما بعدها.
(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩١ وما بعده منه أيضاً، والزوراء: موضع عند سوق المدينة قرب المسجد، قال الداودي: هو مرتفع كالمنارة، وقيل: بل الزوراء سوق المدينة نفسه. معجم البلدان ٣/ ١٥٦ .

ماجه في «سُنَنه»[١] من حديث محمد بن إسحاق، عن الزُّهريِّ، عن السائب بن يزيد قال: ما كان لرسول الله ﷺ إلا مؤذِّن واحد، إذا خرج أذَّن، وإذا نزل أقام. وأبو بكر وعمر كذلك. فلما كان عثمان وكثر الناس، زاد النداءَ الثالثَ على دارٍ في السوق، يقال لها: الزوراء، فإذا خرج أذَّن، وإذا نزل أقام. خرَّجه البخاري[٢] من طرق بمعناه. وفي بعضها[٣]: أنَّ الأذان الثاني يوم الجمعة أَمَرَ به عثمان بن عَفَّان حين كثر أهل المسجد، وكان التأذين يوم الجمعة حين يجلس الإمام.

وقال الماوَرْدِيُّ[٤]: فأمَّا الأذان الأوَّل فمحدَث، فعله عثمان بن عَفَّان؛ ليتأهَّب الناس لحضور الخطبة عند اتِّساع المدينة وكثرة أهلها. وقد كان عمر ﷺ أمر أن يؤذَّن في السوق قبل المسجد؛ ليقوم الناس عن بيوعهم، فإذا اجتمعوا أذَّن في المسجد، فجعله عثمان ﷺ أذانين في المسجد. قال ابن العربيِّ[٥]: وفي الحديث الصحيح: أنَّ الأذان كان على عهد رسول الله ﷺ واحداً، فلما كان زمن عثمان، زاد الأذانَ الثالث على الزوراء، وسمَّاه في الحديث: ثالثاً؛ لأنَّه أضافه إلى الإقامة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «بين كلِّ أذانين صلاة لمن شاء»[٦] يعني: الأذان والإقامة. فتوهَّم الناس أنَّه أذان أَصْليٌّ، فجعلوا المؤذِّنين ثلاثة، فكان وَهَماً، ثم جمعوهم في وقت واحد، فكان وهَمَاً على وَهَم. ورأيتهم يؤذِّنون بمدينة السلام[٧] بعد أذان المنار بين يدي الإمام تحت المنبر في جماعة، كما كانوا يفعلون عندنا في الدُّوَل الماضية، وكلُّ ذلك مُحْدَث.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ اختلف في معنى السَّعْي هاهنا على

(١) برقم (١١٣٥).
(٢) في صحيحه (٩١٢) و(٩١٣) و(٩١٥) و(٩١٦).
(٣) البخاري (٩١٥).
(٤) في النكت والعيون ٦/ ٩-١٠.
(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٩١-١٧٩٢.
(٦) أخرجه البخاري (٦٢٤)، ومسلم (٨٣٨): (٣٠٤)، وأحمد (١٦٧٩٠) من حديث عبد الله بن مغفل ﷺ.
(٧) يعني: بغداد. معجم البلدان ٣/ ٢٣٣.

ثلاثة أقوال: أوّلها: القَصد. قال الحسن: واللهِ ما هو بسَعْي على الأقدام، ولكنَّه سَعْيٌ بالقلوب والنِّيَّة.

الثاني: أنَّه العمل، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء:١٩]، وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤]، وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩] وهذا قول الجمهور(١). وقال زهير:

سَعَى بعدهم قومٌ لِكَيْ يدركوهُم(٢)

وقال أيضاً:

سَعَى ساعِيَا غَيْظِ بن مُرَّةَ بعدما تَبَزَّلَ ما بين العَشِيرة بِالدَّمِ(٣)

أي: فاعملوا على المضيِّ إلى ذكر الله، واشتغلوا بأسبابه من الغسل والتطهير والتَّوجُّه إليه.

الثالث: أنَّ المراد به السَّعْي على الأقدام. وذلك فضلٌ وليس بشرط(٤). ففي البخاري(٥): أنَّ أبا عَبْس بن جَبْر ـ واسمه عبد الرحمن وكان من كبار الصحابة ـ مشى إلى الجمعة راجلاً وقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من اغْبَرَّتْ قدماه في سبيل الله، حرَّمه الله على النار».

ويحتمل ظاهره رابعاً: وهو الجري والاشتداد. قال ابن العربي(٦): وهو الذي

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٢، والأقوال ذكرها أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٨-٩ بنحوه، وقول الحسن ذكره البغوي في التفسير ٤/ ٣٤١ .

(٢) شرح ديوان زهير ص١١٤، وتمامه: فلم يفعلوا ولم يُلاموا ولم يألُوا.

قال شارحه: أي: سَبَقَتْ آباؤهم فلم يدركوهم، ولم يلاموا على تقصيرهم، ولم يألوا أن يبلغوا آباءهم.

(٣) شرح ديوان زهير ص١٤ ، قال شارحه: الساعيان: الحارث بن عوف وهَرِم بن سنان سعَيَا في الحَمَالة. وغيظ بن مرَّة: حيٌّ من غطفان بن سعد. وتبَزَّل بالدم: أي: تشقَّق. يقول: كان بينهم صلح فتشقَّق بالدم.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٢ ، وما بعده منه أيضاً.

(٥) برقم (٩٠٧)، وهو عند أحمد (١٥٩٣٥).

(٦) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٩٢-١٧٩٣ ، وما قبله منه أيضاً.

أنكره الصحابة الأعلمون والفقهاء الأقدمون. وقرأها عمر: «فامضوا إلى ذِكرِ اللهِ» فرارًا عن طريق الجَرْي والاشتداد الذي يدلُّ على الظاهر. وقرأ ابن مسعود كذلك[(١)]، وقال: لو قرأتُ: «فاسْعَوْا» لسعيتُ حتى يسقط ردائي[(٢)]. وقرأ ابن شهاب: «فامضُوا إلى ذكر الله سالكاً تلك السبيل». وهو كلُّه تفسير منهم؛ لا قراءة قرآن مُنزَل. وجائز قراءة القرآن بالتفسير في معرض التفسير.

قال أبو بكر الأنباري: وقد احتجَّ من خالف المصحفَ بقراءة عمر وابن مسعود، وأنَّ خرشة بن الحُرِّ قال: رآني عمر ﷺ ومعي قطعة فيها: «فاسْعَوْا إلَى ذِكْرِ اللهِ» فقال لي عمر: من أقراكَ هذا؟ قلت: أُبَيٌّ. فقال: إنَّ أبيًّا أقرؤنا للمنسوخ. ثم قرأ عمر: «فامضُوا إلى ذِكرِ الله». حدَّثنا إدريس، قال: حدَّثنا خلَف، قال: حدَّثنا هُشيم، عن المُغيرة، عن إبراهيم، عن خَرَشة؛ فذكره[(٣)].

وحدَّثنا محمد بن يحيى، أخبرنا محمد ـ وهو ابن سَعدان ـ قال: حدثنا سفيان بن عُيَيْنَة، عن الزُّهرِيِّ، عن سالم، عن أبيه قال: ما سمعتُ عمرَ يَقرأُ قطُّ إلا: «فامضُوا إلى ذكر الله»[(٤)]. وأخبرنا إدريس، قال: حدَّثنا خلف، قال: حدَّثنا هشيم، عن المغيرة، عن إبراهيم أن عبد الله بن مسعود قرأ: «فامضوا إلى ذكر الله» وقال: لو

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٦، والمحتسب ٢/ ٣٢١-٣٢٢ عن عمر وابن مسعود وابن الزبير وابن عباس وابن عمر وغيرهم. والقراءة عن عمر أوردها البخاري تعليقاً قبل حديث (٤٨٩٧) ووصلها عبد الرزاق في المصنف (٥٣٥٠)، والطبري ٢٢/ ٦٣٨-٦٣٩، وعن ابن مسعود أخرجها ابن أبي شيبة ٢/ ١٥٧، والطبري ٢٢/ ٦٣٩.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧١، وأحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤١٥، وسيرد قريباً.

(٣) وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٨٥-١٨٦ بتمامه، وابن أبي شيبة ٢/ ١٥٧ مختصراً من طريق هشيم، به. والطبري ٢٢/ ٦٣٨ من طريق المغيرة، عن إبراهيم أنه قيل لعمر ﷺ: إنَّ أُبَيًّا يقرؤها: فاسعوا، ... الخبر، ولم يذكر فيه: خَرَشة بن الحرِّ. وصححه في الفتح ٨/ ٦٤٢.

(٤) وأخرجه أيضاً الشافعي في الأم ١/ ١٧٤، والطبري ٢٢/ ٦٣٨، والدارقطني في العلل ٢/ ٢٥٣ من طريق سفيان، به. وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٣٤٨) من طريق الزهري، به.

كانت «فاسْعَوْا» لسعيتُ حتى يسقطَ ردائي[1]. قال أبو بكر: فاحتجَّ عليه بأنَّ الأمَّة أجمعت على «فَاسْعَوْا» برواية ذلك عن الله ربِّ العالمين ورسولِه ﷺ. فأمَّا عبد الله بن مسعود فما صحَّ عنه «فَامْضُوا» لأنَّ السَّنَد غيرُ متصل؛ إذ إبراهيم النَّخَعِيُّ لم يسمع عن عبد الله بن مسعود شيئاً[2]، وإنَّما ورد: «فامضوا» عن عمر ﷺ، فإذا انفرد أحدٌ بما يخالف الأمة[3] والجماعة، كان ذلك نسياناً منه. والعرب مُجْمِعة على أنَّ السعيَ يأتي بمعنى المُضِيِّ؛ غير أنَّه لا يخلو من الجِدِّ والانكماش. قال زهير:

سَعَى ساعِيَا غَيْظِ بن مُرَّةَ بعدَما ... تَبَزَّلَ ما بين العَشِيرةِ بالدَّمِ[4]

أراد بالسَّعْي المضيَّ بِجِدٍّ وانكماش، ولم يقصد للعَدْوِ والإسراع في الخَطْو. وقال الفرَّاء[5] وأبو عبيدة: معنى السعي في الآية المضيُّ. واحتجَّ الفرَّاء بقولهم: هو يسعى في البلاد يطلب فَضْلَ الله، معناه: هو يمضي بجدٍّ واجتهاد. واحتجَّ أبو عبيدة بقول الشاعر:

أسْعَى على جُلِّ بني مالِكٍ ... كلُّ امرِئٍ في شأنه ساعي[6]

فهل يحتمل السعي في هذا البيت إلا مذهب المضي بالانكماش، ومحال أن يخفى هذا المعنى على ابن مسعود على فصاحته وإتقان عربيَّته.

قلت: ومما يدلُّ على أنَّه ليس المراد ها هنا العَدو؛ قوله عليه الصلاة والسلام:

---

(١) وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٨٦ من طريق هشيم، به، وابن أبي شيبة ٢/ ١٥٧ ، والطبري ٢٢/ ٦٣٩ ، والطبراني في الكبير (٩٥٣٩) من طريق الأعمش، عن إبراهيم، به. وينظر التعليق الآتي.

(٢) وكذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢٤ تعليقاً على الخبر، وقال أيضاً ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٤٢ : وأخرجه الطبراني، ورجاله ثقات، إلا أنه منقطع.

(٣) في (م): الآية.

(٤) سلف تخريجه قريباً.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٦ .

(٦) القائل: أبو قيس بن الأسلت، وهو في المفضليات ص٢٨٢ ، ومنتهى الطلب ٨/ ٢٥١ .

«إذا أُقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعَون، ولكن ائتوها وعليكم السكينة»(١). قال الحسن: أمَا واللهِ ما هو بالسَّعي على الأقدامِ، ولقد نُهُوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار؛ ولكن بالقلوب والنِّيَّة والخشوع. وقال قتادة: السعي: أن تسعى بقلبك وعملك(٢). وهذا حسن، فإنَّه جمع الأقوال الثلاثة. وقد جاء في الاغتسال للجمعة والتطيُّب والتزيُّن باللباس أحاديث مذكورة في كتب الحديث(٣).

السادسة: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب للمكلَّفين بإجماع. ويخرج منه المَرْضَى والزَّمْنَى والمسافرون والعبيد والنساء؛ بالدليل، والعميان والشيخ الذي لا يمشي إلا بقائد عند أبي حنيفة(٤). روى أبو الزبير عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم والآخر، فعليه الجمعة يومَ الجمعة، إلا [على] مريض أو مسافر أو امرأة أو صبي أو مملوك، فمن استغنى بلَهْوٍ أو تجارةٍ، استغنى الله عنه، والله غنيٌّ حميدٌ» خرَّجه الدَّارقُطْنيُّ(٥).

وقال علماؤنا رحمهم الله: ولا يتخلَّف أحدٌ عن الجمعة ممَّن عليه إتيانها إلا بعذر لا يمكنه معه الإتيان إليها؛ مثل المرض الحابس، أو خوف الزيادة في المرض، أو خوف جَوْرِ السلطان عليه في مال أو بَدَنٍ دون القضاء عليه بحقٍّ. والمطر الوابل مع الوَحَل عذر إن لم ينقطع ـ ولم يَرَهُ مالكٌ عذراً له، حكاه المهدوِيُّ ـ ولو تخلَّف عنها متخلِّف على وَليٍّ حَمِيم له قد حضرته الوفاةُ، ولم يكن عنده من يقوم بأمره، رَجَا أن يكون في سَعَة. وقد فعل ذلك ابن عمر(٦). ومن تخلَّف عنها بغير عذر، فصلَّى قبل

---

(١) أخرجه مسلم (٦٠٢)، وأحمد (٧٢٥٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٤١ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٢/ ٦٣٧ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩٦٦).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٣ .

(٤) المسألة في المغني ٣/ ٢١٦-٢٢١ ، وينظر كلام أبي حنيفة في بدائع الصنائع ٢/ ١٨٧ .

(٥) في سننه (١٥٧٦)، وما بين حاصرتين استدركناه منه، وأخرجه أيضاً البيهقي ٣/ ١٨٤ ، وفي إسناده: ابن لهيعة يروي عن معاذ بن محمد الأنصاري، وهما ضعيفان. قال ابن التركماني في الجوهر النقي (بهامش السنن الكبرى للبيهقي): ومعاذ هذا شيخ لابن لهيعة لا يعرف. كذا ذكر الذهبي.

(٦) الكافي لابن عبد البر ١/ ٢٥٢ ، وما بعده منه أيضاً، وخبر عمر أخرجه البخاري (٣٩٩٠) عن نافع: أن ابن عمر رضي الله عنهما ذُكرَ له أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ـ وكان بدرياً ـ مرض في يوم جمعة، فركب إليه بعد أن تعالى النهارُ، واقتربت الجمعةُ، وتَرَكَ الجمعةَ.

الإِمام، أعاد، ولا يجزيه أن يصلّي قبله، وهو في تخلُّفه عنها مع إمكانه لذلك عاصٍ لِله بفعله.

السابعة: قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ يختصُّ بوجوب الجمعة القريبُ الذي يسمع النداء، فأمَّا البعيد الدار الذي لا يسمع النداء، فلا يدخل تحت الخطاب. واختلف فيمن يأتي الجمعة من الدَّاني والقاصي[١]، فقال ابن عمر وأبو هريرة وأنس: تجب الجمعة على من في المِصْر على ستَّة أميال. وقال ربيعة: أربعة أميال. وقال مالك والليث: ثلاثة أميال[٢]. وقال الشافعيُّ[٣]: اعتبار سماع الأذان؛ أن يكون المؤذن صَيِّتاً، والأصوات هادئة، والريح ساكنة، وموقف المؤذن عند سُور البلد.

وفي الصحيح عن عائشة: أنَّ الناس كانوا ينتابون الجمعة من منازلهم ومن العَوَالي، فيأتون في العَباء[٤]، ويصيبهم الغُبار، فتخرج منهم الريح، فقال رسول الله ﷺ: «لواغتسلتم ليومكم هذا»! قال علماؤنا: والصَّوْت إذا كان منيعاً، والناس في هدوء وسكون، فأقصى سماع الصوت ثلاثة أميال. والعَوَالي من المدينة أقربها على ثلاثة أميال. وقال أحمد بن حنبل وإسحاق: تجب الجمعة على من سمع النداء[٥].

وروى الدَّارَقُطْنيُّ[٦] من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّما الجمعة على من سمع النداء». وقال أبو حنيفة وأصحابه:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٤ .

(٢) الاستذكار ٧/ ٣٠-٣١ ، والتمهيد ١٠/ ٢٧٨-٢٨٢ ، وقول أبي هريرة أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٧٥ ، وقول مالك في المدونة ١/ ١٥٣ .

(٣) في الأم ١/ ١٧٠ .

(٤) في (د) و(م): الغبار. وكذا وقع عند البخاري (٩٠٢)، قال ابن جحر في فتح الباري ٢/ ٣٨٦ : كذا وقع للأكثر، وعند القابسي: فيأتون في العباء. بفتح المهملة والمد، وهو أصوب، وكذا هو عند مسلم [٨٤٧] والإسماعيلي وغيرهما من طريق ابن وهب. اهـ .

(٥) التمهيد ١٠/ ٢٨١-٢٨٢ .

(٦) في سننه (١٥٨٩).

تجب على مَن في المصْر، سَمِع النداءَ أو لم يسمعه، ولا تجب على من هو خارج المصر وإن سمع النداء[١]. حتى سئل: وهل تجب الجمعة على أهل زبارا - بينها وبين الكوفة مجرى نهر[٢] -؟ فقال: لا. وروي عن ربيعة أيضاً: أنَّها تجب على من إذا سمع النداء وخرج من بيته ماشياً، أدرك الصلاة[٣]. وقد روي عن الزُّهْرِيِّ: أنَّها تجب عليه إذا سمع الأذان.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ دليل على أنَّ الجمعة لا تجب إلا بالنداء، والنداء لا يكون إلا بدخول الوقت[٤]، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا حضرت الصلاةُ، فأذِّنا ثم أقِيما، ولْيَؤُمّكما أكبركما» قاله لمالك بن الحُوَيْرِث وصاحبِه[٥]. وفي البخاريِّ[٦] عن أنس بن مالك أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُصلِّي الجمعة حين تميل الشمس. وقد روي عن أبي بكر[٧] الصِّديق وأحمد ابن حنبل أنَّها تُصَلَّى قبل الزوال. وتمسَّك أحمد في ذلك بحديث سَلَمة بن الأكْوَع: كنا نصلِّي مع النبيِّ ﷺ ثم ننصرف، وليس للحيطان ظِلٌّ[٨]. وبحديث ابن عمر: ما كنَّا نَقِيل ولا نتغدَّى إلا بعد الجمعة[٩]. ومثلُه عن سَهْل. خرَّجه مسلم[١٠]. وحديث سَلَمة محمول على التبكير[١١]. رواه هشام بن عبد الملك، عن يَعْلَى بن الحارث، عن إياس

(١) الاستذكار ٧/ ٣١-٣٢، وقول أبي حنيفة في بدائع الصنائع ٢/ ١٩٠.

(٢) وقال الحموي في معجم البلدان ٣/ ١٢٩: موضع أظنُّه من نواحي الكوفة.

(٣) الاستذكار ٧/ ٣١.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٥.

(٥) سلف ٨/ ٦٢-٦٣.

(٦) برقم (٩٠٤).

(٧) ليست في (م).

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٥، وما بعده منه أيضاً، والحديث أخرجه البخاري (٤١٦٨)، ومسلم (٨٦٠): (٣٢)، وأحمد (١٦٤٩٦).

(٩) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١٠٧ بنحوه.

(١٠) برقم (٨٥٩)، وهو عند البخاري (٩٤١).

(١١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٥.

ابن سلمة بن الأكْوَع، عن أبيه[١]. وروى وَكِيع، عن يَعْلَى، عن إياس، عن أبيه قال: كنَّا نُجَمِّع مع رسول الله ﷺ إذا زالت الشمس، ثم نرجع نتتبع الفَيْء[٢]. وهذا مذهب الجمهور من الخلَف والسَّلَف، وقياساً على صلاة الظهر. وحديث ابن عمر وسَهْلٍ، دليلٌ على أنَّهم كانوا يبكِّرون إلى الجمعة تبكيراً كثيراً عند الغداةِ أو قبلها، فلا يتناولون ذلك إلا بعد انقضاء الصلاة. وقد رأى مالك أن التبكير بالجمعة إنَّما يكون قرب الزوال بيسير. وتأوَّل قولَ النبيِّ ﷺ: «من راح في الساعة الأولى فكأنما قرَّب بَدَنَة...» الحديث بكماله. أنَّه كان في ساعة واحدة[٣]. وحَمَله سائر العلماء على ساعات النهار الزمانية الاثنتي عشرة ساعة المستوية أو المختلفة، بحسب زيادة النهار ونقصانه. ابن العربيِّ[٤]: وهو أصحُّ؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما: ما كانوا يَقِيلون ولا يتغدَّون إلا بعد الجمعة؛ لكثرة البكور إليها.

التاسعة: فرض الله تعالى الجمعة على كلِّ مسلم؛ ردًّا على من يقول: إنَّها فرض على الكفاية[٥]، ونقل عن بعض الشافعية[٦]. ونقل عن مالك من لم يُحَقِّق: أنَّها سنة[٧]. وجمهور الأمَّة والأئمة أنَّها فرض على الأعيان[٨]؛ لقول الله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾. وثبت عن النبيِّ ﷺ أنَّه

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٠): (٣٢) عن إسحاق بن إبراهيم، عن هشام بن عبد الملك، به. وسلف تخريجه قريباً.

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٠): (٣١) عن يحيى بن يحيى وإسحاق بن إبراهيم، عن وكيع، به.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٥ ، وما بعده منه أيضاً، والحديث سلف ١٤/ ٣٩٥ .

(٤) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٩٥ ، وما قبله منه أيضاً، وخبر عمر سلف تخريجه قريباً.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٦ .

(٦) المجموع للنووي ٤/ ٣٥١ ، حيث نقل عن أبي إسحاق المروزي أن هذا لا يحلُّ أن يحكى عن الشافعي.

(٧) الاستذكار ٥/ ١١٩ ، وأجاب عن ذلك بأن شهودها سُنَّة على أهل القرى الذين اختلف السلف والخلف في إيجاب الجمعة عليهم. وأما أهل الأمصار، فلا.

(٨) الإجماع لابن المنذر ص٢٦.

قال: «لَيَنْتَهِيَنَّ أقوام عن وَدْعِهِم الجُمُعات، أو لَيَخْتِمنّ الله على قلوبهم، ثم ليكونُنَّ من الغافلين»(١). وهذا حجَّة واضحة في وجوب الجمعة وفرضيتها. وفي «سُنن ابن ماجه»(٢) عن أبي الجَعْد الضَّمْرِيِّ ـ وكانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من تَرَكَ الجمعة ثلاث مرَّات تهاوناً بها، طبع الله على قلبه». إسناده صحيح. وحديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من تَرَكَ الجمعة ثلاثاً من غير ضرورة، طَبَعَ الله على قلبه»(٣). ابن العربيّ: وثبت عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «الرَّواح إلى الجمعة واجبٌ على كلِّ مسلم»(٤).

العاشرة: أوجب اللهُ السَّعْيَ إلى الجمعة مطلقاً من غير شَرْط. وثبت شرط الوضوء بالقرآن والسنة في جميع الصلوات؛ لقوله عز وجل: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ الآية [٦: من سورة المائدة]. وقال النبيُّ ﷺ: «لا يَقبلُ الله صلاةً بغير طهور»(٥). وأغْرَبت طائفة فقالت: إنَّ غسل الجمعة فرض. ابنُ العربيِّ: وهذا باطل؛ لما روى النسائيُّ وأبو داود في «سننهما» أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «من توضَّأ يوم الجمعة فبها ونِعْمَتْ. ومن اغتسل فالغسل أفضل»(٦). وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضَّأ يوم الجمعة فأحسن الوضوء، ثم راح إلى الجمعة فاستمع وأنصت، غفر الله له ما بين الجمعة إلى الجمعة، وزيادة ثلاثة أيام. ومن مَسَّ الحَصَى

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٥) عن ابن عمر وأبي هريرة ﷺ.

(٢) برقم (١١٢٥)، وأخرجه أيضاً أبو داود (١٠٥٢)، والترمذي (٥٠٠)، والنسائي في المجتبى ٣/ ٨٨، وأحمد (١٥٤٩٨). قال الترمذي: حديث أبي الجعد حديث حسن.

(٣) سنن ابن ماجه (١١٢٦)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١٦٦٩)، قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٦، والحديث أخرجه النسائي في المجتبى ٣/ ٨٩ عن حفصة زوج النبي ﷺ، وفيه: محتلم، بدل: مسلم. وهو عند أبي داود (٣٤٢) بلفظ: على كل محتلم رواح إلى الجمعة، وعلى كل من راح إلى الجمعة الغسل.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٦، والحديث سلف ٧/ ٣٦٦.

(٦) النسائي في المجتبى ٣/ ٩٤، وأبو داود (٣٥٤)، وأخرجه أيضاً الترمذي (٤٩٧)، وأحمد (٢٠٠٨٩) عن سمرة بن جندب ﷺ. قال الترمذي: حديث سمرة حديث حسن. اهـ ومعنى قوله: ﷺ: فبها ونعمت: أي ونِعْمت الفعلة والخصلة هي، وقيل: هو راجع إلى السُّنَّة، أي: فبالسنة أخذ. النهاية (نعم).

فقد لَغا» وهذا نَصٌّ(١). وفي «الموطأ»(٢): أنَّ رجلاً دخل يوم الجمعة وعمر بن الخطاب يخطب(٣)... الحديث، إلى أن قال: ـ ما زدتُ على أن توضأت، فقال عمر: والوضوء، أيضاً؟! وقد علمتَ أنَّ رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل. فأمر عمر بالغسل، ولم يأمره بالرجوع، فدلَّ على أنَّه محمول على الاستحباب، فلم يمكن وقد تلبَّس بالفرض ـ وهو الحضور والإنصات للخطبة ـ أن يرجع عنه إلى السُّنَّة، وذلك بمحضر فحول الصحابة وكبار المهاجرين حوالي عمر، وفي مسجد النبيِّ ﷺ(٤).

الحادية عشرة: لا تسقط الجمعة لكونها في يوم عيد، خلافاً لأحمد بنِ حَنْبل فإنَّه قال: إذا اجتمع عِيدٌ وجمعة، سقط فرض الجمعة؛ لتقدُّم العيد عليها، واشتغال الناس به عنها. وتعلَّق في ذلك بما روي أنَّ عثمان أذِن في يوم عِيد لأهل العَوَالي أن يتخلَّفوا عن الجمعة. وقول الواحد من الصحابة ليس بحجَّة إذا خولف فيه، ولم يجمع معه عليه. والأمر بالسَّعْي متوجِّه يوم العيد كتوجُّهه في سائر الأيام(٥). وفي «صحيح مسلم» عن النُّعمان بن بَشير قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة: بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] قال: وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما أيضاً في الصلاتين. أخرجه أبو داود

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٦، وما بعده منه أيضاً، والحديث عند مسلم (٨٥٧): (٢٧) مع اختلاف يسير.

(٢) ١/ ١٠١ عن سالم بن عبد الله، وأخرجه أيضاً البخاري (٨٧٨)، ومسلم (٨٤٥)، وأحمد (١٩٩) لكن عن ابن عمر رضي الله عنهما بنحوه.

(٣) وتمامه: فقال عمر: أيَّة ساعة هذه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، انقلبتُ من السوق، فسمعت النداء، فما زدت على أن توضأت.... الخبر.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٦.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٧، وقول أحمد في المغني لابن قدامة ٣/ ٢٤٢، وقول عثمان أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١٨٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٣١٨، والعوالي: أماكن بأعلى أراضي المدينة، وأدناها من المدينة على أربعة أميال، وأبعدها من نجد ثمانية أميال. النهاية (علا).

والتِرمِذيُّ والنَّسائيُّ وابن ماجه(١).

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: الصلاة. وقيل: الخطبة والمواعظ، قاله سعيد بن جُبير(٢). ابن العربيّ(٣): والصحيح أنَّه واجب في الجميع، وأوَّله الخطبة. وبه قال علماؤنا، إلا عبد الملك بن الماجِشُون فإنَّه رآها سُنَّة. والدليل على وجوبها أنَّها تُحَرِّم البيع، ولولا وجوبها ما حَرَّمته؛ لأنَّ المستحبَّ لا يُحَرِّم المباح. وإذا قلنا: إنَّ المراد بالذكر الصلاة، فالخطبة من الصلاة، والعبد يكون ذاكراً للهِ بفعله، كما يكون مُسَبِّحًا للهِ بفعله. الزَّمَخْشَرِيُّ(٤): فإن قلتَ: كيف يفسَّر ذِكْر الله بالخطبة، وفيها غير ذلك! قلت: ما كان من ذِكْر رسول الله ﷺ والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير، فهو في حكم ذكر الله. فأمَّا ما عدا ذلك من ذكر الظَّلَمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم، وهم أحقَّاء بعكس ذلك، فهو من ذِكْر الشيطان، وهو من ذِكْر الله على مراحل.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ منع الله عزَّ وجلَّ منه عند صلاة الجمعة، وحرَّمه في وقتها على من كان مخاطباً بفرضها(٥). والبيع لا يخلو عن شراء، فاكتفى بذِكْر أحدهما(٦)، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]. وخصَّ البيع؛ لأنَّه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق. ومن لا يجب عليه حضور الجمعة فلا يُنهى عن البيع والشِّراء.

---

(١) مسلم (٨٧٨)، وأبو داود (١١٢٢)، والترمذي (٥٣٣)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١٨٤، وابن ماجه (١٢٨١)، وهو عند أحمد (١٨٣٨٣).

(٢) النكت والعيون ٦/ ٩ لكن عن سعيد بن المسيب.

(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٩٣ .

(٤) في الكشاف ٤/ ١٠٥-١٠٦ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٩ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٦٣ .

وفي وقت التحريم قولان: إنَّه من بعد الزوال إلى الفراغ منها، قاله الضحَّاك والحسن وعطاء. الثاني: من وقت أذان الخطبة إلى وقت الصلاة، قاله الشافعيُّ[١]. ومذهب مالك أن يترك البيع إذا نُودِيَ للصَّلاة، ويفسخ عنده ما وقَع من ذلك من البيع في ذلك الوقت[٢]. ولا يفسخ العتق والنكاح والطلاق وغيره؛ إذ ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع. قالوا: وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لا يفسخ. ابن العربيِّ[٣]: والصحيح فسخ الجميع؛ لأنَّ البيع إنما مُنع منه للاشتغال به، فكلُّ أمرٍ يَشْغَل عن الجمعة من العقود كلِّها، فهو حرام شرعاً، مفسوخ رَدْعًا. المهدويُّ: ورأى بعض العلماء البيعَ في الوقت المذكور جائزاً، وتأوَّل النهْيَ عنه ندباً، واستدلَّ بقوله تعالى: «ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ».

قلت: وهذا مذهب الشافعي؛ فإنَّ البيع ينعقد عنده ولا يفسخ[٤]. وقال الزَّمَخْشَرِيُّ في «تفسيره»[٥]: إنَّ عامة العلماء على أنَّ ذلك لا يؤدِّي فساد البيع. قالوا: لأنَّ البيع لم يَحْرُم لعينه، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب، فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة، والثوب المغصوب، والوضوء بماء مغصوب. وعن بعض الناس أنَّه فاسد.

قلت: والصحيح فساده وفسخه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ عملٍ ليس عليه أمْرُنا فهو رَدٌّ»[٦]. أي: مردود. والله أعلم.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٩ ، وقول الضحاك أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٢٢٣)، وابن أبي شيبة ٢/ ١٣٤ ، والطبري ٢٢/ ٦٤٢ ، وقول الشافعي في الأم ١/ ١٧٣ .

(٢) المدونة ١/ ١٥٤ .

(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٩٤ .

(٤) الأم ١/ ١٧٣ .

(٥) الكشاف ٤/ ١٠٦ .

(٦) سلف ٢/ ٤٦ .

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا أمر إباحةٍ[١]، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة: ٢]. يقول: إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرُّف في حوائجكم. ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: من رزقه[٢] وكان عِراك بن مالك إذا صلَّى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: اللَّهُمَّ إنِّي أجبت دعوتك، وصلَّيت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين[٣]. وقال جعفر بن محمد في قوله تعالى: «وابْتَغُوا من فَضل اللهِ» إنَّه العمل في يوم السبت[٤]. وعن الحسن وسعيد بن المسَيِّب: طلب العلم. وقيل: صلاة التطوُّع. وعن ابن عباس: لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا، إنَّما هو عيادة المرضى، وحضور الجنائز، وزيارة الأخ في الله تعالى[٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: بالطاعة واللسان، وبالشكر على ما به أنعم عليكم من التوفيق لأداء الفرائض. ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كي تفلحوا. قال سعيد بن جبير: الذكر: طاعة الله تعالى، فمن أطاع الله فقد ذَكَره، ومن لم يطعه فليس بذاكر، وإن كان كثيرَ التسبيح. وقد مضى هذا مرفوعاً في «البقرة»[٦].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٢ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٦٣ .

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٥٦ (١٨٨٩٧)، والنكت والعيون ٦/ ١٠ ، والوسيط ٤/ ٣٠٠ ، وعراك بن مالك هو الغفاري المدني، من خيار التابعين، مات في خلافة يزيد بن عبد الملك بعد المئة. تهذيب التهذيب ٣/ ٨٨-٨٩ .

(٤) في (م): السبب. والكلام من النكت والعيون ٦/ ١٠ .

(٥) الكشاف ٤/ ١٠٦ .

(٦) ٢/ ٤٥٩ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾

فيه سبع عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا إِلَيْهَا﴾ في «صحيح مسلم»[(١)] عن جابر بن عبد الله أنَّ النبيَّ ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة، فجاءت عِيرٌ من الشام، فانفتل الناس إليها، حتى لم يَبْقَ إلا اثنا عشَر رجلاً ـ في رواية[(٢)]: أنا فيهم ـ فأنزلت هذه الآية التي في الجمعة: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ﴾. في رواية[(٣)]: فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وقد ذكر الكلبيُّ وغيره: أنَّ الذي قدِم بها دِحْيَة بن خليفة الكلبيُّ من الشام عند مجاعةٍ وغلاءِ سعر، وكان معه جميع ما يحتاج الناس من بُرٍّ ودقيق وغيره، فنزل عند أحجار الزيت، وضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه، فخرج الناس إلا اثني عشر رجلاً. وقيل: أحد عشر رجلاً[(٤)]. قال الكلبيُّ: وكانوا في خطبة الجمعة، فانفضوا إليها، وبقي مع رسول الله ﷺ ثمانية رجال، حكاه الثعلبيُّ عن ابن عباس[(٥)].

وذكر الدَّارَ قُطْنِيُّ[(٦)] من حديث جابر بن عبد الله قال: بينما رسول الله ﷺ يخطبنا يوم الجمعة إذ أَقبلت عِيرٌ تحمل الطعام، حتى نزلت بالبقِيع، فالتفتوا إليها وانفضوا

---

(١) برقم (٨٦٣)، وهو عند البخاري (٩٣٦)، والواحدي في أسباب النزول ص ٤٥٥-٤٥٦ .

(٢) مسلم (٨٦٣): (٣٧)، والعِيْر: القافلة. النهاية (عير).

(٣) مسلم (٨٦٣): (٣٨).

(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٤٥٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٥ ، والكشاف ٤/١٠٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٠٩ ، وورد في بعضها: أنه ورد بتجارة زيت من الشام، بدل: عند أحجار الزيت، وهي هكذا عند البغوي، وقال بعدها: وهو مكان في سوق المدينة.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٠٩.

(٦) في سننه (١٥٨٣)، وأخرجه أيضاً من طريقه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٨٢ ، وضعَّف إسناده ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ٥٧ ، وقال: تفرَّد به عليُّ بن عاصم، وخالف أصحاب حصين به.

إليها، وتركوا رسول الله ﷺ ليس معه إلا أربعون رجلاً أنا فيهم. قال: وأنزل الله عزَّ وجلَّ على النبيِّ ﷺ: «وَإِذا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً». قال الدَّارَ قُطْنيُّ: لم يقل في هذا الإسناد: «إلا أربعين رجلاً» غير عليِّ بن عاصم، عن حُصين، وخالفه أصحاب حُصين فقالوا: لم يَبْقَ مع النبيِّ ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً.

وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه قال: «والذي نفسي بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً»، ذكره الزَّمَخْشرِيُّ[١].

وروي في حديثٍ مرسلٍ أسماء الاثني عشر رجلاً، رواه أسد بن عمرو والد أسد ابن موسى بن أسد. وفيه: أنَّ رسولَ الله ﷺ لم يَبْقَ معه إلا أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ، وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجرَّاح، وسعيد بن زيد وبلال، وعبد الله بن مسعود في إحدى الروايتين. وفي الرواية الأخرى: عَمَّار بن ياسِر[٢].

قلت: لم يذكر جابراً، وقد ذكر مسلم أنَّه كان فيهم، والدَّارَقُطْنِيُّ أيضاً[٣]. فيكونون ثلاثة عشر. وإن كان عبد الله بن مسعود فيهم فهم أربعة عشر. وقد ذكر أبو داود في «مراسيله» السببَ الذي ترخَّصوا لأنفسهم في تَرْكِ سماع الخطبة، وقد كانوا خليقاً بفضلهم ألا يفعلوا[٤]، فقال: حدَّثنا محمود بن خالد، قال: حدَّثنا الوليد، قال: أخبرني أبو معاذ بكر بن معروف أنَّه سمع مقاتل بنَ حَيَّان قال: كان رسول الله ﷺ يصلِّي الجمعة قبل الخطبة مثل العِيدين، حتى كان يومُ جمعة والنبيُّ ﷺ يخطب، وقد صلَّى الجمعة، فدخل رجل فقال: إنَّ دِحْيَة بن خليفة الكَلْبيَّ قدم

---

(١) في الكشاف ٤/١٠٦ ، وأخرجه أبو يعلى (١٩٧٩)، ومن طريقه ابن حبان في صحيحه (٦٨٧٧) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما بنحوه.

(٢) التعريف والإعلام ص١٧١-١٧٢ ، ورواية أسد بن عمرو وصلها العقيلي كما في الضعفاء الكبير ٢/ ٤٢٤ من رواية أسد بن عمرو، عن حصين، عن سالم، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. قال ابن حجر في فتح الباري ٢/ ٤٢٤ : ورواية العقيلي عن ابن عباس: أنَّ منهم الخلفاء الأربعة وابن مسعود وأناساً من الأنصار. أقوى وأشبه بالصواب.

(٣) سلف ذكره قريباً.

(٤) التعريف والإعلام ص ١٧٢ .

بتجارة، وكان دِحْيَة إذا قدم، تلقَّاه أهله بالدِّفاف، فخرج الناس فلم يظنُّوا إلا أنَّه ليس في ترك الخطبة شيء؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾. فقدَّم النبيُّ ﷺ الخطبةَ يوم الجمعة وأخَّر الصلاة. وكان لا يخرج أحدٌ لرُعاف أو أحداث بعد النَّهي حتى يستأذنَ النبيَّ ﷺ، يشير إليه بإصبعه التي تلي الإبهام، فيأذنَ له النبيُّ ﷺ، ثم يشير إليه بيده، فكان من المنافقين من ثَقُل عليه الخطبة والجلوس في المسجد، وكان إذا استأذن رجلٌ من المسلمين، قام المنافق إلى جنبه مستتراً به حتى يخرج، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ الآية[(١)] [٦٣ من سورة النور]. قال السُّهَيْلِيُّ[(٢)]: وهذا الخبر وإن لم ينقل من وجه ثابت، فالظنُّ الجميل بأصحاب النبيِّ ﷺ يوجب أن يكون صحيحاً.

وقال قتادة: وبلغنا أنَّهم فعلوه ثلاثَ مرَّات؛ كلّ مَرَّة عِير تَقْدُم من الشام، وكلُّ ذلك يوافق يومَ الجمعة[(٣)]. وقيل: إنَّ خروجهم لقدوم دِحْيَة الكَلْبيِّ بتجارته ونظرهم إلى العِير تَمُرُّ، لَهْوٌ لا فائدةَ فيه، إلَّا أنَّه كان ممَّا لا إثمَ فيه لو وقع على غير ذلك الوجه، ولكنَّه لما اتصل به الإعراض عن رسول الله ﷺ والانفضاض عن حضرته، غَلُظ وكَبُر ونزل فيه من القرآن وتهجينه باسم اللَّهو ما نزل. وجاء عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «كلُّ ما يَلْهو به الرجل باطل إلا رَمْيه بقَوْسه». الحديث. وقد مضى في سورة «الأنفال»[(٤)] فلله الحمد.

وقال جابر بن عبد الله: كانت الجواري إذا نُكحن، يمررن بالمزامير والطبل فانفضوا إليها؛ فنزلت[(٥)]. وإنما رَدَّ الكناية إلى التجارة؛ لأنَّها أهمُّ[(٦)]. وقرأ طلحة بن

---

(١) مراسيل أبي داود (٦٢)، وقال عنه ابن حجر في فتح الباري ٢/ ٤٢٥: شاذٌّ معضل.
(٢) في التعريف والإعلام ص١٧٢.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٩.
(٤) ١٠/ ٥٦.
(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٦٤٨، وأبو عوانة في صحيحه كما في فتح الباري ٢/ ٤٢٤. وأخرجه أيضاً الشافعي في الأم ١/ ١٧٧ من طريق جعفر بن محمد، عن أبيه، مرسلاً، دون ذكر جابر، وبنحوه، وورد عند الطبري: بالكَبَر، بدل: الطبل. وهما بمعنًى. النهاية (كبر).
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٦.

مُصَرِّف: «وإذا رأوا التجارة واللّهو انْفَضُّوا إليها»[١]. وقيل: المعنى: وإذا رأوا تجارة انفضُّوا إليها، أو لهوًا انفضُّوا إليه، فحذف لدلالته[٢]. كما قال:

نحن بما عندنا وأنتَ بما عندك راضٍ والرأيُ مُختلِفُ[٣]

وقيل: الأجود في العربية أن يجعل الراجع في الذكر للآخِر من الاسمين[٤].

الثانية: واختلف العلماء في العدد الذي تنعقد به الجمعة على أقوال؛ فقال الحسن: تنعقد الجمعة باثنين. وقال الليث وأبو يوسف: تنعقد بثلاثة. وقال سفيان الثَّوْريُّ وأبو حنيفة: بأربعة. وقال ربيعة: باثني عشَر رجلاً[٥].

وذكر النجَّاد أبو بكر أحمد بن سليمان قال: حدَّثنا أبو خالد يزيد بن الهَيْثم بن طَهْمان الدَّقاق، حدَّثنا صبح بن دِينار، قال: حدَّثنا المعافى بن عمران، حدَّثنا مَعْقِل ابن عبيد الله، عن الزهريِّ بسنده إلى مُصعب بن عمير: أنَّ النبيَّ ﷺ بعثه إلى المدينة، وأنَّه نزل في دار سعد بن مُعاذ، فجمَّع بهم وهم اثنا عشر رجلاً، ذبح لهم يومئذ شاة[٦]. وقال الشافعيُّ[٧]: بأربعين رجلاً.

وقال أبو إسحاق الشِّيرازيُّ في كتاب «التنبيه على مذهب الإمام الشافعي»[٨]: كلُّ قرية فيها أربعون رجلاً بالغِين عقلاء أحراراً مقيمين، لا يظعنون عنها صيفاً ولا شتاءً إلا ظَعْنَ حاجة، وأن يكونوا حاضرين من أوَّل الخطبة إلى أن تقام الجمعة، وجبت

---

(١) لم نقف عليها.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٢ .
(٣) سلف ١٠/ ١٨٨ .
(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٧ .
(٥) حلية العلماء للقفال الشاشي ٢/ ٢٣٠ إلا أنه ذكر الأوزاعي، بدل: الليث. وذكر ابن حجر في فتح الباري ٢/ ٤٢٣ أن جملة ما للعلماء في العدد الذي تنعقد به الجمعة خمسة عشر قولاً، فلتنظر لمن أراد التوسع.
(٦) الخبر ذكره ابن سعد في الطبقات ٣/ ١١٨ بإسناد آخر، وينظر ما سلف ص٤٦٣ من هذا الجزء.
(٧) في الأم ١/ ١٦٩ .
(٨) ص٤٣-٤٤ .

عليهم الجمعة. ومال أحمد وإسحاق إلى هذا القول ولم يشترطا هذه الشروط[١]. وقال مالك: إذا كانت قرية فيها سوق ومسجد، فعليهم الجمعة من غير اعتبار عدد[٢]. وكتب عمر بن عبد العزيز: أيُّ قرية اجتمع فيها ثلاثون بيتاً، فعليهم الجمعة.

وقال أبو حنيفة: لا تجب الجمعة على أهل السَّواد والقرى، لا يجوز لهم إقامتها فيها. واشترط في وجوب الجمعة وانعقادها: المِصر الجامع والسلطان القاهر والسوق القائمة والنهر الجاري. واحتجَّ بحديث عليٍّ: لا جمعة ولا تشريق إلا في مصر جامع، ورفقة تعينهم[٣].

وهذا يردُّه حديث ابن عباس، قال: إنَّ أوَّل جمعة جُمِّعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ بقرية يقال لها: جُوَاثى، من قرى البحرين[٤]. وحجَّة الإمام الشافعيِّ في الأربعين حديث جابر المذكور الذي خرَّجه الدَّارَقُطْنيُّ[٥].

وفي «سنن ابن ماجه» والدَّارَقُطْنيِّ أيضاً و«دلائل النبوَّة» للبَيْهَقيِّ عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك قال: كنت قائد أبي حين ذهب بصرُه، فإذا خرجتُ به إلى الجمعة، فسمع الأذان، صلَّى على أبي أمَامة واستغفرَ له، قال: فمكث كذلك حيناً لا يسمعُ الأذان بالجمعة إلا فعل ذلك، فقلت له: يا أبةِ، استغفارُك لأبي أمامة كلَّما سمعتَ أذان الجمعة، ما هو؟ قال: أي بُنَيَّ، هو أوَّلُ من جَمَّع بالمدينة في هَزْم من

---

(١) الأوسط لابن المنذر ٤/ ٢٨، وقول أحمد في مسائله برواية ابن هانئ ١/ ٨٨ .

(٢) النوادر والزيادات للقيرواني ١/ ٤٥١-٤٥٢ .

(٣) المسألة في بدائع الصنائع٢/ ١٨٨-١٩٠ ، والمبسوط٢/ ١٢٠-١٢١ ، وقول علي أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٣/ ١٦٧ ، وابن أبي شيبة ٢/ ١٠١ دون قوله: ورفقة تعينهم. قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٧١ : وإسناده ضعيف.

(٤) سلف ص٤٦٣ من هذا الجزء.

(٥) برقم (١٥٧٩) وأخرجه أيضاً البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٧٧ ، وقال: تفرَّد به عبد العزيز القرشي، وهو ضعيف، ولفظه: مضت السُّنَّة أن في كل ثلاثة إماماً، وفي كل أربعين فما فوق ذلك جمعة وأضحى وفطراً، وذلك أنهم جماعة. وينظر المجموع للنووي ٤/ ٣٧١ .

حَرَّة بني بَيَاضة، يقال له: نَقيع الخَضِمات. قال: قلت: كم أنتم يومئذٍ؟ قال: أربعون رجلاً(١).

وقال جابر بن عبد الله: مضت السُّنة أنَّ في كلِّ ثلاثة إماماً، وفي كلِّ أربعين فما فوق ذلك جمعة وأَضْحَى وفِطرًا، وذلك أنَّهم جماعة. خرَّجه الدَّارَقُطْنيُّ(٢).

وروى أبو بكر أحمد بن سليمان النَّجَّاد: قرئ على عبد الملك بن محمد الرّقاشي وأنا أسمع، حدَّثني رجاء بن سلمة، قال: حدَّثنا أبي، قال: حدَّثنا رَوْح بن غُطيف الثَّقفيُّ، قال: حدَّثني الزُّهريُّ، عن أبي سلمة قال: قلت لأبي هريرة: على كم تجب الجمعة من رجل؟ قال: لما بلغ أصحاب رسول الله ﷺ خمسين رجلاً جمَّع بهم رسول الله ﷺ. قُرئ على عبد الملك بن محمد وأنا أسمع، قال: حدَّثنا رجاء بن سلمة، قال: حدَّثنا عَبَّاد بن عَبَّاد المُهَلَّبيُّ، عن جعفر بنِ الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تجب الجمعة على خمسين رجلاً، ولا تجب على من دون ذلك»(٣).

قال ابن المنذر(٤): وكتب عمر بن عبد العزيز: أيّما قريةٍ اجتمع فيها خمسون رجلاً، فليصلُّوا الجمعة.

وروى الزّهريُّ عن أمِّ عبد الله الدَّوسِيَّة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الجمعة واجبة على كلِّ قرية، وإن لم يكن فيها إلا أربعة». يعني: بالقُرَى: المدائن. لا يصحُّ

---

(١) ابن ماجه (١٠٨٢)، والدارقطني (١٥٨٥)، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٤١ ، وأخرجه أيضاً أبو داود (١٠٦٩). وحسَّن إسناده ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ٥٦ وقال: حرة بني بياضة: قرية على ميل من المدينة، ونقيع الخضمات: موضع معروف.

(٢) سلف تخريجه قريباً.

(٣) أوردهما هكذا ابن قدامة في المغني ٣/ ٢٠٤ عن أبي بكر النَّجاد بإسناده عنهما، وأخرج الثاني أيضاً الدارقطني في السنن(١٥٨٠) من طريق خالد بن الهيَّاج، عن أبيه، عن جعفر بن الزبير، به. وقال بعده: جعفر بن الزبير متروك. اهـ. وأورده أيضاً الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٦٥ .

(٤) في الأوسط له ٤/ ٢٨ ، وأورده أيضاً مالك في المدونة ١/ ١٥٣ ، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٧٨ .

هذا عن الزهريِّ. في رواية: «الجمعة واجبة على أهل كلِّ قرية، وإن لم يكونوا إلا ثلاثة رابعهم إمامهم». [الزهري] لا يصحُّ سماعه من الدَّوسية. والحكم [هذا] متروك[١].

الثالثة: وتصحُّ الجمعة بغير إذن الإمام وحضوره. وقال أبو حنيفة: من شرطها الإمام أو خليفته[٢]. ودليلنا أنَّ الوليد بن عُقْبة والي الكوفة أبطأ يومًا، فصلَّى ابن مسعود بالناس من غير إذنه[٣]. ورُوِيَ أنَّ عليًّا صلَّى الجمعة يوم حصِر عثمان ولم يُنقل أنَّه استأذنه[٤]. وروي أنَّ سعيد بن العاصي والي المدينة لما خرج من المدينة، صلَّى أبو موسى بالناس الجمعة من غير استئذان[٥]. وقال مالك[٦]: إنَّ للهِ فرائض في أرضه

(١) سنن الدارقطني (١٥٩٢) و(١٥٩٤)، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً من طريقه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٧٩ .

(٢) بدائع الصنائع ٢/ ١٩٢ .

(٣) أخرجه أحمد (٤٢٩٨)، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٢٤، وفي الدلائل ٦/ ٣٩٧ من طريق القاسم ابن عبد الرحمن، عن أبيه: أن الوليد بن عقبة أخَّر الصلاة مرَّة، فقام عبد الله بن مسعود فثوَّب بالصلاة، فصلى بالناس... الخبر.

وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في المصنف (٣٧٩٠)، والطبراني في الكبير (٩٥٠٠) من طريق القاسم بن عبد الرحمن أنه قال: أخَّر الوليد بن عقبة الصلاة مرَّة.... الخبر مرسلاً، ولم يذكر فيه: عبدَ الرحمن بنَ عبد الله بن مسعود. قال الهيثمي في مجمع الزوائد١/ ٣٢٤ : رواه أحمد والطبراني في الكبير، ورجاله ثقات. اهـ ولم يذكر أنه عند الطبراني مرسل.

(٤) أورده ابن قدامة في المغني ٣/ ٢٠٦-٢٠٧، لكن جاء عن ابن عبد البر في التمهيد ١٠/ ٢٩٢ ، والاستذكار ٧/ ٣٥ أنه قال: وقد صلَّى بالناس - في حين حصار عثمان - جماعة من الفضلاء الجِلَّة منهم: أبو أيوب الأنصاري، وطلحة، وسهل بن حنيف، وأبو أمامة بن سهل وغيرهم، وصلَّى بهم علي ابن أبي طالب ﷺ صلاة العيد فقط. اهـ وعزا صلاة علي العيدَ إلى ابن المبارك، وأخرجها مالك في الموطأ ١/ ١٧٩، وابن شبة في تاريخ المدينة المنورة ٤/ ١٢١٦ عن أبي عبيد مولى ابن أزهر. وأما صلاة سهل بن حنيف الجمعة بهم فأخرجها ابن شبة في تاريخ المدينة المنورة ٣/ ١١١٢ ، قال ابن حجر في فتح الباري ٢/ ١٨٩ : وإسناده قوي. اهـ وينظر تتمة كلام ابن حجر حول المسألة ثمَّة، وفي التلخيص الحبير ٢/ ٥٨ .

(٥) أورده ابن المنذر في الأوسط ٤/ ١١٣ بنحوه.

(٦) في المدونة ١/ ١٥٣ .

لا يضيِّعها، وَلِيَها والٍ أو لم يَلِها.

الرابعة: قال علماؤنا: من شرط أدائها المسجد المسقَّف. قال ابن العربيِّ[(١)]: ولا أعلم وجهه.

قلت: وجهه قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦]. وحقيقة البيت أن يكون ذا حيطان وسقف. هذا العُرْف، والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ شرط في قيام الخطيب على المنبر إذا خطب. قال عَلقَمة: سئل عبد الله أكان النبيُّ ﷺ يخطب قائماً أو قاعداً؟ فقال: أما تقرأ: «وَتَرَكُوكَ قَائِمًا»[(٢)]؟! وفي «صحيح مسلم» عن كعب بن عُجْرَة أنَّه دخل المسجد وعبد الرحمن بن أمِّ الحكم يخطب قاعداً فقال: انظروا إلى هذا الخبيث، يخطب قاعداً! وقال الله تعالى: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وتَرَكُوكَ قَائِمًا»[(٣)]. وخرَّج عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ كان يخطب قائمًا، ثم يجلس، ثم يقوم فيخطب [قائمًا]، فمن نبَّأكَ أنَّه كان يخطب جالساً، فقد كذب، فقد واللهِ صلَّيتُ معه أكثر من ألفي صلاة[(٤)]. وعلى هذا جمهور الفقهاء، وأئمة العلماء.

وقال أبو حنيفة: ليس القيام بشرط فيها[(٥)]. ويروى أنَّ أوَّ ل من خطب قاعداً معاوية[(٦)]. وخطب عثمان قائمًا حتى رقَّ، فخطب قاعداً[(٧)]. وقيل: إنَّ معاوية إنَّما

---

(١) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٩١ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١١٢-١١٣ .

(٣) مسلم (٨٦٤).

(٤) مسلم (٨٦٢): (٣٥)، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٢٠٨٤٢).

(٥) بدائع الصنائع ٢/ ١٩٧ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٧-١٧٩٨ ، وما بعده منه أيضاً، وخبر معاوية أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٢٥٩)، وابن أبي شيبة ٢/ ١١٢ عن طاوس مرسلاً. ورواه سعيد بن منصور كما في فتح الباري ٢/ ٤٠١ عن الحسن ﷺ.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٢٥٨) عن قتادة مرسلاً.

خطب قاعداً لسِنِّه[١]. وقد كان النبيُّ ﷺ يخطب قائماً، ثم يقعد، ثم يقوم، ولا يتكلَّم في قعدته. رواه جابر بن سَمرة. ورواه ابن عمر في كتاب البخاري[٢].

السادسة: والخطبة شرط في انعقاد الجمعة لا تصحُّ إلا بها، وهو قول جمهور العلماء. وقال الحسن: هي مستحبَّة[٣]. وكذا قال ابن الماجِشُون: إنها سُنَّة، وليست بفرض[٤]. وقال سعيد بن جبير: هي بمنزلة الركعتين من صلاة الظهر، فإذا تركها وصلَّى الجمعة، فقد ترك الركعتين من صلاة الظهر[٥]. والدليل على وجوبها قوله تعالى: «وَتَرَكُوكَ قَائماً». وهذا ذمٌّ، والواجب هو الذي يُذَمُّ تاركه شرعاً[٦]، ثم إنَّ النبيَّ ﷺ لم يصلِّها إلا بخطبة.

السابعة: ويخطب متوكِّئاً على قوس أو عَصاً. وفي «سنن ابن ماجه» قال: حدَّثنا هشام بن عمار، حدَّثنا عبد الرحمن بن سعد بن عمار بن سعد، قال: حدَّثني أبي، عن أبيه، عن جدِّه: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا خطب في الحرب خطب على قَوْس، وإذا خطب في الجمعة خطب على عصاً[٧].

الثامنة: ويسلِّم إذا صَعِد المِنبر على الناس عند الشافعيِّ[٨] وغيره. ولم يره

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٢٦٤) عن جعفر بن محمد، عن أبيه أنه قال: فلما كان معاوية استأذنَ الناسَ في إحدى الخطبتين، وقال: إني قد كبرت... الخبر. وابن أبي شيبة ٢/ ١١٣ عن الشعبي أنه قال: إنما خطب معاوية قاعداً حيث كثر شحم بطنه ولحمه.

(٢) رواية جابر بن سمرة عند مسلم (٨٦٢): (٣٥) وسلفت قريباً، لكن دون قوله: ولا يتكلم في قعدته. ورواية ابن عمر عند البخاري (٩٢٠)، ومسلم (٨٦١).

(٣) حلية العلماء ٢/ ٢٣٤ ، والأوسط لابن المنذر ٤/ ٥٩ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٨ .

(٥) الأوسط لابن المنذر ٤/ ٦٠ ، والسنن الكبرى للبيهقي ٣/ ١٩٦ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٩٨ .

(٧) ابن ماجه (١١٠٧)، قال في الزوائد: إسناده ضعيف لضعف أولاد سعد وأبيه عبد الرحمن. اهـ وفي الباب عن الحكم بن حزن الكُلَفي عند أبي داود (١٠٩٦)، وفيه: فأقمنا بها أياماً شهدنا فيها الجمعة مع رسول الله ﷺ فقام متوكئاً على عصاً أو قوس، ... الخبر.

(٨) الأم ١/ ١٧٧ .

مالك[١]. وقد روى ابن ماجه[٢] من حديث جابر بن عبد الله أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا صعد المنبر سلَّم.

التاسعة: فإن خطب على غير طهارة الخطبةَ كلِّها أو بعضها، أساء عند مالك[٣]، ولا إعادةَ عليه إذا صلَّى طاهراً. وللشافعيِّ قولان في إيجاب الطهارة، فَشرطها في الجديد، ولم يشترطها في القديم[٤]. وهو قول أبي حنيفة[٥].

العاشرة: وأقلُّ ما يجزىء في الخطبة أن يحمد الله ويصلِّي على نبيِّه ﷺ، ويوصي بتقوى الله، ويقرأ آيةً من القرآن. ويجب في الثانية أربع كالأولى، إلا أن الواجب بدلاً من قراءة الآية في الأولى الدعاء، قاله أكثر الفقهاء. وقال أبو حنيفة: لو اقتصر على التحميد أو التسبيح أو التكبير، أجزأه[٦]. وعن عثمان ﷺ أنَّه صعد المنبر فقال: الحمد لله، وأُرْتِجَ عليه فقال: إنَّ أبا بكر وعمر كانا يُعِدَّان لهذا المقام مقالاً، وإنَّكم إلى إمام فَعَّال أحوج منكم إلى إمام قوَّال، وستأتيكم الخُطبة، ثم نزل فصلَّى[٧]. وكان ذلك بحضرة الصحابة فلم ينكر عليه أحد. وقال أبو يوسف ومحمد: الواجب ما تناوله اسم خطبة[٨]. وهو قول الشافعيِّ[٩]. قال أبو عمر بن عبد البرِّ[١٠]: وهو أصحُّ

(١) النوادر والزيادات للقيرواني ١/ ٤٧١ .

(٢) في سننه برقم (١١٠٩)، قال في الزوائد: في إسناده ابن لهيعة، وهو ضعيف .

(٣) النوادر والزيادات ١/ ٤٧٦ .

(٤) المجموع للنووي ٤/ ٣٨٧ .

(٥) بدائع الصنائع ٢/ ١٩٧ .

(٦) الأوسط لابن المنذر ٤/ ٦١-٦٢ ، وقول أبي حنيفة في بدائع الصنائع ٢/ ١٩٥ .

(٧) أخرجه العسكري في الأوائل ١/ ٢٦٣ عن أبي العالية، وأورده السرقسطي في غريب الحديث ٢/ ٥٢٣ وقال: أُرْتج على فلان: إذا أراد قولاً فلم يَصِلْ إلى تمامه، وهو مأخوذ من الرِّتاج، وهو الباب المغلق. اهـ. وقال الزيلعي في نصب الراية ٢/ ١٩٧ : غريب واشتهر في الكتب... اهـ. وقال ابن كثير في البداية والنهاية ١٠/ ٢١٦ عن الخبر: فهو شيء يذكره صاحب العِقْد الفريد [٤/ ٦٦] وغيره، ممَّن يذكر طرف الفوائد، ولكن لم أرَ هذا بإسناد تسكن النفس إليه، والله أعلم. اهـ.

(٨) بدائع الصنائع ٢/ ١٩٥ .

(٩) في الأم ١/ ١٧٨ .

(١٠) في الكافي له ١/ ٢٥١ .

ما قيل في ذلك.

الحادية عشرة: في «صحيح مسلم»[(١)] عن يَعْلَى بن أُميَّة أنَّه سمع النبيَّ ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ﴾ [الزخرف:٧٧]. وفيه: عن عَمْرَة بنت عبد الرحمن، عن أختٍ لِعَمْرَة قالت: ما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا من في رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يقرأ بها على المنبر في كلِّ جمعة[(٢)]. وقد مضى في أوَّل «قٓ»[(٣)].

وفي «مراسيل أبي داود» عن الزهريِّ قال: كان صَدْرُ خطبة النبيِّ ﷺ: «الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادِيَ له، وأشهد أنْ لا إله إلاَّ اللهُ، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، أَرسله بالحقِّ بشيراً ونذيراً بين يَدَي الساعة، من يطِعِ اللهَ ورسولَه فقد رَشَد، ومن يعصِهما فقد غَوَى». نسأل اللهَ ربَّنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتَّبع رضوانه ويجتنب سَخطه، فإنَّما نحن به وله[(٤)].

وعنه[(٥)] قال: بلغنا عن رسول الله ﷺ أنَّه كان يقول إذا خطب: «كلُّ ما هو آتٍ قريبٌ، لا بُعْدَ لما هو آتٍ. لا يُعجِّل اللهُ لعَجَلةِ أحدٍ، ولا يَخِفُّ لأمر الناس، ما شاء الله لا ما شاء الناس، يريد الله أمراً ويريد الناسُ أمراً، ما شاءَ الله كان ولو كَرِه الناس، ولا مُبْعِدَ لما قرَّب الله، ولا مقرِّب لما بعَّد اللهُ، لا يكون شيءٌ إلا بإذن الله جلَّ وعزَّ».

وقال جابر: كان النبيُّ ﷺ يوم الجمعة يخطب فيقول بعد أن يَحْمَد الله ويصلِّي على أنبيائه: «أيُّها الناس إنَّ لكم معالم، فانتهُوا إلى معالمكم، وإنَّ لكم نهاية،

---

(١) برقم (٨٧١)، وهو عند البخاري (٣٢٣٠)، وأحمد (١٧٩٦١).

(٢) مسلم (٨٧٢)، وفيه: أخذت: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ مِن في رسول الله ﷺ يوم الجمعة، ... الخبر.

(٣) ١٩/ ٤٢٤ ، وسلف هناك من حديث أم هشام بنت حارثة بن النعمان رضي الله عنها.

(٤) مراسيل أبي داود (٥٦).

(٥) أي: عن الزهري، والخبر في مراسيل أبي داود (٥٨).

فانتهوا إلى نهايتكم، إنَّ العبد المؤمن بين مخافتين؛ بين أجلٍ قد مَضَى لا يدري ما اللهُ قاضٍ فيه، وبين أَجَلٍ قد بَقِيَ لا يدري ما اللهُ صانع فيه، فلْيَأْخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشَّبيبة قبل الكِبَر، ومن الحياة قبل الممات، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ، وما بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنَّة أو النار، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم»[١]. وقد تقدَّم ما خطب به عليه الصلاة والسلام أوَّل جمعة عند قدومه المدينة[٢].

الثانية عشرة: السكوت للخطبة واجب على من سمعها وجوبَ سُنَّة. والسُّنَّة أن يسكت لها من يسمع ومَن لم يسمع، وهما ـ إن شاء الله ـ في الأجر سواء[٣]. ومن تكلَّم حينئذٍ، لَغَا، ولا تفسد صلاته بذلك. وفي الصحيح عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا قلتَ لصاحبك: أنْصِت. يومَ الجمعة، والإمامُ يخطب، فقد لَغَوْتَ»[٤]. الزَّمخشريُّ[٥]: وإذا قال المُنْصِت لصاحبه: صَهْ، فقد لغا، أفلا يكون الخطيب الغالي في ذلك لاغياً؟ نعوذ بالله من غُرْبة الإسلام ونكد الأيام.

الثالثة عشرة: ويستقبلُ الناس الإمام إذا صَعِد المنبر؛ لما رواه أبو داود مُرْسَلاً عن أبان بن عبد الله، قال: كنتُ مع عَدِيِّ بن ثابت، يوم الجمعة، فلما خرج الإمام ـ أو قال: صعد المنبر ـ استقبله، وقال: هكذا أصحابُ رسولِ الله ﷺ يفعلون برسول الله ﷺ[٦]. خرَّجه ابن ماجه عن عديِّ بن ثابت، عن أبيه، فزاد في الإسناد:

---

(١) ذكرها الجاحظ في البيان والتبيين ١/ ٣٠٢-٣٠٣، وابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ٢٣١، والمبرِّد في الكامل ١/ ٢٧٠-٢٧١، ولم ينسبوها.

(٢) ص٤٦١-٤٦٣ من هذا الجزء.

(٣) الأوسط لابن المنذر ٤/ ٦٩-٧٠.

(٤) سلف ٤/ ١٧.

(٥) الكشاف ٤/ ١٠٦.

(٦) مراسيل أبي داود (٥٤)، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ٢/ ١١٧، من طريق وكيع، عن أبان، به، وأبان ابن عبد الله، في حفظه لين، وباقي رجال الإسناد ثقات.

عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام على المنبر، استقبله أصحابه بوجوههم. قال ابن ماجه: أرجو أن يكون متَّصلاً[١].

قلت: وخرَّج أبو نعيم الحافظ قال: حدَّثنا محمد بن مَعْمر، قال: حدَّثنا عبد الله ابن محمد بن ناجية، قال: حدَّثنا عبَّاد بن يعقوب، قال: حدَّثنا محمد بن الفضل الخُرَاسانيُّ، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: كان النبيُّ ﷺ إذا استوى على المنبر استقبلناه بوجوهنا. تفرَّد به محمد بن الفضل بن عطيَّة، عن منصور[٢].

الرابعة عشرة: ولا يركع من دَخل المسجد والإمام يخطب، عند مالك رحمه الله. وهو قول ابن شهاب رحمه الله وغيره[٣]، وفي «المُوَطَّأ» عنه[٤]: فخروج الإمام يقطع الصلاة، وكلامه يقطع الكلام. وهذا مرسل. وفي «صحيح مسلم»[٥] من حديث جابر عن النبيِّ ﷺ: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة، والإمام يخطب، فليركع ركعتين، وليتجوَّز فيهما». وهذا نصٌّ في الركوع. وبه يقول الشافعيُّ وغيره[٦].

الخامسة عشرة: ابن عَوْن، عن ابن سيرين، قال: كانوا يكرهون النَّوم والإمام يخطب، ويقولون فيه قولاً شديداً. قال ابن عَوْن: ثم لَقِيَني بعد ذلك فقال: تدري ما

(١) ابن ماجه (١١٣٦)، قال البوصيري في الزوائد: رجال إسناده ثقات، إلا أنه مرسل.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٤٤ ، و٣/ ٢٣٦ ، وأخرجه أيضاً الترمذي (٥٠٩) عن عباد بن يعقوب، به. وقال: وحديث منصور لا نعرفه إلا من حديث محمد بن الفضل بن عطية، ومحمد بن الفضل بن عطية ضعيف ذاهب الحديث عند أصحابنا، ... ولا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء.

(٣) الاستذكار ٥/ ٤٩-٥٠.

(٤) أي: عن ابن شهاب الزهري، وكلامه في الموطأ ١/ ١٠٣ ، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ٢/ ١٢٥ عن هشيم، عن أشعث، عن الزهري، به. والشافعي في الأم ١/ ١٧٥ عن ابن شهاب، عن ثعلبة بن أبي مالك: أن قعود الإمام يقطع السبحة، وأن كلامه يقطع الكلام.

(٥) برقم (٨٧٥): (٥٩)، وهو عند أحمد (١٤٤٠٥).

(٦) منهم الإمام أحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وداود، والطبري. الاستذكار ٥/ ٥٢ ، وكلام الشافعي في الأم ١/ ١٧٥ ، وكلام أحمد في المغني ٣/ ١٩٢ .

يقولون؟ قال: يقولون: مَثَلُهم كَمَثل سَرِيَّة أخفقوا، ثم قال: هل تدري ما أخفقوا؟ لم تَغْنَم شيئاً. وعن سَمُرة بن جُنْدب أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا نَعَس أحدكم، فليتحوَّل إلى مقعد صاحبه، وليتحوَّل صاحبُه إلى مقعده»[(١)].

السادسة عشرة: نذكر فيها من فضل الجمعة وفرضيَّتها ما لم نذكره. روى الأئمة عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة، فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلِّي يسأل الله عزَّ وجلَّ شيئاً إلا أعطاه إيَّاه» وأشار بيده يُقَلِّلها[(٢)]. وفي «صحيح مسلم»[(٣)] من حديث أبي موسى قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة».

وروي من حديث أنس أنَّ النبيَّ ﷺ أبطأ علينا ذات يوم، فلما خرج قلنا: احتبستَ! قال: «ذاك أنَّ جبريل أتاني بكهيئة المرآة البيضاء فيها نُكْتة سَوْداء، فقلتُ: ما هذه يا جبريل؟ قال: هذه الجمعة، فيها خير لك ولأمَّتك، وقد أرادها اليهود والنصارى فأخطؤها، وهداكم الله لها، قلت: يا جبريل ما هذه النكتة السوداء؟ قال: هذه الساعة التي في يوم الجمعة، لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إيَّاه، أو ادَّخر له مثله يوم القيامة، أو صرف عنه من السوء مثله، وإنَّه خير الأيام عند الله، وإنَّ أهل الجنة يسمُّونه يوم المزيد». وذكر الحديث[(٤)].

---

(١) أخرجه البزار (٦٣٦ و٦٣٧ كشف الأستار)، والطبراني في الكبير (٦٩٥٦) و(٧٠٠٣) و(٧٠٠٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ١٨٠ : رواه البزار والطبراني، وفيه: إسماعيل المكي، وهو ضعيف.
وفي الباب عن ابن عمر عند أبي داود (١١١٩)، والترمذي (٥٢٦)، وأحمد (٤٧٤١) ولفظه: إذا نعس أحدكم في مجلسه يوم الجمعة فليتحوَّل إلى غيره. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٢٣٧ : ولا يثبت رفع هذا الحديث، والمشهور عن ابن عمر من قوله. وقال في معرفة السنن والآثار ٤/٤٠٧ : والموقوف أصحُّ. وقال النووي في المجموع ٤/ ٤٢٢ : والصواب أنه موقوف كما قال البيهقي، وأما تصحيح الترمذي والحاكم فغير مقبول.

(٢) البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١١٦ ، وابن ماجه (١١٣٧)، وأحمد (٧١٥١).

(٣) برقم (٨٥٣).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٢٩٤-٢٩٦ ، وهو عند ابن أبي =

وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام قالا: حدَّثنا المسعوديُّ، عن المِنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عتبة، عن ابن مسعود قال: تسارعوا إلى الجمعة، فإنَّ الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنَّة كلَّ يوم جمعة في كَثِيب من كافور أبيض، فيكونون منه في القُرْب ـ قال ابن المبارك ـ: على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا. وقال يحيى بن سلام: كمسارعتهم إلى الجمعة في الدنيا. وزاد: فيُحْدِث لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك. قال يحيى: وسمعتُ غيرَ المسعوديِّ يزيد فيه: وهو قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[1] [ق: ٣٠].

قلت: قوله «في كَثيب» يريد أهل الجنَّة. أي: وهم على كثيب، كما روى الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهل الجنَّة ينظرون إلى رَبِّهم في كلِّ جمعة على كثيب من كافور لا يُرَى طرفاه، وفيه نهرٌ جارٍ حافتاه المسك، عليه جوارٍ يَقْرأْنَ القرآنَ بأحسن أصواتٍ سمعها الأوَّلون والآخِرون، فإذا انصرفوا إلى منازلهم أخذ كلُّ رجلٍ بيد ما شاء منهنَّ، ثم يمرُّون على قناطر من لؤلؤ إلى منازلهم، فلولا أنَّ الله يهديهم إلى منازلهم ما اهتدوا إليها لما يحدث الله لهم في كلِّ جمعة» ذكره يحيى بن سلام[2].

وعن أنس قال: قال النبيُّ ﷺ: «ليلة أُسْرِيَ بي رأيت تحت العرش سبعين مدينة، كلُّ مدينة مثل مدائنكم هذه سبعين مرَّة، مملوءة من الملائكة يسبِّحون الله ويقدِّسونه ويقولون في تسبيحهم: اللهمَّ اغفر لمن شهد الجمعة، اللهمَّ اغفر لمن اغتسل يوم

= شيبة ٢/ ١٥٠-١٥١ ، والبزار (٣٥١٩ كشف الأستار)، وأبي يعلى (٤٢٢٨)، والطبراني في الأحاديث الطوال (٣٥) وفي الأوسط (٦٧١٣) من طرق، عن أنس ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤٢١: رواه البزار والطبراني في الأوسط بنحوه، وأبو يعلى باختصار، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح، وأحد إسنادي الطبراني رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وقد وثَّقه غير واحد، وضعَّفه غيرهم، وإسناد البزار فيه خلاف.

(١) سلف ١٩/ ٤٥٦ .

(٢) سلف ١٩/ ٤٥٧ .

الجمعة» ذكره الثَّعلبيُّ[١].

وخرَّج القاضي الشريف أبو الحسن عليُّ بن عبد الله بن إبراهيم الهاشميُّ العِيسَوِيُّ ـ من ولد عيسى بن عليٍّ بن عبد الله بن عباس ـ ﷺ بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعريِّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يبعث الأيام يوم القيامة على هيئتها، ويبعث الجمعة زهراءَ منيرةً، أهلها يحفُّون بها كالعروس تُهْدَى إلى كريمها، تضيء لهم، يمشون في ضوئها، ألوانهم كالثلج بياضاً، وريحهم يسطع كالمسك، يخوضون في جبال الكافور، ينظر إليهم الثَّقَلان، ما يطرقون تعجُّباً، يدخلون الجنَّة لا يخالطهم أحد إلا المؤذِّنون المحتسِبون»[٢].

وفي «سُنن ابن ماجه» عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الجمعة إلى الجمعة كفَّارة ما بينهما، مالم تُغْشَ الكبائر» خرَّجه مسلم بمعناه[٣].

وعن أوس بن أوس الثَّقَفيِّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من غسَّل يوم الجمعة واغتسل، وبَكَّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام فاستمع ولم يَلْغُ،

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٠٤١) عن أبي الحسن علي بن عبد الله الهاشمي، عن محمد بن عمرو، عن عبد الكريم بن الهيثم، عن الربيع بن نافع، عن الهيثم بن حميد، عن حفص بن غيلان، عن طاوس، عن أبي موسى الأشعري، به.

وأخرجه أيضاً ابن خزيمة في صحيحه (١٧٣٠)، والطبراني في مسند الشاميين (١٥٥٧)، وابن عدي في الكامل ٤/ ١٥٢١-١٥٢٢ ، والحاكم في المستدرك ١/ ٢٧٧ ، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٣٠٤١) من طرق، عن الهيثم بن حميد، عن حفص بن غيلان، عن طاوس، عن أبي موسى الأشعري، به. قال الحاكم: هذا حديث شاذ صحيح الإسناد، فإن أبا معبد من ثقات الشاميين الذين يجمع حديثهم، والهيثم بن حميد من أعيان أهل الشام، غير أن الشيخان لم يخرجاه عنهما. وقال الذهبي: خبر شاذ صحيح السند، والهيثم وحفص ثقتان. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ١٦٤-١٦٥ : رواه الطبراني في الكبير، عن الهيثم بن حميد، عن حفص بن غيلان، وقد وثقهما قوم، وضعفهما آخرون، وهما محتج بهما.

(٣) ابن ماجه (١٠٨٦)، ومسلم (٢٣٣).

كان له بكلِّ خطوة عمل سَنَةٍ، أجْرُ صيامها وقيامها»(١). وعن جابر بن عبد الله قال: خَطَبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيُّها الناس، توبوا إلى الله قبل أن تموتوا. وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا، وصِلُوا الذي بينكم وبين ربِّكم؛ بكثرةِ ذِكْرِكم له، وكثرة الصَّدقة في السرِّ والعلانية، تُرزقوا وتُنصروا وتُؤجروا. واعلموا أنَّ الله قد فرض عليكم الجمعة في مقامي هذا، في شهري هذا، في عامي هذا، إلى يوم القيامة، فمن تركها في حياتي أو بعد مماتي، وله إمام عادل أو جائر، استخفافاً بها أو جحوداً لها، فلا جَمَعَ اللهُ شَمْلَه، ولا باركَ له في أمره، ألَا ولا صلاةَ له، ولا زكاةَ له، ولا حَجَّ له، ألَا ولا صومَ له، ولا بِرَّ له، حتى يتوبَ، فمن تاب، تاب الله عليه، ألَا لا تَؤُمَّنَّ امرأةٌ رجلاً، ولا يؤمَّ أعرابيٌّ مهاجراً، ولا يؤمَّ فاجرٌ مؤمناً، إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفَه أو سَوْطه»(٢).

وقال مَيْمون بن أبي شبيب(٣): أردت الجمعة مع الحجَّاج فتهيَّأت للذهاب، ثم قلتُ: أين أذهب أصلِّي خلف هذا الفاجر؟ فقلت مرَّة: أذهب، ومرَّة: لا أذهب، ثم أجمَع رأيي على الذهاب، فناداني منادٍ من جانب البيت: «يا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إِذَا نُودِيَ للصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ»(٤).

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ فيه

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٥)، والترمذي (٤٩٦)، والنسائي في المجتبى ٣/ ٩٥-٩٦، وابن ماجه (١٠٨٧)، وأحمد (١٦١٧٣). ومعنى قوله ﷺ: غسَّل: أراد المجامعة قبل الخروج إلى الصلاة، وقيل: أراد غسَّل غيره واغتسل هو، وقيل: أراد بغسَّل: غَسْلَ أعضائه للوضوء، ثم يغتسل للجمعة، وقيل: هما بمعنى واحد، وكرَّره للتأكيد. ومعنى قوله ﷺ: بكَّر: أي أتى الصلاة في أول وقتها. وابتكر: أي أدرك أوَّل الخطبة. وقيل: معنى اللفظتين واحد، وكرِّر للتأكيد. النهاية (غسل) و(بكر).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٠٨١)، وفيه: وتجبروا، بدل: وتؤجروا. قال البوصيري في الزوائد: إسناده ضعيف، لضعف علي بن زيد بن جدعان وعبد الله بن محمد العدوي.

(٣) في (م): شيبة. وهو أبو نصر ميمون بن أبي شبيب الرَّبَعي، مات سنة ثلاث وثمانين. تهذيب التهذيب ٤/١٩٧-١٩٨ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١٣٦، وابن أبي الدنيا في الصمت (٥٣٩)، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٣٧٥ .

وجهان: أحدهما: ما عند اللهِ من ثواب صلاتكم خير من لذَّة لهوكم، وفائدة تجارتكم. الثاني: ما عند الله من رزقكم الذي قسمه لكم خيرٌ مما أصبتموه من لهوكم وتجارتكم(١). وقرأ أبو رجاء العُطارِديُّ: «قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ للذين آمنوا»(٢). ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: خير من رزق وأعطى(٣)، فمنه فاطلبوا، واستعينوا بطاعته على نَيْل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة.

سورة المنافقون

مدنِيَّةٌ في قول الجميع، وهي إحدى عَشْرة آيةً(٤)

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ روى البخاريُّ عن زيد بن أرْقم قال: كنت مع عَمِّي فسمعتُ عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ ابنِ سلول يقول: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا. وقال: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فذكرتُ ذلك لعمِّي، فذكر عمِّي لرسول الله ﷺ، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى عبد الله بنِ أُبَيٍّ وأصحابِه، فحلفوا ما قالوا، فصدَّقهم رسولُ الله صلى ا لله عليه وسلم وكَذَّبني، فأصابني همٌّ لم يصبني مثلُه، فجلستُ في بيتي، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ» إلى قوله: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُول اللَّهِ» إلى قوله: «لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ» فأرسل إليَّ رسولُ الله ﷺ، [فقرأها عليَّ] ثم

(١) النكت والعيون ٦/ ١٢.
(٢) لم نقف عليها.
(٣) النكت والعيون ٦/ ١٢.
(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٧.

قال: «إنَّ الله قد صدقك». خرَّجه الترمذيُّ، وقال: هذا حديث حسن صحيح[١].

وفي الترمذيِّ[٢] عن زيد بنِ أرقم قال: غَزَوْنا مع رسول الله ﷺ، وكان معنا أناس من الأعراب، فكنَّا نبدر الماء، وكان الأعراب يسبقونا إليه، فيسبق الأعرابيُّ أصحابَه فيملأ الحوض، ويجعل حوله حجارة، ويجعل النِّطع عليه حتى تجيء أصحابه. قال: فأتى رجل من الأنصار أعرابيًّا، فأرْخَى زمامَ ناقته لتشربَ، فأبَى أن يَدَعَه، فانتزع حجراً فغاض الماء، فرفع الأعرابيُّ خشبةً، فضرب بها رأس الأنصاريِّ فشَجَّه، فأتى عبدَ الله بنَ أبَيٍّ ـ رأس المنافقين ـ فأخبره ـ وكان من أصحابه ـ فغضب عبدُ الله بنُ أبَيٍّ ثم قال: لا تُنْفِقُوا على مَن عند رسول الله حتى ينفضُّوا مِن حوله ـ يعني: الأعراب ـ وكانوا يحضرون رسولَ الله ﷺ عند الطعام، فقال عبد الله: إذا انفضُّوا من عند محمد فأْتوا محمَّداً بالطعام، فليأكل هو ومَن عنده. ثم قال لأصحابه: لئن رجعتم إلى المدينة لَيُخْرِجَنّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذَلَّ. قال زيد: وأنا رِدْف عمِّي، فسمعتُ عبدَ الله ابنَ أُبَيٍّ، فأخبرت عمِّي، فانْطَلَق فأخبَر رسولَ الله ﷺ، فأرسل إليه رسولُ الله ﷺ فَحَلَفَ وجَحَد. قال: فصدَّقه رسولُ الله ﷺ وكَذَّبني. قال: فجاء عمِّي إليَّ فقال: ما أردتَ إلَّا أن مَقَتَك رسول الله ﷺ وكَذَّبك والمنافقون. قال: فوقع عليَّ من جرأتهم ما لم يقع على أحد. قال: فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفرٍ قد خفَقْتُ برأسي من الهَمِّ، إذ أتاني رسولُ الله ﷺ فَعَرك أذني وضحك في وجهي، فما كان يَسُرُّني أنَّ لي بها الخُلْد في الدنيا. ثم إنَّ أبا بكر لحقني فقال: ما قال لكَ رسولُ الله ﷺ؟ قلت: ما قال شيئاً، إلا أنَّه عَرَك أذني، وضحك في وجهي، فقال: أَبْشِرْ! ثم لحقني عمرُ، فقلتُ له مثلَ قولي لأبي بكر. فلما أصبحنا، قرأ رسول الله ﷺ سورةَ المنافقين. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

---

(١) البخاري (٤٩٠١) وما بين حاصرتين منه، والترمذي (٣٣١٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٩٣٣٣)، وهو عند مسلم (٢٧٧٢) بنحوه.

(٢) برقم (٣٣١٣) بنحوه، والخبر نقله المصنف عن الواحدي في أسباب النزول ص٤٥٧-٤٥٨ واللفظ منه.

وسئل حُذيفة بن اليَمَان عن المنافق فقال: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به. وهم اليومَ شرٌّ منهم على عهد رسول الله ﷺ؛ لأنَّهم كانوا يكتمونه، وهم اليوم يظهرونه(١).

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعَد أخلَف، وإذا اؤْتُمِنَ خان»(٢). وعن عبد الله بن عمرو أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعَها: إذا اؤْتُمِنَ خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَر»(٣). أخبر عليه الصلاة والسلام أنَّ من جمع هذه الخصال كان منافقاً، وخبره صدق. وروي عن الحسن أنَّه ذكر له هذا الحديث فقال: إنَّ بني يعقوب حدَّثوا فكذبوا، ووعدوا فأخلفوا، وأُتمِنوا فخانوا(٤). إنَّما هذا القول من النبيِّ ﷺ على سبيل الإنذار للمسلمين، والتحذير لهم أن يعتادوا هذه الخصال؛ شَفَقًا أن تُفْضِيَ بهم إلى النفاق. وليس المعنى: أنَّ من بدرت منه هذه الخصال من غير اختيار واعتياد، أنَّه منافق. وقد مضى في سورة «براءة»(٥) القول في هذا مستوفًى، والحمد لله. وقال

(١) النكت والعيون ٦/ ١٣ ، وقول حذيفة أخرجه وكيع في الزهد (٤٧١)، ومن طريقه عبد الله بن أحمد في السنة (٨٠٦)، وابن أبي شيبة ١٥/ ١١٥ ، والفريابي في صفة المنافق (٧٠)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٨١-٢٨٢ . وفي إسناده: أبو يحيى، وهو: عبيد بن كرب، ذكره البخاري في التاريخ الكبير ٦/ ٣ ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٥/ ٤١٣ ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً.

(٢) البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، وهو عند أحمد (٨٦٨٥).

(٣) سلف ١٠/ ٣١٢ .

(٤) أخرج العقيلي في الضعفاء الكبير ٣/ ٧ عن عبد العزيز بن أبي روَّاد قال: أخبر عطاء عن الحسن أنه كان يقول: ثلاث من كن فيه فهو منافق. فقال عطاء: أبا سعيد، قد حدَّث إخوة يوسف فكذبوا، ووعدوا فأخلفوا، واؤتمنوا فخانوا، فمنافقين كانوا؟! قال: فصحت بهم صيحة. قال: قلت: أنت سمعت هذا من عطاء؟ قال: فاصفرَّ لونه. وهو عند الخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق ١/ ٤٠ عن محمد المحرم، عن عطاء بنحوه، وفي آخره قال الحسن: صدق عطاء هكذا الحديث، وهذا في المنافقين. وينظر فيض القدير ١/ ٦٣ .

(٥) ١٠/ ٣١٢ .

رسول الله ﷺ: «المؤمن إذا حدَّث صدق، وإذا وعد أنجز، وإذا اؤتمنَ وَفَّى»(١).

والمعنى: المؤمن الكامل إذا حدَّث صدق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ قيل: معنى «نَشْهَدُ» نحلف. فعبَّر عن الحَلِف بالشهادة؛ لأنَّ كلَّ واحد من الحلف والشهادة إثبات لأمر مُغَيَّب، ومنه قول قيس بن ذَرِيح:

وأشهد عند الله أني أحِبُّها فهذا لها عندي فما عندها لِيَا(٢)

ويحتمل أن يكون ذلك محمولاً على ظاهره أنَّهم يشهدون أنَّ محمداً رسول الله ﷺ؛ اعترافاً بالإيمان، ونفياً للنفاق عن أنفسهم، وهو الأشبه(٣). ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ كما قالوه بألسنتهم. ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما أظهروا من شهادتهم وحَلِفهم بألسنتهم. وقال الفرَّاء(٤): «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ» بضمائرهم، فالتكذيب راجع إلى الضمائر. وهذا يدلُّ على أنَّ الإيمان تصديق القلب، وعلى أنَّ الكلام الحقيقيَّ كلام القلب. ومن قال شيئاً واعتقد خلافه، فهو كاذب(٥). وقد مضى هذا المعنى في أول «البقرة»(٦) مستوفى. وقيل: أكذبهم الله في أيمانهم(٧)، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٢٠٠) ومن طريقه إسحاق بن راهويه كما في إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري ١/ ١٥٧ عن الزبير ﷺ بزيادة. ونقل البوصيري عن ابن حجر قوله: هكذا رواه إسحاق في مسند الزبير بن العوام، وهكذا رواه أحمد بن منصور الرمادي عن عبد الرزاق، ورواه زهير بن معاوية وغير واحد عن أبي إسحاق، عن الزبير بن عدي، ورواه غيرهم عن أبي إسحاق، عن الزبير غير منسوب، فإن كان معمر حفظه فهو صحيح الإسناد لكنه منقطع، وإن كان زهير حفظه فهو معضل.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٣، والبيت في ديوان مجنون ليلى قيس بن الملوَّح ص٢٩٤ و٣٠٠، ولم نقف عليه من قول قيس بن ذريح صاحب لبنى. وأخباره في معجم الشعراء ٢/ ٦٢٨.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٣.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٨.

(٥) الوسيط ٤/ ٣٠٢.

(٦) عند الآية (٨).

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٤.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ أي: سُترة[1]. وليس يرجع إلى قوله: «نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ»، وإنَّما يرجع إلى سبب الآية التي نزلت عليه، حسب ما ذكره البخاريُّ والترمذيُّ عن ابن أُبَيٍّ أنَّه حَلَفَ ما قال، وقد قال[2]. وقال الضَّحَّاك: يعني حلفهم بالله: «إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ»[3]. وقيل: يعني بأيمانهم ما أخبر الرَّبُّ عنهم في سورة «براءة» إذ قال: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ [الآية: ٧٤].

الثانية: من قال: أُقْسِم بالله، أو: أَشْهد بالله، أو: أَعْزِم بالله، أو: أحلف بالله، أو: أقسمتُ بالله، أو: أَشهدت بالله، أو: أَعزمت بالله، أو: أحلفتُ بالله، فقال في ذلك كلِّه: «بالله» فلا خلاف أنَّها يمين[4]. وكذلك عند مالك وأصحابه إن قال: أُقْسِم، أو: أَشْهد، أو أَعْزِم، أو: أَحلف، ولم يقل: «بالله»، إذا أراد «بالله». وإن لم يرد «بالله» فليس بيمين. وحكاه الكِيَا[5] عن الشافعيِّ، قال الشافعيُّ[6]: إذا قال: أَشهد بالله. ونوى اليمينَ، كان يميناً. وقال أبو حنيفة وأصحابه: لو قال: أَشهد بالله لقد كان كذا. كان يميناً[7]، ولو قال: أَشهد لقد كان كذا. دون النِّيَّة، كان يميناً لهذه الآية؛ لأنَّ الله تعالى ذكر منهم الشهادة ثم قال: «اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً». وعند الشافعيِّ[8] لا يكون ذلك يمينًا وإن نوى اليمين؛ لأنَّ قوله تعالى: «اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٠٠ ، والحديث سلف قريباً.

(٣) الوسيط ٤/ ١٢٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٥١ .

(٤) الكافي لابن عبد البر ١/ ٤٤٨ ، وما بعده منه أيضاً.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ٤١٧ .

(٦) في الأم ٧/ ٥٦ .

(٧) بدائع الصنائع ٤/ ١٣-١٤ .

(٨) في الأم ٧/ ٥٥ .

جُنَّةً» ليس يرجع إلى قوله: «قَالُوا نَشْهَدُ»، وإنَّما يرجع إلى ما في «براءة» من قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ [الآية: ٧٤].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: أعرضوا، وهو من الصدود. أو صرفوا المؤمنين عن إقامة حكم الله عليهم من القتل، والسَّبي، وأخذ الأموال، فهو من الصدِّ، أو منعوا الناسَ عن الجهاد بأن يتخلَّفوا، ويقتدي بهم غيرهم. وقيل: فصدُّوا اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام، بأن يقولوا: هانحن كافرون بهم، لو كان محمد حقًّا لعرف هذا منَّا، ولجعلنا نكالًا. فبيَّن الله أنَّ حالهم لا يخفى عليه، ولكن حكمه أنَّ من أظهر الإيمان أجرى عليه في الظاهر حكم الإيمان. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بئست أعمالهم الخبيثة ـ من نفاقهم، وأيمانهم الكاذبة، وصدِّهم عن سبيل الله ـ أعمالاً.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾

هذا إعلام من الله تعالى بأنَّ المنافق كافر، أي: أقرُّوا باللسان، ثم كفروا بالقلب[1]. وقيل: نزلت الآية في قوم آمنوا، ثم ارتدوا ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: خُتم عليها بالكفر ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الإيمان ولا الخير. وقرأ زيد بن عليٍّ: «فَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ»[2].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أي: هيئاتهم ومناظرهم. ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ يعني عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ. قال ابن عباس: كان عبد الله بن أُبَيٍّ وسِيمًا جسيمًا صحيحًا صبيحًا ذَلِق اللسان، فإذا قال سمع النبيُّ ﷺ مقالته[3].

---

(١) الوسيط ٤/ ٣٠٢.

(٢) الكشاف ٤/ ١٠٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٢، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٥٦ ونسبها إلى الأعمش.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٨، وفيه: فصيحاً، بدل صبيحاً. ووردت العبارتان معاً عند الزمخشري في =

وصفه الله بتمام الصورة وحسن الإبانة[١]. وقال الكلبيُّ: المراد ابن أُبَيٍّ، وجَدّ بن قيس، ومُعَتِّب بن قُشير، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة[٢]. وفي «صحيح مسلم»[٣]: وقوله: «كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ» قال: كانوا رجالًا أجملَ شيء، كأنَّهم خشب مسندةٌ. شبَّههم بخُشب مسنَّدة إلى الحائط لا يسمعون ولا يعقلون، أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام[٤]. وقيل: شبَّههم بالخُشُب التي قد تآكلت، فهي مسندة بغيرها، لا يعلم ما في بطنها[٥].

وقرأ قنْبُل وأبو عمرو والكسائيُّ: «خُشْبٌ» بإسكان الشين[٦]. وهي قراءة البَرَاء بن عازب، واختيار أبي عبيد[٧]؛ لأنَّ واحدتها خَشَبة. كما تقول: بَدَنة وبُدْن، وليس في اللغة فَعَلَة يجمع على فُعُل[٨]. ويلزم من ثقلها أن تقول: البُدُن، فتقرأ: «والبُدُن»[٩] [الحج:٣٦]. وذكر اليزيديُّ أنَّه جماع الخشباء[١٠]، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ [عبس:٣٠] واحدتها: حديقة غلباء. وقرأ الباقون بالتثقيل، وهي رواية البَزِّيِّ عن ابن كَثِير، وعيَّاش عن أبي عمرو، وأكثر الروايات عن عاصم. واختاره أبو حاتم، كأنَّه جمع خِشاب وخُشُب، نحو ثَمرة وثِمار وثُمُر. وإن شئت جمعت خشبة على خُشب كما قالوا: بَدَنَة وبُدْن وبُدُن. وقد رُوي عن ابن المسيّب فتح الخاء والشين في «خُشُب». قال سِيبويه: خَشَبة وخُشُب، مثل بَدَنة وبدن. قال: ومثله بغير هاء: أَسَد وأُسْد، ووَثَن ووُثْن. وتقرأ: خُشُب، وهو جمع الجمع، خشبة وخِشاب وخُشُب، مثل

= الكشاف ٤/ ١٠٩، وذَلَقُ اللسان: حِدَّته. اللسان (ذلق).

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٦.

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ١٤ ولم يعزه للكلبي.

(٣) برقم (٢٧٧٢)، وهو عند البخاري (٤٩٠٣)، وأحمد (١٩٣٣٤) عن زيد بن أرقم ﷺ.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٨.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢ بنحوه.

(٦) السبعة ص٦٣٦، والتيسير ص٢١١.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣٣.

(٩) وهي قراءة الحسن وعيسى. القراءات الشاذة ص٩٥.

(١٠) الكشاف ٤/ ١٠٩.

ثمرة وثمار وثُمُر[1]. والإسناد: الإمالة، تقول: أسندت الشيء، أي: أملته. و«مُسَنَّدَة» للتكثير[2]، أي: استندوا إلى الأيمان بحقن دمائهم.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي: كلَّ أهل صيحة عليهم، هم العدُوُّ. فـ«هم العَدُوّ» في موضع المفعول الثاني؛ على أنَّ الكلام لا ضميرَ فيه[3]. يصفهم بالجُبْن والخَوَر. قال مقاتل والسُّدِّيُّ: أي: إذا نادى منادٍ في العسكر ـ إن انفلتت دابة، أو أُنشِدت ضالَّة ـ ظنُّوا أنَّهم المرادون؛ لما في قلوبهم من الرعب[4]. كما قال الشاعر وهو الأخطل:

مازلت تحسب كلَّ شيء بعدهم ... خيلاً تَكُرُّ عليهمُ ورجالًا[5]

وقيل: «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ» كلام ضميره فيه لا يفتقر إلى ما بعد، وتقديره: يحسبون كلَّ صيحة عليهم أنَّهم قد فُطن بهم وعُلم بنفاقهم؛ لأنَّ للرِّيبة خوفًا. ثم استأنف الله خطابَ نبيِّه ﷺ فقال: «هُمُ الْعَدُوُّ» وهذا معنى قول الضَّحَّاك وقيل: يحسبون كلَّ صيحة يسمعونها في المسجد أنَّها عليهم، وأنَّ النبيَّ ﷺ قد أمر فيها بقتلهم، فهم أبدًا وَجِلون من أن يُنزل الله فيهم أمرًا يُبيح به دماءهم، ويهتك به أستارهم[6]. وفي هذا المعنى قول الشاعر:

فلو أنها عُصْفورةٌ لحسبتها ... مُسَوَّمَةً تَدْعو عُبَيْدًا وأَزْنَمَا[7]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣٣، وقراءة ابن المسيب في البحر المحيط ٨/ ٢٧٢، وأوردها الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٠٩ ولم ينسبها.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٤٨.

(٣) الكشاف ٤/ ١٠٩.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢، وتفسير الرازي ٣٠/ ١٥ عن مقاتل.

(٥) الكشاف ٤/ ١٠٩، ولم نقف على البيت في ديوان الأخطل، بل ورد في ديوان جرير ١/ ٥٣ [وهكذا نسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢] ضمن قصيدة يهجو بها الأخطل. وورد فيه: عليكم، بدل: عليهم. وهي الأَوْلى.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٥.

(٧) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٦٨، والبيت للعوَّام بن شوذب يصف فيه جبن بسطام بن قيس كما في الحيوان للجاحظ ٥/ ٢٤٠ و٦/ ٤٣٠، والمعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٩٢٧ حيث يقول: لو أن عصفورة طارت لحسبتها ـ من جبنك ـ خيلاً معلمة، تدعو عبيداً وأزنما، أي شعارهم: يال عبيد أزنم.

بطن من بني يَرْبُوع، ثم وصفه الله بقوله: «هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ» حكاه عبد الرحمن ابن أبي حاتم(١). وفي قوله تعالى: «فَاحْذَرْهُمْ» وجهان: أحدهما: فاحذر أن تثقَ بقولهم، أو تميل إلى كلامهم. الثاني: فاحذر مُمَايلتهم لأعدائك، وتخذيلهم لأصحابك.

﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: لعنهم اللهُ، قاله ابن عباس وأبو مالك ـ وهي كلمة ذمٍّ وتوبيخ. وقد تقول العرب: قاتله اللهُ ما أشعره! فيضعونه موضعَ التعجُّب ـ وقيل: معنى «قَاتَلهُمُ اللَّهُ» أي: أحلَّهم محلَّ من قاتله عدوٌّ قاهر؛ لأنَّ الله تعالى قاهر لكلِّ معاند. حكاه ابن عيسى(٢). ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: يكذبون، قاله ابن عباس. قتادة: معناه: يعدلون عن الحقِّ. الحسن: معناه: يصرفون عن الرشد. وقيل: معناه: كيف تضلُّ عقولهم عن هذا(٣) مع وضوح الدلائل، وهو من الإفك وهو الصرف(٤). و«أَنَّى» بمعنى كيف، وقد تقدَّم(٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لمَّا نزل القرآن بصفتهم، مشى إليهم عشائرهم وقالوا: افتُضحتم بالنفاق، فتوبوا إلى رسول الله من النفاق، واطلبوا أن يستغفر لكم. فَلَوَّوْا رؤوسهم، أي: حَرَّكوها استهزاءً وإباءً، قاله ابن عباس(٦). وعنه أنَّه كان لعبد الله بن أُبَيٍّ موقف في كلِّ سبب يحضُّ على طاعة الله

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٥ وما بعده منه أيضاً.
(٢) النكت والعيون ٦/ ١٦ عدا ما بين معترضتين.
(٣) النكت والعيون ٦/ ١٦ وعزا القول الأخير للسدي.
(٤) اللسان (أفك).
(٥) ٤/ ٧-٨ .
(٦) تفسير الرازي ٣٠/ ١٥ وعزاه للكلبي.

وطاعة رسوله، فقيل له: وما ينفعك ذلك ورسول الله ﷺ عليك غضبان، فَأْتِه يَستغفرْ لك. فأبى وقال: لا أذهب إليه.

وسبب نزول هذه الآيات أنَّ النبيَّ ﷺ غزا بني المُصطلِق على ماء يقال له: المُرَيْسِيع، من ناحية قُدَيد، إلى الساحل، فازدحم أجير لعمر يقال له: جهْجَاه، مع حَليف لعبد الله بن أُبيٍّ يقال له: سِنان، على ماء بالمُشَلَّلِ، فصرخ جهجاهُ بالمهاجرين، وصرخ سِنانٌ بالأنصار، فلطَم جهجاهُ سِناناً، فقال عبد الله بنُ أُبَيٍّ: أَوَقد فعلوها! واللهِ ما مَثَلُنا ومَثَلُهم إلا كما قال الأوَّل: سَمِّن كلبك يَأْكُلْك، أما واللهِ لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجَنَّ الأعَزُّ ـ يعني: أُبيًّا ـ الأذلَّ ـ يعني محمَّدًا ﷺ ـ ثم قال لقومه: كُفُّوا طعامكم عن هذا الرجل، ولا تنفقوا على مَن عندَه حتى ينفضوا ويتركوه. فقال زيد بن أَرْقَم ـ وهو من رهط عبد الله ـ: أنتَ واللهِ الذليل المُنتَقَص في قومك، ومحمَّد ﷺ في عِزٍّ من الرحمن، ومودَّة من المسلمين، واللهِ لا أُحِبُّك بعد كلامكَ هذا أبدًا. فقال عبد الله: اسكت، إنَّما كنت ألعب. فأخبر زيدٌ النبيَّ ﷺ بقوله، فأقسم بالله ما فَعَلَ ولا قال، فعذره النبيُّ ﷺ. قال زيد: فوجدت في نفسي، ولَامَنِي الناس، فنزلت سورة المنافقين في تصديق زيد، وتكذيب عبد الله. فقيل لعبد الله: قد نزلت فيكَ آيات شديدة، فاذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لك، فألوى برأسه، فنزلت الآيات. خرَّجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ بمعناه. وقد تقدَّم أوَّل السورة[1].

وقيل: «يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ» يستتبكم من النفاق؛ لأنَّ التوبة استغفار. ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يُعرِضون عن الرسول متكبِّرين عن الإيمان[2].

---

(١) ص٤٩٤-٤٩٥ من هذا الجزء، والخبر ذكره الواقدي في المغازي ٢/ ٤١٥-٤١٨ ، وابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٢٩٠ وما بعدها، والواحدي في أسباب النزول ص٤٥٨-٤٦١ ، والبغوي في التفسير ٤/ ٣٤٨-٣٤٩ ، وأخرجه الطبري في التفسير ٢٢/ ٦٦٦-٦٦٩ عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر، وعن عبد الله ابن أبي بكر، وعن محمد بن يحيى بن حبَّان. قال: كلٌّ قد حدَّثني بعض حديث بني المصطلق. . . . الخبر».

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٧ .

وقرأ نافع: «لَوَوْا» بالتخفيف[١]. وشدَّد الباقون، واختاره أبو عبيد، وقال: هو فعل لجماعة. النحَّاس: وغلط في هذا؛ لأنَّه نزل في عبد الله بن أُبَيٍّ لما قيل له: تعالَ يَستغفرْ لك رسولُ الله ﷺ، حَرَّك رأسه استهزاءً. فإن قيل: كيف أخبر عنه بفعل الجماعة؟ قيل له: العرب تفعل هذا إذا كَنَّت عن الإنسان. أنشد سِيبويه لحسان:

ظننتم بأن يَخْفى الذي قد صنعتمُ   وفينا رسولٌ عنده الوَحْي واضِعُه[٢]

وإنَّما خاطب حَسَّانُ ابنَ الأبيرِق في شيء سَرَقه بمكَّة، وقصته مشهورة.

وقد يجوز أن يخبر عنه وعمَّن فعل فعله. وقيل: قال ابن أُبَيٍّ لمَّا لَوَى رأسه: أمرتموني أن أُومِن، فقد آمنت، وأن أُعطي زكاة مالي، فقد أعطيت، فما بقي إلا أن أسجد لمحمَّد[٣]!.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يعني كلّ ذلك سواء، لا ينفع استغفارك شيئاً؛ لأنَّ اللهَ لا يغفر لهم. نظيره: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]. وقد تقدَّم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أي: من سبَق في عِلْم الله أنَّه يموت فاسقاً.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾

ذكرنا سبب النزول فيما تقدَّم. وابن أُبَيٍّ قال: لا تُنفقوا على مَن عند محمَّد حتى

---

(١) السبعة ص٦٣٦، والتيسير ص٢١١.

(٢) سلف ٧/ ١١٤.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٦٥، والبغوي ٤/ ٣٥٠.

ينفضُّوا، حتى يتفرَّقوا عنه[١]. فأعلمهم الله سبحانه أنَّ خزائن السماوات والأرض له، يُنفِقُ كيف يشاء. قال رجل لحاتم الأَصَمِّ: من أين تأكل؟ فقال: «ولِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»[٢]. وقال الْجُنَيد: خزائن السماوات: الغيوب، وخزائن الأرض: القلوب؛ فهو عَلَّام الغيوب ومُقَلِّب القلوب[٣]. وكان الشِّبْليُّ يقول: «وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» فأين تذهبون. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أنه إذا أراد أمرًا يَسَّرَه.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

القائل ابن أُبَيٍّ، كما تقدَّم. وقيل: إنَّه لمَّا قال: «لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ» ورجع إلى المدينة لم يلبث إلا أيَّاماً يسيرة حتى مات، فاستغفر له رسول الله ﷺ، وألبسه قميصه، فنزلت هذه الآية: «لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ». وقد مضى بيان هذا كلِّه في سورة «براءة»[٤] مستوفًى. وروي أنَّ عبد الله بنَ عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول قال لأبيه: والذي لا إله إلا هو لا تدخل المدينة حتى تقول: إنَّ رسول الله ﷺ هو الأعزُّ وأنا الأذلُّ؛ فقاله[٥]. تَوَهَّمُوا أنَّ العزَّة بكثرة الأموال والأتباع، فبيَّن الله أنَّ

---

(١) الكشاف ٤/ ١١١ .

(٢) أخرجه البغدادي في تاريخ بغداد ٨/ ٢٤٤ ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٣٥).

(٣) تفسير الرازي ٣٠/ ١٥ .

(٤) ١٠/ ٣٢٠ .

(٥) أخرج الترمذي (٣٣١٥) عن جابر بن عبد الله أنه قال: كنَّا في غزاة ـ قال سفيان: يرون أنها غزوة بني المصطلق ـ فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال المهاجري: يَالَ المهاجرين. وقال الأنصاري: يَالَ الأنصار. فسمع ذلك النبيُّ ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية»؟ قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار. فقال رسول الله ﷺ: «دعوها؛ فإنها منتنة». فسمع ذلك عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول، فقال: أَوَقَدْ فعلوها، واللهِ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنقَ هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه». وقال غير عمر: فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله: واللهِ لا تنفلت حتى تُقِرَّ أنَّك الذليل، ورسول الله ﷺ العزيز، ففعل. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

العِزَّة والمَنَعَة والقُوَّة لله.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾

حذَّر المؤمنين أخلاقَ المنافقين، أي: لا تشتغلوا بأموالكم كما فعل المنافقون إذ قالوا - للشُّح بأموالهم -: لا تُنْفِقُوا على مَن عند رسول الله. ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الحجِّ والزكاة[١]. وقيل: عن قراءة القرآن. وقيل: عن إدامة الذكر[٢]. وقيل: عن الصلوات الخمس، قاله الضحاك[٣]. وقال الحسن: جميع الفرائض؛ كأنَّه قال: عن طاعة الله[٤]. وقيل: هو خطاب للمنافقين، أي: آمنتم بالقول فآمنوا بالقلب. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: من يشتغل بالمال والولد عن طاعة ربِّه[٥] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يدلُّ على وجوب تعجيل أداء الزكاة، ولا يجوز تأخيرها أصلاً[٦]. وكذلك سائر العبادات إذا تعيَّن وقتها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٢/٦٧٣ عن سفيان.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٧ .

(٣) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٧٠-٦٧١ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٥٠ .

(٦) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤١٧ .

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ سأل الرجعةَ إلى الدنيا ليعملَ صالحاً. وروى الترمذيُّ عن الضَّحَّاك بن مُزاحم، عن ابن عباس قال: من كان له مال يبلِّغه حجَّ بيتِ رَبِّه، أو تجب عليه فيه زكاةٌ، فلم يَفعلْ، سَأَلَ الرجعةَ عند الموت. فقال رجل: يا ابن عباس، اتَّقِ الله، إنَّما سأل الرجعةَ الكفَّارُ؟ فقال: سأتلو عليك بذلك قرآنًا: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ ولَاَ أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىَ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ» إلى قوله: «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» قال: فما يوجب الزكاة؟ قال: إذا بلغ المالُ مئتين فصاعداً. قال: فما يوجب الحجَّ؟ قال: الزاد والراحلة[١].

قلت: ذكره الحَلِيمِيُّ أبو عبد الله الحسين بن الحسن في كتاب «مِنهاج الدِّين»[٢] مرفوعاً فقال: وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «من كان عنده مال يبلّغه الحج. . .» الحديث؛ فذكره. وقد تقدَّم في «آل عمران» لفظه[٣].

الثالثة: قال ابن العربيِّ[٤]: أخذ ابن عباس بعموم الآية في إنفاق الواجب خاصَّةً دون النفل؛ فأمَّا تفسيره بالزكاة فصحيح كلُّه عموماً وتقديراً بالمئتين. وأما القول في الحجِّ ففيه إشكال؛ لأنَّا إن قلنا: إنَّ الحجَّ على التراخي، ففي المعصية في الموت قبل الحجِّ، خلاف بين العلماء؛ فلا تُخَرَّج الآية عليه. وإن قلنا: إنَّ الحجَّ على الفور، فالآية في العموم صحيح؛ لأنَّ من وجب عليه الحجُّ، فلم يؤدِّه، لَقيَ مِنَ الله ما يودُّ أنَّه رجع ليأتيَ بما ترك من العبادات. وأمَّا تقدير الأمر بالزاد والراحلة، ففي ذلك خلاف مشهور بين العلماء. وليس لكلام ابن عباس فيه مدخل؛ لأجل أنَّ الرجعة

(١) الترمذي (٣٣١٦)، وسلف ٥/ ٢٣٢ عن ابن عباس مرفوعاً. قال الترمذي عن الموقوف: وهذا أصح. . . .

(٢) ٢/ ٣٤١.

(٣) ٥/ ٢٣٢.

(٤) في أحكام القرآن له ٤/ ١٨٠١-١٨٠٢.

والوعيد لا يدخل في المسائل المجتهد فيها ولا المختلف عليها، وإنَّما يدخل في المتَّفق عليه. والصحيح تناوله للواجب من الإنفاق كيف تصرف بالإجماع أو بنص القرآن؛ لأجل أنَّ ما عدا ذلك لا يتطرَّق إليه تحقيق الوعيد.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هَلَّا[١]؛ فيكون استفهاماً. وقيل: «لا» صلة؛ فيكون الكلام بمعنى التمنِّي. ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ نصب على جواب التمنِّي بالفاء. ﴿وَأَكُن﴾ عطف على «فَأَصَّدَّقَ» وهي قراءة أبي عمرو وابن مُحَيْصِن ومجاهد. وقرأ الباقون: «وَأَكُنْ» بالجزم، عطفاً على موضع الفاء؛ لأنَّ قوله: «فَأَصَّدَّق» لو لم تكن الفاء، لكان مجزوماً، أي: أصدق. ومثله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ﴾ [الأعراف:١٨٦] فيمن جزم[٢]. قال ابن عباس: هذه الآية أشدُّ على أهل التوحيد؛ لأنَّه لا يتمنَّى الرجوع في الدنيا أو التأخير فيها أحدٌ له عند الله خير في الآخرة.

قلت: إلا الشهيدَ فإنَّه يتمنَّى الرجوع حتى يقتل؛ لما يرى من الكرامة. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشرٍّ[٣]. وقراءة العامة بالتاء على الخطاب. وقرأ أبو بكر عن عاصم والسُّلَميّ بالياء[٤]؛ على الخبر عمَّن مات وقال هذه المقالة.

تمت السورة بحمد الله وعونه

تم الجزء العشرون من تفسير القرطبي
ويليه الجزء الواحد والعشرون، ويبدأ بتفسير سورة التغابن

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣٦-٤٣٩، والقراءة في السبعة ص٦٣٧، والتيسير ص٢١١، والمحرر الوجيز ٥/ ٣١٦.

(٣) الوسيط ٤/ ٣٠٥.

(٤) السبعة ص٦٣٧، والتيسير ص٢١١.

فهرس الجزء العشرين